



# إيقانبرو

مجلة  
الأبت ساما

\*\* معرفتي \*\*

[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)

منتديات مجلة الإبتسامة



تأليف: سير ولتر سكوت  
ترجمة: مُراد التّزمرّ  
مراجعة: مُصطفى حبيب

الرافة

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

# إيقانرو

بإشراف  
الإدارة العامة للثقافة  
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة  
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب  
والعلوم الاجتماعية

# إيقانرو

تأليف

سير ولتر سكوت

ترجمه

مصطفى حبيب

ترجمه

مراد التزم

الناشر

دار نهضة مصر

الطبع والنشر

القاهرة

١٩٦٦

www.ibtesama.com  
منتديات مجلة الإبتسامه

هذه ترجمة كتاب

**IVANHOE**

تأليف

**SIR WALTER SCOTT**

## الفصل الأول

وهكذا اجتمع هؤلاء

بينما عادت الخنازير السمينة في المساء  
إلى حظائرهما العديدة مسوقة غير راضية  
تبعث زئيراً عالياً وصيحات جاحدة .

( أود سابوب )

في قديم الزمان كانت تمتد في تلك المقاطعة البهيجة من إنجلترا السعيدة  
عظمى كان يرونها نهر « الدون » ، غابة ضخمة تكسو الجزء الأكبر من الربيعي  
والواديان الجميلة التي تقع بين « شفيدل » ، وبين مدينة « دونكاستر » ، الأخاذة  
ولا يزال الناس يرون بقايا تلك الغابة الشاسعة في مواطن نبلاء « وتورث » ،  
وحدائق « وارنكليف » ، وحول « روفرهام » .

هنا كان يتردد في الأيام الخوالي تنين « وانتلي » ، الأسطوري ، وهنا  
دارت رحى أشد المعارك اشتعالاً في أثناء حرب الوردتين الأهلية ، وهنا  
ازدهرت في العصور القديمة أيضاً عصابات الخارجين على القانون البواسل  
الذين أكسبت الأغنية الإنجليزية أعمالهم شعبية كبيرة .

هنا وقعت أحداثنا ، ويشير تاريخ قصتنا هذه إلى حقبة من الزمان  
عندما أو شك حكم « ريتشارد الأول » ، على الزوال ، وعندما كانت عودته  
من أسره الذي طال مداه حدثاً مرغوباً فيه أكثر مما كان أملاً مرتقباً  
لرعاياه القانطين الذين كانوا في تلك الأثناء يعانون جميع ألوان العصف

المذل ، أما النبلاء الذين كان نفوذهم إبان حكم الملك « ستيفن » قد جاوز المدى ، والذين لم يخضعهم الملك « هنرى الثاني » للتاج إلا بمقدار ، فقد عادت إليهم الآن حرياتهم السابقة إلى أوسع آفاقها ، وكانوا يزدرون التدخل الواهن لمجلس الدولة الانجليزي ، ويحصنون قصورهم ، ويضيفون إلى أتباعهم مزيداً ، ويفرضون سلطانهم على كل محيطهم ، ويعملون قدر طاقاتهم وبكل الأساليب على أن ينصبوا أنفسهم كلا على رأس ما يستطيع جمعه من قوات تمكنه من أن يبرز على سواه في الأحداث الوطنية التي كانت تبدو وشيكة الوقوع .

أما السادة الأقل نبلاً - أو « الفرانكين » كما كان يطلق عليهم والذين نصت القوانين الانجليزية وروح الدستور على حقهم في أن يبقوا مستقلين عن سطوة الإقطاع - فقد غدوا في حالة غير طبيعية من الضيق والخرج فلو أنهم - كما كان الحال في غالب الأحيان - وضعوا أنفسهم في حمى واحد من صفار الملوك المجاورين لهم ، أو تولوا المناصب في بلاطه ، أو ربطوا أنفسهم بمعاهدات تحالف متبادلة أملوا في حمايته لهم ومؤازرته في مشروعاته ، لاستطاعوا حقاً أن ينعموا بالراحة المؤقتة ، ولكنهم يعملهم هذا إنما يضحون بذلك الاستقلال الذي كان عزيزاً على قلب كل انجليزي ، وسوف يكون هناك احتمال أكيد بالزج بهم كطرف في أية حملة حقاء قد يدفع الطموح بحاميتهم إلى خوضها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن وسائل الاستفزاز والإكراه التي كان يتدعها كبار الإقطاعيين كانت من التعدد والتنوع بحيث إنهم ما كانت تعوزهم المعاذير ، ونادراً ما كانت تنقصهم الإرادة في أن يبعثوا الضيق في نفس أى من جيرانهم الضعفاء وملاحقتهم حتى إلى حافة الهلاك ، أولئك الجيران الذين عملوا جاهدين على الانفصال عن سلطان الإقطاعيين ، وعدم الالتجاء إلى حمايتهم خلال مخاطر تلك الأزمان ، بل عمدوا إلى سلوكهم الشخصي السلي وإلى قوانين البلاد .



وكان من الامور التي ساعدت كثيراً على إبراز ظلم النبلاء وإظهار آلام الطبقات الدنيا ، تلك النتائج التي ترتبت على الغزو الذي شنه وليام دوق نورمانديا ، فلم تكن أربعة أجيال كافية لأن تمزج دم النورمانديين بدم الانجلوساكسونيين المتنافرين ، أو لجمع جنسين غير مؤتلفين في لغة واحدة ومصالح مشتركة ، أحدهما لا يزال يشعر بنشوة النصر ، والآخر يتنويرزح تحت عبء الهزيمة ، وقد وضعت السلطة كاملة في أيدي النبلاء النورمانديين نتيجة لمعركة هاستنجز، فاستغلواها - كما يؤكد ورخونا - أسوأ استغلال وسلبوا طبقة الأمراء والنبلاء جميعها من كل ما تملك ، وجردوها من أموالها ماعدا قلة يسيرة منها أو دون استثناء ، وما كان عدد الذين يمتلكون الأرض في بلاد آباتهم كبيراً وحتى كلاك من الطبقة الثانية أو مادونها من طبقات ، وكانت السياسة الملكية لحقبة طويلة من الزمان تهدف إلى الوصول بكافة الطرق ، سواء أ كانت مشروعة أم غير مشروعة ، إلى إضعاف جزء من الشعب كان يعتبر بحق طاوى الصدر على كراهية شديدة للمتصر ؛ هذا وقد أبدى جميع الملوك النورمانديين أشد العطف على رعاياهم من أبناء جلدتهم ، فلم تكن قوانين الصيد وكثير غيرها مما لم تكن معروفة في الدستور الساكوني الذي كان أكثر الدساتير إغراقاً في الرفق والتحرر . قد علفت فوق رقاب الأهالي المغلوبين على أمرهم لتضيف عبثاً جديداً إلى أغلال الإقطاع التي كانت تصفدهم ، ففي البلاط وفي قصور النبلاء العظام حيث الأبهة والروعة ، كانت اللغة النورماندية الفرنسية هي اللغة الوحيدة السائدة ، وكانت المرافعات في المحاكم تترى والأحكام تصدر باللغة نفسها ، وقصارى القول فقد كانت الفرنسية لغة الشرف والفروسية وحتى العدالة ، بينما كانت اللغة الانجلوساكسونية التي تفيض رجولة وبياناً لا يستعملها إلا الفلاحون والأجراء الذين كانوا لا يعرفون سواها .

ولكن على الرغم من كل هذا فإن العلاقات المحتومة بين سادة الأرض وبين هذه المخلوقات الدنيا المستعبدة التي كانت تفلح الأرض قد أنشأت تدريجياً

لهجة يستطيعون التفاهم بها وهي مزيج من الفرنسية والانجلوساكسونية ، ومن هذه الضرورة نشأ على مر الأيام هيكل لغتنا الانجليزية الحالية حيث امتزجت لغتا المنتصر والمهزوم على السواء ، وأدخلت عليها تحسينات كثيرة منذ ذلك الحين بما أضيف إليها من اللغات الكلاسيكية التي كانت شعوب جنوبي أوروبا تتحدث بها .

لقد رأيت لزاما على أن أورد هذه العجالة لكي يعلم القارىء الذى قد ينسى أنه على الرغم من أن وجود الانجلوساكسونيين كشعب مستقل حتى حكم الملك وليام الثانى لا تميزه أحداث تاريخية ضخام مثل الحرب أو الثورة ، إلا أن الفراق الوطنية الكبيرة بينهم وبين غزاتهم ، وذكرى ما كانوا عليه فيما مضى ، وما أصبحوا يتأثرونه اليوم ، كل هذا ظل حتى عهد إدوارد الثالث يدمى الجراح التي خلفها الغزو ، وبقيم سداً بين سلالة النورمانديين المنتصرين والساكسونيين المغلوبين على أمرهم .

كانت الشمس تغرب على بقعة غزيرة العشب من تلك الغابة التي أشرنا إليها في بدء هذا الفصل ، وفيها مئات من أشجار البلوط ذوات الرؤوس العريضة والجذوع القصيرة والأغصان الوارفة ، ومن المحتمل أن تكون قد شهدت الزحف الوئيد لجنود الرومان . كانت تلك الأشجار تدلى أفرعها المثنية على بساط سميك من العشب الأخضر رائع الجمال ، وكانت في بعض الأماكن تختلط بأشجار الزان والبان والحور المتباينة الأشكال ، والتي بلغت من الكثافة حداً جعلها تحجب الأشعة الأفقية للشمس الغاربة كل الاحتجاب ، وكانت في أماكن أخرى متباعدة عن بعضها البعض مكونة تلك المرأى المنبسطة التي يبهج العين أن تسبح في دقائقها ، بينما تراها الخيلة دروبا تؤدي إلى مناظر أكثر قفرا من جراه الوحدة الموحشة .

هنا كانت أشعة الشمس الحمراء تبعث ضوءاً متقطعاً يملق جزئياً بالأغصان المتناثرة والجذوع المخضرة لتلك الأشجار ، وهناك كانت أشعة الشمس تضيء

مساحات زاهية من الأماكن المكسوة بالعشب وتشق طريقها بين هذه البقاع ، وفي وسط تلك الرقاع كان هناك مكان رحب غير مستور يبدو وكأنه كان مخصصا من قبل لأداء بعض الطقوس الوثنية ، فلا يزال يوجد على قمة ربوة صغيرة جزء من دائرة من أحجار كبيرة الحجم خشنة غير مشذبة، وقفت سبعة منها منتصبة ، وأما الباقيات فقد نقلت من أماكنها ربما بسبب حماس بعض أولئك الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية حديثاً ، كانت متناثرة، بعضها منكىء بالقرب من مواضعها السابقة ، وبعضها الآخر على جانب الربوة . وجدت صخرة واحدة كبيرة طريقها إلى قاع جدول صغير كان ينساب في ميسر حول قاعدة الربوة فاعترضت مجراه ، وبعثت بمقاومتها له صوتا خفيفا في ذلك الجدول الهادي الصامت يتردد في سائر مجراه .

كان عدد الأشخاص الذين يتممون هذا المنظر اثنين يتشابهان في رداءيهما ومظهريهما مع ذلك الطابع الريفي المميز لمنطقة الغابات في « وست رايدنج » بمقاطعة « يورك شائر » إبان تلك الحقبة المبكرة .

كان لأكبرهما سنا منظر صارم ومظهر ينم عن الوحشية ، وكان ثوبه في أبسط صورة يمكن أن يتخيله المرء ، عبارة عن سترة ضيقة لها كان مصنوعة من جلد مدبوغ لحيوان ما ، وقد ترك عليها شعره الأصلي ولكنه تطاير في أماكن متعددة منها حتى أصبح من العسير على المرء أن يميز عما تبقى من رفاق لأي حيوان كان هذا الفراء ، وكان ذلك الرداء البدائي يكسوه من العنق إلى الركبتين ، وبنى في الوقت نفسه بجميع الأغراض التي تستر الجسد ، ولم يكن هناك في فتحة العنق الواسعة أكثر مما يسمح بمرور الرأس مما يتبين معه أنه ينزلق من فوق الرأس والكتفين على نسق القميص الحديث أو الصدرية القديمة . وكان يحمي قدميه بخفين مثبتين بشرائح من جلد الخنزير البري ، كما أن شريحة من الجلد الرقيق كانت تلتف بإحكام حول الساقين وتصل إلى ما فوق متوسطها تاركة الركبتين عاريتين كركبتي رجل من سكان الجبال

الاسكتلندية، ولكي تلتصق السترة بالجسد بوسيلة أكثر إحكاما فقد ضمها عند وسطها بحزام جلدى عريض مثبت بمشبك من نحاس، تدلت من أحد جانبيه شارة نحاسية، وفي الجانب الآخر بوق ينفخ فيه للنداء. وكانت توجد أيضا في نفس الحزام سكين من تلك الأسلحة الطويلة العريضة المدية ذوات النصلين ولها مقبض من قرن الماشية كان يصنع في الرقاع المتاخمة، وتحمل حتى منذ ذلك الوقت السحوق اسم أحد صانعي الأسلحة بمدينة « شيفلد ».

لم يكن على رأس الرجل غطاء ما، بل كان يحميه شعره الكثيف المصنف المعقوف الذي لفجته الشمس فأحاطته إلى لون أحمر قائم كلون الصدا، متباينا مع اللحية التي مالت إلى الاصفرار أو إلى اللون العنبري. بقي هناك جزء واحد من رداؤه ولكنه خليق بالانتباه لا يمكن إغفاله، إنه حلقة من نحاس تشبه طوق الكلب ملتحمة بغير فتحات، ملتفة حول عنقه، واسعة بحيث لا تعوقه عن التنفس ولكنها مع ذلك محكمة فلا يمكن خلعها إلا بآلة حادة (مبرد). وعلى هذه القلادة الغريبة نقشت العبارة التالية بحروف ساكسونية « جيرث بن بيولف، إنه منذ مولده عبد لسيدريك أوث روفر وود ».

وإلى جوار راعي الخنازير - لأن تلك كانت مهنة جيرث - جلس على أحد النصب التذكارية المتداعية شخص يبدو أصغر منه سنا بحوالي عشر سنوات، ويشبه ثوبه رداء رقيقه في هيئته وإن كان من خامة أفضل ومظهر أبهى. كانت سترته مصبوغة بلون أرجواني زاه مع محاولة لرسم زخارف بسيطة بألوان مختلفة، وأضاف إلى سترته مغطا قصيرا لا يكاد يصل إلى منتصف الفخذين، مصنوعا من قماش أحمر ولكنه شديد القذارة، ذابطانة لونها أصفر براق، ولما كان في استطاعته أن ينقله من أحد كتفيه إلى الآخر أو يلفه حول جسده كله إذا شاء، فإن عرضه ما كان يتلام مع قصره مما جعل

منه نوعا شاذا من الثياب ، وكان يضع حول ذراعيه أساور رفيعة من فضة ،  
وحول عنقه أساور من المعدن نقش عليها « وامبا بن ويتلس عبد  
لسيريك أوف رود وود » ، وكان هذا الرجل ينتعل حذاء مثل ذلك  
الذى ينتعله رفيقه ، ولكنه كان يحمي ساقيه بحفاظ من الجلد السميك  
( زوج تزلج ) أحدهما أحمر والآخر أصفر عوضا عن الشرائح الجلدية ،  
ويضع على رأسه قبعة علق حولها أكثر من جرس في حجم تلك التي تعلق  
للصقور ، ينبعث منها الرنين كلما حرك رأسه يمنة أو يسرة ، ولما كان قليلا  
ما يستقر دقيقة واحدة في وضع بعينه فإنك تستطيع أن تعتبر الرنين متصلا .

وحول حافة قبعته شريط من الجلد الصلد لا غطاء فيه للرأس يشبه  
حلقات الزهور المصفورة ، تتدلى منها مخللة طويلة تسقط على أحد الكتفين  
كغطاء ليلي للرأس من طراز قديم ، أو كذلك الحفاظ الذي يحتوي الجنين  
في بطن أمه ، أو كغطاء لرأس أحد فرسان الهوسار في العصر الحديث .  
كانت الأجراس مثبتة بذلك الجزء من القبعة ، هذا بالإضافة إلى منظر القبعة  
نفسها ، قسماته التي تقسم بالبله حيناً ، وبالمكر حيناً آخر . كان هذا كله  
كافيا للدلالة على أنه أحد المهرجين أو المضحكين الذين يعيشون في منازل  
الأترياء ليعيشوا فيهم المسرة والسلى في تلك الساعات التي تمضي بطيئة ثقيلة ،  
والتي كان عليهم أن يقضوها داخل دورم ، وكان كرفيقه يحمل شارة  
معدنية مدلاة من حزامه ، ولكن لم يكن معه بوق ولا سكين لأنه ربما يعتبر  
أحد أفراد طبقة قد يكون من الحظر السماح لها بامتلاك أسلحة حادة ، وبدلا من  
هذه فقد كان يحمل سيفا خشبيا شبيها بذلك الذي يؤدي به الحواة العاهلهم  
على المسرح :

كان المظهر الخارجي لهذين الرجلين أكثر غموضا من دغائلهما وسلوكهما .  
كان وجه العبد حزينا منجهما ، وكان يبدو منحنيا تجاه الأرض في اكتاب  
شديد بحالة يمكن تفسيرها بأنها غباء لولم يوح الوهج الذي يشع أحيانا من

عينه المحمرة بأن تحت مظهر هذا الجود الحامد يكمن الشعور بالاضطهاد والاستعداد للقاومة، ومن جهة أخرى فقد كانت نظرات « واما ، كألوف من هم على شاكلته توحى بفضول أجوف ، وتملئ ضجر من بقاء رأسه في وضع معين ، هذا بالإضافة إلى شدة إغراقه في اعتداده بنفسه وبمركزه ومظهره الخارجى .

كان الحوار بينهما يدور باللغة الأنجلوساكسونية التي كانت كما سبق لنا أن أوردنا سائدة بين الطبقات الدنيا ماعدا الجنود النورماندين والأتباع الخصوصيين لكبار السادة الإقطاعيين ، ولكننا لو نقلنا حوارها بلفتها الأصلية لما قدمنا شيئا يذكر للقارىء الحديث الذى نورد لصالحه الترجمة التالية :

— « لعنة القديس « ويثولد ، على هذه الخنازير اللعينة ، . هكذا قال راعيها بعد أن نفخ في بوقه بشدة لكي يجمع شتات قطيعه المتناثر الذى على الرغم من أنه قد استجاب لندائه بأصوات فيها نغم ، إلا أنه تلكأ في التخلي عن الوليمة الشهية من ثمار أشجار الزان والجذوع التي كانت غداء دسما له ، أو يترك ضفاف الجدول التي كساها العشب حيث رقد الكثير فيها مسترخيا نصف غارق في الوحل ، غير آبه أبداً بنداء الراعى .

ثم استرسل جيرث قائلا :

— « لعنة القديس « ويثولد، هليهاو على ، . إذا لم يلتمهم الذئب ذوالساقين بعضها قبل أن يرخى الليل أستاره فإني لست رجلا حقا . تعال إلى يا « فانجز ، ! « فانجز ، ! هكذا صاح مناديا بأعلى صوته على كلب أشعث الشعر ، يبدو وكأنه ذئب ، وهو نوع من الخليط ، نصفه كلب حراسة والنصف الآخر كلب صيد ، لجري يعرج كما لو كان يهدف إلى مساعدة سيده في جمع الخنازير الشاردة ، ولكنه في الواقع—ربما عن عدم فهم لإشارات الراعى أو جهل

بواجباته أو سوء طويته - قد ساقها أمامه هنا وهناك وزاد الحالة التي تظاهر بإصلاحها سوءا فقال « جيرث » .

- « ليت شيطاننا ينتزع منه أنيابه ، ولتلعن أم الشر حارس الغابة الذي يقلم الأظافر الأمامية لكلابنا ويجعلها غير صالحة للقيام بعملها . انفض ياه وامبا ، وساعدني إن كنت رجلا . دُر حول التل لتبتعد عن مهب الريح ، فإذا ما بلغت مكان قياس الطقس ، فإنك تستطيع أن تسوقها أمامك في غير مشقة كما لو كانت قطعة من الحملان البريئة » . فقال « وامبا ، دون أن يبدى حراكا :

- « حقا لقد استشرت ساقى في هذا الأمر فإذا بهما مقتنعتان كل الاقتناع بأن الذهاب بثنياي الجميلة في هذه الأحوال يعتبر عملا عدائيا لشخصي المبجل وردائي الملكي ، وعلى هذا فإنني أسدى إليك النصيح ياه جيرث ، بأن تدعوك إليك « فأنجز » ، وتدع خنازير القطيع لمصيرها التي سواء أقابلت جماعات من الجنود المسافرين ، أم من الخارجين على القانون ، أم من الحجاج الجائلين ، فلن يكون هناك من شيء سوى تحويلها إلى نورمانديين قبل نور الصباح وفي هذا راحتك العظمى » .

٢

فقال « جيرث » :

- « الخنازير تتحول إلى نورمانديين لراحتي ! ؟ أفصح لي عن هذا ياه وامبا ، فإن عقلي جامد أشد الجمود ، وذهنى في حيرة مُرة فلا قدرة لي على حل الألغاز » .

فقال « وامبا ، قائلا :

- « ماذا تسمى هذه الحيوانات المزججة التي تجرى على أربع ؟ » ، فأجاب الراعى :

— « اسمها خنازير أيها الأحمق ... خنازير ... أي أبله يعرف ذلك ،  
فقال المهرج :

— « وكلمة خنازير كلمة ساكسونية أصيلة ، ولكن بماذا تسمى أشي  
الخنزير عندما تذبح وتسلخ وتقطع إرباً ثم تعلق من عرقوبها مثلها في ذلك  
مثل الخائن ؟ ، فأجاب الراعي :

— « لحم خنزير ، . فقال « وامبا ، :

— « إنى مبتجع أشد البهجة لأن أي أبله يعرف ذلك ، وأظن أن كلمة  
« لحم خنزير ، كلمة نورماندية فرنسية أصيلة ، وهكذا عندما يكون الحيوان  
حياً ويقوم على رعايته عبد ساكسون فإنه يسمى باسمه الساكسوني ، ولكنه  
بعد ذلك يغدو نورماندياً ويسمى « لحم خنزير ، عندما يحمّلونه إلى القصور  
لولاثم النبلاء ... ما رأيك في هذا يا صديقي « جيرث ، . إه ؟ ، فقال :

— « إنها نظرية صادقة كل الصدق يا عزيزي « وامبا ، على الرغم من  
صدورها عن رأسك الأبله ، .

— « كلا ، إنى أستطيع أن أقول لك المزيد ، . هكذا قال « وامبا ،  
بنفس اللهجة ، « هناك شيخ البلد الثور المسن ، إنه يحتفظ بلقبه الساكسوني  
طالما كان العبيد والأتباع من أمثالك يقومون على رعايته ، ولكنه يغدو  
«لحماً بقرياً ، أي شواء فرنسياً فاحراً عندما يصبح في تناول الأفواه الموقرة  
التي قدر لها أن تلتهمه ، وبنفس الأسلوب أيضاً يصبح السيد «عجل ، مسمى  
باسم «لحم كندوز ، . إنه ساكسوني طالما كان في حاجة إلى الرعاية ، وبعد  
ذلك يغدو نورماندياً عندما يصبح مادة للتباع ، . فأجاب « جيرث ، :

— « أقدم بالقديس «دانتان ، على أنك تفوه بحقائق تنطوي على الأسي .  
لم يبق لنا إلا الهواء الذي نستنشقه ، ويبدو لي أنه قد ترك لنا بعد كثير من  
الإحجام لاشي . إلا لكي نقوى على احتمال المشاق التي يلقون بها على متوننا .



لقد احتفظوا بأكثرنا حسنا لمخازنهم ، وبأكثرنا جمالا لمضاجعهم ، وبأفضلنا وأشجعنا لتزويد ساداتهم الأجانب بالجنود ، ولكي ينثروا عظامنا على الأراضى القصية حتى تصبح يعضاء ، غير تاركين هنا سوى قلة من ذوى الإرادة أو القوة لحماية الساكسونيين النساء . فليبارك الله مخدومنا « سيدريك » فقد قام بعمل ينطوى على الرجولة عندما وقف يجابه التيار ولكن « ريجنولد فرونديبيف » ، قدم بنفسه إلى هذا المكان وسوف نرى عما قريب إلى أى مدى سيعود عمل « سيدريك » عليه بالنفع . ثم صاح مرة أخرى « هنا ، هنا ، لقد أحسنت يا « فانجز » ، لقد جمعتها كلها أمامك الآن ، وهانت ذا تسوقها ببسالة أيها الصبي . وقال المهرج :

— « أعلم يا « جيرث » ، ما يدور بخلدك من أننى مختل العقل وإلا ما خاطرت بوضع رأسك فى فمى . كلة واحدة يبعث بها إلى « ريجنولد فرونديبيف » ، أو « فيليب دى مالفوازان » ، بأنك تتحدث بالخيانة ضد النورماندين فتصبح راعيا منبوذا ، وتأرجح على إحدى هذه الأشجار عبرة لكل من يرمون العظاء بالسوء . فقال « جيرث » :

— « أتعمد إلى خيأتى أيها الكلب بعد أن أوقعت بى من قول يديتنى؟ »  
فأجاب المهرج :

— « أخونك ا كلا ، إنها خدعة رجل عاقل ، أما الأبله فلا يعرف كيف يقتنص مثل هذه الفرص ، ولكن اخفض من صوتك ! من هنا معنا؟ » قال ذلك وهو يرهف الأذن إلى خطى بعض الخيول التى أصبحت آنذاك تنقر السمع .

فأجاب « جيرث » ، الذى كان يسوق قطيعه أمامه يعاونه « فانجز » ، تجاه جزء معتم من الغابة فى تلك النواحي التى حاولنا وصفها .

- « لا تعبا بذلك ، . فقال « وامبا ، :

- « كلا ، ولكن ينبغي أن أرى الفرسان ، فمن المحتمل أن يكونوا قادمين من بلاد الجن حاملين رسالة من الملك « أويرون ، فقال الراعي :

- « فليود بك وباه ! أتحدث عن مثل هذه الأشياء بينما تعصف على بعد عدة أميال منا عاصفة رهيبة من الرعد والوميض ! أصغ إلى الرعد كيف يدوى ويقصف ، أما فيما يتعلق بمطار الصيف فإني لم أر قط مثل هذه القطرات الغزيرة تتساقط من السحب . وأشجار البلوط أيضاً ، إنها تنهت على الرغم من الجو الهادي ، وأغصانها الضخمة تهتز بعنف وكأنها تنهى عن مقدم للعاصفة . إنك تستطيع أن تمثل دور الرجل العاقل عندما تشاء ، فاستمع إلى مرة واحدة ولنعد إلى المنزل قبل بدء العاصفة لأن الليل سيكون رهيباً .

بدأ علي « وامبا ، أنه أحس بقوة هذا النداء ، ورافق صاحبه الذي بدأ رحلته بعد أن أمسك بعصا طويلة كانت ملقاة إلى جواره على العشب ، وسار هذا « الإيمايوس ، الثاني مسرعاً في عمر الغابة يسوق أمامه بمساعدة « فانجوز « كل القطيع المتناثر المنوط به رعايته .

## الفصل الثاني

كان هناك راهب يحب للغموض  
سباق يهوى الصيد  
مكتمل الرجولة يلبق بأن يكون رئيس دير قدير  
يمتلك في حظيرته عددا كبيرا من الجياد  
فإذا ما امتطى صهوة جواد سمع الجميع صوت عنانه  
يرن واضحا كصفير الرياح  
عالياً أيضاً كصوت ناقوس الكنيسة  
هناك كان ذلك السيد حارساً للزنازة :

( شومر )

على الرغم من سحر رقيقه له وزجره إياه بين حين وحين لأن ضوضاء  
أقدام الفرسان كانت لا تكف عن الاقتراب ، إلا أنه لم يكن من المستطاع  
منع دامبا ، من التلكؤ على الطريق في بعض الأحيان ملتصقا لنفسه  
أى عنق قد يخطر بباله ، فكان حيننا يقطف من الأشجار ثمرات الجوز التي  
لم يكتمل نضجها بعد ، وحيننا آخر يتلفت لبيتسم لإحدى صبايا الأكواخ  
اللواتي كن يسلكن طريقهما ، ولذا فسرعان ما أدركهما الفرسان على الطريق .  
كان عددهم عشرة رجال يبدو على الاثنىين الراكبين في المقدمة  
أنها شخصان مرموقان ، وأما الآخرون فكانوا أتباعا لهما ، ولم يكن من  
العسير التحقق من صفة واحد من هذين الرجلين ومكانته ، فقد كان واضحا  
أنه من رجال الدين ذوى المراكز السامية ، يرتدى ثوبا من ثياب طائفة  
رهبان ، السترشيان ، ولكنه مصنوع من نسيج يفوق في أهته ما كانت

تسمع به أنظمة هذه الطائفة ، وكان معطفه وغطاء رأسه من أخفر منسوجات « الفلاندرز ، يتهدل في ثنيات واسعة ولا يخلو من أناقة ، يتدثر به شخص وسيم ولكنه كان يميل إلى البدانة بعض الشيء ، وكان مظهره لا يدل على الزهد وإنكار الذات كما لم يكن ثوبه يوحي بازدرائه للدينيات . كان من المستطاع أن تصنف سماته بالطيبة لو لم يكن في زاويتي عينه ذلك البريق المشع بالشهوة الخبيثة التي تنفضح الشهوات الحذر ، أما في النواحي الأخرى فإن عمله ومكاته قد علماه كيف يسرع في السيطرة على قسرات وجهه التي كان في استطاعته أن يقبضها في جد وفق إرادته ولو أن في طابعها العادي التسامح الاجتماعي الباش ، وخلافا للقواعد المرعية وأوامر البابوات ومجلس الكنيسة فإن أكمام رجل الدين هذا كانت محلاة ببطانة من الفراء الثمين تبدو من ثناياها ، وكان معطفه مثبتا عند العنق بمشبك ذهبي ، وكان الرداء في جلته يتفق مع أردية طائفته إلا أنه مزدان زينة إحدى حسان طائفة « الكويكر ، في أيامنا هذه ، ففي الوقت الذي تلمسك فيه بمظهر طائفتها وأرديتها ، فهي تصنع على بساطتها بانتقاء الحامات وطريقة الاستعمال لونا من الجاذبية الأثوية تتفجر منها رائحة غرور الدنيا .

كان رجل الدين الموقر هذا يمتطي بغلة سمينة سريعة الخطى ، كساؤها محملي بأجل زينة ، وعنائها مزدان بأجراس من فضة وفقا لما كان شائعا في ذلك العصر . ولم يكن يبدو عليه وهو في جلسته شيء من جهود الدير ، بل كان يبدو في رشاقة فارس ذي مران ، وكان في الحقيقة يبدو أن تلك الوسيلة المتواضعة للتنقل ألا وهي البغلة مها كانت في حالة طيبة ومدربة على المسير المريح الهين ، فإنها لم تكن لتصلح إلا لسفر الراهب المقدام على الطريق . كان هناك رجل ممن جاءوا في مؤخر الركب يقود له جوادا من أخفر الجياد الأسبانية المولودة في « اندالوسيا ، لاستعماله في مآرب أخرى ، وكان التجار في ذلك الحين يستوردونها بمشقة ومخاطرة

شديتين ، ولا يقنيتها إلا ذوو الثراء والجاه ، وكان السرج وسائر معدات هذا الجواد الرامع مكسوة بفضاء طويل مدلى يكاد يصل إلى سطح الأرض ، وقد نقشت عليه تيجان كنانسية وصلبان وشارات كهنوتية أخرى . وهناك راهب آخر يقود بغلة أثقالٍ تحمل متاع رئيسه ، وراهبان آخران من طائفته نفسها ولكنها من مرتبة أدنى ، يركبان معافى المؤخرة ويضحكان ويتحدثان مع بعضها البعض دون أن يعبرا باقى أفراد الركب التفاتاً كبيراً .

كان المرافق لرجل الدين الموقر شخصاً جاوز الأربعين من عمره ، نحيلاً قوياً طويل القامة ذا عضلات مفتولة ، رياضى الجسد لم يدع فيه الجهدُ الشاق والدأب على المران شيئاً من الجزء الرخو للجسم البشرى ، فقد أحاله كله إلى جلد وعظم وعضلات تكبدت من المشاق ألفاً ، وعلى أهبة الاستعداد لمجاهة ألف أخرى ، وكان رأسه مغطى بقبعة قرمزية مزدانة في مقدمتها بفراء من ذلك النوع الذى يطلق عليه الفرنسيون اسم « مورتيه » ، أى « الهاون » ، لأنها تشبه الهاون المقلوب ، لذلك فقد كانت سماته واضحة كل الوضوح ، ومرآها يوحى إلى الغرباء بشيء من الرهبة إن لم يكن بالخوف . كانت ملامحه واضحة صارمة بطبيعتها ، قوية التعبير ، يميل لون بشرته إلى سواد الزنوج من جراء التعرض للشمس الافتوائية ، ويمكن فى حالتها العادية أن توصف بالهدوء بعد أن تمر بها عاصفة من الانفعالات ، ولكن برُوز عزوق جبينه ، والسرعة التى كانت ترتعدها شفته العليا ، وشاربه الأسود الكثيف ، كانت تم بوضوح على أن العاصفة يمكن إثارتها من جديد وفى غير جهد ، وكانت عيناه الحادتان الفاحستان الهداكتان ترويان فى كل نظرة تاريخاً عن الصعاب التى ذلك والاختار التى واجهتهم ، وتبدوان وكأنهما تتحديان أى معارضة لرغباته فى سبيل متعة اكتساحها من طريقه بالشجاعة ، والإرادة ، والصلابة . وهناك على جبينه ندبة عميقة أضفت على سماته صرامة وبريقاً مرعباً يشع من إحدى عينيه التى أصيبت إصابة طفيفة

في نفس الظروف، والتي وإن كان إبهارها لم يمسه مُضر، إلا أنها كانت حوله بعض الشيء، وكان ثوبه الخارجي يشبه في مظهره ثوب رقيقه، وهو عبارة عن عباءة رهبانية طويلة إلا أن لونها القرمزي يشير إلى أنه لا يتبع أي طائفة من الطوائف النظامية الأربع للرهبان، وقد وُضع على الكتف الأيمن للعباءة صليب غريب الشكل مصنوع على نسق خاص من قماش أبيض، والثوب الخارجي يخفى ما كان يبدو للوهلة الأولى متنافراً مع مرآه، وهو قبص من الزرد له كُتبان وقفازان من نفس النوع، مجدول متداخل في بعضه البعض على صورة غريبة، ينثنى مع الجسد ويشبه تلك الأقصة التي تصنع من مواد أقل صلابة في أيامنا هذه بوساطة أنوال النسيج، أما الجزء الأمامي من نخديه الذي كان يظهر من خلال طيات عبائه فكان مكسواً بالزرد أيضاً، وتحمي الركبتين والقدمين جباثر أو لوحات رقيقة من الصلب موثقة إلى بعضها البعض بمحق، وجورب من الزرد يمتد من مفصل القدم إلى الركبة، وكان يحمي الساقين حقاً ويكمل الدرع الواقى للفارس. وكان يتمنطق بمخنجر طويل ذي نصلين يتدلى من حزامه، وكان هذا هو السلاح الهجومي الوحيد الذي يحمله.

لم يكن يمتطي بغلة كصاحبه، بل صهوة جواد قوى مدرب على الأسفار إبقاء على جواده المخصص للقتال، يقوده وصيف من ورائه وقد أعدّ إعداداً كاملاً للنزال، مكسو الرأس بدرع من نوع خاص تبرز من مقدمه حربة قصيرة، وتدلّت في أحد جانبي السرج فأس قتال صغيرة، وفي الجانب الآخر غطاء رأس الفارس مزدان بالرياش وقناع من الزرد، وصيف طويل مزدوج المقبض مما كان يستعمله فرسان ذلك العصر، وهناك وصيف آخر يحمل ربح سيده عالياً يرفرف على فته علم صغير على شكل شريط، وقد نقش عليه صليب مثل ذلك الصليب المنقوش على العباءة، وكان هذا الرجل يحمل أيضاً درعا صغيراً مثلك الشكل، عريضا في أعلاه لحماية الصدر ثم ينتهي مديا ومغطى بقماش قرمزي يحجب الشعار المرسوم عليه.

ويأتى من وراء هذين الوصيفين تابعان تدل سمرة وجهيهما وعمامتهما  
فالبياضوان وملابسهما الشرقية على أنهما من أهالي إقليم شرقي قصي ، وبالجملة  
فقد كان المظهر العام لهذا المحارب وبطائه ميبيا غريبا .

كانت أردية وصيفيه فاخرة حقا ، وكان كل من تابعيه الشرقيين يلف  
حول عنقه طوقا من فضة ، وحول ساقيه وذراعيه المفتولتين أساور من  
المعدن نفسه إلا أن الأذرع كانت خلوا منها عند المرافق ، وكذلك من منتصف  
السيقان حتى مفصل القدم ، وكانت ثيابها موشاة ، وتبدو في الوقت نفسه  
متناقضة أشد التناقض مع البساطة العسكرية التي تتسم بها ثياب سيدهما  
نفسه ، وكانا مسلحين بسيفين معقوفين زُرُ كُش مقبضاهما بالذهب ،  
وخنجرين تركيبين في أبهى صناعة ويتلامان معهما ، وكان كلاهما يحمل في  
قوس السرج بمجموعة من الحراب أو الرماح طول الواحد منها حوالي أربعة  
أقدام ، ولها رؤوس حادة من الصلب وهو سلاح شائع الاستعمال بين  
العرب ، ولا تزال ذكراه باقية في التدريب العسكري المسمى « بالجرية »  
وهو لا يزال يستعمل في التدريب حتى الآن في الأقطار الشرقية .

كان جوادا هذين التابعين يبدوان غربيين كراكيهما . كانا من أصل  
عربي وبالتالي من تلك السلالة نفسها ، وكانت سيقانها الجميلة ، وسنابكها  
الصغيرة ، ومعرفتها الرقيقتان ، وحركاتها الرشيقة المتوثبة ، على نقيض  
الخيول الثقيلة ذوات المفاصل العريضة التي كانت تربي في « فلاندرز »  
و « نورمانديا » لركوب المحاربين في ذلك العصر بكل دروعهم المصنوعة  
من الصفائح والزررد ، وإذا قارنا تلك الخيول بالجياد الشرقية كنا نكن  
يوافق بين المواد المجسمة وبين الظلال .

لم يجتذب منظر هذا الركب فضول « وامبا » وحده ، بل أثار أيضا  
فضول رفيقه الذي يفوقه رزاقه . لقد عرف على الفور أن الراهب هو  
رئيس دير « جورفولكس » ، وكان معروفا عنه في الأماكن المجاورة لعدة

أميل أنه يهوى الصيد والاحتفالات ، وإذا لم تكن الشائعات قد تجنت عليه ، فإنه كان يعشق ألواناً أخرى من الملاذ الدنيوية التي كانت تتعارض مع التزاماته الرهبانية .

ولكن الأفكار في ذلك الوقت كانت كثيرة التسامح مع سلوك رجال الدين سواء أ كانوا من العلمانيين أم من النظاميين حتى إن الرئيس « أمير » كان يتمتع بسيرة طيبة في البقاع المجاورة للدير الذي ينسك فيه ، وكان طابعه المتحرر المرح ، والسهولة التي يمنح بها الغفران من الخطايا العادية ، قد جعلته ذا حظوة عند النبلاء وكبار السادة الذين كان يقساوي معهم في المولد والنشأة لأنه كان ينحدر من أسرة نورماندية عريقة . ولم تكن السيدات على وجه خاص على استعداد لتحرى الدقة في سلوك رجل مثله يبدى إعجاباً بحسنه ، وكان يملك من شتى الوسائل ما يذيب الصخر الذي كان غالباً ما يسود قاعات أى قصر إقطاعى قديم ومقاصيره .

كان رئيس الدير يشترك في الرياضات الخارجية بنشوة شديدة ، وكان يسمح له بامتلاك أعلى للصقور تدريباً ، وأسرع كلاب الصيد في « نورث رايدنج » ، وكانت تلك الظروف كلها تزكيه بشدة لدى السادة الشبان ، أما عن الشيوخ فقد كان يلعب معهم دوراً آخر يستطيع إذا اقتضى الأمر أن أن يسرف فيه ببراءة فائقة .

كان إمامه السطحى بالكتب كافياً لأن يفرض على جهلهم الاحترام لعله المزعوم ، كذلك فإن الوقار الذى يتسم به حديثه ، واللمجة القوية التي كان يتفوه بها عندما يؤكّد سلطان الكنيّة والكهنوت ، كل ذلك كان يوحى إليهم بالوثوق في قداسته ، وحتى عامة الشعب - وهم أقمى النقاد لسلوك من هم أعلى منهم مرتبة - فقد كانوا يلتمسون المعاذير لنزوات الرئيس « أمير » .

لقد كان كريم اليد جواداً ، والإحسان - كما هو معروف يشفع



لكثير من الخطايا التي تختلف عن تلك التي يحض الكتاب المقدس على  
غفرانها ، وكانت إيرادات الدير - التي كان من حقه أن يتصرف في جزء  
كبير منها - تكفل تغطية نفقاته الباهظة وما كان يهبه للفلاحين من  
صدقات ، وكثيراً ما كان يخفف بوساطتها من ويلات المعذبين المغلوب على  
أمرهم ، وإذا كان رئيس الدير يركض مبرعاً في أثناء الصيد ، أو يطول  
بقاؤه في الولايم ، أو لو شوهد في مطلع الفجر وهو يدخل من الباب الخلفي  
للدير عائداً في تسلل من موعد ما كان قد استنفد ساعات الظلام ، فإن  
الرجال كانوا يهزون أكتافهم ويتقبلون أخطاه عن رضى بتذكرهم أن  
هذه المخالفات يرتكبها الكثير من إخوانه ممن ليسوا على أية خصال حميدة  
تشفع لهم . لذلك كان الرئيس « آير » وخالقه معروفين حق المعرفة لعبدنا  
الكسونيين اللذين قاما بانحناءتهما الجافة ، وفي مقابل ذلك تقبلاتحبة  
رئيس الدير :

- « بركتي لكما يا ولدي » .

ولكن مظهر رفيقه وأتباعه الغريب الباعث على الدهشة قد أثار فيهما  
الانتباه والعجب حتى أوشكا على القصور عن الإجابة على سؤال رئيس  
دير « جورفولكس » عندما طلب إليهما إن كانا يعرفان أي مكان قريب  
يمكن اللجوء إليه لأنهما كانا في دهشة وذ هول من منظر ذلك أترجل الغريب  
طويل القامة بزبه الذي كان خليطاً بين الكنائسي والعسكري ، وزى تابعيه  
الشرقيين وأسلحتهما الغربية ، ومن المحتمل أيضاً أن اللهجة التي منحهما بها  
بركته وأطلق بها سؤاله كانت غليظة جافة ، وإن لم تكن غير مفهومة في  
آذان الفلاحين الساكسونيين .

رفع رئيس الدير صوته قائلاً باللهجة الفرنجية وهي الخليط اللغوي  
الذي كان الشعبان النورماندي والساكسوني يتخاطبان به : « إنى أسألكما

ياولدى عما إذا كان هنا في هذه البقعة رجل كريم يقبل حبا في الله وإخلاصا للكنيسة الأم ، أن يقدم لائنين من أصغر خدمها وحاشيتهما الضيافة والراحة ليلة واحدة ؟

- قال هذا بلهجة فيها وقار مصطنع تتنافى كل المناقاة مع الكلمات التي تتسم بالتواضع ، والتي رأى أنه من الأوفق أن يتحدث بها . ردد « واما ، قول رئيس الدير فيما بينه وبين نفسه اثنان من أصغر خدم الكنيسة الأم ١١ كم أود أن أرى خدمها القدامى ورؤساء خدمها وغيرهم من أوائلم !

بعد ذلك التعليق الذي تردد في جنباته على حديث رئيس الدير ، رفع عينيه وأجاب عن السؤال الذي ألقى عليهما .

- « إذا رغب الآباء المجلون في الصحة الطيبة والمأوى المريح ، فإن مسيرة عدة اميال ستنتهى إلى دير «برينكسويرث» ، حيث تكفل لهم صفتهم الحصول على أكرم لقاء ، أما إذا كانوا يؤثرون قضاء ليلة فيها تقشف ، فما عليهم إلا أن يسلكوا الممر الوحش وسيصل بهم إلى منسك «كوبمانهيرست» ، حيث يأويهم معه زاهد تقي لقضاء ليلة تحت سقفه ويستفيدون من صلواته ،

هز" رئيس الدير رأسه وكأنه غير راض عن هذين المرصين وقال :

- « يا صديقي الطيب ، لو لم يكن رنين أجراسك قد ران على عقلك ، لعلت أننا نحن رجال الكنيسة لا نثقل على بعضنا البعض بالضيافة ، ولكننا نطلب أن يستضيفنا قوم من غير رجال الدين لتتيح لهم فرصة تكريمهم بخدمة الله ، وبالعامل على راحة القائمين في خدمته » فقال ، « واما ، :

- « حقا ، إنى لست إلا حماراً ، ولكن على الرغم من ذلك فإنه بما

يشرفني أني أحمل أجراسا مثل بفلتك يا صاحب الفضيلة ، ومع ذلك فإني كنت أعتقد أن بر الكنيسة الأم وخدامها كأي بر آخر يبدأ بالنفس ، .

فقطع الراكب المسلح عليه ثرثرته وقال بصوت صارم :

- هل لك أن تكف عن وقاحتك يا هذا وتدلنا إن استطعت على الطريق المؤدى إلى ..... ماذا سميت ذلك الفرانكلين التابع لك أيها الأب ، أمير ، ؟

فأجاب رئيس الدير :

- سيدريك - سيدريك الساكسوني . قل لي أيها الرجل الطيب هل نحن على مقربة من داره وهل تستطيع أن ترشدنا على الطريق إليه ؟ فأجاب ، جيرث ، وقد خرج عن صمته لأول مرة :

- إنه ليس من اليسير أن تعثر على الطريق ، ثم إن أمرة «سيدريك» تأوى إلى فراشها في ساعة مبكرة ، فقال الفارس ذو الهيئة العسكرية :

- وهذا هراء ! لا تقل ذلك يا رجل ، إنه ليس أمراً شاقاً عليهم أن ينهضوا ويستجيبيوا لمطالب مسافرين من مصافنا لا يمنون الجباه لكي يستجدوا ضيافة من حقهم أن ينالوها ولو غصبا ، فقال ، جيرث مكتئباً :

- ولست أدري إذا ما كان يجدر بي أن أرشد إلى منزل سيدي أولئك الذين يطلبون المأوى وكأنه حق لهم ، بينما يغتبط كثير من الناس عندما يطلبونه كمنحة ، فقال الجندي :

« أنجادني أيها العبداء ، ثم وكنز جواده بمهازيه لكي يقوم بنصف دورة عبر الممر ، رافعاً عصا الركوب التي كان قابضاً عليها بيده لكي يؤدبه على ما ارتآه تطاولاً من ذلك الفلاح ، فصرخ «جيرث» ، صرخة

انتقام وحشية وقام بحركة توحى- بالشراسة ولكنها تقسم بالتعاس ، ثم وضع يده على مقبض سكينه ، ولكن رئيس الدير « آيبر » الذى دفع بمطيته بين رفيقه وبين راعى الخنازير قد حال دون الالتحام الذى كانا قد اعترماه وقال :

— « كلا بحق القديسة مريم أيها الأخ « بريان » لا يجدر بك أن تعتقد أنك الآن فى فلسطين مسيطراً على الأعداء ، فنحن أهل الجزر لا نحب من الطعان إلا ما كان منها موجهاً لخدمة الكنيسة المقدسة التى تطهر من تحب » ، ثم قال لوايما بعد أن عزز قوله بقطعة صغيرة من النقود الفضية .

— « أين الطريق إلى منزل « سيدريك » السكونى فنن المحال ألا تكون على علم به ؟ هذا ومن واجبك أن ترشد المسافر إلى طريقه حتى ولو كان دوننا قداسة ، فأجاب المهرج :

— « إن الرأس العربية لرفيقك المجل قد أطاحت من فكرى معرفة الطريق إلى المنزل ، هذا وإنى لست واثقاً من أنى نفسى سأصل إليه هذا المساء . فقال الراهب :

— « هذا لغوا ! إنك تستطيع أن تدلنا عليه إن شئت ، وهذا الأخ الجليل قد صلح طيلة حياته فى القتال مع العرب لكى يستعيد قبر السيد المسيح ، وهو من طائفة « فرسان القدس » ومن المحتمل أن تكون قد سمعت بهم . إنه نصف راهب ونصف جندي . فقال المهرج :

— « إذا كان نصف راهب فقط . لجدير به أن يتحدث بأناة مع أولئك الذين يلتقى بهم فى الطريق حتى ولو كانوا مبطين فى الإجابة عن أسئلة لا تعنيهم بحال . فقال الراهب :

— « إنى أصفح عن دعابتك على شريطة أن تدلنى على الطريق إلى منزل « سيدريك » . فقال وايما :

« حسنا ، علي فضيلتكم إذن أن تلتزموا هذا الطريق حتى تصلوا إلى صليب مطمور في الأرض لا يبدو منه فوق سطحها غير طول ذراع ، وإذا ما بلغتوه فاسلكوا الطريق إلى اليسار لأن هناك أربعة طرق متقاطعة عند ذلك الصليب المدفون ، وآمل أن توفقوا فضيلتكم في الحصول على المأوى قبل هبوب العاصفة ، . -

شكر الراهب لمرشده الرزين ثم وكز الجميع جيادهم وسار الراكب كما ينطلق رجال مشوقون إلى الوصول إلى حانهم قبل هبوب عاصفة ليلية .

وبينما كان وقع سنابك جيادهم يتعد قال « جيرث ، لرفيقه .  
« لو ترسم الآباء المبجلون إرشاداتك الحكيمة ، فإنهم لن يصلوا إلى روذر وود « هذا المساء ، . فقال المهرج ضاحكا :

« ولكنهم قد يصلون إلى « شيفيلد ، إذا كانوا مسعدين وهذا هو أوفق مكان لهم ، هذا وإني لست حارس غابة غر إلى حد أني أرشد الكلب إلى مخبأ الغزال إذا لم يكن يرغب إلى أن يجعل منه صيدا ، . فقال « جيرث ، .  
« ، إنك على حق ، وإنه لمن السوء بمكان أن يرى « آيبر ، السيدة « رويانا ، ، وقد يكون أشد سوءا من ذلك أن يشعل « سيدريك ، شجاراً - وهو أمر شديد الاحتمال - مع هذا الراهب الجندي ، ولكن بما أننا نخدم طييون فلنستمع ولنر ولا نقل شيئا ، .

نعود إلى الفارسين اللذين كانا قد خلفا العبدین وراءهما بمسافة طويلة ، واللذين دار بينهما الحوار التالي باللغة النورماندية الفرنسية التي تستعملها عادة الطبقة العليا ، إذا استئينا القلة التي كانت لا تزال تميل إلى التفاخر بأصلها الساكسوني . قال الفارس لرئيس الدير :

« ماذا يهدف هذان الشخصان من وراء وقاحتها الغريبة ؟ ولماذا منعتني من تأديهما ؟ ، فأجاب رئيس الدير :

١٠ - « زفقا أيها الأخ « بريان » ، فيما يختص بأحدهما ، فقد كان من العسير على أن أتمس عذراً لرجل أحق ينطق بما توحى به إليه حماقته ، وأما الرجل الوضيع الآخر ، فهو من ذلك الطراز الجاف الغليظ الذي يصفى التعامل معه ، والذي لا يزال يوجد من هم على شاكلة - كما قلت لك من قبل مرات عديدة - من بين الساكسونيين المظلومين على أمرهم ، والذين يهجمهم أشد الهجة أن يعلنوا ما وسعهم الجهد عن كراهيتهم لغزاتهم ، « فقال « بريان » :

« وددت لو كنت قد ضربته لألقنه درسا في أدب السلوك ، إني معتاد على معاملة أمثال هؤلاء . إن أسرانا من الأتراك قوم ذوو شراسة وعناد من أمثال « أودين » نفسه ، ولكنهم بعد أن قضوا في منزله شهرين تحت إشراف رئيس عبيدى ، أصبحوا أذلة خائعين ، يأمرون بأمرك ويخضعون لمشيئتك .

حقا بأسيدى يجب أن تحذر السم والخنجر لأنهم يستعملون أيا منهما على أوسع نطاق إذا ما واثمهم الفرصة . « فقال « آيمر ، رئيس الدير :

- « هذا صحيح ، ولكن لكل وطن عاداته وتقاليده ، وإلى جانب هذا فإن إبداءك لذلك الشخص لن يكون سبباً لنا للحصول على أية معلومات خاصة بالطريق إلى منزل « سيدريك » ، بل إنه يشعل شجاراً بينك وبينه حتى لو اهتمنا إلى ذلك الطريق ، تذكر ماقلته لك : هذا الفرانكلين الثرى رجل ذو صلف وهو شرس غيور سريع الغضب ، وعلى خلاف مع النبلاء وحتى مع جاريه « ريجنولد فرونديبيف » ، و « فيليب ما الفوازان » وهما ليسا بطفلين يمكن مناهضتهما . إنه يدافع بإصرار عن امتيازات جنسه ويزهو بامتداد نسبه إلى « هيرورد » ، وهو بطل شهير في أساطيرهم حتى إن الجميع أصبحوا يلقبونه « بسيدريك الساكسونى » . إنه يزهو بانتسابه إلى قوم يعمل الكثيرون جاهدين على اتماثهم إليهم حتى لا يلاقوا طرفاً من المحن المفروضة على المهزومين . « فقال الفارس :

- « إنك أيها الرئيس » أمير ، رجل ذو نخوة ، عليم بأفانين الجمال ، وخبير مثل المنشدين الجائلين بكل ما يتعلق بقوانين الغرام . إني آمل أن أرى « رويتا » الفاتنة هذه لكي تكون لي عوضا عن إنكار الذات وقوة الاحتمال اللذين يجب أن أتمسك بهما إذا كان لا بد لي وأن أحظى برضى شرس متمرد كما وصفت أباها « سيدريك » ، فقال رئيس الدير :

- إن « سيدريك » ليس أباً لها ولكنه يمت بصلة قرابة بعيدة لها . إنها تنحدر من دم أكثر عراقه مما يزعم لنفسه ، ولها به صلة قرابة بعيدة من ناحية مولدها . إنه الوصي عليها ، وأعتقد أنه قد فرض عليها هذه الوصاية فرضا ، ولكنها ربيبة عزيزة عليه وكأنها ابنته ومن صلبه ، أما من حسنها فإنك سوف تحمى عليه بنفسك عما قليل ، وإذا كان صفاء بشرتها ، أو النظرة المتعالية الرقيقة المنبعثة من عين زرقاء ودبعة لم يستطيعا أن يطردا من خيالك بنات فلسطين ذوات الأردية السوداء ، نعم ، أو حتى حولرى الجنة ، فأنا إذن كافر ولست ابنا حقيقيا للكنييسة . فقال الفارس :

- « إذا وضعت حسناك هذه في موازين الجمال ووجدت أن كفتها غير راجحة ، فإنك تعرف رهانتنا . فقال الراهب :

- « قلادتي الذهبية مقابل عشرة براميل من نبيذ ميثان . لا ريب في أنها ملك لي كما لو كانت موضوعة حقا في أقبية الدير تحت رعاية « دنيس » الشيخ ، حارس قبو الأنبذة . فقال الفارس :

- « سيأكون أنا الحكم ، وسأعتبر نفسي مدينا باعترافي بأنى لم أر عادة أوفر منها جمالا منذ كان عيد العنصرة اثني عشر شهرا . أليست هذه هي الشروط ؟ .

إن قلادتك في خطر أيها الراهب ، وسوف أضعها فوق سترتي في مهرجانات استقبال « آشي دي زوش » . فقال رئيس الدير :

« فز بها عن جدارة وارتمها كما تشاء . إني لعلی ثقة من أنك ستكون صادقاً في حكمك بما يتفق وشرفك كفارس وكرجل من رجال الكنيسة ، ولكن خذها مني نصيحة أيها الأخ : اشخذ لسانك ليعتاد على شيء من الكياسة أكثر مما عودتك السيطرة على الأسرى والعبيد الشرقيين ، لأن سيدريك الساكسوني إذا ما أحس بالمهانة — وهو رجل شفاف سريع الإحساس بها — فإنه سيطر دننا من داره ، ويبعث بنا إلى خارجه لننام مع العصافير حتى ولو كان الوقت منتصف الليل دون أن يأبه بفروسيك أو بمركزي الرفيع أو بالتبجيل الواجب نحو كلينا . كن حذراً في نظرتك إلى « رويانا » التي يكلف بها ويحبها ويغار عليها لأنه لو راودته ريبة في هذا فنحن لاحالة ضائعان . يقولون بأنه أقصى ابنه الوحيد عن أسرته لأنه رفع عينيه بنظرة حب إلى هذه الجميلة التي يأذن بتقديسها عن بعد ولكنه يحظر أن يقترب منها إنسان بأفكاره غير تلك التي تقترب بها من محراب العذراء المقدسة . » فقال الفارس :

« حسناً ، لقد قلت ما فيه الكفاية . سوف أسيطر على نفسي قدر طاقتي لمدة ليلة واحدة . سأكون رفيق المعشر وأنظر إليها وكأنها فتاة عذراء ، أما فيما يختص بجزعك من أن يطر دننا قهراً ، فإني ووصيقي وحامد وعبدا لله كفيلون بأن ندود عنك هذه المهانة ، ولا يراودنك شك أبداً في أننا سنكون من الأقوة بحيث نستطيع أن نثبت أقدامنا . » قال رئيس الدير :

« لا يجدر بنا أن ندع الأمور تصل إلى هذا المدى ، ولكن هذا هو الصليب المطمور الذي قال عنه المهرج ، والليل مد لهم إلى حد أننا لانكاد تبين أي طريق نسلك . أظن أنه طلب إلينا أن نتجه ناحية اليسار . » فقال « بريان » .

« أذكر جيداً أنه قال ناحية اليمين . » فقال الراهب .



« بل إلى اليسار . يقينا إلى اليسار . إنى أذكر أنه أشار إلى الاتجاه  
بسيفه الخشبي » . فقال الفارس :

« نعم ، ولكنه كان يمسك سيفه بيده اليسرى ، وهكذا أشار بسيفه  
عبر جسده » .

أصر كل منهما على رأيه بعناد شديد كما هو الحال في مثل هذه الأمور ،  
وسئل الأتباع ولكنهم لم يكونوا على مقربة كافية بحيث يستطيعون سماع  
إرشادات « واما » ، وأخيراً رأى « بريان » ما كان قد غاب عن ناظره  
لأول وهلة بسبب الظلام وقال :

« ها هو ذا شخص إما نائم وإما ملق عند قاعدة هذا الصليب ميتاً  
.. المزه يا « هوجو » ، بمؤخر رحلك . ولم يكذب فعل ذلك حتى نهض النائم  
قائلاً بلغة فرنسية صحيحة :

« إنه ليس من اللياقة في شيء أن تقطعوا على أفكارى كائناً من  
كنتم » . فقال الراهب :

« إتنا لم نهدف إلا لسؤالك عن الطريق إلى « روثروود » مقر  
« سيدريك » الكسونى . فأجاب الغريب :

« إنى ذاهب إلى هناك ، ولو كان عندى جواد لكنت لكم مرشداً  
لأن الطريق معقد متشابك بعض الشيء ، ولكنى أعرفه حق المعرفة » .  
فقال رئيس الدير :

« لك منا الشكر والجزاء أيها الصديق إذا أوصلتنا سالمين إلى منزل  
« سيدريك » . ثم طلب إلى أحد الوصيفين أن يمتطى جواده هو الذى كان  
يقوده من خلفهم ، ويتخلى عن جواده الذى كان يمتطيه لذلك الرجل  
الغريب الذى سيقوم بدور الدليل .

سلك مرشدهم طريقاً مضاداً لذلك الذى أوصاهم به « وامها ، بغية تضليلهم ، ولم يلبث الطريق أن تعمق فى الغابة وتقاطع مع أكثر من جدول ماء كان فى الاقتراب منها خطر بسبب المستنقعات التى تنساب خلالها ، ولكن الرجل الغريب بدا وكأنه على دراية — كما لو كان ذلك بغيريته — بالأرض الصلبة وأكثر المعابر أمناً . وبالحذر واليقظة الشديدين أوصل الراكب سابلما إلى طريق أشد خشونة من أى طريق آخر صادفهم حتى الآن . قال للراهب وهو يشير إلى بناء كبير منخفض غير منتظم للشكل فى نهاية الطريق :

— « هاكم ، روذروود ، منزل سيدريك الساكونى ، .

اغتبط « آيبر ، لهذا النبأ السار بعد أن وهنت أعصابه ، وبعد أن قاسى من العناء والفرع الشئ الكثير فى أثناء سيرهم وسط المخاضات الخطرة إلى حد أن الفضول لم يدفعه إلى أن يلقى على مرشده سؤالاً واحداً ، ولكنه بعد أن هدأ وألنى نفسه قريباً من الماوى المرتقب ، استيقظ فضوله وسأل المرشد عن يكون فأجاب :

— « فلاح عاد حديثاً من الأراضى المقدسة ، . قال الفارس :

— « لقد كان من الأفضل لك لو بقيت هناك لتجاهد من أجل استعادة قبر السيد المسيح ، فأجاب الفلاح الذى بدا له أن منظر الفارس لبس غريباً عليه :

— « حقا ياسيدى الفارس المبجل ، ولكن عندما نجد أن أولئك الذين أقسموا اليمين على استعادة المدينة المقدسة يهيمون على مثل هذه الآفاق النائية عن مكان الواجب الملقى عليهم ، فمى يأخذك العجب إذا مارأيت فلاحاً مسلماً مثلى يرفض القيام بالمهمة التى تخلو عنها ؟ ، .

كان الفارس على وشك أن يجيبه بغضب ولكن رئيس الدير أوقفه

عن الكلام ، وأبدي دهشته من إلام دليلهم بمسالك الغابة ومناجاتها على هذا النحو الفائق بعد أن طال غيابه عنها ، فقال دليلهم :  
— « لقد ولدت أصلا في هذه البقاع ، » .

كانوا آتذ قد وصلوا أمام منزل « سينريك » ، وهو بناء منخفض غير منتظم ، ذو أفنية عديدة ، وأسوار تمتد على مساحة شاسعة من الأرض ، وعلى الرغم من أن حجمه يدل على أن قاطنه رجل من ذوى الثراء ، إلا أنه كان يختلف تمام الاختلاف عن الأبنية المرتفعة ذوات الأبراج والأسوار التي كان يعيش فيها نبلاء النورمانديين ، والتي غدت طرازاً شائعاً في فن العمارة في جميع أنحاء إنجلترا . ولكن على الرغم من ذلك فإن « روذروود » لم تكن خلوا من التحصينات ، وما كان لأي مسكن في تلك العصور المضطربة أن يكون بدونها إلا وتعرض لخطر السلب والحريق قبل إشراقة اليوم التالي . كانت هناك حفرة عميقة أو خندق محفور حول المبنى بأكمله مليء بالمياه التي يستمدها من قناة مجاورة ، وكان هناك صفان من الأسوار المصنوعة من الأعواد المدبية التي كان يوثق بها من الغابة المتاخمة لحماية حافتي الخندق للداخلية والخارجية ، وكان هناك مدخل من الناحية الغربية عبر السور الخارجي تصله قنطرة متحركة بمدخل مماثل في الاستحكامات الداخلية ، وقد اتخذت بعض الاحتياطات لوضع هذين المدخلين في حى زوايا ناتئة يمكن عند الضرورة تطويقها برماة السهام أو قاذف الأحجار .

نفخ الفارس في بوقه بصوت عال أمام هذا المدخل لأن المطر الذي أنذر طويلاً بالسقوط بدأ الآن يهطل كأفواه القرب .

## الفصل الثالث

وعندئذ - وبألمها من راحة حزينة - من الشاطئ البعيد الذي يسمع فيه هدير المحيط الألماني العميق النائر

جاء الساكسونيون ذوو الشعر الأصفر والعيون الزرقاء .

( من المربة لتومون )

كان هناك في قاعة لا يتلام ارتفاعها مع طولها وعرضها المتناهيين منضدة مطوية من خشب البلوط ، مصنوعة من ألواح غير مصقولة من أخشاب الغابة ، لم ينلها الطلاء أبداً ، وقد أعدت لعشاء سيدريك الساكسوني ، ولم يكن في سقفها المصنوع من كتل وعارضات خشبية ما يحجبها عن السماء إلا تلك العارضات وبعض أعواد القش . وهناك مدفأة كبيرة في كل من طرفي القاعة ، ولما كانتا مصنوعتين بطريقة بدائية ، فقد تسلل منهما قدر من الدخان في داخل القاعة ، كما كان ينطلق من منفذيهما الأصليين بخار لا يكف عن التسرب منهما ، فصقل الكتل والعارضات الخشبية لتلك القاعة المنخفضة وكساها بطلاء أسود من السناج ، وكانت معدات الحرب والصيد معلقة في جنبات القاعة ، وهناك باب في كل ركن من أركانها يطوى ، وتصل جميعها إلى أماكن أخرى من ذلك البناء الرحب .

كانت باقى معالم المنزل تنسم ببساطة العهد الساكسوني الجاف التي كان يطيب لسيدريك ألا يحيد عنها ، وكانت أرضها مكونة من طين ممزوج بحجر ، أكسبتها مواطىء الأقدام صلابة فأصبحت شبيهة بكثير من أراضي أجاتنا الحديثة ، ترتفع قدر خطوة في حوالى ربع طول القاعة . لم يكن يشغل هذه الساحة التي كانت تسمى بالمنضدة إلا رؤساء الأسرة والزائرون ذوو

المكائنة ، ولهذا الغرض نفسه كانت المائدة موضوعة عرضاً عبر المنصة ، ومغطاة بغطاء قرمزي ثمين ، ومن منتصفها امتدت تجاه الطرف القصي من القاعة مائدة أخرى أكثر منها طولاً وأقل ارتفاعاً ، كانت مخصصة لطعام الخدم ومن إليهم ممن هم دونهم مرتبة . كانت المائدتان في مجموعهما كحرف T أو شيهتين ببعض موائد الطعام القديمة المنسقة على نفس الطراز ، والتي يمكن رؤيتها حتى الآن في السكيات القديمة بأ كسفورد ، وكبريدج . وضعت فوق المنصة مقاعد ضخمة ، وأرائك من خشب البلوط المحفور . وكنت ترى فوق تلك المقاعد والمنضدة المرتفعة مظلة من القماش ابتغاء وقاية أصحاب المقام السامى الذين يتربعون في هذا المكان الرفيع من عوارض الطقس ، ومن المطر على وجه خاص الذى كان يجد طريقه إليها من عدة منافذ خلال السقف المخلخل .

كانت جدران هذا الجزء المرتفع من القاعة على امتداد المنصة مكسوة بالآستار ، وعلى الأرض بساط ، وقد ازدان كل هذا ببعض محاولات فى الزخرفة أو التطريز ، وقد تم إنجازها جميعها بألوان زاهية إلى حد ما ، ولاحظنا أنه لم تكن هناك مظلة فوق المائدة المنخفضة ، كانت الجدران المكسوة بالطلاء الخشن قد تركت عارية، ولم يفترشوا سجادة فوق الأرض الطينية الغليظة ، والمنضدة غير مغطاة ، وكانت الأرائك الخشبية مستطيلة غير مصقولة وتقوم مقام المقاعد .

وفى منتصف المائدة العليا وضع مقعدان أكثر من غيرهما ارتفاعاً ، مخصصان لرب الأسرة وربتها اللذين كانا يشرفان على مكان الضيافة ، ومن هذا اشتقا لقبها الفخرى السكسونى . مقسما الخبز ، .

أضيف إلى كل من هذين المقعدين موطىء قدم محفور بطريقة غريبة ، ومطعم بالعاج دلالة على الرفعة الخاصة بهما وحدهما ، وكان سيدريك ،

الساكسوني يشغل أحد هذين المقعدين آنذاك ، وهو وإن كان من مرتبة نبلاء الدرجة الثانية ، أو الفرانكلين كما كان النورمانديون يسمونهم ، إلا أنه أحس عند تأخير إعداد العشاء بضيق وغضب جديرين بأحد شيوخ البلد سواء أ كان من أهالي المصور القديمة أم الحديثة .

حقاً كان يبدو على قسما هذا المالك أنه صريح لا لبس فيه ، ولكنه سريع الانفعال متوثب في طبعه حدة ، ولم يكن أكثر من المتوسط طولاً ولكنه عريض المنكبين ، طويل الساعدين ، قوى البنيان وكأنه شخص قد اعتاد على تكبد مشاق الحروب أو الصيد . كان وجهه عريضاً ذا عينين زرقاوين واسعتين ، وملامح واضحة لا إبهام فيها ولا غموض ، وأسنان جميلة متراسة ، ورأس حسن التنسيق يعبر بوجه ، عام عن ذلك النوع من العناية التي كثيراً ما تصاحب مزاجاً حاداً مندفعاً . كان في عينيه كبرياء وغيره لأنه أمضى حياته كلها في تثبيت حقوق كانت على الدوام نهباً للاغتصاب ، وقد ظل طبع الرجل المتقد العنيد الناثر في حالة استعداد دائم بسبب طبيعة مكاته ، كان مفرق شعره الطويل الأصفر يمتد من أعلى الرأس إلى جبينه ، مصففاً من الجانبين ، مسترسلاً حتى كتفيه وقد مال إلى اللون الرمادي بعض الميل ، على الرغم من أن سيدريك قد قارب الستين من سن عمره .

كانت ملابسه مكونة من سترة لونها أخضر داكن ، محلاة عند العنق وطرفي الكمين بنوع من الفراء يسمى « مينفر » ، لا يذاني في جودته فراء « القاقوم » ، ومن المحتمل أن يكون مصنوعاً من جلد السنجاب الرمادي ، وكان يرتدى هذه السترة غير مغلقة فوق ثوب ضيق قرمزي اللون ، يلتصق بجسده التصاقاً شديداً ، وسراويل من القماش نفسه ، قصيرة لا تصل إلى ما بعد الجزء الأسفل من الفخذ ، تاركة الركبة عارية ، وكان يضع في قدميه نعلا من ذلك الطراز الذي يرتديه الفلاحون واسكنها

من خامة أفضل ، ومثبتة من الأمام بمشابك من ذهب ، ويلف حول ذراعينه أساور ذهبية ، وحول عنقه قلادة عريضة من ذلك المعدن النفيس ، ويتمنطق بحزام مرصع وقد ثبت فيه سيف قصير مستقيم ذو نهاين مدبب الطرف ، وقد وضع بحيث يكاد يسقط إلى جانبه عمودياً ، ويتدلى خلف مقعده معطف قرمزي اللون ذو بطانة من فراء ، وغطاء رأس من النوع نفسه محلى بالنقوش الفاخرة .

تلك هي الملابس التي كان يرتديها مالك الأرض الذي كان يعيش في ميسرة عندما يطيب له أن يبرح الدار ، وكان يستند إلى ظهر مقعده رمح قصير لصيد الخنزير البري ، ذو رأس عريض من الصلب اللامع ، كان يستخدمه عندما يسير في الخلاء ليتوكأ عليه كالعصا ، أو كسلاح طبقاً لما تقضى به الحال .

كان له خدم عديدون ، لا ترقى ملابسهم إلى أبهة ملابس سيدهم ، ولا تنحدر إلى الزي الخشن البسيط الذي يرتديه «جيرث» ، راعي الخنازير وكانوا يرقبون نظرات الشريف الساكسوني وينتظرون أوامره ، وهناك خادمان أو ثلاثة من طبقة أرفع كانوا يقفون خلف سيدهم فوق المنصة ، أما الباقون فكانوا يشغلون الجزء المنخفض من القاعة .

كان هناك أتباع آخرون من نوع متباين : كلبان أو ثلاثة من كلاب الصيد الضخمة ، شعرها طويل كتلك التي كانت تستعمل وقتئذ في صيد الطباء والذئاب ، وعدد مماثل من الكلاب المتراخية من سلالة ضخمة العظام ، غليظة الرقاب ، كبيرة الرؤوس ، طويلة الأذان ، وواحد أو اثنان من الكلاب الصغيرة المعماة الآن باسم « ترير » ، كانوا ينتظران وصول العشاء في لهفة ، ولكن بما لجنسهما من ذكاء ، فقد حرصا على ألا يتطفلا على الإطراقة الصامتة لسيدهما العابس ربما اتقاءً لعصا صغيرة بيضاء موضوعة إلى جوار سيدريك لإقرار النظام بين أتباعه من ذوى الأرباع . كان هناك كلب

واحد هرم رمادى اللون من فصيلة الذئب ، وقد منحه صاحبه من الدالة ما جعله يربض بالقرب من مقعده ، وكان يجترى بين حين وحين على أن يسترعى الانتباه إليه بوضع رأسه الكبير ذى الشعر الغزير على ركة سيده أو يدفع بأنفه فى يده ، وحتى هذا الكلب المدلل قد زجره سيده بصراة قائلاً :

- « أرضاً يا بالدر ، أرضاً فليس بى ميل إلى اللهو » .

كان « سيدريك » كما لاحظنا مضطرب النفس قلقاً حقاً لأن الليدى « رويانا » التى كانت قد ذهبت لحضور صلاة مسائية فى كنيسة بعيدة قد عادت لتوها ، وكانت تبدل من ملابسها التى بللتها العاصفة ، ولم تأتته أبناء عن « جيرث » أو الخنازير التى كان يراها ، وكان يجب أن تكون قد عادت من الغابة إلى ماواها منذ وقت طويل ، وكان هناك احتمال - نظراً لما كان يسود تلك الحقبة من اختلال فى الأمن - بأن تأويل هذا التأخير قد يكون مبعثه حركة سلب يقوم بها الخارجون على القانون الذين كانوا منبثين فى الغابة المجاورة ، أو نتيجة لاعتداء أحد سادة الأرض المتاخمة الذى قد يدفعه اعتداده بقوته إلى تجاهل قوانين الملكية الخاصة .

كان ذلك الأمر من الأهمية بمكان لأن جزءاً كبيراً من الثروة المنزلية للبلاد الساكسونيين كان قائماً على قطعان الخنازير وخاصة فى مناطق الغابات ، حيث كانت تلك الحيوانات تجرد غذاءها فى غير مشقة أو عناء .

وإلى جانب بواعث الحيرة هذه ، كان السيد الساكسونى قلقاً على عودة مهرجه المحبوب « وامبا » الذى كانت دعاياته بحالتها الراهنة كتوابل لوجبة العشاء ، والجرعات الوفيرة من الجعة والنيبذ التى كان قد اعتاد على أن يتناولها معها ، وبالإضافة إلى ذلك فإن سيدريك لم يذق من الطعام شيئاً منذ الظهيرة ، وكان الموعد الذى اعتاد أن يتناوله عنده قد مضى عليه وقت طويل ،



وكان هذا سبباً شائعاً لغضب سادة الريف في الأزمان القديمة والحديثة أيضاً ، فكان يعبر عما يتصوره من ضيق بعبارات منقطعة بعضها موجه إلى نفسه ، وبعضها الآخر إلى من حوله من الخدم وعلى الأخص ساقيه الذي كان يقدم له بين الفينة والفينة كأساً فضية مترعة بالنبيذ لعلها تبعث الهدوء في نفسه ، ولكنه أطلق هذا السؤال :

— « ما الذي حدا باليدى «روينا» إلى أن تتأخر هكذا ؟ »

فأجابت إحدى الوصيفات بمزيد من الثقة كما جرت الأوضاع على أن تخاطب الخادمة ذات الحظوة لدى إحدى السيدات رب أسرة حديثة :

— « إنها تبدل من غطاء رأسها لأنك لا تحب أن تراها على المائدة بعباءتها وخمارها ، هذا وليس هناك من سيده في المقاطعة كلها أكثر إسراعاً من سيدتي في إعداد زينتها . »

كان هذا الدفع الذي لم يستطع إنكاره سبباً في أن يدعن الساكونى فقال :

— « كم أود لو اختار تدينها طفلاً جميلاً في زيارتها المقبلة لكنيسة القديس جون ، . ثم التفت إلى الساقى واستمع قائلاً بصوت عال وكأنه سعيد لعثوره على منفذ يسرى به عن استنكاره في غير حذر أو ضبط للنفس ، « بحق عشرة من الشياطين ! ما الذي يدعو «جيرث» إلى أن يبقى في الحقل كل هذا الوقت ؟ يبدو لي أننا نسمع أنباء سيئة عن القطيع . كنت أظن أنه حارس أمين حذر ، وكنت أعده لمصير أفضل ، ربما جعلت منه أحد رجال حرسى الخاص ، فقال «أوسولد» الساقى بخضوع إن ساعة واحدة لما تنقض بعد منذ أن دق جرس إطفاء الأنوار ، ولعله بذلك قد أساء اختيار العذر لأنه أثار أمراً يبعث الإيذاء في سمع الساكونى ، . فقال سيدريك :

— « لياخذ الشيطان اللعين جرس إطفاء الأنوار ! نعم جرس إطفاء الأنوار ، وليأخذ أيضا ذلك اللقيط الطاغية الذي ابتدعه ، والعبدمسلوب الفؤاد الذي نطق به بلسان ساكسونى على مسمع أذن ساكسونية ، ثم استتبع قائلا « إطفاء الأنوار ! نعم جرس إطفاء الأنوار الذى يكره الرجال الحقيقيين على إطفاء أنوارهم لكى يتمكن اللصوص وقطاع الطرق من إتيان أعمالهم فى ظلمة الليل ! نعم جرس إطفاء الأنوار ! إن «ريجنولد فروندييف» ، و «فيليب دى مالفوازان» ، يعرفان قائدة جرس إطفاء الأنوار كما يعرفها «وليام الفاتح» ، ابن الزانية ، وكما يعرفها كل مغامر نورماندى ممن حاربوا فى «هاسنجز» . أخالى سوف اسمع أن تمتلكانى قد سلبت لإنقاذ قطاع الطرق من الموت جوعا حيث إنهم لا يستطيعون أن يعولوم إلا بالسلب والنهب. أيقبل عبدى الأمين وتوخذ ممتلكاتى قهراً ؟ و «امبا ١» — أين و «امبا ؟ ألم يقل شخص ما إنه خرج مع «جيرث» ، ؟ فقال «أوسولد» : «نعم» .

— «نعم ؟ هذا أفضل وأفضل ! لقد اختطف هذا الساكسونى المجنون أيضا ليقوم على خدمة السيد النورماندى ، هذا ونحن الذين لا نتوانى عن القيام بخدمتهم لسنا فى الحقيقة إلا مجانين وجديرين بازدرائهم وسخريرتهم وكأنا قد ولدنا بأناصاف عقول ، ولكنى سأنتقم . ثم نهض من مقعده ضائقا بالاعتداء المزعوم ، وقابضا على رجه بيده واسترسل قائلا :

— « سأذهب بشكواى إلى المجلس الأعلى . إن لى أصدقاء وأتباعا . سأدعو النورماندى للنزال كرجل لرجل ، وليأت فى درعه وزرده وكل ما يضى على الجبن شجاعة .

لقد سبق لى أن أنفذت رجما كهذا فى سور أشد صلابة من ثلاثة من دروع الحرب التى يستخدمونها . قد يطوف بخيالهم أنى قد هزمت ، وسوف يعلنون أنى على الرغم من أنى وحيد لا ولد لى ، فإن دم «هيرورد» ، يجرى فى عروق سيدريك — آه ياد ويلفريد ، ، «يا ويلفريد» ! هكذا قال بصوت خفيض

« لو كنت قد استطعت السيطرة على عاطفتك الهوجاء ، لما ترك أبوك في شيخوخته كشجرة البلوط الوحيدة التي ترك غصونها العارية المتداعية نهباً لهبوب العاصفة .

أحالت هذه الأفكار أحاسيسه النائرة إلى شعور بالكآبة ، وعاد إلى مقعده بعد أن وضع ربحه في مكانه ، وخفض من نظراته غارقاً في تأملاته الحزينة ، ولجأة أفاق سيدريك من شرود فكره على صوت بوق يدوي يجيبه نباح جميع الكلاب في القاعة بصرخاتها الصاخبة ، وما يقرب من عشرين أو ثلاثين كلباً غيرها كانت في أماكن أخرى من البناء بما دعاه إلى استعمال العصا البيضاء للقضاء على الضجة التي أثارها الكلاب . وعندما هدأت الجلبة لدرجة يستطيع معها الأتباع أن يسمعوا صوت سيدم ، قال الساكسوني :

« اذهبوا إلى الباب الخارجي أيها الأوغاد ! انظروا أية نذر يحملها لنا هذا البوق . أغلب الظن عندي أنها تحمل إلى أبناء سلب ونهب ارتكبت ضد أراضي ، وفي أقل من ثلاث دقائق عاد أحد الحراس يعلن أن رئيس الدير « آيمر أوف جورفلكس ، والفارس المقدم « بريان دي بواجيلبرت ، قائد فرسان طائفة المعبد الباسلة الموقرة ومعهما حاشية صغيرة يطلبان الضيافة والمأوى لهذه الليلة فقط حيث إنهما في طريقهما إلى مباراة في الفروسية ستقام غير بعيد عن أشبي دي لازوش ، في اليوم التالي ، فهمم سيدريك قائلاً :

« آيمر؟ الراهب آيمر؟ بريان دي بواجيلبرت؟ كلاهما نورماندي ولكن سواء أكان نورماندياً أم ساكسونياً فإن ضيافة « روفروود ، لا ينبغي أن تكون موضع نقد . على سعة ورحب بهما ماداماً قد اختارا التوقف هنا ، ويزداد ترحابى بهما لو كانا قد تابعا المسير في طريقهما دون أن يعرجا علينا ، ولكنه ليس من آداب اللياقة في شيء أن يأخذنا الضجر من ميت ليلة وطعام

ليلة . وبما أن هؤلاء الضيوف من النورمانديين ، فعليهم أن يكبحوا من جماح ألسنتهم السليطة . ثم قال مخاطبا أحد رؤساء الخدم وكان واقفا من خلفه ممسكا بعضا بيضاء هيا ياهندبرت ، واصطحب معك ستة من الخدم واذهب بالغرباء إلى مقر الضيافة . عليك أن ترعى جيادهم وبغالهم ، وأن تستوثق من أن أحدا من أفراد حاشيتكما ليس في حاجة إلى شيء ، اعطهم بديلا للملابسهم إن طلبوا ذلك ، وأعد لهم نارا وماء ليغتسلوا ، ونبذا وجعة ليحتسوا ، وأصدر الأوامر إلى الطهاة بأن يتعجلوا ويضيفوا ما يستطيعون لإعداده إلى نشائنا ، وليوضع الطعام على المائدة عندما يكون هذان الضيفان على استعداد لتناوله معنا . قل لهم ياهندبرت إن سيدريك كان يبهجه أن يرحب بهم بنفسه ، ولكنه كان قد أقسم على ألا يخطو أبدا أكثر من ثلاث خطوات من منصة قاعته للقاء أى شخص لا تجرى في عروقه دماء الملوك الساكسونيين . اذهب وارعهم الرعاية كلها ولا تتح لهم الفرصة لأن يقولوا في صلفهم إن الساكسوني اللفظ قد بدا فقيرا مغلول اليد .

مضى رئيس الخدم ومعه بعض الأتباع لتنفيذ أوامر سيده ، وأعاد سيدريك القول :

— « رئيس الدير آير ، . ثم نظر إلى « أوسولد » وقال : إذا لم أكن مخطئا فهو أخ « لجيلي دي مولفريير ، سيد « ميدهام » الآن . فأوما « أوسولد » دلالة الإيجاب لإيماءة كلها تبجيل لسيده ، وقال سيدريك :

— « إن أخاه يحتمل الآن مكانا سبق له أن اغتصبه من عنصر أفضل وأخذ ممتلكاته قهرا . إنها سلالة « أولفجار » من « ميدهام » ، ولكن أى سيد نورماندى لا يرتكب مثل هذا العمل نفسه ؟ يقولون إن هذا الراهب قس متحرر مرح ، يؤثر كأس النبيذ وبوق الصيد على الصلاة والكتاب المقدس . حسنا ، فليات على الرحب والسعة . ما اسم قارس المعبد ؟ »

— « بريان دي بواجيلبرت ، فاستطرد سيدريك قائلاً بنفس النغم المليء بالتأمل ، والذي يشبه حديث رجل إلى نفسه أكثر من توجيهه إلى من حوله : بواجيلبرت ؟ إن لهذا الاسم شهرة عريضة في الخير وفي الشر . يقولون إنه مقدم كأشجع من في طائفته ، ولكن خصالمهم المرذولة المعروفة قد لوئته : الكبرياء - البذاءة - القسوة - شهوة المذات ، إنه رجل قاسى القلب لا يعرف الخوف من الأرض أو الرهبة من السماء ، هكذا يقول المحاربون القلائل الذين عادوا من فلسطين . حسناً إنها الليلة واحدة . سرحب بهم . « أوسولد ، افتح أعتق دن للنبيذ ، وضع على المائدة أشهى الشراب وأقوى أنواع الجمعة وعسل النحل المعطر الفاخر ، وأطيب النبيذ المخلوط بالتوابل . املاً أعلى الكؤوس فإن الفوارس والرهبان يحبون الأنبذة الشمية والكيل المترع . « لجيشا . اذهبي إلى سيدتك « رويانا ، وقولي لها إننا في هذه الليلة لن نتنظر مجيئها إلا إذا رغبت في ذلك « فأجابته « لجيشا ، على الفور .

— « تلك ستكون رغبتها الخاصة لأنها تهفو إلى سماع آخر الأنباء عن فلسطين ، .

فنظر سيدريك إلى الفتاة الجريئة نظرة فيها حنق ، ولكن « رويانا ، وكل من يتبعها كن ذوات مكانة خاصة تجعلهن بمنأى عن غضبه ، ولم يفعل شيئاً إلا أن قال :

— « صمتاً يافتاة . إن لسانك يسبق فكرك ، ما عليك إلا أن تحملي رسالتى هذه إلى سيدتك ولها أن تفعل ما يحلوها . هنا على الأقل سلبية الملك « الفريد ، لارالت تحمك كأميرة . وعند هذا غادرت « لجيشا ، القاعة ، وبدأ الساكوني يكرر القول : فلسطين ا فلسطين ا كم من آذان تصغى للقصص التي يأتيها من تلك الأرض المنكودة صليبيون منحطون أو حجاج

مناققون انا ايضا أستطيع أن أسأل - أنا أيضا أستطيع أن أتقصى -  
أنا أيضا أستطيع أن أصغى بقلب خفاق إلى الأساطير التي يبتدعها الجائلون  
الماكرون اينالوا ضيافتنا بالحديعة ، ولكن ، كلاً لم يعد الابن الذي عصاني.  
ابنألى ، ولن أشغل البال بعد الآن بمصيره أكثر من مصير أحقر واحد  
من الملايين الذين رسموا الصليب على أكتافهم ، واندفعوا إلى العنف وسفك  
الدماء مدعين أن في ذلك تنفيذاً لإرادة الله . ثم قطب جيئنه وثبت عينيه  
لحظة على الأرض ، وعندما رفعهما رأى الأبواب المطوية في آخر القاعة  
تفتح على مصارعها ، ويدخل ضيفا المساء يتقدمهما رئيس الخدم بعصاه  
وأربعة آخرون يحملون المشاعل الوهاجة .

**\*\* معرفتي \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامه**

## الفصل الرابع

كانت الخنازير والأغنام والماعز ذوات الفراء كلها تدمى  
كذلك كان العجل المتكبر موضوعا على المائدة  
وكانت النيران معدة وشرائح اللحم تدور على الأكلين  
بينما كانت الأقداح مترعة بالشراب متوجة به  
وكان ، يوليسيس ، مشتركا في الوليمة منتحيا جانبا  
وكانت المائدة قائمة على ثلاثة أرجل والمقعد حقيرا  
وجلس الأمير . . . . .

( من الإلياذة الكتاب ٢١ )

اقتنص رئيس الدير د آيمر، الفرصة التي أتاحت له فاستبدل ثوب ركوبه  
بآخر من خامات أئمن ، وارتندي فووه عباءة كهنوتية ذات نقوش عجبية ،  
وبالإضافة إلى الخاتم الذهبي الضخم الذي يدل على مقامه الكنائسي الرفيع ،  
فقد كانت أصابعه مثقلة بكثير من الأحجار الكريمة على الرغم من مخالفة ذلك  
لتعاليم الكنيسة ، وكان نعلاه من أنغر الجلود المستوردة من أسبانيا . ولحيته  
مشذبة إلى أصفر حجم ياذن به قانون طائفته ، ويخفى قه رأسه بغطاء قرمزي  
صغير جميل المنظر .

بدل الفارس من ملابسه أيضا ، ومع أن ثوبه كان أقل امتلاء بالزينة  
إلا أنه لا يقل أبهة عن ثوب صاحبه ، وكان مظهره أكثر قوة من مظهر  
رفيقه . استبدل قيصره الزردي بآخر داخلي من الحرير الأحمر القاتم محلي  
بالفراء ، ينساب من فوقه رداء ناصع البياض في طيات فضفاضة ، وكان  
صليب طائفته المثمن المصنوع من المخمل الأسود مثبتا على كتف عباءته ،

وقد انحسر غطاء الرأس الطويل عن جبين تدلت فوّه خصلات من الشعر الغزير القصير المتموج الفاحم والمتسق مع سمرة بشرته ، وما كان هناك أكثر وقارا من خطواته الوثيدة لو لم تتسم بطابع واضح من الكبرياء والاختيال اللذين اكتسبها في غير مشقة من ممارسته اسلطة لم يناهضها أحد .

كان خدمها يقعون هذين الرجلين الجليلين ، وعلى مبعده قليلة منهما أقبل مرشدهم الذي لم يكن في مظهره ما يميزه إلا شارة حجاج الأراضى المقدسة ، وكان يلتف بعباءة أو معطف من قماش خشن أسود كمعاطف فرسان « الهوسار ، المحدثين ، ولها حواش مائلة لتغطية الذراعين وكانت تسمى « سكلافين ، أو « سكلافونيان ، ) وفي قدميه خفان موثقان بشرائح من الجلد، وعلى رأسه قبة عريضة ظليلة ثبتت في حافتها أصداف ، بحرية ، وكانت تتمم هيئة ذلك الحاج عصا طويلة في طرفها قطعة من الحديد ، وفي أعلاها غصن من نخيل الزعف . كان يسير في خضوع وراء آخر رجال الحاشية الذين دخلوا القاعة ، وعندما رأى أن المائدة المنخفضة لانكاد تنسج لخدم سيدريك وحاشية ضيفيه ، فقد قصد إلى مقعد قريب من إحدى المدختين الضخمتين ويكاد أن يكون في أسفلها تماما ، ثم تظاهر بأنه في شغل عنهم بتجفيف ملابسه إلى أن يهيء انسحاب شخص ما مكانا له على المائدة أو يزوده أحد الخدم - مدفوعا بكرم الضيافة - بطعام وشراب في ذلك المكان القصى الذى وقع عليه اختياره .

نهض سيدريك لاستقبال ضيفيه بصورة تم عن كرم الوفادة ، ونزل من فوق المنصة أو المكان المرتفع بالقاعة، ثم خطا نحوهما ثلاث خطوات وانتظر اقترابهما ثم قال لهما :

- « إنه لمن بواعث أسنى أيها الرئيس الجليل ألا أحنث في قسم صدر عنى فأخطو إلى أكثر من ذلك على أرض آبائى هذه ، حتى ولو كان ذلك لاستقبال ضيفين مثلك ومثل هذا الفارس الباسل من فرسان المعبد المقدس،



ولكن رئيس خدي قد أوضح لكما دوافع هذا السلوك الذي لا يتفق مع آداب اللياقة . أرجو كما أن تلتمسالى المعاذير فى التحدث إليكما بلغى الأصلية، وأرجو أن تجيبا على باللغة نفسها إذا سمح بذلك لإناكما بها ، وإلا فإنى أستوعب من اللغة النورماندية ما ينى بتتبع معانيكم . فقال الراهب :

— «أيا السيد الجليل على الرغم من أن هذا اللقب قد غدا قديما إلا أن اليهود لا ينبغى أن تهدر ، فهى الوثاق الذى يربطنا بالسما ، وهى القيود التى توثق الضحية بالمذبح ، ولذا ، كما قلت من قبل ، لا ينبغى إهدارها أو النكوص عنها إلا إذا قالت أمنا المقدسة غير ذلك .

أما عن اللغة فإنى أتكلم عن طيب خاطر بلغة جدتى الموقرة « هيلدا أوف ميدهام ، التى ماتت وهى تمعد ، مشتركة فى المصير — لو جاز لنا أن نقول ذلك — مع سميتها المجيدة « هيلدا أوف ويتى ، لينعمدها الله برحمة.

وعندما انتهى الراهب من خطابه الذى كان يهدف به إلى استمالة سامعه إليه ، قال صاحبه بلهجة مقتضبة حاسمة :

— «إنى أتكلم دائما باللغة الفرنسية — لغة الملك رينشارد ونبلائه — ولكنى ألم بالإنجليزية إلاما أستطيع معه التفاهم مع أهالى هذه البلاد . فنظر سيدريك إليه إحدى النظرات السريعة الضجرة التى كاثت تثيرها دائما أمثال هذه المقارنات بين الشعبين المتنافسين، ولكنه عندما تذكر واجبات الضيافة ، أخفى كل بادرة من بوادر حنقه وغضبه، وأشار بيده إلى ضيفه لكى يجلسا على مقعدين أقل ارتفاعا من مقعده، ولكنهما كانا قريين منه أشد الاقتراب، ثم أمر الخدم بوضع طعام العشاء على المائدة .

وبينما كان الاتباع يسرعون إلى طاعة أوامر سيدم ، ظهر «جيرث ، راعى الخنازير الذى دخل القاعة آتذ ومعه رفيقه «وامبا» . فقال للساكونى غاضبا :

- « هاتوا لي هذين الوغدين المتسكعين ، . وعندما مثل المذنبان أمام المنصة صاح فيهما :

- « لماذا تلكأتما في الخارج أيها الوغدان إلى هذا الوقت المتأخر ؟ هل أعدت إلى المنزل ما مؤكل إليك ياسيد «جيرث» ، أم تركته نهباً للصوص والأفاقين ؟ . « فقال جيرث ، .

- « القطيع في أمان فلا تحزن ، . فقال سيدريك :

- « ولكنه ليس بما يبهجنى أيها الوغد أن أترك على اعتقادي بنقيض ذلك مدة ساعتين، وأجلس هنا أعد الانتقام من جيراني لذنوب لم يقترفوها. دعني أقل لك إنى سأعاقبك بالقيود والسجن إذا ارتكبت هذا الخطأ مرة أخرى .

لم يحاول «جيرث» ، أن يعمل على تبرئة نفسه لما يعرفه عن طبع سيده الثائر ، ولكن «وامبا» ، الذي كان في استطاعته أن يعتمد على تسامح سيدريك لما له من دالة عليه كهرج قد أجاب عن كليهما قائلاً :

- « حقيقة يا عمي سيدريك إنك لست اللبلة حصييفا ولا كيسا ، . فقال سيده :

- « كيف ذلك أيها السيد ؟ ، سأبعث بك إلى كوخ حارس الباب لتذوق طعم النظام هناك إذا تركت لحماقتك مثل هذا العنان في القول ، . فقال «وامبا» ، .

- « دع حصافتك تجيبني أولاً : هل من العدل والكياسة أن تعاقب شخصا على خطأ ارتكبه غيره ؟ ، فأجاب سيدريك :

- « أوكد لك أن لا أيها الأحمق . ، فقال وامبا :

- « إذن يا عمى لماذا تفيد جيرث المسكين بالأغلال من أجل خطأ أتاه فأنجز؟ إنى أستطيع أن أقسم على أننا لم نهدر دقيقة واحدة سدى على الطريق عندما جمعنا شمل قطيعنا سويا ، وهذا ما لم يستطع فأنجز أن يحققه حتى سمعنا دقات ناقوس الصلاة : فالتفت سيدريك مسرعا نحو راعى الخنازير وقال له :

- « إذن فاشنق فأنجز إن كان هو الذى ارتكب الخطأ واتخذ لك كلبا آخر . » فقال المهرج :

- « تمهل يا عماء فذلك ليس من العدالة فى شىء . إنه لم يكن خطأ فأنجز . إنه أعرج لا يقوى على جمع القطيع ولكنه خطأ أولئك الذين قطعوا مخليه الأماميين ، وهو أمر لو استشير فيه المخلوق المسكين لما رضى به . » فقال الساكسونى وهو يتحرق غضبا :

- « ومن ذا الذى اجترأ على أن يلحق الإيذاء بحيوان يمتلكه خادمى؟ » فقال وامبا :

- « إنه « هربرت العجوز ، حارس صيدبير « فيليب دى ما لثوازن » . لقد أمسك بفأنجز وهو يتجول فى الغابة وادعى أنه كان يطارد الظباء مخالفا فى ذلك أمر مولاه كسيد للغابة . » فأجاب الساكسونى :

- « لياخذ الشيطان اللعين ما لثوازن وحارسه كليهما ، سأعلمهما أن هذه الغابة لا يسرى عليها الحظر طبقا لقانون الغابة العادل ، ولكن كفى هذا . اذهب أيها الوغد إلى مكانك ، وأما أنت يا « جيرث » ، فاتخذ لك كلبا آخر ، وإن اجترأ الحارس على أن يمهه فأسمنعه من مزاولة الرماية بالقوس ، ولتحل لعنة الجبناء على رأسى إن لم أقطع سبابة يده اليمنى حتى لا يقوى على جذب وتر القوس . أستمبحكما عنرا يا ضيفىّ الجليلين إنى محاط هنا بحيران

لا يختلفون عن كفارك في الأراضى المقدسة ياسيدى الفارس ، ولكن ها هو ذا طعامك أمامك ، وسيقوم ترحيبنا بالشفاعة للقليل الذى نقده ، .

قال هذا على الرغم من أن ألوان الطعام الموضوعة على المائدة لم تكن فى حاجة إلى أن يلتمس سيد القصر المعاذير، فقد وصف على الجزء المنخفض من المائدة لحوم الخنزير المطهية بطرق مختلفة، وكذلك الطيور والغزلان، والماعز والأرانب البرية وأنواع عديدة من الأسماك، هذا بالإضافة إلى أرغفة ضخمة وكعكات من الخبز، وأنواع متعددة من المربة المصنوعة من الفواكه وعسل النحل، وكانت الطيور البرية الوفيرة تقدم على أسياخ صغيرة من الخشب بدلا من الصحف بواسطة الخدم الذين كانوا يحملونها إلى كل ضيف على التوالى فيقطع كل منهم ما يشاء. وإلى جانب هذا فقد وضعت كأس فضية إلى جوار كل ضيف ذى مقام عال، وقرون كبيرة على الجزء المنخفض من المائدة ليتناول فيها الجالسون عليها شراهم.

وعندما أوشكوا على بدء تناول الطعام، صاح رئيس الخدم فجأة رافعا عصاه، وقال بصوت عالٍ:

- تمهلوا! أفسحوا الطريق لليدى «روينا»، وهنا انفرج باب جانبي بالجزء العلوى من القاعة خلف المائدة عن «روينا»، يتبعها أربع من وصيفاتها، فأسرع سيدريك إلى لقائها وقادها بإجلال شديد إلى المقعد المرتفع إلى يمينه والمخصص لسيدة المنزل، ولكنه كان دهشا ضائقا لظهور ربيته علانية فى هذا المقام وأمام ذلك الجمع. وقف الجميع إجلالا لها، أما هي فقد ردت عليهم تحييتهم بإيماة صامتة، وخطت إلى الأمام فى رشاقة لكي تتخذ مكانها على المائدة، وقبل أن تجلس، همس الفارس فى أذن الراهب قائلا:

— « لقد ربحت الرهان ، ولن أرتدى قلادتك الذهبية في المباراة ،  
وأما نبيذ ( شيان ) فهو لك ، فقال الراهب :

- « ألم أقل لك ذلك ؟ ولكن لا تسرف في إظهار إعجابك بها فإن  
الفرانكلين يرقبنا . »

ظل « بريان دي بواجيلبرت » لا يجرد بعينه عن الحناء السكونية  
مغفلا تحذير صاحبه له لأنه درج على ألا يأتمر إلا بما تمليه عليه رغباته  
الوقتية ، وأربما لأن جمالها كان ذا أثر عميق على أحاسيسه لأنه يختلف  
كثيراً عن جمال فانتات الشرق زوجات السلاطين .

كانت « رويانا » كأبهي ما تكون من بنات جنسها تناسقا ، طويلة القامة  
في غير إسراف يسترعى الأنظار ، ذات بشرة ناصعة البياض ، ولكن  
جمال رأسها ونبيل قسماتها كانا يحذران على حسنهما أن يكون بلا طعم كـ بعض  
الشقراوات . كانت عيناها الزرقاوان الصافيتان المستمرتان تحت حاجب  
رشيق لا يبدى من جبينها إلا ما يسمح بإظهار تعابيره — تبدو قادرة على  
إشعال النار أو إخمادها — قادرة على السيطرة والخضوع . وإذا كانت  
الأنوثة هي الطابع المميز لهذه السمات ، فقد كان واضحاً في « رويانا » هذه  
أن استخدامها لسيطرتها التي درجت عليها ، وتبجيل الجميع لها قد أضنى على  
السيدة الساكونية تعاليا امتزج بطبيعتها وكان ذا أثر فيها . كان شعرها  
الغزير الذي يتراوح لونه بين البني والكتاني جميلاً منسقاً في حلقات عديدة  
لا بد وأن تكون يد الفن قد ساعدت يد الطبيعة على تنسيقها . كانت  
تلك الخائل محلاة بالأحجار الكريمة ، ولما كانت مترسلة على مدى طولها  
فقد أوحى بالمنبت النبيل لتلك السيدة وعراقها الحرة ، وتدلّت من حول  
جيدها سلسلة ذهبية علقت بها أيقونة صغيرة ، وكانت تلف حول  
ذراعها العاريين أساور من ذهب ، وترتدى قميصاً وأزراراً من حرير أخضر

لونه باهت ، وعليه رداء طويل ، تجر أذياله ، ذو كمين شديد الاتساع لا يتجاوزان ما بعد المرفقين إلا قليلا ، وكان هذا الرداء قرمزي اللون مصنوعا من أنغر أنواع الصوف ، وقد ثبت في الجزء العلوى منه خمار<sup>١</sup> رقيق من الحرير الموشى بالذهب ، يمكن استخدامه وفق رغبة مرتديته ، إما مسجى على الوجه والصدر كما تفعل نساء أسبانيا ، وإما كدوع من الوقار حول الكتفين .

وعندما تراهى لرونيا أن عيني الفارس لا تكفان عن الإحداق بها ، واللين إذا ما قورتنا بالكهفين المظلمين اللذين كانتا تتحركان من تحتها بدنا وكأنها جمرتان وهاجتان ، أرخت الخمار في وقار وهي بذلك تشير إلى استيائها من تلك النظرة الملاحه النهمه ، ورأى سيدريك ما فعلته رونيا وما دعاها إلى ذلك ، فقال :

- « أيها الفارس . إن وجنات فتياتنا الساكسونيات لم تر من الشمس إلا قدرا طفيفا لا يسمح بنظرة أحد الصليبيين الثابته . »  
فقال سير بريان :

- « إن كانت قد بدرت منى إساءة فأرجو المعذرة ، أعنى أنى أقدم عذرى للسيدة «روينا» ، لأن تواضعى لن يحملنى على أن أقدم الاعتذار لمن هو أدنى منى مقاما . فقال الراهب :

- « لقد أنزلت الليدى رونيا العقاب بنا جميعا بماقبتها لصديقى على جرأته ، وإنى لأرجو ألا تكون شديدة القسوة على الجمع الفاخر الذى سيلتقى فى المباراة . » فقال سيدريك :

- « إن ذهابنا إلى ساحة المباراة أمر غير محقق . إنى لا أحب هذه المظاهر التى كانت غير معروفة لدى آبائى عندما كانت انجلترا حرة . »  
فقال الراهب :

- « وعلى الرغم من ذلك فإننا نأمل أن تقنعك صحبتنا بالذهاب إليها، عندما تكون الطرق غير آمنة على هذا النحو، فإن رقيقة سير بريان دي بواجيلبرت أمر لا يستهان به . . فقال الساكسوني :

- « يا سيدي الراهب ، أينما سافرت في هذه الأرض ما وجدت نفسى حتى هذه اللحظة في حاجة إلى هون غيرى ، وذلك بفضل سيني المسلول وأتباعى الأماناء ، والآن إذا مست بنا الحاجة إلى الرحيل إلى «آشبي دي لازوش» ، فيكون في صحبتنا في تلك السفرة جارى النبيل ومواطنى آئيلستين أوف كوتجزبره ، ومعنا حاشية كفيلة بردع الخارجين على القانون والأعداء الإقطاعيين . إننى أشرب نخبك أيها الراهب ، اشرب هذه الكأس من النبيذ ، وإنى لعلى ثقة من أن مذاقه سيروقك ، وشكراً لك على مجاملتك ، ثم أضاف « أما إذا كنت ملزماً بالتمسك بقوانين الدير فتؤثر مستحضرات لبنكم ذى المذاق الحمضى ، فإنى آمل ألا تسوقك اللياقة إلى مجاراتى . .

فقال القس ضاحكاً : « إننا مقيدون بتناول اللبن الحلو أو الحمضى داخل جدران المعبد فقط ، ولكننا عندما نتحدث مع العالم فإننا نستعمل أساليب العالم ، وعلى هذا فإنى أشرب هذا النبيذ القوى استجابة لنخبك ، وأترك الشراب الخفيف لراهي المساعد . .

فقال الفارس وهو يملأ كأسه : . .

- « وأنا أشرب كأس نخب خضوعى لروينا الجميلة لأنه منذ أن أدخلت سميتها الكلمة الدالة على هذا النخب إلى إنجلترا ، فإنى أعتقد أن هذه البلاد لم تنجب من هو أحق منها بهذا التقدير . أقسم يا يمانى أنى ألتمس للمعاذير « لثورتيجرن » ، العنس لو حطم شرفه وملكته إذا مارأى نصف هذا الجمال الذى نراه الآن . . فقالت « رويانا ، بوقار دون أن ترفع لكأما عن وجهها :

« إنى لست فى حاجة إلى المجاملة أيها السيد الفارس ، وإنما أطلب إليك أن  
تقص علينا آخر الأنباء عن فلسطين ، وهو أمر أجمل وقمأ فى آذاننا  
الإنجليزية من المجاملات التى لقتكم إياها نشأتم الفرنسية ، فأجاب السير  
« بريان ، دى بواجيلبرت » .

— « ليس لدى شىء هام أنبئك به أيتها السيدة إلا الأخبار الوثيقة  
عن إبرام هدنة مع « صلاح الدين » .

وهنا قاطعه « وامبا » ، الذى كان جالسا على مقعد مزدان الظهر بأذنى  
حمار خلف مقعد سيده بحوالى خطوتين ، وكان يمد يده بين حين وحين بالماكل  
من صفحته الخاصة ، وكان يشترك مع المهرج فى هذه اللقطة كلابه المفضلة  
التي كان عدد كبير منها حاضرا كما لاحظنا ذلك من قبل . هنا كان يجلس  
« وامبا » ، وأمامه مائدة صغيرة وقدماه راسيان على قضيب المقعد ، وقد  
غارت وجنتاه فبدا فكاه ككسارة الجوز ، وعيناه نصف مغلقتين ، ومع  
ذلك فقد كانتا ترقبان بيقظة كل فرصة تسنح له لممارسة مزاجه المباح ، فصاح  
على حين غرة غير مبال بالطريقة التي قطع بها على الفارس المهيبة  
حديثه قائلا :

— « إن هذه المهادنات مع الكفار تجعل منى رجلا هزما ، . فنظر  
إليه سيدريك وقسمات وجهه على استعداد لأن تقبل المزحة المنتظرة تقبلا  
حسنا ، واسترسل وامبا قائلا :

— « لأنى أذكر أن ثلاثا منها قد أبرمت فى حياتى ، وظلت كل هدنة  
منها لمدة خمسين سنة ، واستنادا إلى ذلك فإن عمرى يجب أن يكون مائة  
وخمسين عاما على الأقل ، .

فقال الفارس الذى عرف فيه أنه الرجل الذى قابله فى الغابة :



— «إني كفيل لك بأهلك لن تموت من الهرم على كل حال ، وأجب أن أؤكد لك أنك لن تموت إلا إذا أعطيت المسافرين إرشادات كتلك التي أعطيتها هذا المساء لرئيس الدير ولي . . . . . وستكون مئة بشعة .»  
قال سيدريك :

— «كيف هذا؟ أنضلل المسافرين؟ يجب أن نلبيك بالسياط . لا ريب في أنك شرير أحمق .» فقال المهرج :

— «أضرع إليك بأعمى أن تدع حماقتي تغفر لشري لمرة واحدة . إني لم أخطيء إلا في التمييز بين يدي النبي ويدي اليسرى ، ومن يتخذ من الأبله مستشاراً له ومرشداً ، فعليه أن يغفر له من الأخطاء ما هو أشد جلا .» وهنا قطع الحديث دخول حارس الباب الذي أعلن أن بالباب الخارجي رجلاً غريباً يطلب الإذن بالدخول والضباقة ، فقال سيدريك :

— «فليدخل من ومها يكن ، إن ليله كهذه تزجر في الخارج ، لتسوق حتى الضواري لأن تتجمع مع الحيوانات الأليفة ، وتلجأ إلى حي الإنسان عدوها اللدود ، بدلا من أن تعصف بها الأجواء . أجيئوا مطالبه بكل رعاية ، وتول يا د أسولد ، هذا الأمر .»

غادر رئيس الخدم قاعة الوليمة ليرى ما إذا كانت أوامر سيده قد أطيعت.

## الفصل الخامس

أليس لليهودى عينان ؟ أليس له يدان وأعضاء وحواس ومشاعر وأحاسيس ؟ ألا يعيش على نفس الطعام ؟ ألا يصاب بنفس الأسلحة ؟ ألا يتعرض لنفس الأمراض ؟ ألا تبرئته نفس العقاقير ؟ ألا يدفا ويبرد بنفس أجواء الشتاء والصيف ، مثله في ذلك مثل المسيحى ؟ .

( من تاجر البندقية )

عاد ، أسولد ، وهمس في أذن سيده قائلاً :

— « إنه يهودى يسمى نفسه « إسحق أوف يورك » ، فهل من اللائق أن تأذن له بالدخول إلى القاعة ؟ » . فقال وامبا بيناهته المعهودة :

— « فليقم « جيرث » بهذه المهمة لأن راعى الخنازير خير من يقود اليهودى » . فقال الكاهن وهو يرسم علامة الصليب على صدره :

— « يا للقديسة مريم ا كلب يهودى ويؤذن له بالثول في حضرتنا ا » .  
وردد الفارس قوله :

— « كلب يهودى ويقرب من أحدا حمة قبر السيد المسيح ا ، وقال « وامبا » :

— « أقسم يا إلهى على أنه يدولى أن فرسان المعبد يؤثرون أن يرثوا اليهود على أن يصاحبوم » . وقال « سيدريك » :

— « حنانيكما يا ضيفى . ينبغي ألا تكون هناك صلة بين كراهيتكما وبين كرم الوفادة ، وإذا كانت السماء قد احتملت شعبا بأسره من الملحدين ذوى الأهناق المتصلبة طيلة سنوات يعجز المرء عن أن يحصيا ، فإننا نستطيع احتمال بقاء يهودى واحد لبضع ساعات ، هذا وإنى لا أكره أحدا على

للتحدث إليه أو تناول الطعام معه. أعطوه منضدة وطعاما وليجلس وحيداً. ثم أضاف باسمه إلا إذا قبل هذان الفريسيان المعلمان صحبته. . فقال الفارس:

— « ياسيدى الفرائسيين ، إن عبدى المرينين مسلمان مؤمنان ، وهما كأي مسيحي يزدريان أي اختلاط يهودي . . فقال وامبا :

— « حقا ، إنى أرى الآن أن أتباع محمد يتميزون بكثير عن كانوا يوماً شعب الله المختار . . فقال سيدريك :

— « إنه سيجلس معك يا وامبا . إن الوفاق يحل بين الأحمق والقيم . . فقال وامبا وهو يرفع بقايا نخذه من لحم الخنزير :

— « إن الأحمق سيعنى بإقامة سد بينه وبين القيم . . فقال سيدريك :

— « صه . ها قد حضر . .

أدخل اليهودى إلى القاعة خائفاً وجلالاً ، ويقوم بانحناءات تفيض خضوعاً وذلة . إنه رجل طويل القامة نحيل الجسد ، قد أفقده اعتياده على الانحناء كثيراً من طوله الحقيقي ، واقتراب من طرف المائدة المنخفضة . كان من المستطاع اعتباره وسيماً بملاحة الحادة المنسقة وأنفه الأقي ، وعينه النفاذتين السوداوين ، وجبينه المرتفع الذى ارتمت عليه التجاعيد ، وشعره الرمادى الطويل ولحيته المسترسلة ، لو لم تبد على وجهه تلك الأمارات التى يتصف بها بنوقومه الذين كانوا فى تلك العصور المظلمة موضع حقد وكراهية من العامة للمذبح المتعصبين ، واضطهاد النبلاء الطامعين الجشعين ، ومن المحتمل أن يكون أولئك اليهود قد اتخذوا لأنفسهم — بسبب تلك الكراهية وذلك الاضطهاد — ألباناً قومياً أقل ما يقال فيه إنه ينم عن الحنة والضعف والنفور .

كان رداء اليهودى الذى عبئت به العاصفة مكوناً من عباءة بسيطة متعددة الطبقات يميل لونها إلى الاحمرار ، ومن تحتها سترة حمراء قائمة ، ويفعل حذاء

ضعها ذا بطانة من فراء ، يتمنطق بحزام تتدلى منه سكين صغيرة ، ومعها صندوق يحتوي على أدوات للكتابة ، ولكنه ما كان يحمل سلاحا ، ويرتدى غطاء للرأس عاليا مربع الشكل أصفر اللون من طراز معين اختص به بنوجنسه ليميزهم عن المسيحيين ، وقد خلعه عند باب القاعة مسرفا في خضوعه .

كان الاستقبال الذي قوبل به هذا الرجل في قاعة سيدريك الساكسونى ، ايعت على البهجة في نفوس أكثر أعداء بنى إسرائيل حقداً وحنفاً ، حتى إن سيدريك نفسه قد رد على تحريات اليهودى المتعاقبة بإيماءة فيها جمود كبير ، وأشار إليه بأن يتخذ له مكانا على طرف المائدة المنخفضة إذ أن أحداً من الحاضرين لم يفسح له مكانا ، بل على النقيض من ذلك ، فإنه عندما كان يمر بالجالسين ناظراً إليهم نظرة فيها جزع وفزع ، وفيها استعطاف وخنوع ، ويتلصقا عند كل جالس على الجزء المنخفض من المائدة ، كان الخدم الساكسونيون يرفعون أكتافهم سخريه منه ، ولا يكفون عن التهام طعامهم غير آبهين بمطالب الضيف الجديد ، ورسم أتباع رئيس الدير علامة الصليب على صدورهم تفيض نظراتهم خشوعا وتقوى ، وحتى الأعرابيان اللذان ما كادهما إسحق ، يقترب منهما ، حتى فتلا شاريهما غضبا ، ووضعاً أيديهما على مقبضى خنجريهما وكأنهما يريدان أن يكونا على استعداد لخلاص نفسيهما عن بعد من أن يتلوثا باقترابه .

ربما كانت دوافع كرم الضيافة التى حدثت بسيدريك إلى أن يفتح بابه لأحد أفراد هذا الجنس المنبوذ ، هى التى تجعله يصر على أن يستقبل أتباعه إسحق ، بمزيد من حسن اللقاء ، ولكن رئيس الدير فى تلك اللحظة كان قد شغله بمجدل شيق عن تربية كلابه ذات الحظوى وطباعها ، وما كان ليقطع هذا الحديث ويشغل باله بمبيت يهودى دون عشاء . وبينما كان إسحق ، وواقفا هكذا منبوذا من الجمع كله نبت سائر أمم الأرض لجنسه ، يبحث عبثا

عن ترحاب أو مكان يسكن إليه ، أشفق عليه الحاج الذي كان جالساً بالقرب من المدفأة ، فنادر مقعدة وقال له باقتضاب :

— « أيها الرجل المسن ، لقد جفت ملابسي وامتلا جوفي ، وأما أنت فلازلت . مبتلا جامعاً ، وعند ذلك جمع الجمرات الحامية المتناثرة في المدفأة الواسعة وأزكى نارها ، ثم أخذ من فوق المائدة الكبيرة وطاه به حساء ولحم ماعز مسلوق ، ووضعه على المائدة الصغيرة التي تناول عشائه عليها ، ودون أن ينتظر شكراً من اليهودي ، قصد إلى الجانب الآخر من القاعة ، ونحن لا نستطيع أن نقول على وجه التحقيق إن كان قد فعل ذلك مدفوعاً برغبته في عدم توثيق صلواته بمن كان موضع شفقتة ، أو لأنه أراد الاقتراب من طرف المائدة العليا . ولو كان هناك فنانون في تلك الأيام قادرين على رسم هذا المرأى : اليهودي حان جسده المنكش ، ماداً يديه الباردين المرتعدين فوق النار ، لأخرجوا للناس تجسيدا رمزياً رائعاً عن فصل الشتاء . وعندما أحس بالدفء ، استدار لهفانحو الحساء الساخن الموضوع أمامه ، وأكل بنهم واستمتاع ظاهرين ينيان عن أنه لم يتناول طعاماً منذ وقت طويل .

في تلك الأثناء كان الراهب وسيدريك لا يكفان عن النقاش في شئون الصيد ، وروينا غارقة في الحديث مع إحدى وصيفاتها ، وأما الفارس الصلف الذي كانت عيناه تنتقلان بين اليهودي والحسناء الساكسونية ، فقد كانت تجرى في رأسه أمور بدت وكأنها قد شغلت عليه باله .

استأنف الراهب حديثه إلى سيدريك قائلاً :

— « إن الدهشة لناخذني يا سيدي الفاضل من أنك مع إعجابك بلغتك التي تنطوي على الشهامة ، فإن اللغة النورماندية الفرنسية لا تلتقي من لدنك تجولاً وخاصة فيما يتعلق بأسرار ارتياد الغابات والصيد . لا ريب في أنه حامن لغة أغنى منها بالتعابير العديدة التي تتطلبها الرياضات الخارجية ، أو تيسر لحارس الغابة المحنك أن يصورفته المرح بأهني صورة . » فقال الساكسوني :

- فتعلم أيها الأب الطيب ، أمير ، أنني لأعيا كثيرا بتلك المصطلحات الأجنبية التي أستطيع بدونها أن أجد معنى في الغابة . أستطيع أن أنفخ في بوقى ولا أسمى هذا العمل باسم أجنبي . أستطيع أن أطلق كلابى وراء الفريسة . أستطيع أن أنزع عن الحيوان جلده وأقطعه إذا ما سقط دون أن استعمل المصطلحات المستوردة حديثاً وما إليها من لغو بمائى . . فقال الفارس رافعا صوته باهجته المزهوة التي تفيض اعتداداً بالنفس والتي يتحدث بها على الدوام :

- إن اللغة الفرنسية ليست اللغة الطبيعية للصيد لحسب ، بل هى لغة الحب والحرب أيضاً ، وعن طريقها تستطيع اكتساب قلوب الغايات وهزيمة الأعداء . . فقال سيدريك :

- اشرب معى أيها الفارس كأساً من النبيذ ، واملأ للراهب أخرى ، بينما أعود بذاكرتى إلى ثلاثين عاماً خلت لأقص عليك إحدى القصص . . كانت لغة سيدريك الإنجليزية البسيطة في تلك الأيام لا تفتقر إلى تنميق المغنين الفرنسيين الذين يسكبون أفانين الغزل في آذان الحسانوات ، وكان ميدان « نورثا ليرتون » ، يوم معركة « الراية المقدسة » ، يستطيع أن يروى إن كان نداء الحرب الساكسونى لم يسمع على مدى بعيد داخل صفوف الجيوش الاسكتلندية كصيحة حرب تصدر عن أشجع بلرون نورماندى . . اشربا معى نخبهم يا ضيفى ، . ثم احتسى جرعة عميقة ، وتابع قوله بحرارة ، . نعم ، لقد كان يوماً تحطمت فيه الدروع عندما كانت مائة راية مندفعة إلى الأمام فوق رؤوس الأبطال ، والدماء تسيل كالماء ، والموت أفضل من الفرار . لقد قال فيها أحد الشعراء الساكسونيين إنها « عيد السيوف » ، . اجتمع النسور الجارحة من أجل فريسة ، صليل الأسلحة على الدروع والخوذات ، صرخات معركة أبهى من صخب ليلة زفاف . . ثم قال ، ولكن شعرا منة قد انقرضوا ، وأعمالنا ضائعة في خضم أعمال جنس آخر ، ولقتنا وحتى اسمنا يسيران حيثما نحو الفناء ، وليس هناك من ينصهما سوى رجل وحيد

تقدمت به السنون . أيها الساقى ، ياوغد ، املاً الأقداح . فلنشرب ياسيدى  
الفارس نخب الأقوياء فى السلاح الذين يصمدون فى فلسطين بين أبطال  
الصليب أياً كانوا لغة وجنسا . فقال سير ، بريان دى بواجيلبرت ، .

— « لا يحمل! بشخص يحمل هذا الشعار أن يجب ، ولكن خبرنى ،  
إلى من يمكن أن يهدى إكليل الغار من بين حماة الصليب إلا لأولئك الذين  
أقسموا على أن يكونوا حماة لقبر المسيح المقدس ؟ . فأجاب الراهب :

— « إلى فرسان الضيافة فإن لى أخا فى طائفهم ، . فقال سيدريك :  
— « إنى لا أحاول أن أنكر عليهم شهرتهم ولكن . . . . . وهنا أقدم  
« واما ، بنفسه فى الحوار وقال :

— « أظن أيها الصديق سيدريك أن ريتشارد قلب الأسد ، لو كان  
من الحصافة بحيث استمع إلى نصح أحد الحقى ، لبقى فى مملكته مع رعاياه  
الانجليز للرحين ، ولتغلى عن استعادة ، أورشليم ، إلى هؤلاء الفرسان  
الذين يرجع إليهم السبب فى فقدانها ، . وقالت اللىدى ، رويننا ، :

— ألا يوجد إذن من بين جنود الجيش الانجليزى من هو جدير بذكر  
اسمه مع فرسان للمعبد وفرسان القديس يوحنا ؟ . فأجاب بواجيلبرت قائلاً :

— « معذرة ياسيدى ، حقا لقد ذهب الملك الانجليزى إلى فلسطين على  
رأس جيش من المحاربين البواسل لا يفضلهم إلا أولئك الذين كانت صدورهم  
على الدوام دروعا واقية لتلك الأرض المقدسة ، . فقال الحاج الذى كان  
واقفا على مقربة لينصت وقد استمع إلى هذا الحوار بضيق ظاهر :

— « ليس هناك من يفضلهم ، . فالتفت الجميع ناحية المكان الذى  
صدرت منه هذه للمقاطعة المفاجئة ، وأعاد الحاج قوله بصوت ثابت قوى ، .  
أقول إنه ليس هناك من يفضل للفروسية الإنجليزىة من بين جميع من .

حملوا السيف دفاعاً عن الأراضى المقدسة ، وأقول أيضاً - لأنى رأيت ذلك بعينى رأسى - إن الملك ريتشارد نفسه وخمسة من فرسانه أقاموا مباراة بعد الاستيلاء على أحد المواقع الهامة تحمداً فيها جميع من تقدموا إليها ، وأقول إن كل فارس جرى فى ذلك اليوم ثلاثة أشواط وأسقط ثلاثة من الخصوم أرضاً . وأضيف إلى ذلك أن سبعة من هؤلاء المتقدمين كانوا من طائفة فرسان المعبد ، هذا وسير بريان دى بواجيلبرت يعلم جيداً صدق ما أقول . .

يمعز الكلم عن وصف العبوس الشديد الذى كان يفيض حقداً اكفهر له وجه الفارس الأسمر ، وفى غمرة من ضغنه واضطرابه ، لامست أصابعه للرتعدة مقبض سيفه ، ولكنه تراجع لإحساسه بأنه من المحال أن يأتى بعمل عنيف فى مثل هذا المقام وبين هذا الجمع . أما « سيدريك » الذى لا يستطيع ضبط عواطفه إذا اندفعت ، والذى لم يكن فكره ليعمل فى أكثر من أمر واحد فى وقت واحد ، فقد أغفل فى خضم من فرط سروره لاستماعه إلى أمجاد مواطنيه ، أن يلحظ الاضطراب الغاضب البادى على وجه ضيفه وقال :

- « سأمنحك هذا السوار الذهبى أيها الحاج لو استعطت أن تذكر لى أسماء أولئك للفرسان الذين حافظوا ببسالة على سمعة انجلترا الجميلة . . وأجاب الحاج :

- « سأفعل ذلك عن طيب خاطر ودون مكافأة لأن قسمى يحظر على لمس الذهب إلى حين » . فقال وامبا :

- « سأرتدى السوار نيابة عنك يا صديق الحاج » . وقال الحاج :

- « كان « ريتشارد » ملك انجلترا الشجاع الأول فى قائمة الشرف كما فى السلاح ، وفى الشهرة كما فى المكانة » . فقال « سيدريك » :



- « إنى أغفر له ، أغفر له انحذاره من سلافة الحق ، ولبام الفاتح ،  
الطاغية . واسترسل الحاج قائلاً :

- « وكان الثانى ، إيرل أوف لبستر ، والثالث ، سير توماس  
هولتون أوف جيلسلاند ، فقال ، سيدريك ، :

- « إنه على الأقل من أصل سكسونى ، واستتبع الحاج :

- « والرابع ، سير فولك رويلى ، فقال سيدريك الذى كان مصفياً إليه  
بكلف شديد ، مغفلاً إلى حد ما كراهيته للتورماديين للنصر المشترك الذى  
أحرزه ملك إنجلترا ورجالها من سكان الجزيرة .

- « وهذا الرابع سكسونى أيضاً من ناحية أمه على الأقل ، . ثم سأل ، ومن  
كان الخامس ؟ ، .

- « كان سير ، ادوين ترنهام ، . فقال ، سيدريك ، :

- « إنه بحق روح ، هنجست ، ساكسونى حر . ثم سأل فى لهفة :

- « وما اسم السادس ؟ ، فقال الحاج بعد أن تريت قليلاً وكأنه  
يحاول أن يسترجم ذاكرته :

- « كان سادسهم فارساً شاباً لا ترقى شهرته إلى شهرتهم ، وأدنى منهم  
مقاماً ، وقد انخرط فى سلك هذه الجماعة النبيلة لا ليستعينوا به فى تحقيق  
مأربهم بل ليستكملوا عددهم ، واسمه بغيب الآن عن ذهنى ، . فقال  
سير بريان دى بواجيلبرت بازدراء :

- « يا سيدى الحاج ، إن هذا التامى الذى تدعيه لأرب فى نفسك  
بعد أن تذكرت هذه الأسماء العديدة يأتى بعد فوات الأوان . سأقول  
اسم ذلك الفارس الذى كان سوء الطالع وخطأ جواده سبباً فى سقطتى  
أمام رعبه . لقد كان هذا الفارس يسمى ، أيفانو ، وما من واحد من

هؤلاء السنة يدانيه في السلاح إذا ما قورن بسنه، ولكنى أقول هذا وبصوت ممدو، أقول إنه لو كان اليوم في إنجلترا وواته الجراة ليعبد كرهة التحدى في المباراة التي ستقام هذا الأسبوع، وأنا راكب حامل للسلاحى كما أنا الآن، فإني أمنحه حرته كاملة في اختيار السلاح، أقول هذا وأتحمل عاقبة ما أقول. . فأجاب الحاج :

— لو كان خصمك قريبا منك لما تردد لحظة في الاستجابة لتحديك، ولكن بما أن الأمر كما هو الآن، فلا تبعث الضجر في هذه القاعة الهادئة بالتباهى عن نتيجة نزال تعلم حق العلم أنه لن يقع، ولو عاد « أيفان هو » من فلسطين يوما، وأنا زعيم بأنه سينازلك، فقال الفارس : « يا لها من ثقة مطلقة ! وماذا تقدم كرهينة ؟ » . فقال الحاج وهو يخرج من صدره صندوقا عاجيا صغيراً ويرسم علامة الصليب على صدره :

هذا الأثر المقدس ضمان لى . إنه قطعة من الصليب الحقيقى للمسيح وقد أحضرتها من جبل « الكرمل » .

رسم رئيس دير « جور فولكس » الصليب على صدره، وتلا صلاة « أبانا الذى فى السموات، عدة مرات اشترك الجميع معه فى تلاوتها خاشعين ما عدا اليهودى والمسلمين والفارس الذى لم يخلع غطاء رأسه، أو يبدى أى بارقة من بارقات الإكبار لقداسة ذلك الأثر المزعوم، وانتزع من عنقه سلسله ذهبية وألقى بها على المائدة قائلاً :

— ليعتفظ رئيس الدير « آيمر » برهاني ورهان هذا الشريد المجهول كوديعة، فإذا ما طاد الفارس « أيفان هو » من خلال بحار بريطانيا الأربعة، وقبل التحدى، فسرى لمن سيكون النصر، وإن لم يستجب له، فسأعلن على جدران جميع أديرة طائفة المعبد فى أنحاء أوروبا بأنه جبان . . فقطعت البدى « رونا، الصمت قائلة :

- « لن يكون الأمر في حاجة إلى ذلك . إن صوتي سيبعث إذا لم يرتفع في هذه القاعة صوت آخر نيابة عن « أيفانوف » الغائب . أو كد لكم أنه سيواجه ببساطة كل تحد شريف ، ولو كان من المستطاع أن يضيف ضمانتي الضعيف ثقة إلى رهان هذا الحاج المقدس الذي لا يقدر بثمن ، فإنني أضع اسمي وشهرتي كغالة بأن « أيفانوف » لن يرض على هذا الفارس الصلف باللقاء الذي يرتجيه . »

كان وجه « سيدريك » يبدو مسرحاً لانفعالات متضاربة شغلت عليه فكره ، وجعلته يظل صامتا أثناء هذا الجدل ، وكاد الكبرياء المزهو والحنق والاضطراب تلاحق بعضها بعضاً على جبهته العريضة الواضحة ، كما تنساب ظلال السحب فوق حقل به حصاد ، بينما كان خدمه الذين جرى فيهم اسم الفارس السادس مسرى الكهرباء يقفون وأنظارهم عالقة بوجه سيدم الذي خرج عن صمته عندما سمع صوت « روبينا » وهي تتحدث فقال :

- « أيتها السيدة ، هذا قول لا يليق . لو كان الأمر في حاجة إلى كغالة أخرى لقدمت - وأنا مستاء ومستاء بحق شرفي ضمانا الشرف « أيفانوف » ولكن رهان المعركة متكامل حتى من وجهة نظر تقاليد الفروسية (النورمندية الشاذة - أليس كذلك أيها الأب أمير ، ؟ فأجاب رئيس الدير :

- « نعم ، وسوف أودع الأثر المقدس والسلسلة الثمينة خزائن ديرنا حتى نشهد نتيجة هذا النزاع الذي لا يختلف عن الحرب كثيراً . وبعد أن قال ذلك ، رسم علامة الصليب على صدره مرة ومرة ، وتكرر ركوعه ، وتمم بالصلوات ثم أعطى الأثر الديني إلى الأخ « أمبروز » أحد الرهبان التابعين له ، وأخذ السلسلة الذهبية بغير كلفة ولكن بنفس راضية ، ووضعها في كيس ذي بطانة من الجلد المعطر يفتح من تحت إبطه . ثم قال :

— « والآن ياسير سيدريك ، إن صلاة المساء تحدث طيننا في أذن من فعل نبيذك القوي . ائذن لنا بتناول نخب آخر في صحة الليدى رويانا .  
فقال الساكسونى : /

— « أقسم بالقديس « برومبولم ، على أنك ياسيدى رئيس الدير غير جدير بشهرتك . إن الشائعات ترى عنك بأنك راهب من شيمته النساع ، لا يتنحى عن كأسه قبل سماعه لرنين أجراس صلاة الصباح ، وأنا ، على الرغم من أن العمر قد تقدم بي ، كنت أخشى من أن يلحق بي النجل من الإخفاق في مجاراتك ، ولكنى أقسم بإيماني على أن طفلا ساكسونيا في الثانية عشرة ، في عهد طفولتنا ما كان ليتخلى عن كأسه هكذا سريعا .»

ولكن الراهب كان لديه أسباب خاصة تدعوه إلى أن يسترسل في مظهر الاعتدال الذى كان يدعيه ، ولم يكن داعية سلام محترف لحسب ، بل إن تجاربه قد علمته كيف يكره كل خصام أو شجار ، ولم يكن مبعث ذلك حبه لجاره أو لنفسه أولهما مآ .

كان يعتوره في تلك اللحظة خوف بالغريزة من طبع الساكسونى الفائر ، ورأى أن الخطر الذى يكن في هذه الروح المتوثبة العاتية الذى ساق رفيقه عليه الدليل مرات عديدة ، قد يؤدي آخر الأمر إلى انفجار لا يبعث على المسرة . ولذا فقد أشار بكياسة إلى أن أبناء أية بلاد أخرى يقصرون عن منازلة الساكسونيين الأشداء ذوى الرهوس القوية في مجال الشراب الودى ، ثم ذكر شبتا عابراً عن مقامه الدينى المقدس ، واختتم حديثه برجاء ملح في أن ينصرفوا لينعموا بقسط من الراحة .

دارت على الحاضرين كأس تسمى « كأس السباح » ، ثم نهض النزلاء بعد أن انحنوا لرب البيت وليدى رويانا ، انحناء عميقة ، ثم انصرفوا من القاعة وقد اختلطوا ببعضهم البعض ، بينما اتخذ رأسا الأسرة طريقها

إلى بايين منفصلين يتبع كلا منهما خدمه .

قال الفارس لإسحق اليهودى وهو يمر به فى الزحام :

- « هل ستعرج فى طريقك على المهرجان أبها الكلب الكافر ؟ » .

فأجاب إسحق وهو ينحنى بمخضوع شديد :

- « ذلك ما انتويته إذا سمحت بسالتكم المجلة » . فقال الفارس :

- « نعم ، لكى تنهش أحشاء نبلاتنا بالربا ، وتحتال على النساء والصبية

بالزخارف والدى - إني لعلى ثقة من أنك تمتلك مخزنا من النقود فى

كيسك اليهودى » . فقال اليهودى ضاماً يديه :

- « إني لا أملك قطعة ذهبية واحدة ولا بنساً فضياً ولا نصف قطعة

ليكن إله إبراهيم فى عونى فأنا ذاهب لطلب المساعدة من بعض إخوتى من

بنى جنسى لدفع غرامة فرضها على بيت مال اليهود . إن أبانا يعقوب شاهد

على أنى فقير تمس ، وحتى ذلك المعطف الذى ارتديه قد استعرت من

رويين أوف ناد كاستر ، فابتسم الفارس ساخراً وهو يقول . « سخماً لك

من كاذب مخائل ، ثم مضى فى طريقه كأنما يعوذ بنفسه من أن يسترسل

فى الحديث معه إلى أكثر من هذا ، ووقف يخاطب عبديه المسلمين بلغة

يحملها من يحيطون بهم ، وكان يبدو على الإسرائيلى البائس الذهول من

جراه حديث الراهب الحربى له ، إلى حد أن للفارس كان قد وصل إلى طرف

القاعة القصى قبل أن يرفع اليهودى رأسه من الوضع الذليل الذى كان

قد اتخذته فلم يفتن إلى انصرافه ، وعندما نظر حوالبه ، كان كالمأخوذ

وكان صاعقة تفجرت تحت قدميه ولا يزال صدى دويها يرن فى أذنيه .

وبعد قليل ، كان الفارس ورئيس الدير فى طريقهما إلى غرفتى نومهما ،

يقودهما رئيس الخدم والساقى ، يتبع كل منهما اثنان من حملة المشاعل

وخادمان يحملان المنحشات ، بينما كان خدام من مرتبة أدنى يرشدون

حاشيتها والضيوف الآخرين إلى مخادعهم كلا ومايلاً مقامه .

## الفصل السادس

إني أبسط صداقتي لأحظى برضاه  
فإن تقبلها خسناً وإلا فوداعاً  
أما عن حبي ، فأضرع إليك ألا تسيء الظن بي .

( تاجر البندية )

بينما كان الحاج يسير وسط الحجرات المتشعبة لذلك المنزل الكبير الذي لم يكن منظماً ولا منسقاً ، ومن أمامه خادم يحمل مشعلًا ينير به الطريق ، جاء الساقى من خلفه وهمس في أذنه قائلاً له إنه إذا لم يكن لديه ما يحول دون تناول كأس من الشراب الشهى في غرفته ، فإنه لما يبهج كثيراً من خدم هذه الأسرة أن يستمعوا إلى الأبناء التي جاء بها من الأراضى المقدسة ، وخاصة ما يتعلق منها بالفارس ، أيفانجو . .

ظهر ، وأبى ، في ذلك الوقت يسأله في إلحاح أن يجيب هذا المطلب ذاكرة له أن كأساً بعد منتصف الليل تساوى ثلاثاً فيما بعد الغروب ، ودون الجدال في هذا السؤال ، شكر الحاج للرجلين بمجاملتها ، واعتذر بأن في قسمه قيداً يلزمه بالألا يتحدث مطلقاً في المطبخ في شئون محظور عليه أن يفوه بها في القاعة ، فقال ، وأبى ، للساقى :

— إن هذا القسم لا يصدر عن خادم أبداً . . فجز الساقى كتفيه في ضيق وقال :

— لقد كنت معتزماً أن أودعه الفرقة المنفردة ، ولكن بما أنه يعرف عن محبة المسيحيين ، فليأخذ إذن الحظيرة التي تجاور حظيرة اليهودى إسحق . .  
ثم قال لحامل المشعل :

و خذ الحاج يا أنوولد ، إلى الصومعة الجنوبية . ثم أضاف و طاب مساؤك أيها الحاج، ولاشكر لك على مجاملتك المقتضبة . فأجاب الحاج ببنات : - نعمت مساء ولتباركك السيدة العذراء . ثم سار دليبه إلى الأمام .

وفي ردهة صغيرة تصل إليها عدة أبواب ، ويضيئها مصباح حديدي صغير ، اعترضتهما وقفة أخرى من وصيفة «روينا» الخاصة التي قالت بلمجة آمرة بأن سيدتها ترغب في التحدث إلى الحاج ، وأخذت المشعل من يد «أنوولد» وطلبت إليه أن ينتظرها حتى تعود ، ثم أشارت إلى الحاج بأن يتبعها ، كان واضحاً أنه ليس من آداب اللياقة في شيء أن يأتي عليها هذه الدعوة كما فعل بسابقتها ، لأنه وإن كانت إيمانه قد أفصح عن شيء من الدهشة لهذه الدعوة ، إلا أنه لبها دون تردد أو اعتراض .

كان هناك ممر قصير يصل إلى غرفة الليدي «روينا» ، ولا بد للبره من أن يصعد سبع درجات كلها مصنوعة من عارضات صلبة من خشب البلوط ، وكانت غير مصقولة ، ولكن فيها أبهة تلامم مع ما تحظى به «روينا» من احترام سيد القصر وتبجيله لها . كانت الجدران مغطاة بأستار مطرزة ومحلاة بحرير مختلف ألوانه ، موشى بخيوط من ذهب وفضة أبدعتها يد الفن التي صورت رياضة الصيد بالكلاب وبالصقور ، وكان مخدعها محلى بالأستار الثينة نفسها ومحاطا بما صبغ منها باللون الأرجواني ، وللقاعد أيضاً أكسية مزخرفة ، ولا كثرها ارتفاعا تكئة منخفضة للقدمين مصنوعة من العاج المزخرف بيد مبدعة ، كان هناك مالا يقل عن أربعة من حاملات الشموع الضخمة المشعلة لإضاءة الحجرة ، ولكن ينبغي على حسناواتنا المحدثات ألا يحسدن الأميرة السكسونية على بذخها لأن جدران الغرفة كانت غير مصقولة ، تتخللها تشققات كثيرة ، ينفذ منها هواء الليل قهتزاز الأستار الفاخرة ، وعلى الرغم من وجود نوع من الحواجز لحمايتها من الهواء ، إلا أن ألسنة الشموع كانت تآرجح مع الهواء وكأنها وشاح أحد زعماء القبائل عندما تعبث به الرياح .

كانت هناك محاولة بدائية لإظهار الذوق الرفيع ، ولكن وسائل الراحة لم تكن موفرة كاملة ، ولذا فلم يفتقدها الناس لأنهم ما كانوا يعتقدونها في ذلك الحين .

كانت الليدى « رويانا ، مستلقية في استرخاء على المقعد الذى يشبه العروس والذى سبق لنا أن وصفناه ، ومن خلفها وقفت ثلاث من وصيفاتها يصفقن شعرها قبل أن تاوى إلى مضجعهما فبدت وكأنها قد وُلدت ليقدّم الجميع لها فروض الولاء . أقرء الحاج لها هذه الرفعة بأن جئنا أمامها أرضاً مسرفاً في احترام فقالت له في رقة :

— « انهض أيها الحاج . إن من يدافع عن الغائب يستحق جميل اللقاء من كل أولئك الذين يمجدون الرجولة ويزنون الحق بميزانه الصحيح . » ثم قالت لوصيفاتها ، اذهبن كلكن ولتبقن ، للجيشا ، لأنى أريد التحدث إلى هذا الحاج المقدس . »

انصرفت الوصيفات إلى طرف الحجره البعيد دون أن يرحنها ، وجلسن على أريكة صغيرة إلى جانب الجدار حيث ظلن صامتات كالتماثيل ، ولكنهن كن على مسافة تكفى بالأا تقطع همساتهن على سيدتهن حديثها . وبعد أن توقفت السيدة لحظة بدت خلالها وكأنها حائرة كيف تبدأ الحديث معه . قالت :

— « أيها الحاج ، لقد ذكرت لى الليلة اسماً — ثم أتبعته بشيء من الجهد ، أعنى اسم « أيفانوه ، وكان ذلك فى القاعة التى كان ينبغى أن يكنى ترديدُ هذا الاسم فيها أعظم الرضى بحكم الطبيعة وصلات القربى ، ولكن يا لسخرية القدر ، لم يكن من بين الكثيرين الذين خفقت قلوبهم عند سماعهم لرنين هذا الاسم من اجترأ على أن يسألك عن مكان ذلك الفارس الذى تحدثت عنه ، وفى أى حال تركته ، سوى شخص واحد . . . هو أنا .



لقد تناهى إلينا أنه بعد أن بقي في فلسطين لاعتلال صحته بعد رحيل الجيش الإنجليزى ، تعرض لعسف الفرنسيين الذى عُرف عنهم أنهم على صلة بفرسان المعبد ، . فأجاب الحاج بصوت مضطرب :

- . إنى لا أعرف إلا قليلا عن الفارس ، أيفانهو ، وددت لو كنت أعرف عنه الكثير ما دام مصيره يا سيدتى يشغل منك البال . أعتقد أنه انتصر على اضطهاد أعدائه في فلسطين ، وهو على وشك العودة إلى إنجلترا حيث إنك تعلمين يا سيدتى أكثر مما أعلم أية فرصة للسعادة تنتظره هنا . .

بعثت الليدى ، رويانا ، بزفرة عميقة ، وسألته بوجه خاص عن الموعد الذى يحتمل أن يعود فيه الفارس إلى وطنه ، وعمّا إذ كانت ستعرض له في الطريق أخطار جسام ، فادعى الحاج بأنه يحمل الشق الأول ، أما عن الثانى فقال بأن الرحلة آمنة عن طريق البندقية وجنوا ، ومن هناك إلى إنجلترا عبر فرنسا ، ثم قال إن ، أيفانهو ، على علم تام باللغة الفرنسية وثقة اليدها فلا بأس عليه من التعرض لآى من الأحداث خلال هذه المرحلة من أسفاره . فقالت الليدى ، رويانا ، :

- . كم أضرع إلى الله أن يصل إلى هنا سالماً قادراً على حمل السلاح في المباراة القريبة حيث سيعرض فيها فوارس هذا البلد أفانين براعتهم وبالثم . لو فاز ، آيلستين أوف كوتنجزبره ، بالجائزة ، فمن المحتمل أن يسمع ، أيفانهو ، أنباء لا تبعث على المسرة في نفسه عندما يصل إلى إنجلترا . كيف كان يبدو أيها الغريب عندما رأته آخر مرة ؟ هل عصفت يد المرض بصحته ووسامته ؟ ، فقال الحاج :

- . لقد كان أكثر سمرة وأشد نخافة عما كان عليه عندما جاء من قبرص في ركاب ، قلب الأسد ، ، وكان الأسى بادياً على جبينه ، ولكنى لم أقرب منه لآنى ما كنت أعرفه ، . فقالت السيدة :

— « إن أخشى ألا يجد في وطنه إلا القلائل مما يبددون سحب  
الكتابة التي تكسو وجهه . شكرى لك أيها الحاج الطيب على ما أدليت لي  
من أبناء عن رفيق ضباى ، . ثم قالت ، اقتربن أيها الوصيفات ، وقدمن  
كأس ما قبل النوم لذلك الرجل المقدس الذى لن أحول بينه وبين الاستمتاع  
براحته إلى أكثر من ذلك ، .

أحضرت إحدى الوصيفات كأساً من فضة بحوى مزيجاً فاخراً من  
النبيذ والتوابل ، ولم تكدر « رويانا ، تمسه بشفتيها حتى قدمته الوصيفة إلى  
الحاج الذى تذوق منه قطرات قليلة بعد أن انحنى انحناء مسرقة ،  
واسترسلت السيدة وهي تقدم له قطعة ذهبية :

— « فلتقبل هذا العطاء أيها الصديق تقديراً منى للصعاب الشداد التي  
خضتها ، وللأما كن المقدسة التي زرتها ، .

— تلقى الحاج تلك المنحة بانحناء أخرى أشد عمقاً ، ثم تبع « الجيئا ،  
إلى خارج الغرفة ، وفي الردهة التقى بالخدام « أنوولد ، الذى أخذ المشعل  
من يد الوصيفة ودون أن يحفل بالحاج ، قاده مسرعاً إلى مكان خارجى من  
البناء كريبه ، حيث كان عدد من الحجرات الصغيرة ، أو بالأحرى صوامع  
لمبيت الطبقة الدنيا من الخدم والضيوف من غير ذوى المراتب العليا .  
وقال الحاج :

— « فى أية حجرة من هذه ينام اليهودى ؟ ، . فأجاب أنوولد :

— « إن الكلب الكافر يثوى فى الصومعة المجاورة لصومعة قداستكم —  
بالقديس « دانستان ، اكم ستحتاج الحجرة إلى تنظيفها قبل أن تكون  
مرة أخرى صالحة لمبيت مسيحي ا ، قال الغريب :

— « وأين ينام « جيرث ، راعى الخنازير ، ؟ فأجاب العبد :

— « إن « جيرث ، ينام فى الصومعة التي إلى يمينك ، كما ينام اليهودى

في تلك التي إلى يسارك . إنك تقوم على عزل أتباع المسيح عن دنس اليهود ، وكان في استطاعتك المبيت في مكان أكثر رفعة لو كنت قد أجبته . أو سوله ، إلى مطلبه ، . فقال الحاج :

- إن المكان حسن على وضعه هذا ، ولا تستطيع رفقة يهودى أن تنشر العدوى من ثنايا حاجز من خشب البلوط ، .  
وبعد أن قال هذا ، دلف إلى صومعته . وأخذ المشعل من يد الخادم وشكر له وتمنى له ليلة ناعمة ، وعندما أغلق الباب ، وضع المشعل في حامل خشبي ، وجمال بنظره في أرجاء غرفة نومه الذي كان أثاثها من أبسط متاع ، وكان مكوناً من مقعد خشبي خشن ، ومضجع أشد خشونة محشو بأعواد قش نظيفة ، ومغطى بجلد الخراف بدلاً من الفرش . ولما أطفأ الحاج مشعله ، ألقى بنفسه على مرقده الجاف دون أن يخضع شيئاً من أرديته ، ثم نام ، أو على الأقل ظل مستلقياً حتى تسلكت أشعة الشمس الأولى من ثنايا النافذة الحديدية الصغيرة التي كانت تستخدم في الوقت نفسه لدخول الهواء والنور إلى هذه الصومعة المؤرقة . وعند هذا نهض ، وبعد أن تلى صلوات الصباح وأصلح من هندامه ، غادر حجرته إلى غرفة « إسحق » اليهودى ، ورفع المزلاج بقدر ما وسعه من هون فألقى النزيل مضطجعاً في نوم قلق فوق فراش على غرار ذلك الذى أمضى ليله به ، وكانت كل الثياب التي خلعها اليهودى في الليلة السابقة مرتبة بعناية وموضوعة حوله ، وكأنه بذلك يحذر عليها خطر السرقة في أثناء هجوعه ، وكان على وجهه قلق يكاد يصل إلى مرتبة سكرات الموت ، ويدها وذراعاها تتحركان في اضطراب وكأنها في صراع مع أضغاث أحلام ، وإلى جانب عدة عبارات قالها بالعبرية ، سمعت - في وضوح وجلاء - الكلمات التالية باللغسة النورماندية الانجليزية ، أو ذلك المزيج اللغوى الذى كان كثير الشيوخ في تلك البلاد : « استخلفكم بإله إبراهيم أن تبقوا على رجل هرم تعس . لاني فقير لا أملك شروى تقير ، ولو مزقت أسلحتكم أعضاء جسدى إربا إربا فلن أستطيع أن أجيب لكم مطلباً ، .

لم ينتظر الحاج حتى ينتهي اليهودى من رؤياه، بل وكزه بعضا الحجاج التي كان يحملها ، وربما كانت هناك مشاركة بين الوكزة وبين بعض المخاوف التي أثارها أحلامه . نهض الرجل المسن واقفا وقد انتصب شعره الرمادى إلى مداه ، ثم احتضن بعض ملابسه وأمسك بما يثر منها بمخالب صقر عنيد ، ولم يحول عن الحاج عينيه السوداءين اللتين كانتا تفصحان عن دهشة شديدة ، وكأنه يترقب اعتداء جسديا . فقال الحاج :

— « لا تخشين يا إسحق فقد جئتك كصديق . » . فقال اليهودى وقد اطمأن باله وهدأت نفسه :

— « لك المثوبة من إله إسرائيل . لقد رأيت في منامى — وشكراً لإله إبراهيم أنها لم تكن إلا رؤيا . . . » ثم استجمع شتات فكره وأضاف بلبهجة المعتادة « أى نفع تجتنبه من وراء يهودى فقير فى مثل هذه الساعة المبكرة ؟ » . فقال الحاج :

— « جئت لأبنيك بأنك إن لم تبرح هذه الدار لساعتك ، فإن سفرتك ستكون محفوفة بالمخاطر . » . فقال اليهودى :

— « يا أبانا المقدس ! ومن ذا الذى يهدف إلى غنم من وراء إلحاق الأذى بتعس فقير مثلى ؟ » . فقال الحاج :

— « فى استطاعتك أن تتكهن به أكثر منى ، ولكن ، كن على ثقة بما أقول ، عندما كان الفارس يقطع القاعة فى الليلة الماضية ، سمعته يتحدث إلى عبديه المسلمين باللغة العربية التي أعرفها جيدا ، وأمرهما بأن يرقبا رجل اليهودى صباح اليوم ، وأن يلقيا القبض عليه إذا ما ابتعد عن المنزل ، ويقتاداه إلى قصر « فيليب دى مالفوازان » ، أو قصر « ريجنولد فروندييف » .

لأنه لمن العسير على المرء أن يصف الجزع الشديد الذى استولى على

اليهودى عند سماعه لتلك الأنباء ، والذي بدت جميع ملكاته وكأنها قد شلت لساعتها . سقط ذراعه إلى جانبيه ، وتهاوى رأسه على صدره ، وانثنت ركبته تحت ثقل جسده ، وبدا وكأن كل عصب وكل عضلة في بدنه قد تخاذلت وفقدت قدرتها على العمل فارتدى على قدمى الحاج ، لا على صورة رجل يمشو أو يسجد عن عمد لإثارة الشفقة ، بل كرجل أثقله من جميع النواحي ضغط قوة خفية ألت به أرضا ، وجعلته غير قادر على المقاومة ، وكان أول ما فاه به دهشا وهو يثنى يديه المجمعدين ، ويمدهما دون أن يرفع رأسه الرماذى المدلى :

— « يا إله إبراهيم ! يا موسى المقدس ! يا هارون المبارك ! إنى لم أر هذه الرؤيا فى منامى عشا . إنى أحس بأسلحتهم تمزق أوصالى ، وأشعر بدولاب التعذيب يمر فوق جسدى مرور المناشير والشواطير والبلط الحديدية فوق رجال « رباح ، ومدن أبناء عمون ، . فقال الحاج الذى كان يرقب هلعه بشفقة فيها ازدراء كثير :

— « انهض يا إسحق واستمع إلى — إن لفرعك ما يبرره إذا نظرنا إلى السلوك الذى اتخذته الأمراء والنبلاء مع بنى جلدتك بغية اغتصاب أموالهم ، ولكنى أقول لك انهض وسأدلك على سبيل للهرب . غادر هذا المنزل على عجل بينما يغط من فيه فى نوم عميق بعد وليمة الأمس . سأقودك عبر مسالك الغابة السرية التى أعرفها كما يعرفها أى حارس غابة ممن يتجولون فى جنباتها ، وإن أتخلى عنك إلا بعد أن تصبح فى حمى زعيم أو شريف ذاهب إلى المهرجان ، وقد يكون لديك من الوسائل ما يجعلك تحظى بحمايته ، .

وعندما ترامت إلى أذنى إسحق الآمال فى الفرار التى أوحى بها هذا الحديث ، بدأ شيئا فشيئا ، وبوصة بعد أخرى ، ينهض عن الأرض حتى أصبح جائيا على ركبته ، مرسلا لحيته وشعره الرماذى الطويل إلى الخلف ، ومثبنا عينيه الحادثين السوداوين على وجه الحاج بنظرة تتم عن أهل وخوف

ولكن فيها ارتياب وشك ، ولكنه عندما استمع إلى الكلمات الأخيرة ، بدأ خوفه بالفريزة يبعث من جديد في أبشع صورة ، وسقط مرة أخرى على وجهه ، وقال دهشا :

— « هل أملك من الوسائل ما يجعلني ألقى الحمى من أحد ؟ يا لاسنى ! ليس هناك إلا سبيل واحد لكسب رضى أى مسيحي ، وكيف ليهودى فقير أن يهتدى إلى هذا السبيل بعد أن اغتصبت أمواله فأصبح فى مثل فقر « لزاروس ؟ » ثم قال لجأة وكان الريبة قد قهرت مشاعره الأخرى : « أستحلفك بالله أيها الشاب ألا توشى بي لاتعمد إلى خيانتى من أجل الأب الأكبر الذى خلقنا جميعا يهوديا كان أم وثنيا ، إسرائيليا أم إسماعيليا : إني لا أملك الوسيلة لاكتساب رضى متسول مسيحي حتى ولو كانت بنسا واحدا .

رفع نفسه وهو ينطق بهذه الكلمات ، وتعلق بعبادة الحاج ، يفيض من عينيه استعطاف جاد: فجذب الحاج عباءته ونأى عنه وكأنه يخشى أن يصاب بوباء من جراء هذه اللسة ، وقال :

— « ماذا أجنى من وراء إلحاق الأذى بك حتى ولو كنت مثقلا بجميع كنوز بنى جنسك ؟ لقد وهبت نفسى للفقير نذرا فارتديت هذا اللباس ولن أستعيب عنه بأى شيء آخر إلا بجواد وستررة من الزرد ، ومع هذا فلا تظنن أنى راغب فى رفقتك حبا فيها أو ابتغاء نفع أرتجيه . فلتبق هنا إن شئت فمن المحتمل أن يقوم سيدريك الساكسونى على حمايتك ؟ » فقال اليهودى :

— « او أسفاه ! إنه لن يأذن لى بالسفر فى ركابه . إن الخجل يأخذ الساكسونيين والنورمانديين على السواء من صحبة الإسرائيلى البائس ، وسيدعوننى أرحل وحيدا عبر ممتلكات « فيليب دى مالفوازان » ، ودرينجنولد فروندييف — سأرافقك أيها الشاب الطيب — فلنسرع ، فلنشدد رحالنا ،

فلتهرب - ها هي ذى عصاك - لماذا تملكها ؟ ، فاستجاب الحاج لتعجل رفيقه وقال :

- « لاني لا أملكها ولكن ينبغي على أن أستوثق من الوسيلة التي نبرح بها هذا المكان - اتبعني ، . وقاده إلى الصومعة المجاورة التي كان « جيرث ، راعى الخنازير يبيت فيها كما يعلم القارى » ، ثم قال الحاج :

- « انهض يا « جيرث ، - انهض سريعا وافتح الباب الخلفي ، ودعني أخرج أنا واليهودي » .

كان « جيرث ، - الذى كانت حرفته تضى عليه شيئا من الاهتمام فى انجلترا الساكسونية كحرفة « إيمايوس ، فى « إيثاكا ، مع أن الناس ينظرون إليها فى أيامنا هذه نظرة فيها ازدراء - قد أحس بأن مهانة قد لحقت به من تلك اللهجة الآمرة التى صدرت عن الحاج . ، وقال وهو يرفع نفسه على مرقبه ناظرا إلى اليهودى نظرة فيها امتهان كثير دون أن ينهض من فراشه :

- « أيرحل اليهودى عن « روذر وود ، فى صحبة الحاج ويصيه من وراء ذلك نفع ؟ ا ، هنا دخل « وامبا ، إلى الغرفة وقال :

- « كانى قد رأيت فى منامى أنه سرق نخذة من لحم خنزير وفر ، .

فقال « جيرث ، وقد طرح رأسه مرة أخرى على الكتلة الخشبية التى كان قد اتخذ منها وسادة له :

- « يجب أن يفتكر كل من كان يهوديا أو وثنيا حتى يفتح الباب لأننا لاناذن للزائرين بالرحيل خلسة فى مثل هذه الساعة . ، فقال الحاج بلهجة آمرة :

- « ومع ذلك فإنى أظن أنك لن تأبى أن تحقق لى هذه المشيئة . »

وبعد أن قال هذا ، انحنى على فراش راعى الخنازير الذى كان مستلقيا فوقه ، وأسر فى أذنه بضع كلمات باللغة السكونية ، فقفز « جيرث » ، ناهضا من مضجعه كمن منه كهرباء ، وأضاف الحاج رافعا أصبعه بصورة تم عن التحذير :

- « حذار يا « جيرث » ، - يجب أن تكون بصيرا بالعواقب . أقول لك افتح الباب الخلقى وعمما قليل ستعرف المزيد . »

ابتهج « جيرث » ، وأطاعه فى غير إبطاء يتبعه « وامبا » ، واليهودى وقد أخذتهما الدهشة من التحول المفاجئ الذى طرأ على سلوك راعى الخنازير . وعندما وقفوا خارج الباب قال اليهودى :

- « بغلتى ا بغلتى ا ، فقال الحاج :

- « هات له بغلته ، وائتنى بأخرى لاتمكن من صحبته حتى يبتعد عن هذه البقاع . سأعيدها سالمة إلى بعض رجال حاشية سيدريك فى « آشي » ، وأما أنت - ثم همس فى أذن « جيرث » ، بما يريد قوله ، فأجاب هذا قائلا :

- « سأفعل ذلك عن رضى . » ثم انصرف على الفور للقيام بما طلب إليه ، . وقال « وامبا » ، عندما استدار صاحبه :

- « وددت لو أعرف ما تتعلمونه فى الأراضى المقدسة أيها الحاج ، . فأجاب :

- « إننا أيها الأبله نتعلم تلاوة الصلوات ، والندم على الخطايا ، وتطهير النفس من الرجس بالصوم والسهر ، وألا نكف عن الصلاة . » فقال المهرج :

- « هناك شىء أقوى من ذلك كله ، فتى كانت التوبة أو الصلاة تجعل



« جيرث ، يقوم بخدمة ما ؟ ومتى كان الصوم والسهير يقنعانه بأن يقرضك بغلة ؟ إني موثق بأنك كنت تستطيع أن تتحدث عن سهرك وتوبتك إلى خنزيره الأسود المفضل فتلقى منه جوابا بنفس هذا القدر من اللباقة ، .  
فقال الحاج :

« أغرب عن وجهي فما أنت إلا ساكسوني أحق ، . فقال المهرج :

« حسنا قلت . لو كنت قد ولدت نورمانديا كما أخالك أنت ، لكان السعد حليق ، ولأصبحت أقرب إلى أن أكون رجلا حصيفا ، .

في تلك اللحظة ظهر « جيرث » ، في الجهة المقابلة من الخندق ومعه البغلان . عبر المسافران الخندق على قنطرة متحركة في عرض لوحين من الخشب ، لا يضارعها في ضيقها إلا فتحة البوابة ، وهناك في السور الخارجى كوة صغيرة تصل إلى الغابة . وحالما وصلا إلى الغابة ، أسرع اليهودى بيدين لهفتين مرتعتين بوثق بمؤخر السرج حقيبة صغيرة من جلد الماعز الأزرق كان قد أخرجها من تحت عبائه وهمهم قائلا :

« إنها لا تحوى إلا بديلا للملابس ، . ثم قفز فوق البغلة بحفة ورشاقة أكثر مما كانت تفصح عنه سنوات عمره ، ولم يضع الوقى سدى في إصلاح طيات عبائه لكي تخفى عن الأنظار ذلك الحمل الذى وضعه خلفه . أما الحاج فقد ركب بشيء من التؤدة ، وعند بدء الرحيل ، مد يده إلى « جيرث » ، فلهما بكل ما أوتى من تبجيل ، ووقف راعى الخنازير يشيخ المسافرين بنظراته حتى غابا عن عينيه في ثنايا غضون الطريق ، ثم أفاق من شروده على صوت « واما ، المهرج وهو يقول :

« أتعلم أيها الصديق الطيب « جيرث » ، أنك رقيق غاية الرقة ، وورع أشد الورع في هذا الصبح من أيام الصيف ؟ وددت لو كنت رئيسا لدير أرتدى زيا أسود ، أو حاجا عارى القدمين لأجنى نفعا من وراء نخوتك

ورقتك الفائقين ، لاريب في أنى أحظى منها بأكثر من قبلة على اليد. .  
فقال جيرث :

« إنك لم تبلغ من الحماقة هذا الحد مع أنك تجادل تحت تأثير المظاهر ،  
وأكثرنا روية لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك . لقد آن لى أن  
أقوم بعملى فأرعى قطيعة ، . وبعد أن قال ذلك ، عاد إلى المنزل والمهرج  
فى إثره .

كان المسافران فى تلك الأثناء يقطعان سفرتهما حيثما ، وبسرعة تم عمما  
كان يساور اليهودى من فزع شديد ، حين أن الناس فى مثل عمره قليلا ما  
يكلفون بالحركة السريعة . أما الحاج الذى بدا وكأنه يعرف كل عمرات  
الغابة ومسالكها ، فقد كان يسير وسط أشدها تشابكا ، وعاد يثير الريب  
فى نفس اليهودى من جديد بين حين وحين ، قائلا له بأنه ينتوى الغدر به  
وإيقاعه فى كمين من أعدائه .

حقيقة كان من المستطاع أن يلتمس المرء المعاذير له فى شكوكه تلك ،  
لأننا إذا استثنينا السمك الطائر ، فليس هناك من كائن حى على وجه الأرض  
أو فى الماء أو الهواء كان موضع اضطهاد شامل لا ينقطع ، لا رفق فيه  
ولا هوادة مثلما كان اليهود يلقونه فى تلك الحقبة من الزمان ، لأنهم وما  
يملكون كانوا عرضة لجميع أنواع الثورات الشعبية لاتفه الأسباب وأبعدها  
عن الإدراك ، ولأغرب الاتهامات وأقلها نصيبا من الصحة . لقد كان  
النورمانديون والساكسونيون والدانمركيون والبريطانيون مع شدة بغضاء  
كل جنس منها للآخر ، يتنافسون على الإمعان فى ازدراء شعب يعتبر كرهه  
وقذفة، واحتقاره وسلبه واضطهاده من التعاليم الدينية ، وكان المتوك  
من السلالة النورماندية ، والنبلاء المستقلون الذين نسجوا على منوالهم فى

جميع أعمال الطفيلان ، يشعلون عن عمد ضد هذا الشعب نار اضطهاد من نوع أكثر تنظيماً ابتغاء منفعة ذاتية .

ومن القصص المعروفة عن الملك د جون ، أنه ألقى يهودى ثرى فى سجن ياحدى القلاع الملكية ، وأمر بأن تنتزع كل يوم إحدى أسنانه ، وبعد أن أصبح فك الإسرائيلى التعس نصف خاو ، رضى بأن يدفع مبلغا كبيرا من المال كان الطاغية يهدف إلى أن يأخذه منه غصبا . كان القليل من الأموال السائلة الموجودة فى البلاد فى حوزة هذا الشعب المنبوذ على وجه خاص ، ولم يتردد النبلاء فى أن يقتفوا أثر مليكهم فى استنزافها منهم بكافة وسائل الإكراه وحتى بالتعذيب البدنى . وعلى الرغم من ذلك ، فإن الشجاعة المستكينة التى يدفعهم إليها حب الكسب ، كانت تبعث باليهود إلى تحدى شتى الشرور التى كانوا يعرضون لها فى سبيل الأرباح الباهظة التى كانوا يستطيعون الحصول عليها فى إقليم ثرى بطبعه كان إنجلترا .

وعلى الرغم من جميع ألوان الضيق التى يقاسونها ، وحتى ديوان الضرائب الذى سبق أن أشرنا إليه والمسمى بيت مال اليهود الذى أنشئ بغية سلبهم وإيلاهم ، فإن اليهود كانوا يتزايدون عدداً ويتكاثرون ، ويجمعون أموالا طائلة تتناقلها الأيادى بوساطة الصكوك ، وهى اختراع يقال بأن التجارة مدينة لهم به ، واستطاعوا عن طريقها نقل ثرواتهم من بلد إلى آخر ، حتى إذا ما حل بهم الإرهاب فى إقليم ما ، بقيت ثرواتهم مصونة فى إقليم آخر . وكان عناد اليهود وبخلهم يلقىان مقاومة عنيفة من أولئك النبلاء الذين يعيش اليهود فى رحابهم ، وكانا يتزايدان كلما اشتد الإكراه الذى يلقى بهم ، أما الأموال الطائلة التى اعتادوا أن يربحوها من التجارة ، والتى كانت تعرضهم فى أغلب الأحيان للخاطر ، فقد كانت فى أوقات أخرى تستخدم فى بسط نفوذهم ، وضمان الحماية لهم إلى حد ما .

على هذه المعايير كانوا يعيشون ، وتبعاً لذلك تأثرت طبائعهم بالحذر

والريبة ، والجن العنيد ، وعدم التسامح ، والبراعة في الإفلات من الأخطار التي تعرض لهم . وعندما تقطع المسافرين شوطا بعيداً بسرعة فائقة وسط كثير من الطرقات المتعرجة ، قطع الحاج الصمت آخر قائلاً :

« إن شجرة البلوط الضخمة العفنة هذه تحدد معالم الأرض التي يدعى «فروندبييف» ، بأنه يفرض سيادته عليها ، وقد ابتعدنا منذ وقت طويل عن ممتلكات «مالموازان» ، ولاخوف علينا الآن من اقتفاء أثرنا ، فقال اليهودي :

— « ليت عجلات عرباتهم تنفصل عنها كعربات جيوش فرعون ليسيروا مبطنين . لا تتركني أيها الحاج الطيب . فكر في فارس المعبد الشرس الفظ وعبدية العرييين . إنهم لن يقيموا وزنا لأرض أو قصر أو سيادة .  
فقال الحاج :

— « هنا يجب أن يفترق طريقانا فلا يليق برجلين مثلي ومثلك أن يسافرا معا إلى أطول مما تدعو الضرورة إليه ، وبالإضافة إلى ذلك فأى عون تهفو إليه مني وأنا حاج مسلم أعزل ضد شريرين يحملان سلاحاً ؟ ، فأجاب اليهودي .

— « في استطاعتك أيها الشاب الطيب أن تدافع عني ، وأنا أعلم أنك ستفعل ذلك . ورغم أني معدم إلا أني سأجزيك — لا بالمال — فالمال ليس عندي منه شيء وحق أبي إبراهيم ، ولكن . . . ، فقاطعه الحاج قائلاً :

— « لقد سبق لي أن قلت لك إنني لا أبغى منك مالا أو جزاء . أستطيع أن أدلك على الطريق ، وإلى حد ما ربما استطعت الدفاع عنك لأن حماية يهودي من خطر أمر لا يعيب المسيحي ، لذا فإنني سأفترق عنك أيها اليهودي عندما أرى أنك أمسيت في صحة قادرة على حمايتك . نحن الآن غير بعيدين عن مدينة «شفيلد» ، حيث يمكنك أن تجد في غير مشقة كثيراً من بني جنسك ، وتستطيع اللجوء إليهم ، فقال اليهودي :

.. لياركك يعقوب أيها الشاب الطيب. أستطيع الإقامة في شيفلد، مع قربي زاريت ، ، وسأجد وسيلة ما لمواصله سفرى آمنًا ، فقال الحاج .  
- ليكن الأمر كما تقول . سنفترق في شيفلد ، إذن ، ومسيرة نصف ساعة تصل بنا إلى مشارف تلك المدينة .

انقضى نصف الساعة وكلاهما صامت صمت القبور ، وكان الحاج لا يتحدث إلى اليهودى ازدراء منه له إلا في حالة الضرورة القصوى ، واليهودى لا يجترى على أن يفرض حديثاً على شخص أكسبته زيارته لقبر السيد المسيح نوعاً من القداسة .

توقفاً آخر الأمر على قه رابية مرتفعة بعض الشيء ، وأعاد الحاج القول وهو يشير إلى مدينة شيفلد ، التى كانت تنبسط من تحتهم :

- هنا إذن نفترق . فقال إسحق :

- لن نفترق حتى تنال من اليهودى الفقير شكره لاني لا أجترى على أن أطلب إليك الذهاب معى إلى دار قربي زاريت ، الذى قد يعينى بوسيلة أو بأخرى على أن أرد لك الجميل . فأجاب الحاج :

- لقد سبق لى ان قلت لك بأنى لست راغباً فى جزاء ما . إن استطعت أن تنجى من الأغلال وغياب السجون مسيحياً من أولئك الذين وقعوا فى حبائلك ، وتضمنتهم قائمة مدينك الضخمة ، وكان ذلك إكراماً لحاطرى ، فسأعتبر أن الجميل الذى أسديته إليك فى هذا الصباح لم يذهب هباء . فقال اليهودى وهو يعلق بملابسه :

- تمهل ! تمهل ! سأقدم لك شيئاً أفضل من هذا . يعلم الله أن اليهودى فقير - نعم إسحق شحاذ بنى نفسه ، ولكن أرجو أن تمفو عنى إن تكلمت بما أنت الآن فى ميس الحاجة إليه . فقال الحاج :

— إذا صدق حدسك ، فإنه شيء تعجز عن أن تعطيه لي ولو كنت على درجة من الثراء بقدر ما تدعى من فقر ، . فردد اليهودى الصدى قائلاً :

— كما أدعى ؟ أوه ! صدقتى إنى لست بكاذب . إنى رجل مفلس مدين بئس لقد سلبتنى الأيدى القاسية بضائعى ومالى وسفنى وجميع ما كنت أملك ، ومع ذلك فإنى أستطيع أن أخبرك بما أنت فى حاجة إليه ، وربما زودتك به أيضاً . إنك تهفو الآن إلى جواد ومعدات للقتال ، .

جفل الحاج لهذا واستدار فجأة ناحية اليهودى وقال مسرعا :

— أى شيطان أوحى إليك بهذا الحدس ؟ ، فقال اليهودى مبتسما :

— إن هذا ليس من الأهمية فى شيء طالما أن حدسى قد صدق ، وطالما أنى أستطيع أن أمدك بمطلبك أيضاً ، . فقال الحاج :

— ولكن ينبغى أن تضع شخصى وثوبى وقسمى موضع الاعتبار ، : فقال اليهودى :

— إنى أعرف الكثير عنكم أيها المسيحيين ، أعرف أن أعرقكم نبلا قد يمسك بعصاه ، ويرتدى نعالا للتكفير عن ذنوب وهمية ، ويمشى على قدميه ليزور قبور الموتى ، .

فقال الحاج عابسا :

— لا تكفر أيها اليهودى ، . فقال اليهودى :

— إنى لم أتريث فى الحديث فأرجو المعذرة ، ولكن هناك كلمات تساقطت من بين شفئك فى الليلة الماضية وفى هذا الصباح ، وكانت كالشرر المتطاير من قدح الزناد ، وأبانت عن المعدن الداخلى ، وفى طيات رداء هذا الحاج يختبي زرد فارس ومهازان من الذهب ، وقد ظهرت عندما كنت منحنيا على فراشى فى الصباح ، .

لم يستطع الحاج أن يمك عن الابتسام وقال :

- « لو كانت ثيابك قد قشقت بعينين فاحستين كما قشقت ثيابي ، لظهر من ثيابها كثير من الخبايا » . فقال اليهودى وقد تبدل لونه :

- « لا تقل مزيداً ، ثم أسرع وأمسك بأدوات كناية وكأنه بذلك يريد إيقاف الجدل ، وبدأ يكتب على ورقة أسندها إلى غطاء رأسه الأصفر دون أن يترجل عن بقلته ، وعندما انتهى من كتابتها باللغة العبرية أعطاها إلى الحاج قائلاً :

- « إن جميع الرجال في مدينة « ليستر » يعرفون « كيرجات جيرام أوف لومباردى » اليهودى الثرى . أعطه هذه الوريقة . إنه يعرض معدات ستة جياذ من صنع ميلانو يصلح أردؤها لرأس متوج ، ولديه عشرة جياذ كريمة يصلح أفلها أصالة لأن يكون مطية لملك يحارب من أجل عرشه . إنه سيعطيك من بينها ما يحلوك وأي شيء آخر قد تكون في حاجة إليه للاشتراك في المباراة . وبعد الانتهاء منها ستعيدها سالمة إلا إذا كان عندك ما تسد به قيمتها للملكها » . فقال الحاج مبتسماً :

- « ولكن ألا تعلم يا إسحق أن القاعدة في الرياضات الحربية هذه أن الأسلحة والمواد الذى يقع الفارس من فوقه تصبح غنيمة للنتصر ؟ قد لا يواتبنى الحظ فأخسر ما لا أستطيع أن أرد عوضه أو أدفع ثمنه » .

جرت على وجه اليهودى مسحة من الدهول لاحتمال حدوث هذا ولكنه استجفع شجاعته وقال دون تردد :

- « لا ، لا ، لا . هذا محال . لن يكون ذلك . فلتحل بركة أيينا بك سيكون رحمك قويا كعصا موسى » .

قال هذا وهو يدير رأس بقلته استعداداً للرحيل ، ولكن الحاج بدوره أمسك به من عباة ته ، وقال :

— « كلا يا إسحق ، إنك لا تعرف كل المخاطر . قد يقتل الجواد أو يصاب  
الدرع بتلف لأنى لن أبقى على جواد أو رحل ، وبالإضافة إلى ذلك فإن  
بنى جنسك لا يعطون شيئاً بلا مقابل . يجب دفع شئ ما كأجر نظير استعمالها .  
انثنى اليهودى فوق سرجه كمن أصيب بألم فى أحشائه ولكن مشاعره  
الفضلى قد انتصرت على مألوف أحاسيده وطبائعه ، فقال :

— « لست أبالى ! أنا لا أبالى . دعنى أمض . إذا حدث تلف ما ، فمن  
يكافئك هذا شيئاً مادام هناك أجر قد دفع مقابل استعمالها ، هذا  
و « كيرجات جايرام ، سيكون كريماً معك بمعاملة اقريبه إسحق . وداعاً ،  
ثم التفت وقال « لا تكن طائشاً فى هذه المعركة الحقاء — لا أعنى بذلك  
تعرض الجواد أو الدروع للخطر ، ولكنى أهدف إلى الإبقاء على حياتك .  
فقال الحاج وهو يتسم مرة أخرى .

— « شكرى العميق على تحذيرك ، وسوف أستعمل ما أعرتنى إياه  
بحرص ، ومع أن ذلك سيكون شاقاً على ، إلا أنى سأجزيك عنه . .  
ثم أقترقا وقد اتخذ كل منهما طريقاً مختلفاً إلى مدينة « شيفيلد » .

**\*\* معرفتى \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**

**منتديات مجلة الإبتسامه**



## الفصل السابع

فرسان ومعهم ركب طويل من الأتباع  
يسرون في ملابس زاهية وأزياء غريبة  
كان واحد منهم يوثق خوذته والثاني يمسك برمحه  
وثالث يتقدم بدرعه البراق .  
وكان الجواد يضرب الأرض بسنابك لانهدا  
يبعث من خياشيمه زئيراً وزبداً ويقرض عنانه الذهبي  
والحدادون وصانعو الدروع يمتطون الخيول  
وفي أيديهم الآلات الحادة ( المبارد ) وإلى جوانبهم المطارق .  
ويقدمون المسامير لإصلاح رمح مخلوع  
والشرايح الجلدية لوثاق الدروع ،  
ويقوم الحراس على مراقبة الطرقات من جماعات منظمة .  
والمهرجون يتدافعون وفي أيديهم المراوات .

( :الامون وآرسيت )

كانت حالة الشعب الانجليزي في تلك الحقبة من التعاسة بمقدار، فالملك  
ريتشارد غائب في أسره ، وفي قبضة يد دوق النمسا المخادع القاسى ، ولم يكن  
مكان أسره معروفاً على وجه التحقيق ، ومصيره خاف على الكثرة الغالبة  
من رعاياه الذين كانوا في تلك الآونة فريسة لكل ألوان العسف الرخيص .

وكان الأمير يوحنا بتحالفه مع «فيليب» ملك فرنسا عدو قلب الأسد  
اللدود ، يستخدم كل وسائل النفوذ مع دوق النمسا لكي يطبل من أمد أسر  
أخيه ريتشارد الذى كان «يوحنا» مديناً له بنعم لا تحصى ، وكان في الوقت  
نفسه يعمل على تقوية حزبه الخاص في المملكة التى كان ينتوى — في حالة

وفاة الملك — التنازع على عرشها مع الوريث الشرعى ، آرثر، دوق بريتانى ابن جيوفرى بلانتاجينيه ، الاخ الأكبر ليوحنا ، وكما هو معروف جيدا فإنه قد اغتصب العرش فيما بعد . ولما كان خلق يوحنا يفيض طيشا و لجورا وغدرا ، فقد أضاف إلى حاشيته كل أولئك الذين لديهم من المبررات ما يجعلهم جزاعين من نقمة الملك ريتشارد بسبب سلوكهم الإجرامى فى أثناء غيابه ، وكذلك فإن عددا وفيرا من فئة الخارجين على القانون ذوى العزيمة الراسخة والبأس الشديد الذين أعادتهم الحملة الصليبية إلى وطنهم محملين بالرديلة والهزيمة فقراء فى المادة قساة القلوب ، كانوا يبنون أمانيتهم على الإثراء من قيام الاضطرابات الداخلية .

ينبنى أن يضاف إلى هذه الأسباب الباعثة على شقوة الشعب وتعاسته أن جمهرة الخارجين على القانون الذين كان اضطهاد السادة الإقطاعيين ، والتطبيق الصارم لقوانين الغابات ، قد دفع بهم إلى اليأس ، فتجمعوا سويا فى عصابات كبيرة ، وفرضوا سلطانهم على الغابات والأراضى الجرداء غير آبهين بالعدالة وقوانين البلاد ، وكان النبلاء أنفسهم وقد اتخذ كل منهم من قلعة الخاصة حصنا له وكأنه ملك صغير على ممتلكاته ، يتزعمون عصابات لا تقل عبثا بالقانون ، واضطهادا للناس عن عصابات اللصوص الحقيقيين .

ولكى يحتفظ النبلاء بهؤلاء الأتباع ، ويسترسلوا فى مظاهر البذخ والآبهة التى كان كبرياؤهم يدفعهم إليها دفعا ، فقد كانوا يقترضون الأموال بأهبط الفوائد من اليهود الذين كانوا ينخرون فى عظام ممتلكاتهم كالهوام المدمرة التى يستعصى الخلاص منها إلا إذا ما أتاحت لهم الظروف فرصة للتحرر ياخضع دائيتهم لعمل من أعمال العنف المتسمة بالدناءة والضعفة .

كان الشعب الانجليزى فى ذلك الوقت يزرع تحت أعباء ثقال فرضتها عليه تلك الحالة السيئة ، وفوق هذا فقد كان لديه من الأسباب المروعة ما يجعله فى خشية مما يجنبه المستقبل ، وقد زاد فى أسام انتشار وباء خطير فى

البلاد أنمي ضراوته سوء التغذية وقذارة الفقراء، والمساكن الحقيرة للطبقات الدنيا بما أودى بحياة كثيرين كان الأحياء يغبطونهم على الموت لأنه أعفام من الشرور المرتقبة .

ولكن في خضم هذه السوءات المتزاخمة ، كان الفقراء كالأغنياء، وعامة الشعب كالنبلاء ، يقيمون مباراة في الفروسية ، تلك التي كانت السلوى الكبرى في ذلك الوقت ، وكان أولاء جميعاً يشعرون بنفس المتعة التي يحس بها مواطن من « مدريد » يكاد يموت جوعاً ، ولا يمتلك من المال ما يبتاع به شيئاً يسد أود أسرته ، ولكنه يولى نتيجة مصارعة الثيران اهتماماً شديداً ، وما كان أى التزام أو عاهة ليحول دون الشباب أو الشيوخ من أن يشهدوا أمثال هذه المباريات ، هذا وقد جذب انتباه الجماهير ما كان يسمى أتند « بمر السلاح » الذي سيقام في « آشي » بمقاطعة « ليستر » ، حيث إن أبطالاً طبقت شهرتهم الآفاق سينزلون إلى الحلبة بحضور الأمير « يوحنا » نفسه الذي كان من المرتقب أن يشرف الحفل، مما حدا بجمهرة خفيرة من المواطنين من جمع الطبقات إلى أن يسرعوا إلى ساحة المباراة في صبيحة اليوم المضروب .

كان المنظر فريداً في روعته ، فهناك على حافة غابة تقع على مبعده ميل من مدينة « آشي » مرعى فسبح مكسو بأهبي وأجل العشب الأخضر، تحيط به غابة من أحد نواحيه ، ومحدود من الجهة المقابلة بأشجار البلوط المتناثرة وقد نما بعضها إلى درجة خارقة. وكانت الأرض كما لو كانت مخططة خصيصاً لإقامة الألعاب العسكرية المزمع إقامتها تفحدر تدريجياً من جميع النواحي حتى تصل إلى قاعدة مستوية منبسطة . وكانت الساحة محاطة بأسوار قوية طولها نصف ميل وعرضها يقرب من نصف الطول ، وكانت على شكل مستطيل إلا أن الزوايا كانت مستديرة على صورة ملحوظة لإتاحة فرصة أكبر للنظارة ، وكانت الفتحات المخصصة لدخول المنازل تقع في الطرفين

الشمالي والجنوبي من المضمار ، يمكن الوصول إليها عبر بوابات خشبية قوية ، تتسع كل واحدة منها لدخول فارسين راكبين في وقت واحد ، ويقف عند كل منها حارسان يعاونهما ستة من ناغفى الأبواق وكثير من الأتباع وعدد كبير من الجنود الشداد لحفظ النظام ، والتأكد من شخصيات الفرسان الذين يتوون الاشتراك في ذلك المهرجان العسكرى .

وعلى مرتفع طبيعى من الأرض خلف المدخل الجنوبي أشبه بالمنصة ، أقيم مضرب لخمس خيام فاخرة مزدانة بأعلام من ذوات اللونين الوردى والأسود ، وهما اللونان المنتقيان للفرسان الخمسة الداعين إلى النزال ، وكانت جبال الخيام من هذين اللونين نفسها ، وكان درع كل فارس معلقاً أمام خيمته ، وإلى جواره وقف وصيف له متنكراً فى زى غريب على صورة وحش أو جنى أو أى زى خيالى آخر يروق لسيدته ، ويتفق مع الاستعارة التى بحلوله انتحاله فى أثناء المباراة .

كانت الخيمة الوسطى - مكان للشرف - قد خصصت لبربان دى بواجيلبرت الذى كانت شهرته فى جميع ألعاب الفروسية لا تقل عن صلاته بالفرسان الذين نظموا « عمر السلاح » ، هذا ، وكانت سبباً فى قبوله فى زمرة الدعاة إلى النزال بترحاب شديد ، بل وفى اتخاذه رئيساً وقائداً لهم ، مع أنه لم يكن قد التحق بهم إلا منذ أمد قصير . وإلى جانب من خيمته انتصبت خيمتا « ريجنولد فرون دى ييف » و « ريتشارد دى مالفوازان » ، وإلى الجانب الأخر قامت خيمة « هيو دى جرانتمسيل » ، وهو بارون نبيل من المنطقة المجاورة ، سليل رئيس الديوان للقصر الملكى الانجليزى خلال حكم الفاتح وأبنة « وايم ريوفس » ، وفى الخيمة الخامسة جلس « رالف دى فيونت » وهو أحد فرسان طائفة القديس يوحنا الأورشليمى ، وكانت له بعض ممتلكات قديمة فى مكان يدعى « هذر » ، بالقرب من « أشبى دى لازوش » ، وكان يمتد من عمر مدخل الساحة منحدر غير مرتفع عرضه عشر ياردات ، يؤدى إلى المنصة التى أقيمت عليها الخيام ، والتى يلفها سور قوى من جميع النواحي ، كما كان هناك أيضاً سور حول الشرفة التى نصبت أمام الخيام .

كان كل هذا تحت حراسة جنود مدججين بالسلاح، وكان مدخل الساحة الشمالي ينتهي بأخر مماثل له عرضه ثلاثون قدما، وفي نهايته مكان فسيح يحيط به سور خاص بالفرسان الذين قد يدخلون الساحة في رفقة المتبارين، وأقيمت خلف هذا المكان خيام فيها منعشات مختلف ألوانها للترفيه عنهم، وكان بها أيضا صانعو الأسلحة والبيطريون وغيرهم من الأتباع على استعداد للقيام بخدماتهم إذا ما مست الحاجة إليها .

وكانت هناك أروقة في جزء من خارج الساحة فرشت بالأسطة والسجاجيد، وبها وسادات لراحة أولئك السيدات وأولئك النبلاء الذين كان من المنتظر أن يقدوا لمشاهدة المباراة، هذا وكان هناك مكان ضيق يقع بين تلك الأروقة وبين الميدان أعد للخاصة والنظارة ذوى المراكز السامية، شبيه بمقاعد المسرح الخلفية الرخيصة، أما العامة فقد كانت تتخذ أماكنها على حواف ساحة واسعة تكسوها الحشائش أعدت لهذا الغرض، وكانت طبيعة الأرض المرتفعة تتيح لهم أن يطلوا على الأورقة من مكان على ويستمتعوا برؤية الساحة واضحة، وبالإضافة إلى ما كانت تهيئه هذه الأماكن من راحة، فقد تسلق بضع مئات من الخلق فوق غصون الأشجار المحيطة بالمرعى، وحتى برج الكنيسة الريفية القائمة على مبعده ما كان غاصا بالناظرين .

أما فيما يتعلق بالمشهد العام، فقد بقي علينا أن نلاحظ أنه كان هناك في الناحية الشرقية من الميدان رواق يتوسطه تماما، وكان بالتالي مواجهها للسكان الذى سيجرى فيه صدام المنازل، وكان أكثر ارتفاعا وأخر رباشا من سائر الأورقة، يمتاز بوجود نوع من العروش به، مغطى بمظلة مزدانا بالشعار الملكى. كان يحيط بمكان الشرف هذا الذى كان معداً للأمير ديوحنا، وحاشيته حاملى الدروع والأتباع والخاصة بزياتهم الثمينة، وكان هناك فى الجهة الغربية من الساحة رواق آخر يواجه الرواق الملكى

في نفس ارتفاعه ولكنه أكثر زخرفة وبهاء ، مع أنه أقل روعة من ذلك الذي كان معدا للأمير .

كانت هناك حاشية من الوصيفات والصبايا اللواتي لم يكن من المستطاع انتقاء من يفوقهن حسنا وبهاء ، ارتدين ثيابا تنكزية من اللونين الأخضر والوردي ، يحطن بعرش مزدان بهذين اللونين . وبين رايات وبوارق تحمل قلوبا جريحة ، قلوبا تحترق ، قلوبا تقطر دما ، وأقواسا وجعبا للسهام ، وجميع الرموز الشائعة لا انتصارات كيويده إله الحب ، كانت هناك عبارة معلقة تبين للمشاهدين بأن مقعد الشرف هذا خاص بملك الحب والجمال ، ولكن مامن أحد كان يستطيع أن يتكهن بمن ستمثل ملكة الحب والجمال في ذلك المهرجان .

في تلك الأثناء كان المشاهدون من كل هذه الطبقات يتزاحمون ويتدافعون بغية الوصول إلى أماكنهم وفق طبقاتهم ، ولم يكن ذلك ليتم دون وقوع شجار بشأن الأماكن المخصصة لهم ، وكان بعض هؤلاء يجلسون دون كلفة إلى جوار الجنود المسلحين الذين كانت عصي فتوسهم الحربية ومقابض سيوفهم تعمل لردع أكثرهم شرورا . أما المنازعات التي كانت تقوم بين أشخاص أكثر رفعة ، فقد كان المشرفون أو القائمان على النظام ينهونها بالحسنى .

كان « وليام دي ويثل ، و « ستيفن دي مارتيفال ، القائمان على النظام مدججين بالسلاح ، ويتجولان في جميع أرجاء الميدان وهما على ظهري جواديهما لتأييد النظام والحفاظ عليه بين النظارة . بدأت الأروقة تمتلئ شيئا فشيئا بفوارس ونبلاء يرتدون ملابس الساحة وكانت عبااتهم ذوات الألوان الأخاذة متباينة مع أردية السيدات التي كانت أزهى ألوانا وأكثر جمالا ، وكان عددهم يفوق عدد الرجال ، يتدافعن لمشاهدة رياضة كان يظن أنها دامية خطيرة لا تبعث في جنسهن البهجة والسلوى ، وسرعان

ما اكتظت الساحة الداخلية المنخفضة بالخاصة والموسرين من سكان القرى ومن إليهم من هم أقل مرتبة ولم تواتهم الجراءة لأن يتخذوا لأنفسهم أماكن أكثر رفعة من تواضع أو فقر أو لقب غير موثوق به، وكان طبيعياً أن تقوم الكثرة الغالبة من المنازعات بسبب تسابق هؤلاء الأقوام على أماكنهم .

قال رجل من تشير سترته البالية إلى فقره ، كما يشهد سيفه وخنجره  
وسلسته الذهبية على ادعائه لمكانة عليّة :

— « أيها الكلب الكافر يا ابن الذئبة ! أتجتريّ على أن تلتصق  
بمسيحي وسيد نورماندى من دم « مونت دى ديبه » ؟ .

لم يكن هذا السباب المقذع موجهاً إلى أحد غير إسحق الذى عرفناه ،  
والذى كان يختال في رداء فاخر محلى بأشرطة وبطانة من فراء ، وكان يعمل  
جاهداً على أن يجد مكاناً في الصف الأمامى تحت المنصة لابنته الجميلة  
« ريبكا » ، التى لحقت به في آشي ، وكانت في تلك اللحظة عالققة بذراع أبيها ،  
جازعة أشد الجزع من سخط الجماهير التى ثارت على جراءة أبيها . ولكن  
إسحق الذى رأيناه مسرفاً في خجله في مواضع أخرى ، كان يعلم حق العلم أنه  
ليس هناك ما يرهبه في تلك اللحظة ، وما كان لأحد من النبلاء النهمين الذين  
تنطوى نفوسهم على الشر ليجتريّ على أن يلحق به أذى في مثل هذا المكان العام ،  
أو حيث قد اجتمع عدد من أمثاله . كان اليهود في هذه المهرجانات في حمى  
القانون العام ، وإذا كان هذا ضماناً واهناً ، فقد اصطلحت الأوضاع على  
أن يكون من بين الحاضرين بعض النبلاء الذين كانوا على استعداد لحماية  
اليهود رعاية لمصالحهم الخاصة . كان إسحق في تلك اللحظة يحس بثقة لم  
يألفها لأنه يعلم أن الأمير يوحنا كان في تلك الأيام يساوم يهود مدينة  
« بورك » للحصول على قرض كبير بضمان بعض المجوهرات والأراضي ،

وكان نصيب إسحق في هذه الصفقة كبيراً ، وكان يعرف أيضاً أن  
رغبة الأمير اللففة على إنجازها ستكون له حايته من المأزق الذي  
تردى فيه .

نفت هذه الاعتبارات بروح الشجاعة في اليهودى الذى لم يكف عن اقتحامه،  
ودفع النورماندى المسيحى غير آبه بمولده أو مكانته أو دياناته ، ولكن  
الرجل المسن جأر بالشكوى فأثارت غضب النظارة الواقفين إلى جواره ،  
وكان من بينهم رجل بدين وثيق البنيان يبدو أنه أحد خاصة الفلاحين ،  
يرتدى ثوباً أخضر اللون من صنع ، لنكولن ، ، وقد رشق في حزامه  
اثنى عشر سهماً ، وغطاء للرأس ، وشارة من الفضة ، ومسكا في يده بقوس طوله  
سنة أقدام . استدار هذا الرجل إلى الخلف قليلاً وتجهت من الغضب  
قسمات وجهه التى أحالها طول تعرضها للتقلبات الجوية إلى لون بني كالجوز ،  
وأسدى النصيح لليهودى قائلاً له إن عليه ألا ينسى أن كل الثروة التى جمعها  
بامتصاص دماء فرائسه قد زادت زهوا فأصبح كمنكبوت منتفخ لا يؤبه  
له طالما كان قابعا في ركنه ، ولكنه يسحق إن اجترأ على الخروج  
إلى النور . تقاعس اليهودى وتقلص من ذلك الوعيد الذى قيل باللغة  
النورماندية الإنجليزية ، وبصوت ثابت ومظهر صارم ، ومن المحتمل أن  
تكون نفسه قد راودته على أن يتخلى تماما عن مثل هذا الجوار الخطر لو  
لم يجتذب الأمير يوحنا المفاجيء اهتمام الحاضرين جميعا ، إذ أنه دخل إلى  
الساحة في تلك اللحظة يتبعه عديد من خليط من المدنيين ورجال الكنيسة  
الذين كانوا خفافا في أردبتهم ، مرحين في سلوكهم كسائر أتريابهم ، وكان  
من بينهم رئيس دير ، جورفولكس ، في أشد الملابس جراءة يستطيع مثل  
للكنيسة أن يخاطر بارتدائها ، فقد كان ثوبه مرفقا في التحلى بالفراء  
والذهب ، وطرفا حذائه يفوقان في غرابتها طراز ذلك العصر ، إذ أنها



كانا يرتفعان ارتفاعا كثيرا حتى لم يكن ربطها لا في ركبته فحسب، بل وفي  
خصره أيضا، وكانا يعوقانه حقا عن وضع قدميه في الركاب، ولكنه  
كان عائقا هينا لرئيس الدير الباسل الذي كان مبهيجا لإتاحة الفرصة له  
لكي يبدي فروسته الخارقة أمام هذا الحشد والحسان على وجه خاص لأنه  
كان في غنى عن هذين الركابين اللذين يستعملهما كل راكب هياب، أما  
ماعداء ذلك من حاشية الأمير يوحنا، فكانوا من قواد الجنود المرتزقة ذوى  
الخطوة، وبعض النبلاء قطاع الطرق، وموظفي البلاط المبتذلين مع بعض  
فرسان المعبد وفرسان القديس يوحنا.

وجدير بنا أن نلاحظ أن فرسان هاتين الطائفتين كانوا في حالة عداء  
مع الملك ريتشارد، لأنهم انحازوا إلى جانب فيليب، ملك فرنسا مع  
سلسلة طويلة من المنازعات التي وقعت في فلسطين بين ذلك الملك وبين  
ريتشارد قلب الأسد، ملك إنجلترا، ومن النتائج المعروفة لهذا النزاع أن  
انتصارات ريتشارد، المتوالية أصبحت عديمة الثمار، وباءت أحلامه لحصار  
بيت المقدس بالجربة والفشل، وانتهت الأبحاث التي حققها هدنة غير مشروطة  
مع السلطان صلاح الدين، وبنفس السياسة التي حددت سلوك إخوانهم في  
الأراضي المقدسة، ارتبط فرسان المعبد وفرسان الضيافة في إنجلترا  
ونورمانديا بحزب الأمير يوحنا لأن هناك من الأسباب ما يدفعهم إلى عدم  
الرغبة في عودة ريتشارد، إلى إنجلترا أو ارتقاء آل آر، وريثه الشرعى  
إلى العرش. ومن ناحية أخرى كان الأمير يوحنا يبغض الأسر الساكسونية  
القليلة ذوات الاعتبار التي تبقت في إنجلترا، وما كان ليترك فرصة تمر  
دون أن يمتنها ويمعن في إذلالها لشعوره بأنها كانت كارهة له ولأطباعه،  
وكان هذا هو الشعور السائد بين الغالبية العظمى من الشعب الإنجليزي  
الذى كان يخشى افتتاحا جديداً على حقوقه وحرياته من ملك له ميول يوحنا  
المبتذل الطاغية.

كان الأمير يمتطي صهوة جواد كريم يتبعه حاشيته الفاخرة، وقد ارتدى

زياً رائماً من اللونين القرمزى والذهبي ، ووضع على يديه صقراً ،  
وعلى رأسه غطاء من الفراء محلى بدائرة من الأحجار الكريمة ، تدلت منه  
خصلات شعره الطويل المموج واسترسلت على كتفيه .

كان الأمير يوحنا يهتلى جواداً أصيلاً رمادى اللون ، يختال داخل  
الساحة على رأس ركة الجذل ، ويضحك بصوت عال مع أفراد حاشيته ،  
ويحلق بجرأة تغفرها له مكانته الملكية في وجوه الحسناوات اللواتي كن  
يرصن الأروقة المرتفعة .

لم يكن في استطاعة أولئك الذين قرأوا في وجه الأمير تلك الجرأة  
الفاسقة التي ينتابها صلف مسرف ، وعدم اكتراث بشعور الآخرين ، أن  
ينكروا على قسماته ذلك النوع من الملاحظة الواضحة التي أبدعت الطبيعة في  
تنسيقها ، وصاغها الفن على القواعد الطبيعية للوسامة ؛ ولكنها كانت غامضة  
بعيدة كل البعد عن الشرف ، وكأنها تتصل من إخفاء التفاعلات الطبيعية  
للروح ، وكثيراً ما يخطئ الناس تقدير هذه التعابير فيحسبونها نوعاً من  
الصراحة التي تتسم بالرجولة ، بينما هي في الحقيقة تابعة من طبيعة فاجرة  
مستهترة ، تشعر بعلو مكاتها مولداً وجاهاً ومالاً ، أو أية صفة أخرى مميزة  
لا تصل بينها وبين الجدارة الشخصية صلة ما . أما أولئك الذين كانوا  
لايسغرون في التفكير ، ويأخذون الأمور بظواهرها - وما أكثرهم -  
فقد رأوا في جمال غطاء رأس الأمير ، وأبهة عباةته المحلاة بأثمن أنواع فراء  
السمور ، وحذائه المصنوع من الجلد المراكشي ، ومهمازيه الذهبين ،  
والمهارة الفائقة التي كان يسوس بها جواده ، دافعاً قوياً إلى أن يمشوا  
التصفيق مدويماً .

استرعى انتباه الأمير أثناء دورانه المرح حول الميدان ذلك الشغب الذي  
لم يكن قد هدأ بعد ، والذي كانت حركة إسحق الهادفة إلى أن يتخذ له مقعداً  
رفيعاً في الحفل سبباً في إثارته . وفي الحال عرفت عين الأمير اللماحة ذلك

اليهودى ، ولكنه وقع تحت تأثير بهيج عندما أبصر بابنة صهيون الجميلة التي كانت الضوضاء قد أفرعتها فعلقت بذراع أيها المسن .

كان جمال « ريكا » ، يستطيع أن ينافس فتنة أكثر حسان إنجلترا اعتداداً بأنفسهن وجمالهن حتى ولو كان الحكم خبيراً فاحصاً كالأمير « يوحنا » . كان قوامها بديع التنسيق ، أبرز مفاتنه نوع من الزى الشرقى الذى كانت ترتديه على نسق النسوة من بنات جنسها ، وكانت عمامتها مصنوعة من الحرير الأصفر تتلام كل الملامة مع سمرة بشرتها ، وكانت عيناها براقيتين ، وحاجباها مقرسين على صورة فريدة ، وأنفها دقيق بديع التكوين ، وأسنانها مصطفة بيضاء كاللؤلؤ ، وشعرها أملس كالحرير ذو خمائل غزيرة صفت كل واحدة منها على شكل حلزوني ، وتدللت على جيد ونحمر مفرطى الجمال حتى أصبح كقناع من أئمن أنواع الحرير الفارسي ، تظهر من ثناياه زهور فى لونها الطبيعى ، متناثرة على أرض أرجوانية أصبحت مباحة لكل ناظر .

صاغت كل تلك المفاتن مجتمعة مثلاً أعلى للجمال فاق حسن كل الفتيات اللواتى كن يحطن بها . كانت تغلق سترتها من عنقها إلى خصرها بمشابك من ذهب محلاة باللالى ، ولكنها تركت الثلاثة العليا منها دون إغلاق بسبب حرارة الجو ، فزاد ذلك من الجمال الذى تحدثنا عنه ، وأظهر للعيان عقداً ماسياً تدلت منه أحجار كريمة لا تقدر بثمن . وكانت إحدى ريشات النعام مثبتة فى عمامتها بمشبك مرصع بالماس تضى ميزة جديدة على اليهودية الحسنة التى كانت السيدات للصلفات الجالسات فى المقاعد العليا ينظرن إليها بازدياء وهزه ، ولكنها كانت فى دخيلة النفوس موضع حسد ممن كن يسخرن منها . قال الأمير :

— « بحق صلعة إبراهيم ، لا بد وأن تكون هذه اليهودية هى نفس النموذج لذلك الحسن الكامل الذى أطاحت مفاتنه يرشد أحكم ملك عاش على وجه الأرض (سليمان) . ما قولك فى هذا أيها الرئيس « أمير » ؟ أقسم بمعبد

ذلك الملك الحكيم الذي فعل أخونا الحصيف في استعادته، على أنها نفسها عروس الإنشاد، . فأجاب رئيس الدير بلهجة ساخرة عابرة :

- « إنها وردة شارون وزنبقة الوادي ، ولكن يجب ألا يغيب عن ذهنك يا صاحب السمو أنها ليست لإيهودية ، . فاسترسل الأمير في قوله دون أن يلتفت إليه :

- « نعم ، وها هما ذان أيضاً نبيلاي الفاسقان المركز أوف ماركس، والبارون أوف بيزانتس يتنافسان على مكان مع كلاب مفلسة لا تجدد في جيوب عباةاتهم صليبا واحداً ليمنع الشيطان من أن يرقص فيها . أقسم بجسد القديس مرقس على أن أمير إمداداتي سيبيء لليهودية الفاتنة مكانا في الرواق . ماذا تكون لك يا إسحق ؟ أمي زوجتك أم ابنتك تلك الحورية الشرقية التي تمسك بها تحت ذراعك ، وكأنك تمسك بصندوق كوزك ؟ ، .

فأجاب إسحق بانحناء عميقة دون أن يضطرب لتحية الأمير التي كانت باسمة رغم أنها ساخرة .

- « إنها ابنتي ريكا في خدمتك يا صاحب السمو ، . فقال يوحنا بضحكة طويلة شاركه فيها أتباعه المرحون في ملق :

- « إنك رجل حكيم ، ولكن سواء أكانت ابنة أم زوجة ، فإنها ستكون موضع حظوة نظراً لحسنها ومزايك ، . ثم أضاف وهو يطل على الرواق ، « من أولئك الجالسون هناك في أعلى ؟ ساكسونيون حتى يستلقون في استرخاء على مدى طولهم ا انقضوا عليهم ودعومهم يجلسون متلاصقين ليفسحوا مكانا للأمير المراهبين وابنته الجميلة . سأجعل هؤلاء الكلاب يعرفون أنه ينبغي عليهم أن يتقاسموا أماكن المعبد العليا مع أولئك الذين يملكون المعبد حقاً ، .

كان أولئك الجالسون في الرواق ، والذين خصهم الأمير بهذا القول

المهين الذي لا ينم عن آداب اللياقة ، هم أسرة « سيدريك » ، الساكسوني وأسرة حليفه وقريبه « أثيلستين أوف كوننجزبره » ، وهذا الأخير شخص مرموق ذو مكانة ينظر إليه جميع المواطنين الساكسونيين في شمال إنجلترا ، نظرة إكبار وإجلال ، لأنه ينحدر من آخر ملوك إنجلترا الساكسونيين ، ولكنه ورث مع دم هذا الجنس الملكي القديم كثيراً من نقائصهم ، وكان وسيماً ضخماً قوى البناء ، في زهرة شبابه وميعة صباه . ولكنه كان رغم ذلك جامد القسما ، خامل العينين ، كثيف الحاجبين ، مبطناً في حركاته ، وفي اتخاذ أي قرار حتى نودي بـ « أثيلستين المتراخي » . وهو « أثيلستين المتراخي » ، أما أصدقاؤه -- وما كان أكثرهم -- فقد كانوا كـ « سيدريك » يكلفون به أشد الكلف ، ويررون هذا التراخي بأنه ليس نابعاً من نقص في البسالة بل من قصور في العزيمة ، وكان آخرون يقولون إن رذيلة إدمان الخمر بالوراثة قد أضعفت قدراته التي لم تكن متوثبة في يوم ما ، وأن الشجاعة المستكنة والطبيعة الوادعة المتبقيتين في خلقه ، لم تكونا إلا رواسب من طبيعة يمكن أن تكون جديرة بالثناء ، ولكن عناصرها القيمة قد ذابت على مدى طريق طويل من فجور بهيمي .

كان الأمير قد أصدر أمره في تغال إلى هذا الشخص الذي وصفناه بأن يفسح مكاناً لإسحق ورييكا ، ووقف أثيلستين مشدوها من هذا الأمر الذي كان سلوك هذا العصر وأحاسيسه ترى فيه مهانة بالغة . إنه لم يكن راغباً في طاعته ، ولكن رأيه لم يكن قد استقر بعد على الطريقة التي يناهضه بها ، فقابل مشيئة الأمير بالمقاومة السلبية ، ودون أن يبدي حراً كآ ، أو يأتي بأية بادزة من بوادر الطاعة ، فتح عينيه الكبيرتين الرماديتين وحلق في وجه الأمير بدهشة تثير الضحك ، ولكن يوحنا الذي كان قد ألم به شيء من الضيق لم يأخذها هذا المأخذ وقال :

- إن هذا الخنزير الساكسوني إما نائم وإما أنه غير مكترث بأمرى ، ثم وجه الحديث إلى أحد الفرسان الراكبين وكان قريباً منه ، وهو قائد

جماعة من « إخوان الحرية » ، أو « الكوندوتيري » ، وهم جنود من المرتزقة لا ينتمون إلى شعب بعينه ، ولكنهم كانوا في ذلك الوقت يلتحقون بخدمة أى واحد من الأمراء يدفع لهم أجرهم :

- « المزه برحك يا « دى براسى » ، وهنا سرت مهمة استنكار حتى بين أتباع الأمير يوحنا ، ولكن « دى براسى » الذى كانت مهنته تغفر له أى تطاول - قد ساق رعه الطويل عبر الفراغ الذى يفصل بين الرواق وبين الساحة ، وكان على وشك أن ينفذ أوامر الأمير لو لم يسرع « أثيلستن المتراخى » إلى استعادة رباطة جأش جعلته يتعد عن الريح ، وهنا خف « سيدريك » الذى كان سريعاً بقدر ما كان رفيقاً متباطئاً ، واستل سيفه القصير من غمده ، وبسرعة البرق أطاح ، بنصل الريح من مقبضه بضربة واحدة ، فارتفع الدم إلى وجه الأمير يوحنا ، وأطلق قسماً من أعرق أيمانته ، وكان على وشك أن ينطق بوعيد يتلام مع خلقه العنيف عندما حال أتباعه الملتفون من حوله دون ذلك ، وهم يحثونه على أن يكون صبوراً طويل الأناة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أطلقت عامة الشعب صيحات مدوية إعجاباً بسلوك سيدريك الشجاع ، فدار الأمير بعينه في ضيق وكأنه يفتش عن ضحية سهلة ، فتلاقت عرضاً بالنظرة الثابتة لرامى السهام الذى كان يبدو مسترسلاً في إطلاق هتافه على الرغم من الوجه المتجهم الذى نظر به الأمير إليه ، فسأله عن سبب إطلاق صخبه على هذه الصورة ، فقال الرامى :

- « إنى أهتف دائماً عندما أرى رمية صائبة أو ضربة باسلة ، فقال الأمير :

- « أحقا ما تقول ؟ أوكد لك أنك نفسك تستطيع أن تصيب العلامة البيضاء في هدف ما ، .

فقال الرامى :

- « إنى أستطيع أن أصيب علامة حارس غابة ، وعلى البعد الذى يصيبها حارس غابة ، .

فقال صوت من خلف الصفوف لم يعرف قائله :

« وعلامة « وات تيريل ، على مبعدة مائة باردة ، » .

كانت هذه العبارة تليحاً لمصرع « وليام روفوس ، أحد أقارب الأمير  
بما أساء إليه وأفزعه ، ولكنه رغم ذلك أرضى نفسه بأن أشار ناحية الراى ،  
وأمر الجنود المحيطين بالساحة بأن يرقبوا ذلك المدعى ثم أضاف :

« أقسم بالقديس « جريزيل ، على أننا سوف نختبر مهارة ذلك  
الذى يبدى أشد الحماس حيال مهارة الآخرين ، فقال الراى برزانه تغلب  
على سلوكه :

« لن أهرب من الاختبار ، . فقال الأمير الثائر :

« والآن ، قفوا أيها الساكسونيون الحقى . أقسم بنور السموات  
على أن اليهودى سبتخذ له مقعداً بينكم ما دمت أنى قد أمرت بذلك ، .

وقال اليهودى الذى دفعه طموحه إلى التنازع على مكان مع سليل أسرة  
« مونت دى ديه ، الفقير ، والذى ما كان هذا الطموح ليدفع به إلى التطفل  
على ما كان يتمتع به الساكسونيون الأثرياء :

« لن يكون ذلك بحال ، واثذن لى يا صاحب السمو أن أقول إنه  
ليس لمن هم على شاكلتنا أن يجلسوا إلى جوار سلالة من حكام الأرض ، .  
فقال الأمير يوحنا :

« إذا ما أمرتك أيها الكلب الكافر فعليك أن تطيع . انهض وإلا  
فسأجعلهم يسلخون جلدك ويدبقونه لصنع معدات الجياد ، .

عند هذا بدأ اليهودى يصعد الدرج المائل الضيق الذى يصل إلى الرواق ،  
وقال الأمير وهو لا يحول نظره عن سيدريك الذى كان مرآه يوحى بأنه  
يعتزم إلقاء اليهودى من أعلى الدرج إلى أسفله :

- د فلتر من ذا الذى سيجتري على الوقوف في وجهه ، .

حال المهرج ، وامبا ، دون وقوع الخطب فقفز ووقف بين سيده وبين إسحق ، وقال متعجبا رداً منه على تحدى الأمير :

- د حسنا ! أنا الذى سأفعل ذلك ، . قال هذا وهو يدفع نحو لحية اليهودى بفخذة من لحم الخنزير أخرجها من تحت عباءته ، وهو بلاشك كان قد زود نفسه بها خشية أن يطول أمد المباريات إلى أكثر مما تتحمل شهيته من صوم .

رأى اليهودى ازدراء القوم لبني جنسه معلنا تحت أنفه عندما رفع المهرج سيفه الخشبي فوق رأسه فراجع اليهودى ، وزلت قدمه ثم هوى إلى أسفل الدرج ، وأصبح أضحوكة للشاهدين الذين ضجوا بالضحك ساخرين ، وشاركهم في هذا الأمير يوحنا وحاشيته وهم يضحكون من أعماق قلوبهم فقال ، وامبا ، :

- د امنحنى الجائزة إذن يا ابن عمى الأمير ، ثم أضاف رافعا فخذة الخنزير في إحدى يديه ، والسيف الخشبي في الأخرى . لقد هزمت منازل في قتال شريف بالسيف والدرع ، . فقال الأمير يوحنا وهو لا يزال مسترسلا في الضحك :

- د من أنت وما صفتك أيها البطل النبيل؟ ، فأجاب المهرج ، وامبا ، :

- د إني مهرج بحكم مولدى . أنا ، وامبا ، المعتوه ابن د ويتلس ، بن د ويند برين ، ابن أحد شيوخ البلد . فقال الأمير يوحنا الذى لم يكن كارها لاقتناص أى المعاذير للانصراف عن هدفه الأسمى :

- د أفسحوا لليهودى مكانا أمام الدائرة السفلى . إنه لمن العبث بالنظام ومن السوء بمكان ، أن يوضع المنتصر إلى جانب المزموم ، . فقال ، وامبا ،



– و غد مع أحرق أشد سوءاً ، ويهودى مع لحم الخنزير أسوأ من كل شيء . . فصاح الأمير يوحنا قائلاً :

– أشكرك أجزل الشكر أيها الإنسان الطيب . إن إعجابى بك شديد ، أما أنت يا إسحق ، فأقرضنى حفنة من الجنيهات الذهبية . .

أما اليهودى الذى صعق لهذا المطلب ، والذى خشى أن يرفضه ، ولم يكن راغباً فى الاستجابة إليه ، فقد ظل يقلب فى حافظة نقوده المدلاة من حزامه ، ولعله بذلك يحاول أن يتوثق من أقل عدد من النقود يمكن أن يعتبر حفنة ، عندما انحنى الأمير من فوق جواده وأنهى حيرة إسحق بأن انتزع الحافظة كلها من جانبه ثم ألقى لوامبا بقطعتين ذهبيتين مما كان فيها ، ثم تابع مسيره حول الساحة تاركاً اليهودى نهباً لسخرية من حوله ، أما هو فقد هتفت له الجماهير وكأنه قام بعمل أمين جليل .

**\*\* معرفتى \*\***

[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)

**منتديات مجلة الإبتسامه**

## الفصل الثامن

وبتحدٍ شديدٍ نفخ للنازل في النفير  
ردّدهُ من وُجه إليه هذا التحدى ،  
ودوى الميدان بالرنين فرجع الكون صداه  
وكانت فتحتا .خوذتيهما مغلقتين ورحاهما في استرخاه  
أو مُصَوِّبان نحو الخوذة أو الرأس  
يختفيان وراء الحاجز ويسرعان في السباق  
ويلكزان جواديهما بالمهاميز فيريان المدى بينهما يقترب .

( بلاون وآرسيت )

ولجأة توقف الأمير يوحنا في منتصف دورته ، ودعا رئيس دير  
«جور فولكس» وأعلن إليه أن المهمة الرئيسية لذلك اليوم قد أغفلت وقال:

– « بحق السماء ، لقد نسينا ياسيدي الراهب أن نُنصّب ملكة الحب  
والجمال الفاتنة التي ستُسلم الجائزة بيدها الناصعة ، ومن ناحيتي فأنا متحررفي  
آرائي ، ولست أبالي إن وقع اختياري على «رييكا» ذات العينين السوداوين» .  
فأجاب الراهب وهو يدير عينيه مذعورا :

– « يا للعدراء المقدسة ! أنزكي يهودية احق علينا إذن أن نرجم حتى  
خارج الساحة ، هذا وإن لم أبلغ من العمر حداً يجعلني أستشهد برضاي ،  
وبالإضافة إلى ذلك فإنني أقسم بقديسي الذي يحرسني ويحميني على أن  
الساكونية الفاتنة «روينا» تفوقنا حسنا . فقال الأمير :

– « ساكونية أو يهودية ، كلب أو خنزير ، سيان عندي . أقول لك

إننا سننادى بربیکا ملكة على عرش الجمال والحب حتى ولو لم يكن في ذلك إلا إذلال لأولئك الساكسونيين الغلاظ .

هنا علت مهمة حتى بين الخاصة من أتباعه وقال « دى براسى » :

- « لقد تجاوز الأمر حد الدعابة بامولاي ، ولو وقعت تلك المهانة فلن يستقر رح فارس في غمده ، .

وقال « والديمار فيتزيرس » وهو أحد أتباع الأمير يوحنا القدماء وأعلام مكانة :

- « إنها يا صاحب السمو أشد المهانات لجوراً ، ولو حاولت إتيانها فسيكون في هذا تدمير لمشروعاتك ، . فقال يوحنا وهو يجذب عنان جواده بصلف :

- « لقد جعلتُ منك ياسيدي تابعاً لى لامستشاراً ، . فقال والديمار بصوت خفيض :»

- « إن أولئك الذين يسرون في ركب سموكم في المسالك التي ترتادونها يكتسبون الحق في أن يكونوا مستشارين لك ، لأن صالحكم وسلامتكم ليسا بأكثر تعرضاً للخطار من صالحهم وسلامتهم ، .

فأفاق يوحنا عندما سمع اللهجة التي قبلت بها هذه الكلمات ، ورأى أنه من سداد الرأي أن يتقاعس ، وقال :

- « إنى لم أعمد إلا إلى المزاح ولكنى أراكم تنقلبون على كالأفاعى . بحق الشيطان ا نادوا بمن تشاهون وابتهجوا وامرحوا ، . فقال دى براسى :

- « كلا كلا ! ليق عرش الملكة الحسناء خاليا حتى يعرف اسم المنتصر ، وحينئذ دعوه ينتق السيدة التي ستربع على عرش الحب والجمال ، وسيضيف

ذلك إلى انتصاره نغرا آخر ، ويلقن السيدات الجيلات كيف يُقَدِّرن  
حب الفرسان البواسل الذين يرفعون من قدرهن فيتبوان هذه المكاة ، .  
وقال رئيس الدير :

— « لو فاز د بريان دى بواجيلبرت ، بالنصر ، فإنى أراهن بمسبحتى  
على أنى سأعلن اسم ملكة الحب والجمال ، . وقال دى برامى :

— « إن بواجيلبرت يجيد استعمال الرمح ، ولكن هناك آخرون حولي  
هذه الساحة ياسيدى رئيس الدير قوم لا يرهبون نزاله ، . وقال د والديمار :

— « الصمت ياسادة ا دعوا الأمير يتخذ مجلسه فقد نفذ صبر الفرسان  
والمشاهدين على السواء ، والوقت يمضى وقد آن للألعاب أن تبدأ ، .

ومع أن الأمير يوحنا لم يكن قد أصبح ملكا بعد ، إلا أنه كان يلقى من  
د والديمار فيتزيرس ، جميع مضايقات الوزير المفضل ، الذى يقوم على  
خدمة مليكه ، ولكنه كان يفعل ذلك على طريقته الخاصة .

رضخ الأمير رغم أنه كان نزاعا إلى العناد فى الهنات الهينات ، وجلس  
على عرشه يحيط به أتباعه ، ثم أشار إلى المنادين بأن يعلنوا قوانين المباراة  
التي كانت فى جملتها تنص على ما يأتى :

أولا — على الفوارس الخمسة أصحاب التحدى أن ينازلوا كل من  
يتقدم للنزال .

ثانياً — يستطيع أى فارس يتقدم للنزال أن يختار — كما يحلو له —  
خصما معيناً من بين المتحدين وذلك بأن يمس درعه ، فإن فعل ذلك يظهر  
رمحه ، فإن اختبار المهارة يكون بما يسمى « بأسلحة المجاملة » ، أى برماح  
مُثبتت فى أطرافها عارضات خشبية مستديرة مسطحة حتى لا يحدث خطر الإلأمن  
صدام الخيول والراكبين ، ولكن إذا ما لمس الدرع بطرف الرمح ، فهذا

يعنى أن النزال سيكون حقيقياً ، أى أن الفرسان يتقاتلون بأسلحة حادة وكانهم فى معركة حقة .

ثالثاً - عندما يُوثَّق كل من الفرسان الحاضرين قسمه، وذلك بأن يكسر خستار ماح ، فإن الأمير يُعلن اسم المنتصر فى مباراة اليوم الأول الذى يقضى بأن يمنح جواد حرب بالغ الجمال ذا قوة لا تبارى بجائزة له، وبالإضافة إلى هذه الجائزة عن بسالته ، فسيكون له شرف اختيار ملكة الجمال والحب التى تسله إياها بيدها فى اليوم التالى .

رابعاً - ستقام فى اليوم التالى مباراة عامة يستطيع جميع الفرسان الحاضرين الراغبين فى تحقيق المجد أن يسهموا فيها، ولما كانوا قد قُسموا إلى فريقين متساويين عدداً ، فإنهم يستطيعون أن يترسلوا فى القتال حتى يعطى الأمير يوحنا الشارة بوقفه ، وحينئذ تتوج ملكة الجمال والحب التى يقع عليها اختيار الفارس الذى يقرر الأمير بأنه الفائز فى اليوم الثانى بتاج مكون من رقائق ذهبية مصاغة على صورة إكليل من الغار. وفى هذا اليوم الثانى تتوقف ألعاب الفروسية ، وتقام ألعاب الرماية بالقوس ، ومصارعة الثيران ، وألعاب شعبية أخرى للترفيه عن أفراد الشعب .

بهذه الطريقة كان الأمير يوحنا يحاول جاهداً أن يضع الأسس لاستئالة الشعب إليه ولكنه كان لا يفتر عن تقويضها بارتكاب عمل طائش من الاستفزاز الفاجر لعواطف الشعب ومعتقداته .

كان منظر الساحة فى ذلك الوقت بالفاحد الروعة ، وكانت مدرجات الأروقة تهب بالنبلاء والعظاء والأثرياء ، ومن وهب الله نعمة الجمال فى شمالى إنجلترا ووسطها ، وكان التباين فى أزياء هؤلاء المشاهدين الموقرين يجعل المنظر بهيجاً رائعاً ، بينما كان الجزء ان الداخلى والأسفل ، يزخران بأفراد الطبقة المتوسطة الذين يعيشون فى ميسرة ، ومزارعى إنجلترا المرحة الذين

كانوا يُكْوَنون بأزيائهم البسيطة حافة داكنة حول هذه الدائرة المشاة بالألوان البراقة، وكانت تلك الحافة تَهْدِي من ذلك البريق، إلا أنها كانت في الوقت نفسه تبرز روعته وبهائه .

أنهى المنادون نداءهم بالهتاف المألوف وهو السخاء ! السخاء أيها الفرسان البواسل !، فانهمرت فوق رؤوسهم قطع من النقود الذهبية والفضية، تتساقط من الأروقة لأن البذل والجلود تجاه أولئك الذين كان العصر يعتبرهم أمناه السر ومؤرخي الشرف كانوا من النقاط الهامة في أسس الفروسية . قوبل كرم المشاهدين بالهتافات المعتادة : « حب السيدات ! موت الأبطال ! الشرف للكرام والمجد للشجعان ! ، وكان المشاهدون ذوو المراتب العادية يشاركونهم الهتاف ، وفرقة كبيرة من الناغين في الأبواق تثير الضجيج بألاتها الموسيقية العسكرية .

وعندما توقفت هذه الأصوات، خرج المنادون من الساحة في موكب مرح متألق ، ولم يبق فيه إلا حكام الميدان الذين كانوا يمتطون صموات جيادهم مدججين بالسلاح ، جامدين كالتماثيل في طرفي الميدان المتقابلين ، وفي تلك الأثناء كانت الساحة المسورة في الطرف الشمالي قد امتلأت على سعتها بالفرسان الراغبين في إثبات مهارتهم ضد المتحدين ، وكانوا يَسْبِدون للناظر من الأروقة، وكأنهم بحر أمواجه من الريش المختلط بالخوذات اللامعة، وأما الرماح الطويلة التي ثبتت في أطرافها رايات صغيرة عرضها حوالي شبر ، فكان النسيم يعبث بها فتخفق ، وتشارك مع الرياش في حركتها التي لاتهدأ في إضفاء الحياة على المنظر .

وأخيراً فتحت الحواجز ، وتقدم الفرسان الخمسة الذين وقع عليهم الاقتراع إلى داخل الميدان في هوادة ، يسير في المقدمة فارس مفرد ويتبعه الباقون في ازدواج ، وكانوا جميعاً يحملون أسلحة فاخرة ، ويصف محدثي الساكسوني ( في مخطوط واردر) أزياءهم وألوانها وتطريز كساء خيولهم

مفصلاً ، وليس من الأهمية بمكان الإفاضة في مثل هذه الأمور ، ولنستمر  
بعض السطور من شاعر معاصر لم يكتب إلا النزر اليسير :

• الفرسان كالتراب

أسيافهم صداً

ونحن على ثقة من أن أرواحهم مع القديسين ، .

لقد بليت آثارهم من فوق جدران قصورهم منذ أمد طويل ، ولم تعد  
هذه القصور سوى تلال خضراء وأطلال متهدمة . والمكان الذي كان  
قد عرفهم يوماً ما عاد يعرفهم الآن . كلا لقد مر من بعدهم كثير من  
الآجيال وأصبحت في طيات النسيان في نفس الأرض التي كانوا يعيشون  
فوقها بكل سلطة المُلُك والنبلاء الإقطاعيين .

أية فائدة يجنيها القارىء إذن من معرفة أسمائهم أو الرموز البائدة لرتبهم  
العسكرية الآن — وهم لا يتوقعون على أية صورة ذلك النسيان الذي ينتظر  
أسماءهم وأعمالهم — كان الأبطال يخترقون الحلبة كالجحش جياهم  
المثوبة وقد أكرهوها على أن تسير مبطنة فأصبحت الخيول تتهادى في  
خطاها مع رشاقة الفرسان ومهارتهم .

وعندما دخل الموكب إلى الحلبة ، انبعث من خلف خيام المتحدين  
صوت موسيقى طائشة حيث كان العازفون يختبئون ، وكانت الموسيقى  
شرقية في أصولها جىء بها من الأراضى المقدسة ، وكان صوت الدفوف  
المختلطة بالأجراس يبدو وكأنه في الوقت نفسه ترحيباً بالفرسان وتحدياً  
لهم في أثناء تقدمهم .

سار الفرسان الخمسة نحو المرتفع الذي أقيمت فوقه خيام المنازلين وقد  
علقت بهم عيون جمهرة كبيرة من النظارة ، وهناك تفرقوا ومس كل منهم

يظهر رعبه درع الخصم الذي يرغب في نزاله مسارفيقا ، فشعرت الطبقات الدنيا من الحاضرين بصفة عامة ، بل والكثيرون من أفراد الطبقة العليا ، بل وبعض السيدات فيما يقال ، بخيبة أمل لأن الأبطال قد اختاروا أسلحة المجاملة ، لأن هناك طائفة من الناس - حتى في أيامنا هذه - يصفقون طويلا لأعمق المآسى شأنهم في ذلك شأن أمثالهم الذين عاصروا أحداثنا هذه ، والذين كانوا لا يابهون بمباراة في الفروسية إلا بمقدار الخطر الذي يتعرض له أبطالها .

وبعد أن أبان الفرسان عن غرضهم السلي ، ارتدوا إلى طرف الحلبة حيث ظلوا يتراجعون صفا واحداً ، بينما خرج كل من المتحدين من خيمته ، وامتطوا جيادهم بتقدمهم . بريان دي بواجيلبرت ، ثم هبطوا من فوق المرتفع ، واتخذ كل منهم موقفه تجاه الفارس الذي طلبه للنزال .

وعندما نفخ في النفير والأبواق ، انطلقوا سراعا كل في مواجهة الآخر ، وكان المتحدون من المهارة الفائقة أو حسن الحظ بمقدار حتى إن خصوم « بواجيلبرت » و « مالفوازان » و « فروندييف » قد سقطوا أرضا ، أما منازل « جراتمبيل » فقد انحرف كثيرا عن الخط المستقيم بدلا من أن يصوب رعبه بإحكام نحو رأسه أو درعه فانكسر الرمح ، وهو أمر أشد خذلانا من السقوط الفعلي من فوق الجواد ، لأن السقوط قد يأتي نتيجة لحادث عارض ، أما الإخفاق في التسديد ، فدليل على اضطراب ، وقصور في المقدرة على استعمال السلاح والجواد .

احتفظ الفارس الخامس وحده بشرف فريقه ، وابتعد عن فارس القديس يوحنا دون أن يقع حادث ، وتحطم رماحهما ، ولم يتفوق أحدهما على الآخر .

كانت صيحات الجماهير تختلط بنداءات المنادين ورنين الأبواق ، معلنة



نصر الفائزين وهزيمة المخدولين ، فعاد الأولون إلى خيامهم ، أما الآخرون فقد لموا شملهم قدر ما استطاعوا ، ثم غادروا الحلبة في خزي واكتئاب ، ليتفقوا مع من انتصروا عليهم بشأن فدية أسلحتهم وخيولهم التي خسروها تطبيقاً لقوانين المباراة .

تباطأ خامسهم وحده في الحلبة بعض الوقت لكي يتلقى هتافات الجماهير الذين مر من بينهم يتهاذى بما ضاعف بلاريب من العار الذي لحق برفاقه .

نزل إلى الميدان فريق ثان من الفرسان أعقبه ثالث ، ومع أنهم قد أدركوا بعض النصر ، إلا أن الفوز بقي آخر الأمر إلى جانب فريق المنحدين ، أولئك الذين لم يسقط واحد منهم من على ظهر جواده ، أو انحرّف عن المسلك الصحيح لقواعد الهجوم ، وهي نكبات أمت بواحد أو اثنين من خصومهم في كل لقاء ، لذلك انهارت معنويات المهزومين انهياراً تاماً لنصر منازلهم المتواصل .

لم يظهر في الشوط الرابع إلا ثلاثة فرسان فقط وقد تجنبوا درعى بواجيلبرت وفرونديبيف ، وقنعوا بلمس الفرسان الثلاثة الآخرين الذين لم يكونوا بوجه عام على نفس القوة والمهارة ، ولم يغير هذا الاختيار الدال على الداه من نتيجة القتال شيئاً لأن المتحدين كانوا لا يزالون منتصرين ، إذ أن واحداً من خصومهم قد سقط ، واعتبر الآخران مهزومين لأنهما ضربا خوذة المتحدى ودرعه بالرمح المسدد بغية تحطيم سلاحه إذالم يسقط من فوق جواده ، وهو أمر مخالف لقواعد الفروسية .

بعد الجولة الرابعة هذه ، توقف الطعان فترة طويلة لم يبد في خلالها راغب في استعادته ، وهمم المشاهدون فيما بينهم لأن مالفوازان

وفروندبييف كانا من بين المتحدين ، وكان لسوء خلقهما أثر في بفضاء عامة الشعب لهما ، وكان الباكون — إذا استثنينا جراتمنيل — موضع كراهية لأنهم غرباء عن البلاد .

لم يشعر أحد بالسخط الشديد على ما يجري بمثل ما أحس به سيدريك الساكوني ، الذي رأى في كل نصر يحرزه النورمانديون تكرارا لانتصارهم على شرف إنجلترا ، ولم تكن نشأته قد لقنته مهارة ما في أفانين الفروسية ، مع أنه قد دلل في مناسبات عدة وفي استخدام أسلحة سلفه الساكونيين على أنه جندي مقدم راسخ العزم ، فنظر بقلق إلى «أيلستين» الذي كان قد تلقن فنون ذلك العصر ، وكأنه بذلك يهفو إلى بذل جهد مفرد لاستعادة النصر الذي كان ينتقل إلى أبدي فارس المعبد ورفاقه .

كان أيلستين ثابت الجنان قوى البنيان ، إلا أنه كان ذا طبع كسول خامل لا يستطيع معه القيام بالجهود العنيفة التي يبدو أن سيدريك كان يتوقع أن يحملها على عاتقه ، وقال بلهجة تنطوي على معنى يكنه في حنايا صدره :

«إن اليوم يوم نحس على إنجلترا . ألسنت مشوقا إلى حمل الرمح بأسيدي؟»

فأجاب « أيلستين » :

« - سأشترك في معمعة الطعام غداً فليس هنا اليوم ما يجتذني إلى

حمل السلاح ، .

فغضب سيدريك لشين كريمةين ورَدَا في هذا الجواب :

أولهما أنه كان يحتوى على كلمة « المعمة » ، وهي كلمة نورماندية ( تعبر عن نزال جماعي ) ، وثانيهما أنه أظهر شيئا من عدم الاكتراث بشرف البلاد ، ولكن هذا الجواب قد صدر عن أيلستين الذي يكن له أعرق الاحترام حتى إنه أبى على نفسه أن يتصيد بواعثه ونقائصه ، وبالإضافة إلى

ذلك فلم يكن لديه من الوقت فسحة لإبداء أى تعليق عليه ، لأن ، وامبا ،  
قد أتى بدلوه في الدلاء قائلا :

— . إنه لمن الأفضل للمرء أن يكون الأول بين مائة رجل من أن يكون  
الأفضل بين اثنين ، . . .

أخذ أثيلتين قول وامبا على أنه مديح جاد ، ولكن سيدريك الذى  
كان أكثر إدراكا لما يرمى إليه فقد رمقه بنظرة قاسية منذرة ، وربما كان  
من حسن حظ وامبا أن الزمان والمكان لم يتسما لسيدريك لكي يبدى  
استيائه منه على صورة أكثر وضوحا ، رغم المكانة التى كان وامبا يحتلها  
من قلبه .

كانت المباراة لاتزال متوقفة لا يسمع إلا أصوات المنادين وهم يصيحون:  
« حب السيدات! تحطيم الرماح! تقدموا أيها الفرسان البواسل! إن العيون  
الجميلة ترقب أعمالكم ، .

كانت موسيقى المتحدين أيضاً تبعث من وقت إلى آخر أنغاما صاخبة  
تعبّر عن الانتصار والتحدى ، في حين أن المهرجين كانوا ساخطين على ضياع  
يوم كهذا يمضى دون قتال ، وكان الفرسان والنبلاء الذين تقدمت بهم  
السنون يتهامون في حيرة على انحلال الروح العسكرية ، ويتحدثون عن  
انتصاراتهم أيام شبابه ، ولكن آراءهم قد أجمعت على أن البلاد ما عادت  
تنجب الآن قانتات كاللواتى كن يملأن ساحات المبارزة بالحياة والبهجة في  
الأيام الخوالي ، وبدأ الأمير يوحنا يتحدث إلى أتباعه عن إعداد الوليمة ،  
وضرورة منح الجائزة إلى بريان دى بواجيلبرت الذى أسقط فارسين وأطاح  
بثالث بضربة واحدة من رمحه .

وأخيراً — وبينما كانت موسيقى المتحدين العربية تختتم إحدى هذه  
المقطوعات الطويلة العالية التى تقطع على الساحة سكونها — أنبعث صوت

نفير وحيد وفيه رنة تحدت من الطرف الشمالى للساحة ، فاستدارت كل العيون لترى البطل الجديد الذى أعلن هذا الصوت عن مقدمه ، وما كادت الحواجز تفتح حتى خطا داخل الميدان . وبقدر ما يكون الحكم مستطاعاً على رجل تغطيه الدروع ، فإن المغامر الجديد كان متوسط الحجم ، يبدو نحيفاً أكثر منه قوى البناء ، وكانت ملابسه المدرعة مصنوعة من الصلب الموشى بالذهب ، وعلى درعه شعار شجرة بلوط فى ربيع العمر وقد اجتنت من جذورها ، وكلة أسبانية معناها « محروم من الإرث » .

كان ممتطياً صهوة جواد كريم أسود اللون ، وعندما كان يمر عبر الساحة ، قام بتحية الأمير والسيدات بخفض رمح فى رشاقة ، وكانت المهارة التى يسوس بها جواده ، وما بدا فى سلوكه من فتوة الشباب ، قد أكسبه عطفاً من الجماهير أفصح عنه بعض أفراد الطبقات الدنيا بأن هتفوا قائلين :  
- « امسن درع درالف دى فيونت ، امسن درع فارس الضياقة ! إنه أقليم ثباتاً فى مقعده ! إنه فريسة سهلة » .

أقبل البطل وسط هذه النداءات التى تدل على ما يحملونه له من حسن الطوية ، وسلك الممر الصاعد الذى يصل من الساحة ، ثم سار قدماً بين دهشة الحاضرين جميعاً نحو الخيمة الوسطى ، وضرب بطرف رمح الحاد درع بريان دى بواجيلبرت فتردد الصدى ، ووقف الجميع عجبين من فرط جرأته ، وكان أكثرهم ذهولا ذلك الفارس مرهوب الجانب الذى تحداه على هذا النحو إلى قتال مميت ، والذى كان واقفاً عند باب خيمته لا يابه بشئ ، ولا يتوقع مثل هذا التحدى السافر العنيف . قال فارس المعبد :

- « هل اعترفت بخطاياك لنفس أيها الأخ ؟ وهل استمعت للقداس فى هذا الصباح حتى تخاطر هكذا بحياتك ؟ » .

فأجاب الفارس المحروم من الإرث ، وكان ذلك الرجل الغريب قد دون اسمه تحت هذا اللقب فى سجل المباراة :

- « إنى أكثر ترحيباً بمجاهبة الموت منك ، . فقال بواجلبرت :

- « إذن فلتتخذ مكانك فى الميدان ، وانظر إلى الشمس نظرة وداع  
لأنك ستمضى هذه الليلة فى الفردوس ، قال الفارس المحروم من الإرث :

- « أعشق شكرى على رقيق مجاملتك ، وردّها عليها فإنى أسدى إليك  
النصح بانتقاء جواد غير متعب وريح جديد ، لأنى أقسم بشرقى على أنك  
ستكون فى حاجة إليهما ، .

وبعد أن قال هذا بلمجة فيها اعتداد بالنفس ، دفع بجواده إلى الخلف  
هابطاً المرتفع الذى سبق له أن ارتقام ، وأكرهه بنفس الأسلوب على أن  
يرجع القهقرى عبر ساحة القتال حتى بلغ الطرف الشمالى ، حيث بقى ثابتاً  
فى انتظار خصمه . أخذت هذه الحركة الدالة على انفرسية بلب الجماهير .

وعلى الرغم من أن الحيلة التى نصحه المناظر باتخاذها قد أثارته ، إلا أن  
بريان دى بواجلبرت لم يغفلها لأن الأمر كان شديد الماس بشرفه ،  
ولن يتهاون فى اتخاذ أية وسيلة قد تؤهل له النصر على خصمه المدعى ،  
فاستبدل جواده بآخر مزيج ذى قوة وسرعة فائقتين ، وانتقى رنحاً جديداً  
صلباً خشية أن يكون الرمح الأول قد تصدع فى أثناء ما سبق له من طعان ،  
والتقى آخر الأمر بدرعه الذى كان قد أصابه عطب طفيف ، وأخذ من  
وصفاته درعا آخر ، وكان درعه الأول يحمل الشعار المألوف لصاحبه ،  
وهو يمثل فارسين يمتطيان جواداً واحداً رمزاً لما كانت عليه طائفة المعبد  
من تواضع وفقر ، وهما جلتان كانوا قد استبدلوهما منذ أمد بعيد بالكبرياء  
والثراء اللذين كانا سبباً فى القضاء عليهم آخر المطاف ، وكان درع  
بواجلبرت الجديد يحمل رمزاً لغراب أسود محلق ، وقابض على جمجمة  
بين مخالبه ، وعليه الشعار التالى « حذار من الغراب ، .

وعندما استقر البطلان فى طرفى الساحة وجماً لوجه ، كانت لطفة

الجماهير قد بلغت منتهاها ، وقليلون هم الذين تفأوا بانهاء المباراة بانتصار  
الفارس المحروم من الإرث ، وقد كفلت شجاعته وإقدامه للشاهدين  
أطيب أمانهم .

لم تكد الأبواق تعلن شارة البدء ، حتى اختفى البطلان من مكانيهما  
بسرعة البرق، ثم التقيا في وسط الميدان بصدام كصوت الرعد، واستحالت  
الرماح حتى مقابضها إلى شظايا ، وبدأ وكان الفارسين كليهما قد سقطا  
لأن الاصطدام جعل الجوادين يرتدان ويسقطان على سيقانها الخلفية .  
استطاع الراكبان بالعنان والمهماز أن يسيطر على الجوادين ، وبعد أن  
حلق كل منهما في الآخر لحظة بنظرة تقدر شرراً من خلال الفتحتين  
الأماميتين لخوذتيهما ، دار كل منهما حول نفسه ، ثم تراجعا إلى طرفي  
الساحة حيث أتى كل منهما برح جديد من أتباعه .

انبعثت من المشاهدين صيحات عاليات ، وتلويح بالأوشحة والمناديل  
وهتافات جماعية تدل على مدى الإثارة التي تملكك الجماهير لأنهم كانوا  
يرون أن هذا اللقاء هو أكثر مقابلات ذلك اليوم تكافؤاً وأحسنها أداء ،  
ولكن ما كاد الفارسان يعودان إلى مكانيهما ، حتى خفت ضجة الهتاف ،  
واستحالت إلى صمت عميق كصمت القبور حتى لينخيل إلى البرء أن النظارة  
قد بلغت بهم الانفعالات حدأ جعلهم يحرصون على ألا يبعثوا الزفير  
من صدورهم .

سمح للمتقاتلين بقسط من الراحة لبضع دقائق لكي يستعيدا هما  
وجوادهما الأنفاس بعد أن هتت ، ثم أشار الأمير بوحنابره أوته للناخبين  
في الأبواق بأن يعلنوا استئناف القتال ، فقفز البطلان مرة ثانية من  
مكانيهما ، والتقيا وسط الميدان بنفس السرعة والمهارة والعنف ، غير أن  
السعد في هذه المرة لم يكن متعادلا كذى قبل ، ففي ذلك اللقاء الثاني سد

قارس المعبد رمحه إلى منتصف درع خصمه فأصابه بإحكام وقوة استحال معها الرمح إلى شظايا ، فترنح الفارس المحروم من الإرث في سرجه ، ومن ناحية أخرى فإن هذا البطل كان في بدء جولته قد صوب طرف رمحه نحو درع بواجيلبرت ، ولكنه بدل من تسديده لحظة اللقاء نفسها ، وصوب رمحه نحو الخوذة ، وهو هدف ليس من اليسير إصابته ، ولكنه لو أصيب فإن الصدمة في هذه الحالة لا يمكن احتمالها . لقد أصاب النورماندى إصابة محكمة في فتحة العينين بالخوذة ، وتعلق سن رمحه بقضبانها ، ومع ما أحدث لفارس المعبد ، إلا أنه احتفظ بسمعته الرفيعة ، ولو لم تقطع أربطة سرجه لما سقط من فوق جواده ، وانهى الأمر بسقوط السرج والجواد والرجل أرضاً وسط سحابة من الغبرة .

لم يستنفد قارس المعبد في خلاص نفسه من ركابه وجواده الذي كبا إلا جهد لحظة ، وأصابه مس من الجنون لما لحق به من عار . ومن جراء الندابات العدائية التي قوبل بها من النظارة ، فاستل سيفه ولوح به يتحدى قاهره ، فقفز الفارس المحروم من الإرث من فوق جواده ، ووجد حنانه بدوره .

هنا أسرع الحكمان بلكران جواديهما بالمهاميز ، وفصلا بينهما قائلين لهما بأن قوانين المباراة لا تجيز هذا النوع من القتال ، فقال فارس المعبد وهو ينظر إلى خصمه نظرة تفيض حقداً :

— « أأمل أن نلتقي ثانية حيث لن يكون هناك من يفصل بيننا . »  
فقال الفارس المحروم من الإرث :

— « إذا لم نتقابل فلن يكون الخطأ من جانبي ، وإنى على استعداد أيضاً لملاقاةك على الأقدام ، أو على ظهور الجياد ، وبالرمح أو البلطة والحسام . »

كان من المستطاع أن يتبادلا جدلاً أشد عنفاً ، وأمكن الحكمين حالاً بينهما برحيمهما ، فعاد الفارس المحروم من الإرث إلى مقره الأول ، وبواجيلبرت إلى خيمته حيث انزوى طوال اليوم تضنيه الوجيعة من فرط الآسى واليأس .

ودون أن يترجل المنتصر طلب كأساً من النبيذ ، ورفع الجزء الأسفل من خوذته ثم قال وهو يحثى النخب :

— إلى جميع القلوب الإنجليزية المخلصة ، وإلى عار الطغاة الأجانب ، —  
ثم طلب إلى نافخ بوقه أن يعلن نوبة التحدى لمن يريد نزاله ، وقال لأحد المنادين أن ينهى إليهم بأنه لن يقوم بأى اختيار ، ولكنه يود لقيابهم واحداً تلو الآخر وفق ما يروق لهم .

كان فروند بييف العملاق أول من نزل إلى الحلبة ، يرتدى حلة من الزرد ، ودرعاً أبيض ، عليه شعار رأس ثور أسود يكاد يكون مشوهاً من كثرة ما خاض من لقاء ، وتحمل الشعار الذى يدل على الفرور والنخلاء ، الثور ينتصر ، فاز الفارس المحروم من الإرث على هذا البطل فوزاً عابراً ولكنه حاسم ، فقد تحطم رمحاهما ولكن قدم فروندوبييف قد انزلق من الركاب فاعتبر خاسراً .

انتصر الغريب أيضاً فى لقائه الثالث مع سير فيليب مالفوازان ، فقد ضرب ذلك النبيل ضربة قوية على خوذته فتمزقت أربطتها ، واعتبر مالفوازان مهزوماً كباقي رفاقه ولو لم يخلع خوذته لهُوى على الأرض .

وفى لقائه الرابع مع دى جرانتمسزيل ، أبدى الفارس المحروم من الإرث من العنلق الكريم مثلما أثبت حتى تلك اللحظة من شجاعة ومهارة ، إذ أن جواد دى جرانتمسزيل ، اليافع قد رفع رجله الأماميتين ، ثم سقط على الأرض فى أثناء جموحه مما جعل منطبقه يخطى الهدف ، وهنا أبى



الرجل الغريب اصطياذ هذه الفرصة التي هياها له هذا الحادث ، فرفع  
رجه ومر بخصمه دون أن يمه ، وأدار جواده ، ثم عاد مرة أخرى إلى  
مكانه في نهاية الخلبة ، وطلب من أحد المنادين أن يعرض عليه فرصة لقاء  
ثان ، ولكن دجراتمذبل . رفض هذا العرض معترفا بأن كرم الخاق  
الذي يتحلى به خصمه قد هزمه كما هزمته مهارته في القتال سواء بسواء .

اختتم رالف دى فييون سلسلة انتصارات الغريب بأن هوى على الأرض  
بعنف جعل الدماء تدفق من أنفه وفمه ، لملوه إلى خارج الميدان فاقداً لوعيه .

وعندما استقر رأى الأمير والحكام ، وأعلنوا أن الفائز في ذلك  
اليوم هو الفارس المحروم من الإرث ، دوت هتافات الآلاف تحية  
لهذا القرار .

•

•

•

•  
•

## الفصل التاسع

في الوسط كانت تُرى  
سيدة ذات وجه أكثر جلالاً،  
تبدو بطلعتها وجمالها ملكتهم المتوجة  
كما كانت تفوق مرتلات المعبد بهاء .  
كان رداؤها أبيض من ثياب الأخرى  
وقد كنا جبينها تاج من الذهب البراق  
بسيط بلا زخرف وئمين بلا غلواء ،  
وفي يدها غصن من الأنيوس كاستوس ،  
وكانت تحمل رمز سيادتها عالياً .

( الزهرة وورقة الشجر )

كان ، وليام دي ويفل ، و ستيفن دي مارتيفال ، القائمان على النظام ،  
أول من قدم التهانى للظافر ، و طلبا إليه في الوقت نفسه أن يستجيب  
لرجاكما بانتزاع أربطة خوذته ، أو أن يرفع على الأقل الجزء الأعلى منها  
الذى بقى العينين قبل أن يقتاده ليتسلم جائزة مباريات ذلك اليوم من  
الأمير يوحنا ، ولكن الفارس المحروم من الإرث رفض ذلك بكل ما عليه  
خلق الفروسية من تهذيب ، معتذرا لهما بأنه لا يرغب في أن يرى وجهه  
أحد في ذلك الوقت لأسباب سبق له أن بسطها للنادين عندما دخل إلى  
الحلبة ، فانتع القائمان على النظام كل الاقتناع بهذا الجواب لأنه لم يكن  
من بين العهود المألوفة الغربية التي كان الفرسان يلتزمون بها في أيام

الفروسية ، ما هو أكثر شيوعاً من ذلك العهد الذي يقسمون عليه بأن يلتزموا جانب التخفي لمدة محددة ، أو لحين الانتهاء من مغامرة خاصة ، ولذا لم يحاول القاتمان على النظام اجتلاء غموض الفارس المحروم من الإرث إلى أكثر من ذلك ، وحملوا إلى الأمير يوحنا رغبة الفائز في بقاءه مجهولاً ، وطلبوا الإذن لها بإحضاره أمام سموه لينسلم الجائزة جزاء بسالته . .

عجب الأمير يوحنا من إصرار هذا الغريب على بقاءه غامضاً ، وأجاب على القائمين على النظام في كبرياءه وتعال وقد ساءت له حقا نتيجة المباراة التي هزم فيها تباعاً أولئك المتحدون الذين كان يشملهم برعايته أمام فارس واحد قائلاً :

بحق النور الذي يشع من جبين سيدتنا العذراء ، إن هذا الفارس قد حرم من آداب اللياقة كما حرم من أراضيه ، إذ أنه لا يزال راغباً في المثول أمامنا دون أن يكشف لنا وجهه ، ثم أستدار نحو حاشيته واستمع قائلاً :

« من تظنون أن يكون هذا الباسل الذي يبدو بهذا الصلف ؟ »

فأجاب « دى براسي » .

« إنى لا أستطيع أن أتكهن ، ومادار بخلدى يوماً أن هناك فيما بين البحار الأربعة المحيطة ببريطانيا بطلا يقوى على إسقاط هؤلاء الفرسان الخسة في نزال يوم واحد . قسماً يا يمانى أنى لن أنسى ما حيت تلك القوة التي صدم بها « دى فيبونت » ، لقد طار فارس الضيافة المسكين من سرجه كما يطير الحجر من المقلاع » . وقال أحد فرسان القديس يوحنا الذي كان حاضراً آنئذ :

« لا تفخر بهذا فما كان حظ فارس مبدكم بأفضل من حظه . لقد رأيت

بواجيلبرت - ومحكم الباسل - يسقط على الأرض ويدور ثلاث مرات وتمتليء يده بالتراب في كل مرة .

ولما كان دى براسى من جماعة فرسان المعبد ، فقد شرع يرد عليه ولكن الأمير يوحنا أوقفه قائلاً :

— ، ما هذا الجدل الذى لا يهدى فتيلًا ؟ ، وقال دى وبفيل ، :

— ، إن المنتصر لا يزال فى انتظار الإذن منك يا صاحب السم ، .  
فقال يوحنا :

— ، إنما يطيب لنا أن يظل منتظرًا هكذا ، حتى نعرف ما إذا كان هناك من يستطيع أن يتكهن باسمه أو مكانته ، ولو بقى فى مكانه حتى يسدل الليل أستاره ، فإن ما قام به كاف بأن يبعث الدفء فيه ، . وقال  
والديمار فيتزيرس :

— ، إنك يا صاحب السم تغمطه حقه من التمجيد الذى يستحقه المنتصر ، وإن أكرهتموه على الانتظار حتى تنبئ سموك بما تتخبط فيه ، فإنى على الأقل لا أستطيع أن أتكهن إلا بأنه أحد حملة الرماح المهرة الذين رافقوا الملك ريتشارد إلى فلسطين ، والذين ييمون الآن على وجوههم عاندين من الأراضى المقدسة ، . وقال دى براسى :

— ، من المحتمل أن يكون الإيرل أوف سالبرى لأنها متشابهان فى مظهريهما تمام التشابه ، .

وقال فيتزيرس :

— ، بل ربما كان سيرتوماس دى ميولتن فارس جيلسلاند لأن برسالسى قد يكون أكبر منه حجمًا ، .

وهنا علت مهمة لم يعرف من أطلقها تقول : « قد يكون الملك ا قد يكون ريتشارد قلب الأسد نفسه ا » .

فقال الأمير يوحنا وقد غدا وجهه على الرغم منه كوجوه الموتى :

— « أدعو الله ألا يكون ذلك ، ثم جفل وكان ومضة برق قد أعشت بصره » ، ثم قال :

— « والديمار ا دى براسى ا أيها الفارسان الباسلان ا أيها الرجالان الشريفان ا لعلكما لوعدكما ذا كران ا اشددا أزرى وقفنا إلى جوارى على ولاء » . فقال فيتزيرس :

— « إن الخطر يا مولاي ليس بما جل . أتظن أن جسد أخيك الضخم من الصغر بحيث يمكن إدخاله في نطاق مثل تلك السترة المدرعة ؟ أما أتما يادى ويفل ومارتيفال فإنكما تحسنان صنعا إلى الأمير إذا ما جئنا بالمتصر أمام العرش ، ووضعنا نهاية لخطأ جعل الدم يفيض من وجنتيه » . ثم أضاف ، أمعن النظر في وجه الفارس يا صاحب السمو ، تر أنه يقبل عن الملك ريتشارد بثلاث بوصات طولاً ، وضعف هذا القدر في عرض المنسكين ، ثم إن الجواد الذى يمتطيه لا يقوى على حمل الثقل الشديد للملك ريتشارد شوطاً واحداً » .

وبينما هو مترسل في قوله ، إذ بالقائمين على النظام يأتیان بالفارس المحروم من الإرث إلى أول الدرج الخشبي الذى يصعد من الميدان إلى عرش الأمير يوحنا الذى كان لا يزال قلق الفكر في أن أخاه الذى لحقت به نتي المضار والذى كان مديناً له بالشيء الكثير قد عاد لجأة إلى ملكته ، وحتى التباين الذى أوضحه دى فيتزيرس لم يمح من جزع الأمير شيئاً . وبعد أن أطرى شجاعته إطراء عابراً بلسان متلعثم ، أمر بتسليمه جواد الحرب المخصص للجائزة ، وكان يرتجف خشية أن يأتيه الجواب من بين

قضبان خوذته بصوت ريتشارد قلب الأسد العميق الخفيف . ولكن الفارس المحروم من الإرث لم يفه بكلمة واحدة ردا على تحية الأمير التي قابها بانحناء معرفة .

قام سائسان يرتديان أثوابا ثمينة باقتياد الجواد إلى داخل المساحة ، وكان مجهزا تجهيزاً كاملاً بأغلى معدات الحروب ، وانكنا لم تضاف إلى قيمة الحيوان الكريم في أعين ذوى الخبرة بشئون الجياد إلا قليلا . وضع الفارس المحروم من الإرث إحدى يديه على مقدم السرج ، ثم قفز في غير إبطاء على ظهره برشاقة دون أن يضع قدمه في الركاب ، ودار حول الميدان دورتين ، رافعاً رمحه إلى أعلى ، مبرزا مزاييا الجواد وخطاه بخبرة فارس لا يشق له غبار .

كانت قدرة الفارس على إبراز ما تتميز به منحة الأمير التي شرفه به منذ فترة وجيزة قد أبعدت عنه مظنة الغرور ، وقوبل مرة أخرى بهتافات حارة من جميع الحاضرين .

كان رئيس دير جورفولكس كثير الصخب ، ولكنه في تلك اللحظة أسر في أذن الأمير يوحنا مذكراً إياه بأن على المنتصر أن يبدى الآن صائب حكمه بأن يختار من بين الجميلات اللواتي يرصن الأروقة ، تلك السيدة التي ستربع على عرش ملكة الجمال والحب ، وتسلم بيدها جائزة المباراة في اليوم التالي ، وبذا أشار الأمير بعصاه إلى الفارس وهو يمر من أمامه في جولته الثانية حول الميدان ، فاستدار الفارس نحو العرش ، وخفض من رمحه حتى أصبح سنانه على مبعدة قدم واحد من الأرض ، ووقف بلا حراك ينتظر أوامر يوحنا ، بينما كان الجمع في عجب من المهارة التي أحال بها جواده المتوثب من حركانه العنيفة وهياجه الشديد إلى جمود مطلق ، وكأنه نصب فارس راكب .

قال الأمير يوحنا :

- ه أيها الفارس المحروم من الإرث - حيث إن هذا هو الأقب الوحيد الذي نستطيع أن نناديك به - لقد أصبح الآن من واجبك ، كما هو تشریف لك ، أن تختار للسيدة الجميلة التي سترأس حفل الزدكلكم للشرف والحب . وإن كنت - وأنت غريب - في حاجة إلى من تستعين به ليرشدك إلى الرأي الثاقب ، فستطيع أن نقول لك إن ، إيشيا ، ابنة فارسنا الباسل والديمار فيتزيرس كانت السيدة الأولى في بلاطنا جمالا ومقاما منذ أمد طويل ، ومع هذا فن حقلك وحدك أن تمنح هذا التاج لمن تشاء ، فإذا ما أعطيته للسيدة التي يقع عليها اختيارك ، فإن انتخاب ملكة الغد سيصبح نهائياً وعلى صورة رسمية . ارفع رحك ، .

اتعمر الفارس ، فوضع الأمير يوحنا على السنان إكليلا من الحرير الأخضر ، وحول طرفه قلادة ذهبية ازدانت حاقها العليا برؤوس سهام رشقت في قلوب على التوالي فأصبحت وكأنها أوراق ثمار الفراولة ، أو كرات على تاج أمير .

كان ليوحنا أكثر من باعث بدعوه إلى التليح العريض الذي فاه به في تمجيد ابنة والديمار فيتزيرس ، وكان كل باعث منها صادراً عن مزيج غريب من الاستهتار والغرور مع مكر واحتيال وضع ، فقد كان يهدف إلى أن يبعد عن أذهان من حوله من الفرسان تلك الدعابة التي لم تكن لائقة ولا مستساغة عندما أطرى اليهودية ريبكا ، وكان يرغب في اكتساب رضى والديمار والند ، إيشيا ، والديمار الذي كان يخشاه ، والذي أظهر عدم ارتياحه أكثر من مرة خلال أحداث ذلك اليوم ، وكان راغبا أيضاً في أن ينال رضى تلك السيدة لأنه كان مسرفاً في ملذاته كما كان فاجراً في طموحه ، وإلى جانب تلك البواعث ، فإنه كان يريد أن يجعل من والديمار فيتزيرس عدواً قويا للفارس المحروم من الإرث (الذي أصبح

يكن له منذ تلك اللحظة أشد البغضاء ) ، حيث كان من المحتمل أن يثار للمهانة التي لحقت بابنته إذا قام المنتصر باختيار سيدة أخرى، وهذا ما حدث بالفعل لأن الفارس المحروم من الإرث مر بالرواق المجاور لرواق الأمير وكانت تجلس فيه الليدى ، إليشيا ، مزهرة بجماها القاهر ، ثم تقدم مبطناً بقدر ما كان مسرعاً حول الساحة ، وبدأ وكأنه يمارس حقه في فحص الوجوه الجميلة الكثيرة التي كانت ترصع تلك الدائرة البهية .

كان مما يدعو إلى التأمل أن ترى ما كانت تقوم به أولئك الجميلات اللواتي كن موضع الفحص أثناء القيام به . كست الحرة وجنات بعضهم خجلاً ، واتخذ بعضهم مظهر الكبرياء والاعتداد بالكرامة ، وبعضهم كن ينظرن إلى الأمام في جد ورصانة ويحاولن الادعاء بأنهن خاليات الأذهان مما يدور ، وبعضهم كن يتراجعن إلى الوراء مذعورات ولعل ذلك كان تصنعاً منهن ، وكان بعضهم يعملن جاهدات على أن يوقفن ابتساماتهن ، وكان هناك اثنتان أو ثلاث سيدات قد بعثن بضحكاتهن العاليات ، وهناك أيضاً من أسدن أفتنهن فوق مفاتهن، ولكن أولئك - كما يروى مخطوط واردر - كن حسناوات اشتهرن بجماهن لمدة تزيد على عشر سنوات ، ومن المحتمل أن يكن قد أخذن أنصبتن كاملة من مثل هذا الزهو ، وكن راغبات في عدم الاشتراك حتى يتحن الفرصة لجماليات العصر الناهضات .

وأخيراً توقف البطل تحت الشرفة التي تجلس فيها الليدى رويانا ، وكان لطف المشاهدين قد بلغ آتذ أقصى مداه .

يجدر بنا أن نفر بأنه لو كان في استطاعة النظارة أن يقدموا الزلني إلى الفارس المحروم من الإرث بإظهار حماسهم الشديد لانتصاره ، لكانت تلك البقعة من الساحة التي توقف عندها جديرة باختياره ، وكان سيدريك الساكسوني الذي بعثت فيه هزيمة فارس المعبد أشد الغبطة ، وازدادت بهجته لفشل جاريه الشريرين فرونديبيف ومالفوازان ، قد مال بنصف جسده فوق الشرفة يتابع المنتصر في كل شوط لا بعينه لحسب ، بل وبكل قلبه وجوارحه أيضاً . وكانت الليدى رويانا ترقب أحداث ذلك اليوم باهتمام مائل ،



ولكن دون أن تفصح عنه على صورة واضحة، وحتى أنبأستين جامد  
المجبا والمشاعر قد أبدى من الأعراض ما ينبئ عن نفضه لثوب الخول ،  
وذلك عندما طلب كأسا كبيرة من نبيذ الموسكانيين ، وجرعها نخب  
الفارس المحروم من الإرث . وهناك جمع آخر كان جالسا تحت الرواق  
الذى يشغله الساكسونيون أظهر من الكاف ما لا يقل عن كلف أولئك  
الساكسونيين بما أسفرت عنه نتائج ذلك اليوم ، وقال إسحق أوف يورك  
عند مباراة الشوط الأول الذى جرى بين فارس المعبد والفارس المحروم  
من الإرث :

— يا أبانا إبراهيم ! كيف لذلك المسيحى أن يركض بهذه السرعة  
بالجواد الكريم الذى جرى به مسيرة كل هذه الشقة من بلاد العرب إنه  
لا يوليه اهتماما وكأنه بفل صغير . وبالدرع الأصيل الذى باعه جوزيف باريرا  
صانع الدروع بمدينة ميلانو نظير عديد من القطع الذهبية مضافا إليها ربح  
قدره سبعون فى المائة إنه لا يعبأ به إلا قليلا وكأنه قد عثر عليه فى الطريق .  
وقالت ريبكا :

« إذا كان يخاطر بروحه وجسده يا أبى بخوض تلك المعركة الرهيبة . فهل  
تتوقع منه أن يبقى على الجواد والدرع ؟ فأجاب إسحق :

— « إنك أيتها الطفلة لاتفقهين ماتقولين . إن عنقه موجوده ملك له ،  
أما جواده ودرعه ف..... يا يعقوب المقدس ! ماذا كنت على وشك  
أن أنطق به؟ ولكنه رغم ذلك شاب طيب . انظري ياريكا ، انظري ، إنه  
على وشك أن يعود مرة أخرى ليقاتل الفلسطينيين . صلّ أيتها الطفلة ،  
صل من أجل سلامة الشاب الطيب والجواد السريع والدرع الغالى . ثم أتبع  
قائلا ، يا إله آبائى ! لقد انتصر وهوى الفلسطينى أمام رحمة كما سقط . أوج ،  
ملك «باشان» و «سيهون» ملك العموريين أمام أسياف آباتنا . لا ريب فى أنه  
سيأخذ ذههم وفضتهم ، وحياد الحرب الخاصة بهم ، ودروعهم المصنوعة من  
النحاس والصلب كغنيمة وأسلاب حرب . »

كان اليهودى يبدى نفس القلق أثناء كل شوط ، وقليلاً ما كان يغفل القيام بعملية حياية سريعة عن ثمن الجواد والدرع اللذين كانا يمنحان للبطل بعد كل نصر جديد، وكان أولئك الذين يجلسون آتذ في ذلك المكان من المضمار الذى توقف أمامه الفارس المحروم من الإرث كلفين أشد الكاف بانتصاره .

ظل بطل ذلك اليوم ثابتاً في غير حراك لأكثر من دقيقة ، وربما كان ذلك عن حيرة أو عن باعث آخر حدا به إلى التردد ، بينما كانت عيون النظارة الصامتين عالقة به ، ثم أخذ بعد ذلك يخفض من طرف رجه شيئاً فشيئاً ، وبرشافة وضع التاج الذى كان يحمله عند قدمى رويانا الجميلة، فسرعان ما انطلقت الأبواق ، وأعلن المنادون أن اللبدي رويانا قد توجت ملكة للجمال والحب لليوم التالى ، منذرين أولئك الذين قد لا يخضعون لسلطانها بالعقاب ، وعندئذ تعالى هتافهم قائلين : السخاء . الجود ، أجاهه سيدريك وهو فى ذروة بهجته بعباء سخى ، وأضاف إليه أيلستين - وإن كان بشيء من الإبطاء - عطاء مماثلاً .

كانت هناك ثورة مكبوتة بين الصبايا اللواتى ينحدرن من سلالة نورماندية، واللاتى لم يعتدن على رؤية الجمال الساكسونى وقد أصبح ذا فضل على جمالهن ، كما لم يعتد أولئك النبلاء النورمانديون على تذوق مرارة الهزيمة فى مباريات الفروسية التى كانوا أنفسهم قد أدخلوها إلى البلاد ، ولكن هذه الثورة المكبوتة قد ذابت بين صيحات العامة التى كانت تنادى : عاشت اللبدي رويانا ملكة الجمال والحب التى اختيرت بطريقة مشروعة . وأضاف كثيرون من كانوا فى المنطقة السفلى : عاشت الأميرة الساكسونية ! عاش أحفاد ألفريد الخالدا .

ومع أن هذه النداءات قد أحدثت وقرأ فى سمع الأمير يوحنا ومن

حوله ، إلا أنه رأى نفسه رغم ذلك مسوقاً إلى تثبيت اختيار المنتصر ،  
مغادر عرشه ، وامتطى صهوة جواده ، ودخل الساحة مرة أخرى ترافقه  
حاشيته ، ثم توقف لحظة تحت رواق الليدى إلبشيا وجاها قائلاً من حوله  
« أقسم يايماني أيها السادة أنه وإن كانت أعمال الفروسية التي قام بها ذلك  
البطل قد أظهرت أنه قوى البنيان مفتول العضلات، إلا أنه أثبت باختياره  
لملكة الجمال والحب أن عينه ليستا من أشد العيون صفاء .

كان من سوء حظ يوحنا في هذه المناسبة - كما كان طيلة حياته -  
عدم إدراكه لطبائع أولئك الذين يرغب في استمالتهم إليه، ولذلك فقد استولى  
على والديمار فيتزيرس امتياع شديد بدلا من الهجة عندما أعلن الأمير رأيه  
واضحاً بأن ابنته قد امتهنت كرامتها وقال :

- « لست أعرف حقاً من حقوق الإنسان أئمن قيمة ، وقد يكون  
وفقاً عليه ، من ذلك الذي يبيع لكل فارس حر اختيار حبيبة فؤاده  
يحكمه الخاص ، هذا وابنتي لا تستجدي الاهتمام من أحد ، ولن تخفق أبداً  
في الحصول على نصيبها كاملاً من التقدير في محيطها بفضل مزايها .

لم يجب الأمير يوحنا ، ولكنه وكز جواده بمهازم وكأنه يسرى عن  
غيظه ، فقفز الحيوان إلى الأمام ناحية الرواق الذي تجلس فيه رويانا ،  
والناج لا يزال تحت قدمها وقال .

- « تقلدي أيتها السيدة الحسنة رمز جلالك ، وليس هناك من هو  
أعلى مقاماً لينحني احتراماً لك أكثر منا . . . نحن يوحنا أوف آنجور . وإن  
تفضلت اليوم ومعك القائم على أمرك وأصدقائك النبلاء بتشريف ولبيتنا  
بقصر آشي، فإننا سنعرف العاهلة صاحبة المجد التي سنكرس الغد لخدمتها .

ظلت رويانا صامتة ، وأجاب عنها سيدريك بلغته الساكسونية قائلاً .

- إن الليدى رويانا لا تعرف اللغة التى ترد بها على مجامعكم الرقيقة  
أو تؤدى بها دورها فى حفلكم، وكذلك فإني والنيل أئبلستين أوف كوننجز بره  
لا تكلم إلا لغة آباتنا ولا نمارس إلا عاداتهم ، ولذلك ، فإننا مع شكرنا  
لكم ، نستمحكم عذرا إذالم نستطع تلبية دعوة سموكم الكريمة إلى هذه  
الوليمة ، وستحمل الليدى رويانا على عاتقها فى الغد أعباء المنصب الذى  
أولاهها إياه المنتصر باختياره الحر، تؤيده هتافات الجماهير .

وعندما قال ذلك ، رفع التاج ووضع على رأس رويانا دلالة على قبولها  
للسلطة المؤقتة التى منحت إياها ، فقال الأمير يوحنا مدعيا بأنه لا يستوعب  
اللغة الساكسونية التى كان على الرغم من ذلك يجيدها إجادة تامة .

- ماذا يقول ، ؟ فأعيد على مسمعه لحوى حديث سيدريك باللغة  
الفرنسية فقال :

- ، حسنا . غدا سأرشد بنفسى هذه الملكة الصامته إلى مقعد تكريمها .  
م أضاف وهو يلتفت إلى المنتصر الذى كان قريبا من الرواق . ، إنك على  
الأقل ستشاركنا اليوم ياسيدى الفارس فى وليمتنا ، أفاعل أنت ، ؟

تكلم الفارس للمرة الأولى بصوت خفيض متلاحق الكلمات معتذرا  
بأنه متعب، وبأنه مضطر إلى الاستعداد للقاء الغد، فقال الأمير يوحنا بتعال :

- ، حسنا ، ولكن مع أنى لم أعتد على أن يرفض أحد لى مشيئة ، إلا  
أننا سنحاول قدر طاقتنا أن نهضم وليمتنا على الرغم من عدم تشريف أكثر  
الفرسان توفيقا فى استعمال السلاح واختيار ملكة جماله . .

وبعد أن انتهى من قوله تاهب لمغادرة الميدان مع حاشيته البراقة ، ثم  
أدار جواده إيذانا بانتهاء الحفل وانصراف المشاهدين، ولكنه لم يكذب يخطو  
خطوات ثلاثا حتى التفت مرة أخرى بما فى كبريائه المجرع من ذاكر

قوية ، ورمق رامي السهام الذي كان قد أغضبه في أول النهار بنظرة تفيض حقداً ، وأصدر أوامره إلى الجنود الواقفين بالقرب منه قائلاً لهم :

— « حفظاً لحياتكم لا تدعوا هذا الرجل يرب ، » .

تلقي الرامي نظرة الأمير الغاضبة بنفس الثبات العنيد الذي اتسم به سلوكه السابق ، ثم ابتسم وقال :

— « ليس في تقريرى أن أبرح آسبى حتى بعد غد . يجب أن أرى كيف يشد رماة مقالمعتى ، ستافور شاير ، و « ليستر شاير ، أقواسهم . لا بد وأن غابتنى ، نيدوود ، و « تشارنوود ، تنجبان رماة قوس من طراز فريده . فقال الأمير يوحنا لاتباعه لا كركدٌ مباشر عليه :

— « أنا ، أنا سوف أرى كيف يقوى على جذب قوسه ، والويل له إلا إذا شفيعت له مهارته عن صلفه وبذائه ، » . وقال دى براسى .

— « لقد آن لنا أن نكبح جماح هؤلاء الفلاحين بأن نضرب لهم المثل رادعاً ، » . أما والديمار فيتزيرس الذى كان يعتقد أن سيده لم يكن سالكا لأقصر الطرق إلى محبة الشعب اه ، فقد هز كتفيه ولاذ بالعصمت . استأنف الأمير يوحنا خروجه من الساحة وتفرقت الجماهير كلها .

كنت ترى النظارة عائدين فوق السهل سالكين طرقاً مختلفة وفقاً للنواحي المتباينة التى وفدوا منها ، وفى زمر ليست متساوية فى عددها ، وكانت الغالية العظامى منهم تنساب صوب مدينة آسبى حيث كان كثير من ذوى المراتب المرموقة يقيمون فى القصر ، وحيث كان الآخرون يجدون مساكن لهم فى المدينة ، وكان من بين هؤلاء أكثر الفرسان الذين اشتركوا فى المباراة ، أو الذين كانوا ينتوون الاشتراك فى قتال اليوم التالى وكانوا يسرون بجيادهم مبطنين ، ويقوم بينهم جدول عن أحداث ذلك اليوم بين .

هتافات الجماهير العالية ، وقوبل الأمير يوحنا بالتحية ذاتها ، ولكن الباعث عليها كان روعة الراكب ، لاجبة الشعب له .

صاحبت متتصر ذلك اليوم هتافات جماعية أشد صدقا ، وكان يستحقها عن جدارة حتى دفعته لهفته على الاختفاء عن أعين الجماهير إلى الدخول في خيمة مقامة في أحد طرفي الساحة ، وقد عرضها عليه أحد القائمين على النظام عرضا رقيقا ، وما إن دخلها حتى تفرق الكثيرون ممن توانوا ليمتعوا أنفسهم بالنظر إليه وليتكمنوا بمن يكون ، واستحالت شارات جمهرة صاحبة من القوم وأصواتهم إلى مهمة بعيدة في أثناء ارتدادهم في جماعات إلى مختلف الجهات ، ثم تلاشت حتى أصبحت في صمت مبيت ، وكانت منذ وقت قصير متكأثة في مكان واحد . ولم تكن هناك أصوات أخرى سوى صخب الخدم الذين كانوا ينزعون عن الأروقة وساندها وقُرَشها لوضعها في مكان آمن حتى الصباح ، وكان يقوم بينهم شجار على بقايا زجاجات النبيذ وفضلات المنعشات التي كانت تقدم للشاهدين .

وهناك في آخر حدود الميدان أقيم أكثر من حانوت حداد، وعند الغسق بدأت هذه الأماكن تضاء معلنة عن الجهد الشاق الذي يقوم به صانعو الأسلحة والذي سيستمر الليل بطوله لإصلاح سترات الدروع للقاء اليوم التالي أو استبدالها ، وكان هناك حرس قوى من جنود مدججين بالأسلحة يتناوبون الحراسة كل ساعتين ويطوقون المضمار الليل كله .

## الفصل العاشر

وهكذا كالغراب نذير الآسى  
ينشق أنشودة الموت للرجل المريض  
وفي ظلال الليل الصامت  
يسقط العدوى من خلال جناحه الأملس  
هكذا كان يجرى باراباس المسكين وهو ناقد معذب  
يصب اللعنات المميتة على هؤلاء المسيحيين .

( يهودى مألطة )

لم يكفد الفارس المحروم من الإرث يبلغ خيمته حتى تقدم إليه وصفاء  
وأتباع كثيرون ، يعرضون عليه خدماتهم بأن يخلعوا عنه درعه، ويستبدلون  
ملابسه بأخرى نظيفة، أو إعداد حمام يبعث فيه النشاط من جديد، ومن  
المحتمل أن يكون فضولهم قد زاد حماسهم اشتعالا، حيث إن الجميع كانوا  
لطفين على معرفة من يكون ذلك الفارس الذى أحرز كل هذه الانتصارات،  
والكنه أبى أن يرفع غطاء خوذته أو يذكر اسمه حتى ولو كان ذلك بأمر من  
الأمير يوحنا، فباء فضولهم بالفشل لأن الفارس المحروم من الإرث رفض  
أية مساعدة إلا من وصيفه، أو بالأخرى تابعه، وهو كالمهرجين فى  
مظهره، يرتدى عباءة من جورخ داكن لونه، وكان رأسه ووجهه غارقين  
فى قبعة نورماندية مصنوعة من الفراء الأسود، ويبدو وكأنه يؤثر التخفى  
أسوة بسبده. ولما خرج الآخرون من الخيمة، نزع هذا الخادم عن سيده  
أثقال درعه، ووضع أمامه طعاما ونبينا كانت جهود ذلك اليوم قد جعلت  
هذاقها شبيا، ولم يكفد الفارس بفرغ من تناول وجبة سريعة، حتى أعلن

إليه تابعه أن نخمة رجال يقود كل منهم جوادا مسلحا يرغبون في التحدث إليه .

كان الفارس المحروم من الإرث قد خلع درعه ، وارتدى ثوبا طويلا من تلك الأثواب التي اعتاد كل من في مرتبته أن يرتديها ، ذا غطاء رأس يخفى قسما وجهه إذا رغب مرتديه في ذلك ، ويكاد هذا الغطاء أن يكون كفتحة الخوذة تماما ، ولكن العسق الذي كان يسرع في نشر الظلمة ، قد جعل التخفي أمرا لا مبرر له إلا حيال أولئك الذين يعرفون وجه المتخفي حق المعرفة .

خطا الفارس المحروم من الإرث إلى مدخل خيمته خطوات تم عن البسالة ، فوجد أتباع المتحدين في انتظاره فعرفهم في غير مشقة من أزيائهم ذات اللونين الأحمر والأسود ، وكان كل منهم يقود جواد سيده محملا بالدروع التي كان يرتديها في أثناء قتال ذلك اليوم . قال من في مقدم الرجال :

— أنا ، بولدوين دي أويلي ، وصيف الفارس المغوار بريان دي بواجيلبرت ، وطبقا لقوانين الفروسية ، أقدم إليك باسمك الذي تسمى به الآن وهو الفارس المحروم من الإرث ، الجواد والدرع اللذين كان يستعملهما بريان دي بواجيلبرت المذكور في أثناء مباريات « عمر السلاح » التي جرت اليوم ، وأترك لسبادتك حق الخيار في أن تحتفظ بها ، أو تأخذ عنهما فدية وفق مشيئتك لأن هذا ما ينص عليه « قانون السلاح » .

أعاد سائر الوصفاء نفس القول ، ثم وقفوا في انتظار قرار الفارس المحروم من الإرث الذي قال مخاها بما أولئك الذين تكلموا أخيرا :

— « لكم عندي أيها السادة الأربعة ولسادتكم المبعجلين البواسل إجابة واحدة . احموا تحياتي لسادتكم الفرسان النبلاء ، وقلوا لهم بأنى أرتكب شططا لو أقدمت على حرمانهم من جباد وأسلحة لا يقوى على استعمالها



فرسان أكثر بسالة منهم ، ووددت لو استطعت أن أنهي رسالتى عند هذا الحد ، ولكن بما أنى أسمى نفسى - حقا وفعلا - بالمحروم من الإرث ، فساكون شاكرا لساتكم لو تفضلوا بدافع من كياستهم أن يوافقوا على دفع الفدية عن جيادم ، حيث إنى لا أزعم بأنى أملك حتى ذلك الدرغ الذى أرتديه ، . فقال وصيف ريجنولد فروندييف :

- لقد عهد إلى كل منا بأن يعرض مائة قطعة ذهبية كفدية لهذه الجياذ وسترات الدروع ، . فقال الفارس المحروم من الإرث :

- إن هذا القدر كاف تدفعنى حاجتى فى الوقت الحاضر إلى قبول نصفه ، أما النصف الثانى فاقسموه فيما بينكم أيها السادة الوصفاء وبين المنادين والاتباع والموسيقين والخدم ، .

عند هذا أسرف الوصفاء فى انحناءاتهم وقبعاتهم فى أيديهم إظهارا العميق مشاعرهم عن مجاملة وجود قلبا يحدث مثلها على هذا النطاق الواسع ، ثم وجه الفارس المحروم من الإرث بعد ذلك حديثه إلى وصيف بريان دى بواجيلبرت قائلا له :

- لن أقبل من سيدك سلاحا ولا فدية . قل له عنى بأن خصومتنا لم تنته بعد . كلا إنها لن تنتهى حتى نقتل بالسيوف كما اقتلنا بالرماح ، وعلى الأقدام كما فعلنا على صهوات الجياذ . لقد تحدىنى هو بنفسه إلى هذا القتال حتى الموت ، ولن أنسى هذا التحدى ، وفى الوقت نفسه ليكن على ثقة من أنى لا أنظر إليه كواحد من رفاقه يهجنى أن أبادله المجاملات ، ولكن كشخص يبنى وبينه عداوة قاتلة ، . فقال بولدوين :

- إن سيدى يعرف كيف يقابل الأزدراء بمثله ، وحيث إنك تعاف قبول أى مبلغ من الفدية التى حددتها لأسلحة الفرسان الآخرين ، فإنى مسوق

إلى أن أترك درعه وجواده هنا حيث إنى على ثقة من أن علياه بأبي عليه  
امتطاء هذا أو ارتداء ذلك ، . فقال الفارس المحروم من الإرث :

— « حسنا قلت أيها الوصيف الطيب . لقد تفوهت بكلام جميل فيه  
جرأة ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه من يتولى الجواب عن سيد غائب ،  
ولكن رغم ذلك لا تترك الجواد والدرع هنا . خذهما إلى سيدك ، وإذا  
أبى أن يأخذهما ازدراء منه ، فاحتفظ بهما لنفسك أيها الصديق الطيب ، وطالما  
أنها ملك لى فإنى حر فى أن أهبهما لك دون جناح . »

انحنى بالدوين انحناء عميقة وانصرف مع رفاقه ، ودخل الفارس المحروم  
من الإرث خيمته وقال لتابعه :

— « حتى الساعة يا جيرث لم يلحق بسمعة الفروسية الإنجليزية إيذاء على  
يدى ، . فقال جيرث :

— « وأنا — كراع ساكسونى للخنازير — لم أسىء القيام بدور الوصيف  
النورماندى ، . قال الفارس المحروم من الإرث .

— « نعم ، ولكنى كنت دائم القلق خشية أن يفضحك مظهرك الذى  
يشبه مظهر المهرجين ، .

— « صه ! إنى لا أخشى افتضاح أمرى من أحد إلا من وامبارفريق  
صبأى ، لأنى على الأرجح لا أستطيع أن أتبين إن كان داهية أم أحق ،  
ولكنى لم أستطع أن أمسك عن الضحك عندما مر سيدى المسن بالقرب  
منى ظانا طوال الوقت أن جيرث يرعى خنازيره على مبعدة أميال فى أحراش  
روذر وود ومستنقعاتها . إذا كشف عن أمرى . . . . . فقاطعه الفارس  
المحروم من الإرث قائلاً :

— « كفى ! إنك تعرف وعدى لك ، . فقال جيرث :

- « كلا ، إنى لا أعنى هذا الأمر ، ولن أتخلى عن صديق مطلقا حتى ولو قطعوا أوصالى وجلدى . إن جلدى سميك يستطيع احتمال الطعنات وضرب السياط وكأنه جلد أى خنزير فى قطيعى ، . قال الفارس :

- « إنى عند حسن ظنك ، وثق بأنى سوف أجزيك عن المخاطرة التى خضتها من أجل حبي باجيرث ، هذا وأرجو أن تتقبل منى هذه القطع الذهبية العشر ، فقال جيرث وهو يضعها فى حافظة نفوده :

- « لم يسبق لآنى خادم أوراخ للخنازير أن كان على مثل ما أنا فيه اليوم من ثراء ، . واستطرد سيده قائلا :

- « خذ هذه الحقيبة بما فيها من ذهب ، واقصد إلى «آشي» ، وابحث عن اليهودى إسحق أوى بورك ، وأعطه أجر الجواد والدروع لآنى مدين له به ، . فقال جيرث :

- « كلا ، لن أفعل ذلك بحق القديس دونستان ، . فقال سيده :

- « كيف هذا أيها الوغد ؟ أتعمى أمرى ؟ ، فقال جيرث :

- « إنى أطيعه طالما كان مسيحيا شريفا يستسيغه العقل ، ولكن أمرك هذا لا يتسم بأية صفة من هذه الصفات . إن ذهابى إلى اليهودى وسداد مانحن مدينون به عمل لا يمت إلى الشرف بصلته لأنه سيكون خيانة لسيدى وهو أمر لا يقره العقل ، لأن من يقدم على مثل هذا العمل ليس إلا أبله لا تصل بينه وبين المسيحية رابطة ما ، ولأن فى الإقدام عليه سلباً لمؤمن لإثراء غير مؤمن ، . فقال الفارس المحروم من الإرث :

- « اعمل على رضا أيها الخادم العنيد مها يكن فى الأمر من شئ ، . فقال جيرث وهو يضع حقيبة الذهب تحت عباءته ويغادر الخيمة :

— « سأفعل ذلك » ثم همهم « وسأجعله يرضى بنصف ما يطلب ، مع أن هذا أيضا سيكون شاقا على نفسى . . وبعد أن قال ذلك رحل تاركا الفارس المحروم من الإرث نهبا لأفكاره المتضاربة التي كانت لأسباب لا يمكن شرحها للقارى باعثة على الألم والقلق .

فلننتقل الآن بك أيها القارى إلى قرية آشي ، أو على وجه التحديد إلى منزل ريفي في إحدى ضواحيها يمتلكه إسرائيل ثرى كان إسحق وابنته وحاشيته في ضيافته ، واليهود — كما هو معروف عنهم — مسرفون في أداء واجبات الضيافة والإحسان والجود بين بنى جلدتهم قدر ما يذاع عنهم من غلظة وإحجام عن القيام بهذه الواجبات لمن يسمونهم « بالكفار ، الذين كانوا يلقون على أيديهم معاملة لا يمكن أن تتصف بالسخاء .

وفي غرفة صغيرة حقا ولكنها مزدانة بنقوش فاخرة ذات طابع شرقي ، جلست ريبكا على كومة من الوسائد المطرزة ، متراحة على طول منصة تحيط بالغرفة كلها كتلك التي تراها في دور الأسبانيين عوضا عن الأرائك والمقاعد ، ترقب حركات أبيها بنظرات قلقة وحب بنوى حينما كان يذرع الغرفة ذهابا وجيئة بوجه مكثب وخطوات مضطربة ، متشابك اليدين حينما ، ومعدقا بعينيه في أرجاء الغرفة حينما آخر وكأنه في قلق فكري دفين

وقال : — « يا يعقوب ! يا آباء جنسنا الاثني عشر المقدسين ! بالها من صفة خاسرة لشخص حافظ على كل كبيرة وصغيرة من ناموس موسى ! خمسون قطعة ذهبية تنتزع منى دفعة واحدة وبمخالب طاغية ! ، فقالت ريبكا :

— « لقد بدا عليك يا أبناؤك أنك أعطيت الذهب للأمير يوحنا راضيا ، .

-- « راضيا ؟ عليه اللعنة ! تقولين راضيا ؟ نعم ! أعطيته له عن

رضى كما أغرقت بضائعى فى خليج ليون لأخفف عن السفينة أحمالها عندما كانت العاصفة تنقاذها - لقد كسوت الأمواج الثائرة بأثمن أنواع الحرير وعطرت زبدها الملح بالمر ونبات الصبر ، وأغنيك كموفها بالذهب المصاغ والفضة . أو لم تكن تلك ساعة شقوة تجمل عن الوصف على الرغم من أن يدي هما اللتان قامتا بالتضحية والبذل ؟ فقالت ريبكا :

- . ولكنها تضحية تقاضتها السماء لإنقاذ حياتنا ، وقد بارك اله آباتنا من ذلك الحين فى خيراتك وربحك . . فقال إسحق .

- . نعم ، ولكن ماذا نفعل لو أن الطاغية قد اغتصبها كما فعل اليوم ، وأكرهنى على أن أبتسم وهو يسرقنى ؟ آه يا ابنتى ! إن مضار جساما تلحق بينى قومنا ونحن محرومون . شردون فى كل بقاع الأرض ، وعندما نضار وتسلب أموالنا ، يضحك العالم كله من حولنا ، ونرى أنفسنا مكرهين على إخفاء مشاعرنا ، ونبتم وادعين حيث كان ينبغى أن نثار شجعانا . فقالت ريبكا :

- . هون عليك يا أبناه فإتنا رغم ذلك نستمتع ببعض المزايا . إن هؤلاء الكفار على قدر قسوتهم علينا واضطهادهم لنا ، ليسوا فى غنى عن أبناء صهيون المشردين الذين يزدرونهم ويسومونهم سوء العذاب لأنهم بدون ثرواتنا لا يستطيعون إعداد جيوشهم للحرب ولا انتصاراتهم فى السلم . والذهب الذى نقرضهم إياه يعود إلى خزائنا مزادا . إتنا كالعشب الذى يزداد ازدهاره كلما وطأته الأقدام ، وحتى حفل يومنا هذا ما كان ليتم دون موافقة اليهودى المزدرى الذى مهد لهم السبيل ، فقال إسحق :

لقد حركت فى يابنتى وترا آخر من أوتار الأسى ! الجواد الكريم والدرع الثمين المساويان لكل ربهى من صفقى مع قريننا . كرجات جايرام أوف ليتر ، إنها خسارة فادحة أيضا . نعم خسارة تلتهم مكاب

أسبوع ، نعم الفترة بين يومى سبت. ولكن قد انتهى الأمر إلى نتيجة أفضل مما يدور بخلدى الآن لأنه شاب طيب ، . فقالت ريكا :

— « لاريب فى أن الندم لن يأخذك على رد الجبل الذى أسداه إليك الفارس الغريب ، . قال إسحق :

— « لى واثق من ذلك يا بنتى ثقى من أنى سأعيد بناء صرح صهيون ، ولكن بقدر ما آمل أن أرى جدران المعبد الجديد وأبراجه بعينى رأسى هاتين ، فإنى آمل أن أرى مسيحيا ما ، بل أفضل المسيحيين لا يقوم بسداد دين إلى يهودى إلا تحت وطأة الخوف من القاضى والسجان ، .

وبعد أن قال ذلك عاد يقطع الغرفة بخطواته النائرة ، ولما رأت ريكا أن محاولاتها لعزائه غير مجدية إلا فى إثارة أمور جديدة للشكوى ، كفت بحصافة عن الاسترسال فى جهودها الفاشلة ، وهو ملك حكيم نوصى نكل من يجعلون من أنفسهم مواسين للآخرين وناصحين لهم أن يسلكوه فى مثل هذه الظروف .

بدأ الليل يدلهم عندما دخل الغرفة خادم يهودى ووضع على المائدة مصباحين من الفضة يضاءان بزيت معطر ، وفى نفس الوقت أقبل لإسرائيل آخر ووضع أنغر الأنبذة وأطيب الماكل على مائدة صغيرة من الأبنوس المطعم بالفضة ، لأن اليهود كانوا فى داخل دوزم لا يرضون على أنفسهم بالانغماس فى المتع الغالية . قال الخادم لإسحق إن بالباب نصرانيا ( هكذا كانوا يلقبون المسيحيين عندما كانوا يتحدثون إلى بعضهم البعض ) يرغب فى التحدث إليه .

إن كل من يقيم أود عيشه على التجارة يجب أن يضع نفسه تحت إمرة أى شخص يطلب منه النقاش فى شأن من شئونها . وفى الحال أعاد إسحق

إلى المائدة كأس النبيذ الإغريقي التي كان رفعها إلى شفطيه ولكنه لم يكن قد تذوقها بعد ، وقال لابنته بلهفة :

ب  
- « ضعى خمارك على وجهك ياريكا . » ثم أمر الخادم بأن يأذن للغريب بالدخول .

وبعد أن أسدلت ربيكا على وجهها الجليل ستارا شفافا فضى اللون. يصل إلى قدميها ، فتح الباب ودخل جيرث ملتفا بالثنيات الواسعة لعباءته- النورماندية . كان مظهره أكثر بعثا على الريبة من أن يكون أخاذاً خلافاً ، خاصة وأنه قد جذب غطاء رأسه على جبينه المجمع بدلا من أن يرفعه ، ثم قال باللغة الساكسونية :

- « هل أنت إسحق يهودى مدينة يورك ؟ ، فأجاب إسحق بنفسه اللغة ( لأن تجارته قد جعلته على علم بجميع اللغات واللهجات الجارية في إنجلترا ) :

- « نعم أنا إسحق ، ومن أنت ؟ ، فأجاب جيرث

- « ليس هذا من الأهمية فى شيء . » فقال إسحق :

- « إنه هام أهمية اسمى لك ، إذ كيف لى أن أتعامل معك دون أن أعرف اسمك ، .

قال جيرث :

- « تمهل . تمهل ، لقد جئت لكى أدفع مالا ويجدر بى أن أكون على ثقة من أنى أعطيته إن أعنى ، وأما أنت الذى ستأخذه ، فلن يكون من الأهمية فى كثير أو قليل - على ما أعتقد - أن تعرف اليد التى أعطتك إياه . » قال اليهودى :

— « أوه أقدم أنت لتدفع مالا ؟ يا أبانا إبراهيم المقدس ! إن هذا سيدل من علاقتنا ببعضنا البعض . وعن آيت به ٤ ، ٤ . »

— « من الفارس المحروم من الإرث الذى انتصر فى مباراة اليوم . لأنه ثمن الدرع الذى أعطاه إياه . كرجات جايرام أوف ليستر . بناء على ما أوصيت به . لقد أعيد الجواد إلى حظيرتك ، وأريد أن أعرف الآن ما يجب أن أدفعه ثمنا للدرع . »  
فقال إسحق فى بهجة فرحة :

— « لقد قلت إنه شاب طيب . ثم أضاف وهو يملاً كأساً ويقدم لراعى الخنازير شراباً فاخراً لم يتذوق مثيلاً له طيلة حياته : « إن كأس من النبيذ لن تضيرك . » واستنج قائلًا ، « كم من المال جئت به ؟ » فقال جيرث وهو يعيد الكأس الخالية بعد أن أفرغها فى جوفه :

— « يا للعدراء المقدسة ! أى شراب إلهى يحتمسبه أولئك الكفار حين أن المسيحين الحقيقيين مكرهون إلى أن يشربوا جمعة ثقيلة يلوثها الرغام كتلك الحثالات التى نلقى بها إلى الخنازير . ثم أتبع الساكسونى بعد أن انتهى من عباراته التى لاتتم عن اللباقة . « كم من النقود أحضرت معي ؟ إنه ليس إلا مبلغاً ضئيلاً هو كل ما يمتلكه سيدى وستستبعه مبالغ أخرى . ماذا يا إسحق ، يجب أن يستيقظ ضميرك حتى ولو كان ضميراً يهودياً . »  
فقال إسحق :

— « كلا ! ولكن سيدك قد ربح جياداً أصيلة ودزوعاً مينة بقوة رجه وساعده الأيمن ، ولكنه شاب طيب . سيأخذ اليهودى من هذه النقود نصيبه ويعيد له ما تبقى . » فقال جيرث :

— « أصدقك القول إن سيدى قد رفض أن يأخذ الجياد والدروع . »  
فقال اليهودى :



« إنه سلوك ينم عن الحماقة . مامن مسيحي هنا يستطيع شراء كل هذه الجياد والهدروع ، وما من يهودى سوى كان ليعطيه نصف قيمتها ، وامكن ما هنا معك فى هذه الحقيبة مائة قطعة ذهبية . ثم أتبع وهو يختلس النظر إلى ماتحت عباءة جهرت « إنها حقيبة ثقيلة » . فقال جيرث بصراحة خاطر :

« إنها تحوى رهوس سهام ، قال إسحق وهو يلهث حائراً بين حبه بالسليقة إلى الكسب ، وبين رغبة ولبدة فى نفسه لأن يكون كريماً فى ذلك الوقت : « حسنا إذن لو قلت لك إننى أرضى بثمانين قطعة ذهبية من أجل الجواد الأصيل والدرع الثمين - وهذا مالا أربح منه درهما واحداً - فهل معك من المال ما تدفع لى ؟ ، فأجاب جيرث ، مع أن القدر الذى طلبه اليهودى كان مقبولاً أكثر مما كان يتوقع :

« بالكاد ، ولو دفعته فإن سيدى سيصبح أقرب إلى المفلس ، ومع ذلك فإذا كان هذا هو أقل ما تعرض فعلى أن أرضى ، قال اليهودى :

« املاً لنفك قدما آخر من النييد ، أه اثمانون قطعة ذهبية مبلغ حنئيل جداً . إنها لا تدر فائدة مجزية ، وبالإضافة إلى ذلك فمن المحتمل أن يكون الجواد قد أصيب بضرر فى قتال اليوم . أوه لقد كان لقاء عنيرا خطيراً . الرجل والجواد يتدافعان على بعضهما البعض كثيران « باشان ، المفترسة . لا بد وأن الجواد قد أصابه ضرر ، فقال جيرث :

« وأنا بدورى أقول إنه سليم كل السلامة وتستطيع أن تراه الآن فى حظيرتك ، ثم أقول وأكرر القول إن سبعين قطعة ذهبية ثمن مجز للدرع ، وأرجو أن يثق كل منافى قول صاحبه . إن رفضت أن تأخذ سبعين جنبها فسأحل الحقيبة ثم هزها حتى سمع رنين ما بداخلها ، وأمضى عائداً بها إلى سيدى ، فقال إسحق :

« كلا ، كلا اضع النقود ، الثمانين قطعة ذهبية ، وسترى أني سأجزيك بسخاء . »

أطاع جيرث آخر الأمر ، وبعد أن وضع على المائدة ثمانين قطعة ذهبية ، أعطاه اليهودي إيصالاً باستلام الجواد وسترة الدروع . كانت يد اليهودي ترتعد جزلاً وهو يطوى السبعين قطعة ذهبية الأولى ، وجعل يقلب العشرة الباقية بعميق فكر ، يتوقف حيناً ، ويتعمق بضع كلمات حيناً آخر ، عندما كان يأخذها من فوق المائدة ويسقطها في كيبه قطعة وراء أخرى . يبدو أن حرصه على المال كان في صراع مع مافي طبيعته من خير ، ويسوقه إلى أن يضع النقود قطعة بعد أخرى في داخل السكيس ، بينما كانت عاطفة الجود تحاول دفعه لإعادة بعضها إلى ذلك الذي أسدى إليه الجليل أو كعطاء لرسوله ، وكادت كلماته أن تكون كما يأتي :

« واحد وسبعون ، اثنان وسبعون ، إن سيدك شاب طيب ، ثلاثة وسبعون ، شاب فاضل ، أربعة وسبعون ، هذه القطعة بها عطب صغير في عيطها ، خمسة وسبعون ، هذه تبدو خفيفة الوزن ، ستة وسبعون ، إذا ما أحس سيدك بأنه في حاجة إلى مال فليات إلى إسحق أوف يورك . سبعة وسبعون ، أعني ومعه الضمان الكافي . . . وهنا توقف لحظة كان جيرث يأمل خلالها في أن القطع الذهبية الثلاث الأخيرة تستطيع الإفلات من مصير رفيقاتها ولكن اليهودي استرسل في عدها . ثمانية وسبعون ، إنك رجل طيب ، تسعة وسبعون — وتستحق لنفسك شيئاً . . . . وهنا توقف اليهودي مرة أخرى ونظر إلى القطعة الذهبية الأخيرة وهو ينتوي بلاشك أن يقدحها على جيرث ، وعمل على أن يسمع رنينها بعد أن أسقطها على المائدة ، فإذا كان بها بعض الصمم ، أو كانت أخف من وزنها بمقدار شعرة كان النصر حليف الكرم في ذلك اليوم ، ولكن لسوء حظ جيرث أن الرنين كان مدوياً وصادقاً ، والقطعة حديثة السك ، وتزيد على الوزن

بعقدار حبة . لم يجد إسحق في حنايا قلبه ما يدفعه إلى أن يفترق عنها ، ولذا فقد أسقطها في كيسه كما لو كان ذلك عن غير عمد وهو يقول ، ثمانون هي نهاية القصة ، وأرجو أن تحظى بمكافأة سخية من سيدك . ثم أضاف وهو ينظر إلى الحقيبة بلهفة ، لا ريب في أن هذه الحقيبة تحوى مزيداً من المال ، فابتسم جيرث ابسامة أقرب إلى الضحك وقال :

— إنها لا تزال تحوى مثل القدر الذى حددته بحرص منذ حين ، . ثم طوى الإيصال بحرص ووضعته تحت قبعته وأتبع قائلاً ، فلتهلك لحيتك أيها اليهودى ! انظر إلى هذه الكأس ! إنها مترعة الكيل ! ثم أفرغ لنفسه قدحاً ثالثاً من النبيذ دون أن يأذن له اليهودى وغادر الغرفة دون أن يقرئه السلام ، فقال اليهودى :

— لقد تفوق على هذا الإسماعيلي بعض الثرى بارييسكا ، ولكن رغم ذلك فإن سيده شاب طيب ، نعم وإنى لعدد الغبطة لأنه ربح قطعاً من ذهب وفضة بسرعة جواده وقوة ربحه الذى يشبه ربح جولياث ، الفلسطينى والذى يفخر به على ذراع النساج . وعندما استدار ليستمع إلى جواب ريبكا ، رأى أنها كانت قد بارحت الغرفة في أثناء حواره مع جيرث دون أن ينتبه إلى ذلك .

نزل جيرث الدرج وعندما بلغ الردهة ، أو القاعة المظلمة ، بدأ يبحث حائراً عن مدخل الدار ، وهنا ظهر أمامه طيف امرأة متشحة بالبياض يبدو على ضوء مصباح فضى صغير كانت تمسك به في يدها ، وأشارت إليه بأن يتبعها إلى غرفة جانبية ، ولكن جيرث أحس عند هذا بشيء من الرهبة ، ومع أنه كان خشناً قوياً في كل ما يتعلق بقوى البشر وكأنه خنزير برى ، إلا أنه شعر بالخاوف التقليدية للساكوفيين الذين يؤمنون بالأرواح وشياطين الغابة ، وأشباح النساء البيضاء وجميع الخرافات التى جاء بها أجدادهم

من ألمانيا ، وبالإضافة إلى ذلك فقد تذكر أنه في منزل يهودى ، وهم قوم يعتبرهم الناس من المنأمرين والعرافين المتعمقين ، إلى جانب سائر الصفات الذميمة التى كانت الشائعات الشعبية تلصقها بهم . ومهما يكن من شئ . فقد أطاع الشبح الأبيض بعد أن توقف لحظات ، وتبعها إلى الغرفة التى أشارت إليها ، ولشد ما كانت دهشته بهيجة عندما استبان له أن دليله الجميل لم يكن إلا تلك اليهودية الحسنة التى رآها فى المبارزة ، ومنذ أمد قصير فى غرفة أيها . سأله عن صفته مع إسحق فذكرها لها تفصيلا . فقالت ريبكا :

— « إن أبى لم يعمد إلا إلى الدعابة أيها الرجل الطيب . إنه مدين لسيدك بجميل أعمق مما يستطيع هذا الجواد وتلك الدروع أن تقوى على سداه حتى ولو كانت قيمتها عشرة أضعاف ثمنها الحقيقى . كم من المال دفعت لأبى الآن ؟ » .

فأجاب جيرث . وقد أخذته الدهشة لهذا السؤال .

— « ثمانون قطعة ذهبية » . قالت ريبكا :

— « ستجد فى هذا الكيس مائة قطعة . أعط سيدك ما هو حق له ، واحتفظ لنفسك بما يبقى . أمرع . اذهب لا تتوان لتقدم الشكر اكن حذراً فى أثناء سيرك عبر هذه المدينة المكتظة وإلا فقدت حياتك وما تحمل . ثم إتبعته وهى تصفق يديها « أنر الطريق ياروبين لهذا الغريب ، ولا تغفل إغلاق الباب من ورائه بالأقفال والمزاليج » .

أطاع « روبين » وأمرها ، وهو إسرائيلى أسمر الجبهة ذو لحية سوداء ، يحمل مشعلا فى يده ، وفتح الباب الخارجى للنزل ، وقاد جيرث عبر فناء مستو وأخرجه من كوة فى الباب ، وأغلقها دونه بمزاج وسلاسل وكان تلك الدار كانت أحد السجون . فقال جيرث وهو يتعثر فى ظلام الطريق :

- د أقسم بالقديس دونستان على أن هذه المرأة ليست يهودية، بل هي ملاك من السماء !

عشر قطع ذهبية من سيدى الشاب الباسل - عنثرون من جوهرة صهيون هذه - ياله من يوم سعيد ! يوم آخر كهذا يا جيرث سيحررك من عبوديتك ، ويجعل منك أخا طليقا كأفضل الخلق ، وعند هذا ألقى بيوق راعى الخنازير وعصاه أرضا ، وأحل حسام الرجل الحر ودرعه ، وأتبع سيدى الشاب إلى الموت دون أن أخفى وجهى أو اسمى .

**\*\* معرفتي \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**

**منتديات مجلة الإبتسامه**

## الفصل العاشر عشر

اللعن الأول : قف أيها السيد وألقِ إلينا بما معك وإلا فسنتكركم  
على الجلوس ونسلبك

سيد : سيدي ، لقد وقعت الواقعة ، هؤلاء هم الأشرار الذين يخشاهم  
السابلة خشية شديدة

قال : يا أصدقائي . . . . .

اللعن الأول : ليس الأمر كما تقول يا سيدي فنحن أعداؤك

اللعن الثاني : هدوءاً ! فلنستمع إليه

اللعن الثالث : نعم سنفعل ذلك بحق لحيتي

لأنه رجل رجل .

( سيدان من فيرونا )

ما كانت مغامرات جيرث في تلك الليلة قد انتهت بعد ، وكانت نفسه  
تراوده بذلك حقا إلى أن مرَّ بمنزل أو اثنين من تلك الدور المتناثرة القائمة  
على مشارف القرية ، ثم وجد نفسه يخرق مسلكا عميقا يجري بين مرتفعين  
تكسوهما أشجار البندق والبان ، بينما نمت هنا وهناك شجرة بلوط شديدة  
القصر ، ترسل أغصانها عبر الطريق الذي كان كثير الأخاديد ، حطمته  
العربات التي كانت إلى وقت قصير تحمل معدات مختلفة الأنواع إلى ساحة  
المباراة . كان الظلام غميا لأن المرتفعين والأحراش قد أخفت نور قر  
المحصاد ، وكنت تسمع الضوضاء النائمة مقبلة من القرية تعتورها بين الفينة  
والفينة ضحكات عالية ، تحطمها الصرخات جينا ، وأصوات متنافرة لموسيقى  
بعيدة جينا آخر . كان كل هذا الصخب الذي ينبئ عن حالة الفوضى السائدة

في المدينة المكتظة بالنبلاء العسكريين وأتباعهم المنحلقين ، باعشا على شيء من القلق في نفس جيرث فقال :

— « لقد كانت اليهودية على صواب . بحق السماء والقديس دونستانا وددت لو أصل سالما إلى آخر مطافى بهذا الكنز كله . هنا أعداد ضخمة — لا أقول من اللصوص الأشرار ، ولكن من الفرسان الشاردين ، والوصفاء الشاردين ، والرهبان الشاردين ، والمنشدين الشاردين ، والحواة الشاردين ، والمهرجين الشاردين ، حتى إن الرجل الذى يحمل قطعة صغيرة من النقود يصبح عرضة للخاطر ، فما أحراك براع للخنازير فقير يحمل ملء كيس كامل من القطع الذهبية ! آه لو كنت خارج ظلال تلك الأحرار اللعينة حتى أستطيع على الأقل أن أرى أيا من أتباع القديس نيقولاس قبل أن يقفز على كفتى ، ا .

و عندما جرى كل هذا في خيال جيرث ، تعجل في السير إلى الأرض العراء التى يصل إليها هذا المر عله يبلغنا سريعا ، ولكن سوء الحظ قد لازمه لأنه لم يهتطع بلوغ هدفه ، إذ أنه لم يكده يصل إلى الجانب الأعلى من المر حيث الأحرار أشد كثافة ، حتى انقض عليه أربعة رجال كما تنبأ بذلك حدثه ، اثنان من كل جانب من الطريق وأمسكوا به في عنف ، ومع أن المقاومة كانت في بادى الأمر مستطاعة إلا أنها أصبحت الآن عديمة الجدوى . قال أحدهم :

— « هات ما معك . نحن موزعو الثروة العامة الذين يعملون على راحة كل رجل من حمله ، .

أما جيرث الذى لم يكن من اليسير إخضاعه ولو تحت إكراه العنف الشديد نظراً لأمانته العنيدة ، فقد تمتم قائلاً :

- « ما كنتم لتريحنوني من حملي لو كان في مكنتي الدفاع عنه بثلاث ضربات فقط ، . فقال الص :

- « سوف نرى ذلك المشهد عما قليل ، . ثم أتبع يخاطب رفاقه « هاتوا ذلك الوغد . أراه راغبا في أن نحطم رأسه كما يمزق كيس نفوده ، وبذلك تسيل الدماء من وريدين في آن واحد ، .

عند هذا اقتيد جيرث يسوقه الرجال في غير هوادة فوق الجسر على الجانب الأيسر من الممر حتى وجد نفسه في دغل منزول يقع بينه وبين الأرض الخلاء مسوقا إلى أن يتبع قادته الغلاظ إلى أعرق مكان في ذلك الخبا حيث توقفوا فجأة في بقعة مكشوفة غير مستوية ، عارية من الأشجار كل العراء ، ولذا فقد كان القمر يلقي أشعته دون أن تحجبها الأغصان وأوراق الشجر إلا قليلا ، وهنا انضم إلى من اقتنصوه رجالان آخران يبدو أنهما من رجال العصابة ، تدلى من جانبيهما سيفان قصيران ومكان في أيديهما بعصوين . استطاع جيرث آنذاك أن يلاحظ أن الرجال الستة جميعهم ملثمون مما يجعل مهنتهم لا تفتقر إلى إيضاح ، حتى ولو كانت تصرفاتهم السابقة قد أثارَت حولها الريب والشكوك . قال أحدهم :

- « كم من النقود معك أيها الوغد ؟ ، فأجاب جيرث في عناد :

- « ثلاثون قطعة ذهبية من مالي الخاص ، . فصاح اللصوص قائلين :

- « إنها خدعة . إنها خدعة . أيجمل ساكسوني ثلاثين قطعة ذهبية ويعود من القرية غير كتمل إنها خدعة لا يمكن التفاوض عنها ، ولا يضر لها ما يحملها ، . فقال جيرث .

- « لقد ادخرتها لأشترى بها حريتي وخلصي ، . فقال أحد اللصوص :

- « إنك حمار . لقد كانت ثلاثة أقداح من الجمعة القوية كفيلا بأن



تجعل منك حراً مثل سيدك ، نعم بل وأكثر حرية منه ، ذلك إذا كان ساكونيا مثلك . . فقال جيرث :

- .إنها الحقيقة الأليمة ، ولكن إذا كانت هذه القطع الذهبية الثلاثون قادرة على شراء حريتي منكم ، فكروا وثاقى وسأعطيها لكم . . فقال أحدم يبدو وكأنه ذو سلطان على الآخرين :

- . تمهل ، إن هذا الكيس الذى تحمله - كما أستطيع أن أتبين خلال عباءتك - يحوى نقوداً أكثر مما قلت . . فقال جيرث :

- . إنها ملك لسيدى الفارس الطيب الذى ما كنت لأذكر كلمة واحدة بشأنه لو اكتفيتم بتحقيق رغبتكم فيها هو ملك لى دون سواى . . فأجاب اللص :

- . إنى أشهد بأنك رجل أمين ، وأقسم بالقديس نيقولاس على أن قطعك الذهبية الثلاثين قد تصبح فى منجاة لو أصدقتنا القول . والآن هات وديعتكم لنحتفظ بها إلى حين . .

ثم أخذ من صدر جيرث الحافظة الجلدية الكبيرة التى كانت تخوى على الكيس الذى أعطته إياه ريبكا وباقى القطع الذهبية ، ثم استرسل فى استجوابه قائلاً :

- . ومن يكون سيدك ؟ . فقال جيرث :

- . إنه الفارس المحروم من الإرث . . فقال قاطع الطريق :

- . أتعنى ذلك الذى فاز ربحه بالجائزة فى مباراة اليوم ؟ ما اسمه وما نسيبه ؟

- . إنها رغبته فى أن يظلا مجهولين ، ومن ناحيتى فكونوا على ثقة

من أنكم لن تعرفوهما منى . .

- . ما اسمك أنت وما نسبته ؟ ، فأجاب جيرث :

« إن ذكرتهما فقد يفصح ذلك عن اسم سيدي، فقال قاطع الطريق :  
« إنك خادم سليط اللسان ، ولكن دعنا من هذا . كيف حصل  
سيدك على هذا الذهب ؟ هل آل إليه عن إرث ؟ أم عن أى الببل جاءه ؟ »  
فأجاب جيرث :

« برمح القتال ، وهاتان الحقيبتان تحتويان على فدية أربعة جياذ  
أصيلة وأربع سترات للدروع قوية . » فسأله قاطع الطريق :

« كم فيهما من النقود ؟ »

« مائتا قطعة من الذهب . » فقال قاطع الطريق :

« مائتان فقط ! لقد كان سيدك كريم الخلق مع أولئك المهزومين  
فتقاضى منهم فدية قليلة . هل لك أن تذكر لى أسماءهم ؟ »

فأبأه جيرث بأسمائهم . وعند هذا قال قاطع الطريق :

« كم من المال دفع فدية لدروع فارس المعبد بريان دي بواجيلبرت وجواده ؟ »

« إن سيدي لن يأخذ من فارس المعبد شيئاً إلا أدم حياته . إن بينهما  
عداوة قاتلة ، وليس من المستطاع إقامة روابط ود بينهما . » فقال اللص :

« هذا صحيح . ثم توقف بعد أن فاه بتلك الكامة وسأله : وماذا  
كنت تفعل الآن فى آشبي ومثل هذا القدر من المال فى كنفك ؟ فأجاب جيرث :

« لقد ذهبت إليها لأعطي إسحق يهودى مدينة يورك ثمن سترة الدروع  
التي أعطها لسيدي ليخوض بها ذلك النزال . »

« وكم دفعت لإسحق ؟ يخيل إلى من وزن هذا الكيس أنه لا يزال  
يحوى مائتي قطعة ذهبية . » فقال الساكسونى :

« أتد أعطيته ثمانين قطعة وأعاد لي بدلا منها مائة أخرى » .

فمجب اللصوص جميعهم وقالوا معا :

« ماذا ! كيف ذلك ! أنجترى على أن تسخر منا فتنتق بمثل هذه  
الأكاذيب التي لا تمت إلى العقل بصلة ؟ » فقال جيرث :

« إن ما أقوله لكم هو الحقيقة بعينها ، حقيقة وجود القمر في السماء .  
ستجدون هذا المبلغ نفسه في كيس من الحرير داخل آخر من الجلد ومنفصلا  
عن باقي الذهب » . فقال رئيس العصابة :

« فكر فيما تقول يا رجل ، إنك تتحدث عن يهودى — عن إسرائيلى  
يضمن بإعادة الذهب ضنين رمال الصحراء المجذبة بإعادة قدح ماء سكب الحاج  
عليها » . وقال قاطع طريق آخر :

« إن الرحمة التي تنطوى عليها قلوب اليهود أقل من تلك التي يتحلل  
بها ضابط شرطة غير مرتش » . فقال جيرث :

« ورغم ذلك فإنى لم أقل إلا صدقا » فقال رئيس العصابة :

« أشعلوا الآن نارا لأنى سأقوم بفحص هذا الكيس المزعوم ،  
ولو كان الأمر كما قال هذا الرفيق ، فإن كرم اليهودى يكون أقرب إلى المعجزة  
من ذلك الجدول الذى روى ظمأ آبائه فى الأراضى المقفرة » .

وعلى هذا جاء الرجال بالنور وبدأ قاطع الطريق بفحص الكيس ،  
وباقى الرجال يتزاحون من حوله ، وحتى اثنين ممن كانوا قابضين على جيرث  
قد أرخيا قبضات أيديهما ومدتا عنقيهما ليتمكننا من رؤية نتيجة الفحص ،  
فاقتنص جيرث فرصة هذا التراخى ، وعلى حين غرة أعمل قوته وسرعته  
وأنجى نفسه منهما ، وكان يستطيع الهرب لو رضى بأن يتخلى عن مال

سيده ويتركه من ورائه ، ولكن شيئا من هذا لم يخطر بباله ، وانتزع عصا من أحد الرجال وضرب بها رئيس العصابة ولم يكن قد جال بخاطره ما اتواه جيرث الذي استعاد الكيس وما فيه ، ولكن الصوم كانوا أسرع منه فاختطفوه منه وقبضوا على جيرث الأمين ، وقال رئيس العصابة وهو ينهض :

— لقد حطمت رأسى أيها الوغد ، ولو كنت بين أيدي سوانا لنتك جزاء رادعا على ضمنتك ولكنك ستعرف مصيرك عما قليل ، والآن فلتحدث عن سيدك قبل كل شيء لأن شئون الفارس تأتي قبل شئون الوصيف كما يقضى بذلك نظام الفروسية ، ولكن حذار من أن تبتدى حراكا وإلا لحق بك ما يجعلك هادئا مندى الحياة : ثم قال يخاطب رجال العصابة :

— إن هذا الكيس أيها الرفاق مطرز بحروف عبرية ، وأرى أن ذلك الخادم صادق فيما روى ، ويجب علينا أن نغنى الفارس الشريد من أن يدفع إتاوة ما . إنه شديد التقارب منا فنبضى ألا نستولى منه على غنيمة ، لأن الكلاب لا تنهش بعضها بعضا إذا ما تكاثرت للذئاب والثعالب من حولها . فقال أحد الرجال :

— شديد التقارب بنا ، أحب أن تفصح لنا عن ذلك . .  
فقال رئيسهم :

— ماذا أيها الاحق ، أليس فقيرا ومحروما من الإرث مثلنا ؟ ألا يقيم أوده على نصل سيفه كما نفعل ؟ ألم يهزم فرونديبيف ومالفوازان كما كنا نصبوا إلى هزيمتهما لو استطعنا إلى ذلك سبيلا ؟ أليس عدوا في الحياة وفي الممات لبريان دى بواجيلبرت الذى لدينا عديد الأسباب ما يدعوننا

إلى أن نرهبه ؟ وأسوأ من هذا كله ، أتريد أن تكون ضيائنا أشد سواداً  
من ضمير كافر عبرى يهودى ؟ . .

فهمهم الرفيق قائلًا :

- . كلا ، إن ذلك كان عارا ، ومع ذلك فعندما كنت أحد أفراد  
عصابة ، جندلين ، المسن البدين ، لم تساورنا وخزات الضمير هذه ، ولكن  
هل سيمضى ذلك الفلاح بندي اللسان دون أن يلحق به أذى ؟ . .

فأجاب رئيس العصابة :

- . كلا ، لن يكون ذلك إلا إذا استطعت أنت إيذائه . . وقال  
يخاطب جيرث . . هيا يارجل ، هل تجيد القتال بالعصا التي كنت عجولا  
في استعمالها ؟ ، فقال جيرث :

- . أخالك خير من يجب عن هذا السؤال . . فقال رئيس العصابة :

- . أقسم بشرقي أنك قد ضربتني بإحكام فافعل بهذا الرجل مثل  
ما فعلت بي ، وعند هذا فإنك تمضى دون أن يلحق بك أذى ، وإن لم تفعل ،  
فإني أقسم بإيماني على أني سأدفع الفدية هناك بنفسى طالما أنك وعد على مثل  
هذه القوة . . ثم أضاف . خذ عصاك ياميلر وحافظ على رأسك ، وأتم  
أيها الرفاق فكوا وناق الرجل وأعطوه إحدى العصى . هناك من الضوء  
ما يني بالرؤية . .

أخذ كل من الرجلين عصاه ، ثم تقدما إلى وسط البقعة العارية للاستفادة  
بضوء القمر إفادة كاملة ، وكان اللصوص في تلك الأثناء يضحكون  
ويصبحون برفيقهم قائلين .

- . كن حذراً على رأسك ياميلر . . وكان ميلر من ناحيته ممسكا

بعصاه من وسطها ، ويديرها فوق رأسه على الطريقة التي يسميها الفرنسيون  
الطاحونة ، ثم قال في صاف :

- هيا ، تقدم أيها الاحق ، وإن اجترأت ، فإنك ستذوق القوة  
الكامنة في إبهام طحان . فقال جيرث دون خوف وهو يدير عصاه فوق  
رأسه بمثل مهارة منازله :

- إن كنت طحانا مرة واحدة فأنت اص مرتين ، وأنا كرجل حق  
فإنى أتحداك .

وعند هذا التحم البطلان وأظهرا في أول الأمر ولدقائق عدة تعادلا  
كبيراً في المقدرة والبسالة والحذق ، يرد كل منهما ضربات خصمه برشاقة  
ومهارة ، حتى كان يخيل إلى من هو على مسافة بعيدة منهما أن هناك ستة  
رجال على الأقل في كل من الجانبين المتحتمين لشدة ما كان يحدثه  
سلاحهما من جلبة .

إن القصائد الشعرية التي أنشدت في البطولة قد وصفت معارك أقل  
عناداً وإصراراً ، وحتى أقل خطورة من تلك المعركة التي قامت بين جيرث  
وميلر التي لن يتغنى بها أحد لأنه ليس هناك من شاعر موهوب يستطيع أن  
يصف أحداثها السريعة بإنصاف ، ولكن على الرغم من أن رياضة التحطيب  
قد انتهى عهدا ، إلا أننا سنقدم قدر طاقتنا ما نستطيع عن هذين  
البطلين ثراً .

طال بهما القتال وهما فرسا رهان حتى بدأ صبر الطحان ينفد من صلابه  
منازله ، وسماع ضحكات رفاقه الذين كان يحلوا لهم في مثل هذه الحالات أن  
يقطعوا الوقت بالسلوى في إغاظته ، ولم تكن الحالة الفكرية لهؤلاء القوم  
لتتلام مع مباراة التحطيب النبيلة هذه التي تتطلب أشد الهدوء مثل لعبة

العصا العادية بما أتاح الفرصة لجيرث الذي كان رزيناً رغم ما كان يعتور خلقه من عنف لأن يحصل على فوز محقق ، وقد أظهر مهارة فائقة في اقتناص هذه الفرصة .

انقض الطحان بعنف يكيل الضربات بطرفي عصاه كليهما دون توقف ويعمل جاهداً على الوصول إلى مسافة تبلغ نصف طول العصا ، بينما كان جيرث يدافع عن نفسه ضد هذا الهجوم جاءلاً يديه قيد خطوة من بعضهما البعض ، ويحرك عصاه بسرعة خاطفة لكي يحمي رأسه وجسده ، وهكذا التزم جانب الدفاع ملائماً بين تحركات عينيه وقدميه ويديه حتى رأى الجهد والإعياء وقد نالا من خصمه ، فدفع العصا إلى وجهه بيده اليسرى ، وعندما كان الطحان يحاول أن يدرأها عن نفسه ، زلق جيرث يده اليمنى إلى اليسرى فالتقت يده ، وضرب منازلته على الجانب الأيسر من رأسه فطرح به على الحشيش الأخضر ، فصاح الاصوص :

— « حننا فعلت ! عاش النزال النزيه . عاشت انجلترا العجوز إلى الأبد لقد أنقذ الساكسوني كيسه وجلده ، وقابل الطحان خصمه المتكافئ . » .  
وقال رئيس العصاة مغالبا جيرث ليؤكده نداء الجماعة :

— « تستطيع أن تمضي في طريقك أيها الصديق ، وسيقودك اثنان من رفاقي عبر أفضل المسالك إلى خيمة سيدك ، ويقومان على حراستك من رواد الليل الذين قد تكون ضماؤهم أقل بقضة من ضماؤنا ، فهناك الكثيرون منهم يسرون خلسة للاصطياد في مثل هذه الليلة . » .

ثم أضاف عابسا ، ومع ذلك فحذار — لاتنس أنك مارضيت أن تذكر اسمك — لاتسل عن أسمائنا ولا تعمل على أن تكشف من أمرنا شيئا ، وإن حاولت ذلك فسيكون حظك أشد سوءاً مما حدث لك حتى الآن ، .

فشكر جيرث له رقيق مشاعره ووعدته بالألا يجيد عما حذره منه . أخذ

اثنان من الخارجين على القانون عصوها وطلبا إلى جيرث أن يتبعها ، ثم سارا قدما في ممر جانبي يخترق الدغل والأرض المحطمة الملاصقة له ، وفي أثناء سيرهم نهض رجلان كانا على حافة الدغل وتهدئا إلى دلبله ولما تلقيا منهما الجواب هماً ، ارتدا إلى داخل الغابة وتركوهم يمشون في غير ضيق .

دفع هذا الحادث بجيرث إلى أن يوقن بأن المصيبة كانت موفورة العدد، وأنهم يقيمون حراسة منظمة حول مكان تجمعهم .

وعندما وصلوا إلى الأرض الفضاء حيث قد يلتق جبرث مشقة في الكشف عن طريقه ؛ قاده اللسان إلى قمة مرتفع صغير استطاع حته أن يطل فبرى على ضوء القمر أسوار الساحة والخيام البراقة القائمة في كلا طرفيها ، والأعلام التي تزدان بها خفاقة في ضوء القمر الذي كان في استطاعة المرء أن يسمع من ثناياه همهمة الأنشودة التي يقطع بها الحراس ملل النوبة في أثناء حراستهم الليلية ، وهناك توقف اللسان وقال له :

- ليس من دواهي أمتنا أن نذهب معك إلى أبعد من هذا ، وتذكر ذلك التحذير الذي وجه إليك . احتفظ بما حدث الليلة سراً دفيناً ولن ياخذك الندم على ذلك . انس ما يقال لك الآن فظن يقيقك من انتقامنا برج لندن . فقال جبرث :

- طابت ليلتكما أيها السيدان الرقبقان . ساذكر أوامركم ولن أنساها ، وآمل ألا الحق بكما مهانة ما إذا ماتت لكما عملاً كثيراً وشرفاً .

وهكذا اترقوا وعاد اللسان سالكين الطريق الذي أتيا منه ، ومضى جبرث إلى خيمة سيده ، وقص عليه مغامرات المساء جميعها رغم التحذير الذي أنذر به .

فاضت الدهشة بالفارس المحروم من الإرث من جود ريكا وأصر



رغم ذلك على عدم الاستفادة به ، ومن كرم اللصوص الذين كانت هذه  
الرحلة غريبة على من هم على شاكلتهم .

قطع تأمله في هذه الأحداث الفريدة ضرورة أخذه لقسط من الراحة  
التي لم يكن له عنها غنى من جراء النصب الذي عاناه بالأمس ، والحاجة إلى  
الاسترخاء استعداداً للقاء الغد . لذا فقد استلقى الفارس على فراش وثير  
في خيمته لينام ، أما جيرث الأمين فقد رقد على جلد دب كان قد استخدم  
كسجادة للخيمة ممدداً عبر مدخلها حتى لا يستطيع أحد الدخول إلا وأيقظه.

**\*\* معرفتي \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**

**منتديات مجلة الإبتسامه**

## الفصل الثاني عشر

توقف المنادون عن صياحهم عالياً كان أم خفياً  
ثم دوت الأبواق ودقّت الطبول  
ولم يبق هناك ما يُقال إلا أنه في الشرق وفي الغرب  
كانت الرماح تُدفن في بطون المقاتلين على صورة ألية  
وتفوص الممايز في جوانب الجياد  
هناك نرى رجالاً يستطيعون التصويب والركوب  
هناك تتكسر الرماح على دروع سمكة  
ويحس المحارب بالوخزة في صميم القلب  
ثم ترتفع رماح طولها عشرون قدماً  
وتبرز السيوف براءة كالفضة  
وتتحطم الخوذات وتتشقق  
وتتفجر الدماء جارية كجدول أحمر متدفق .

( شورر )

طلع الصبح جميلاً لا تشوبه غيوم ، وقبل أن ترتفع الشمس في الأفق  
إلى ضحاها ، ظهر على أرض المهرجان أكثر الناس خولاً وأشدّ شوقاً على  
السواء ، ميممين وجوههم شطر الساحة وكأنها مركز التقاء عام يبتغى  
كل واحد منهم الحصول على مكان ممتاز ليشهد امتداد النزال المرتقب ،  
وبعد ذلك ظهر القائمان على النظام ومساعدوهما ومعهم المنادون ليبدؤوا أسماء  
الفرسان الذين يزعمون الاشتراك مع الفريق الذي ينتوى كل واحد منهم

الانضمام إليه ، وكانت هذه الحيلة ضرورية لضمان التكافؤ العددي بين الفريقين المتنازعين ، وكان الفارس المحروم من الإرث وفقا للنظام الجاري سيعتبر قائدا لأحد الفريقين ، بينما يصبح بريان دي بواجلبرت بطلا أول للفريق الآخر لأنه كان المحلّي في مباريات الأمس ، وكان من الطبيعي أن يلتحق بفريقه أولئك الذين أشتركوا في التحدي ما خلا « رالف دي فيون ، وحده الذي أصبح غير قادر على ارتداء دزوعه بعد سقطة الأمس ، وما كان قد مضى عليها إلا وقت قصير . لم يكن هناك نقص في عدد المبارين النبلاء المتنازعين لكي تكتمل الصفوف في الفريقين ، والواقع أنه على الرغم من أن المباراة العامة التي يتقاتل فيها الفرسان في آن واحد كانت أشد خطراً من اللقاء الفردي ، إلا أنها كانت مع ذلك أكثر شيوعاً وممارسة في ذلك العصر ، لأن كثيراً من الفرسان الذين لم تتوافر لديهم الثقة الكافية في مهارتهم الذاتية لكي يتحدوا خصماً مفرداً ذا شهرة عريضة ، كانوا رغم ذلك راغبين في إبراز شجاعتهم في نزال عام ، حيث يقاتلون من هم أقرب إلى التكافؤ معهم في القوى .

وفيما نحن فيه ، كان ما يقرب من خمسين فارساً قد قيدوا أسماءهم كراغبين في الاشتراك في القتال في صف أي من الفريقين عندما أعلن القائم على النظام عدم استطاعتها قبول المزيد بين خبيثة أمل الكثيرين ممن تلكأوا في قيد طلب انضمامهم .

وفي حوالي الساعة العاشرة كان السهل كله مكتظاً بالفرسان والفارسات والراجلين ، وقد جاءوا اسراعاً ليشهدوا المباراة ، ثم لم تلبث أن انطلقت نوبة طويلة من الأبواق مؤذنة بمقدم الأمير يوحنا وحاشيته يصحبه كثيرون من أولئك الفرسان الذين كانوا ينتهون الاشتراك في النزال ، وغيرهم ممن لم يكن عندهم هذا القصد .

أقبل سيدريك الساكسوني في الوقت نفسه ومعه الليدي رويناء ، ولم يكن

أثليستين برفقتها ، وكان هذا النبيل الساكسوني العملاق القوي يرندى شتره من الدروع ليتخذ لنفسه مكانا بين المختارين ، ولشدته ما دهش سيدريك عندما رأى أن أثليستين قد اختار أن يسجل اسمه في صف فريق فارس المعبد ، ولم يكن الساكسوني راضيا تمام الرضى عن مسلك صديقه لأنه كان غير موفق في اختيار الفريق الذي سيقا تل إلى جانبه ، ولكنه لم يتلق منه سوى ذلك النوع من الإجابات التي يصر عليها كل عنيد مكابر في تنفيذ رغباته الخاصة أكثر مما يقوى على تبريرها . ولكن أثليستين كان من الحصافة بحيث استطاع أن يحتفظ في دخيلة نفسه بأقوى البواعث - إن لم يكن بالباعث الوحيد - على الانضمام إلى فريق بريان دي بوجلبورت ، فعلى الرغم من أن طبيعته الحاملة كانت تحول بينه وبين أن يسلك أى سبيل يعلى من قدره في عيني اللبدي رويتنا ، إلا أن شعوره لم يكن بأى حال سلبيا نحو جمالها ، وكان يرى أن زفانه إليها أمر متفق عليه لا يرقى إليه شك برضاء سيدريك وأصدقائها الآخرين . ولذلك فإن اللورد كوتنجزبره الصلف المتكاسل قد أخذه ضيق مكبوت عندما رأى الفارس الفائز في اليوم السابق يمارس حقه في اختيار اللبدي رويتنا كحائزة لهذا الشرف ، ولكي يعاقبه على تلك الأفضلية التي بدت وكأنها تتعارض مع مشروع زواجه ، فإن أثليستين المؤمن بقوته والذي كان متملقوه على الأقل ينعته بالمهارة الفائقة في مباريات السلاح قد اعتمز على ألا يمد الفارس المحروم من الإرث بعونه القوي ، هذا بالإضافة إلى أنه كان عامداً إلى أن يذيقه ثقل باطلته الحربية لو واثته الفرصة .

كان دي برامسى وفرسان آخرون من حاشية الأمير يوحنا - طاعة لإشارة منه - قد انضموا إلى فريق طالبي النزال لأن الأمير يوحنا كان راغبا أشد الرغبة في أن يضمن النصر لهذا الفريق ، ومن ناحية أخرى فإن كثيرا من الفرسان الآخرين سواء أكانوا من الانجليز أم النورمانديين ، مواطنين أم غرباء ، قد اشتركوا ضد طالبي النزال خاصة وأن الفارس

المحروم من الإرث الذي أثبت أنه بطل مقدم كان على رأس الفريق المضاد.

وحالما رأى الأمير يوحنا أن الملكة المختارة لذلك اليوم قد وصلت إلى أرض المهرجان ، تقدم للقائها متظاهرا بتلك الوداعة التي كانت تلامه كل الملائمة عندما يطيب له أن يبيديها، وخلق غطاء رأسه وتقدم نحوها ثم ترجل عن جواده وأعان الليدي رويانا على النزول من سرجها ، بينما كشف تابعوه عن رؤوسهم في نفس الوقت ونزل واحد من أرفعهم شأنًا ليمسك بجواده ، وقال الأمير :

- « إننا بهذا نضرب المثل على ما ينبغي أن يكون عليه الولاء للملكة المحب والجمال فنقودها بأنفسنا إلى العرش الذي يجب أن تربع عليه اليوم ، . ثم قال ، أيتها السيدات ، مجدن ملكتكن حيث إنكن ترغبن بدوركن في أن تحظين بمثل هذا التمجيد ، .

وبعد أن قال ذلك ، قاد رويانا إلى مكان الشرف المقابل لمقعده ، بينما كانت أجمل الحاضرات وأرفعهن مقامًا يتزاحمن من حولها لتحظى كل منهن بأقرب مكان من ملكتكن المؤقتة .

وما كادت رويانا تتخذ مكانها حتى صدحت الموسيقى التي صهرتها هتافات الجماهير تكريمًا لمقامها الجديد ، وفي تلك الأثناء كانت الشمس تسطع مشرقة براقه على الدروع اللامعة لفرسان الفريقين الذين غص بهم طرفا الميدان المتقابلان وقد وقفوا يتدبرون في حماس أفضل الطرق لتنظيم صفوفهم وأجداها على التعاون في أثناء المعركة ، ثم نادى المنادون بالانضمام الصمت حتى تنلى قوانين المباراة التي أعدت على نحو ما لكي يخفف من أخطار ذلك اليوم ، وهي حيلة شديدة الأهمية لأن القتال سيجرى في ذلك اليوم بسيف مشحوة ورمح مديبة. لذلك كان محظورا على الأبطال أن يطعنوا بأسيافهم وإنما عليهم أن يضربوا بها فقط ، وأعلنوا كذلك أن أي فارس يستطيع أن

يستخدم هراوة أو بلطة حربية كما يروق له، وأن الخنجر سلاح محرم، كما أن الفارس الذي يسقط من فوق جواده يستطيع استئناف القتال على قدميه مع أى خصم من الجانب المضاد بنفس الشروط، ولكنه كان يظنورا على الفرسان الراكبين أن يهاجموه وعندما يتمكن أى فارس من أن يدفع بخصمه إلى طرف الساحة حتى يلامس السور بجسده أو بسلاحه، فعليه أن يعترف بخذلانه، وهنا تصبح دروعه وجواده تحت إمرة المنتصر، ولا يسمح للفارس الذى يهزم على هذا النحو بأن يشترك فى القتال من جديد، وإذا أصيب أحد الفرسان بضربة رمته أرضا ولم يستطع النهوض على قدميه، فإن لوصيفه أو تابعه أن يدخل إلى الميدان ويجذب سيده بعيدا عن رضى القتال، وفى هذه الحالة يعتبر مهزوماً، ويعلن أنه لم يعد مالكا لدرعه وجواده، هذا ويجب أن يتوقف القتال حالما يلتقى الأمير بعضا قيادته أو هراوته، وهى حيلة أخرى تتبع عادة لوقف إهدار دماء لاداعى لإراقبتها إذا ما طال أمد القتال، وكل فارس يشذ عن قواعد المباراة ولا يترسم قوانين الفروسية الشريفة، فإنه يجرّد من أسلحته ويجلس فوق سور الميدان حاملا دروعه فى وضع مقلوب ليكون سخرية للناظرين عقابا له على خروجه على قواعد الفروسية.

وبعد أن أذاع المنادون هذه التحذيرات، اختتموا صيحاتهم بحض كل فارس على أداء واجبه ليحظى بالرضى من ملكة الجمال والحب، وبعد أن أعلن المنادون هذا النداء، عادوا إلى أماكنهم، ودخل الفرسان من طرفى الميدان فى ركب طويل، ونظموا أنفسهم فى صفين كل فريق منهما قبالة الآخر تماما، ووقف كل من القائدين فى منتصف الصف الأمامى لفريقه بعد أن نظم كل منهما صفوفه تنظيما دقيقا، ووضع كل محارب فى مكانه.

كان جميلا ولكنه فى الوقت نفسه باعث على القلق أن ترى مثل هذا العدد من الأبطال البواسل على متون جيادهم الأصيلية، وبدروعهم الغالية وقد وقفوا متأهبين لخوض قتال شديد الخطر، ممتطين صموات جيادهم وكأنهم

دعوات من حديد في انتظار شارة بدء التلاقي بنفس حماس جيادهم التي كانت تفصح عن نفاذ صبرها بالصهيل وضرب الأرض بسنابكها .

كان الفرسان يمسون برماحهم الطويلة منتصبين وأسنتها اللامعة تطاول الشمس، والأعلام المستطيلة التي تزدان بها ترفرف فوق رياش الخوذات . هكذا وقفوا، بينما كان القائمان على النظام يتفقدان صفوفهم بدقة بالغة خشية أن يكون أحد الفريقين أكثر أو أقل من المقرر عدداً ، ولما أيقنا من ذلك خرجنا من الميدان ، ثم أطلق وليام دي ويفل نداءه الذي دوى كقصف الرعد معلنا شارة البدء قائلاً ، انطلقوا ، ، وعلى الفور خفض الأبطال من رماحهم ووضعوها في مواطن الاستعداد ، ثم لكزوا الجياد في جوانبها بالمهاميز، وانقض الصفان الأماميان للفريقين كل على الآخر بجيادهم المنطلقة فالتقيا في منتصف الميدان حتى سمع صوت التحامهما على مبعده ميل، وتقدم كل من الصفين الخلفيين بخطى أكثر بطناً لعون المهزومين ، ومتابعة نجاح المنتصرين كل مع فريقه .

لم تظهر نتائج النضال في الحال لأن الغبرة التي أثارتها حوافر هذه الكثرة من الجياد قد جعلت من الجو ظلمة، ومضت دقيقة قبل أن يتمكن المشاهدون المشوقون من رؤية نتيجة الطعان . وعندما أصبح القتال ظاهراً للعيان ، رأوا نصف الفرسان من الجانبين وقد سقطوا من فوق جيادهم ، بعضهم بسبب مهارة تسديد رماح الخصوم ، وبعضهم من جراء تفوق خصومهم وزناً وقوة بما كان سبباً في سقوط الجواد والرجل معاً، وبعضهم كان ملقاً على الأرض وكانهم لن يهضوا أبداً ، وغير أولئك جميعاً كانوا قد وقفوا على أقدامهم وأصبحوا يتقاتلون وجهاً لوجه مع الخصوم الذين كانوا في مثل حالهم ، وكان كثير ممن ثخنهم الجراح يوقفون الدماء المسالة بأوشحتهم ، ويحشرون أنفسهم جاہدين في الابتعاد عن رحى المعركة . أما الفرسان الراكبون الذين تكسرت منهم النصال على النصال من عنف الصدام ، فقد أصبحوا الآن ملتحمين بأسياهم بصرخون صرخات الحرب ، ويتبادلون الضربات وكان الحياة والشرف رهن بما يسفر عنه هذا القتال .

لم تلبث نار الضجيج أن تاججت ، وتقدم رجال الصف الثاني من كلا الجانبين - الذى كان يعمل كقوة احتياطية . ثم انقضوا لمساعدة رفاقهم، وهتف أتباع بريان دى بواجيلبرت: «ها ! علم المعبد ! علم المعبد ! من أجل المعبد ! من أجل المعبد!»، وكان رجال الفريق المضاد يجيبونهم قائلين: «محروم من الإرث ! محروم من الإرث !»، وهو شعار اقتبسوه من الرمز المرسوم على درع قائدهم .

ولما كان الرجال يقتتلون بعنف شديد، وبجمالة لا تستقر ، فإن موجة اللقاء كانت تجرى حيناً فى اتجاه الطرف الجنوبي من الميدان ، وحيناً آخر ناحية الطرف الشمالى وفقاً لتفوق أحد الفريقين على الآخر . فى ذلك الحين كانت أصوات الضربات وصرخات المقاتلين تختلط اختلاطاً مروعا بأصوات الأبواق والأناث العميقة لأولئك الذين سقطوا وظلت سنايك الخيل تطوهم دون أن يستطيعوا عن أنفسهم دفعا ، وأصبحت دروع المقاتلين الفاخرة ملطخة بالتراب مخضبة بالدماء ، تتحطم مع كل طعنة حسام أو ضربة بلطة حربية ، وكانت الرياش الزاهية تتطاير من فوق رؤوسهم مع الهواء كشواظى الجليد، واختفى كل ما كان جميلاً خلافاً فى الزى العسكرى، وأصبح كل ما يرى الآن باعثاً على الهول والحسرة .

وعلى الرغم من هذا كله فقد سيطرت الطبيعة البشرية ، إذ أن مناظر الرعب لم تجذب عامة الشعب فحسب ، بل إن سيدات الطبقة العليا اللواتى يملأن المقاصير كن أيضاً يشهدن القتال باهتمام لهف ، وكن غير راغبات فى أن يصرفن أبصارهن عن مثل هذه المرأتى الرهبة .

حقاً كان الدم يغيض من وجنة جميلة هنا وجميلة هناك ، أو تسمع أنثة خافتة إذا ما سقط حبيب أو أخ أو زوج من فوق جواده ، وعلى أى حال فقد كانت السيدات الحاضرات على وجه عام ينفثن روح الشجاعة فى نفوس



المحاربين لا بالتصفيق بالأيدي والتلويح بالأوشحة والمناديل فحسب، بل كن أيضا يصحن هاتفتا ، ربح باسل ، سيف بتارا ، وذلك إذا ما أبصرن بطعنة أو ضربة صائبة .

وإذا كان هذا هو مدى كلف الجنس الرقيق بهذه الرياضة الدامية ، فإننا نستطيع في غير جهد أن نعرف كنه لطفة الرجال عايبها . كان هذا الاهتمام يبدو على صورة هتافات مدوية إذا ما تبدل الحظ ، وكانت العيون كالمعالقة بالميدان ومن فيه وما فيه ، حتى إن النظارة كانوا يبديون وكأنهم أنفسهم يكيلون الطمعات وبتلغوها ، وكانت أصوات المنادين تصرخ بهم بين كل وقفة وأخرى قائلة ، قاتلوا أيها الفرسان البواسل ! الإنسان يموت ولكن المجد يبقى في خلودنا قاتلوا الموت أفضل من الهزيمة . قاتلوا أيها البواسل فإن عيوننا جميلة ترقب أعمالكم ، .

كانت أعين الجميع تحاول في أثناء الكر والفر أن تكشف عن قائدي الفريقين اللذين كانا ملتحمين وسط المعركة ، ينفثان روح الشجاعة في الرفاق بالنداء والقدرة معا . وقد أتى كل منهما بأعمال باسلة أشد البسالة ، ولم يجد كل من بواجبيلبرت أو الفارس المحروم من الإرث في الفريق المضاد فارسا يمكن أن يوصف بأنه نظير لهما ، وحاول كل منهما أكثر من مرة أن ينفرد بالآخر في القتال تدفعهما الكراهية التي يحس بها كل منهما نحو عدوه ، حذران من السقوط لعلهما بأن سقطت قائداً أحد الفريقين إنما هي نصر حاسم للفريق الآخر . ظلت جهودهما للتلاقى على غير طائل من جراء الزحام والاضطراب في المرحلة الأولى من المعركة ، وكان حماس أتباعهما سببا في تفرقهما مرات عديدة ، وكان كل منهما مشوقا إلى إحراز مجد باختبار قوته ضد قوة الفريق المضاد ، ولكن بعد أن خف زحام الساحة لخلوها من عدد كبير من مقاتلي الفريقين اللذين اعترفوا بالهزيمة ، أو من اللذين دفع بهم إلى طرفي الميدان ، أو ممن أصبحوا عاجزين بسبب أو بآخر عن مواصلة

القتال ، التقى فارس للمعبد آخر الأمر بالفارس المحروم من الإرث وجها لوجه بكل ما تنفثه العداوة القاتلة ، بالإضافة إلى الصراع على الشرف . لقد أبدى كل منهما من ضروب المهارة في اتقاء الطعنات وتوجيهها ماجعل المشاهدين يطلقون صيحات جماعية لاشعورية تفصح عن البهجة والإعجاب .

كان فريق الفارس المحروم من الإرث في ذلك الوقت في مأزق دقيق ، لأن ساعد فرونديبف العملاق من ناحية ، وقوة أثيلستين الخارقة من جهة أخرى ، كانا يسقطان كل من يتعرض لهما تعرضا مباشرا ويسوقانه إلى الفرار ، ويبدو أنه قد جال بخاطر هذين الفارسين في تلك اللحظة نفسها - بعد أن وجدا نفسيهما وقد تحررا من خصميهما - أن يعملوا على أن يحرز فريقهما نصرا حاسما ، وذلك بأن يهبا لعون فارس المعبد في نضاله مع خصمه ، وعلى هذا أدارا جواديهما في نفس اللحظة ، وركز النورماندى جواده منطلقا نحو الفارس المحروم من الإرث من ناحية ، كما انقض الساكسونى من الناحية الأخرى ، وكان من المحال حقا أن يصمد ذلك الفارس أمام هذا الانقضاض المفاجيء . والذي لم يكن متكافئا ، لو لم تنطلق صيحة تحذير جماعية من النظارة الذين لم يكن في وسعهم إلا الاهتمام بإنسان معرض لمثل هذا الخطر ، وكانت هذه الصيحة تنادى قاتلة ، حذار ! خذ حذر ! أيها الفارس المحروم من الإرث ! ، فاتخذ حيطته من الخطر المحدق به ، وجذب جواده القهقرى حتى يفلت من شفتى الرحي ، فخاب تديرهما في اندفاعهما بين الفارس المحروم من الإرث وبين فارس المعبد حتى كادا أن يصطدما بجواديهما قبل أن يتمكنوا من إيقاف هذا الاندفاع ، ولكنهما استطاعا رغم ذلك من أن يسيطرا على جواديهما واستدارا بهما ، ثم تابع ثلاثهم هدفهم الموحد لإسقاط الفارس المحروم من الإرث أرضا .

ما كان هناك من شيء يقوى على إنقاذه إلا المقدرة الخارقة والسرعة التي كان يتميز بها جواده الأصيل ، وكان له في ذلك سبق عليهم ، إذ أن جواد

بواجيلبرت كان جريحا ، وكان جواد فرونديبيف وأثيلستين متعبين من ثقل راكبيهما العملاقين اللذين كانا بتمنطقان بدروعهما كاملة ، ومن الجهد الذى بذل فى ذلك النهار . وبفضل الفروسية الفائقة التى كان المحروم من الإرث يتحلى بها ، وسرعة الحيوان الأصيل الذى يمتطيه ، استطاع لدقائق قليلة أن يبتلى خصومه الثلاثة على مدى سيفه فى كر وفر بسرعة الصقر الطائر عاملا على تفرقة خصومه قدرطاقته ، ينقض على واحد حيناً ، وعلى ثان حيناً آخر ، يكيل لهم بسيفه الضربات المدمرة دون أن يتوقف ليتلقى تلك التى تسدد نحوه فى مقابلها - ولكن على الرغم من أن الميدان كان يدوى بالهتافات لمهارته ، فقد كان واضحاً أنه مغلوب على أمره لا محالة ، وكان النبلاء المحيطون بالأمير يوحنا يصرعون إليه جملة بأن يلقى بهصاه أرضاً لإنقاذ فارس يتحلى بمثل هذه البسالة من عار الهزيمة لكثرة خصومه ، فقال الأمير :

- « لن أفعل هذا بحق نور السماء . إن هذا الأفاق الذى يخفى اسمه ، ولا يقيم وزناً لضيافتنا التى أردنا أن نسبقها عليه قد فاز حتى الآن بجائزة ، وفى استطاعته أن يتيح للآخرين فرصة الكسب ، ، وبينما هو مسترسل فى هذا القول ، إذ يقع حدث فجأى يقلب نتيجة ذلك اليوم رأساً على عقب ، فقد كان من بين رجال الفارس المحروم من الإرث بطل فى دروع سوداء تمتط صهوة جواد أسود كبير الحجم ، منتصب القامة تبدو عليه دلالات القوة والاحتمال التى يتحلى بها الفارس الذى يعتليه ، ولم يكن ذلك الفارس الذى يتمنطق بدرع لا يحمل شعاراً ما قد أثار حتى تلك اللحظة إلا التفاتنا عابراً فى أثناء المعركة لأنه كان فقط يدفع عن نفسه فى يسر واضح أوائك المحاربين الذين ينقضون عليه ، ولكنه ما كان يهاجم تفوقه ، أو ينقض على أحد . وقصارى القول فإنه حتى الآن قد لعب دور المشاهد أكثر منه ذافعية فى المباراة ، بما حدا بالنظارة إلى أن يدعو « بالكسول الأسود » ، ولجأة بدا وكأنه قد نفى عن نفسه غبار

كسله عندما استبان له أن قائد فريقه في مثل هذا المأزق ، فركز جواده الذي لم يكن مجهدا ، وانقض كالصاعقة لمعونه وهو يصبح بصوت كدوى النفير ، أبها المحروم من الإرث ، لقد جاءك الخلاص ، ولكن الأوان قد فات ، لأن الفارس المحروم من الإرث عندما كان ينقض على فارس المعبد ، كان فرونديبف يتسلل مقتربا منه رافعا حسامه ، ولكن قبل أن يهوى به عليه ، كان الفارس الأسود قد سدده ضربة إلى رأسه انزلت على الخوذة اللامعة ، وسقطت بعنف شديد على غطاء رأس الجواد ، فارتدى فرونديبف أرضا وقد فقد الرجل والحصان كلاهما رشده نتيجة لتلك الضربة العنيفة ، وعند هذا أدار الكسول الأسود جواده ميمًا وجهه صوب أثيلستين دي كوتنجزبره ، ولما كان سيفه قد تحطم في قتاله مع فرونديبف ، فقد انزع من يده الساكوني العملاق بلطة الحرب التي كان قابضا عليها ، وبمركبة فارس ألف استخدام هذا السلاح ، كال له ضربة على أم رأسه ، بلغت من العنف حداً جعله يسقط فاقد الوعي على أرض الحابة . وبعد أن انتهى من هذا العمل المزدوج الذي قوبل بالهتافات المدوية ، نظرا لأنه لم يدر بخلد أحد مطلقا أن يأتي به ، بدأ الفارس وكأنه قد ارتد إلى طبيعته الكسولة ، وعاد في هدوء إلى الطرف الشمالي للميدان تاركا قائده يخرج ما في جعبته مع بريان دي بواجيلبرت ، ولم يكن هذا الأمر شاقا كسابقه .

كان الدم قد سال من جواد فارس المعبد غزيراً وتداعى تحت وطأة هجوم الفارس المحروم من الإرث ، فسقط بريان دي بواجيلبرت أرضاً يتعثر في الركاب الذي لم يستطع خلاص قدمه منه ، وقفز منازلته من فوق جواده ورفع حسامه القتال فوق رأس خصمه وأمره بأن يستسلم .

كان الأمير يوحنا قد أُلِمَّ للموقف الدقيق الذي تردى فيه فارس المعبد أكثر مما أُلِمَّ لموقف خصمه ، فأسرع إلى خلاصه من عار الاعتراف بالهزيمة بأن ألقى بعصاه أرضا وأنهى القتال .

حقا كانت بقايا المعركة وجمراتها ما زالت مستعرة ، ولكن أكثر  
الفرسان الذين كانوا لا يزالون بالميدان ، قد توقفوا عن القتال حينما باتفاق  
صامت ، تاركين المصير لصراع القائدين .

كان الوصفاء الذين لانقوا كثيراً من المشقة والخطر في عون سادتهم  
خلال القتال يتزاحون آتند في الميدان لأداء ما عليهم من خدمات نحو من  
تختهم الجراح الذين كانوا يُحْمَلون بالرعاية والعناية الكاملتين إلى الخيام  
المجاورة ، أو إلى الأماكن المعدة لهم في القرية المتاخمة .

وهكذا انتهت مباريات « أشبي لازوش » التي لا تنسى وهي من أكثر  
المباريات التي أقيمت في ذلك العصر بسالة وإقداما ، رغم أن أربعة من  
الفرسان فقط هم الذين سقطوا صرعلى في الميدان ، مات أحدهم اختناقا من  
شدة حرارة دروعه ، وأصيب ثلاثون أو أكثر بجراح خطيرة من بينهم  
أربعة أو خمسة لم ينلهم البرء أبداً ، وأصيب كثيرون غيرهم بعاهاث مستديمة  
ستبقى ما بقيت حياتهم ، أما من سلخوا ، فقد حملوا معهم إلى قبورهم آثار  
المعركة ، ومن هنا تذكر السجلات القديمة هذه المباراة باسم « عمر سلاح  
أشبي الوادع المرح » .

ولما كان حتما على الأمير أن يعلن اسم المنتصر ، فقد قرر أن شرف  
ذلك اليوم هو للفارس الذي أطلقت عليه الجماهير لقب « الأسود الكسول » ،  
ولكن هذا القرار قد لقي اعتراضاً من الحاضرين ، وقالوا له إن الفارس  
المحروم من الإرث هو الذي أحرز النصر حقاً لأنه قهر في ذلك اليوم ستة  
أبطال بيده وحده ، كما أنه أسقط في النهاية قائد الفريق المضاد من فوق ظهر  
جواده بضربات العنيفة الصائبة ، ولكن الأمير يوحنا أصر على رأيه زاعماً  
بأن الفارس المحروم من الإرث وفريقه كانوا على وشك الهزيمة لو لم  
تواتهم المساعدة من فارس الدرع الأسود ، وهو لذلك لن يتخلى عن قراره

بمنحه الجائزة ، ولكن لشد ما دهش الحاضرون عندما تفقدوا الفارس المفضل في كل مكان فلم يعثروا له على أثر ، لأنه غادر الميدان فور انتهاء القتال وراه بعض الناس متجها نحو أحد ممرات الغابة بنفس الخطوات الوثيدة ، وبمظهره المهمل التي حدثت بالجماهير إلى أن يلقبوه ، بالفارس الكسول .

وبعد أن انطلق صوت النفير مرتين في طلبه ، وناداه المنادون فلم يجب نداءهم إلا صدها ، أصبح من المحتم اختيار فارس آخر لتسلم الجائزة الخاصة به ، وهنا لم يعد لدى الأمير يوحنا من المبررات ما يناهض بها الفارس المحروم من الإرث في حقه ، ورأى نفسه آخر الأمر مسوقا إلى أن يعلن أنه بطل ذلك اليوم .

قاد حكا الملاعب المنتصر مرة أخرى على أرض منزلة خضبتا الدماء ، وازدحمت بالدروع المحطمة ، وأجساد جرحى الجياد وقتلاها إلى أن وصلوا به إلى قاعدة العرش الذي يترجع عليه الأمير يوحنا ، فقال له :

— ، إننا أيها الفارس المحروم من الإرث — حيث إنك تأتي علينا أن نعرفك بغير هذا اللقب — نمنحك جائزة هذه المباراة ، ونعلن إليك حقلك في أن تتسلم من ملكة الحب والجمال الكليل الفخار الذي تستحقه عن جدارة لبسالته .

فانحنى الفارس انحناء عميقة رشيقة ولكنه كان صامتا لا ينطق ، وبينما كانت الأبواق تدوى ، والمنادون يبعثون أصواتهم جاهدين في إعلان الشرف للشجاع والمجد للنتصر ، والسيدات يلوحن بمناديلهن الحريرية وأوشحتهن المطررزة ، وجميع الصفوف تشارك صارخة في هتافات تطاول السماء ، كان الحكمان يقودان الفارس المحروم من الإرث عبر الميدان إلى قاعدة عرش الشرف الذي كانت تربع عليه الليدى روبينا .

طلب إليه أن يجثو على أسفل درج العرش، ولا مرأى في أن كل ما فعله منذ انتهاء القتال قد بدا وكأنه بدافع من حوله أكثر مما هو صادر عن إرادته الحرة، ولوحظ أنه كان يترنح عندما اقتيد مرة أخرى عبر الميدان. نزلت رويانا من مكاتها بخطوات رشيقة وقوية، وكانت على وشك أن تضع الإكليل الذي تمسكه بيدها فوق خوذة البطل عندما هتف الحكمان بصوت واحد، هذا لا يكون! يجب أن يكون رأسه عارياً! هتفهم الفارس بصوت خافت ويضع كلمات ضاعت في فراغ خوذته، مؤداها أنه لم يكن راغباً في انزعاجها.

لم يعر الحكمان اعتراضه التفاتاً، إمامن كلفهما بالنظام الجارى، وإما بدافع من الفضول، فانتزعا خوذته بعد أن مزقا وثاقها وأربطة غطاء رقبتة، وعند هذا ظهرت للعيان ملامح منسقة قد لفتها الشمس لشاب في الخامسة والعشرين من عمره، ذى شعر غزير قصير أشقر، وكان وجهه شاحباً كوجره الموتى، عليه آثار خيوط من الدماء في موضع أو اثنين.

لم تكدر رويانا تبصر به حتى أطلقت صرخة خافتة، ولكنها استجمعت قوى إرادتها ثم أكرهت نفسها على أن تترسل في أداء مهمتها، بينما كان جسدها لا يزال يرتجف من فرط انفعالها المفاجيء، ووضعت فوق رأس المنتصر المنحنية ذلك الإكليل الفاخر الذى كان الجائزة المقررة لذلك اليوم، وقالت بصوت قوى واضح:

- إني أمنحك يا سيدي الفارس هذا الإكليل كجائزة التفوق المخصصة لمنتصر اليوم. ثم توقفت لحظة وأضافت برباطة جأش، ليس هناك من جبين أكثر استحقاقاً من هذا الجبين ليتوج به! الإكليل الفروسية هذا، فأحنى الفارس رأسه ولثم يد الملكة الجميلة التى كافأت شجاعته، ثم

أسرف في انحنائه حتى سقط دون حراك تحت قدميها ، فاستولى على الجميع رعب شامل ، وكان سيدريك الذي أخرسته رؤيته المفاجئة لابنه المبعد قد انقض إلى الأمام وكأنه يبغى أن يفصل بينه وبين رويناء، ولكن الحكيم اللذين قد تكمنا بسبب إغماءة أيفانهو ، كانا قد سبقاه إلى ذلك ، إذ أنهما أسرعاً إلى انزاع دروعه فوجدوا أن رأس أحد الرماح قد اخترقت درع صدره ، وأصابته بجرح نافذ في جنبه .



## الفصل الثالث عشر

نودى بصوت عال : « اقربوا أيها الأبطال !  
تقدموا وأبرزوا أنفسكم من بين الجماهير الملتفة بكم ،  
أتم يا من بمهارتكم وقوة رجولتكم  
تستطيعون التفوق على منافسيكم وتستحقون الشهرة .  
فهذه البقرة التي تساوى عشرين ثوراً ستُمنح  
لمن يقذف بقصبتها المجنحة إلى أبعد مدى . »

( الإيابة )

ما كاد اسم « أيفانهو » يذكر حتى تطاير من فم إلى فم بكل ما تدفعه  
اللحفة من إسراع ، وما تلقاه الأذن من عجب ، ولم يمض من الوقت إلا أقله  
حتى وصل إلى محيط الأمير الذي قطب جبينه عندما ترامت إلى سمعه هذه  
الأنباء ، فقال وهو ينظر فيما حوله نظرة ازدراء :

— « سادتي ، وأنت يا سيدي رئيس الدير بوجه خاص ، ماذا ترون  
في المذهب الذي يلقنه إيانا العلماء الخاص بالجاذبية والتناثر الخفيين ؟ أخالني  
أحسست بوجود وصيف أخى حتى عندما أتسكمن بذلك البطل الذي تضمه  
سترة الدروع هذه . » وقال دى برامى الذى خاض المعركة بصورة تدعو  
إلى الفخار ، وقد طرح درعه وخوذته عنقه ، وانضم من جديد إلى  
حاشية الأمير :

— « يجب على فروندييف أن يعد نفسه لرد أملاك أيفانهو وإبيه . »  
وقال والديمار فيتزيرس :

— « نعم ، لاريب فى أن هذا المقدم سيطالب بالقصر والأرض

التي أقطعها إياه الملك ريتشارد ، والتي كان جودكم يا صاحب السمو قد منحها إلى فروندييف منذ ذلك الحين ، فقال يوحنا :

- وإن فروندييف أشد رغبة في التهام ثلاث إقطاعات مثل أرض أيشانو من أن يعيد واحدة منها ، وأما ما عدا ذلك فلن يستطيع أحد هنا أيها السادة أن ينكر على - حتى في منح أملاك التاج للأتباع المخلصين الملتفين حولي ، والذين هم على استعداد للانضمام في سلك الجندية العام ، بدلا من أولئك الذين هابوا على وجوههم إلى بلاد أجنبية ، ولا يستطيعون أداء واجب الولاء أو الخدمة إذا مادعا الداعي .

كان للسامعين نفع عظيم فيما قال ، فأجمعوا على أن للأمير الحق الذي لا ترقى إليه ظلال الشك ، وقالوا :

- أمير كريم ١ - سيد نبيل غاية النبل ذلك الذي يأخذ على عاتقه هكذا واجب مكافأة أتباعه المخلصين .

تفجرت تلك الكلمات من أفواه رجال الجاشية ، وكل منهم يرنو إلى هبات مائة على حساب الأتباع المقربين إلى الملك ريتشارد إذا كانوا حقاً لم ينالوا شيئا منها ، ووافق رئيس الدير أمير أيضاً على الاقتراح بصفة عامة ، ولكنه أشار إلى أن أورشليم المقدسة ، لا يمكن اعتبارها بلداً أجنبياً لأنها الوطن الأم للسيحيين جميعاً ، ثم قال : كيف يمكن للفارس أيشانو أن يطالب بأي كسب مع أنى على ثقة من أن الصليبيين تحت قيادة ريتشارد لم يصلوا إلى أبعد من عسقلان ، وهي مدينة فلسطينية كما يعرف العالم أجمع ، وليس لها من ميزات المدينة المقدسة شيء ؟ .

أما والديمار الذي كان فضوله قد دفع به إلى الذهاب إلى حيث سقط أيشانو ، قد عاد الآن وقال :

- إن هذا الباسل لن يبعث في سموكم قلقاً شديداً ، وسيترك

فروندبييف مطمئن البال مبقياً على ما منح له - إنه مثخن بالجراح . فقال  
الأمير يوحنا :

- ، مهيا كان مصيره فإنه ظافر اليوم . ولو كان عدواً لنا لعشر  
مرات ، أو صديقاً وفاقاً لأخي - وهذه هي الحقيقة - فيجدر بنا أن  
نرعاه ، وسيسهر عليه طيبنا الخاص .

وفيا كان يقول ذلك ، مرت بشفتيه ابتسامة صارمة ، فأسرع والديمار  
فيتزيرس قائلاً إن أيقانوه قد نقل من الميدان فعلاً ، وهو الآن في رعاية  
أصدقائه ، ثم قال :

- ، لقد أملت بعض الشيء عندما رأيت سحابة حزن تمر بوجه ملكة  
الجمال والحب من جراء هذا الحادث الذي أحال فرحة تنويجها يوماً واحداً  
إلى حداد . إنى لست رجلاً تتحرك مشاعره لنحيب امرأة من أجل حبيبها ،  
ولكن اللبدي رويتنا هذه قد دفنت حزنها بين جوانمها على نحو فيه اعتداد  
بالكرامة حتى ما كان لأحد أن يكشف عنه لولا بداها المضمومتان ،  
وعيناها اللتان جفت منهما الدموع ، واللنان كاتنا ترتجفان وتحدقان في  
الجد المدجى أمامها وليس فيه عرق يذبض بالحياة . فقال الأمير يوحنا :

- ، ومن تكون اللبدي رويتنا هذه التي سمعنا عنها الكثير ؟ ،  
فأجاب الرئيس أمير :

- ، إنها وريثة ساكسونية عريضة الثراء ، وردة الجمال ، وجوهرة  
الدلال ، أجزل الحسان بين ألف منهن ، حزمة من المرمر ، وعنقود من  
الكافور ، فقال الأمير يوحنا :

- ، سنمحو عنها آلامها ، ونصلح من دماها بأن نزوجها من أحد  
النورمانديين . إنها تبدو وكأنها لم تبلغ الرشد بعد ، ولذا فينبغي أن  
تكون تحت إمرتنا الملكية فيما يختص بالزواج . ما قولك في هذا يادى

برسى ؟ ماذا ترى في اكتساب أرض طيبة وحياة رغدة بزواجك من ساكسونية على غرار أتباع الفاتح ؟ ، فأجاب دى براسى :

« إذا كانت الأرض هي منى يا مولاي ، فلن أكون إلا مبتهجاً بهذه العروس ، وسأعتبر نفسي مرتبطاً أعمق الارتباط بسموكم إذا أسبغتم على هذه النعمة التي ستحقق كل الآمال التي وعدتم بها خادمكم وعبدكم ، فقال الأمير :

« لن ننسى ذلك ، بل وسأبدأ في هذا العمل على الفور ، وسأمر رئيس خدمنا الآن أن يطلب إلى الليدى روينا ومن معها - أعني وصيها الجاف الغليظ ، والنور الساكسونى الذى طرحه الفارس الأسود أرضاً في أثناء المباراة - الحضور إلى وليمة هذا المساء . ثم خاطب رئيس الخدم قائلاً : « دى بيجو ! أحمل دعوتنا الثانية هذه بكل كياسة إلى هؤلاء الساكسونيين لكي ترضى غرورهم ، وتجعل من المحال عليهم أن يرفضوا تلبيتها مرة أخرى ، هذا مع أن الكياسة مع أمثال هؤلاء - وحق عظام بيكيت - كإلقاء اللآلى أمام الخنازير . »

لم يكذ الأمير يوحنا ينتهى من هذا ، وكان على وشك إعطاء الشارة للانصراف من الميدان حتى وضمت في يده وريقة صغيرة ، فقال الأمير لمن أعطاهها له وهو ينظر إليه :

« من أين ؟ ، فقال الرجل :

« إنها يا مولاي من بلاد أجنبية ، أما من أين فلست أدري . لقد جاء بها إلى هنا رجل فرنسى وقال إنه واصل الليل بالنهار في المسير لكي يستطيع أن يصل بها إلى يد سموكم . »

نظر الأمير يامعان إلى العنوان ثم إلى الخاتم الذى وضع بطريقة تضمن سلامة طيات الغلاف الحريرى الذى يحوى الرسالة ، والذى كان يحمل رسم زنبقات ثلاث ، ثم فضها في اضطراب ظاهر ، تزايد بصورة واضحة ودرجة

فائقة عندما قرأ ما بها ، ولم يكن يحوى أكثر من هذه الكلمات : « خذ نفسك حذرهما فقد أصبح الشيطان طليقاً ، .

وما إن انتهى من قراءته حتى شحب وجهه وأصبح كوجوه الموتى ، وأطرق أولاً ثم نظر إلى السماء كمن تلقى أنباء الحكم عليه بالإعدام ، وبعد أن أفاق من الآثار الأولى للمفاجأة ، اتحنى بوالديمار فيتزيرس ودى براسى جانباً ووضع الرسالة فى أيديهما على التوالى وأضاف بصوت مرتجف : « هذا يعنى أن أخى قد نال حرته ، . فقال دى براسى :

— « قد يكون إنذاراً كاذباً أو رسالة مدسوسة ، . فقال الأمير :

— « كلا ، إنها بخط ملك فرنسا نفسه ومهورة بخاتمه ، فقال فيتزيرس :

— « إذن لقد آن لنا أن نجتمع حزبنا ونعقد مؤتمراً فى مدينة يورك أو أى مكان مركزى آخر ، فبعد أيام معدودات سيكون الأوان قد فات . يجب أن تأمر يا صاحب السمو بيفض هذا المجنون الذى يعيش فيه الآن ، . وقال دى براسى .

— « على ألا ينصرف رجال الطبقة الوسطى والعامّة غاضبين لعدم اشتراكهم فى المباريات ، . وقال والديمار :

— « حتى الآن لم ينقض من النهار إلا أقله . دعوا رماة السهام يصوبون بعض الرميات نحو الهدف ثم تمنح الجائزة للفائز . سيكون فى هذا تحقيق واف لو عود الأمير التى قطعها على نفسه لذلك القطيع من العبيد الساكسونيين ، . فقال الأمير :

— « شكراً لك يا والديمار . إنك بهذا تذكرنى بأن على ديننا بنبغى سداده لذلك الفلاح البذى الذى ألحق بى مهانة بالأمس ، وستمضى ولينتنا قدماً هذه الليلة كما ارتأينا ، ولو كانت تلك آخر ساعة لى وأنا قابض على صولجان

الحكم فسأقضيها في الانتقام والبهجة. دعوا المأمسى الجديدة تأت مع الغدا الجديد.  
عادت أصوات الأبواق تدعو هؤلاء المشاهدين الذين كانوا قد بدأوا  
فعلا في مغادرة الساحة إلى أن يترثوا ، وأعلن أن الأمير يوحنا الذي دعت  
لجأة واجبات عامة عليا وعاجلة قد وجد نفسه مسوقا إلى وقف الألعاب في  
مهرجان الغد، ولما كان على الرغم من ذلك حريصا على ألا تنصرف مثل هذه  
الكثرة من أفراد الشعب الطيبين بغير اختبار لمهارته ، فإنه لما يبعث على  
المسرة في نفسه أن يطلب إليهم قبل مغادرة الساحة أن يقيموا على الفور  
مباراة للرماية بالقوس التي كان مزعماً إقامتها في الغد ، هذا وستمنح الجائزة  
لأكثر رماة القوس مهارة من قرن الحيوان مطعم بالفضة ، وغطاء رأس  
من حرير جميل التطريز ، مزدان بوسام ثمين يحمل صورة القديس هيوبرت  
راعي رياضة الرماية بالقوس .

تقدم للباراة في أول الأمر أكثر من ثلاثين رامياً ، وكان بعضهم من  
حراس غابات نيدوود وشارن وود الملكية ومساعدتهم، ولكن عندما علم  
الرماة بأسماء أولئك الذين سيتنافسون الرماية، ارتد أكثر من عشرين منهم  
غير راغبين في أن يناهض عار هزيمة تكاد تكون محققة ، ففي تلك الأيام  
كانت مهارة كل رام شهير ذائعة في محيطه لأميال عدة ، كما يعرف اليوم رواد  
حلبة نيوماركت ، صفات الجواد الذي يدرّب في تلك الحلبة الشهيرة ،  
وبذا تناقصت قائمة المتسابقين إلى ثمانية فقط .

نهض الأمير يوحنا من مقعده الملكي ، وتقدم ليفحص عن كسب هؤلاء  
الرماة المختارين ، والذين كان الكثيرون منهم يرتدون شعار الخدمة الملكية ،  
وبعد أن أَرْضَى فضوله بهذا التحري ، بحث عن مكان الرجل الذي يريد أن  
يثأر منه ، فوجد أنه مازال واقفاً في المكان ذاته ، وبنفس المظهر الرزين  
الذي كان عليه بالأمس ، فقال الأمير :

— « يارجل ، لقد تضمنت كلماتك النائية عن آداب السلوك أنك لم تكن صادق الحب للقوس الطويل ، وأرى أنك لا تجترى على المغامرة بمهارتك بين رجال مرحين كالواقفين هناك » . فقال الرامي :

— « إذا أذنت لي ياسيدي ، فإن لدى دافعاً آخر يمنعني من الرماية ، بالإضافة إلى خشيتي من الحيبة والعار . فقال الأمير يوحنا الذي كان لسبب أو لآخر لم يستطع أن يعرف كنهه — يحس بكرهية شديدة نحو هذا الرجل :

— « وما هو هذا الدافع الآخر ؟ ، فأجاب رجل الغابة :

— « لأنني لا أعلم إن كان هؤلاء الرماة معتادين على التصويب نحو الأهداف التي أصوب نحوها ، ولأنني بالإضافة إلى ذلك لا أعرف كيف ترضى بإصاحب السموان أن تمنح جائزة نالكة إلى شخص كان سيئاً في إغضابكم ولكن عن غير لحد ، . صعد الدم إلى وجه الأمير يوحنا حين سأله :

— « ما اسمك أيها الرامي ؟ ، فأجاب .

— « لوكسلي ، فقال الأمير .

— « إذن فإنك بالوكسلي ستصوب بدورك عندما ينتهي هؤلاء الرماة من إظهار براعتهم ، وإذا فزت بالجائزة فأضيف إليها عشرين قطعة فضية ، أما إذا أخفقت فسينزع عنك ثوبك الأخضر ، وتضرب بأوتار الأقواس ، ويساق بك إلى خارج الساحة كمدع ثرثار صلف » . فسأله الرامي :

— « وما هي العقبي إذا رفضت الاشتراك في الرماية على مثل هذه الشروط ؟ إن قوة سمومكم — يوازرها كما هو الحال هؤلاء الجنود المدججون بالسلاح — تستطيع في غير شقة أن تنزع عني ثيابي وتضربني ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يكرهوني على الانحناء أو أن أشد قوسي » . فقال الأمير :

— « إذا رفضت هذا العرض الحسن ، فسيقوم المشرف على الملعب

بقطع وتر قوسك ، وتحطيم قوسك وسهامك ، وطردك من الساحة كجبان  
واهن القلب . . قال الراى :

- « إنك أيها الأمير العظيم تزج بي في فرصة غير متكافئة ، وتدفع بي  
قهرأ إلى تعريض نفسى للخطر ضد أمهر من رعى القوس في مقاطعتى ليستر  
وستافورد شاير ، وإلى عقوبة التشهير بي إذا ما انتصروا على ، ومع هذا كله  
فإنى سأرضخ لمشيبتك . . فقال الأمير يوحنا :

- « أرقبوه عن كشب أيها الجنود ، إن قلبه يغوص فـرقاً ، وإنى حريص  
على ألا يحاول الفرار من الاختبار ، وأما أتم أيها الرفاق الطيبون فسددوا  
برجولة . إن هناك في تلك الخيمة ظبية وجرة ملأى بالنبيذ للترفيه عنكم بعد  
فوزكم بالجائزة ، »

وضع هدف بالطرف الأعلى من الطريق الجنوبي المؤدى إلى الساحة ،  
واتخذ الرماة المتسابقون مراكزهم على التوالى في نهاية المدخل الجنوبي ،  
وكانت المسافة بين هذه المراكز وبين الهدف تساوى المسافة الكاملة لتلك  
التي كانت تسمى « الرمية على المتجولين » .

أجرى الرماة فيما بينهم اقتراعاً لتحديد دور كل منهم في المسابقة ، وكان  
على كل منهم أن يطلق ثلاثة سهام على التعاقب ، وكان يقوم على النظام  
ضابط من رتبة أدنى يسمى « ضابط الألعاب » ، لأنه كان مما يحيط من  
شأن حكمى الساحة الرفيع أن يرضيا بالإشراف على مباريات الرماية بالقوس .

تقدم الرماة الواحد تلو الآخر يطلقون سهامهم برجولة وبسالة فأصابت  
عشر سهام من أربعة وعشرين أطلقت على التوالى الهدف في كبده  
والتصقت به ، وكان الأخير شديد القرب منه فاعتبرت الرماية ناجحة  
إذا ما وضعنا بعد المسافة موضع الاعتبار . ومن بين السهام العشرة التي  
أصابت الهدف استقر اثنان في الدائرة الداخلية وقد أطلقهما حارس غابة



في خدمة مالفوازان يدعى هيوبرت ، وتبعاً لذلك فقد أعلن عن فوزه ،  
فقال الأمير يوحنا للرامي الجسور بابتسامة مُرّة :

- « والآن يا لوكسلي ، أتحاول للمرة الأخيرة مع هيوبرت ، أم تسلّم  
قوسك وغطاء رأسك وجمعة سهامك لضابط الألعاب ؟ ، فقال لوكسلي :

- « بما أنه ليس أمامي ما هو أفضل من هذا ، فسأجرب حظي على  
شريطة أني عندما أقذف بسهمين على هدف هيوبرت هذا ، فإنه سيكون  
ملزماً بأن يطلق سهماً واحداً على الهدف الذي أقترحه . فقال الأمير يوحنا :

- « إنه مطالب عادل ولن نأبى عليك هذا ، وأنت يا هيوبرت ، إذا  
ما هزمت هذا المدعى ، فساملاً لك البوق بقطع فضية ، . فقال هيوبرت .

- « إن الإنسان لا يستطيع أن يفعل إلا قدر طاقته ، ولكن جدي  
كان يستعمل قوساً طويلاً طيباً في معركة هاسنجز ، وإني واثق من أني  
لن أدنس ذكراه ، .

أزيل الهدف الأول ووضع مكانه آخر في نفس حجمه ، ولما كان  
لهيوبرت الحق في أن يبدأ بالرماية لأنه ظافر الاختبار الأول فقد أخذ  
يصوب بثوذة بالغة ، ويقيس المسافة بعينه وقتاً طويلاً ، ممسكاً في يده  
بقوسه المشدود ، والسهم معد فوق الوتر ، وأخيراً خطا إلى الأمام خطوة ،  
وعد قوسه إلى أقصى طول ذراعه الأيسر ، وشد وتر قوسه حتى أذنه ثم  
أطلقه فبعث في الهواء صفيراً ، واستقر في الدائرة الداخلية للهدف ولكنه  
لم يصبه في الوسط تماماً ، فقال خصمه وهو يشد قوسه :

- « إنك لم تحسب لهبوب الرياح حساباً يا هيوبرت ، ولو فعلت لكان  
تصويك أفضل ، .

قال هذا ، ودون أن يبدي لوكسلي أي اهتمام بالدقة في تسديده ، خطا

نحو الموضع المحدد وأطلق سهمه في استخفاف ظاهر ، وكأنه لم ينظر حتى إلى الهدف ، وكان يتكلم في نفس اللحظة التي انطلق فيها السهم من وتره ، ومع ذلك فقد استقر داخل الهدف ، وكان أكثر قربا إلى الدائرة البيضاء من المكان الذي استقر فيه سهم هيوبرت . فقال الأمير يوحنا لهيوبرت :

- « بحق نور السماء ، لو تركت هذا الوغد المتمرد ينتصر عليك فإنك تستحق الشنق ، .

لم يكن لدى هيوبرت سوى نوع واحد من الحديث بقوله في كل حين « لو أنك أمرت بشنقي يا صاحب السور ، فإنني أقول لك إن المرء لا يستطيع أن يفعل إلا قدر طاقته ، ومع ذلك فقد كان جدى يحسن شد الأقواس ، فقاطعه يوحنا :

- « لعنة الشيطان على جدك وسلالته كلها . سدد أيها الوغد ، و صوب بأكثر مما تستطيع من حذق ، وإلا فالويل لك ، .

بعد هذا الأمر عاد هيوبرت إلى موضعه ، وفي هذه المرة لم يحمل النسيحة التي أسداها إليه خصمه في تقديره للريح التي كانت قد هبت لتوها هبوبا ناعما ، ثم أطلق رمية موفقة فأصاب سهمه الهدف في كبده ، فهتفت الجماهير بحماس للرجل المعروف أشد من حماسها للرجل الغريب قائلة « هيوبرت ا هيوبرت ا ا في كبد الهدف ا في كبد الهدف ا هيوبرت إلى الأبد ، . وقال الأمير بابتسامة مهينة : .

- « أنت لا تقوى على أن تطلق مثل هذه الرمية بالوكسلي ، . فأحاب لوكسلي :

- « ومع ذلك فإنني سأشطر له سهمه ، .

وعند هذا أطلق سهمه بعناية تفوق ما كانت عليه في المرة السابقة

فأصاب سهم منافسه وأحاله إلى شظايا ، وبلغ من ذهول الجماهير المحيطة بها لهذه المهارة الخارقة حداً جعلها لا تقوى حتى على أن تعبر عن دهشتها بهتافها العادى ، وتهامس الرماة فيما بينهم قائلين :

— « هذا هو الشيطان بعينه . إنه ليس بشراً من دم ولحم . لم ير أحد قط رماية كهذه منذ أن عرف الناس القوس في بريطانيا ، . وقال لوكسلي :

— « والآن سأطلب منك الإذن يا صاحب السمو بوضع هدف مثل ذلك الذى يستعمل فى المقاطعات الشمالية ، ومرحبا بكل رام شجاع يستطيع أن يصيبه لكى يحظى بابتسامة من حبيته الجميلة ، . ثم استدار لمغادرة الساحة وأتبع قائلاً :

— « دع حراسك يلازمونى إن شئت . سأذهب لأقطع غصنا من أقرب شجرة للصفاف ، . فأشار الأمير إلى بعض رجاله لكى يتبعوه خشية أن يهرب ، ولكن الصيحات التى انبثقت من أفواه الجماهير وهى تقول « يا للعار ! يا للعار ! » جعلته يغير من هدفه الذى لم يكن كريماً .

لم يلبث لوكسلي أن عاد بهن من الصفاف يبلغ طوله حوالى ستة أقدام ، كامل الاستقامة وأكثر سمكا من إبهام رجل بقليل ، وبدأ ينزع عنه قشوره بثوذة شديدة ، ملاحظا فى نفس الوقت أنك لكى تطلب من رجل غاية ماهر أن يصوب نحو مثل ذلك الهدف العريض الذى استعمل قبل ذلك ، فإنك إنما تلاحق به وصمة عار ، وقال إنه من ناحيته وفى الأرض التى نشأ فيها ، يرى أن هذا الهدف الذى سبق لهم أن صوبوا نحوه ليس إلا كماندة الملك « آرثر » المستديرة التى كان فى استطاعة ستين فارساً أن يجلسوا حولها ، ثم أتبع قائلاً . إن طفلاً فى السابعة من عمره يستطيع أن يصيبه بسهم بلا رأس ، وأضاف وهو يسير الهويناً نحو الطرف الآخر من الميدان ويرشق غصن الصفاف فى الأرض ، إن من يصيب هذا الغصن

على مبعده مائة ياردة ، فإني أعتبره رامى قوس جدير بأن يحمل القوس والجبعة أمام ملك حتى ولو كان الملك رينشارد نفسه . فقال هيوبرت :

— « كان جدى يحسن شد القوس فى معركة هاسنجز ، ولكنه لم يسدد قط نحو مثل هذا الهدف طيلة حياته كما لن أفعل أنا أيضاً ، وإذا استطاع هذا الرامى أن يشق هذا الغصن ، فإني أعترف له بالغبلة — أو بمعنى أصح ، أعترف للشيطان الذى يتقمص جسده ، لأن هذا العمل لن يكون من فعل البشر . إن الإنسان لا يستطيع أن يفعل إلا قدر طاقته ، ولن أرمى عندما أكون واثقاً من أن السهم سيطيش . إنه لمن الأوفى لى إذن أن أسدد نحو طرف عصا قسيبنا ، أو قشة قمح ، أو شعاع شمس ، أو خط راقص أبيض لا أستطيع أن أميزه . » فقال الأمير يوحنا :

— « إنك كلب جبان ! هيا أيها السيد لوكلى ، وإذا أصبت هذا الهدف فإني أقر بأنك أول رجل يأتى بمثل هذا العمل . ومهما يكن من شيء ، فيجب ألا تزهر علينا بمجرد الادعاء بمهارتك الفائقة . » فقال لوكلى .

— « سأحاول قدر جهدى كما يقول هيوبرت ، والمرء لا يستطيع أن يفعل إلا قدر طاقته . »

وبعد أن قال هذا ، شد قوسه من جديد ، ولكنه فى هذه المرة فحس سلاحه فحساً دقيقاً ، واستبدل الوتر بأخر لأنه خيل إليه أنه غير كامل الاستدارة ، وأنه قد تأثر بعض الشيء من الرميّتين السابقتين ، ثم صوب سهمه برزانة ، بينما كانت الجماهير ترقب الحدث فى صمت لطف وقد احتبست أنفاسها . كان الرامى عند حسن ظنهم إذ أنه أطلق السهم نحو عود الصفصاف فشَطَطَ رَهْ ، فاستنبح ذلك سبل من الهتافات الهدوية ، وحتى الأمير يوحنا فقد نفّض عن نفسه غبار كراهيته له لعدة لحظات فى غمرة من إعجاب به مهارته وقال :

« هذه القطع الفضية العشرون التي نلتها عن جدارة ، وهذا البوق كذلك ، قد أصبحت ملكاً لك ، وسنزيدها إلى خمسين إذا ما ارتديت زينا والتحقت بخدمتنا كرام للسهام في حرسنا الخاص وتكون بالقرب مني ، فوالله ما حدث يد قبل اليوم قوساً بمثل هذه القوة ، ولا صوبت عين سهماً بمثل هذه الدقة ، . فقال لو كسلي :

« أستمحك عذراً أيها الأمير النبيل لأنني أقسمت على ألا ألتحق بخدمة إنسان حتى ولو كان أخاك الملكي الملك ريتشارد . إنني أدع هذه القطع الفضية العشرين لهيوبرت الذي شد قوسه اليوم بنفس البسالة التي جذب بها جده القوس في معركة هاسنجز ، ولو لم يحمل تواضعه دون الاشتراك في هذه المباراة الأخيرة لأصاب الغصن كما أصبته ، .

ولكن هيوبرت هز رأسه رافضاً هبة الغريب بإباء ، أما لو كسلي الذي كان راغباً في الاختفاء عن الأنظار العالقة به ، فقد اندس بين الجماهير ولم يعد أحد يراه ، ومن المحتمل أن يكون من العسير على رامي السهام الإفلات من مراقبة يوحنا له بمثل هذه السهولة لو لم يكن في تلك اللحظة في شغل عنه بأمور داعية إلى القلق والفكر العميق التي تزاخت على ذهنه ، ونادى على رئيس حراسه عندما كان يعطى الإشارة لإخلاء الساحة وطالب إليه أن يمنطى سهوة جواد وينطلق على الفور إلى آشي ويبحث عن إسحق اليهودي ، وقال :

« قل لذلك الكلب اليهودي بأن يبحث لي قبل مغرب الشمس بالنفي قطعة ذهبية . إنه يعرف الضمان ، ولكنك تستطيع أن تظهر له هذا الخاتم كدليل على أنك مبعوث من قبلنا ، أما باقي النقود فينبغي أن يدفعها في مدينة يورك في غضون ستة أيام ، وإذا تواني فسأطيح برأس ذلك الشرير الكافر ، واحرض على ألا تمر به في الطريق لأن هذا العبد الذليل كان يزهو علينا بحلبه المروقة ، .

وما إن انتهى من قوله حتى امنطى جواده عائداً إلى آشي وتفرق الحشد كله إثر انصرافه .

## الفصل الرابع عشر

كانوا يرتدون ثيابا فاخرة ولكن لا أثر للذوق فيها  
عندما كانت الفروسية القديمة تعرض  
عظمة ألعاب البطولة ،  
وكان الرؤساء بخوذاتهم والسيدات بأوشحتهن  
يتجمعون عندما يدعو النفير  
في قاعة مرتفعة ذات أقبية بأحد القصور العريقة .

( وارنون )

كان الأمير يوحنا يقيم حفله الفاخر في قصر آشي ، وهو البناء الذي  
لا تزال أطلاله الشاححة تستهوي المسافر ، وكان قد شيده «لورد هاسنجز» ،  
كبير أمناء القصر الملكي الإنجليزي ، وأحد الضحايا الأوائل لعسف  
ريتشارد الثالث الذي طغت شهرته كأحدى شخصيات شكسبير على شهرته  
التاريخية ، وكان القصر ومدينة آشي في ذلك الحين ملكا لروجر دي  
كوينسي إيرل أوف وينشستر الذي كان غائبا في الأراضي المقدسة في أثناء  
أحداثنا هذه ، وكان الأمير يوحنا في ذلك الوقت يحتل قصره ويبعث  
بممتلكاته دون أن يلذعه ضميره ، ولما كان يهدف في ذلك الوقت إلى أن  
يهر أبصار الرجال بكرم وفادته وأهته ، فقد أصدر أوامره ليعدوا هذا  
الحفل إعدادا هائلا لكي يصبح آية في الروعة .

كان القائمون على إمدادات الأمير يستخدمون السلطة الملكية كاملة في مثل  
هذه المناسبة وفي غيرها ، فجردوا المنطقة من كل ما استطاعوا إحضاره بما  
يتلام ومائدة مولايم . دعى إلى هذا الحفل ضيوف كثيرون ، ولما كان

يوحنا مسوقا إلى السعى وراء محبة الشعب له ، فقد شملت دعوته بعض الأسر الساكسونية والدنماركية المعروفة ، كما أنه لم يغفل دعوة النبلاء النورمانديين والسادة المتأخرين له ، ومهما بلغ من ازدياد الأمير للإنجليز ساكسونيين في الظروف العادية وإلحاق المهانة بهم ، فإن أعدادهم الوفيرة قد جعلتهم بالضرورة قوما ذوي أهمية قصوى في الأحداث الداخلية التي كانت تبدو وشيكة الوقوع ، وفي كسب تأييد زعمائهم في النواحي السياسية العامة ، ولذا فقد كان في عزم الأمير - الذي سلكه إلى حين - أن يعامل هؤلاء الضيوف المبرزين معاملة وادعة لم يألّفوها من قبل ، وعلى الرغم من مقدرته - بدون صحوة من ضميره - على إخفاء مشاعره وطباعه العادية ابتغاء الوصول إلى مأربه ، فقد كان من سوء حظ هذا الأمير أن طيشه واندفاعه كانا دائما ينتصران على هذا السلوك المصطنع ، ويفسدان عليه كل ما كان قد اكتسبه بسابق نفاقه ، وقد ضرب مثلا لا ينسى على هذا الخلق العنيف في إيرلندا ، وعندما أرسله والده هنري الثاني إليها لكي يستميل آراء أهالي تلك البلاد الهامة التي ضمت حديثا إلى التاج البريطاني ، حيث قامت بين رؤساء العشائر الإيرلندية منافسة على من سيكون له السبق في تقديم الولاء وقبلة السلام للأمير الشاب ، ولكن بدلا من أن يتقبل الأمير ولاءهم في تهنيتهم ، فإنه وأتباعه الطائشين لم يستطيعوا أن يقاوموا إغراء جذب لحي الزعماء الإيرلنديين المترسلة ، وهو سلوك أثار حفيظة أولئك الرؤساء الذين لحقت بهم المهانة كما كان منتظرا ، مما أدى إلى عواقب وخيمة لحقت بالحكم الإنجليزي في إيرلندا ، وإنه لمن الأهمية بمكان أن نضع أمام القارىء تلك السوات في طبائع يوحنا حتى يستطيع أن يتفهم سلوكه في هذا المساء .

استقبل الأمير يوحنا كلا من سيدريك وأثيلستين بحفاوة بالغة تنفيذيا للعرض الذي كان قد انتواه ساعة هدوه فكره وصفاته ، ولم يبد على وجهه

الضيق عندما خاب أمه في حضور رويانا، إذ أن أولهما قد اعتذر عن تلبيتها لدعوته الكريمة لإصابتها بوعكة . وكان سيدريك وأثيلستين كلاهما يرتدى الزى الساكسوني القديم الذي كان قبيحا في مظهره ولا يتلاءم مع العصر ، ومع أنه مصنوع من خامات ثمينة ، إلا أنه كان متخلفا عن أزياء الآخرين إلى حد أن الأمير يوحنا ومعه والديمار فيتزيرس قد وجدا مشقة كبيرة في الإمساك عن الضحك لمظهرهما الذي كان طراز ذلك العصر يجعله مضحكا حقا ، ومع ذلك فإن السترة الضيقة القصيرة والعباءة الساكسونية تعتبران من وجهة نظر الحكم السليم رداء أكثر رشاقة وملاءمة من زى انورمانديين الذين كان ثوبهم الداخلى عبارة عن قميص طويل يشبه قميص سائق عربات النقل، مغطى بعباءة قصيرة لا تصلح لوقاية مرتديها من البرد أو المطر ، ويبدو أن الغرض الوحيد من ارتدائها هو إبراز أكبر قدر من الفراء والتطريز ، وأعمال الصياغة التي يستطيع الحائك أن يزينها بها . ويبدو أن الأمير شارلمان الذي مصممت هذه الملابس في عهده لأول مرة ، كان شديد الحساسية نحو المضايقات الناجمة عن طراز هذا الملابس ، إذ أنه قال يوماً بحق السماء : أى غرض تنى به هذه العباءات القصيرة ؟ إنها لا تصلح دثاراً لنا في المضاجع ، ولا وقاء من الهواء والمطر إذا كنا على متنون الجياد ، ولا تحمى سيقاننا من الهواء الرطب أو البرد إذا كنا قعداً ، .

ولكن على الرغم من هذا النقد الإمبراطوري ، فإن طراز تلك العباءة القصير ظل شائعاً حتى ذلك الوقت الذي نتحدث عنه الآن وخاصة بين أمراء ديت أنجو ، ، ولذا فقد كان استعمالها عاماً بين رجال بلاط الأمير يوحنا ، وكانت العباءة الطويلة التي يتكون منها الرداء الخارجى للساكسونيين مثار سخرية لاذعة .

كان المدعوون جالسين على مائدة تثن من ثقل ما تحمل من طعام وشراب، وقد أخرج الطهاة الكثيرون الذين أعدوا الوليمة كل ما في جعبتهم من فن في تغيير أشكال الأطعمة العادية ، وقد نجحوا في إبراز ذلك وكانهم



أساتذة محدثون في فن الطهي الذين يجعلون هذه الأطعمة مختلفة الأشكال والألوان عن مظهرها العادي ، وإلى جانب تلك الأطباق المحلية ، كانت هناك أغذية شبيهة مستوردة من بلاد أجنبية ، وفتائر دسمة ، وأنواع من الخبز والكعك التي لم تكن لتوضع إلا على موائد أرقى النبلاء، هذا وكانت الوليمة متوجة أيضاً بأغزر الأبنذة الأجنبية والمحلية .

ورغم أن النبلاء النورمانديين كانوا مترفين ، إلا أنهم لم يكونوا بوجه عام سلاطة مفرطة ، فبينما كانوا منغمسين في ملاذ الطعام إلا أنهم كانوا يتجنبون الإفراط فيه ، وكانوا يميلون إلى أن ينسبوا النهم في الطعام والإغراق في الشراب إلى الساكسونيين المهزومين ، باعتبار أنها تقيصتان تتلاءمان مع مقامهم الوضيع .

حقاً كان الأمير يوحنا وأولئك الذين يسعون إلى أن يحفظوا برضاه بالنسج على منوال نقائصه نزاعين إلى الانتماس بل والإغراق في شهي الطعام والشراب . وتما هو معلوم حق العلم أن الإفراط في تناول الخوخ والجمعة الجديدة كانا سبباً في وفاته . وعلى أي حال فقد كان في خلقه شذوذ لا يتفق مع السلوك العام لمواطنيه .

كان الفرسان والنبلاء النورمانديون جالسين في وقلر مصطنع لا تتخلله سوى شارات خاصة فيما بينهم ، يشاهدون نهم أئليستين ، وسيدريك في أثناء هذه الوليمة التي لم يألفا منظرها ونظامها من قبل ، وبينما كان سلوكها هذا موضع نقد ساخر ، فإن الساكسونيين الجاهلين كانا يأتیان عن غير عمد بمخالفات عديدة للقواعد الصارمة الموضوعة لتنظيم المجتمع ، والآن فإنه من المعروف جيداً أن المرء قد يكون موضع نقد لارتكابه خطأ يتنافى مع التربية العالية ، أو الخلق الرفيع أكثر مما لو بدا جاهلاً بأبسط قواعد السلوك ، ولذا فإن سيدريك الذي جفف يديه بمنشفة بدلا من أن يتركها لرطوبة الجو لتجففهما بتحريكهما برشاقة في الهواء ، قد أصبح أكثر تعرضاً

للخيرية من رفيقه أتيلستين ، عندما ازدرد كعكة كبيرة بأكلها مصنوعة من أشهى المطايب الأجنبية ، وكانت تسمى في ذلك الوقت « بكعكة كاروم » ، ولكن عندما استبان له - نتيجة لاستجواب جاد - أن البارون كوننجزبره ( أو الفرانكلين كما كان النورمانديون يسمونه ) ما كان يعرف شيئاً عما كان يلتمهه ، وأنه ظن أن كعكة كاروم كانت تحتوى على قنابر ( سمان ) وحمم بينما هي في الحقيقة محشوة بالعصافير والبلابل ، فقد كان جهله هذا سبباً في أن يناله قسط كبير من السخرية التي كان يستحق منها المزيد بسبب نهمه .

وأخيراً انتهى الحفل الطويل ، وبينما كانت الكئوس تدور في إفراط ، كان الرجال يتحدثون عن المباراة السابقة ، وعن المنتصر المجهول في مباريات الرماية بالقوس ، وعن الفارس الأسود الذي دفعه إنكار ذاته إلى التخلي عن المجد الذي حققه ، وعن أيفانهو الباسل الذي دفع لفخار ذلك اليوم ثمناً غالياً ، وكانت الأمور تناقش بصراحة عسكرية ، والمداعبات والضحكات تسرى في كل جنبات القاعة ، وكان الأمير يوحنا وحده مقطب الجبين طوال هذا النقاش وكان ذهنه فريسة لموم قاتلة ، ولم يبد عليه الاهتمام بما يجري من حوله إلا إذا ما تلقى تلميحات عديدة من أتباعه ، فيجفل ويجرع قدحاً من النبيذ وكأنه يريد أن يرفع من معنوياته ، ثم يشترك في الحديث بملاحظة مقتضبة ، أو كلمة لا تمت إلى الموضوع بصلة ، وقال :

- « إننا نشرب هذا نخب ويلفريد أوف أيفانهو بطل « عمر السلاح ، ونأسف لمغيبه عن مائدتنا بسبب جراحه ، لنشرب جميعاً هذا النخب وبخاصة سيدريك أوف روبرود الأب الفاضل مثل هذا الابن الذي يرجى له مستقبل زاهر ، فقال سيدريك وهو ينهض ويضع كأسه على المائدة دون أن يتذوق منه قطرة :

- « كلا يا مولاي ، إن لا أعتبر هذا الشاب العاق ابناً لي لأنه لا يعبا

بأوامري ، ويتخلى عن عادات آبائه وتقاليدهم ، فصاح الأمير يوحنا وهو يدعى الدهشة بمهارة :

— « هل يكون مثل هذا الفارس الشجاع ولداً عاقاً خارجاً على طاعتك؟ »  
فأجاب سيدريك :

— « ومع ذلك يا مولاي فهذه هي حالة ويلفريد . لقد ترك منزلي المتواضع البسيط ليختلط بالنبلاء الما جنين في بلاط أخيك حيث تعلم أفانين الفروسية التي تقدرونها أبلغ تقدير — لقد رحل عنه على غير مشيتي وأمرى ، وكان هذا العمل يعتبر عقوقاً في أيام الملك ألفريد — نعم وجريمة يعاقب عليها أشد العقاب . » فقال الأمير بزفرة عميقة فيها عطف متكلف .

— « يا لأسنى : بما أن ابنك كان من أتباع أخى التعس ، فلاحاجة بنا إلى السؤال عن أين أو على يد من تلقن درس العقوق البنوى . »

هكذا تحدث الأمير يوحنا ناسياً عن عمد أن من بين جميع أبناء هنرى الثانى الذين لم يكن واحد منهم براء من هذه النقيصة ، من هو أشد منه تمرداً على أبيه ووجوداً له . ثم قال بعد أن توقف لحظة ، « أظن أن أخى كان يتوى أن يهب أرض أيقانهاو الثمينة الفارسه المفضل ، »  
فأجاب سيدريك :

: « لقد منحه نفس الممتلكات التي كانت لأبائه بمقتضى حقهم الحر المستقل ، وكل خلاف شجر بينى وبين ولدى كان بسبب انحنايه كتابع لإقطاعى . » فقال الأمير يوحنا :

— « إذن فسحصل ياسيدريك ، أيها الرجل الجليل ، على موافقتك بأن نهب هذه الأرض لشخص لن تنقص من كرامته حوزته لأرض يمتلكها التاج البريطانى . » ثم التفت ناحية سير ريجنولد فروندييف النبيل

وقال له : « إنى لعلى ثقة من أنك ستحتفظ بأرض أيشانو الطيبة حتى لا يتعرض سير ويلفريد لغضب أيه إلى أكثر من هذا إذا ما وطأها مرة أخرى ، . فأجابه العملاق ذو الجبهة السوداء :

- « أقسم بالقديس أنطوني على أنى لن أبى على نفسى يا صاحب السموبان تلقبونى بالساكسونى إذا ما اتزع منى سيدريك أو ويلفريد أو أفضل من تجرى فى عروقه الدماء الإنجليزية تلك الهبة التى كرمتمونى سموكم بمنحى إياها ، . فقال سيدريك وقد ساءه هذا القول الذى كان النورمانديون كثيراً ما يعربون به عن ازدرائهم الطبيعى الإنجليز :

- « إن من يلقبك بالساكسونى ياسيدى البارون ، إنما يضى عليك شرفاً عظيماً لست أهلاً له ، .

كان فرونديبيف على وشك الإجابة ، ولكن الزمام قد أفلت من الأمير من جراء نزقه وطيشه فقال :

- « حقاً أيها السادة، إن سيدريك النبيل لم يقل إلا صدقاً، ويستطيع جنسه أن يفخر لأنه يفوق آباءنا فى عراقة الأنساب وطول العباءات ، . وقال ما لفوازان :

- « إنهم يسبقوننا حقاً فى ميدان القتال - كالظباء أمام كلاب الصيد ، . وقال أمير رئيس الدير :

- « ومن حقهم أن يتقدمونا . لا تنسوا ما يتحلون به من لياقة وخلق رفيع ، . وقال دى براسى ناسياً ذلك المشروع الذى سيكتسب به عروساً ساكسونية :

- « وما يتصفون به من عفة وقناعة عجيبتين ، . وقال بريان دى بواجيلبرت :

— هـ هذا بالإضافة إلى الشجاعة والسلوك اللذين امتازوا بهما في هاسنجز  
وفي كل مكان آخر . . .

وبينما كان رجال البلاط بوجناتهم الملساء وشفاههم الباسمة يحذون  
حذو أميرهم ، ويطلق كل واحد منهم بدوره سهماً ساخراً نحو سيدريك ،  
إذ بوجه الساكوني يشتعل غضباً ، ويدور بعينه في شراسة فيما بينهم الواحد  
تلو الآخر ، وكان هذه الكثرة من الممانات المتعاقبة ، قد أوقفته عن الرد  
على كل واحدة بدورها ، أو ربما كان كالثور المحاصر الذي إذا ما أحاط  
به معذوبه ، فإنه يجد نفسه في حيرة أيهم يختار كهدف مباشر لانتقامه ،  
وأخيراً نطق بصوت يكاد يختنق من فرط الغضب ، وخص الأمير بالقول  
لأنه رأى فيه رأس الإساءة وجبهة الهجوم اللذين لحقا به :

— هـ مهما كانت حماقات بني جنسنا وخلقه الذي يتسم بالرذيلة فإن  
الساكوني الذي يعامل ضعيفاً مسالماً ، أو يسمح بمعاملته في قاعته  
— والكأس تدور فيها — بمثل المهانة التي رأيتهموني يا صاحب السمو وأنا  
أتعرض لها اليوم ، ليستحق أحظ المراتب عاراً مهياً كان حظ آبائنا عاراً  
في معركة هاسنجز . فليصمت هذان الرجلان على الأقل ، وهنا نظر  
إلى فرونديبيف وفارس المعبد وأتبع قائلاً ، اللذان سقطا منذ ساعات  
قليلة مضت مرة ومرة ومرة من فوق سرجيهما وركابيهما أمام ربح أحد  
الساكونيين . .

فقال الأمير يوحنا :

— هـ أقسم بيقيني أن هذه دعاية لاذعة ! كيف ترضون عن ذلك  
ياسادة ؟ إن الروح المعنوية لرعايانا الساكونيين ترتفع ، وشجاعتهم تزايد  
ويصبحون لاذعي السخرية نوى سلوك جرى في هذه الأوقات التي  
يسودها القلق والاضطراب .

ماذا ترون أيها السادة؟ قسما بهذا النور الطيب إنه من الأوفى لنا أن نشد رحلتنا، فنأخذ سفننا ونعود إلى نورمانديا قبل فوات الأوان، . فقال دى براسى ضاحكا :

— « أنفعل ذلك خوفا من الساكسونيين؟ لن يعوزنا من السلاح إلا رماح الصيد لكي نعيد هؤلاء الخنازير إلى حظائرهم، . فقال قزيرس :

— « كفوا عن سخريتكم أيها الفرسان، ثم أضاف يخاطب الأمير « إنه لمن الأفضل يا صاحب السمو أن تؤكدوا سيدريك المجل أن هذه الدعابات التي آذت سمع رجل غريب لم يقصد بها مهاتته بحال، . فقال يوحنا وهو يعود إلى رقيق معاملته :

— « مهاتة! إني واثق من أنه لا يدور بخلد أحد بأنى أهداف أو أسمح لأحد بأن يلحق أية مهاتة بكاثن ما في حضرتي، فلنشرب هذا النخب! هاأنذا أملاً قدحى نخب سيدريك طالما أنه يرفض أن يشرب نخب ولده، .

دارت الأقداح بين هتاف رجال البلاط المصطنع الذي فشل مع ذلك في أن يترك في ذهن الساكسوني ذلك الأثر الذي كانوا يهدفون إليه، ولكن أولئك الذين خيل إليهم أن هذه التحية المملقة قد تمحو عنه الشعور بالإهانة السابقة، لم يسبروا غوره تماماً، ولكنه رغم ذلك ظل صامتا لا ينطق عندما دار النخب الملكي مرة أخرى « إلى سير أبلستين أوف كوتنجزبره، . فانحنى الفارس معرباً عن تقديره لهذا الشرف باحتسائه قدحاً مترعاً رداً عليه . فقال الأمير يوحنا الذي بدأت الخمر التي جرعتها تلعب برأسه . « وبعد أن كرمنا ضيوفنا الساكسونيين فاننا نطالبهم بالعوض عن حفاوتنا — ذلك إذا أذنوا — ، ثم أضاف مخاطباً سيدريك

« هل لنا أن نرجوك أيها السيد المجل أن تذكر لنا اسم شخص نوره اندى يعتبر ذكره أقل تلويثاً لسمعك ، ثم بعد ذلك تغسل بقدرح من النبيذ كل المرارة التى يخلفها ذكر هذا الاسم . »

نهض فينزيرس فى أثناء حديث الأمير يوحنا ، وتسلل إلى مقعد الساكسونى، ووقف من خلفه ثم همس فى أذنه قائلاً له بالألا يدع الفرصة لإنهاء العداء القائم بين الشعبين تفلت ، وذلك بأن يذكر اسم الأمير يوحنا ، إلا أن الساكسونى لم يستجب إلى هذا الإيعاز السياسى، بل نهض وملاً قدحه حتى أترعه ، ثم خاطب الأمير يوحنا قائلاً :

— « لقد طلبتم يا صاحب السمو أن أذكر اسم نورماندى جدير بنا أن نتذكره فى حفلنا هذا ، ويبدو لى أن هذا عمل شاق لأنه يلزم العبد بأن يتغنى بمدح سيده ، والمهزوم بأن يترنم بسجايا الفاتح وهو ينوء تحت ثقل كل سوات الغزو ، ومع ذلك فسأذكر اسم أحد النورمانديين — المجلى فى السلاح وفى المرتبة — أقوى بنى جنسه خلقاً ونبلاً . إنى أصف تلك الشفاه التى تآبى أن تشاركنى نخب شهرته التى نالها عن جدارة ، بأنها كاذبة مرآية وضبعة ، ولن أكف عن نعمتها بتلك الصفات حتى ولو كلفنى ذلك حياتى . إنى أحنى هذه الكأس نخب ..... ريتشارد قلب الأسد ، »

جفل الأمير يوحنا الذى كان يتوقع أن يختم الساكسونى قوله بذكر اسمه هو بدلاً من أن يفجأه بذكر اسم أخيه ، ورفع كأس النبيذ إلى شفثيه على صورة لا إرادبة ، ثم أعادها على الفور إلى المائدة لى يرى سلوك الحاضرين عند سماعهم لذلك الاقتراح المفاجئ الذى أحس الكثيرون منهم بأنه من الخطورة بمكان أن يعترضوا عليه أو يقروه . أما رجال البلاط القدامى الذين حنكتهم التجارب فقد حاكوا الأمير فيما فعل ، ورفعوا

أقداحهم إلى أفواههم ثم أعادوها ثانية إلى المائدة ، وصاح الكثيرون بشعور  
يفيض حماساً ، عاش الملك ريتشارد ، فليعد إلينا سريعا ، ،

كان قليلون ، ومن بينهم فروند بييف وفارس المعبد، قد تركوا أقداحهم  
على المائدة دون أن يتذوقوها تعبيراً عن ازدرائهم الصامت ، ولكن  
ما اجترأ أحد على أن يرفض نخب الملك الجالس على العرش رفضاً مباشراً.  
وبعد أن تذوق سيدريك لذة انتصاره لمدة دقيقة ، قال لرفيقه :

— « انهض أيها النبيل أثيلستين ، لقد قضينا هنا وقتاً كافياً حيث أو فينا  
ما علينا من دين نحو كرم ضيافة الأمير يوحنا في حفله هذا ، أما أولئك  
الذين يريدون أن يعرفوا المزيد من طبائعا الساكسونية الخشنه ، فاعليهم  
أن يبحثوا عنا في دور آباتنا حيث إننا قد شاهدنا الكفاية من الحفلات  
الملكية ومن الحفاوة النورماندية . »

وبعد أن انتهى من قوله ، نهض ثم غادر قاعة الحفل يتبعه أثيلستين  
وبعض المدعوين الآخرين الذين كانوا من دمهم الساكسوني ورأوا أن  
المهانة قد لحقت بهم من سخريه الأمير يوحنا ورجال بلاطه ، فقال الأمير  
يوحنا وهم يتأهبون للخروج :

— « أقسم بعظام القديس توماس أن الساكسونيين الحقى قد أحرزوا  
أحسن انتصارات اليوم ، وانصرفوا ظافرين . » فقال رئيس الدير آيبر :  
— « لقد شربنا وأثرنا صخبا ، وآن لنا أن نترك زجاجات النبيذ . »  
وقال دى براسي :

— « لا بد وأن لدى الراهب تائبة جميلة ستلئى إليه الليلة باعترافها ،  
ولذا فهو يتعجل الرحيل . » فقال رئيس الدير :



- « ليس الأمر كما تقول ياسيدى الفارس ، فإن على أن أقطع الليلة أميالا عديدة في عودتى إلى دارى ، وهمس الأمير فى أذن فيتيريس :  
- « هاهم أولاء ينصرفون خوفا من وقوع هذا الحدث ، ذلك الراهب الجبان هو أول من يزورك عنى ، فقال والديمار .

- « لا تخش شيئا يامولاي ، سأوضح له أسبابا تدفعه إلى الانضمام إلينا عندما ن عقد اجتماعنا فى مدينة يورك ، ثم استتبع قائلا ، يجب أن أتحدث إليك ياسيدى رئيس الدير حديثا خاصا على انفراد قبل أن تمتطى جوادك ، .

كان المدعون الآخرون قد بدأوا يتفرقون على عجل ما عدا أولئك المتمين بصفة مباشرة إلى حزب الأمير يوحنا ورجال حاشيته ، فقال الأمير وهو يدير وجهه غاضبا نحو فيتيريس :

- « هاهى ذى نتيجة نصحك لى . لقد ألحق بى ذلك الساكسونى الجفاف الثمل مهانة على مائدتى . وهاهم هؤلاء الرجال ينفذون من حولى إذا ما ذكر اسم أخى وكأنى مصاب بالجذام ، فأجاب مستهماره :

- « تجمل بالصبر ياسيدى . لنى أستطيع أن أرد على اتهاماتكم ، وأوجه التقريع واللوم إلى الطيش الذى لا يقدر العواقب ، والذى أفسد على خطى وأضل ثاقب رأيكم ، وعلى أى حال فليس هذا وقت العتاب . سأذهب على الفور ومعى دى براس إلى أولئك الجبناء المخاتلين ، ونقنعهم بأنهم قد تراجعوا إلى أبعء الأمام ، . فقال الأمير يوحنا وهو يذرع الغرفة بخطوات قلقه ، ويتكلم فى ثورة كانت الخمر التى احتساها من بواعثها :

- « ستهب جهودك عبثا ! ستهب جهودك عبثا ! لقد شاهدوا

الكتابة على الجدار ! لقد رأوا أثر مخلب الأسد في الرمال ! لقد سمعوا  
زئيره المقترب يهز الغابة ! ليست هناك من قوة تستطيع أن تبعث الشجاعة  
فيهم من جديد . . فقال فبتزيرس لدى برامى :

— د إني لأدعو الله أن يكون هناك ما ينفث روح الشجاعة في الأمير  
نفسه ! إن مجرد ذكر اسم أخيه يبعث الرعدة في أوصاله . تعساء هم مستشارو.  
أمير يطلب الصمود والدأب على الخير والشر على السواء . .

## الحصل الخامس عشر

ومع ذلك فهو يظن — هاهاهاهاها - يظن  
أنى أداة وخادم لتنفيذ مشيئته ،  
حسنا ! فليكن — فمن تناياكل الحيرة فى العُقد  
التي تنجم عن مؤامراته واضطهاده للوضع  
سأشق لنفسى طريقا إلى أشياء أكثر رفعة  
ومن ذا الذى يقول إن فى هذا يكمن الخطأ ؟

( بازيل — تراجيدا )

ما من عنكبوت أجهد نفسه فى إصلاح خيوط شبابه الملهمة أكثر مما  
فعل والديمار فيتزيرس فى جمع الشمل بين أفراد عصابة الأمير يوحنا المبعثرين  
هنا وهناك والتوفيق بينهم ، والقليلون منهم هم الذين كانوا ينصاعون له عن  
ميل ، ولم يكن أحد يحفل به بدافع من تقدير شخصى ، واذلك فقد كان  
لزاما على فيتزيرس أن يفتح أمامهم آفاقا لآمال جديدة تعود عليهم بالنفع ،  
ويذكرهم بما هم عليه الآن من نعم ، فلقد أتاح للنبلاء من الشباب الطائشين  
إباحية بغير عقاب ، ومجونا بغير قيود ولا حدود ، وهيا للطامحين فرص  
القوة والسلطان ، والنهمين الثراء المفرط والأملك المترامية ، وفتح قواد  
الجنود المرتزقة عطايا من الذهب وهو أكثر الأدلة إقناعا لأفهامهم وبغيرها  
فالأدلة كلها هراء هباء ، وصار هذا للعميل النشيط يبنى بالوعود عن جود  
أكثر من منحه للنقود ، وقصارى القول إنه لم يترك شاردة ولا واردة قد  
تبعث العزم فى نفوس المستضعفين ، أو تنفث الحياة فى المتخاذلين إلا واتخذها ،  
ثم تكلم عن عودة الملك ريتشارد كحدث بعيد الاحتمال أشد البعد ، ومع

ذلك فإنه عندما رأى أن في النظرات تشككا وفي الإجابات ريبة ، أدرك أن هذا هو الخوف الذي يسيطر على أذهان من تواطنوا معه في الإثم ، فوصف هذا الحدث في جرأة - لو وقع فعلا - بأنه حدث يجب ألا يغير من الأسس السياسية التي وضعوها شيئا ، وقال :

- « إذا عاد ريتشارد ، فإنما يعود لإثراء جنوده الصليبيين الفقراء المعوزين على حساب أولئك الذين لم يتبعوه إلى الأراضي المقدسة . إنه يعود ليحاسب أولئك الذين قاموا بأى عمل يمكن اعتباره اعتداء أو افتئاتا على قوانين البلاد حسابا عسيرا . إنه يعود لينتقم من طائفتي « فرسان المعبد ، و « دار العلاج ، لأنهم ظاهروا عليه فيليب ملك فرنسا أثناء الحروب في الأراضي المقدسة ، وبالجملة فإنه يعود لينزل العقاب بكل من ناصر الأمير يوحنا كتمرد ، . ثم استرسل أمين السر الداهية قائلا : هل تخشون بطشه ؟ إنه فارس قوى مقدم ، ما في ذلك من ريب ، ولكننا لانعيش الآن في أيام الملك آرثر عندما كان البطل يستطيع أن ينازل جيشا بأكمله : لو عاد ريتشارد حقا ، فلا بد أنه سيعود وحيدا لا أتباع له ولا أصدقاء ، لأن رمال فلسطين قد أصبحت بيضاء من عظام قتلى رجال جيشه البواسل من أمثال ويلفريد أوف أيفان هو هذا ، ثم استرسل بحجب على الذين كانت تساورهم الظنون في أحقية ريتشارد في العرش قائلا : ماذا تقولون عن حق ريتشارد في تولى العرش ؟ هل حقه في الأولوية أمر قاطع أكثر من حق الدوق روبرت أوف نورمانديا أكبر أبناء الفاتح سنا ؟ ومع ذلك فقد اصطفى الشعب الثاني والثالث ويليام الأحمر وهنرى على التوالي ، وكان روبرت يتمتع بما لريتشارد من سجايا ، لقد كان فارسا مقداما وقائدا بارعا باسطا يده بالجود لأصدقائه والكنيسة . يتوج هذا كله أنه كان صليبيا وقاتحا لقبر المسيح المقدس ، ومع ذلك فقد مات في قصر كارديف سجيناً بانسا كفيفاً لأنه عارض رغبة الشعب الذي آثر ألا يكون حاكما له ، ، ثم قال : إن من حقنا أن نختار من بين من تجرى في عروقهم الدماء الملكية ذلك الأمير الذي

توافر فيه أفضل الصفات ليقبض بيده على السلطة العليا . ثم استدرك قائلاً ، أعنى ذلك الذى سيعمل على ما فيه صالح النبلاء ، ثم استتبع قائلاً ، حقا قد لا يرقنى الأمير يوحنا إلى مرتبة أخيه ريتشارد من حيث الصفات الشخصية ، ولكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن ثانيهما عاد وسيف الانتقام مسلول فى يده ، بينما يجزل أولهما العطاء ويمنح الحصانات والامتيازات والمجد والثراء ، فلن يكون هناك مجال للمفاضلة بينهما فيمن سيكون الملك الذى تقضى حصافة النبلاء بأن يقفوا إلى جانبه .

كان لهذه الأدلة ولكثير غيرها التى كان بعضها مطابقا للظروف الخاصة بمن يتحدث لإيهم أثرها المنتظر بين نبلاء حزب الأمير يوحنا ، ووافق أكثرهم على عدم التخلف عن الاجتماع المقترح فى مدينة يورك لتدبير أمر تويج الأمير يوحنا .

كان فيتزيرس عائدا إلى قصر آشبى فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن أضنته شتى الجهود التى أبهجنه ثمارها ، عندما التقى بدي براسى وقد استبدل بثياب الحفل عباءة قصيرة خضراء وجورباً فى نفس لونها وخامتها ، وقبعة أو غطاء رأس من الجلد ، وسيفاً قصيراً وبوقاً مدلى من كتفه ، ممسكاً فى يده بقوس طويل ، ورشق فى حزامه عدداً من السهام ، ولو كان فيتزيرس قد التقى به فى غرفة خارجية ، لمر به دون أن يعيره التفاتاً وكأنه أحد جنود الحرس ، ولكن بما أنه قد وجده فى القاعة الداخلية ، فقد نظر إليه ملياً ، وعرف أنه الفارس النورماندى فى ثياب جندى إنجليزى . قال دى براسى فى شىء من الغضب :

— أى هول هذا يادى براسى ؟ أهذا وقت العبث والأزياء التنكرية وكأنك فى ليلة عبد الميلاد ، بينما مصير مولانا الأمير يوحنا على وشك أن يتقرر ؟ لماذا لم تكن مثلى بين هؤلاء الجبناء ذوى القلوب المتداعية الذين يفرعون لمجرد ذكر اسم الملك ريتشارد كما يقال زورا وبهتاناً إنه يثير الرعب ؟ ، فقال دى براسى بهدوء :

— لقد كنت وراء شتوني ، كما كنت يا فيتيريس تعني بشتوئك الخاصة ،  
فردد والديمار قائلاً :

— أعني بشتوني الخاصة لقد كانت شتون الأمير يوحنا مولانا  
المشترك هي التي تشغلني ، . فقال دى براسي :

إن وراء هذا دافعا آخر يعود عليك بالنفع الذاتي يا والديمار : هيا  
يا فيتيريس . . إننا نعرف بعضنا البعض — الطموح هدفك ، والمتعة مناي ،  
وهما يتناسبان مع عمرينا المختلفين . إنك ترى في الأمير مثل ما أرى في أنه  
أضعف من أن يكون ملكا حازما ، وأكثر طغيانا من أن يكون ملكا سلس  
القياد ، وأشد بذاءة وغرورا من أن يكون ملكا محبوبا ، وأكثر تقلبا وجنا  
من أن يكون ملكا من أي نوع لفترة طويلة ، ولكنه ملك يأمل في أن  
يجعل فيتيريس ودى براسي يرتقيان ويتقدمان الصفوف إلى جواره ، ولذا  
فإنك تسأله بأساليبك السياسية ، وأنا أشد أزره برماح رفاقي الأحرار ،  
فقال فيتيريس وقد نقد صبره :

— إنك مساعد يرجى نفعه — تلعب دور الأحمق في اللحظة الدقيقة  
عند الضرورة القصوى . إلام تهدف من وراء هذا التنكر الزرى في مثل  
هذه الأوقات العصبية ؟ ، . فأجاب دى براسي بهدوء :

— لكي أحصل على عروس على طريقة قبيلة بنيامين ، فقال فيتيريس :

— قبيلة بنيامين ؟ إني لا أفقه قولك . أفصح لي عن هذا ، .  
فقال دى براسي :

— ألم تكن حاضرا مساء أمس عندما استمعنا إلى الراهب آيمر وهو  
يقص علينا إحدى القصص تعقيداً على الأسطورة التي ترنم بها المنشد .

لقد ذكر أنه منذ زمن بعيد قامت في فلسطين عداوة قاتلة بين قبيلة بنيامين وبين باقي بني إسرائيل ، وكيف أنهم قطعوا أكثر فرسان تلك القبيلة لإربا إربا ، وكيف أقسموا بسيدتنا المقدسة على أنهم لن يأذنوا لمن تبقوا منهم بأن يتزوجوا من سلاتهم ، وكيف ندموا على قسمهم هذا فبعثوا إلى قداسة البابا من يستفتيه في أن يجدوا منه مخرجاً ، وكيف أن البابا قد أفتاهم بأن يقيم شباب عشيرة بنيامين مباراة كبرى في الفروسية يختطفون فيها جميع من حضرن من النساء، وبذلك يغنمون لأنفسهم زوجات دون موافقة عرائسهم أو أسرهن . .

فقال فيتزيرس :

— لقد سمعت بهذه القصة ، وقد يكون الراهب أو لعله أنت قد أجرى تعديلات غريبة على تاريخ القصة وملابساتها . فقال دى برامى :

— أقول لك إننى أهدف إلى الحصول على زوجة بطريقة عشيرة بنيامين ، وهذا معناه أنى هذا الزى نفسه سأجأ ذلك القطيع من الثيران الساكسونية الذين غادروا القصر في هذه الليلة، وأقتنص منهم رويانا الحناء .  
فقال فيتزيرس :

— هل أصابك مس من الجنون يادى برامى ؟ فكر فى أنه على الرغم من أن هؤلاء الرجال ساكسونيون ، إلا أنهم أثرياء أقوياء ويحظون بأكبر قسط من إجلال مواطنيهم ، إذ أن الثراء والشرف قد أصبحا وفقاً على تلك القلة التى تنحدر من أصل ساكسونى . .

فقال دى برامى :

— وما كان ينبغى أن يكون واحد منهم شريفاً أو ثريا ، بل كان الأجداد بنا أن نستكمل عملية الغزو . . قال فيتزيرس :

— « ليس هذا على الأقل هو الوقت الملائم . إن الأحداث القابلة  
تجعل رضا الجماهير أمرا محتوما . ولا يستطيع الأمير بوحنا أن يوقف سير  
العدالة ضد من يلحق الأذى بأجانبهم . »

فقال دي براسي :

— فليمنحهم العدالة لو استطاع أن يجترى على ذلك، وعمما قليل سوف  
يرى الفرق بين مساندته للحاملي رماحي القوية ، وبين الوقوف إلى جانب  
تلك الشرذمة من الدهماء الساكسونيين الجبناء ، ومع ذلك فإني لا أنتوي أن  
أكشف عن نفسي في الحال . ألسنت أبدو في هذا الزى كحارس غابة جسور  
من ينفخون في الأبواق ؟ سيقع الوزر في هذا العمل العنيف على الخارجين  
على القانون في غابات يوركشاير . إن لي عيوننا ماهرة أثق بها في تعقب  
حركات الساكسونيين . إنهم سيقضون هذه الليلة في دير القديس ويتول  
أو ويتولد أو كيفما كان اسم ذلك القديس الساكسوني الفظ في بلدة بيرتون  
أون ترينيت ، وستجعلهم مسيرة الغد في تناول أيدينا وننقض عليهم بطريقة  
الصقور . ثم بعد ذلك بقليل أبدو بمظهرى الحقيقي وأمثل دور الفارس ذى  
المروءة . وأنقذ الجميلة المنكودة المنكوبة من أيدى أولئك القساة الذين  
اختطفوها . ثم أقودها إلى قصر فرونديبيف أو إلى نورمانديا إذا اقتضى  
الامر ذلك ، ولا أظهرها ثانية لذويها إلا بعد أن تكون قد أصبحت زوجة  
موريس دي براسي وسيدته . فقال فيتزيرس :

— إنها خطة بالغة الحصافة ، وأعتقد أنها ليست كلها من بنات أفكارك .  
هيا اصدقنى القول يادى براسي : من ذا الذى أعانك على إعدادها ، ومن  
ذا الذى سيؤازرك في تنفيذها ، إذ أنه يبدو لي أن عصابتك رابضة في مكان  
قصي مثل مدينة يورك ؟ .

فقال دي براسي :



— « إن كان لابد لك وأن تعرف الحقيقة ، فهمي أن فارس المعبود  
بريان دي بواجيلبرت هو الذي أبرز إلى الوجود ذلك المشروع الذي  
أوحت به إلى مغامرة رجال قبيلة بنيامين ، وسيعمل على مساعدتي في  
الانقراض ، وسيقوم هو وأتباعه بدور قاطعي الطرق ، أما ذراعي الباسل  
فهو الذي سينقذ السيدة من بين أيديهم بعد أن أبدل من ملابسى ، فقال  
فيتزيوس :

— « أقسم يايماني أن الخطة جديدة بمصافتكما المشتركة ؛ إن حذرك  
يبدو واضحاً أشد الوضوح في الفكرة التي أوحت إليك بترك السيدة بين  
يدي حليفك المجل ، وإنى لا أخالك إلا موفقاً في اقتناصها من أصدقائها  
الساكسونيين ، ولكن خبرني كيف تستطيع أن تنفذها بعد ذلك من  
بين مخالب بواجيلبرت ، هذا ما تأخذني فيه أشد الريبة لأنه صقر اعتاد  
على الانقضاض على حمامة برية ، وعلى الاحتفاظ بفريسته . فقال دى براسى :

— « إنه فارس من فرسان المعبد ، وعلى ذلك فهو لا يقوى على منافستي  
في مشروع زواجي من هذه الوريثة . أقسم بالسماه أنه إن يجترى على أن  
يلحق بها عاراً بمحاولته إتيان مايمس شرف عروسى المرتقبة ، حتى ولو كانت  
طائفته كلها بمثابة في شخصه ، . قال فيتزيوس :

— « ما من شيء أقوله لك يستطيع أن يحو عنك طيشك (لأننى أعرف  
جيداً ما فى طبعك من عناد) ، لذا فاعمل ما وسعك الجهد على ألا تضع من  
الوقت إلا أقله . لا تجعل الحماة دأبك دائماً وتضعها فى غير موضعها ، .  
فقال دى براسى :

— « أقول لك إنه لن تنقضى بضع ساعات حتى أكون قد أنجزت  
هذه المغامرة ، وسأكون فى مدينة يورك على رأس رفاق الشجيمان البواسل ،  
وعلى استعداد لأن أكون دعامة لآى مشروع جرى بقدر استعداد

سيادتك لوضعه . هأنذا أسمع صوت رفاقي يتجمعون والجياد تركل الأرض  
بحوافرها ، وتبعث صهيلها في الفناء الخارجى . وداعا ! سأذهب كفارس  
حقيقى لأحظى ببسمات الجمال .

أعاد فيتزيرس القول وهو يشيعه بنظراته ، كفارس حقيقى ابل أقول  
كأحمق ، أو كطفل يترك المهام الضرورية الجادة ليطارد الأشواك المنساقطة  
التي تدفع بها الرياح أمامه ، ولكنى مسوق إلى أن أعمل بمثل هذه الآلات،  
ولكن لصالح من ؟ لصالح أمير فاجر أحمق يمكن أن يكون فى الحاضر  
سيداً ناكراً للجميل ، كما أثبت أنه ابن متمرد وأخ غير طيبعى ؟ ولكنه  
هو - هو أيضاً ليس إلا أداة من تلك الأدوات التي أعمل بها ، وهذا سر  
سوف يعرفه عما قريب، مع ما فى خلقه من كبرياء إن اجتراً على أن يفصل  
بين صالحى وصالحه .

قطع صوت الأمير على السياسى تأملاته وهو مقبل من غرفة  
داخلية منادياً :

- « أيها النبيل والديمار فيتزيرس ! »

أما مستشار المستقبل ( الذى كان النورماندى الداھية طموحا إلى  
هذا المنصب الرفيع ) فقد خلع غطاء رأسه وأسرع ليتلقى أوامر الملك المرتقب.

## أخصل السادس عشر

في جرداء موحشة تجهلنا أعين الناس  
ترعرع ناسك مبجل من بدء شبابه حتى مشيبه  
الطحالب مضجعه ، والنكف صومعه المتواضعة  
والفاكهة طعامه ، ومياه البئر البلورية شرابه  
ناه عن الخلق يقضى أيامه مع الله  
الصلاة كل عمله ، والحمد كل متعته .

( بارئيل )

لعل القارىء يذكر أن النتيجة التي أسفرت عنها مباراة الفروسية قد  
قررتها جهود فارس مجهول أطلق عليه النظارة لقب « الكسول الأسود » ،  
نظراً لسلوكه السلبي المنتم بعدم المبالاة ، الذي كان سيئاً في إظهاره في  
الفترة الأولى من ذلك اليوم . كان هذا الفارس قد غادر الساحة فجأة بعد  
أن أحرز النصر ، وعندما نودي عليه ليتسلم جائزة شجاعته لم يعثر له على أثر  
وفي نفس الوقت بينما كانت أصوات المتادين والأبواق تدوى في طلبه ،  
كان الفارس يشق زريقه صوب الشمال مجتنباً كل الممرات المطروقة ،  
سالكا أقصر الطرق عبر الغابة ، ثم عرج ليقضى ليلته في حان صغير يقع  
بعيدا عن الطريق العام حيث عرف آخر أبناء المباراة من عازف جائل .

وفي الصباح التالي شد الفارس رحاله في البكور ، معتماً أن يقطع  
سفرة طويلة ، وكان جواده الذي حاول قدر طاقته ألا يرهقه في اليوم  
السابق في حالة تسمح له بأن يقطع مرحلة بعيدة دون حاجة إلى فترة راحة  
طويلة ، ومع ذلك فإن عمرات الغابة المتعرجة التي كان يسلكها قد أفسدت

عليه ما كان قد اعتزمه ، حتى أنه لم يجد نفسه حينما أقبل المساء إلا عند حدود ( الطريق الغربي ليوركشاير ) ، وقد أصبح الرجل والجواد كلاهما في حاجة إلى الطعام والراحة ، وفوق كل هذا فقد كان حتماً عليه أن يبحث عن مكان يستطيعان أن يقضيا فيه الليل الذي كان يدنو على عجل .

لم يوفق في العثور على مكان يستطيع أن يجد فيه المأوى أو المأكل ، وأمسى مسوقاً إلى المسير في الطريق الذي درج الفرسان الجائلون على أن يسلكوه ، والذين كانوا في مثل هذه الحالات يتركون خيولهم ترعى السكلا ، ويفترشون الثرى ليفكروا في غاياتهم مستظلين بإحدى أشجار البلوط ، ولكن الفارس الأسود ، إما أنه لم تكن له حبيبة تشغل عليه فكره ، وإما أنه كان غير آبه بالحرب كعدم أكثرائه بالحرب ، ولذلك لم تكن هناك من الأحاسيس العاطفية ما تشغل عليه البال في جمالها وقسوتها كي يستطيع مقاومة آثار الضنى والجوع ، وإحلال الغرام محل الراحة التي تتوارق في مضطجع وعشاء ، ولذلك فقد شعر بالأسى عندما نظر حوله فوجد نفسه غارقاً في غابات كثيفة تتخللها حقاً كثير من الممرات العارية ، وبعض المسالك الأخرى ، ولكنها كانت من ذلك النوع الذي قد تخلفه وراءها قطعان الماشية العديدة التي ترعى في الغابة ، أو حيوانات الصيد ، والصيادون الذين يسعون لاقتناصها ، والشمس التي كانت مناراً يهتدى به الفارس أكثر الوقت ، قد غربت الآن إلى يساره خلف تلال دربيشاير ، وكل جهد قد يقوم به لمتابعة رحلته قد ينأى به عن مساره بقدر ما يدفعه إلى الأمام على الطريق ، وبعد محاولات غير مجدية لاختيار الطريق العام آملاً في أن يقوده إلى كوخ راع أو مأوى أحد حراس الغابة ، وبعد أن وجد نفسه أكثر من مرة عاجزاً أكل العجز عن الاختيار ، قرر الفارس أن يركن إلى فطنة جواده الذي جعلته خبرته في ظروف سابقة على علم بالموهبة العجيبة التي تكمن في هذه الحيوانات لخلاص أنفسها وراكبيها من مثل هذه المآزق .

لم يكد الجواد الأصيل الذى أضناه التعب من طول السفر فى ذلك اليوم تحت ثقل راكب تلفه الدروع يحس من عنانه المتراخى بأنه متروك لقيادة نفسه ، حتى بدا وكأنه قد استعاد قوة وروحا جديدتين ، وكان من قبل لا يستجيب للمهاز إلا بأبته ، ولكنه الآن قد رفع أذنيه وكأنه غفور بتلك الثقة التى أولاه الفارس إياها ، واتخذ بدافع من نفسه مسيراً أكثر نشاطاً .

كان الطريق الذى اتخذته الحيوان منحرفاً بعض الشيء عن المسار الذى سلكه الفارس فى أثناء النهار ، ولما بدت الثقة على الجواد فى حسن اختياره أسلم الفارس نفسه لبصيرته .

حققت الأحداث ظنه ، إذ سرعان ما بدا المر عريضاً مطروقاً وأكثر استعمالاً ، وسمع رنين جرس صغير أوحى إلى الفارس بأنه بجوار كنيسة أو صومعة ناسك ، وعلى هذا وصل إلى مكان مكشوف مغطى بالعشب الأخضر ، وفى الجانب المقابل له صخرة شديدة الميل فوق سهل قليل الانحدار يظهر للعارض سطحه الأملس ، وكانت شجيرات اللبلاب تغطى بعض المواضع من جوانبها المعقولة ، وفى مواطن أخرى كانت أشجار البلوط وخمائل أشجار عيد الميلاد التى تستمد جذورها الغذاء من فجوات الصخرة الشاخنة تهتز فوق الوهاد الواقعة أسفلها اهتزاز رياش المحارب فوق خوذته المصنوعة من الصلب ، وتضفى جمالا على منظر كان الرعب يغلب على طابعه ، وكان يستند على قاعدة الصخرة كوخ خشن مصنوع من جذوع الأشجار التى قطعت فى الغابة المجاورة ، ومحصن ضد التقلبات الجوية بواسطة سد من الحشائش المخلوطة بالصلصال ، وقد غرس بالقرب من الباب جذع شجرة بان صغير جرد من غصونه ، وثبتت فيه قطعة من الخشب عند فته عرضاً كرمز بدائى للصليب المقدس ، وعلى مسافة قصيرة فى الجهة اليمنى انبثق من الصخر نبع يتفجر منه أكثر المياه صفاء ، ويصب فى حجر أجوف أحاله

الجهد البشري إلى حوض خشن يسير الجدول بعد خروجه منه هادئاً منحدرأ في مجرى حفره طول انسيابه ، ثم يهيم خلال السهل الصغير حتى ينتهي في الغابة المجاورة .

وهناك بجانب هذا النبع بقايا كنيسة متناهية الصغر وقد تداعى جزء من سقفها بعض التداعى ، وقبل أن يتمدم البناء ، لم يكن طوله ليزيد على ست عشرة قدما وعرضه على اثنتى عشر ، والسقف المنخفض بعض الشيء يرتكز على أربعة أقبية متلاقية تمتد من أركان البناء الأربعة ، وكل منها محمول على عامود قصير سميك ، وقد ظلت دعامتا قباوين منها منتصبتين مع أن السقف قد تدمم وسقط فيما بينهما ، ولكنه بقي سليماً فوق الباقيتين .

كان مدخل هذا المكان القديم المخصص للعبادة يمر تحت قباو مستدير شديد الانخفاض ، محلى بعدة سطور من تلك النقوش المتعرجة التى تشبه أسنان سمك القرش ، والتي كثيراً ما يراها المرء فى فن العمارة الساكسونية القديمة ، وأقيم فوق المدخل برج الجرس على أربعة عمد صغيرة ، تدلى فى وسطها الجرس الأخضر معرضاً للتقلبات الجوية ، والذي سمع الفارس الأسود منذ وقت قصير رنيناً خافتاً ينبعث منه .

كان المنظر الهادى الوادع كله يترامى متألماً فى ضوء الشفق أمام عيني المسافر ، يوحى إليه بالثقة فى أنه سيحصل على مأوى يسكن إليه فى ليلته تلك منذ كان من أقدم واجبات هؤلاء النساك الذين يعيشون فى الغابات أن يستضيفوا المسافرين الحائرين الضالين فى الظلام ، وإذا فإن الفارس لم يضع الوقت فى تأمل دقيق للتفاصيل التى أوردناها ، ولكنه شكر القديس جوليان ( حامى المسافرين ) الذى أتاح له مأوى طيباً ، ثم قفز من فوق جواده وقرع باب الكوخ بمؤخر رحله حتى يجذب الانتباه إليه ، ويؤذن له بالدخول .

مضى بعض الوقت قل أن يتلقى جواباً ، ولما أتاه كان على غير هواه  
إذ أنه سمع صوتاً عميقاً أجش من داخل الكوخ يقول :

- « امض في طريقك كاتنا بمن كنت ، ولا تبع الضيق في خادم الله  
والقديس دونستان وهو يتلو صلوات المساء . » فأجاب الفارس قائلاً :

- « أيها الأب المبجل ، هنا جائل مسكين ضل طريقه في هذه الغابات  
يتبع لك فرصة منحه برك وضيافتك . » فقال ساكن الصومعة :

- « أيها الأخ الطيب ، إنه ليحلو لسيدتنا العذراء وللقديس دونستان  
أن يجعلنا من هدفاً لهاتين الفضيلتين بدلا من قيامي بمنحهما لغيري ، وليس  
لدى هنا من الطعام ما يبق حتى بأن يقتسمه كلب معي ، ثم إن أي جواد  
نشأ نشأة رقيقة لعاف النوم في مضجعي ، فامض إذن في طريقك والله  
يرعاك . » قال الفارس :

- « ولكن كيف أستطيع أن أجد طريق في مثل هذه الغابة وقد  
أوشك الظلام أن ينجيم على الكون ؟ وبما أنك مسيحي ، فأضرع إليك  
أيها الأب المبجل أن تفتح بابك ، وترشدني على الأقل إلى طريق . »  
قال الناسك :

- « وأنا بدوري أرجوك أيها الأخ المسيحي الطيب ألا تمنعني في إزعاجي  
لقد قطعت على الآن صلاة «أبانا الذي في السموات ، مرة واحدة ، وصلاة  
«السلام لك يا عريم ، مرتين وصلاة «بالحقيقة تؤمن ، مرة أخرى ، ويجب على  
أنا المذنب البائس أن أتلوها قبل مطلع الفجر وفقاً لقسمي . » فصرخ  
الفارس قائلاً :

- « الطريق - الطريق ! أرشدني إلى الطريق إن لم يكن هناك من  
سبيل إلى أن أحظى منك بأكثر من هذا . » فقال الناسك :

- أما الطريق فيسهل الوصول إليه ، فإن المر الذي ينتهي من الغابة يؤدي إلى مستنقع ، ومنه إلى مخاضة يمكن عبورها لأن الأمطار متوقفة الآن فإذا ما اجتزتها فكن حذراً في خطاك على الضفة اليسرى حيث إنها منحدره بعض الشيء ، وقد سقط الطريق المعلق فوق النهر أخيراً في أماكن متعددة كما سمعت ( لأنني قليلاً ما أبرح واجبات كنتي ) ، ثم بعد ذلك تسير في خط مستقيم . . . فقاطعه الفارس قائلاً :

- ونظري عظم - هوة ومخاضة ومستنقع ؟! أيها السيد لو كنت أقدس من أرسل لحيتته وأمسك بمسبحته ، فإنك لن تدخل في روعي بأن أسلك الليلة هذا الطريق . أقول لك وأنت يامن تعيش على إحصان البلاد وإن كنت أشك في استحقاقك له - إنه ليس من حقلك أن تأتي المأوى على مسافر ألم به ضيق . إما أن تفتح الباب على عجل ، وإلا فإني بحق الشيطان سأحطمه وأشق لنفسي طريقاً ، . فقال الناسك :

- د أيها الصديق المسافر ، لا تثقل على يالحاحك ، وإذا ألتأتني إلى استخدام السلاح المادى دفاعاً عن نفسي فسيكون ذلك وبالاً عليك ، .

في تلك اللحظة علا صوت نباح بعيد وزجرة كان المسافر قد سمعها منذ حين ، وأصبحت الآن شديدي الارتفاع والعنف مما جعل الفارس يعتقد أن الناسك قد أفرعه الوعيد باقتحام الباب عنوة ، فاستدعى الكلاب - التي انبعثت منها هذه الجلبة لمساعدته في دفاعه عن نفسه - من غرفة داخلية كانت حبيسة بها . ثار الفارس غضباً لهذا السلوك الذي انتهجه الناسك لتدعيم مآربه الذي لا يمت إلى كرم الوفاة بصلة ، فركل الباب بقدمه بشدة حتى اهتزت قوائمه ومزاجه اهتزأزأ عنيفاً ، فصاح الناسك بصوت عال وهو ليس براغب في أن يتعرض بابيه إلى لطمة مماثلة :

- صبراً ، صبراً . لا تسرف في قوتك أيها المسافر الطيب فسوف



أفتح لك الباب على الفور مع أن ذلك قد لا يبعث فيك البهجة إلا قليلاً .  
فتح الباب وظهر الناسك فإذا به رجل ضخم قوى البنيان في ثوبه وغطاء رأسه المصنوعين من نبات القنب ، وقد تمنطق بحبل من السمار المضفور ، ووقف أمام الفارس وكان يمشك في إحدى يديه بمشعل مضاء ، وفي الآخر بهما غليظة من خشب الأشجار يمكن أن توصف بأنها هراوة ، ووقف كلبان كبيران شعرهما أشعث ، وهما خليط من كلاب الصيد وكلاب الحراسة على استعداد للانقضاض على المسافر حالما يفتح الباب ، ولكن عندما استضاءت خوذة الفارس العالية ومهرازه الذهبيان بنور المشعل ، بدأ الناسك يبدل مما كان قد اتواه ، وكبح من جماح ثورة مساعديه وأحال لهجته إلى ترحيب جاف ، ثم دعا الفارس إلى دخول كوخه ملتصقا لنفسه المعاذير عن عدم رغبته في فتح باب كوخه بعد مغرب الشمس بسبب كثرة اللصوص والخارجين على القانون المنتشرين في أرجاء الغابة ، والذين لا يقيمون وزنا لكرامة سيدتنا العذراء والقديس دونستان ، ولا أولئك الرجال الأتقياء الذين يفنون العمر في خدمتهم .

ولما نظر الفارس حوله ولم ير إلا فراشاً من أوراق الأشجار، وصليباً من خشب البلوط محفوراً بطريقة بدائية ، وكتاباً للصلاة ، ومائدة خشنة ومقعدين ، وقطعة أو اثنتين من أثاث غير مصقول قال :

- « أيها الأب الطيب ، يجب أن يكون ما عليه كوخك من مظاهر الفقر دفاعاً كافياً ضد خطر اللصوص ، هذا إذا أغفلنا مساعدة كلبين أمينين لهما من كبر الحجم والقوة ما يكفي - على ما أعتقد - لإسقاط وعل ، وبالآخرى لمقاومة كثير من الناس . » فقال الناسك :

- « لقد أذن لي حارس الغابة الطيب باستخدام هذين الحيوانين للحماية ، وأنى في وحدتي إلى أن تتحسن الظروف . » وبعد أن قال ذلك ثبت مشعله

في قضيب منحني من الحديد كان يستخدم كحامل للشموع ، ووضع المائدة المصنوعة من خشب البلوط أمام بقايا النار التي زودها بشيء من الخشب الجاف ، ثم وضع مقعداً خشبياً على أحد جانبي المائدة وأشار إلى الفارس أن يجلس على المقعد الآخر .

جلسا ثم نظر كل منهما إلى الآخر برزانة فائقة ، وكلاهما يظن في قرارة نفسه أنه لم ير أقوى بنية وأصلب عوداً من ذلك الجالس قبالة ، وبعد أن أحدق الفارس بنظرة طويلة بمضيفه قال :

- أرجو أن أعرف من قداستكم ثلاثة أشياء أيها الناسك المبجل إن لم يكن ذلك سيباً في قطع تأملاتك الورعة .

أولاً - أين أضع جوادى ؟

ثانياً - ماذا أستطيع أن أحصل عليه كعشاء لي ؟

ثالثاً - أين سأنام ليلتي ؟ ، . فقال الناسك :

- سأجيبك بأصبعي حيث لا يتفق والنظام الذي درجت عليه أن أتحدث بالكلمات حيث تستطيع الإشارة أن تنق بالغرض نفسه . وعندما قال ذلك أشار إلى ركنين من الكوخ على التوالي وقال ، هناك حظيرتك ، وهنا فراشك ، ثم أنزل من فوق رف مجاور صفحة بها ملء قبضتي يد من الفاصوليا الجافة ووضعها على المائدة وأضاف ، وها هو ذا عشاؤك .

هز الفارس كتفيه وخرج من الكوخ ثم أدخل جواده - وكان قد ربطه في أثناء تلك الفترة في إحدى الأشجار - ورفع عنه سرجه بعناية شديدة ، وغطى ظهر الجواد المضنى بعبائه ، فتحركت مشاعر الناسك حناناً لما أبداه الفارس من قلق ومهارة في رعاية جواده ، وتمم بضع كلمات عن العليق المتبق لحصان حارس الغابة ، واجتذب من محباً

حزبة من العليق ثرها أمام جواد الفارس ، ثم ألقى على الفور قدراً من النباتات الجافة في الركن الذي كان قد أشار إليه ليكرن مضجماً للفارس الذي شكر له رفته ، وبعد أن انتهى من ذلك ، عاد كل منهما إلى مقعده بجوار المائدة حيث كانت صفحة الفاصوليا موضوعة بينهما ، وبعد أن تلا الناسك صلاة شكر طويلة كانت يوماً ما باللغة اللاتينية ولم يبق من لغتها الأصلية إلا آثار قليلة بالإضافة إلى النهاية الرنانة لكامة أو جملة تقال هنا وهناك ، ضرب لضيغه المثل ، بأن تناول في خضوع ثلاث حبات أو أربع من الفاصوليا الجافة ، وأدخلها في فم شديد الاتساع بضم أسناناً كأسنان الخنزير البري في حذتها وبياضها، وكانت هذه الحبات من الفاصوليا الجافة طحيناً سيء الحظ لمثل هذه الطاحونة القوية .

وحتى يتمكن الفارس من الاقتداء بمثل هذا المثل الحميد ، وضع خوذته جانباً ، ونزع صدرته والجزء الأكبر من درعه ، وأظهر للناسك رأساً ذا شعر أصفر مجعد ، وجبهة عالية ، وعينين زرقاوين تميزان بالبريق والتألق ، وفامنق التكوين ، يكسو شفته العليا شارب أكثر دكنة من شعر رأسه، وتدل هيئته بوجه عام على أنه رجل جسور جرىء مقدم ، يتناسب كل هذا مع هيكله القوي كل التناسب .

أزاح الناسك غطاء رأسه إلى الخلف وكأنه بذلك يرد على ثقة ضيفه ، فكشف عن رأس مستدير لرجل في ريعان الشباب ، وكانت قمة رأسه حلقة تحيط بها دائرة من الشعر الأسود الخشن ، تبدو كقبة كنيسة يحيط بها سورها المرتفع ، ولم يكن يبدو على وجهه شيء من تقشف الرهبان أو حرمان الناسك ، بل على النقيض من ذلك ، فقد كان جريئاً ، يمتلئ له حاجبان عريضان أسودان ، وجبهة حسنة التنسيق ، ووجتان أشد استدارة وأكثر احمراراً من وجنتي نافخ بوق ، تدلت منهما لحية طويلة مجعدة سوداء . مثل هذا الوجه مضاف إليه بنية هذا الرجل المقدس القوية،

كانا يفصحان عن العيش على اللحوم ، لا على الفاصوليا والبقول . لم يكن هذا التناقض بخاف على الضيف ، فبعد أن انتهى من ازدراد مضغة من الفاصوليا الجافة بشقة شديدة ، وجد أنه من الضرورة بمكان أن يطلب من مضيفه الورع أن يقدم إليه شيئا من الكحول ، فاستجاب له بأن وضع أمامه قدحا كبيرا من أنقى مياه النبع وقال :

— « إنها من بئر القديس دونستان الذى استطاع أن يعمد منها ما بين شروق الشمس وغروبها خمسمائة من الدينمركيين والبريتونيين الكفار — فليبارك الله اسمه ، .

ثم وضع لحيته السوداء فى القدح وشرب جرعة ماء أكثر اعتدالا مما يستطيع جوفه أن يستوعبه فقال الفارس :

— « يبدو لي أيها الأب المبجل أن الكمرات الصغيرة التى تأكلها بالإضافة إلى هذا الشراب المقدس الخفيف قد أكسباك صحة موفورة . إنك تبدو كرجل يستطيع أن يفوز بالجائزة فى مباراة المصارعة ، أو فى المبارزة بالسيف أكثر من تضييع وقتك فى هذا القفر الموحش فى تلاوة الصلوات ، والعيش على الفاصوليا الجافة والماء البارد القراح ، .

فأجاب الناسك :

— « إن أفكارك يا سيدى الفارس تنبع من الجسد كأفكار الجهال من العلانيين . لقد حلا لسيداتنا العذراء وقديسي الحامى أن يباركا القليل الذى أكله به جاح النفس كما بوركت البقول والمياه لأطفال « شادراش » و « منهاش » و « آبدينجو » الذين شربوا الشراب نفسه ، ورفضوا أن يدنسوا أفواههم بالنبيذ واللحوم التى قدمها لهم ملك العرب . فقال الفارس :

— « أيها الأب المقدس الذى شامت لإرادة السماء إلا أن تصنع مثل

هذه المعجزة على وجهه ، ائني لأنم غير كهنوتي بأن يسألك عن اسمك . .  
فأجاب الراهب :

— تستطيع أن تسميني راهب ، كوما نهرست ، فهذا هو لقبى فى تلك  
البقاع ، والناس يضيفون إليه حقاً صفة ، المقدس ، ولكننى لا آبه بذلك  
لأننى غير جدير بمثل هذه الإضافة ، والآن أيها الفارس الباسل هل لى  
أن أسأل عن اسم ضيفى الكريم ؟ . .

فأجاب الفارس :

— ، حقاً يا راهب كوما نهرست المقدس إن الناس فى هذه البقاع  
يسموننى بالفارس الأسود ، وكثير منهم ياسيدى يضيف إليه لقب  
الكسول ، ولكننى لا آبه بذلك لأننى غير طموح بأية وسيلة لأن  
أكون مرموقاً . .

لم يستطع الناسك أن يمسك عن الابتسام لجواب ضيفه وقال :

— « أرى ياسيدى الفارس الكسول أنك رجل حذر ، وأكثر من  
ذلك أرى أن طعامى الفقير الزهيد لا يروقك لأنك ربما كنت معناداً  
على أهبة البلاط والمعسكرات ومتع المدن ، وقد تذكرت الآن أيها السيد  
الكسول أن حارس هذه الغابة المحب للإحسان عندما ترك هذين الكلبين  
لحراستى وذلك القدر من العليق ، قد ترك لى أيضاً بعض الطعام ، ونظراً  
لأنه لا يصلح لاستعمالى ، فقد غاب ذكره عن ذهنى فى خضم أفكارى  
التي تفوقه أهمية . . فقال الفارس :

— « إنى أجتري على أن أقسم بأنه قد فعل ذلك . لقد كنت مقتنعاً  
أيها الراهب المقدس بأن فى الصومعة طعاماً أفضل عندما رفعت غطاء رأسك  
لأول مرة . إن حارسك رجل دائم المرح ، وما من شخص رأى نواجذك

وهي تصارع هذه الفاصوليا ، وحلقك وهو يلتمهم تلك المادة التي لا تبعث في النفس مسرة، إلا وحكم بأنك جدير بمثل عليق الخيل وشرابها هذين (وأشار إلى الطعام والشراب اللذين كانا على المائدة) ويتوقف عن إصلاح حاله. فلنر إذن جود الحارس دون إبطاء . .

رمى الناسك للفارس بنظرة فاحصة فيها نوع من التعبير عن التردد المضحك الذي يستطيع معه أن يستوثق من ضيفه . وعلى أى حال فقد كان في سمات الفارس من الصراحة الوثابة ما تقوى القيمات على أن تفسح عنه ، وكان في ابتسامته أيضاً شيء يدفع إلى الضحك قهراً ويوحى بالإيمان والوفاء ، مما جعل المضيف لا يستطيع أن يمنع نفسه عن الميل إليه . وبعد أن تبادلوا نظرة صامتة أو اثنتين ، ذهب الناسك إلى الجانب الأخرى من الكوخ ، وفتح كوة معتبة كان قد عمل على إخفائها بحرص شديد ، وتصل داخل دولاب مظلم ، ثم أخرج منه فطيرة كبيرة محشوة باللحم وعاء من الخبز ذي حجم غير عادي ، ووضع هذا الطبق الفاخر أمام ضيفه الذي أعمل خنجره في تقطيع ما احتواه ، ولم يضع الوقت في تذوق ما به . قال الفارس لمضيفه بعد أن ازدرد بضع قضيات سريعة من ذلك الشيء الذي ساعد الناسك على إصلاح موقفه :

— د كم من الوقت مضى منذ كان الحارس هنا؟ فأجاب الأب مسرعاً:

— د كان هنا منذ حوالي شهرين . . فقال الفارس :

— د قسما بالرب الحق أن كل شيء في صومعتك أيها الراهب المقدس هو من قبيل المعجزات ، وإنني لأقسم بأن الطبخ السمين الذي أمدنا بهذا اللحم كان يعدو على أقدامه في أثناء هذا الأسبوع .

بعثت هذه الملاحظة في الناسك شيئاً من الاضطراب ، وبدأ عليه شيء غير قليل من الحرج وهو يحملق في الفطيرة التي كانت تنقص ، والتي كان

ضيفه يشق فيها مزيدا من المسالك في غير تردد ولا إبطاء ، وهي عملية حريية حال دون مشاركته فيها اعترافه السابق بتمسكه بالثقافة . قال الفارس وهو يتوقف فجأة :

- ولقد كنت في فلسطين ياسيدي الراهب ، وإنى لأذكر أن أهل تلك البلاد قد درجوا على أن كل ضيف يستقبل ضيفا يؤكد له خلو طعامه من السم وذلك بأن يترك معه في تناوله ، وحاشاني أن أسى الظن برجل مقدس مثلك بأن يهدف إلى شيء لا يتفق وقواعد الضيافة ، ولكن مع ذلك أكون واثق الارتباط بك لو استجبت إلى هذه العادة الشرقية .  
فقال الناسك :

- كي أهون عليك ياسيدي الفارس من مخاوفك التي لا مبرر لها ، فإنني سأشد عن قاعدتي هذه المرة فقط .

ولما لم تكن هناك ( شوكة ) في تلك الأيام ، فقد غاصت أصابعه على الفور في أحشاء الفطيرة ، ولما انصهر جليد الكلفة بينهما ، أصبح الأمر منافسة بين الضيف والمضيف أيهما يفوق الآخر شبة ، ومع أن صوم الأول عن الطعام كان لمدة أطول ، إلا أن الناسك سرعان ما تفوق عليه ، وقال الفارس بعد أن أخذ جوعه :

- أيها الراهب المقدس ، أراهن بجوادى الأصيل هذا مقابل قطعة ذهبية على أن الحارس الأمين الذي ندين له باللحم ، قد ترك الك دنا من النيذ أو زجاجة من شراب الكنارى « أو شيئا ما كليف لهذه الفطيرة الفاخرة ، ولا شك ععدى في أن هذا الشيء لا يرقى إلى المرتبة التي تجعله يعلق بذاكرة ناسك في مثل زهدك ، ومع ذلك فإنى أظن أنك لو بحثت في هذا الدولاب مرة أخرى فستجدنى على حق فيما تكهنت به .

لم يجب الناسك إلا بضحكة ساخرة، وعاد إلى الخبا وأخرج منه زجاجة

من الجلد قد تحتوى على جالون من الشراب ، ثم أحضر قدحين كبيرين  
مصنوعين من قرن الوعل لهما إطاران من الفضة ، وبعد أن قام بهذا الإعداد  
الطيب للمساعدة على هضم العشاء ، بدأ عليه أنه لم يكن في حاجة إلى إضافة  
أية حفاوة أخرى . ولكنه ملاً القدحين وقال بالطريقة الساكونية :

« نخب صحتك ياسيدى الفارس الكسول . ، ثم أفرغ كأسه جرعة  
واحدة فأجاب المحارب :

« نخب صحتك ياراهب كويمانهيرست المقدس ، ثم حيا مضيفه  
بمثل جرعته ، وبعد أن التهما الكأس الأولى قال الغريب :

« أيها الراهب المقدس ، إنى لأعجب من أن رجلا في مثل قوتك  
وصلابتك ويدي مثل هذه المهارة الفائقة في المأكل والمشرب ، يفكر في  
الإقامة وحيدا في مثل هذا المكان الموحش . إنى أرى أنه من الأصح لك  
أن تعيش في قصر أو حصن ، تأكل اللحم وتشرب الخمر القوي من أن  
تعيش هنا على الفاصوليا والماء القراح ، أو حتى على صدقات الحارس .  
لو كنت مكانك لا بتدعت لنفسى بعض أساليب الرياضة وصيد ظباء الملك ،  
فهنالك أكثر من قطع طيب في هذه الغابات ، ولن يفتقد ذكر ظبي يذهب  
إلى خادم كنيسة القديس دونستان كى يستمتع به ، فقال الراهب :

« ياسيدى الفارس الكسول ، هذا قول شديد الخطر ، وإنى أضرع  
إليك أن تكف عن الخوض فيه . أنا ناسك وفىّ للملك وللقانون ، ولو اعتديت  
على صيد مليكى لسيق بي إلى غياهب السجن لا محالة ، وربما تعرضت لخطر  
الشنق إذا لم ينقذنى ربى . قال الفارس :

« وعلى الرغم من ذلك ، فلو كنت مكانك لسرت في ضوء القمر عندما  
يكون رجال الغابة وحراسها ينعمون بالدفء في فراشهم ، وبين الحين  
والحين أطلق وأنا أنتم صلواتى سها بين قطعان الظباء التى ترعى في عمرات



الغبابة . أصدقنى القول أيها الراهب المقدس : ألم تمارس قط مثل هذه السلى ؟  
فأجاب الراهب :

ـ . أيها الأخ الكسول ، لقد رأيت كل ما يعينك من دخائل منزلى ،  
ورأيت شيئاً أكثر مما يستحق أن يراه ذلك الذى يفرض إقامته قهراً .  
صدقنى إنه لمن الأفضل لك أن تستمع بما يبعث به الله لك من رزق ، عن  
أن تتطفل بغلظة لمعرفة مصدره . املاً كأسك ومرحياً بك ، وأضرع  
إليك ألا تحاول أن تقوم بتحريات أخرى تدل على وقاحتك ، وتجعلنى  
أوقن أنك ما كنت لنستطيع أن تفرض على إقامتك ، لو أننى كنت جاداً  
في مقاومتك . قال الفارس :

ـ . أقسم يا إيمانى أنك تثير في الفضول أكثر من ذى قبل . إنك أشد  
من التقيت بهم من النساك غموضاً ، هذا وسأعرف عنك المزيد قبل أن  
تفترق ، أما عن وعيدك ، فاعلم أيها الرجل المقدس أنك تتحدث إلى رجل  
يمتنع البحت عن المخاطر حينما يستطيع أن يجدها . فقال الناسك :

ـ . إننى أشرب نخبك ياسيدى الفارس الكسول ، وأجل بسالتك  
أشد الإجلال ، ولكنى لا أضع حصافتك موضع تقديرى بأى حال .  
لو اتخذت أسلحة مائلة لأسلحتى ، فسأمنحك بكل ما أكنه من صداقة وحب  
أخوى قدراً من التوبة والمغفرة الكاملة يعصمك مدى الاثنى عشر شهراً  
القابلة عن خطيئة الإفراط في التطفل .

وهنا شرب الفارس نخبه وطلب إليه أن يفصح عن أسئلته فأجاب  
الناسك :

ـ . لا سلاح عندى . إنى لست ندا لك فيه : من مقص دليلة ومسيار  
يامن الذى يساوى عشرة بنسات إلى سيف جوليات ، ولكن إذا كان لى  
أن أختار ، فسا قولك أيها الصديق الطيب في هذه الأشياء الزهيدة .

وعندما قال هذا فتح نجبا آخر ، وأخرج سيفين عريضين ودرعا من تلك التي كانت تستخدمها جنود ذلك العصر ، فاستبان للفارس الذي كان يرقب حركاته أن هذا النجبا الثاني كان يحتوي على قوسين أو ثلاثة أقواس طويلة ، وقوس نبال ، وحزمة سهام لهذه النبال ، وست بمجموعات من سهام الأقواس الطويلة ، وشاهد أيضاً قيثارة وأشياء أخرى لا يدل مظهرها على أنها رهبانية فقال :

- أهدك أيها الأخ الراهب أنى لن أسالك أسئلة أخرى فيها حرج إن ما يحويه هذا الدولاب يجيب عن كل تساؤلى ، . ثم انحنى وأمسك بالقيارة وقال :

- وهانذا أرى هنا سلاحا يسعدنى أن أثبت لك بوساطته على براعتى فيه أكثر من براعتى فى السيف والدرع ، . فقال الناسك :

- أأمل ياسيدى أنفارس ألا تكون قد أبديت سببا مقبولا يبرر تسميتك بالكسول دعنى أصارحك بأنى أشك فىك من هذه الناحية شكاً مفاجئاً ، ولكن مهما يكن من شىء فأنت ضيفى ولن أضع رجولتك موضع الاختبار دون إرادتك الحرة . اجلس إذن واملاً كأسك ولنشرب ونفنى ونمرح . إن كنت تعرف نشيداً جميلاً فإنك تحظى على الرحب بوجبة من الفطائر فى كورمانهيرست طالما بقيت فى خدمة كنيسة القديس دونستان ، وهذا سبق بمشيئة الله إلى أن أبدل غطائى الرمادى بآخر من الحشيش الأخضر . ولكن هيا ! املاً قدما فإن ضبط أوتار القيثارة سيستغمد بعض الوقت ، وليس هناك من شىء يرفع الصوت ويرهف الأذن مثل قدح من النبيذ ، وأما من ناحيتى ، فإنى أحب أن أحس بملس العنب على أطراف أصابعى قبل أن تداعب أوتار القيثارة ، .

## الفصل السابع عشر

أقبع في هذا الركن المخصص للتعبد في أثناء المساء  
وأفتح كتابي ذا الغلاف المزدان بالنعاس  
ففيه صور لأعمال قدسية كثيرة  
ولمن توجوا بالأكاليل السماوية من الشهداء  
وعندما يتضاءل نور شمعتي  
أترنم قبل الهجوع بأنشودتي الرتيبة  
ولكن من ذا الذي يرضى بأن يلقى بعظمته بعيداً  
ليأخذ عصاي وردائي الرمادي  
ويؤثر الصومعة الهادئة  
على مسرح العالم الصاخب .

( وارنون )

وعلى الرغم من الإرشاد الذي أشار به الناسك المرح ، والذي قام ضيفه  
على تنفيذه عن رضى ، فقد رأى أنه ليس من اليسير ضبط جميع أوتار  
القيارة وقال :

— أظن أيها الأب المقدس أن هذه الآلة ينقصها وتر ، كما أن الأوتار  
الأخرى قد أسيء استعمالها ببعض الشيء . فأجاب الناسك :

— نعم ، هل أدركت ذلك ؟ إن هذا ليفصح عن إتقانك لهذه  
الصناعة . ثم أضاف وهو يرفع عينه في وقار : النيذ وشرب الأنخاب

إن اللوم كله واقع على النبيذ وشرب الأناخاب . لقد قلت « لآلان آدال ،  
المنشد الوافد من الشمال بأنه سيلحق بالقيشارة عطباً إذا ما مسمها بعد  
الكأس السابعة ، ولكنه لم يشأ أن يسيطر على نفسه فيكف عن الشرب !  
هأنذا يا صديقي أشرب نخب توفيقك في مهمتك ، .

قال ذلك ثم أعاد قدحه بتؤدة شديدة ، وهو يهز في نفس الوقت رأسه  
استنكاراً لهم العازف الاسكتلندي في الشراب .

كان الفارس في تلك الأثناء قد أصلح من نظام الأوتار بعض الشيء ،  
وبعد أن عزف افتتاحية قصيرة ، سأل مضيفه عما إذا كان يؤثر سماع  
مقطوعة باللغة الفرنسية ، أو ملحمة شعرية باللغة الإنجليزية الشائعة .  
فأجاب الناسك :

— « إن ملحمة شعرية لأفضل من المقطوعات الفرنسية بأسرها . إنني  
يا سيدي الفارس، إنجليزي أصيل ، كما كانت الدماء الإنجليزية الخالصة  
تجري في عروق قديسي دونستان الذي يقوم على حمايتي ، وكان يزدري  
الأغنيات الفرنسية ازدرأه لظفر حافر الشيطان . لن أسمع بغناء ينشد في  
هذه الصومعة إلا ما كان إنجليزياً أصيلاً . »

فقال الفارس :

— « سأغني إذن ملحمة شعرية وضعها مطرب سكسوني كنت قد  
التقيت به في الأراضى المقدسة ، .

وسرعان ما استبان للناسك أن الفارس وإن لم يكن أستاذاً بارعاً في  
الموسيقى ، إلا أن تذوقه لها كان قد غرس على الأقل تحت رعاية أفضل  
الأساتذة ، وأن الفن قد هذب من عيوب صوت لا يسترق منك السمع ،  
نجاف بطبيعته أكثر من أن يكون رخباً ، وقصارى القول فقد قام بكل

ما استطاعت الثقافة أن تفعله لسد النقص الطبيعي فيه ، وكان من المحتمل اعتبار عزفه موضع تقدير شديد من الناسك ، خاصة وأن الفارس كان يمزج ألحانه بشيء من العاطفة المليئة بالحياة حيناً ، وبجهاش حزين حيناً آخر ، مما أضفى على النظم الذي غناه قوة وجمالاً .

### عودة الصليبي

- ١ -

بعد أن قام بأعمال مجيدة مرموقة في عام الفروسية  
عاد البطل من فلسطين  
يحمل صليباً على كتفيه  
جعلته المارك والمواصف معتم اللون عرقاً .  
وكل أثر لضربة على درعه المتصدع  
كان دليلاً على معركة خاضها  
وهكذا تحت شرفة حبيته  
غنى ساعة الفسق

- ٢ -

أفرحى أيتها الجميلة ١ - انظري إلى فارسك  
وقد عاد من أرض الذهب هناك  
لأنه لم يأت معه بثروة ، وهو في غير حاجة إلى ثراه  
سوى ساعديه المفتولين وجواد معاركه  
ومهازيه للانقضاض على عدو

— ٢٢٨ —

ورمحه وسيفه ليصرعه  
كانت هذه كل ثمرات جهده  
هذه — والأمل في بسمه من تكلاه ،

— ٣ —

فلتفرح الجيلة التي أشعل حبا النار في فارسها الوفي.  
ودفعه إلى القيام بأعمال الفخار  
ولن تبق بعد الآن غير مرموقة  
عند اللقاء مع ركب الحاشية الزاهي النبيل  
وسيتغنى المنشدون بها ويهتفون باسمها .  
ه انظر جيداً إلى تلك الغادة ذات الجمال  
التي من أجل عينها الناصعتين  
أحرز النصر في معركة عسقلان الشهيرة

— ٤ —

أمن النظر في ابتسامتها - لقد شحذت السلاح  
الذي أحال خمسين زوجة إلى أرامل  
عندما سقط سلطان أيقونيا المعمم  
وقد غارت قواه ولم يدركه سحر ساحرته  
أترى إلى جدائلها التي يسطع بريقها الذهبي  
وتكاد تخفى في نفس الوقت عنقها الثلجي !  
من أجل كل شعرة ذهبية فيها

سال دم واحد من الأعداء  
فلتفرحى أيتها الجميلة — إن اسمى سيبقى مجهولا  
وتصبح كل أعماله العظام وجميع أمجاده ملكا لك  
ثم أوه ! انزعوا عن هذه البوابة الغليظة قضبانها  
فندى الليل يتساقط والليل يمضى .  
وبعد أن اعتدت على أجواء سوريا الملتية  
أحس ببرودة نسيم الشمال وكأنها الموت  
فليتنصر الحب العارف بالجميل على خفر العذراء  
وامنحى الهناء لمن يأتيك بالفخر .

كان الناسك يسلك خلال هذا الإنشاد مسلك ناقد معاصر من طراز  
فريد في أثناء عرض مسرحية غنائية جديدة ، فقد اضطجع في مقعده وعيناه  
نصف مغلقتين ، وكان حيناً يطوى يديه ويدير إبهامهما ويبدو غارقا في التأمل ،  
وحيناً آخر يهز راحتيه المبسوطتين ويحركهما بهوادة في أثناء إيقاع الموسيقى ،  
وعند عزف نغم أو اثنين من الأنغام المحببة إليه ، كان من ناحيته يقوم  
بمساعدة عابرة عندما يبدو صوت الفارس غير قادر على الارتفاع به وفق  
ما يرضى ذوقه المتعبد . وعندما انتهت الأنشودة ، أعلن الناسك أنها لا ريب  
أغادة وأنها كانت بديعة الإنشاد ، وقال :

— . ومع ذلك فإني أظن أن مواطني الساكسونيين قد خالطوا  
النورمانديين بالقدر الذي يني بأن يجعلهم يستسيغون أغانيهم الحزينة .  
ما الذي حدا بالفارس الشريف أن يكون هكذا بمنأى عن وطنه ؟ أو ماذا  
كان ينتظر إلا أن يجد حبيته عند عودته وقد وعدت باختيارها منافساً له

بالزواج منها ، أو أن ، أنشودة غرامه ، - كما يسمونها - لا يؤبه لها وكأنها مواء قطة في بالوعة الطريق ؟ وعلى أى حال فإنى ياسيدى الفارس أحتمى هذه الكأس فى نخبك ونخب توفيق جميع المحبين الأوفياء وأخشى ألا تكون واحداً منهم . . أضاف ذلك عندما رأى أن الفارس (الذى بدأت الخمر تلعب برأسه بعد أن جرغ هذه الأقداح المتعاقبة ) قد ملاً كأسه من جرة الماء .

قال الفارس : « لماذا ؟ أو لم تقل لى إن هذا الماء من نبع حاميك المبارك القديس دونستان ؟ » . فقال الناسك :

- « نعم هذا حق . لقد عمد مئات من الوثنيين بهذا الماء ، ولكنى ما سمعت قط بأنه شرب منه ، ويجب أن يوضع كل شىء فى هذه الدنيا فى نصابه . لقد كان القديس دونستان يعلم - كأى فرد آخر بميزات الراهب المرح ، . وعند هذا أخذ القيثارة وأنشد الأغنية المميزة التالية من الغناء الجماعى الموفق على نغم إنجليزى قديم احتفاء بضيفه .

« الراهب عارى القدمين »

- ١ -

إنى أمنحك أيها الرفيق الطيب سنة أو اثنتين  
لتبحث فى كل جنبات أوروبا من بيزنطة إلى إسبانيا  
ومع ذلك فإنك لن تعثر - ولو بحثت حتى يصيبك الإجهاد -  
على رجل فى مثل سعادة الراهب عارى القدمين .

\* \* \*

- ٢ -

يندفع فارسكم نحو الطعان من أجل سيده



— ٢٣١ —

ويعود في الغروب مسجى مطعوناً بريح  
فأخذ منه الاعتراف على عجل لأن سيدته  
لا ترضى بأى عزاء من مخلوق على وجه البسيطة  
إلا من الراهب عارى القدمين .

\* \* \*

— ٣ —

ملككم يا للسخرية ! أكثر من أمير عرف الناس عنه  
أنه بدل من أزيائه بقلنسوتنا وثوبنا  
ولكن من منا أحس في وقت ما بالرغبة الهزيلة  
في استبدال قلنسوة الراهب الرمادية بأحد التيجان ؟

\* \* \*

— ٤ —

لقد سار الراهب وأينما ذهب  
اعتبرت الأرض وخيراتها ملكاً له  
يستطيع التجوال حيثما شاء والتوقف إذا ما أحس بالتعب  
فإن منزل كل رجل دار للراهب عارى القدمين

\* \* \*

— ٥ —

ينتظره الناس عند الظهيرة ولبس لإنسان حتى يحضر  
أن يدنس المقعد الكبير أو عصير البرقوق

— ٢٢٢ —

فشبهى الطعام والماعد المجاور للنار  
حق لانزاع فيه للراهب عارى القدمين

\* \* \*

— ٦ —

ينتظره الناس في المساء والفطيرة ساخنة  
وهم ينتزعون سدادات قوارير الجعة السعراء، ويملاون الأقداح السود  
وربة البيت ترغب في أن يفوس زوجها في الرغام  
ولا تنقص وسادة ناعمة من مضجع الراهب عارى القدمين

\* \* \*

— ٧ —

فليعش النعل والحبل والرداء الكهنوتى طوبلا  
والحذر من للشيطان والإيمان بالبابا  
لجمع ورود الحياة دون الأذى من أشواكها  
مباح فقط للراهب عارى القدمين .

فقال الفارس : « بحق إيماني لقد غنيت شدوا جيلا صادق الأداء وفيه  
إشادة عظيمة بطائفتك ، وما دمتنا قد عرضنا لذكر الشيطان ، أفلا تخشى  
أيها الراهب المقدس من احتمال زيارته لك في أثناء سلواك هذه التي لا تمت  
إلى الرهبانية بصلة ؟ ، فأجاب الناسك :

— « إني لست رهبانياً ! إني أزدرى هذا الانهام وأسحقه بقدمي .  
إني أقوم على خدمة كنيسة بوفاء وحق ، وأودى قداسين كل يوم في  
الصباح وفي المساء ، وأقيم الصلاة عند السحر والظهيرة والغروب ، ...  
« فقاطعه ضيفه قائلاً :

— « ما عدا الليالى المقمرة فى موسم اللحوم » . فقال الناسك :

— « بل ما عدا الوقت — كما لقنى رئيسى الهرم أن أقول — الذى يسألنى فيه عليانيون سليطو الألسنة عما إذا كنت أحافظ على جميع مراسم طائفتى » . قال الفارس :

— « حقا أيها الأب المقدس ! ولكن الشيطان زعيم بأن يتصيد مثل هذه الأشياء التى لا تحدث إلا قليلا . إنه يتجول كما تعلم مثل الأسد المزجر » .  
فقال الراهب :

— « دعه يزأر هنا إن اجترأ على ذلك . إن لمسة من حبل ستجعله يجأر بالزئير وكان ملقط القديس دونستان قد مسه . ما خشيت إنسانا قط ، ولا أرهب الشيطان وأتباعه أبداً ، فبفضل القديسين دونستان ودوبريك ووينيالد ووينفريد وسويرت وويليك مع عدم إغفال القديس توماس آ كنت ، بالإضافة إلى جهودى المتواضعة اتحدى أى شيطان مهما كان مرآه ومهما كان ذيله طويلا ، ولما كنت دعنى أمر لك أمرا — إننى يا صديق لا أتحدث أبداً فى مثل هذه الأمور إلا بعد صلوات الصباح » .

عند هذا غير مسرى الحديث ، وازداد مرحها عنفاً وصخباً وتبادلا فيما بينها أكثر من أغنية ، وفيما هما فى هذا إذ بدقات تقرع باب الصومعة قرعاً عنيفاً وتقطع عليهما ما هما فيه من بهجة وحبور ، ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن ملابس هذه المقاطعة تفصيلا إلا بعد أن نوجز مغامرات مجموعة أخرى من الشخصيات ، لأننا كأرسطو القديم لا نعز بالنواجز على شخصية واحدة بعينها من قصتنا .

## الفصل الثامن عشر

هبا بنا نمضى لأن طريقنا يخترق الوهاد والنوديان  
حيث يتعثر الظبي الصغير المرح إلى جوار أمه الهيابة ،  
وحيث شجرة البلوط الظليلة بأغصانها الحاجزة  
تمحجب شعاع الشمس عن الممر الأخضر .  
انهمضوا ولنمض فهده طرق يحلو المسير عليها  
عندما تكون الشمس البهيجة على عرشها  
وهي بمرات أقل جمالا وأمنا ، عندما  
يضى مصباح سينثيا الغابة الموحشة بضوئه الخافت .

( غابة إتريك )

عندما أبصر سيدريك الساكسونى بابنه يسقط على الأرض فاقدا لرشده  
في ساحة آشي ، كان أول ما انتابه من شعور هو أن أمر بوضعه تحت رعاية  
الخاصة من خدمه ، ولكن الكلمات توقفت بين شفثيه ، ولم يستطع أن  
يجهد نفسه أمام مثل هذا الجمع على الاعتراف بالابن الذى أنكره وحرمه  
من أن يرثه ، وعلى الرغم من ذلك فقد أمره أوزولد ، بالألا يفتر عن ملاحظته ،  
وطلب إلى هذا التابع واثنين من العبيد أن يحملوا أيفانمو إلى آشي حالما  
تنصرف الجماهير ، ولكن آخرين قد سبقوا أوزولد ، إلى القيام بهذا  
العمل الجليل .

لقد تفرق الزحام حقا ولكن أحدا لم يعد يرى أيفانمو في أى مكان ،  
وظل ساقى سيدريك يبحث عن سيده الشاب على غير طائل ، وشاهد البقعة  
الدائمة التى سقط فوقها منذ قليل واماكنه لم يره ، فبداله وكان الجنيات قد

نقلته من موضعه . آمن أوزولد بهذه العقيدة ( لأن الساكونيين كانوا شديدي الإيمان بالخرافات ) كبرر لاختفاء أيفانهو لو لم تقع عينه فجأة على رجل في مظهر الوصفاء عرف فيه ملامح جيرث رفيقه في خدمة سيدريك ، وكان راعى الخنازير الذى لا يستقر على حال - وقد استبد به القلق من أجل مصير سيده واليأس لاختفائه الفجائى - يبحث عنه فى كل مكان ، وقد أهمل فى أثناء قيامه بهذا العمل ذلك التخفى الذى كانت سلامته رهنا به . رأى أوزولد أن من واجبه القبض على جيرث كهارب ولسيده أن يقرر مصيره .

أخذ الساقى يسأل من جديد عن أيفانهو ، وكل ما استطاع أن يعرفه من النظارة بعد طول التقصى هو أن بعضا من الخدم يرتدون ثيابا جميلة قد حملوا ذلك الفارس برفق وهوادة ووضعوه فى محفة تمتلكها سيدة من بين المشاهدين ، ونقلوه دون ما إبطاء إلى الخارج من وسط الزحام . اعتمز أوزولد عندما عرف هذه الأنباء أن يعود إلى سيده ليتلقى المزيد من الأوامر، وأخذ معه جيرث الذى يعتبره إلى حد ما هاربا من خدمة سيدريك .

كان الساكونى نبأ لا اضطراب فكرى شديد أليم بشأن ولده ، فقد أثبتت الطبيعة انتصارها على الرغم من الشعور بعدم المبالاة التى تثيره شئون الوطن ، مع أنه ما كان يحفل بهذه الطبيعة إلا قليلا ، ولم يكذب يعرف أن أيفانهو بين أيد أمينة ، وربما بين أيد صديقة ، حتى عاوده الغضب ، والشعور بالكبرياء المجروح وما كان يسميه بالعصيان البئوى وحلات محل القلق الأبوى الذى أيقظه الشك فى مصير ولده وقال :

— • دعوه يمش فى طريقه ، وليأس جراحه أولئك الذين أصيب من أجلهم ، لأنه أصبح أكثر صلاحية للقيام بالأعباء شعوذة الفروسية النورماندية من المحافظة على سمعة أسلافه الإنجليز وشهرتهم بالسيف والدرع

والسهام ، تلك الأسلحة البشارة القديمة لبلادنا هذه ، . فقالت رويانا التي كانت حاضرة آتتذ :

- « يكفي أن يكون المرء حصيماً في رأيه مقداماً في إنجازهِ للحفاظ على شرف السلف، وإن، لا أعرف من بين أشجع البواسل ، وأكثر الناس وداعة ورقة سوى صوت أبيه . . . ، قاطعها سيدريك قائلاً :

- « الصمت أيتها اللىدى رويانا ! هذا الأمر وحده لا أستمع إليك فيه . أعدى نفسك لحفل الأمير ، فقد دعينا إليه بقدر من التكريم والتبجيل لم نألفه من قبل ، ولم يسبق لأوتك النورماندين الصلفين أن عاملوا بها شعبنا منذ يوم « هاسنجز ، المشنوم إلا لمأماً . سأبى الدعوة وإن لم يكن ذلك إلا كي أدلل لهم على عدم اكترات سا كسونى بمصير ابن استطاع أن يقهر أشجع بواسلهم ، . وقالت رويانا :

- « أما أنا فلن أذهب إلى هذا الحفل ، وإنى لأرجو أن تكون على حذر حتى لا يؤخذ ما عمدت به إلى الشجاعة على أنه قسوة قلب ، . فقال سيدريك :

- « إذن فلتبقى بالدار أيتها السيدة الجاحدة فليس هناك ما هو أقى من قلبك الذى يستطيع أن يضحى برفاهية شعب مغلوب على أمره من أجل علاقة خاملة رخيصة . سأبحث عن أثيلستين النبيل وأذهب برفقته إلى وليمة يوحنا أوف آنجو ، .

ثم قصد إلى الحفل الذى سبق لنا وأوردنا أحداثه الرئيسية ، وبعد أن انصرف النبيلان الساكسونيان من القصر غاضبين ، امتطيا جواديهما ومعهما أتباعهما ، وهناك سيدريك خادمه الهارب جبرث لأول مرة .

كان النبيل الساكسونى قد عاد من الحفل كما رأينا نائراً الطبع ، ولم يكن يهفو إلى شيء إلا أن يتلمس الأسباب ليفرغ غضبه على شخص ما فقال :

- الأغلالات الأغلالات أوزولاه هندبرت ، لماذا تركم الوغد  
بلا قيود أيها الكلاب الأندال ٤٠ .

ودون أن يجترثوا على الاعتراض ، قام رفاق جيرث بتصفيده  
بالجبل الذي يلتف حول رقبة الجواد ، إذ أنه كان أقرب شيء معد  
أمامهم ، واستكان جيرث لما فعلوا دون مقاومة إلا أنه رمق سيده بنظرة  
فيها عتب وقال :

- أهذا جزاء جبي للحمك ودمك أكثر من جبي للحمي ودمي ؟  
وقال سيدريك :

- امتطوا خيولكم وهيا بنا نمضي ، وقال النبيل أثيلستين :

- لقد آن لنا حقا أن نرحل ، وإذا لم نعد بأسرع ما نستطيع فسيقت  
علينا العشاء الذي أعده راهب ويلثوف الموقر :

وعند هذا أسرع المسافرون كي يصلوا إلى دير القديس ويشواد قبل  
أن يلحق بهم ما كانوا يخشونه من ضرر .

استقبل رئيس الدير - الذي كان ينحدر من دم ساكسوني - ذلكما  
النبيلين الساكسونيين بالترحاب الفائق الصاحب الذي كان من خصائص  
هذا الشعب ، وبقيامعه حتى ساعة متأخرة من الليل ، أو بالأحرى حتى  
ساعة مبكرة من النهار ، ولم يغادرا مضيقيها المبجل في صبيحة اليوم التالي قبل  
أن يشتركا معه في إفطار فاخر .

وبينما كان ركبهم يغادرون الدير إذ بمحدث يقع بحس معه الساكسونيون  
بنذير شؤم لأنهم كانوا من أكثر شعوب أوروبا اعتقاداً في خرافة تلك  
النذر ، وما زالت هذه المعتقدات باقية في تراثنا الشعبي القديم ،

أما النورمانديون الذين كانوا شعباً خليطاً وأكثر دراية بعلوم ذلك الوقت ، فقد تخلصوا من أكثر المعتقدات الخرافية التي كان أسلافهم قد جاءوا بها من « اسكندنافيا » ، وكانوا يفاخرون بأنهم يفكرون فيها بلا حرج .

كان مرأى كلب نحيل أسود يجلس القرفصاء ، ويعوى بصوت باعث على الإشفاق ، هو الذي أوحى بنذير شر عندما بدأ راكبو المقدمة يغادرون باب الدير ، ثم أخذ على الفور يبعث نباحاً صارخاً ، ويقفز هنا وهناك وكأنه مصر على أن يتخلى عن الركب فقال أثيلستين :

« إني لا أهوى هذه الموسيقى أيها الأب سيدريك ، إذ أنه قد اعتاد على أن ينادى سيدريك بهذا اللقب إفصاحاً عن إجلاله له . وقال واما :

« ولأنا أيضاً باعماه ، وإن أشد ما أخشاه أن يصادفنا اليوم شؤم .  
وقال أثيلستين وقد كان لجة الراهب الشبية أثر طيب في ذهنه (لأن بيرتون كانت معروفة بهذا الشراب المحبب إلى النفس) :

« أرى أنه من الأوفق لنا أن نعود أدراجنا ونبقى مع رئيس الدير إلى ما بعد الظهيرة ، لأن من بواعث سوء الطالع أن تسافر ويقطع عليك طريقك راهب ، أو أرنب برى أو كلب يعوى ، حتى تتناول وجبتك التالية .  
فقال سيدريك وقد نفذ صبره :

« هيا ! إن سفرتنا طويلة يقصر عن إنجازها يوماً ، أما الكلب فإني أعرف أنه جرو العبد الهارب جيرث . إنه كلب ضال لا يرجى منه نفع شأن سيده . .

قال ذلك ثم وقف في ركابه وقد أخذه الضيق لتوقف مسيره ، وقذف برمحه نحو فانجز المسكين الذي كان قد تتبع سيده منذ رحيله للقيام بمهمته الخفية ثم ضل أثره ، وها هو ذا الآن يعبر بأسلوبه الجاف عن فرحته لعودة



سيده إلى الظهور . أصاب الرمح الحيوان بجرح في كتفه وكاد أن يلصقه بالأرض لو لم يخطئه بمسافة قصيرة ، فجرى فانجز وهو يعوى فاراً من أمام سيده الثائر .

فاضت حنايا قلب جيرث ، بالغضب ، فقد آلمه هذا الشروع العمد في قتل مساعده الأمين أكثر مما آلمته المعاملة الجافة التي لقيها منذ حين ، وحاول عبثاً أن يرفع يده إلى عينيه ، فقال لو أمبا الذي كان قد رجح القهقري حذراً عندما رأى غضب سيده :

.. « أرجوك أن تصنع لي جميلاً وتمسح عيني بطرف عباةتك لأن التراب يؤذيها ، وهذه القيود لا تتيح لي فرصة الراحة على أية صورة . »

قام وأمبا بما طلب إليه ، وسارا جنباً إلى جنب حيناً من الوقت كان جيرث خلاله لا يجيد عن صمته المنجم ، ولكنه لم يستطع كبت مشاعره إلى أكثر من ذلك فقال :

« أيها الصديق وأمبا ، ليس من بين جميع أولئك الحق الذين يقومون على خدمة سيدريك من يتجلى بقدر من المهارة يني بأن يجعل الأعمال الحقاء مستساغة لديه سواك ، فاذهب إليه وقل له إن جيرث لن يقوم على خدمته بعد اليوم ، لا بدافع من الحب ولا من الخوف . يستطيع أن يطيح برأسي . يستطيع أن يلعب بالسياط جسدي . يستطيع أن يغلاني بأصفاد من حديد . ولكنه منذ الآن لن يقوى على أن يكرهني على حبه أو طاعته . اذهب إليه وقل له إن جيرث بن بيوولف ينسكرك لخدمته ، : فقال وأمبا :

« على الرغم من حماقتي فثق باني لن أقوم بتلك المهمة البلهاء التي تطلب مني إنجازها ، فإن هناك رجلاً آخر مثبتاً إلى إحزام سيدريك ، وأنت تعلم أنه لا يخطئ الهدف دائماً . » فقال جيرث :

— « لست أبالي متى يجعلني هدفا له ، لقد ترك بالأمس سيدي الشاب  
وبلفريد غارقا في دمه ، وحارل اليوم أن يقتل أمام عيني المخلوق الوحيد  
الآخر الذي أظهر لي حنانه . أقسم بالقديسين آدموند ودونستان وويثولد  
وإدوارد الذي يتلقى الاعتراف ، وكل قديس ساكسوني آخر في القائمة (لأن  
سيدريك ما كان يقسم بأى قديس لا ينحدر من أصل ساكسوني وكان لكل  
خدمه نفس هذه التقوى المتعصبة ) بأنى لن أغفر له أبداً . فقال المهرج  
الذى كان كثيراً ما يقوم بدور رسول السلام في إطار الأسرة :

— « فى رأي أن سيدنا لم يكن عامدا إلى إيذاء فانجز ولكنه كان يريد  
إرهابه فقط ، فهو — لو كنت قد فطنت — قد وقف فى ركايه وكأنه بذلك  
يرمى إلى تخطى الهدف ، ولو كان فانجز قد ظل فى مكانه لما مه ضره، ولكنه  
قفز فى نفس اللحظة فأصيب بجرح سطحى ، وأؤكد لك بأنه سيرا منه بمقدار  
مساحة بنس من القار . فقال جيرث :

— « ليتنى أظن ذلك ! ليتنى أستطيع أن أظن ذلك ! ولكن لا ، لقد  
رأيت الرمح مسدداً بإحكام ، وسمعتة يتر فى الهواء بكل ما كان يسيطر على  
راميه من غضب يفيض شراً ، وكان يهتز بعد أن غاص فى الأرض وكأنه  
حزين على عدم إصابته لهدفه . أقسم بالخنزير العزيز على القديس أنطوني  
بأنى أمقته ! .

ثم عاد راعى الخنازير الغاضب إلى صمته العابس الذى لم تستطع جهود  
المهرج أن تبدده .

كان قائدا الركب سيدريك وأثيلستين يتحدثان معا فى شئون البلاد ،  
وخلافات الأسرة المالكة ، والخصومات والشحناء الناشئة بين النبلاء  
النورمانديين ، والفرصة السانحة للساكسونيين المضطهدين للتحرر من نير  
النورمانديين، أو على الأقل كى يرقوا بأنفسهم إلى كيان وطنى مستقل خلال

الاضطرابات الداخلية التي كانت محتملة الوقوع . كان سيدريك شعلة من التفاني في سبيل إتمام هذا الخلاص ، وكانت عودة الحرية إلى شعبه رمزجه ، ومن أجلها ضحى راضياً بهناه يتهوصالح ولده ، ولم يكن هناك من سبيل إلى القيام بثورة عارمة لصالح الوطنيين الإنجليز إلا بأن يتحدوا فيما بينهم ويعملوا تحت قيادة رئيس معترف به ، ولم يكن اختيار زعيم لهم من سلالة اندم الملكي الساكسوني أمراً بدهيا فحسب ، بل وكان شرطا أساسياً لأولئك الذين أطلعهم سيدريك على آماله وخططه السرية . كان هذا الشرط متوافرا في أيلستين ، ومع أنه لم يكن يتمتع إلا بالقليل من مزايا الذهن الصافي أو المواهب التي تؤهله للقيادة ، إلا أنه كان طيب السريرة ولا يتصف بالجنون ، وكان معتاداً على التدريبات العسكرية ، يبدو راغبا في النزول على رأى مستشارين يفوقونه حصافة وفضنة ، وفوق كل ذلك فقد كان معروفا بالجدو وكرم الضيافة ، ويعتقد الناس أنه على خلق رفيع ، ولكن مهما يكن لدى أيلستين من المزايم في أحقيته لرئاسة الجالية الساكسونية ، إلا أن الكثيرين من أبناء هذا الشعب كانوا على استعداد لأن يؤثروا عليه أحقية الليدي روبينا في تولى هذه الزعامة ، حيث إنها كانت تنحدر عن الملك ألفريد ، وكان أبوها زعيما عرف عنه أنه رجل حصيف مقدم مبسوط اليد ، تحظى ذكراه بأعظم التكريم بين مواطنيه المضطهدين .

لم يكن من العسير على سيدريك - لو أراد ذلك - أن ينصب نفسه على رأس حزب ثالث له قوة تعادل كلا من الحزبين الآخرين على الأقل ، فبالإضافة إلى أنه كان ينحدر من أصل ملكي فإنه كان يتميز بالشجاعة ، مليئا بالحياة والنشاط ، وكان فوق كل هذا متفانيا في خدمة القضية الوطنية مما جعل القوم يلقبونه « بالساكسوني » ، هذا ولم يكن مولده أقل رفعة من أى شخص آخر إذا استثنينا أيلستين وربيبته فقط ، ومع ذلك فلم يرق إلى خلاله تلك أى ظل من الإيثار ، وبدلا من أن تزداد الفرقة بين شعبه

المنهوك القوى بإنشاء حزب خاص به، فقد فكر في أن يزوج روينام من أثليستين، وكان هذا أحد مشروعاته الرئيسية للقضاء على الشحنة التي كانت تنخر في عظامهم، إلا أن عقبة قد قامت دون إتمام هذا الأمل العزيز على قلبه، ألا وهي تلك العلاقة بين ريبته وبين ابنه، ومن هنا كان الباعث الحقيقي على إقضاء ويلفريد عن بيت أبيه، وكان سيدريك يريد أن يتخذ هذا الإجراء الصارم العنيف أملاً في أن تكف روينام عن تفضيل ويلفريد في أثناء غيابه، ولكن أمله قد خاب في هذا، ومن المحتمل أن يعزى السبب في هذه الخيبة - إلى حد ما - إلى الأسلوب الذي نشئت عليه ريبته، فإن سيدريك الذي كان يضع اسم الملك ألفريد في مرتبة الآلهة، كان يعامل الحفيدة الوحيدة الباقية لذلك الملك العظيم بدرجة من التبجيل قلباً لقبها أميرة معترف بها في تلك الأيام. كانت مشيئة روينام في أكثر الحالات قانوناً لأهل منزله، وكان سيدريك نفسه يبدو مغوراً حين يعاملها كأنه أول رعاياها، وكأنه كان مصراً على أن تصبح سيادتها نافذة كل النفاذ ولو في داخل هذا المحيط الضيق على الأقل.

كانت روينام بسبب تربيتها الأولى وما درجت عليه من فرض مشيئتها، بل وسلطتها الأمرة، على استعداد لأن تناهض وتستنكر أية محاولة لتوجيه عواطفها أو زواجها بمن يتعارض ورغباتها، وكانت حريصة على أن تؤكد إرادتها الحرة في مثل هذه الحالة التي كانت النساء اللواتي نشأن على الطاعة والخضوع كثيراً ما يعارضن فيها سلطة الأوصياء والآباء، وكانت تجر في علانية وجرأة بتلك الأفكار العارمة التي تشغل عليها أحاسيسها، وكان سيدريك الذي لم يستطع أن يحل نفسه من قيد احترامه لأرائها، يحس بالحيرة الكاملة في سلوك السبيل الذي يفرض به سلطته كوصى عليها.

لقد حاول على غير جدوى أن يمنيها بفكرة عرش وهمي، ولكن روينام ذات العقل الراجح كانت ترى أن خطته عسيرة التنفيذ، هذا من ناحية،

ومن ناحية أخرى فقد كانت غير راغبة فيها حتى لو استطاع القيام بها ، ودون أن تحاول إخفاء تفضيلها لويلفريد أوف أيفانفو الذى جهرت به ، فقد أعلنت أنه إذا ما استبعد هذا الفارس المفضل ، فإنها تؤثر الانجلاء إلى أحد الأديرة على أن تشارك في عرش مع أثيلستين الذى كانت لا تفتقر عن ازدرائه ، والذى بدأت الآن تبغضه أشد البغض من جراء المتاعب التى تلقاها بسببه ، وعلى الرغم من ذلك فإن سيدريك الذى كان يؤمن بأن الوفاء عند المرأة لا يسنقر ولا يدوم ، قد أصر على أن يطرق كل وسيلة مستطاعة لتحقيق الزواج المقترح ، لأنه كان يرى في إتمامه خدمة جليلة للقضية الساكونية . حقا لقد رأى أن المظهر المفاجيء الدال على الفروسية الذى ظهر به ابنه في ساحة أشبي كان ضربة كادت تقضى على آماله ، وحقا لقد انتصرت عاطفة الأبوة على كبريائه ووطنيته ، ولكن ذلك لم يدم إلا للحظات قصار لم يلبثا بعدها أن عاوداه بعنف شديد ، وأصبح الآن تحت تأثيرهما المشترك مصرا على بذل جهد صادق في سبيل إتمام زواج روينامن أثيلستين، بالإضافة إلى الإسراع في اتخاذ الخطوات الأخرى التى كانت تبدو من الضرورة بمكان لتحقيق إعادة الاستقلال الساكوني .

كان في ذلك الوقت يناقش هذه القضية الأخيرة مع أثيلستين ، وإن كان بين الفينة والفينة يأسف إذ يرى نفسه مسوقا — مثل هوتبور — إلى أن يحرك هذا الوعاء الذى انتزع منه الدسم لمثل هذا العمل النبيل . لقد كان في طبع أثيلستين الغرور حقا ، وكان يجب أن تشنف أذنيه القصص التى يسمعها عن منته السامى ، وحقه الوراثة في أن يكون ذا سيادة وولاية ، ولكن ذلك الولاء الذى كان يسرف في تقديمه إليه الخاصة من أتباعه والساكونيون المقربون إليه ، كان يشجع غروره الحقيق . ومع أنه لم يكن هيابا عند ملاقاته الخطر إلا أنه كان يمتك البحث عنه ، ومع موافقته على المبادئ العامة التى وصفها سيدريك بشأن حق الساكونيين في الاستقلال ، واقتناعه أكثر من ذلك بأولويته في أن يكون حاكما لهم إذا ما حصلوا عليه ،

فقد كان أثيلستين الحامل عند مناقشة الوسائل التي تؤكد هذه الحقوق .  
بظل بطيئا مترددا متخاذلا عاجزا ، وكان لنصائح سيدريك التي تشتعل  
حماساً من الأثر على طبيعته الجامدة ، مالمكرات محماة يلتقي بها في الماء فتحدث  
صوتا خفيضاً ودخاناً ولكنها سرعان ما تزدوى . وإذا ما ترك سيدريك هذه  
المهمة الشبيهة بوكز جواد أضناه طول السفر ، أو بالطرق على حديد بارد ،  
وعاد إلى ربيته رويانا ، فما كان يحظى من خلال حديثه معها بمزيد من الرضى .

كان ذهابه إليها يقطع عليها الحديث مع وصيفتها المفضلة عن شجاعة  
ويلفريد ومصيره ، وما كان يفوت «ألجينا» أن تثار لسيدتها ولنفسها فتشير  
إلى سقوط أثيلستين في الميدان ، وهو أسوأ الأشياء وقعاً على سمع سيدريك ،  
ولذلك كانت سفرة الساكسوني الجاف في ذلك اليوم مقرونة بكل أنواع  
السخط والقلق ، حتى إنه لعن من أعماق نفسه أكثر من مرة تلك المباراة  
ومن ابتدعها ، وحماقته حين فكر في الذهاب إليها .

وبناء على اقتراح من أثيلستين توقف الركب عن المسير ساعة الظهيرة  
في مكان ظليل على مقربة من عين ماء كي تستريح جيادهم ، وليتناولوا شيئاً  
من ذلك الطعام الذي كان رئيس الدير المضيف قد حمّله على إحدى بغال  
حمل الأثقال .

كان الوقت الذي تناولوا فيه وجبتهم طويلاً إلى حد ما ، وكانت كل هذه  
الوقفات سبباً في أن يكون وصولهم إلى «رودروود» ضرباً من المحال ،  
مالم يجدوا في المسير طوال الليل ، وعندما اقتنعوا بذلك ، أخذوا يواصلون  
رحلتهم بسرعة تزيد كثيراً على ما كانوا عليها من قبل .

## الفصل التاسع عشر

موكب من رجال يحملون السلاح ليحرسوا سيده نبيلة  
هكذا أفصحت كلماتهم المتناثرة  
وأنا أسير في مؤخرتهم ولا يفطنون إلى  
ها هم هؤلاء قد اقتربوا ! إنهم يزمعون قضاء الليل بالقصر .  
« أورا - تراجيدا »

كان المسافرون في ذلك الوقت قد بلغوا حدود منطقة الغابات ، وكانوا على وشك التوغل في دروبها المنعزلة التي كانت تعتبر مكنّ خطر آنذاك لكثرة الخارجين على القانون الذين دفع بهم الاضطهاد والفقر والقنوط إلى امتنان هذا العمل ، وكانوا ينتشرون في تلك الغابات في جماعات كبيرة تستطيع في غير عسر ولا مشقة أن تتحدى قوات الشرطة التي كانت ضعيفة في تلك الآونة لا تقوى على ردهم ، ومع ذلك فقد كان سيدريك وأثيلستين يعتبران نفسيهما في مأمن من شرهم على الرغم من تلك البعاعة المتأخرة من الليل ، كان برقتهما عشرة من الأتباع بخلاف وامبا وجيرث اللذين لم يكن الاعتماد عليهما مستطاعا ، لأن أحدهما كان مهرجاً والآخر مغلاً ، هذا بالإضافة إلى أن سيدريك وأثيلستين كانا يعتمدان في اختراقهما للغابة في ذلك الوقت المتأخر على أصلهما وطبيعتهما ، كما يعتمدان على شجاعتهما .

كانت الكثرة الغالبة من الخارجين على القانون ، الذين دفعتهم قسوة قوانين الغابات إلى امتنان هذا اللون المشرد اليائس من ألوان الحياة من الفلاحين ، ومن الطبقة الوسطى التي تنمو إلى الأصل الساكسوني ، وكان من المعتقد بصفة عامة أنهم يضعون مواطنيهم وما يمتلكون موضع التقدير .

وبينما كان المسافرون ماضين في طريقهم ، إذ بهم يسمعون صرخات متعاقبة تطلب النجدة بعثت الفرع في قلوبهم ، وعندما ذهبوا إلى المكان الذي صدرت منه ليستطلعوا الخبر ، أخذتهم الدهشة إذ رأوا محفة خيول موضوعة على الأرض ، تجلس بجوارها امرأة شابة ترتدى ثياباً فاخرة على الطراز اليهودي ، ورجل هرم يفصح غطاء رأسه الأصفر عن انتهائه لهذه الطائفة نفسها ، يروح ويفدو وعلى وجهه أمارات ياس دفين ، يعصر يديه وكأن كارثة قد ألمت به .

لم يستطع اليهودي الهرم أن يجيب على أسئلة أثيلستين وسيدريك إلا بالابتهاال إلى جميع أنبياء العهد القديم على التعاقب كي يقوموا على حمايته من بنى إسماعيل الذين كانوا آتين لضرب جميع أجزاء أجسادهم بحد السيف ، وعندما بدأ يفبق من نوبة رعبه ، استطاع إسحق أوف يورك ( لأن ذلك الرجل كان صديقنا القديم ) أن يوضح لهم أنه كان قد استأجر في آشي حرساً خاصاً من ستة رجال ، ومعهم الدواب اللازمة لحمل محفة صديق مريض ، وقد أخذوا على عواتقهم أن يقوموا على حراسته حتى يصل آمنا إلى دونكاستر ، ولكن عندما علم مرتزقة إسحق من أحد الخطابين أن هناك أمامهم عصاة قوية من الخارجين على القانون تتربص بهم في الغابة ، أسرعوا إلى الهرب وأخذوا معهم الخيول التي تحمل المحفة ، وتركوا اليهودي وابنته وليس لدهما أى وسيلة للدفاع أو التقمقر ، أو ربما للقتل على أيدي أولئك اللصوص الذين كانوا يتوقعون منهم هجوماً بين لحظة وأخرى ، وقال إسحق بصوت ينم عن المذلة الدفينة :

— « أتأذنون أيها البواصل لليهودى المسكين بالسفر في حماكم ، أقسم بنواميس قانوننا أن ما من جبل أسدى إلى طفل من بنى إسرائيل منذ أيام أسرنا إلا وسنعترف به شاكرين ، . فقال أثيلستين الذى كانت ذاكرته من ذلك النوع الوضيع الذى يحتزن الهنات الهينات من كل لون ، وخاصة تلك الإساءات العابرة :



- ألا تذكر أيها الكلب اليهودى يوم أن تدافعت بيننا فى الزحام عند الرواق فى فناء الخيام ؟ قاتل أو اهرب أو اختلط بالخارجين على القانون كما يحلو لك ، ولا تسلسنا عوناً أو رفقة ، ولو كان أولئك اللصوص لا يسرقون إلا من هم على شاكلة الذين يسرقون العالم كله ، فإني من ناحيتي أرى أنهم قوم شرفاء ، .

لم يرض سيدريك بالعرض القاسى الذى ارتآه رفيقه وقال :

- إنا نحن صنعاً لو تركنا لها اثنين من أتباعنا وجوادين لإعادتهما إلى القرية المجاورة، فإن هذا لن ينتقص من قوتنا إلا قليلاً ، وبفضل سيفك البتار أيها النبيل أثيلستين ، ومساعدة باقى الرجال سيصبح من اليسير علينا أن نواجه عشرين من هؤلاء الأوغاد ، .

ساندت رويانا رأى الوصى عليها مساندة قوية مع أنها كانت جزعة بغض الشيء عند ذكر تجمع الخارجين على القانون ومكانهم القريب من القافلة ، وجفاة نهضت ربيكاً من جلستها المذكورة ، وشقت طريقها وسط الرجال حتى بلغت جواد السيدة الساكسونية ، وبعد أن جثت أمامها على ركبتيها ، ثمت طرف رداها كما يفعل أهل الشرق عندما يخاطبون ذوى المقام السامى ، ثم نهضت على قدميها وأزاحت خمارها إلى الوراء، وضرعت إليها باسم الإله الأعظم الذى تقوم كلتاها على عبادته ، وبحق الوحي الإلهى الذى هبط على جبل سيناء الذى تؤمن به كل منهما أن تأخذها بهم شفقة ، وتأذن لهم بالسفر فى رحابهم ، ثم قالت :

- إني لا أطلب هذا الجبل من أجل نفسى ولا حتى من أجل هذا الرجل المسن المسكين لأنى أعلم أن الإساءة إلى طائفتنا وساب مالها خطيئة هينة ، بل وفضيلة فى نظر المسيحيين ، وماذا علينا إذا تم ذلك فى المدينة أو الصحراء أو الحقل ! ولكنى أناشدك باسم شخص عزيز عليك وعلى

الكثيرين غيرك بأن تأمرى بنقل هذا المريض بعناية ورفق تحت حمايتك ،  
وإذا تنكرت لضراعتى هذه وأصابه سوء ، فستبقى آخر لحظة في حياتك  
مزوجة بمرارة الندم .

كان للهجة النبيلة الجادة التى ألقى بها هذا النداء وقع مزدوج على  
الساكونية الحسنة فقالت الوصى عليها :

— « الرجل مسن ضعيف ، والفتاة شابة جميلة ، وصديقهما مريض  
وحياته في خطر ، ومع أنهم يهود إلا أنه لا يجدر بنا كسيحيين أن نتخلي  
عنهم في هذه المحنة . دع الرجال يرفعوا عن بفلتني أحاملها ويضعوها خلف  
اثنين من العبيد ، ثم تحمل البفلتان محفة المريض ، هذا ولدنا احتياطي  
من الخيول للرجل المسن وابنته . »

لم يتردد سيدريك في الاستجابة إلى ما ارتأته ريبيته ولكن أنيلستين  
أضاف الشرط الآتي : « عليهم أن يسيروا في مؤخرة الركب كله ، ثم  
قال « ذلك كى يستطيع واما أن يقوم على حمايتهم بدرعه المصنوع من  
نخدة خنزير ، . فقال المهرج :

— « لقد تركت درعى في فناء الخيام بالساحة كما كان مصير أكثر  
من فارس ممن هم أفضل منى ، . »

احمر وجه أنيلستين أشد الاحمرار ، لأن هذا كان مصيره في اليوم  
الأخير من المباراة ، وابتهجت رويانا أشد البهجة لهذا القول ، ولما كانت  
تريد أن تهون من وقع تلك الدعابة اللاذعة التى صدرت عن طالب يدها  
للزواج ، ذلك الرجل خامل الشعور ، فقد طلبت إلى ريبيكا أن تسير  
بجوارها إلى جوارها ، فقالت ريبيكا بتواضع لم يخجل من الشعور بعزة النفس :

— « لا يجمل بي أن أفعل ذلك لأن صحبتى قد تلتحق عاراً بمن تصدت لحمايتى . »

في تلك الأثناء كانت الاحمال قد نقلت دون إبطاء لأن ذكر كلمة « الخارجين على القانون ، كانت كفيلة بأن تبعث النشاط في كل فرد منهم ، ثم إن اقتراب ظلام الفسق يجعل لوقع الكلمة أشد الأثر في نفوسهم .

وفي خضم هذا الضجيج ، نقل جيرث من فوق ظهر جواده ، واستطاع خلال هذا الانتقال أن يقنع المهرج بأن يرخي الحبل الذي يفلل ذراعيه ، فاستجاب له وأعاد وثاقه في غير إحكام ، وقد يكون وامبا قد عمد إلى ذلك حتى إن جيرث لم يجد مشقة مافي خلاص ذراعيه من القيد ، ثم تسلل إلى داخل الدغل هارباً من الركب .

كان الضجيج بالغاً أشده ، ومضى بعض الوقت قبل أن يستبين أحد مغيب جيرث ، إذ أنه كان من المقرر أن يركب وراء أحد الخدم حتى نهاية السفرة ، وكان كل واحد منهم يعتقد أنه تحت رقابة آخر من رفاقه ، وعندما بدأ الهمس يسرى بينهم بأن جيرث قد اختفى ، كان ترقيهم لهجوم عاجل من الخارجين على القانون قد اشتد ، فجعل أذهانهم تنصرف عن هرب جيرث إلى ما هو أشد سوءاً .

كان الطريق الذي يسلكه الركب قد أصبح الآن من الضيق بحيث لا يتسع بحال لمسير أكثر من راكبين متجاورين في وقت واحد ، ثم بدأ ينحدر في واد يشقه جدول ذو ضفاف موحلة ، تكثفها المستنقعات وتكسوها أشجار صفصاف شديدة القصر ، وراود سيدريك وأبليستين اللذين كانا يسيران في مقدمة ركبهما ، احتمال وقوع انقضاض عليهم في هذا الممر الضيق ، ولما كانا قليلى الدراية بفنون الحرب ، فلم تخطر ببالهما أية وسيلة لانتقاء الخطر أفضل من الإسراع قدر المستطاع في عبور ذلك الممر ، وعلى هذا فقد تقدما في غير نظام ومعهما بعض أتباعهما ، ولكنهم ما كادوا يعبرون الجدول حتى انقضت عليهم من الأمام والجانبين والخلف قوة لم يكن من المستطاع مقاومتها مقاومة فعالة ، لأنهم كانوا في حالة من الاضطراب شديدة ، ولأنهم أخذوا على غرة .

انطلقت صيحة من كل الجنبات تقول ، تنين أبيض ، تنين أبيض ا  
القديس جورج لإنجلترا المرحه ، وهى صيحات كان المهاجمون يتخذونها  
رمزاً للصفة المنتحلة لهم كساكسونيين خارجين على القانون . ظهر المعتدون  
من كل صوب مرعين فى التقدم والانقراض حتى بدوا وكأنهم  
أضعاف عددهم .

فى تلك اللحظة وقع الزعيان الساكسونيان فى الأسر بعد أن سلك كل  
منها سلوكاً عن طبيعته ، فى اللحظة التى ظهر فيها أحد الأعداء ، بادره  
سيدريك برمية من رحمة المتبقى معه ، وكان تسديده فى هذه المرة أكثر دقة من  
ذلك الذى رمى به فانجز فأصاب الرجل وألصقه بشجرة بلوط كانت قريبة  
إلى ورائه ، وبعد أن وفق فى هذا ، وكزجواده وانقض على آخر ، واستل  
سيفه وضرب به ضربة قوية فأصاب غصنا سمبكا كان مدلى فوق رأسه  
وفقد سلاحه من جراء تلك الضربة اللعينة ، وهنا أسرع اثنان أو ثلاثة  
من اللصوص الذين تزاخوا حوله ، وأسقطوه من فوق جواده وأسروه .  
وقد وقع أثيلستين فى الأسر أيضاً إذ أمسك اللصوص بعنان جواده ،  
وأزروه من فوقه قهراً قبل أن يتمكن من أن يستل حسامه ، أو يتخذ أى  
وضع دفاعى فعلى بوقت طويل . أما الأتباع الذين كانوا يضيقون بالأحمال  
فقد دهشوا وفزعوا لمضير سيديهم ، ثم وقعوا لقمة سائفة فى أيدي المعتدين ،  
هذا وقد لقيت الليدى روبينا التى كانت فى وسط الركب واليهودى وابنته  
الذين كانا فى مؤخرته نفس المصير ، ولم ينج من بين أفراد الحاشية كلها  
إلا وامبا الذى أبدى فى تلك الحالة شجاعة تفوق شجاعة أوائك الذين  
يزعمون أنهم أرجح منه عقلاً ، إذ أنه اقتنص سيف خادم كان يحاول استلاله  
يد متخاذلة مترددة ، وصار يضرب به فيما حوله كالليث ، وساق بعضاً ممن  
حاولوا الاقتراب منه على النقمقر ، وقام بمحاولة باسلة - مع أنها لم تكن  
مجدية - لمساعدة سيده ، وعندما وجد أن الخصوم يفوقونه قوة ، وأنه سيفلب  
على أمره لا محالة ، قذف بنفسه من فوق جواده وانطلق فى الدغل هارباً

من ساحة المعركة في خضم تلك الفوضى السائدة ، ومع ذلك فلم يكد المهرج المقدم يجد نفسه آمناً ، حتى تردد أكثر من مرة يسأل نفسه عما إذا لم يكن من واجبه أن يعود على أعقابه ، ويشترك في الأسر مع سيده الذي أحبه من أعماق قلبه ، وقال يخاطب نفسه .

- « لقد سمعت الناس يتحدثون عن نعم الحرية ، ولكني أود أن أجد أى إنسان حكيم يدلني على جدواها الآن وقد حصلت عليها !! » ،

وفيما هو يطلق هذه الكلمات بصوت عالٍ إذ به يسمع صوتاً شديداً القرب منه يناديه بلهجة خفيفة حذرة قائلاً : « واما ، ، وقفز عليه في الوقت نفسه كلب عرف فيه فأنجز وأخذ يداعبه ، فأجاب واما بنفس الحذرة قائلاً « جيرث ! ، وظهر راعي الخنازير أمامه على الفور وسأله بلهجة لطيفة :

- « ما الخبر ؟ وما معنى هذه الصرخات وصايل السيوف ؟ » ، فقال واما :

- « إنها ليست إلا خدع القدر . لقد وقع الجميع في الأسر ، . فقال جيرث في عجب وضيق :

- « ومن هم أولئك الأسرى ؟ ، فأجاب :

- « سيدى وسيدتى وأئيلستين وهانديبرت وأوزولد » . فقال جيرث :

- « باسم الإله ! وكيف أسروا ؟ ، فقال المهرج :

- « لقد كان سيدنا على أهبة الاستعداد الكامل للقتال ، ولم يكن أئيلستين أو أى من الرجال متأهباً على وجه الإطلاق . إن الجميع أسرى لقوم يرتدون ثياباً خضراء وأغطية رأس سوداء ، وكلهم مستلقون على العشب الأخضر كالتفاح البرى الذى تمز شجرته كي تسقطه لخنازيرك ، . ثم قال المهرج الأمين : « كنت أود أن أضحك منهم لو لم يغلبني البكاء ، . ثم ذرف الدموع من فرط الأسى .

استضاء وجه جيرث بالأمل وقال : « إنك تحمل السلاح يا واما ، وكان قلبك دائماً أقوى من عقلك . إننا اثنان فقط ، ولكن هجوماً مفاجئاً من رجال نوى عزم ليؤتى بأطيب الثمر . اتبعني ؟ » فقال المهرج :

— « إلى أين ؟ وإلى أى هدف تعنى ؟ فقال جيرث ، :

— « لخلاص سيدريك ، . قال واما :

— « واكنك تنكرت لخدمته منذ حين ، . فقال جيرث :

— « ذلك عندما كان السعد فى ركابه . اتبعني ا . » .

وبينما كان المهرج على وشك طاعته ، إذ برجل ثالث يظهر فجأة ويأمرهما بالتوقف ، كان رداؤه وسلاحه يدفعان بواما إلى الاعتقاد بأنه أحد أولئك الخارجين على القانون الذين انقضوا على سيده منذ قليل ، ولكنه إلى جانب هذا لم يكن مقتنعاً ، وعلى الرغم من ظلمة الشفق ، فقد استطاع أن يعرف من الحزام البراق على كتفه ، والبوق الثمين المدلى منه ، ومن سلوكه ونبرات صوته الرزينة الآمرة ، أنه لو كسلى رامى القوس الذى خرج من المباراة فائزاً بجائزة الرماية بالقوس مع أن الظروف لم تكن موالية وقال :

— « مامعنى هذا كله ؟ ومن ذا الذى يسطو ويطلب الفدية ويأخذ

الأسرى فى هذه الغابات ؟ » فقال واما :

— « تستطيع أن تنظر إلى أرديتهم عن كذب لترى ما إذا كانت

ملابس أطفالك أم لا . إنها تشبه ثيابك كما تشبه حبة الباذلاء حبة أخرى . » .

فقال لولسكى :

— « سأعرف ذلك على الفور ، وأمرىكا — منجاة لحياتىكا —

ألا تبرحاً مكانىكا قيد أنملة حتى أعود إليك . اطمعانى فى ذلك خير

لكما ولسادتكما وأبني . ولكن مهلا ! يجب أن أجعل مظهرى على غرار  
أوائك الرجال قدر الطاقة .

وعندما قال هذا ، خلع الحزام والبوق ، ونزع ريشة كانت في قبعته  
وأعطاها لوامبا ، ثم أخرج من كبسه غطاء رأس أسود ، وأعاد عليهم  
تحذيراته بالألا يغادرا المكان ، ثم ذهب ليستطلع الخبر . قال وامبا :

— هـ هل نبقى دون حراك يا جيرث ، أم نولى الأدبار منه أيضاً ؟  
يطوف بعقلي الاحق أنه على الرغم من حمله كل معدات اللص ، إلا أنه على  
استعداد لأن يكون رجلاً صادقاً . فقال جيرث :

— هـ ليكن شيطاننا وليفعل ما يحلو له فلن نكون أسوأ حالا بانتظارنا  
لعودته ، وإذا كان أحد أفراد هذه العصابة ، فلا بد وأن يكون قد أنبأهم  
بوجودنا هنا الآن ، وسواء أقاتلنا أم فررنا فلن نجنى من وراء أيها نفعا ،  
وإلى جانب هذا فعندى من التجارب السابقة ما يجعلنى أرى أن اللصوص  
الأشرار ليسوا بأسوأ الخلق في هذه الدنيا . عاد راى القوس بعد بضع  
دقائق وقال :

— هـ أيها الصديق جيرث ، لقد اندست بين هؤلاء الرجال ، وعرفت  
لمن ينتمون وإلى أين يسعون ، وأظن أنه ليس من المحتمل أن يقوموا بأى  
عمل عنيف ضد أسراهم ، وإذا حاول ثلاثة رجال أن يهاجمهم الآن ، فلن  
يكون ذلك إلا ضرباً من الجنون لأنهم رجال حرب مدربون ، وقد نصبوا  
حراساً لتحذيرهم إذا ما اقترب إنسان منهم ، ولكنى آمل أن أجمع في الحال  
من الرجال ما يمكننا من إحباط كل ما اتخذه من حيلة . إنكما خادمان ،  
وبقيني أنكما خادمان وفيان لسيدريك الساكونى صديق حقوق الإنجليز ،  
وهو في مسيس الحاجة إلى السواعد الإنجليزية للأخذ بيده في هذه المحنة .  
تعاليا إذن معى لاجمع المزيد من الأعوان . قال ذلك ثم سار وسط الغابة

يسرع الخطى يتبعه المهرج وراعى الخنازير ، ولما كان فى طبع وامبا الا  
يقطع مرحلة طويلة فى صحت ، فقد قال وهو ينظر الى الحزام والبوق اللذين  
كان ما يزال يحملها :

- « اظن انى رايت لإطلاق السهم الذى فاز بهذه الجائزة الباعثة على  
البهجة ، ولم يكن ذلك منذ أمد بعيد كيوم عيد الميلاد ، . فقال جيرث :

- « وأنا أستطيع أن أقسم يايمانى انى سمعت صوت راى القوس الطيب  
الذى فاز بها فى الليل مثل فوزه بها فى النهار ، وكان ذلك منذ ليل ثلاث ، .  
فقال الراى :

- « يا صديقى الامينين ، ما أنا أو من أكون ليسا بأمر ذى أهمية  
فيما نسعى وراءه الآن . لو استطعت أن أحرر سيدكما من أسرته ، فسيكون  
لديكما من البواعث ما يجعلكما تريانى أوفى صديق التقيتما به فى حياتكما ،  
وسواء أ كنت معروفا باسم أم بآخر ، أو كنت أستطيع جذب قوس مثل  
راعى البقر أو أبرع من أى راع ، أو كانت رغبتى فى أن أسير تحت أشعة  
الشمس أو تحت ضوء القمر ، فإن هذه الأمور كلها ليست بذات أهمية لكما  
فلا تشغلا البال بها ، . فقال وامبا هامسا فى أذن جيرث :

- « إن رأسينا بين فدى الأسد فلنخرجهما بالوسيلة التى تمكنا من  
ذلك ، . فقال جيرث :

- « التزم الصمت يا وامبا ! لا تفضبه بماقنك ، وإنى لمؤمن أعرق  
الإيمان بأن الأمور ستسير وفق ما نشتهى ، .



## أخفصل عشرون

عندما كانت لبالى الخريف طويلة كئيبه

ومرات الغابة مظلمة معتمه ،

كم كان نشيد الناسك عذبا

يسترق السمع من أذن المسافر !

\* \* \*

التقوى تستعير نغم الموسيقى

والموسيقى تأخذ جناح التقوى

كالطائر الذى يحبى الشمس

لقد صعدا إلى السماء وهما يغنيان فى أثناء الصعود .

« نارك بشر القديس كايمنت »

وبعد أن ساروا ثلاث ساعات سراعا ، وصل خادما سيدريك مع مرشدهما الذى يكتنفه الغموض إلى فتحة صغيرة فى العابة ، تتوسطها شجرة بلوط شديدة الضخامة . تلقى غصونها المنثنية فى جميع النواحي ، وقد استلقى تحتها أربعة رماة أو خمسة ، بينما كان آخر يقوم بنوبة الحراسة ويسير فى ضوء القمر غادياً رائحاً ، وعندما سمع وقع أقدام تقترب ، أطلق على الفور شارة إنذار ، فنهض النيام فجأة وأسرعوا إلى أقواسهم فتوها . كانت ستة سهام موضوعة إلى أوتارها ، ومصوبة نحو الجهة التى كان المسافرون يقتربون منها ، ولكنهم عندما عرفوا المرشد ، قابلوه بكل أمارات التبجيل والحب ، فاخفتت فى الحال جميع دلائل الاستقبال الجاف وما يستتبعه من مخاوف ، وكان سؤاله الأول :

— « أين الطحان ؟ » .

— « في الطريق إلى روذهام » . فسأل مرة أخرى وكان يبدو أنه  
زعيم لهم :

— « كم من الرجال معه ؟ » .

— « ستة رجال ، وأمل بسام في غنيمة إذا كان القديس يقولون لا يريد  
ذلك » . فقال لوكسلي :

— « هذا قول تقي ، وأين ، « آلان أدبل ؟ » .

— « لقد اتجه صوب شارع واتلنج ليراقب رئيس دير جورفولكس ،  
فقال زعيمهم :

— « هذا رأى ثاقب أيضاً . وأين الراهب ؟ » .

— « في صومعته » . فقال لوكسلي :

— « سأذهب إلى هناك ، أما أنتم فتفرقوا وابحثوا عن رفاقكم . اجمعوا  
من القوى قدر ما تستطيعون فهناك أمامنا صيد يستنفذنا مشقة وجهداً ،  
وأعتقد أنه سيرتد علينا مهاجماً . قابلوني هنا عند مطلع الفجر » . ثم أضاف  
« انتظروا ، لقد غاب عن ذهني أهم الأمور ، ليسلك اثنان منكم الطريق  
مسرعين إلى قصر فرونديبيف بشوركيلستون ، فإن جماعة من البواسل  
المتنكرين على غرارنا يسوقون فريقاً من الأسرى إلى هناك . راقبهم عن  
كثب لأنهم إذا بلغوا القصر قبل أن نحشد قوانا ، فإن شرفنا يحتم علينا أن  
نزل بهم العقاب ولن تعوزنا الوسيلة لنفعل ذلك ، وعلى هذا ينبغي عليكم  
أن تشدوا الرقابة عليهم ، وابعثوا بواحد من أسرع رفاقكم مسيراً ليأتى بأخبار  
من هم هناك من الرجال » .

وعدوه بطاعة عمياء وانصرفوا خفافا إلى مهامهم المختلفة ، وفي نفس الوقت كان زعيمهم ورفيقاه اللذان أصبحا ينظران إليه الآن باحترام موفور وبشئ من الوجع ، يواصلون مسيرهم تجاه كنيسة كويما نهرست ، وعندما بلغوا المر الصغير المضاء بنور القمر ومن أمامهم الكنيسة الموقرة ولو أنها متداعية ، والصومعة الخشنة التي تتلام كل الملائمة مع التقوى الزاهدة ، همس واما في أذن جيرث قائلا :

— لو كان هذا مسكن أحد اللصوص فهو تأكيد للمثل القديم الذي يقول « كلما اقترب الإنسان من الكنيسة ، ابتعد عن الإله » ، ثم أضاف « أقسم على أن هذا القول صحيح . استمع إلى الصلاة السوداء التي ينشدونها داخل الصومعة ا » .

حقيقة كان الناسك وضيغه يغنيان — بكل ما استطع رثاهما القويتان —  
— أنشودة نخر قديمة ، كان هذا مؤادها :

د تعال واملأ لي القدح الأحمر القاني .

أيها الفتى العرييد ، أيها الفتى العرييد ا

تعال واملأ لي القدح الأحمر القاني .

أيها جنكبن المرح : إني ألح فيك وغدا محبا للشراب .

تعال واملأ لي القدح الأحمر القاني ، .

فقال واما الذي كان قد شاركهما في غناء بعض المقاطع :

— « إن هذا الغناء طيب الأداء ، ولكن من ذا الذي كان يتوقع بحق القديس أن يسمع مثل هذا الغناء المرح صادراً من صومعة ناسك في منتصف الليل ا » ، فقال جيرث :

— « لقد كنت في الحقيقة أتوقع ذلك لأن راهب كويما نهرست المرح رجل معروف ، وهو يقتل نصف الظباء التي تسرق في هذا الجزء من المرعى ، ويقال إن الحارس قد قدم شكاة إلى رئيسه ، وأنه سينزع عنه غطاء رأسه وثوبه الرهباني معاً إذا لم يتوخ مسلماً أفضل . »

وبينما هما في حديثهما هذا ، كانت دقائق لو كسلي العالية المتعاقبة على الباب قد بعثت القلق في الناسك وضيغه ، فقال الناسك وهو يتوقف في وسط أحد المقاطع الطويلة :

— « أقسم بحبات مسبحتى أن مزيداً من الضيوف الضالين قد أقبلوا ، وصونا لكرامة رداي الكهنوتي فأني لا أود أن يجدونا على هذا الحال . أحب أن تعرف ياسيدي الكسول أنه مامن إنسان في هذه الدنيا إلا وله أعداء ، وهناك من هم على قدر من سوء السريرة ما يكفي لتأويل كرم الضيافة الذي قدمته لمسافر متعب مثلك لمدة ثلاث ساعات قصار ، على أنه مجنون وإغراق في الشراب ، وهما رذيلتان لا تتفقان أبداً مع طبيعة مهنتي ونزعاتي . فأجاب الفارس :

— « أنذل ذوفورية ! وددت لو كان أمر عقابهم في يدي ، ومع ذلك فصحيح أيها الراهب المقدس إن اسكل الناس أعداءهم ، وهناك في هذه البلاد من أوثر الحديث إليهم من خلال قضبان خوذي على أن أكون عارى الوجه . » وقال الراهب :

— « ضع وعاءك الحديدي على رأسك أيها الكسول بأسرع ما تسمح به طبيعتك ، وهما نذا أرفع هذه الأقداح المصنوعة من الزنك التي لا يزال ما كانت تحويه يجرى في رأسي على صورة غريبة ، وكى نخني من أصواتنا — لأنى حقاً أشعر بأنى لست واعياً إلى حد ما — فيها اشترك معى في النغم الذى ستسمعى أنشده ، ولا تكترث بالكلمات فأنا نفسى لا أكاد أستوعبها . »

وعندما قال ذلك انطلق بصوت كالرعد يضلي باللاتينية صلاة شكر كان يخفي في غمرتها معدات ولتيمها ، بينما كان الفارس الذي يضحك من صميم قلبه ويرتدى دروعه طوال الوقت ، يساعد مضيفه بالاشتراك معه في الترتيل بين حين وحين كلما سمحت بذلك بهجته . قال صوت من الخارج :

- « آية صلاة شيطانية هذه من صلوات الصباح تتلوها ؟ » . فقال الناسك الذي كان صوته غير مألوف ، أو من المحتمل أن يكون ما احتسأه من خمر في المساء قد حالا دون التعرف على نبرات صوت كان مألوفاً لديه إلى حد كبير :

- « فلتغفر لك السماء ياسيدي المسافر . امض في طريقك بحق الله والقديس دونستان ، ولا تقطع على صلواتي وصلوات أخى النقى » . فأجاب الصوت من الخارج :

- « افتح أيها القس المجنون الوكيلي » . فقال الناسك لصاحبه :

- « كل شيء في أمان - كل شيء على مايرام » . وقال الفارس الأسود :

- « ولكن ، من هو ؟ إنه لمن الأهمية بمكان أن أعرف من يكون » .

فأجاب الناسك :

- « من يكون ؟ أقول لك إنه صديق » ، فقال الفارس :

- « ولربك أي صديق هو ؟ قد يكون صديقا لك ولكن من المحتمل

ألا يكون صديقا لي » .

فقال الناسك :

- « أي صديق هو ؟ هذا أحد الأسئلة التي يسهل على المرء أن يوجهها

من أن يجيب عنها . أي صديق هو ؟ لماذا ؟ إنه - ها هي ذاكرتي

تعود إلى بعض الشيء - نفس حارس الغابة الأمين الذي حدثك عنه منذ قليل ، . فقال الفارس :

- « نعم حارس أمين كما أنك ناسك ورع ، إنى لا تأخذنى فى ذلك ريبة . ولكن افتح له الباب قبل أن يقتله من عقبه ، .

أما الكلاب التى كانت فى تلك الأثناء تنبج بصوت مخيف منذ بداية هذا الشغب ، فقد بدت وكأنها عرفت صوت طارق الباب لأنها بدلت من سلوكها ، وأخذت تخدش الباب بأظافرها ، وتئن وكأنها تشفع له بالإذن فى الدخول - أسرع الناسك وفتح له الباب وأدخل لوكسلى ورفيقه وكان أول سؤال أطلقه الرامى حالما أبصر الفارس :

- « لماذا أيها الناسك ! أى تديم معك هنا ؟ ، فأجاب الراهب وهو يهز رأسه :

- « إنه أخ من طائفتنا . لقد قطعنا الليل بطوله فى ابتهالاتنا ، . قال لوكسلى :

- « أظن أنه أحد أعضاء الكنيسة المحاربين ، وهناك المزيد منهم فى الخارج . أقول لك أيها الراهب إنه يجب عليك أن تترك المسبحة جانباً وتمسك بالعصا . سنكون فى حاجة إلى كل واحد من رجالنا المرحين ، سواء أكان راهباً أم علمانياً ، . ثم أضاف وهو ينتحى به خطوة ، ولكن أجنون أنت حتى تأذن بالدخول لفارس لا تعرفه ؟ هل نسبت قوانيننا ؟ ، فأجاب الراهب فى جراءة :

- « لا أعرفه ؟ ، إنى أعرفه جيداً كما يعرف المنسول طبقه ، . فسأله لوكسلى .

- « ما اسمه إذن ؟ ، قال الراهب :

- و اسمه ا اسمه السير ، أنطوني أوف سكراباستن ، . كيف لي  
أن أحتسى الخمر مع رجل دون أن أعرف اسمه ا ، فقال رجل الغابة :  
- ولقد شربت أكثر من الكفاية أيها الراهب ، وأخشى أن تثرثر  
بأكثر من الكفاية أيضاً ، .

وقال الفارس وهو يتقدم إلى الأمام :

- لا يأخذتك الغضب أيها الحارس الطيب من مضيقى المرح . إنه  
لم يفعل شيئاً إلا أن منحني ضيافة كنت سأكرهه على أن يقدمها لي غصباً  
لورفضها ، . فقال الراهب :

- و تأخذها غصباً ؟ ا انتظر إذن حتى أبدل هذا الرداء الرمادي  
بسترة خضراء . وإن لم أجعل عصاي تطن اثنتي عشرة مرة على أم رأسك ،  
فلست براهب حق ولا برجل غابة أصيل ، .

قال هذا وهو يخلع رداءه فبدأ في سترة ضيقة وسراويل من القماش  
الأسود ، ثم أسرع وارتدى فوقها سترة خضراء ، وجوارب طويلة من  
اللون ذاته ، وقال لوامبا :

- و أرجو أن تثبت أربطتي وسأعطيك قدحا من الشراب جزاء  
عملك ، . فقال وامبا :

- و أعمق شكري على شرابك ، ولكن أظن أنه يحق لي قانوناً أن  
أعينك على استبدال نفسك من ناسك ورجع إلى رجل غابة آثم ؟ ، ،  
فقال الناسك :

لا نخش شيئاً ، سوف أعترف بخطايا عبادة الخضراء إلى ثوبى  
الرهباني ثرمادى ، وسيكون كل شيء على مايرام من جديد ، . فقال المهرج :

- « أمين إن ثاباً يرتدى الملابس الثمينة ، يجب أن يقدم اعترافه لمن يرتدى ثوباً من الخيش ، وربما استطاع ثوبك الزهباني أن يغفر لعباءتي المزركشة ذنوبها أيضاً . وعندما قال ذلك ساعد الرابع على إحكام أطراف الأربطة التي لا تنتهي عدداً ، والتي توثق غطاء الرأس بالعباءة ، وبينما كانا يقومان بهذا العمل ، انتحى لوكسلي بالفارس جانبا وقال له :

- « أصدقني القول يا سيدي الفارس : ألسنت الشخص الذي كان الفيصل في انتصار الإنجليز ضد الغرباء في اليوم الثاني من المباراة في آشي ؟ فأجاب الفارس :

- « وماذا يستتبع ذلك أيها الفارس الطيب إذا كان حدسك قد صدق؟ ، فأجاب الحارس :

- « عند هذا أعتبرك نصيراً للفريق الأضعف ، فقال البطل الأسود :

- « هذا على الأقل هو واجب كل فارس حق ، ولست راغباً باختياري في أن يكون هناك من الأسباب ما يبعث على الظن بأن أكون غير ذلك . ، قال الحارس :

- « ولكن كي يتحقق ما أهدف إليه ، فيجب أن تكون إنجليزيا طيباً بقدر ما أنت فارس مقدام ، لأن ما سأحدثك عنه يتعلق في الحقيقة بواجب كل رجل شريف ، وبالأحرى بواجب كل مواطن إنجليزي أصيل ، فقال الفارس :

- « إنك لا تستطيع أن تتحدث إلى شخص تكون إنجلترا وحياة كل إنجليزي أعز عليه مني ، . فقال رجل الغابة :

- « إني مصدق لك عن طيب خاطر ، لأن هذه البلاد لم تكن يوماً ما في مثل حاجتها اليوم إلى سواعد جميع أولئك الذين يحبونها . استمع إلى



وسأطلعك على مهمة قد تستطيع أن تسهم فيها بقسط مشرف إن كنت حقا كما تدعى . لقد قامت عصاة من الأشرار المنكرين في زى أناس أفضل منهم بأسر شخص إنجليزي نبيل يدعى سيدريك الساكسوني ومع ربيته ، وصديقه أثيلسنين أوف كوفجزبره ، وحلوم إلى قصر في هذه الغابة يدعى ثوكويلستون ، وإن أسألك كفارس حق وإنجليزي أصيل : هل تمد يد المساعدة لخلصهم ؟ . فأجاب الفارس :

— « إنى موثق بقسمى لأن أفعل ذلك ، ولكنى أرغب صادقا في أن أعرف من أنت يا من تطلب مساعدتى لصالحهم ؟ . فقال رجل الغابة :

— « أنا رجل بلا اسم ، ولكنى صديق لوطنى ولأصدقائه وطنى ، ويجب عليك أن تقنع في الوقت الحاضر بهذا القدر ، ما تريد أن تعرفه عنى خاصة وأنتك نفسك ترغب في أن تظل مجهولا ، ومهما يكن من شىء فصدقنى إننى عندما أرتبط بكلمتى فمى عندى فيثاق ، كما لو كنت أرتدى مهمازين من الذهب . قال الفارس :

— « إنى مصدق لها عن طيب خاطر . لقد اعتدت أن أدرس وجوه الرجال ، وأستطيع أن أقرأ في وجهك آيات الأمانة والعزم ، وعلى هذا فلن أسألك المزيد ، ولكنى سأعينك على خلاص هؤلاء الأسرى المضطهدين . فإذا اتهمنا من هذا ، فإنى آمل أن نفرق وقد عرف كل منا صاحبه حق المعرفة ، ورضى عنه كل الرضى . »

كان الراهب آتذ قد انتهى من استعداده ، وعندما اقترب المهرج من الجزء الآخر من الكوخ قال لجيرث :

— « وهكذا حصلنا على حليف جديد . إنى واثق من أن بسالة الفارس أنفس معدنا من تدين الناسك أو أمانة حارس الغابة ، لأن لو كسلى هذا يبدو وكأنه منذ مولده سارق ظباء ، والقس كراء كبير . فقال جيرث :

— د اهدأ ياوامبا ، قد يكون كل شيء كما دار بخلدك ، ولكن لرهب الشيطان وأعاننى على خلاص سيدريك والليدى رويانا ، فإني أخشى أن أكون قليل التدين إلى حد أنى لا أرفض عرض هذا الشيطان اللعين وأطلب منه المسير فى أترى .

كان الراهب آتند فى زى كامل لحارس غابة ، يتمنطق بسيف ودرع وقوس وجعبة للسهام وعصا غليظة على كتفه ، ثم غادر صومعته على رأس الرفاق بعد أن أغلق الباب بعناية ، ووضع المفتاح تحت عقبه . قال لوكسلى :

— د هل أنت فى حالة تسمح لك بأن تؤدى خدمة جليلة أيها الراهب ، أم أن القدح الأحمر القانى ما يزال يلعب برأسك ؟ . فأجاب القس :

— د إن جرعة من نبع القديس دونستان كفييلة بمحو أثره ، ولكن ما يزال هناك بعض الطنين يسرى فى رأسى ، وبعض الاختلال يسيطر على توازن ساقى ، وعلى أى حال فسوف ترى عما قليل أن هذين العارضين قد زالا . قال ذلك ثم خطا نحو الحوض الحجرى الذى كانت مباح النبع تنساقط فيه فتبعث فقاقيع تراقص فى ضوء القمر الأبيض ، وأخذ يعب منها طويلا وكأنه يبغي إلى أن يأت عليها . قال الفارس الأسود :

— د متى شربت مثل هذه الجرعة العميقة من الماء قبل الآن يا راهب كورمانهيرست المقدس ؟ . فأجاب الراهب :

— د لم أتذوقها منذ سال دِن نيندى . وأهدر ما به من سائل من ثقب غير مشروع ، وهكذا لم يترك لى شيئا أحسبه إلا ما كان نصيرى هنا يجود به على . .

ثم غمس يديه ورأسه فى ماء النبع واغتسل من كل آثار مجون منتصف الليل ، وعند هذا اتعش القس وأفاق ، ثم أخذ يدير رحه الثقيل حول

رأه بثلاثة أصابع وكأنه يدبر عوداً من الغاب وهو يقول :

- « أين هم أولئك المغتصون الأفاقون الذين يختطفون الصبايا على غير رغباتهن ؟ فليأخذني الشيطان إذا لم أكن نداء لاثني عشر منهم ، .  
فقال الفارس الأسود :

- « أتقسم أيها الراهب المقدس ؟ ، فأجاب القس الجائل :

- « لا تحدثني عن الرهبنة . أقسم بالقديس جورج وبالنين على أني لست راهبا حليق الشعر إلا عندما يكون رداقي الرهباني على ظهري ، أما إذا التفتت بعباتي الخضراء ، فإني أشرب وأقم وأتودد إلى صبية كأي حارس غابة مرح في وست راينج ، . فقال لوكسلي :

- « هيا أيها القس جاك . التزم الصمت ولا تكن ثرثاراً . إنك تثير ضجيجا يشبه ضوضاء دير بأكمله في ليلة عيد مقدس بعد أن ينصرف رئيس الدير إلى مخدعه ، وأنتم أيضا يصادق ، هيا لا تتلكأوا لتحدثوا . أقول لكم هيا ا يجب أن نجمع كل قوانا لأن عددنا سيكون قليلا جداً إن كنا سنقتحم معقل ريجنولد فروندييف ، . فسأل الفارس الأسود :

- « ماذا أهو فروندييف الذي قطع طريق الملك على رعاياه الأوفياء؟ هل انقلب إلى لص وطاغية ؟ ، فقال لوكسلي :

- « لقد كان طاغية على الدوام ، . وقال الراهب :

- « أما كاص فإني أشك في أنه يتصف بنصف الأمانة التي يتحلى بها أكثر من لص ممن أعرفهم ، .  
وقال حارس الغابة :

- « الصمت أيها القس وتحرك . إنه لمن الأفضل لك أن تتقدما إلى مكان التجمع من أن تقول ما لا ينبغي أن يقال . يجدر بك أن تكون على قدر من الكياسة والحذر ، .

## الفصل الحادى والعشرون

بالأسنى اكم من الساعات مررت والسنين  
مذ جلست أجساد بشرية حول هذه المائدة  
أو ومض على ظهرها مصباح أو شمعة .  
يخيل إلى أنى أسمع صوت الماضى السحيق  
ما يزال يهيم من فوقنا فى الخلاء البعيد  
لهذه الأقبية المظلمة ، كالأصوات الخامدة  
لأوائك الذين رقدوا فى موسم منذ زمن طويل .

( أورا ) - نراجيدا

وبينما هم فى هذه الإجراءات لخلاص سيدريك ورفاقه ، كان الرجال  
المسلحون الذين قاموا بأسرهم يسرعون بهم نحو ذلك المكان الآمن الذى  
كانوا ينتوون أن يجعلوا منه سجنًا ، ولكن الظلام قد نسج خيوطه سريعاً ،  
وأصبحت ممرات الغابة أمام هؤلاء الأشرار غير واضحة المعالم كل الوضوح ،  
فوجدوا أنفسهم مسوقين إلى التوقف طويلاً مرات عدة ، والعودة مرة  
ومرة على أعقابهم ليستأنفوا الإتجاه الذى كانوا يريدون أن يسلكوه .

أشرق صبح الصيف عليهم قبل أن يتمكنوا من السفروهم على ثقة كاملة  
من أنهم يسلكون الطريق الصحيح ، إلا أن الثقة قد عادت إليهم مع نور  
الصباح ، وكانت القافلة آتتد تتقدم مسرعة ، وفى الوقت نفسه كان الحوار  
التالى يدور بين رثبى قطاع الطرق : قال فارس المعبد لديراسى :

— لقد آن لك أن تتركنا ياسير موزيس كى تعد المرحلة الثانية

من لغزك الغامض . لعلك تعلم أن عليك بعد ذلك أن تقوم بدور الفارس المنقذ . فقال دى براسى :

— ، لقد بدلت من رأيي إلى ما هو أفضل منه ، ولن أتركك حتى نضع غنيمتنا آمنة في قصر فروندييف ، وهناك سأظهر أمام الليدى رويانا بمظهري الحقيقي ، وإنى لعلى ثقة من أنها ستعزو العنف الذى أجمت فى ارتكابه معها إلى عاطفتى المتتبية . فسأله فارس المعبد :

— وما الذى حدا بك إلى أن تبدل من خطتك يا دى براسى .  
فأجاب رفيقه :

— ، إن هذا لا يعنك فى كثير أو قليل . فقال فارس المعبد :

— ، مهما يكن من شىء ، فإنى آمل أن يكون هذا التغيير فى الإجراءات تابع من ربية فى نوابيا الشريفة ، وهذا ما كان فيتيرس يعمل على أن يفرسه فى عقلك . فأجاب دى براسى :

— ، إن أفكارى ملك لى . يقولون إن الشيطان يضحك عندما يسرق أحد اللصوص لصاً آخر ، ونحن نعرف أنه لو نفك من فمه لهاباً وثقاباً ، لما استطاع أن يحول بين أحد فرسان المعبد وبين أن يتويع هواه . فقال فارس المعبد :

— ، أو أن يحول بين قائد فريق حر ، وبين الخشية من أن يلقى على يدى رفيق وصديق له ذلك الظلم الذى يصبه على رأس الجنس البشرى بأسره . فقال دى براسى :

— ، هذا جدل خطير لا طائل وراه . يكفى أن أقول إننى أعرف خلق طائفة المعبد ، ولن أمنحك القوة لتخدعنى فتسلبنى الغنيمة الجميلة التى تعرضت من أجلها لكل هذه المخاطر . فقال فارس المعبد :

— « بشا ! ماذا تخشى ؟ إنك تعرف قسم طائفتنا . فقال دى براسى :

— « أعرفه جيداً ، وأعرف أيضاً كيف تحفظون عليه . تعال ياسيدى فارس المعبد ، إن لقوانين الشجاعة فى فلسطين تفسيراً مرناً ، وهذا أمر لن أكل منه شيئاً إلى وجدانك . قال فارس المعبد :

— « استمع إذن إلى الحقيقة . أنا لا أبالى بحنائك ذات العينين الزرقاوين ، هناك فى ذلك الركب سيدة أخرى ستكون لى رقيقة أفضل . فقال دى براسى :

— « ماذا ! أتردى بنفسك إلى مستوى الوصيفة ؟ ، فأجاب فارس المعبد بكبرياء :

— « لا ياسيدى الفارس ، إنى لا أنزل إلى مستوى الوصيفة . إن لى بين الأسمى غنيمة فى مثل جمال فانتك . فقال دى براسى :

— « بحق القداس ! إنك تعنى اليهودية الحسنة . فقال بواجيلبرت :

— « وإذا كنت أعنيها ، فن ذا الذى يهترض سبيلى ؟ . فأجاب دى براسى :

— « على قدر على لن يفف أحد فى وجهك ، ولكنك كنت قد أقسمت على أن تبقى بغير زواج ، وربما تحس بوخز الضمير لتأمرك مع يهودية . فقال فارس المعبد :

— « أما فيما يتعلق بقسمى فقد منحنى سيدنا الكبير عفوه ، وأما عن لذع ضميرى فإن رجلاً قتل ثلاثمائة من الأعداء لا يحسب للنقائص الهيئة حساباً ، مثله فى ذلك مثل أية فتاة قروية عند اعترافها الأول فى أمسية يوم الجمعة الحزينة . فقال دى براسى :

- وإنك أكثر الناس معرفة بمميزاتك الخاصة ، ومع ذلك فإنني على استعداد لأن أقسم على أن أفكارك كانت منصبة على أكياس نفود المرابي المسن ، أكثر مما كانت على عيني ابنته السوداءوين ، . فقال فارس المعبد :

- « أستطيع أن أعجب بالاثنين معاً ، وإلى جانب ذلك فاليهودي المسن ليس إلا نصف غنيمة ، لأنني يجب أن أقتسمها مع فرونديبيف الذي لن يرضى بأن يعيرنا قصره دون مقابل . يجب أن يكون لي في هذه الغزوة شيء . أستطيع أن أصفه بأنه لي وحدى ، وقد استقر رأيي على أن تكون اليهودية الجميلة غنمي الخاص ، والآن وقد عرفت مقصدي فإنك ستعود إلى خطتك الأولى . ألسنت بفاعل؟ املك ترى إذن أنه ليس ثمة ما تخشاه من تدخلتي . »  
وأجاب دي براسي :

- « كلا ، بل سابق بجوار أسيرتي . قد يكون ماتقوله صدقا ، ولكني لأحب الامتيازات التي تمنح لي عن عفو من السيد الكبير ، ولا الفضل المكتسب بقتل ثلاثمائة من الأعداء . إن لك حقاً مطلقاً في عفو شامل على ألا تكون مرفقا في الدقة في الصغار . »

بينما كان هذا الحوار يدور ، كان سيدريك يحاول جاهداً أن ينتزع من أولئك الذين كانوا قائمين على حراسته اهترافاً عن هكوتون ، وعماً إليه يهدفون ، فقال لهم :

- « لا بد وأنكم من الإنجليز ، ولكنكم بحق السماء المقدسة تنقضون على مواظنيكم وكأنكم نررمانديون حقيقيون . قد تكونون جيرانا لي ، وإذا كان الأمر كذلك فأنتم أصدقائي . من من جيراني الإنجليز لديه من الأسباب ما يدعو إلى أن يكون غير صديق ؟ أقول لكم أيها الرجال إن هناك من بين صفوفكم من كانوا قد وصموا بأنهم خارجون على القانون ، فأسبغت عليهم حمايتي لأنني أشفت على الآلامهم ، ولعنت عسف نبلائهم الطغاة . ماذا

تريدون منى إذن؟ ماجدواكم من هذا العنف؟ إنكم بأعمالكم هذه أغلظت كعباً من الوحوش الضارية . هل ستحاكون هذه الضواري حتى فى بكما؟ ،

ذهب عتاب سيدريك لحراسه عبثاً فقد كان لديهم أسباب كثيرة تدعوهم إلى أن يتوخروا الصمت حتى يتمكن من إخراجهم منه بغضبه أو عتبه . استمروا يسوقونه على المسير بخطى حثيثة حتى لاح لهم قصر نوركوبيلستون القديم ، فى نهاية طريق تحف به أشجار ضخام ، وهو الآن قلعة ريجنولد فرونديبيف الغبراء . كان حصناً غير ضخم مكوناً من برج مربع كبير مرتفع ، تلفت به أبنية أقل ارتفاعاً ، يحيط بها فناء داخلى ، وكان هناك حول السور الخارجى خندق عميق مليء بمياه يستمدّها من مجرى مجاور .

لقد أضاف فرونديبيف - الذى كانت طباعه كثيراً ما تضعه موضع الخصومة مع أعدائه - إضافات لها قيمتها واعتبارها إلى قوة قصره وذلك ببناء أبراج على السور الخارجى ، وكان المدخل - كما كان متبعاً فى قصور ذلك العصر - يمتد خلال عمق مقبى ، أو مركز خارجى ينتهى ببرج صغير فى كل زاوية من زواياه لاستخدامها كوسائل للدفاع عن المدخل .

لم يكد سيدريك يبصر بأبراج قصر فرونديبيف ترتفع بأسوارها الرمادية المغطاة بالطحالب ، براءة تحت شمس الصباح فوق الغابة التى تلفها ، حتى استطاع بشيء من الفطنة غير قليل أن يتكهن بالسبب فى بلواه وقال:

- لقد ظلمت اللصوص والخارجين على القانون فى هذه الغابات عندما ظننت أن قطاع طرق مثلكم ينتمون إلى عصاباتهم . كنت أستطيع أيضاً أن أخلط بين ثعالب هذه البقاع ، وبين ذئاب فرنسا النهمة . خبرونى أيها الكلاب - أهدف سيدكم إلى حياتى أم إلى مالى؟ أيراه كثيراً أن يمتلك اثنان من الساكسونيين - أنا وأثيلستين النبيل - أرضاً فى بلاد كانت



في وقت ما ملكا لسلفنا ؟ اقتلونا إذن وأتموا عسفكم بأن تسلبونا حياتنا ، كما بدأتكم بسلب حرياتنا . إذا لم يستطع سيدريك الساكسوني أن ينقذ إنجلترا ، فهو على استعداد للبوت من أجلها . قولوا لسيدكم الطاغية إنني أطلب فقط أن يطلق سراح اللبدي رويينا في أمن وعزة . إنها امرأة وليس له أن يخشاها ، وسيموت معنا كل من يجترئ على القتال من أجلها ، .

ظل الأتباع صامتين طوال هذا الحديث كما كانوا عند سابقه ، وكانوا آنذ واقفين أمام باب القصر الخارجي ، ونفخ دى براسي في بوقه ثلاث مرات ، فأسرع رماة السهام والنبال - الذين كانوا قد اعتلوا السور عندما رأوهم يقتربون - إلى إزال الكوبري المتحرك والسماح لهم بالدخول . أكره الحراس أسراهم على الترجل ، وقادوهم إلى إحدى الحجرات حيث قدمت لهم وجبة طعام سريعة لم يشعر أى واحد منهم برغبة في تذوقها ما عدا أيلستين .

لم يترك لسليل م تلى الاعتراف من الوقت ما يني بتناول ما أمامه من طعام شهى ، لأن الحراس أنهاوا إليه هو وسيدريك أنها سيسجنان في غرفة مستقلة عن غرفة رويينا . كانت المقاومة غير مجدية ، وسبق بها إلى غرفة كبيرة قائمة على أعمدة ساكسونية غير متقنة البناء ، تشبه قاعات الطعام ، أو دور العبادة التي يمكن رؤيتها إلى الآن في أقدم أجزاء أديرنا التي أقيمت في خوال العصور . بعد ذلك فصلوا بين رويينا وبين حاشيتها ، واقتديت في رفق حقاً إلى غرفة بعيدة ، لكن ذلك كان دون أن يستشيروها في رغبتها ، ومنحت ريبكا نفس التفضيل الباعث على التلق على الرغم من ضراعات أيها الذي عرض عليهم أن يدفع مالا تحت ضغط هذا البلاء العظيم كي يؤذن لها بالبقاء معه فقال أحد حراسه :

- د أيها الكافر الوضع ، إذا رأيت وكرك فإنك لن ترضى لابنتك بأن تشاركك البقاء فيه ، . ودون مزيد من الجدل ، اقتيد اليهودى في اتجاه

آخر بعيداً عن باقي الأسرى ، أما الخدم فبعد أن أجروا معهم تفتيشاً دقيقاً وجردهم من أسلحتهم ، فقد ساقوم إلى جزء آخر من القصر ، وحرمت روبنا من الدعة التي كانت تحس بها في صحبة وصيفتها إلجيتا ، .

كانت الغرفة التي أودع فيها الزعيمان الساكسونيان — وإليهما توجه عنايتنا الخاصة — تستخدم في الوقت الحاضر كغرفة للحراس ، وقد أخلت الآن لأغراض أقل شأنًا ، لأن من بين الإضافات التي قام بها صاحب القصر الحالي لتوافر أسباب الراحة والأمن والجمال في مقره الباروني ، أنه بنى ردهة جديدة فاخرة ذات سقف مقبى مقام على أعمدة عالية رشيقة ، مزودة بنقوش من طراز رفيع كان النورمانديون قد أدخلوها على فن العمارة .

أخذ سيدريك يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة ، يسيطر على أفكاره سخط على الماضي والحاضر ، بينما كان جهود صاحبه ذا نفع له — بدلا من الصبر والفلسفة — في حمايته من كل شيء ماعدا إحساسه بالضيق في تلك اللحظة التي نحن بصدددها ، وحتى في هذه ، فإن شعوره لم يستبظ إلا قليلا إلى حد أنه كان يفيق بين حين وحين ليبدل بإجابة على نداءات سيدريك التي كانت تفيض ثورة وغضباً . قال سيدريك يخاطب نفسه وكأنه بوجه الحديث إلى أيلستين .

— نعم ، في هذه القاعة نفسها أقام أبي حفلا مع « توركوبيل ولغانجر » ، عندما استضاف « هارولد » ، الباسل عاثر الحظ الذي كان يتقدم آتذ لينقض على النرويجيين الذين كانوا قد انضموا إلى الثائر « توستي » . وفي هذه القاعة أدلى هارولد بإجابته التي تم عن الإقدام على سفير أخيه الثائر . طالمرايت أبي ثائر الأحاسيس وهو يروي هذه القصة . جي . برسول توستي ، بينما كانت هذه القاعة الفسيحة تضيق بعدد كبير من الزعماء والقادة الساكسونيين

النبياء الذين كانوا حولهم يمتسون النبيذ الذي يشبه الدم في احمراره .  
فقال أثيلستين وقد أثاره هذا الطرف من حديث صديقه :

— « آمل ألا ينسوا أن يعمثوا إلينا بشيء من النبيذ والأطعمة عند الظهيرة - إننا لم نحصل على لحظة واحدة لنحطم صومنا - وأنا لا أستمتع بطعامي أبداً عندما أتناوله بعد أن أترجل من على ظهر جوادى مباشرة ولو أن الأطباء ينصحون بذلك ،

استرسل سيدريك في سرد قصته دون أن يعير تلك الملاحظة التي أقحمها صديقه للتفاتا فقال :

— « خطا رسول توستي في القاعة غير آبه بالوجوه العابسة من حوله حتى انحنى أمام عرش الملك هارولد ثم قال : « أية شروط يا مولاي صاحب الجلالة يستطيع أخوك توستي أن يأمل فيها إذا ألقى بسلاحه وطلب السلام بين يديك ؟ » فأجاب هارولد ذو النخوة : « حب أخ وحكم مقاطعة نورثمبرلاند الجيلة » . فأضاف الرسول : « وإذا قبل توستي هذين الشرطين فأية أراض ستعطى لحليفه الأمين « هاردرادا » ملك النرويج ؟ » فأجاب هارولد بحدة : « سبع أقدام من الأرض الإنجليزية ، أو ربما رضينا بأن نعطيه اثنتي عشرة بوصة أكثر من ذلك لأنه يروي عن هارولد أنه عملاق . وهنا دوت القاعة بالتصفيق ودارت الأقداح نخب النرويجي الذي سيمتلك سريعا مقاطعته الإنجليزية » . فقال أثيلستين :

— « كنت أستطيع أن أشرب نخبه بكل جارحة فيء إذ أن لساني يلتصق بأعلى حلقومي » .

وأضاف سيدريك يتابع قصته بحماس رغم أن سامعه لم يكن يستمتع بها « وارتد الرسول خائبا ليحمل إلى توستي وحليفه الجواب الرهيب لآخيه

المكروم . بعد ذلك شهدت أبراج يورك البعيدة ، وأنهار ديروينت الدامية ، هذا الصراع المروع الذى سقط فيه ملك النرويج وتوستي قتيلين بعد أن أظهر أعلى مراتب البسالة ، وسقط معها عشرة آلاف من أشجع رجالها . من كان يظن أن الرياح التى كانت تهب الأعلام الساكسونية المظفرة فى ذلك اليوم المجيد المشهود ، الذى تم فيه النصر ، هى نفس الرياح التى ملأت أشعة النور ماندين دافعة بهم إلى شواطئ « سوسيكس » المشنومة ؟ . من كان يظن أن هارولد نفسه فى غضون بضعة أيام قمار ، لم يعد يملك من بلاده سوى ذلك الجزء الذى كان قد خصمه ساعة غضبه للنرويجى الغازى ؟ . من كان يظن أنك أنت يا أثيلستين النبيل الذى تنحدر من دم هارولد ، وأنتى أنا الذى لم يكن أبى أسوأ المدافعين عن التاج الساكسونى ، نصبح أسيرين لنورماندى حقير فى نفس القاعة التى أقام فيها أسلافنا مثل هذا الحفل العظيم ؟ ، فأجاب أثيلستين :

— « إنه لأمر باعث على الحزن الشديد ، ولكنى لعل ثقة من أنهم سيطلبون منا فدية معتدلة ، ومهما يكن من شئ فمن المحال أنهم يهدفون إلى أن يمتوتنا جوعاً من أول الأمر ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن ساعة الظهيرة قد أزفت ، إلا أنى لا أرى أية استعدادات لتقديم الغذاء لنا . انظر من النافذة يا سيدريك النبيل ، وتبين من أشعة الشمس إذا لم يكن الوقت قد قارب على الظهيرة . » فقال سيدريك :

— « قد يكون الأمر كما تقول ، ولكنى لا أستطيع أن أنظر إلى الزجاج الملون لهذه النافذة المصبوغة دون أن يوقظ ذلك فى نفسى إشعاعات فكرية أخرى غير تلك التى تتعلق باللحظة المنصرمة . عندما صنعت هذه النافذة يا صديقى النبيل ، لم يكن أبؤنا الأشداء يعرفون فن صناعة الزجاج أو صباغته بالألوان ، وقد دفع كبرياء والد ولفانجر إلى إحضار فنان من نورماندىا لتركبة

بهوه بهذا النوع الجديد من الزينة ، الذى يجبل النور الذهبى لنهار الله المقدس إلى كل هذه الألوان الغريبة .

جاء الأجنبي إلى هنا فقيراً متسولاً مداهنا ذليلاً لا يتورع فى أن يخلم قبعته لأقل خدم هذا المنزل شأنا ، وعاد مزهواً نخوراً ليروى لمواطنيه الجشعين عن ثراء النبلاء الساكوتين وبساطتهم . لقد كان فى هذا حماقة نهي عنها القدماء ، وتنباها المنحدرون من سلالة هنجست ورجال قبائل الأشداء الذين احتفظوا ببساطة تقاليدهم .

لقد جعلنا هؤلاء الغرباء أصدقاء لنا وفتحنا لهم قلوبنا ، وخداما انتمناهم على أسرارنا ، واستعزنا فنانيهم وفنونهم ، وازدرينا البساطة المستقيمة والجهد الشاق اللذين كانا لسلفنا البواصل اكتفاه ذاتيا ، وأصبحنا خاضعين للفنون النورماندية قبل أن نسط تحت سواعدهم بأمد طويل .

لقد كان طعامنا البسيط الذى تناوله فى حرية وأمن ، أفضل بكثير من ألوان الطعام الشبيهة الفاخرة الذى جعلنا تكالبناعليها نستلم للفتاح الأجنبي كالعييد ، فقال أثيلستين :

— « إنى أرى أن أكثر ألوان الطعام تواضعاً فى الوقت الحاضر نوع من الترف ورغد العيش ، وإنى لأعجب أيها النبيل سيدريك من أنك تستطيع حقاً أن تحتفظ فى ذهنك بذكرى أحداث ماضية ، بينما يبدو أنك تنسى ساعة الغذاء نفسها . »

اتحى سيدريك جانباً وهمهم لنفسه فى ضيق : « إنه لمضيعة للوقت أن أتحدث إليه فى أى أمر آخر لا يتعلق بشيئه ! لقد تقمص روح « هارديكانبوت » ، وليس له فى الحياة من متعة إلا فى امتلاء جوفه بالطعام ثم إفراغه منه وطلب المزيد ، ثم أتبع وهو ينظر إلى أثيلستين فى إشفاق

بالأسنى ! أبشوى هذا الجسد القوى مثل تلك الروح الخامدة ! وإنه لما بيعت على الأسى فى نفسى أن أمراً جلالاً كإعادة بناء إنجلترا منوط بمثل هذا المحور الناقص ، وإذا تزوج من رويانا فمن المحتمل أن توظف روحها النبيلة الكريمة أفضل نواحي طبيعته النائمة بين حنايا ضلوعه ، ولكن كيف يتم ذلك بينما نبقى جميعاً - رويانا وأبيلستين وأنا نفسى - فى أسر هذا الشرير الفظ ، ومن المحتمل أن يكون أسرنا بدافع من الشعور بالمخاطر التى قد تجلبها حريتنا على القوة المغتصبة لهذا الشعب ؟.

وبينما كان الساكسونى غارقاً فى خضم هذه الأفكار الأليمة ، إذ يباب السجن يفتح ويدخل رئيس الخدم حاملاً عصا بيضاء تدل على مهنته ، ثم تقدم هذا الشخص الهام فى داخل الغرفة بخطى وثيدة وقورة ، يتبعه أربعة من الخدم يحملون مائدة مغطاة بصحاف من الطعام كان فى مرآها ورائحتها عوض وقتى لأبيلستين عن كل مامر به من ألوان الضيق . كان الرجال الذين يقومون على إعداد المائدة مقنعين ويرتدون العباءات ، فقال لهم سيدريك :

— « أى هزل هذا ؟ أتظنون أننا نجمل ذلك الذى وقعنا فى أسره ونحن فى قصر سيدكم ، ؟ ثم استرسل وقد أراد أن يغتم هذه الفرصة كى يطرح العروض للخلاصه :

— « قولوا له ، قولوا لسيدكم ريجنولد فروندبييف إننا لا ندرى اسلب حريتنا سبباً إلا رغبة غير مشروعة فى الإثراء على حسابنا . قولوا له إننا نخضع لجشعه كما نفعل فى مثل هذه الظروف مع لص محترف . دعوه يحدد الفدية التى يطلبها ثمنا لحريتنا وسندفعها على شريطة أن تكون فى نطاق مقدورنا ، .

لم يجب رئيس الخدم بشئ ولكنة أحنى رأسه ، وقال أبيلستين :

- ه قولوا لسيرر يجنولد فرونديبيف إننى من ناحيتى أبعث إليه بتحد حتى الموت ، وأدعوه للقتال على الأقدام أو على متون الجياد فى أى مكان آمن خلال ثمانية أيام من تحريرنا ، وإن كان فارساً حقاً فإنه لن يرفض هذا التحدى أو يمهله فى مثل هذه الظروف ، . فقال رئيس الخدم :

- سأحمل هذا القول إلى الفارس ، وفى الوقت نفسه أترككما لطعامكما ، .

كان تحدى أثيلستين قد قيل بأسلوب خال من الوقار لأن فيه كان مليئاً بمضغة كبيرة تستدعى حركة فكيه كليهما معاً ، هذا بالإضافة إلى طبيعته المترددة التى أضعفت أثر ذلك التحدى الجريء الذى نطق به ، ومع ذلك فقد أكبر سيدريك فيه حديثه هذا ، ورأى فيه دليلاً لا يرقى إليه شك على يقظة روح قائله الذى كان عدم تكرائه السابق قد بدأ يذيب صبره رغم احترامه لدم أثيلستين، ولكنه صافح رفيقه من صميم قلبه دليلاً على موافقته ، ولكنه حزن بعض الشيء عندما قال أثيلستين إنه على استعداد لنزال مع اثني عشر رجلاً من أمثال فرونديبيف لو كان فى القيام بهذا العمل ما يعجل برحيله عن برج يضعون فيه مثل هذا القدر من الثوم فى ثريدوم . وعلى الرغم من هذا القول الذى يدل على عودة أثيلستين إلى جمود مشاعره ، فقد جلس سيدريك قبالة وأبان له فى الحال أن نكبات بلاده تستطيع أن تمحو شهيته للطعام عندما تكون المائدة غير معدة ، ومع ذلك فلم تكذب الأطعمة توضع فوقها حتى دلل على أن شبيهة سلفه الساكسونيين قد انحدرت إليه مع سائر صفاتهم :

وعلى الرغم من ذلك فلم يكذب السجينان ينعمان بطعامهما لحظات قصارا ، حتى قطع عليهما كلفهما به صوت نغير يدوى أمام الباب الخارجى ، وتكرر الصوت ثلاث مرات بقوة وكان الفارس الذى اختاره القدر ينفخ فى النغير

أمام قصر مسحور ، فتلاشى عنده القاعات والأبراج والمدخل والأسوار  
وكانها بخار الصباح .

ترك الساكسونيان المائدة مسرعين إلى النافذة ، ولكن حب استطلاعهما  
قد ارتد غائباً لأن هذه الفتحات لم تكن تطل إلا على فناء القصر وكان  
الصوت صادراً من خلفه ، ومع ذلك فيبدو أن هذا النداء كان من الأهمية  
بمكان ، فقد ساد القصر من الفوضى والاضطراب شيء كثير .

**\*\* معرفتي \*\***  
**www.ibtesama.com**  
**منتديات مجلة الإبتسامه**



## الفصل الثاني والعشرون

ابنتى - بالنقودى - يالابنتى ا

بالنقودى المسيحية !

العدالة - القانون - نقودى وابنتى ا

» ناجر البندوية «

إذا ماتر كنا الزعيمين الساكسونيين يعودان إلى مادبتها بعد أن استجاب فضولهما المكتتب لنداء شهيتها التي لم تنطفئ تماماً ، فعلينا أن ننتقل إلى إسحق أوف يورك الذى زج به فى سجن أشد قسوة إذ ألقى باليهودى المسكين فى أحد أقبية القصر ، ينخفض كثيراً عن مستوى سطح الأرض ، شديد الرطوبة وأكثر انخفاضاً من الخندق نفسه ، وكان الضوء الوحيد يتسلل إليه من كوة أو اثنتين تعلوان كثيراً عن متناول يد الأسير ، وحتى فى ساعة الظهيرة لم تكن هاتان الكوتان لتسمحا بتسرب أكثر من ضوء معتم خافت غير مستقر ، كان يتحول إلى ظلام دامس قبل أن يفتقد سائر القصر نعمة النهار بوقت طويل . ومن جدار السجن تدلت سلاسل وأصفاد صدئة خالية ، كانت تغلل سجناء من قبل يخشى من محاولاتهم العنيفة للهرب ، وفى حلقات إحدى هذه المجموعات من القيود ، كانت هناك عظمتان باليتان يبدو أنها كانتا فى وقت ما لساق بشرية ، وأن أحد المسجونين لم يُترك ليموت هنا فحسب ، ولكن ليتاً كل حتى يصبح هيكلًا عظيماً .

كان هناك فى أحد طرفى الغرفة الرهيبية مدفأة كبيرة صفت فوقها قضبان حديدية نصف متآكلة كاد الصدا أن يطيها ، وكان القبو فى جملته باعثاً على الرعب فى قلب من هو أكثر شجاعة من إسحق الذى كان مع ذلك

أشد هدوءاً تحت وطأة الخطر الداني ، عما كان يبدو عليه وهو نهب للخواف التي كانت بعيدة الاحتمال وغير مؤكدة الوقوع . يقول عشاق الصيد إن الأرنب البري يشعر في أثناء مطاردة كلاب الصيد له بالآلام تفوق كثيراً ما يشعر به وهو يصارع بين أنيابها ، وهكذا فقد كان من المحتمل أن اليهود يتوالى إحساسهم بالخوف في كل الظروف ، قد أعدوا أذهانهم إلى حد ما للملاقاة أي عمل فيه عصف يمكن أن يحيق بهم ، ولذا فكل اعتداء يقع عليهم لا يكون مصحوباً بالمفاجأة ، فإنه يعتبر أشد مراتب الرعب وقعا وهولا . لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يمر بها إسحق بظروف خطيرة كهذه ، ولذا فقد كان لديه من التجارب السابقة التي تدله - كما كان يحدوه الأمل - على النجاة مرة أخرى مثلما كتبت له من قبل ، وفوق كل هذا فقد كان في خلقه عناد بنى جنسه الذي لا يدعن ، وتلك العزيمة التي لا تلين ، والتي عرف عن اليهود أنها تجعلهم يتحملون أقصى المضار التي تنزلها القوة والعنف ، ولا يرضخون لمضطهدهم بإجاباتهم إلى ما يطلبون .

وبروح المقاومة السلبية هذه ، جلس إسحق في ركن من القبو وقد جمع ثوبه تحته ليصون أطراف جسده من الأرض المبتلة ، وكنت ترى يديه المضمومتين وشعره ولحيته الأشعثين وعباءته المحلاة بالفراء وقبعته العالية في ثنايا خيوط الضوء المتسكرة ، كل ذلك كان يصلح دراسة لرامبراندت ، لو كان ذلك الرسام الشهير يعيش في هذا العصر .

ظل اليهودي ثلاث ساعات دون أن يغير من وضعه شيئاً سمع في نهايتها وقع أقدام على درج القبو ، ولما فتح الباب ، صرخت المزاج عندما رفعت ، وبعثت فواصله أنبياً ، ودخل ريجنولد فروندييف إلى السجن يتبعه عبداً فارس المعبد العربيان . كان فروندييف رجلاً فارح القامة قوياً ، قضى حياته في الحروب العامة أو في الخصومات والمشاجرات الخاصة ، ولم يكن ليردد في استخدام كل الأساليب لامتداد سلطانه الإقطاعي . كانت قسما

وجبه تفصح عن طباعه ، وتعبراً أقوى تعبير عن رغبات عقل يفيض قسوة وسوءاً ، وكان يمكن للندبات التي كست وجهه أن تثير التقدير والإعجاب بالبسالة المشرفة لو كانت على قممات من طراز آخر ، ولكنها كانت في حالة فرونديبيف بصفة خاصة تزيد وجهه بشاعة وفزعاً عند رؤياه . كان المالك الرهيب يرتدى سترة ناحلة من الجلد تلتصق بجسده وقد لوثها دروعه ، ولم يكن يحمل من الأسلحة إلا خنجرأ مدلى من حزامه ليحفظ التوازن مع ثقل حزمة من المفاتيح الصدئة كانت مدلاة إلى جانبه الأيمن .

كان العبدان المرافقان لفرونديبيف قد خلعا ثيابها الفاخرة ، وارتديا قيصين وسراويل من الكتان الخشن ، وكشفا عن مرفقيها وكأنهما من القصابين إذا ما كانوا على وشك مزاوله عملهم بالمجزر ، وكان كل منهما يحمل في يده سلة صغيرة ، وعندما دخلوا القبو ، وقفوا عند بابه حتى انتهى فرونديبيف بنفسه من إغلاقه بإحكام ، وأدار المفتاح مرة ومرة ، وبعد أن اتخذ هذه الحيلة تقدم مبطناً نحو اليهودى وقد ثبت نظره عليه ، وكأنه يريد أن يصبه بالشلل مثلما يقال من أن لِنظرات بعض الحيوانات فعل السحر في فريستها . لقد بدا حقاً أن عين فرونديبيف العابسة الشريرة كانت على قدر من هذه القوة في التأثير على سجينه التمس .

كان اليهودى جالساً فاغراً فاه ، وعيناه مثبتتان إلى المالك الفظ بنظرة تفيض رعباً ، حتى بدا وكأن هيكاه يتقلص حقاً ، ويتناقص حجماً تحت النظرة الثابتة المخيفة لذلك النورماندى الشرس . لم يجد إسحق المنكود في نفسه القدرة على النهوض لأداء فروض الطاعة التي كان فزعه يسوقه إليها ، ولم يقو حتى على أن يرفع قبعته أو ينبس بكلمة واحدة يستجدي بها رحته ، لقد هزه يقينه بأن العذاب والموت يحومان حول رأسه . ومن ناحية أخرى كان مظهر النورماندى الضخم يبدو وقد ازداد عن طبيعته كظهور النسر الذى ينفش ريشه عندما يوشك على أن ينقض على فريسته العزلاء . توقف

على مبعده خطوات ثلاث من الركن الذى كان اليهودى عاثر الحظ قد طوى نفسه فيه فوق أصغر مساحة مستطاعة، ثم أشار لأحد العبيد بأن يقترب ، فتقدم التابع الأسود طبقاً لأمره ، وأخرج من ملته ميزاناً كبيراً وعدداً من أثقال الموازين ، ووضعها تحت قدمى فرونديبيف ثم عاد أدراجه من جديد إلى المكان الذى كان رفيقه واقفاً به ، عامداً إلى الابتعاد عن سيده إظهاراً لاحترامه له .

كانت حركات هذين الرجلين بطيئة وثبدة ، وكان تصوراً سابقاً لأشباح الرعب والقسوة يتوعد روحيهما . افتتح فرونديبيف المشهد بمخاطب أسيره بصوت عميق جاف تردد في جنبات القبو صدها قائلاً :

— « رأيت هذا الميزان أيها الركاب اللعين المنحدر من سلالة وضيعة ؟ » .

فأجاب اليهودى النعس إجابة واهنة خافتة . وقال المالك الذى لا يعرف قلبه الرحمة :

— « بهذا الميزان ستزن لى ألف رطل من الفضة طبقاً للكيل والوزن الصحيحين المستعملين فى برج لندن » . فقال اليهودى وهو يتلمس صوته فى خضم الخطر المحقق به :

— « يا إبراهيم المقدس ! هل سبق لإنسان أن سمع بمثل هذا المطلب؟ من ذا الذى سمع بمبلغ كألف رطل من الفضة حتى ولو فى قصص الشعراء الجائلين ؟ أى عيون بشرية تلك التى باركتها من قبل رؤيا مثل هذا الكنز العظيم ؟ ان تجد عشر هذا المبلغ الضخم من الفضة الذى تتحدث عنه داخل أسوار مدينة يورك ، حتى لو فنشت دارى ، ومنازل جميع عشيرتى ، . فأجاب فرونديبيف :

— « لاني رجل معقول . إن كان هناك نقص في الفضة ، فاني لا أرفض الذهب بواقع قدر معلوم من الذهب مقابل كل ستة أرطال من الفضة . تستطيع أن تحرر جسدك الكافر من عقاب لم يخطر لك ببال أبداً ، . فقال إسحق :

— « أناشدك الرحمة بي أيها الفارس النبيل ! إني مُسن فقير لا حول لي، ولا قوة ولست أهلا بالانتصار عليه ، وأئن تطأ دودة بنعالك فلن يكون هذا إلا عملاً صغيراً لا يليق بك ، ، فقال الفارس :

— « قد تكون رجلاً قد تقدمت به للسنون . ولكن العار لأوكك الحق الذي تركوك حتى تبلغ من العمر أرذله في مزاوله الربا والضعة . قد تكون ضعيفاً — ولكن متى كان لليهودى قلب أو يد ؟ ورغم كل هذا فإنك ثرى ، . فقال اليهودى :

— « أقسم لك أيها الفارس بكل ما تؤمن به ، وبكل ما تؤمن به سويًا ، . . . . . فقطاعه النورماندى قائلاً :

— « لا نحت في قسرك ، ولا تجعل من عنادك تقريراً لهلاكك حتى ترى وتفكر جيداً في المصير الذي ينتظرك ، لا، تظن أني أحدثك لآثير فيك الخوف ، وأستغل الجبن الوضيع الذي ورثته عن بني جنسك . أقسم بذلك الذي لا تؤمن به — بالإنجيل الذي تلقته لنا كنيستنا صاحبة الحق في النصف كيف تشاء — أن عزمي أكيد وقاطع . إن هذا القبر ليس مكاناً للهو — لقد مات بين هذه الجدران أسرى أرفع منك مقاماً بعشرة آلاف مرة ولم يعرف أحد مصيرهم قط ! ولكنني أحفظ لك بمينة طويلة بطيئة تعتبر مبيتهم بالمقارنة لها ترفيهاً ، . قال هذا ثم أشار إلى العبدین من جديد ليقتربا ، وتحدث إليهما على انفراد بلغتهما الخاصة لأنه كان أيضاً في فلسطين يوماً ما، ومن المحتمل أن يكون قد تلقن فيها درسه في القسوة.

أخرج العريبان من سلتيهما قدرأ من الفحم ومنفاخا وقارورة زيت ،  
وبينما كان أحدهما يقده نارأ بصوان وزناد ، كان الآخر يعد الفحم في  
المدفأة الصدئة التي سبق لنا أن ذكرناها ، ثم أعمل منفاخه حتى احمر الحجر  
وتأجج ، فقال فروندييف :

— « أترى يا إسحق تلك للقضبان الحديدية المحماة فوق الفحم المتوهج؟  
سترقد على هذا الفراش الدافئ بعد أن تنتزع عنك ثيابك وكأنك ستستلقي  
على فراش من الريش الناعم ، وسيحافظ أحد هذين العبدین على بقاء اللهب  
مشتعلا من تحتك ، بينما يلقى ثانيهما بالزيت على أطرافك الشريرة حتى لا تصبح  
شواء . والآن اختر بين مضجع وهاج كهذا ، وبين أن تدفع ألف رطل  
من الفضة . أقسم برأس أبي أنه ليس أمامك أى سبيل آخر للخيار ، .  
فقال اليهودى التعس :

— « هذا محال — محال أن يكون ما تهدف إليه صحيحا ! إن إله  
الطبيعة الطيب لم يخلق قلبا قادراً على أن يرتكب مثل هذه القسوة ! ، .  
فقال فروندييف :

— « لا تتق بذلك يا إسحق فهذا خطأ قاتل . أوتظن أنى وقد رأيت  
مدينة تسلب وينفق فيها آلاف من مواطنى المسيحيين بالسيف — بالفيضان  
— بالنار ، سوف أحجم عما عقدت العزم عليه من أجل ضراعات يهودى  
واحد بئس أو صرخاته ؟ أم تراك تظن أن هذين العبدین القويين اللذين  
لا قانون لهما إلا تنفيذ مشيئة سيدهما ، واللذين يستعملان السم أو الرمح  
أو الخنجر أو الحبل لدى أقل إشارة من طرف عينه ، لن تأخذهما بك  
رحمة وهما لا يعرفان حتى اللغة التي تطلب بها ؟ كن حكيماً أيها الرجل  
المسن وارفع عن كاهلك شيئاً من ثروتك الفائضة على حاجتك . أعد إلى  
مسيحي جزءاً مما حصلت عليه بالربا الذى أوقعت فيه بنى ديانته . قد يملأ

دهاؤك كيسك الذي تقلص حجمه مرة أخرى ، ولكن ما من طيب أو دواء يستطيع إعادة جلدك ولحمك المحترقين لو ألقينا بك مرة على هذه القضبان . أقول لك ادفع عنك فديتك وابتهج لأنك بمثل هذا القدر قد تستطيع أن تخرج من سجن لم يبق على قيد الحياة إلا القليلون ليرووا سره . وازن بين معدنك وبين لحمك ، وانتق ما يحلو لك ، وسأقوم على تنفيذ ما يقع عليه اختيارك ، . فقال إسحق :

— ياخذ إبراهيم ويعقوب وجميع آباء شعبنا بيدي . إنى لا أستطيع الاختيار لأن أحلاهما مُرّ . ولأنى لا أملك الوسيلة لإجابتك إلى سؤالك الذى تجاوز المدى . فقال الفارس :

— أيها العبدان ! أقبضا عليه ، وانتزعا عنه ملابسه ودعا آباء شعبه يعينونه إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا . .

تقدم العبدان مرة أخرى وقد تلقيا أوامرها من عين البارون ويده أكثر مما تلقياها عن لسانه ، وتقدما إلى الأمام مرة أخرى ، ثم أمسكا باسحق التعس ورفعا من فوق الأرض فيما بينهما انتظاراً لإشارة أخرى تصدر عن المالك ذى القلب الغليظ . كان اليهودى البائس ينظر إلى وجهيهما حيناً ، وإلى وجه فرونديبف حيناً آخر آملاً فى أن يكتشف بعض أمارات الحنان، ولكن الابتسامة الجامدة التى ترسم على وجه المالك كانت مزيجاً بين الصرامة والسخرية ، وكانت تهد لقسوته المرقبة ، أما عين العربيين القاسية التى كانت تدور قائمة تحت جبينيهما الأسودين ، والنسب أضى عليها بياض محاجرها المحيطة بمحقاتها نظرات رهيبية ، فكان يبدو عليها سرور خفى انتظاراً للمشهد الذى كان وشيك الوقوع ، أكثر مما تفصح عن أى ضيق أو وخز للضمير من إشرافهما عليه أو قيامهما به .

نظر اليهودى عندئذ إلى الأتون المتأجج الذى كان سيلقى به فوقه عما

قليل ، ولما لم ير في معذبيه أى بادرة من بوادر الرحمة، خارت عزيمته وقال :

- « سأدفع الألف رطل من الفضة » . ثم استرسل بعد أن تريت لحظة « أعنى أنى سأدفعها بمساعدة إخوانى . إنى مسوق إلى أن أتسول كأحد السائلين أمام معبدينا قبل جمع مثل هذا المبلغ الذى لم يسمع به أحد من قبل . متى وأين يجب أن أسأله ؟ » . فأجاب فرونديبيف : « هنا ، يجب أن تسلم هنا ، ويجب أن توزن وتعد على أرض هذا القبور ذاته ، أنتظن أنى سأفترق عنك قبل أن أضمن فديتك ؟ » . فقال اليهودى :

- « وأى ضمان لى بإطلاق سراحى بعد أن أدفع هذه الفدية ؟ » .  
فأجاب فرونديبيف :

- « كلمة نبيل نورماندى أيها العبد المرابى . إن وعد نبيل نورماندى أكثر نقاء من ذهبك وفضتك ، وذهب عنصرك كله وفضته » . قال إسحق بلهجة كلها جبن ومذلة وهوان :

- « أستميحك عذراً أيها السيد النبيل ، ولكن كيف لى أن أعتمد الاعتماد كله على كلمة شخص لا يثق مثقال ذرة بكلمتى ؟ » . فقال الفارس بلهجة صادقة :

- « لأنك رجل لا عهد لك ولا ميثاق . لو كنت الآن فى غرفة كنزك بيورك ، وطلبت قرصاً من فضتك لأمليت على وقت الوفاء ورهن الضمان . هذه هى غرفة كنزى ، وهنا أستطيع أن أملك إرادتى ، ولن أنزل بنفسى مرة أخرى لأعبد على مسمعك الشروط التى أمنحك الحرية إذا أوفيت بها » . بعث اليهودى بأنة عميقة وقال :

- « بالإضافة إلى الحرية التى ستهبى إياها ، فإنى أطلب إليك أن تسبغها أيضاً على رفاق طريقى . لقد كانوا يزدروننى كيهودى ، ومع ذلك



فقد كانوا يشفقون على في أساى ، وقد ألم بهم طرف من الأذى الذى أحاق بي لأنهم تمهلوا لمساعدتى على الطريق ، وفوق هذا فقد يُسهمون بوسيلة أو بأخرى في دفع فديتى ، . فقال فرونديبيف :

— « إذا كنت تعنى هؤلاء الساكسونيين الأوغاد ، فإن فديتهم تتطلب شروطا غير شروطك . لينصب اهتمامك على شئوك وحدك دون سواك أيها اليهودى ، وإني أحذرك بالألا تزج بنفسك في خصائص الآخرين ، . فقال إسحق :

— « إذن فإنى أسألك إطلاق سراحى مع صديقى الجريح فقط . . فقال فرونديبيف :

— « هل أطلب مرتين إلى ابن إسرائيل أن يعنى بشئونه وحده ويترك الآخرين وشأنهم ؟ ، هذا وبما أن رأيك قد استقر ، فلم يبق لك إلا أن تدفع فديتك على أن يكون ذلك في موعد قريب . . فقال اليهودى :

• — « ومع ذلك فاستمع إلى ما أقوله بشأن تلك الثروة التى تريد الحصول عليها نظير . . . . ، وهنا توقف عن الكلام فجأة خوشية أن يثير غضب النورماندى الفظ ، ولكن فرونديبيف ضحك وملا الفراغ الذى تردد اليهودى في أن يملاه قائلا :

— « تعنى مقابل ضميرى يا إسحق . قلها إذن . لقد سبق لى أن أنباتك بأننى رجل معقول . أستطيع أن أحتمل عقاب الخاسر حتى ولو كان يهودياً . إنك لم تكن هكذا صبوراً يا إسحق عندما طالبت بالعدالة ضد « جاك فيتز دوتيريل ، لأنه نعتك بأنك مراب مصاص للدماء ، بعد أن التهم جشعك كل ميراثه اغتصاباً . . فقال اليهودى :

— « أقسم بالتلود على أنهم قد أضلوا بك في هذا الأمر . لقد استل  
فيتزدوتيريل خنجره محاولا قتلى في غرقتى الخاصة لأنى طالبتنه بفضتى وكان  
موعد الوفاء قد أزف في عيد الفصح . » .

فقال فرونديبيف :

— « إن مافعله لا يعنينى فى كثير أو قليل ، والسؤال الآن هو : متى  
أحصل على مطلبى؟ — متى سأحصل على النقود يا إسحق ؟ . فأجاب إسحق :

— « دع ابنتى ربيكا تمض إلى يورك بجواز مرور منكم أيها الفارس  
النبيل ، وحالما يعود الرجل والجواد فإن الكنز . . . . . وهنا بعث بأنة عميقة  
بعد أن توقف عدة ثوان ، سيجرى عده على هذه الأرض نفسها . » . فقال  
فرونديبيف كمن أخذته الدهشة :

— « ابنتك ابحت السموات يا إسحق لكم وددت لو أنى أعرف ذلك .  
لقد دار بخلدى أن تلك الفتاة ذات الحاجبين الأسودين ليست إلا خلية  
لك ، نخلعتها على سير بريان دى بواجيلبرت كى تكون وصيفة له على  
طريقة بطارقة الأيام الخوالى وأبطالها الذين ضربوا لنا فى هذه الأمور  
مثلا ناجعا . » .

عندما سمع إسحق بهذا النبأ الذى لا يمت إلى المشاعر الإنسانية بصلة ،  
أطاق صيحة دوت فى جميع أرجاء القبو دهش لها العبدان إلى حد أن اليهودى  
قد أفلت من أيديهما فاقتنص فرصة خلاصه وألقى بنفسه على الأرض وعلق  
بركبتى فرونديبيف وقال له :

— « فلأخذ كل ما تريد ياسيدى الفارس — خذ عشرة أمثاله —  
ردنى إلى الخراب والإفلاس إن شئت — كلا بل أنفذ خنجرى فى —  
اجعل من لحمى شواء فوق هذا الآتون ، ولكن ابق على ابنتى ، أعطينها

في أمن وشرف، وكما أنك قد ولدت من امرأة ، فأبق على شرف فتاة ضعيفة  
- إنها صورة من زوجتي راشيل التي ماتت - إنها آخر ستة موثيق على  
حبا - هل تحرم رجلا أرمل من سلواه الوحيدة الباقية ؟ هل تدفع بأب  
يتحنى لابنته الوحيدة الباقية على قيد الحياة ، أن تكون مسجاة إلى جوار  
أمها الماتت في قبر آبائنا ؟ ، فقال النورماندى وقد أخذته به بعض الشفقة :

- « وددت لو كنت قد عرفت ذلك من قبل . كنت أظن أنكم يا بني  
إسرائيل لا تحبون شيئاً سوى أكياس للنقود . »

قال إسحق وهو في لهفة إلى أن يطيل من لحظات هذه الشفقة الواضحة :

- « لا تظن أنا على مثل هذه للضعة رغم أننا يهود - إن الشعب  
المطارد والقط البرى الممذب يحنون على صغارهما ، وسلالة إبراهيم المزدراء  
المضطهدة تحب أطفالها ، فقال فرونديبف :

- « ليكن أسأتوثق من ذلك مستقبلا من أجل خاطرِك يا إسحق  
ولكن هذا لا يجدينا الآن نفعا - أنا لا أستطيع أن أمنع ما حدث  
أو ما سبقه - لقد وعدت رفيق في السلاح ولن أنقض وعدي من أجل  
هشرة من اليهود واليهوديات ، وإلى جانب ذلك فلماذا تتوقع أن يحمل الفتاة  
سوء حتى ولو أصبحت غنيمة لبواجيلبرت ؟ ، فقال إسحق وهو يعتصر  
يديه في ألم :

- « سيكون هناك سوء أو لسوء واقع لاحالة أو على أى شيء يعيش  
فرسان المعبد إلا على القسوة بالرجال والعار للنساء ؟ ، فقال فرونديبف  
وعينه تنقدحان شرراً ، وربما كان غير آسف لأن الفرصة قد أتحت له  
لإظهار غضبه :

- « أيها الكلب الكافر ، لا تنطق بالكفر في حق طائفة معبد أورشليم المقدس ، وبدلاً من ذلك ، فكر في أن تدفع لي الفدية التي وعدت بها ، وإلا فالويل لعنقك اليهودي ا . . . فقال اليهودي يرد المهانات ، ومع أنه كان ضعيفاً ، إلا أنه لم يستطع أن يكبح جماح غضبه :

- « أيها اللص الشرير ا لن أدفع لك شيئاً - لن أدفع لك بنساً واحداً من الفضة إلا إذا أعيدت لي ابنتي في أمن وشرف . . . فقال النورماندي متجهماً :

- « هل أنت واع لما تقول أيها الإسرائيلي ؟ هل في لحك ودمك طلسم يحميها من الحديد المحمى والزيت الساخن ؟ . . . فأجاب اليهودي وقد دفعته عاطفة الأبوة إلى الاستيئاس :

- « أنا لا أبالي ا افعل بي أسوأ ما تستطيع . إن ابنتي هي لحمي ودمي وهي أعز عندي ألف مرة من أطراف جسدتي التي تنذرنا وحشيتك . لن أعطيك قطعة واحدة من الفضة إلا إذا صبيتها مصهورة في حلقك النهم . كلا ا لن أعطيك بنساً فضيلاً واحداً أيها النصراني حتى ولو كان في ذلك إنقاذ لك من اللعنة العميقة الجذيرة بحياتك كلها ا خذ حياتي إن شئت ، وقل لقد عرف اليهودي وهو في خضم آلام تعذيبه كيف يصيب المسيحي بالحنية ، . فقال فروندييف :

- « سوف ترى ذلك ، وأقسم بالكتاب المقدس البغيض إلى جنسك اللعين ، على أنك ستحس بعذاب أليم من النار والحديد - أيها العبدان انزعا عنه ملابسه وألقيا به فوق القضبان مقيداً بالأغلال . . .

وعلى الرغم من المقاومة الضعيفة التي أبدتها الرجل المسن ، فقد مزق العريبان ثوبه الخارجي من فوق جسده ، وعندما شرعا في انتزاع باقي ثيابه ، إذ بصوت بوق يدوي مرتين في خارج القصر ونفذ حتى إلى عزلة القبو ،

وسمعت بعد ذلك مباشرة أصوات عالية تنادى فى طلب ريجنولد فروندييف.  
ورغبة منه فى عدم العثور عليه فى أثناء قيامه بهذا العمل الشيطانى ، فقد  
أشار الإقطاعى المتوحش إلى العبدىن كى يعيدا إلى إسحق ثيابه ، وغادر  
القبو مع تابعيه تاركا اليهودى وهو فى حيرة: أيمجد الله على خلاصه أم يندب  
ابنته على أمرها ومصيرها الغامض ، ولا يدرى أيها تنتصر ، أهى مشاعره  
نحو نفسه أم عاطفة الأبوة نحو ابنته .

**\*\* معرفتى \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**

**منتديات مجلة الإبتسامة**

## الفصل الثالث والعشرون

كلا . لو كانت الروح الوادعة للكلمات السارية

لاستطيع بحال أن تحبلك إلى صورة أرق ،

فسأنتهم وأحظى بك كما ينتصر الجندي بقوة ساعده ،

وأحبك على عكس طبيعة الحب ، فأكرهك على حبي .

« -يدان من فيونا »

كانت الغرفة التي أودعت فيها الليدى رويانا مزدانة ببعض محاولات جافة من زينة وأبهة لاتمتنان إلى الذوق الرفيع بصلة ، وكان في إيداعهم لها دليل على أنها اختصت بمكانة لم يحظ بها أحد من سائر الأسرى ، ولكن زوجة فرونديبيف التي كانت تلك الغرفة قد أعدت لها على وجه خاص ، قد أدركتها المنية منذ وقت طويل ، وتطرق التلف والإهمال إلى الرخارف القليلة التي كان ذوقها قد أوحى بها ، وفي أماكن عديدة منها سقطت الأستار المزركشة من فوق الجدران ، وفي أخرى كانت الشمس قد بدلت من لونها أو عفا عليها الدهر فأمست رثة بالية ، ومع هذا فقد اعتبرت هذه الغرفة أكثر غرفات القصر ملاءمة لراحة الوريثة الساكسونية رغم ما كان يجيم عليها من كآبة .

هنا تركت لتسبح أفكارها فيما ينتظرها من قضاء ريثما يفرغ ممثلو هذه المأساة المروعة من إعداد الأدوار المختلفة التي يناط بكل واحد منهم القيام بها ، إذ أنهم عقدوا اجتماعا ضم فرونديبيف ودى براسى وفارس المعبد ، استقر قرارهم فيه على مصير أولئك الأسرى البائسين بعد جدل عنيف حار تناول المزايا المتعددة التي بصر كل منهم على أن يجتنبها نظير دوره في هذه المأساة الموجهة .

كان النهار قد قارب على منتصفه عندما ظهر دى براسى الذى خططت هذه الحملة فى الاصل لنفعه كى يستأنف جهوده فى تحقيق الأطماع التى كان يهدف إليها ، ألا وهى يد اللبى رويانا وممتلكاتها .

لم يكن دى براسى قد قضى تلك الفترة كلها فى الشورى مع حلفائه فى العصابة ، بل وجد من الوقت فسحة لزينة نفسه بكل أفانين أناة ذلك العصر ، فطرح عنه عباة الخضراء ولثامه الأسود ، وكان شعره الطويل الغزير الناضر مسترسلا فى خمائل أنيقة تهدات فوق عباة المحلاة بالفراء الثمين . كان حليق اللحية تصل سترته إلى منتصف ساقه ، وكان الحزام الذى يثبتها ، ويحمل فى الوقت نفسه سيفه الثقيل ، مطعما ومزدانا بالنقوش الذهبية .

لقد سبق لنا أن لاحظنا الطراز الغريب لأحذية ذلك العصر ، وكان يمكن لطرفى حذاء موريس دى براسى أن ينافسا أى حذاء آخر فى الحصول على جائزة المغالاة ، لأنها كانا مرتفعين ملتويين كقرون الكباش ، وكان ذلك هو رداء كل رجل أنيق فى تلك الحقبة من الزمان . كانت تلك الأناة فى حالتنا هذه تزداد بهاء بالوسامة والخلق الرفيع اللذين كان يتحلى بهما ذلك الشخص ، وكان سلوكه مزيجا متكافئا بين رشاقة رجل البلاط وصرامة الجندى .

دخل على رويانا وخاع غطاء رأسه المصنوع من الخمائل المزدان بحلية ذهبية تمثل القديس ميخائيل وهو يطاءً بقدميه أمير الشر ( الشيطان ) تحية لها ، وبغطاء رأسه هذا أشار فى لطف إلى السيدة كى تجلس على أحد المقاعد ، ولكنها لبثت واقفة حيث كانت ، فخلع الفارس قفاز يده اليمنى ثم اقترب منها ليقودها إلى المقعد إلا أن رويانا رفضت مجاملته هذه بإشارة منها وقالت :

— « إذا كنت فى حضرة بجانى ياسيدى الفارس — وما أنا فيه لا يوحى إلى بأن أظن غير هذا — فإنه لمن الأجدر بسجينة أن تظل واقفة حتى تعرف ماتخبته لها المقادير ، . فقال دى براسى :

— « وأسفاه أيتها الحسناء ! إنك في حضرة أسيرك لاجمانك ، ويجب أن يتلقى دى براسى من عينيك الساحرتين ذلك المصير الذى تنتظرينه منه فى لهفة ، .

فرفعت السيدة هامتها بكل الكبرياء الذى تمليه رفعة وجمال لحقت بهما مهانة وقالت :

— « إني لا أعرفك يا سيدى ، ثم إن عدم الكلفة النابية التى وجهتها إلى برطانة منشد جائل ، لا تشفع لغلظة لص ، . فقال دى براسى :

— « إليك أيتها الحسناء ، وإلى مفاتنك يعزى كل ما صدر عني من فعال لا تنفق والإجلال اللائق بمن اخترتها ملكة اقلبي وقررة لعيني ، .

— « أعبد على مسمعك يا سيدى الفارس أنى لا أعرفك ، وما كان يجدر برجل يرتدى الزرد والممازين أن يقتحم على هذا النحو مجلس سيدة عزلاء ، . فقال دى براسى :

— « إننى عائر الحظ لأنى لست معروفا لديك ، ولكن دعيني أأمل فى أن يكون اسم دى براسى علماً يجرى على الألسنة إذا ما تغنى المنشدون والمنادون بأعمال الفروسية سواء أكان ذلك فى ساحات المباريات أم فى ميادين القتال ، . فقالت رويانا :

— « دع الكناء عليك إذن يا سيدى الفارس للنادين والمنشدين ، فإنه من الأوفق أن يصدر عن أفواههم لاعن فك أنت . خبرني من منهم سيسجل فى أنشودة أو فى سجل مباراة غزوة هذه الليلة التى لا تنسى - غزوة انتصرت فيها على رجل تقدمت به السنون ومن خلفه بعض الأتباع الهيايين ، وغنمت فيها فتاة تعة حملت عنوة إلى قصر أحد اللصوص ؟ ، فأجاب الفارس وهو بعض شفتيه فى شيء من الاضطراب ويتكلم بلهجة أقرب إلى طبيعته ، منها



إلى لهجة فيها وداعة مصطنعة كان قد دأب عليها منذ أن بدأ الحديث معها :  
- « إنك ظالمة أيتها الليدي روبينا ، وما دمت قد جردت من العاطفة ،  
فإنك لن تلتصبي المعاذير لجنون شخص آخر حتى ولو كان جمالك هو الباعث  
عليه . » فقالت روبينا :

- « أرجوك ياسيدي الفارس أن تمسك عن حديث اعتاد علي ترديده  
المغنون الجائلون ، ولا يلبق به أن يصدر عن أفواه الفرسان أو النبلاء .  
لا ريب في أنك تستطيع أن تكرمني على الجلوس كي تدخل في جدل  
تافه يستطيع كل رجل وضيع من عامة الناس أن يدخر منه ذخرا يكفيه من  
الآن حتى عيد الميلاد . »

استبان لدى براسي أن أسلوبه الرقيق لم يعد عليه إلا بالازدراء  
فقال ثائراً :

- « سوف تلقين مني أيتها الفتاة المتكبرة نفس التعالي . اعلمي إذن  
أني قد دعمت دعواي في التقدم إلى طلب يدك بالطريقة التي تتلاءم مع  
طبائعك ، وإنه لمن الأوفق لخلقك أن يحظى المرء بك بالقوس والرمح بدلاء  
من الكلام الرقيق واللفظ المعسول . » فقالت روبينا :

- « عندما تستخدم حلاوة اللسان لتخفي وراءها عملاً جافاً غليظاً ،  
فإن هذا أشبه بحزام فارس يلتف بصدر مهرج وضيع ، وإني لا يأخذني  
العجب إن رأيتك تضيق بالكافة ، وإنه لمن بواعث الشرف لك لو كنت  
قد احتفظت بزى قاطع طريق ولهجته في الحديث ، بدلا من إخفاء أفعاله  
تحت ستر من القول والسلوك الرقيقين . » فقال النورماندي :

- « لقد أسديت إلى نصحاء جميلاً أيتها السيدة . إن لغة الكلام التي  
تسم بالجرأة خير ما يبرر القيام بعمل فيه إقدام - وهأنذا أقول لك إنك

لن تبرحى هذا القصر أبداً إن لم تصبى زوجة لموريس دى براسى . لاني لم أعتد على الإخفاق فيما أقدم عليه ، هذا وإن نبذنا نورمانديا ليس في حاجة إلى أن يفسر سلوكه لفئة ساكسونية اختصها بشرف عرض الزواج بها . إنك ذات كبرياء ياروينا ، وأنت أصلح من تكون زوجة لي . بأية وسيلة أخرى غير ارتباطك بي تستطيعين أن ترقى إلى أعلى مراتب الشرف وأسمى درجات المجد ؟ بأية وسيلة أخرى تستطيعين الخلاص من الفناء الحقير في مزرعة ريفية حيث يحشد الساكسونيون خنازيرهم التي تقوم عليها ثرواتهم لتبوء مكائتك مبعلة كما ينبغي أن تكوني ، وكما ستكونين بين كل ما يميز بالقوة والجمال في إنجلترا بأسرها ؟ ، فأجابت روينا :

— « إن ذلك الفناء الذي تزدرينه ياسيدى الفارس كان مأوى منذ طفولتي ، وأصدقك القول إنى عندما أرحه — ذلك إن جاء اليوم الذي أغادره فيه — فسبكون ذلك مع شخص لم يتعلم كيف يزدرى المهد الذي ترعرت فيه ، والعادات التي نشئت عليها . » فقال دى براسى :

— « إنى أتكهن بما تهدين إليه أيتها السيدة ، ولو أنك قد تظنين أنه غامض على إدراكى أشد الغموض ، ولكن أحب ألا يطوف بخاطرك أبداً أن ريتشارد قلب الأسد سوف يعود يوماً ليتربع على عرشه ، وأبعد من هذا أن يقودك صفيه ويلفريد أوف أيثانو إلى موطنه قدميه ليرحب الملك بك كزوجة لأحد أخصائه المقربين إليه . قد يشعر عاشق آخر بالغيرة وهو يلمس بأصابعه هذا الوتر ، ولكن عزمى ثابت لا تستطيع مثل هذه العاطفة الصيانية أن تنال منه . فتعلمي أيتها السيدة أن هذا المنافس في قبضة يدي وتحت سلطاني ، ولم يبق إلا أن أفضى السر بأنه في داخل قصر فروندييف الذي ستكون غيرته أكثر وبالاعليه من غيرتي . » فقالت روينا بازدراء :

— « ويلفريد هنا ؟ إن في هذا الخبر من الصدق قدر ما في الزعم بأن

فروندبييف منافس له ، . فنظر إليها دى براسى لحظة في ثبات ثم قال :

- « أو كنت تجهلين ذلك حقاً ؟ أما كنت تعلمين أن ويلفريد أوف أيفانو كان مسافراً في محفة اليهودى ؟ وسيلة انتقال تتفق مع الصليبي الذي كان ساعده القوى سيسترده القبر المقدس ١١ ، قال هذا ثم ضحك ساخراً ، فأجابت رويينا متظاهرة بعدم الاكتراث مع أنها كانت في دخيلة نفسها ترتعد من آلام الخوف الذي لم تستطع أن تقهره :

- « وإذا كان هنا فما هو وجه المنافسة بينه وبين فروندبييف ؟ أو ماذا يخشاه من سجن قصير المدى وفدية شريفة وفقاً لأوضاع الفروسية ؟ ، فأجاب دى براسى :

- « هل أنت أيضاً يارويينا فريسة للأخطأ الشائع بين بنات جنسك اللواتى لا يعتقدن بوجود منافسة إلا ما كانت مفاتهن باعثة عليها ؟ ألا تعلمين أن هناك غيرة في الطموح وفي الثروة كما في الحب ، وأن مضيفنا سيسحق من طريقه - في غير تردد ولا إبطاء ، وفي لهفة وبلا وخز من ضمير - كل من يعارض ادعاء حوزته لممتلكات أيفانو الجميلة وكأنه مؤثرٌ عليه من إحدى العذارى ذوات العيون الزرقاء ؟ ولكن انقضى الشجاعة في عاطفتى أيتها السيدة ، وهنا ان يخشى البطل الجريح شيئاً من فروندبييف ، وإلا فن سواه سيأخذك عليه الحزن وهو بين يدي شخص لا تجد الرحمة إلى قلبه من سبيل ؟ . فقالت رويينا وقد انهارت عزيمتها أمام فزعها من أجل مصير حبيبها الذي تحيق به الأخطار :

- « أستحلفك بالسما أن تنقذه . . فقال دى براسى :

- « إني أستطيع - سأفعل - هذا هو ما أهدف إليه - عندما ترضى رويينا بأن تكون زوجة لى براسى ، فمن ذا الذي يجترى على أن يمد يد الأذى إلى قريبها وابن الوصى عليها وخدين شبابها ؟ ولكن يجب عليك

أن تشتري حمايته بحبك لي ، فإن العاطفة البلهاء لم تبلغ بي حداً يجعلني أهد  
طريق السعادة لشخص قد يكون عقبة كأداء بيني وبين رغباتي ، أو أحول  
دون حلول القدر به . استخدي تأثيرك علي من أجله ففي ذلك منجاة له ،  
أما إذا رفضت ذلك فسيلقي ويلفر يد حنقه ، ثم إنك نفسك لن تكوني  
أقرب إلى الحرية والخلص منه . . . فقالت رويانا :

- إن في لفتك التي تتسم بشتى ألوان الغلظة شيئاً ما لا يمكن  
التوفيق بينه وبين ما يحاول الإفصاح عنه من أهوال . إنى غير مصدقة  
بأنك سىء الطوية إلى هذا الحد أو أنك ذو قوة خارقة . . . فقالت رويانا :

- اخدعي نفسك بهذا الاعتقاد حتى تثبت لك الأيام أنه زائف .  
ها هنا في هذا القصر يستلق حبيك جريحاً - حبيك القريب إلى قلبك -  
حبيك ذو الأثر لديك . إنه سد يحول بين فروندييف وبين ما يحبه فروندييف  
أكثر من حبه للطموح أو الجمال . ماذا سيكلفه ذلك أكثر من ضربة خنجر  
أو طعنة رح ليخرس معارضته إلى الأبد؟ كلا ، ولو خشى فروندييف  
من عدم قدرته على تبرير مثل هذا العمل الظاهر للعيان ، فليعط الطبيب  
مريضه جرعة من الدواء خطأ - لتقم الخادمة أو الممرضة التي تسهر  
عليه بجذب الوسادة من تحت رأسه ، وبهذا أو بذلك يقضى ويلفر يد دون دم  
يراق ، وسيدريك أيضاً . . . ، فقاطعه رويانا مرددة كلماته :

- وسيدريك أيضاً الوصى على النبيل الكريم ا أنى أستحق  
مالقيته من شر لأنى نسبت مصيره فى غمرة من لهفتى على مصير ابنه ا ،  
فقال دى براسى :

- إن مصير سيدريك أيضاً يتوقف على قرارك ، وإنى أتركك لتدبريه .

كانت رويانا حتى تلك اللحظة قد قامت بدورها فى هذا المشهد القاسى  
بشجاعة حققة ، ولكن ذلك لأنها ما كانت على يقين بأن الخطر جاد ودام

إلى هذا الحد . كانت طبيعتها من ذلك النوع الذى يراه علماء الفراسة خاصا بالشقراوات أنسأ وحياء ورقة ، ولكن ظروف تربيتها قد صقلت هذه الطبيعة أو ربما تكون قد زادت صلابة ، ولما كانت قد اعتادت على أن ترى إرادة الآخرين وحتى سيدريك نفسه الذى كان شديد الاستبداد والصلف بالآخرين ، تفسح الطريق أمام رغباتها ، فقد اكتسبت هذا اللون من الشجاعة والاعتداد بالنفس النابعين من الاحترام الذى درجت على أن تلقاه دائماً فى المحيط الذى تتحرك فى نطاقه ، وما جال بخاطرها يوماً أن هناك من يقوى على الوقوف فى وجه مشيتها فما بالك بمعاملتها بإهمال شديد . لذلك فقد كان فى كبرياتها وعادة السيطرة عندها وهم ذو أثر على غرائزها الأصلية ، وقد تخلى عنها عندما تفتحت عينها على مدى الخطر المحقق بها هى وحببها والوصى عليها . وعندما وجدت أن إرادتها التى كانت أقل إشارة من هاتين تقابل بالتبجيل والانتباه ، قد ناهضتها إرادة رجل طاغية ذى عقل قوى وعزيمة ثابتة وفى موقف يفوقها سلطانا ، وفى عزم وإصرار كان يريد أن يجنى من وراء هذا الوضع نفعاً ، وهنت وانهارت أمامه .

وبعد أن دارت بعينها فيما حولها وكأنها تبحث عن معين لم يكن له وجود فى مكان ما ، وبعد أن تمت بضع كلمات متقطعة ، رفعت يديها إلى السماء وانفجرت فى نوبة عنيفة من الأسى والحزن لم تستطع التغلب عليها . كان من المحال أن ترى هذه المخلوقة الجميلة فى مثل هذا الحال دون أن تأخذك بها رحمة ، ولم يبق دى برامى جامداً مع أنه كان حائراً أكثر منه مشفقاً ، ولم يستطع حقاً أن يتراجع بعد أن قطع هذا الشوط الطويل ، ومع ذلك فإنه لم يكن من المستطاع التأثير على روينافى حالتها الراهنة سواء بالجدل أم الوعيد ، لجعل يذرع الغرفة غدواً ورواحاً ، وكان حيناً يطلب على غير جدوى من الفتاة المذعورة أن تسيطر على نفسها ، وحيناً آخر يحار فى المسلك الذى يتخذه حيالها ، وأخذ يقول لنفسه : ، إذا كانت دموع هذه الفتاة الحزينة وكدها تحرك مشاعرى هكذا ، فماذا أجنى من وراء هذا إلا فقدان الأمانى

العذبة التي أقدمت على كل هذه المخاطر من أجلها ، وإلا سخرية الأمير يوحنا وصحبه المرحين ؟ ومع ذلك فأراني غير قادر على الاسترسال في القيام بالدور الذي أمثله . إنى لا أستطيع النظر إلى مثل هذا الحيا الجميل وهو نهب للآلم ، أو إلى تلك العينين وقد اغرورقتنا بالدموع . وددت لو كانت قد احتفظت بطبيعتها الأصلية المتعالية ، أو لو كان في نزعاتي قسط أكبر من مثل قسوة قلب فروندييف الفياضة . .

لم يستطع وهو في حيرة من تلك الأفكار ، إلا أن يطلب إلى رويانا التعمية أن تهدى من روعها مؤكداً لها أن هذا القنوط الشديد الذي تستسلم له ليس له حتى الآن ما يبرره ، وفيما هو يقوم بسلوها ، إذ بصوت بوق يبعث الدوى قوياً طويلاً حاداً أفزع كل من بالقصر ، وقطع عليهم تديراتهم المختلفة التي تنطوى على الجشع والخلاعة ، وكان دى براسي أقل الجميع جزعا من هذه المقاطعة لأن حديثه مع الليدى رويانا قد بلغ موقفاً من العسير معه أن يسترسل في مفاخرته أو أن يتخلى عنها .

إننا هنا لانستطيع إلا أن نراه حتماً علينا أن نقدم دليلاً أقوى من حوادث قصة تافهة لعرض التصوير المحزن لتلك العادات التي بسطناها لتونا أمام القارى .

لأنه لباعث على الأسى أن نفكر في أن هؤلاء الملاك البواسل الذين تدين حريات إنجلترا ببقائها إلى وقفهم في وجه التاج ، كانوا أنفسهم طغاة بشعين قادرين على ارتكاب جرائم لا ضد قوانين إنجلترا فحسب ، ولكن ضد شرائع الطبيعة والإنسانية أيضاً ، ولكن ، وأسفاه ليس علينا إلا أن ننقل عن هنرى المجد ، أحد الفصول العديدة التي جمعها عن المؤرخين المعاصرين للتدليل على أن الخيال لا يستطيع أن يبلغ الحقيقة المظلمة لأهوال تلك الحقبة إلا بمسقة .

إن الوصف الذي أورده واضح ، التاريخ الساكسونى ، عن ألوان

الفضائع القاسية التي كان يرتكبها كبار الملوك وسادة القصور النورمانديون في عهد الملك « ستيفن » ، ليعطينا برهاناً ساطعاً على أعمال الشذوذ التي كانوا يستطيعون إثباتها عندما تتفجر شهواتهم : كانوا ينكرون بالشعب الفقير يا كراهه على بناء قصورهم ، فإذا ما انتهوا من بنائها ، ملأوها بالرجال الأشرار أو قل بالشياطين الذين كانوا يقبضون على الرجال والنساء الذين يظن أن لديهم مالا ويلقون بهم في غياهب السجون ، ويصبون عليهم جام عذاب يفوق ما احتمله الشهداء . كانوا يطمرون البعض في الرغام ، ويلقون بعضهم الآخر من أرجلهم أو رؤوسهم أو إبهامهم ويشعلون النيران من تحتهم ، وكانوا يعتصرون رؤوس البعض بحبال معقودة حتى يحطموها ، بينما كانوا يلقون بغير أولئك وهؤلاء في أقبية تعج بالافاعي والحيات وضفادع البر ، ولكننا نقسو على القارى حين نفرض عليه الآلام إذا ما استرسل في تصفح باقي هذا الوصف .

وربما كان أقوى مثل نستطيع أن نورده عن النتائج المريرة التي كانت ثمرة لهذا الغزو ، هو ما يمكن أن نذكره من أن الأميرة « ماتيلدا » ، رغم أنها ابنة لملك اسكتلندة ثم أصبحت بعد ذلك ملكة لإنجلترا وابنة أخت « إدجار آثيلنج » ، وأم إمبراطورة ألمانيا ، فقد اضطرت وهي ابنة لملك وزوجة لملك وأم لملك أن ترتدى لثام راهبة في أثناء إقامتها المبكرة في إنجلترا لإتمام دراستها كوسيلة ليس هناك من سواها للهرب من مطاردات النبلاء النورمانديين الفاجرين ، وقد ذكرت هذا التبرير أمام مجلس كبير من رجال الدين في إنجلترا ، لأنه كان المخرج الأوحده لارتدادها زى الراهبات الديني ، وقد أقر رجال الدين المؤتمرين قوة هذا الدفع الذي أثبت تفشى ذلك الفجور ، والسمعة الملائخة التي كانت نتيجة له ، وبذلك أقاموا دليلاً ناصعاً لا يرقى إليه شك على هذا الانغماس الكريه في الملذات الذي دنس ذلك العصر ، وقالوا إنه لمن المعلوم للكافة أنه بعد غزو الملك « وليام » ، للبلاد ، لم يعترف

نبلاؤه النورمانديون! - وقد أثمهم هذا النصر العظيم - بأى قانون سوى منعهم الذاتية الشريرة ، ولم يقوموا بسلب أراضى الساكسونيين المهزومين ومتاعهم فحسب ، بل اعتدوا أيضاً على شرف زوجاتهم وبناتهم بإباحية لانهاية لها ، ولذا فقد شاع بين الناس أن سيدات الأسر النبيلة وفتياتها كن يرتدين خمار الراهبات ، ويلجأن إلى الأديرة ، لابدافع من النداء الإلهي ، ولكن بغية الحفاظ على شرفهن من نذالة الإنسان وضعت اللتين لحدود لهما .

ذلك كان الحال في تلك العصور وما كان يخيم عليهما من مجون كجادونه التصريح العلني لرجال الدين المجتمعين الذي سجله « إيدمر » ، ولا حاجة بنا إلى أن نضيف المزيد لتؤكد صدق المشاهد التي فصلناها ، والتي نؤشك أن نبينها تفصيلاً استناداً إلى مرجع « مخطوط واردر » الذي نرتاب في صحته .



## الفصل الرابع والعشرون

سأخطب ودها كما يخطب الأسد ود أتناه .

« دو جلاس »

بينما كانت الأحداث التي مررنا بها تجري في أما كن أخرى من القصر كانت ريبكا اليهودية تنتظر مصيرها في برج ناه منعزل بعد أن قادها إليه اثنان من مختطفها المنكرين ، وعندما ألقى بها في غرفة سجنها الصغيرة ، وجدت نفسها في حضرة عرافة شمطاء لا تكف عن المهمة إلى نفسها بلحن ساكسوني وكأنها تضبط إيقاعاً لرقصة دوارة يقوم بها مغز لها فوق أرض السجن . وعندما دخلت ريبكا ، رفعت العجوز رأسها وعبست في وجه اليهودية الجميلة بدافع من الحقد الدنيء الذي تنظر به الشيخوخة والدمامة - عندما تتحالفان مع السوات - إلى الشباب والجمال . قال أحد الرجلين :

- « يجب أن تنهضى وتفادري هذا المكان أيتها الصرصور العجوز فهذه هي الأوامر الصادرة من سيدنا النبيل . يجب أن تخلى هذه الغرفة لنزيلة أحمل ، . فقالت المرأة مزججة :

- « نعم هكذا تثاب الخدمات ... لقد عرفت الوقت الذي كانت مجرد كلبة تصدر عنى كافية بأن تلقى بأحسن جندى منكم من فوق سرجه وتقصيه عن الخدمة ، والآن يجب على أن أنهض وأرحل بأمر كل خادم ممن هم على شا كلتك ! ، فقال الرجل الآخر :

- « أيتها السيدة الطيبة ، أوفريد ، لا تتوقفى لتجادلى في هذا ، بل انهضى واخرجى فإن أوامر السيد يجب أن يصغى إليها بسمع خاطف . لقد كان لك يومك أيتها السيدة المسنة ولكن شمك قد أفلت منذ زمن

طويل . إنك الآن رمز مجسد لجواد حرب عجوز أطلق ليرعى في أرض  
جدباء . لقد كانت لك خطواتك السريعة في وقتك ، أما والآن فليس  
لديك ما هو أفضل من خطوة متاقلة . هيا اغربي عن وجهي ، .

فقال العجوز :

— « كلا كما كلب نذير سوء ، وماوى الكلاب سيكون مقبرة لكما .  
فليمزقني الشيطان الشرير ، زيرنيوك ، جارحة جارحة لو بارحت بجني هذا  
قبل أن أنتهى من غزل قنب كفى ، . فقال الرجل :

— « قولى ذلك لسيدنا إذن يا شيطانة المنزل العجوز ، . ثم عاد تاركا  
رييكا مكرهه على البقاء في صحبة المرأة التي هممت لنفسها وهي ترمق ربيكا  
بين الفينة والفينة بنظرة جانبيه خبيثة : « ترى أى عمل شيطاني يحكيونه  
الآن ؟ ولكن من اليسير على أن أتكنهن — عيون براءة — خصلات  
شعر سوداء — بشرة شفافة كورق لم يلطخه القس بدهونه القائمة بعد —  
نعم إنه لمن اليسير على أن أتكنهن بالسبب الذي من أجله بعثوا بها إلى هذا  
البرج المنعزل الذي لا يمكن لصرخة أن تنفذ من خلاله ، وكأنها صادرة  
من عمق في بطون الأرض قدره ثلاثة آلاف قدم . سيكون جيرانك من  
اليوم أيتها الجميلة ، ونعيبها كصرخاتك لن تسمع ولن يؤبه بها ، . وبعد  
أن تبينت ثوب ربيكا وعمامتها قالت : « أجنبية أيضاً ا من أى بلاد  
الأرض أنت ؟ عربية ؟ أم مصرية ؟ لماذا لا تجيبين ؟ إنك تستطيعين  
التكلم ، فالا تقوين على الكلام ، ؟ .

فقال ربيكا :

— « لا ياخذنك الغضب أيتها الام الطيبة ، . فقلت أوفريد :

— « لست في حاجة إلى أن أقول لك أكثر من أن الناس يعرفون  
الشعلب من ذيله ، واليهودية من لهجة حديثها ، . فقلت ربيكا :

— « من أجل الرحمة خبريني عما يمكن أن أتوقعه كنهاية لذلك الإكراه الذى جاء بي إلى هنا . إن كانوا وراء حياتي تكثيراً عن دياتي، فسوف أقدمها عن طواعية ورضى ، . فأجابت المرأة :

— « حياتك أيتها الصغيرة ! ماذا يجديهم أخذ حياتك ؟ أصدقك القول بأن حياتك ليست فى خطر . إنهم سيفعلون بك ما ظنوه مناسباً لفتاة ساكسونية نبيلة، فهل لفتاة يهودية أن تثور لأنها لم تلق سلوكاً أفضل ؟ انظري إلى ، لقد كنت فى مثل عمرك ، وفى حسن يفوق حسنك مرتين عندما اكتسح فرونديبف والد ريجنولد ونورمانديوه هذا القصر، ودافع أبى وأبناؤه السبعة عن ميراثهم من طابق إلى طابق، ومن غرفة إلى أخرى— لم تبق فى القصر حجرة ، ولا درجة من درجات السلم إلا وسالت فوقها دماؤهم فانزلت— لقد ماتوا... ماتوا جميعاً... وقبل أن تبرد أجسادهم ، وقبل أن تجف دماؤهم ، كنت قد أصبحت لقمة سائغة للنتصر وسخرية له . فقالت ريبكا :

— « أليس هناك إذن من عون ؟ هل من سبيل للخلاص ؟ سأجزيك على عونك بسخاء . . . بسخاء . . . فقالت المعجوز :

— « لا تفكرى فى ذلك . لا سبيل للهرب إلا من خلال الموت ، . ثم أضافت وهى تمز رأسها الأشيب : « لن تفتح هذه الأبواب لنا إلا بعد فوات الأوان . . . بعد فوات الأوان ، ومع ذلك فمن بواعث العزاء لنا أن نفكر فى أننا سنترك وراءنا على وجه الأرض أولئك الذين سيخلفوننا فى مثل تعاستنا . وداعاً أيتها اليهودية — وسواء أكنت يهودية أم مسيحية فإنك ستلقين نفس المصير لأن من ستعاملين معهم قوم قساة الأكباد لا ضمائر لهم . أقول لك وداعاً — لقد انتهيت من غزل خيطي ، أما ما عليك أنت فإنه لم يبدأ بعد . . . فقالت ريبكا :

- ه ابقى ا ابقى بحق السماء ا ابقى ولو لتلعينى وتزدرينى فإن فى وجودك رغم هذا شبتنا من الحمى لى ، ه فقالت المرأة العجوز :

- ه لم يقو وجود أم المسيح على حمايتى ، ه ثم أشارت إلى صورة غير مصقولة لمريم العذراء واستتبعت قائلة : ه ها هى ذى ! انظرى إن كانت تستطيع أن تغير من المصير الذى ينتظر ك شبتنا ، ه ثم انصرفت من الغرفة وهى تتحدث إلى نفسها ، وقد استحالت قسماتها إلى نوع من الضحكة الساخرة جعل تلك القسمات تبدو أشد دمامة من عبوسها العادى ، ثم أغلقت الباب من خلفها ، وكانت ريبكا تسمعها أثناء نزولها فى بطنه ومثقة وهى تصب اللعنة على كل درجة من درجات السلم بسبب شدة انحدارها .

كان على ريبكا آتئذ أن تتوقع مصيراً أشد هولاً من مصير رويناً . وأى احتمال كانت تنتظره فى أن يلتقى أحد بنى جلدتها المضطهدين معاملة رفيقة رقيقة أو احتراماً مهما حظيت بظل منهما وريثة ساكسونية ؟ ومع ذلك فقد كان لليهودية هذه الميزة ، وهى أنها كانت - بما درجت عليه من عادة التفكير وقوة العقل بالسليقة - أكثر استعداداً لمجاهة الأخطار التى كانت عرضة لها . لقد كانت منذ سنى حياتها الأولى قوية الطباع شديدة الملاحظة ، لم تستطع مظاهر الآبهة والثراء التى كان أبوها يعرضها داخل جدران منزله ، والتى كانت تراها فى بيوت غيره من أثرياء العبريين ، أن تعميها عن الظروف القلقة التى يحبون فى ظلالها .

كانت ريبكا ترى دواما - مثل داموقليس فى وليمة المشهورة - بين مظاهر الآبهة ، هذه ، السيف معلقاً على رقاب شعبها بشعرة واحدة ، وكانت هذه التأملات قد صقت وهذبت إلى مستوى من التفكير الراجح كان من المستطاع أن يصبح فى ظروف أخرى شتماً وتعالياً وعناداً .

لقد تلقنت ريبكا عن توجيهات أبيها والمثل الذى كان يضربه لها أن

تأنس إلى كل من يقترب منها . حقيقة لم تكن لتستطيع أن تحاكيه في فرط خضوعه لأنها كانت بعيدة عن ضعة التفكير وحالة الخوف المستمر اللتين كانتا تمليان عليه هذا الخنوع ، بل كانت تتحلى بتواضع مزوج بعزة النفس ، وكأنها تدعن للظروف السيئة التي سبق بها إليها كابنة لشعب زرى ، بينما كانت تحس في قرارة نفسها بالشعور بأحقيتها في أن تتبرأ مكانا أسمى بسبب جدارتها ، أكثر مما كان التعسف الظالم للتعصب الديني يتيح لها أن ترنو إليه .

ولما كان هذا هو استعدادها لاستقبال أحداث مشومة ، فقد تحلت بالصلابة اللازمة للعمل بها في مثل هذه الظروف ، وكانت في موقفها الحاضر في حاجة إلى سرعة خاطرها كلها ، فاستجمعتها وفقاً لذلك ولبتت تنتظر .

كان أول ما عذبت به أن تفحص الغرفة ، فاستبان لها أنها لم تكن لتسمح ببارقة من أمل سواء في الهرب أم الحمى . لم يكن بها ممرسرى ولا باب خفي ، وكانت تبدو محاطة بسور البرج الخارجى المستدير مائداً الباب الذى دخلت منه ، فقد كان يتصل بالبناء الرئيسى وليس به مزلاج داخلى أو قضيبي حديدي ، وأما النافذة الوحيدة فكانت تطل على فضاء له سور يعلو البرج ، وقد بعث فيها أول الأمر بارقة من أمل في الهرب ، ولكنها سرعان ما تبينت أنه غير متصل بأى جزء آخر من الأسوار حيث كانت هناك شرفة منعزلة ، ولكنها مصنونة كالمعتاد بسور ذى فتحات ليرابط فيها بعض الرماة بالقوس للدفاع عن البرج ، ويحمون برمياتهم جدران القصر في ذلك الجانب . لذا لم يساورها أى أمل إلا في العزيمة الثابتة ، وفي ذلك الاعتماد القوى على السماء المتأصل في الفرائز العظيمة الكريمة .

ومهما تسكن التعاليم التي تلقنتها ريبكا عن تفسير وعود التوراة ابني إسرائيل خاطئة ، إلا أنها لم تخطيء في حسابان الساعة الحاضرة ، ساعة اختبارهم ، أو في ثقتها بأن خيرات المسيحية ستثول يوماً ما إلى أطفال

الصباينة ، وفي نفس اللحظة كان كل ما حولها يوحى بأن حالتهم الراهنة كانت كلها ألم وتجارب ، وأن واجبه على وجه خاص أن يحتملوا العذاب مع أنهم لم يرتكبوا إثمًا ولا وزراً ، وعلى هذا فقد وطنت النفس على أن تكون ضحية حظ عاثر ، بعد أن أغرقت في التفكير في حالتها الخاصة ، وهيات ذهنها للملافة الشرور التي كان من المحتمل أن تعرض لها . ومع كل هذا فقد استولت على السجينة رعدة ، وغاض الدم من وجهها عندما سمعت وقع أقدام على الدرج وفتح باب غرفة البرج ببطء ، ودخل رجل طويل القامة في ملابس قطاع الطرق ، أولئك الذين يعزون نكباتهم إليهم ، ثم أغلق الباب من خلفه وتقدم نحوها في بط وثقل . كان غطاء رأسه المدلى على حاجبيه يخفي الجزء الأعلى من وجهه ، وكان ممسكا بعباءته على نحو يخفي منه ما تبقى منه ، ووقف أمام السجينة الوجلة في ملابسه تلك وكأنه على استعداد لأن يرتكب عملاً يخجل هو نفسه من التفكير فيه ، ومع ذلك ، ومع أنه لص كما يفصح عنه رداؤه ، إلا أنه كان يبدو عاجزاً عن إيضاح الهدف الذي ساق به إلى هذا المكان حتى استطاعت ريبكا أن تستجمع شتات فكرها ، وكان لديها من الوقت فسحة أتاحت لها أن تسبق إيضاحه ، فأسرعت وخلعت سوارين ثمينين وعقدت قدمتها إلى اللص المزعوم ، ولم يكن يخالجهما أدنى شك في أن إشباع نهمه سيمهد لها الطريق إلى رضاه ، وقالت له :

— خذها أيها الصديق الطيب ، ومن أجل الله كن رحيماً بي وبأبي الشيخ إنها حلي قيّمة ، ومع ذلك فهي لا تساوي شيئاً إذا ما قبست بها سيفدقه عليك أبي إذا ما خرجنا من هذا القصر في حرية وأمن ودعة .  
فقال اللص :

— يا زهرة فلسطين النضرة ، إن هذه اللآلي شرقية ولكن بياضها يتضاهل أمام بياض أسنانك ، وتلك الماسات براقه ولكنها لا يمكن أن

تقارن بعينيك ، ولكنى أقسمت منذ أن احترفت هذه المهنة الخطرة على أن أؤثر الجمال على الثراء ، . فقالت ريكا :

- لا تقدم على هذا الشطط الذى يسىء إليك - خذ الفدية عنى وكن رحيما بى - تستطيع أن تشتري بالذهب متاعك وملأذك - إن إساءتك لنا لن تجر عليك إلا الندم - سيثبع أبى عن طيب خاطر أقصى أمانيك ، وإذا سلكت سلوكا حكيما فن المحتمل أنك تستطيع أن تشتري بما تسلبنا عودتك إلى صفوف المجتمع - ربما استطعت الحصول على العفو عن سابق أخطائك وتصبح فى غير حاجة إلى ارتكاب المزيد منها ، . فقال اللص بالفرنسية ومن المحتمل أنه قد وجد مشقة فى أن يترسل فى الحديث بالسكسونية الذى بدأته به ريكا :

- لقد قلت صوابا ، ولكن لتعلمى يا زنبقة وادى ، باكا ، البراقة أن أباك حقا بين يدي كيميائى قدير ، يعرف كيف يحيل مدفأة قبو وقضبانها الصدئة إلى ذهب وفضة . إن إسحق الموقر خاضع لإنيق سيستقطر منه كل ما هو عزيز عليه دون أية مساعدة من مطالبى أو ضراعاتك . يجب أن تدفع عنك للفدية جبا وجمالا ، ولن أرضى بها مالا ، . فقالت ريكا بنفس اللغة التى خاطبها بها :

- إنك لست قاطع طريق - ما رفض قاطع طريق قط مثل هذه العروض - ما من قاطع طريق فى هذه البلاد يتكلم باللغة التى تحدثت بها . إنك لست بقاطع طريق ولكنك نورماندى - نورماندى ومن المحتمل أن يكون نبىلا فى مولده - أو اه اكن كذلك فى فعالك ، وانزع عنك هذا القناع المفزع رمز البغى والعنف . فقال بريان دى بواجيلبرت وقد دلتى عباهته عن وجهه :

- د وأنت - أنت التى تستطيعين أن تكهنى بمثل هذه الحقيقة ،

لا يمكن أن تكوني إحدى بنات إسرائيل ؟ بل أنت إحدى ساحرات  
« إندور » ، في كل شيء ما خلا ما يختص بالشباب وبالجمال . إني لست أحد  
الخارجين على القانون ياوردة شارون الجميلة ، وإنما أنا شخص أكثر استعداداً  
للكساء جيدك وذراعيك باللاكي\* والماسات التي تليق بك ، من أن أحرمك  
من هذه الحلبي ، . فقالت ربيكا :

— « ماذا تبغى مني إذن إن لم تكن تهدف إلى ثروتي ؟ لا يمكن أن  
يكون بيننا شيء مشترك . أنت مسيحي وأنا يهودية ، وارتباطنا مخالف لقوانين  
الكنيسة ومعبد اليهود على السواء . » فأجاب فارس المعبد ضاحكاً :

— « هذا هو الحق . أتزوج من يهودية ؟ باللعار ! لن يكون ذلك  
حتى ولو كانت ملكة سبأ ، وإلى جانب ذلك ، فأعلمي يا ابنة صهبون الحسنة  
أنه لو عرض على أشد الملوك مسيحية ابنته المفرقة في المسيحية ومعها مقاطعة  
« لانجويدوك » ، صداقاً لما استطعت أن أتزوج بها . إنه على نقيض قسمة  
أن أحب أبة فتاة إلا ما كان منه بالنزوات العابرة كما سأحبك لأنني أحد  
فرسان المعبد . انظري إلى صليب طائفتي المقدسة . » فقالت ربيكا :

— « أتجتري\* على أن تشير إليه في مثل هذا الموقف ؟ » فقال  
فارس المعبد :

— « إذا فعلت ذلك ، فإنه أمر لا بعينيك في شيء ، أنت يامن لا تؤمنين  
بالرمز المقدس لخلاصنا . » فقالت ربيكا :

— « إني أو من بما لقنني إياه آباءى ، وليغفر الله لإيماني إن كان خاطئاً !

وأنت ياسيدي الفارس ، ما هو إيمانك عندما تتحدث دون إكبار  
لما كان ينبغي أن يكون له في نفسك أسمى مراتب التقديس ، حتى وأنت  
على وشك أن تتمن قسمك المقدس كفارس وكرجل من رجال الدين ؟ ،  
فأجاب الفارس :



« إنها عظة جليظة بليغة يا ابنة سيراخ ، ولكن أفكارك اليهودية الضيقة يا « إكليزياسنيكا ، الرقيقة تعميك عن امتيازنا الكبير . إن الزواج يعتبر جريمة لا نهاية لها إذا ما أقدم عليه فارس المعبد ، ولكنني أستطيع الحصول على المغفرة سريعاً من أقرب مركز من مراكز طائفتنا إذا ما مارست نزوات لا ترقى إلى مرتبة الزواج . لم يكن لأكثر الملوك حكمة ولا لأبيه - الذي يجب أن تعترف بأنه كان لامثاله شأن عظيم - امتيازات أوسع مما استطعنا أن نجتديها نحن جنود معبد أورشليم الفقراء جزاء تفانينا في الدفاع عنه . إن حماة معبد سليمان يحتذون حذو سليمان في حرياته ، .  
فقال اليهودية :

« إن كنت تقرأ الكتاب المقدس وحياة القديسين لا شيء إلا للتبرير لإباحتك وفجورك ، فمثل الجريمة في ذلك مثل الذي يستنبط السموم من أكثر الأعشاب نفعاً للإنسان وضرورة له ، .

انبعث الشرر من عيني الفارس لهذا التفرغ وقال :

« أصفى إلى ياريكا ، لقد تحدثت إليك حتى الساعة حديثاً رقيقاً رقيقاً ، ولكنني سأحدث إليك منذ الآن بلغة الظافر . إنك أسيرة لقوسي وورحي ، وخاضعة لإرادتي طبقاً لقوانين الأمم جميعها ، ولن أتخلي قيداً عنك عن حق المكتسب ، أو أحجم عن الاستيلاء عنوة على ما ترفضينه أمام الرجاء أو الاقتضاء ، .

فقال ريبكا :

« تمهل ، تمهل واستمع لي قبل أن ترتكب هذه الخطيئة القاتلة ! قد تستطيع حقاً أن تغلب على فقد خلق الله النساء ضعيفات وأوكل أمر الدفاع عنهن إلى نخوة الرجال ، ولكنني سأعلن عن نذالك أيها الفارس من أحد طرفي أوروبا إلى طرفها الآخر . سأحصل عن طريق إيمان رفاق مذهبك بالخرافات ، على ما تضمن به رحمتهم على . سيعرف كل مركز وكل

فرع في طائفتك أنك قد ارتكبت خطيئة مع يهودية وكأنك أحد المرطقين، أما أولئك الذين ترتعد فرائضهم من جريمتك ، فسيعتبرونك ملعونا لأنك دنست الصليب الذي تحمله بتعقبك لإحدى بنات شعبنا .

فقال فارس المعبد وهو يعلم حق العلم صدق ما قالت، وأن قوانين طائفته تدينه إدانة قاطعة ، وتنص على عقوبات صارمة لارتكاب مثل تلك المكيدة التي كان يزعم القيام بها ، وقد يستنجمها في بعض الحالات الطرد من الطائفة:

- « إنك مفرطة الذكاء ولكن صوت شكواك يجب أن يرتفع حتى يسمع خارج أسوار هذا القصر الحديدية . في داخل هذه الجدران تجبو الشكوى والأناث وطلب العدالة وصرخات النجدة على السواء . لا شيء يستطيع أن ينقذك ياربىكا إلا أن ترضخى لمصيرك - اعتنق ديانتنا تبلغى مرتبة سامية تجعل كثيراً من السيدات النورمانديات متخلفات في الآهة والجمال عن خليفة أحسن ربح بين المدافعين عن المعبد . »

فقال ربيكا :

- « أروضخ لمصيرى !! بحق السماء المقدسة لآى مصير أخضع ل؟ اعتنق ديانتك !! آية ديانة تلك التي تؤوى مثل ذلك الشرير ؟ أنت أحسن وراح المعبد ! أيها الفارس الجبان ! أيها القس المارق ! إنى أبصق عليك وأتحداك . إن إله وعد إبراهيم قد شق لابنته منفذاً للهرب حتى من وهدة العار هذه ! »

وفيما هي تتكلم ، إذ بها تندفع نحو النافذة المطلة على الشرفة ، وبعد برهة وجيزة كانت واقفة على حافة سور لا وافي له على وجه الإطلاق يحول بينها وبين العمق السحيق من تحتها . لم يكن لدى بواجيلبرت - الذى لجأه هذا العمل الدال على القنوط - من الوقت ما يفى بالحيلولة دون وقوعه ، وعندما شرع فى أن يتقدم نحوها قالت له :

- « ابق حيث أنت أيها الفارس المتكبر أو تقدم وفق ما يحلو لك ! »

إن اقتربت منى خطوة أخرى فسألقى بنفسى فى هذه الهوة - سيتحطم  
جسدى على أحجار هذا الفناء ، ويصبح حطاما فاقدًا لكل معالم البشرية قبل  
أن يكون لقمة سائغة لهيمنتك ا . .

قالت ذلك ثم ضمت يديها ورفعتها نحو السماء كمن تطلب الرحمة لروحها  
قبل أن تقدم على القفزة الأخيرة . حار فارس المعبد ، وبدافع من الشفقة  
أو العطف أمام إعجابه بعزيمتها ، تهاوت إرادته التى لم تنه أبدأ وقال :

- انزلى أيتها الفتاة الطائشة ، أقسم بالأرض والبحر والسماء على  
أنى لن ألحق بك ضراً ، فقالت ريكا :

- لن أثق بك أيها الفارس . لقد علمتني جيداً كيف أضع فضائل  
طائفتك موضع التقدير . سيمنحك أقرب مراكز الطائفة غفرانا عن الحنك  
فى قسم لم يكن متعلقاً إلا بشرف فتاة يهودية بائسة أو عارها ، .  
فقال الفارس بحرارة :

- إنك ظالمة . أقسم لك بالاسم الذى أدين به ، وبالصليب الذى  
أحمله على صدرى ، وبالسيف المدلى إلى جانبي ، وبشعار آبائى القديم -  
أقسم لك على أنى لن ألحق بك سوءاً ما . ارجعى عماء اعزمته وسأترفق  
بك ، إن لم يكن من أجلك فمن أجلك وأبيك وسأكون صديقاً له وهو فى  
أمس الحاجة إلى صديق قوى فى هذا القصر ، .

قالت ريكا :

- يا لآسنى ا إنى أعلم ذلك حق العلم ولكن ، هل أخاطر فأثق بك؟  
فأجاب بريان دى بواجيلبرت :

- لينثن ذراعى ، ولينتلوث بالعار اسمى إذا لمست فى ما يدعو إلى  
الشكابة منى ا كم من قانون أو حكم ضربت به عرض الحائط ولكنى لم أحسك  
بوعدى قط ؛ .

- « إذن سأثق بك إلى حد ما ، » .

ثم نزلت من فوق حافة السور ولكنها ظلت واقفة بالقرب من إحدى الفتحات التي يلقون منها بالقذائف على العدو وقالت :

- « سأقف مكاني وأبق حيث أنت ، وإذا حاولت أن تنقص من المسافة التي بيننا خطوة واحدة ، فسرى أن الفتاة اليهودية تؤثر أن تضع روحها ودبعة بين يدي الله ، عن أن تودع شرفها بين يدي أحد فرسان هذا المعبد ، » .

وبينما كانت ربيكا تتكلم على هذا النحو ، كان إصرارها الثابت الذي يتلام كل الملاءمة مع جمال مجيهاها المعبر ، قد أضنى على قسماات وجهها ومظهرها وسلوكها جلالاتا يفوق جلال البشر . لم تخزع عزميتها ولم يعض الدم من وجنتيها جزعاً من هذا المصير المرتقب الرهيب ، بل على النقيض فقد كانت فكرة سيطرتها على مصيرها ، وأنها تستطيع باختيارها أن تفلت من العار إلى الموت ، قد أكسبت وجهها لوناً شديداً الاحمرار كلون الورود ، وعينيها بريقاً خاطفاً ، حتى خيل إلى بواجبلبرت المتكبر الطاغية أنه لم ير في حياته جمالا يفيض هكذا حياة وعزة فقال :

- « فليقم بيننا سلام يا ربيكا ، » .

فقلت ربيكا :

- « سلام إذا شئت - سلام ولكن مع بقاء هذا البعد بيننا ، » .

- « ليس لك أن تخشيني بعد الآن ، » .

- « أنا لا أرهبك . شكراً لمن أقام هذا البرج الشاهق الذي لا يستطيع إنسان أن يسقط منه ويبقى على قيد الحياة - شكراً له وإلاه إسرائيل - إنى لا أخشاك ، » .

- د إنك تطلبيني . أقسم بالأرض والبحر وبالسما على أنك تتجنين على ا ليس من شيمتى أن أكون - كما رأيتنى - قاسياً محباً لنفسى لألين . إن المرأة هى التى علمتى كيف أقسو ولذا فقد صبيت قسوتى على المرأة ، ولكنى لن أقسو على من هن على شا كلتك . اصغ إلى ياريكا : د من بين جميع الفوارس الذين أمسكوا برماهم لم يخلق قلب أخلص لمن أحبها على وفاة مثل ما أخلص بواجيلبرت . لقد أحبتها وكانت ابنة لإقطاعى صغير لا يمتلك إلا برجاً خرباً وكرمة غير مشمرة ، وبضع فراسخ من أراضى بوردو الجرداء ، وقد ذاع اسمها حيثما قامت أعمال الفروسية ، وأصبحت أوسع شهرة من كثير من السيدات اللواتى كان صداقهن مقاطعة بأكلها ، ثم استرسل وهو يقطع الشرفة الصغيرة ذهاباً وجيئة بأحاسيس نائرة بدا معها وكأنه قد نسى فى غمرتها كل شعور بوجود ياريكا : د نعم ا نعم ا لقد جعلت أعمالى ومخاطراتى ودى اسم د أديليد دى موتيجار ، ذائعاً من بلاط أسبانيا إلى بلاط بيزنطة ، وماذا كانت العقبي ؟ عندما عدت بأبجادى التى دفعت ثمنها غالباً ، واشتريتها بالعناء وبالدماء ، وجدتها وقد تزوجت من جاكسونى لا يمتلك إلا ضيعة صغيرة ، ولم يسمع باسمه أحد قط خارج حدود أراضيه الحقيمة . لقد أحبتها حقاً وانتقمت منها بقسوة لأنها خانت العهد ، ولكن انتقامى قد ارتد إلى نحرى ، ومنذ ذلك اليوم باعدت بينى وبين الحياة وقبودها ، لا تعرف رجولتى أنساً فى بيت ، ولا تصقلها أو تشبعها زوجة محبة - لا تعرف شيخوختى مدفأة مريحة - يجب أن يكون قبرى وحيداً ، ولن تعيش لى من بعدى ذرية تحمل اسم بواجيلبرت العريق . لقد ألقبت بحقى فى الإرادة الحرة وامتيازى بالاستقلال تحت قدمى رئيس طانفتى . إن فارس المعبد ليس إلا عبداً فى كل شىء ما عدا الاسم . إنه لا يستطيع أن يمتلك أرضاً أو متاعاً ، يحيا ويتحرك ويحتذب أنفاسه بإرادة شخص آخر ومشبثته . .

فقالت ياريكا :

— « واأسفاه ! وأى المزايا يمكن أن تكون جزاء وفاقا لمثل هذه التضحية الكاملة . »

فأجاب الفارس:

— « القدرة على الانتقام وآمال الطموح ياريكا . »

فقالت :

— « مزايا كلها شر نظير النازل عن أعز حقوق البشرية . فقال الفارس :  
— « لا تقولى ذلك أيتها الفتاة . إن الانتقام وليمة للآلهة ! وإذا كانت قد احتفظت بها لأنفسها كما يقول لنا القساوسة . فذلك لأنها تعتبرها متعة أنفس من أن يمتلكها بشرقانون . والطموح ! إيه، إغراء يمكن أن يبعث القلق في هناه السماء نفسها . ثم توقف لحظة وأتبع قائلاً : « ربيكا ! إن تلك التي تستطيع أن تؤثر الموت على العارلابد وأن تكون لها نفس أية قوية . ستكونين لى ! ، ثم أضاف « كلا ! لا يأخذنك الفرع ! سيكون ذلك بمحض اختيارك وبما تملينه من شروط . يجب أن ترضى بأن تقاسمى آمالاً أبعد آفاقاً مما يستطيع رؤيتها من عرش أحد الملوك ! استمعى إلى قبل أن تجيبى ، وتبصرى قبل أن ترفضى . إن فارس المعبد يفقد كما قلت حقوقه الاجتماعية وقدرته على التصرف في غير قيد ، ولكنه يصبح عضواً وجارحة في جسد قوى تهتز أمامه العروش ، وهو كحبة المطر الواحدة التي تمتزج بماء البحر فتصبح جزءاً لا يتجزأ من هذا المحيط النائر الذي يفتت الصخر ويبتلع الأساطيل الملكية ، هذا وربطتنا كخضم هذا الطوفان لا تنفصم عراها . إنى لست عضواً لا يؤبه له في هذه الطائفة القوية ، بل أنا الآن أحد كبار قادتهاولى أن أرنو إلى أن أمسك يوماً بعصا الرئيس الأكبر — لن يضع صغار جنود المعبد وخدمهم أقدامهم على أعناق الملوك ، بل إن أى راهب ينتعل خفاً من الكنان يستطيع أن يفعل ذلك — إن أقدامنا التي يكسوها الزرد سترتقى عروشهم ، وسينتزع قفازنا الصولجان من قبضة أيديهم — إن حكم مسيحكم المنتظر المزعوم لا يهب قبائلكم المشردة في بقاع الأرض من القوة قدر ما يرق

إليه طموحي — إنى لم أبحث إلا عن روح قريبة إلى قلبي لتشاركنى الحياة ،  
وقد وجدت فيك توأم نفسى ، .

فقات ريبكا :

— « أتقول هذا لإحدى بنات جنسى ؟ أتظن . . . »

فقاطعها فارس المعبد قائلا :

— « لاتبجبي بكلمات تشير إلى اختلاف عقائدنا . إننا نسخر فى قرارة  
أنفسنا من هذه الأقاوص الصببانية . لاتبظنى أنا سنبقى هكذا عبيانا عن  
البلاهة الحقاء لمؤسى طائفنا الذين نبذوا كل مباحج الحياة من أجل متعة  
الموت استشهاداً بالجوع والظماً والطاعون وسيف المحاربين الغلاظ ، وهم  
يحاولون الدفاع عبثاً عن صحراء قاحلة لا قيمة لها إلا فى نظر الخرافة ، وسرعان  
ما تغفلت فى نظامنا آراء أشد جرأة وأوسع رحاباً فأوجدت لنا عن تضحياتنا  
عوضاً . ممتلكاتنا الشاسعة فى كل بقاع أوروبا ، وشهرتنا العسكرية المربضة  
التي تجتذب إلى محيطنا زهرة الفروسية من كل قطر مسيحي — كل هذه  
خصصت لأهداف لم يكن مؤسسوننا الأتقياء يحبون بها إلا قليلاً ،  
ولاتبكشف أيضاً لتلك النفوس الضعيفة التي تعتنق نظامنا عن المبادئ  
القديمة التي جعلتها خرافاتها أدوات طبيعة لنا ، ولكنى إن أزعج القناع إلى  
أكثر من هذا عما خفي من أسرارنا . إن صوت هذا النفير يعلن عن شيء  
قد يستدعى حضورى . فكري فيما قلت لك . وداعاً ! أنا لا أطلب  
المغفرة للعنف الذى صدر عنى فقد كان ذلك من الضرورة بمكان لتبيان  
طبيعتك فالذهب لا يعرف إلا باحتكاكه بحجر الاختبار . سأعود على الفور  
لأسترسل فى حديثى إلى أبعد من هذا ، .

دخل الغرفة مرة أخرى ، ثم نزل الدرج تاركاً ريبكا وهي ليست بأشد  
رعباً من صورة الموت الذى تعرضت له منذ حين ، من الطموح العنيف

لذلك الرجل الجسور الذى وجدت نفسها فى تعاسة تحت قدرته ، وعندما عادت إلى غرفة البرج ، كان أول واجب قامت به هو أنها قدمت الشكر لإله يعقوب على الحماية التى أسبغها عليها ، وابتهلت إليه ألا يكف عن حمايتها هى وأبيها . تسلى إليها اسم آخر فى أثناء صلاتها ، وهو اسم المسيح الجريح الذى ألقى به القدر فى قبضة هؤلاء الرجال المتعطشين إلى شرب الدماء ، أعدائه الألداء . حقيقة لقد لدعها فؤادها كما لو ساءه أنها ذكرت شخصاً فى أثناء الصلاة إلى الله لا يمكن لمصيرها أن يرتبطاً معاً ، أى بنصرانى عدو لعقائدها الدينية ، ولكن الصلاة كانت قد صدرت عنها فعلاً وما كانت جميع الآراء المتزمنة لبني جنسها لتستطيع أن تدفع برييكا إلى أن تترجعه .

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**



## الفصل الخامس والعشرون

قطعة لعينة من خط منقوش لم أر في حياتي مثيلاً لها

( إنها تطأطى الرأس لتنتهر )

عندما وصل فارس المعبد إلى ردهة القصر ، وجد أن دي براسي قد سبقه إليها فقال له :

– « يبدو لي أن هذه النداءات المدوية قد قطعت عليك غزلك كما فعلت معي ، ولكنك جئت متأخراً عني وعلى كره منك ، ولذا فإنه يخيل إلى أن لقاءك كان أكثر توفيقاً من لقائي . »

فسأله فارس المعبد :

– « أفشلت إذن في محاولتك اغزو قلب الوريثة الساكسونية ؟ »  
فأجاب دي براسي :

– « أقسم بعظام « توماس آبيكيت ، على أنه لا بد وقد تناهى إلى اللبدي رويينا أنه لا قبل لي على احتمال مرأى دموع النساء . »

فقال فارس المعبد :

– « إليك عني ! أتكون قائداً ، لكثيرة حرة ، وتقيم لدموع المرأة وزناً ؟ إذا تساقطت بضع قطرات من العبرات على مشعل الحب ، فإنها تزيد اللهب اضطراباً . »

فقال دي براسي :

– « أجمل الشكر لقطراتك القليلة المسكوبة ، ولكن هذه الفناة قد سكبت من الدموع ما يكفي لإخماد ضوء منارة . والحق ما عرفت أحداً اعتمر يديه وهطلت الدموع من عينيه منذ عهد القديس « نيوب » ، الذي حدثنا عنه رئيس الدير آيبر أمير مثل ما فعلت رويينا . لقد ركب شيطان الماء روح الساكسونية الحسنة . »

فقال فارس المعبد :

— « لقد امتلأ صدر اليهودية بفصيلة من الشياطين ، وأظن أنه ليس في استطاعة شيطان واحد ولا حتى « أبوليون » ، نفسه ، أن يوحى بمثل هذا الكبرياء وتلك العزيمة التي لا تقهر — ولكن أين فروندييف ؟ إن دوى هذا النفير يزداد شدة . »

فأجاب دى براسى برود :

— « أظن أنه يساوم اليهودى ، ومن المحتمل أن يكون صوت النفير قد ذاب في ثنايا صرخات اليهودى ، ولعل التجارب قد علمتك يا سير بريان أن اليهودى الذى يفترق عن كنوزه بمثل هذه الشروط التي يرغب صديقنا فروندييف في أن يفرضها عليه ، تدفعه إلى أن يطلق صخباً يبلغ من القوة حداً يجعله يعلو على صوت عشرين بوقاً ونفيراً ، ولكننا سنطلب إلى الاتباع أن ينادوه . »

وبعد قليل انضم إليهما فروندييف الذى كان قلقاً من جراء قوته الظالمة على النسق الذى ألم به القارى ، وكان قد توانى لالشيء إلا لإصدار بعض الأوامر التي دعت إليها الضرورة ، وقال فروندييف :

— « فلتر الباعث على هذه الضجة اللعينة : ها هي ذى رسالة ، وإن لم أكن مخطئاً فهي مدونة باللغة الساكسونية . »

نظر إلى الرسالة وهو يقلبها في يده مرة ومرة ، وكأنه كان واثقاً من أمل يحدوه في أنه سيعرف معناها إذا ما بدل من وضعها ، ثم أعطاها إلى دى براسى الذى كان على قدر كامل من جهل يتميز به فرسان ذلك العصر فقال :

— « على قدر علمى أرى أنها تحوى سحراً . لقد جاهد كاهننا كي يعلنى الكتابة ، ولكن الحروف التي كنت أكتبها كانت شبيهة برهوس الرماح وأسنة السيوف ، وعند هذا ألق الكاهن العجوز عن الاسترسال في هذه المهمة . »

فقال فارس المعبد :

— « هاتها ، إن لنا من خصائص الكهنوت ما يجعلنا نلم بعض الإلام بما ينير أمام بسالتنا الطريق » . فقال دى براسى :

— « فلنستفد إذن من معرفتك الموقرة . ماذا تقول الوريقة إذن ؟ »

فأجاب الفارس :

— « إنها رسالة تحد رسمية ، ولكنى أقسم بسيدتنا عذراء بيت لحم على أنها إن لم تكن مزاحا أحق ، فهمي أغرب تحد أرسل عبر الكوبرى المتحرك لقصر إقطاعى » .

فقال فرونديبيف :

— « مزاح ! إنه لمن بواعث سرورى أن أعرف ذلك الذى يجترى على أن يمزح معى فى مثل هذا الأمر ! — اقرأه يا سير بريان » .

وعلى هذا قرأ فارس المعبد ما يلى :

— « أنا وامبا بن ويتلس مهرج لرجل حر نبيل المولد — سيدريك أوف روزوود المعروف بالساكسونى — وأنا جيرث بن بيوولفراعى الخنازير . . . »

فقال فرونديبيف مقاطعاً القارى :

— « إنك مجنون » .

فقال فارس المعبد :

— « أقسم بالقديس لوقا على أن هذه هى السطور المدونة ، ثم استأنف القراءة وعاد يقول « أنا جيرث بن بيوولفراعى خنازير سيدريك وخادمه ، ومعنا خليفانا وشريكنا اللذان ينضمنا إلى صفوفنا فى خصوصتنا هذه ، وهما الفارس المغوار الذى يسمى فى الوقت الحاضر « بالسكول الأسود » ، وحارس الغابة البدين روبرت لو كسلى المسمى « بفالتق العود » ، نعلنك يارب مجنول فرونديبيف أنت ومن معك من حلفائك وشركائك أياً كانوا بما يلى :

« حيث إنك دون أن تبدى سبياً أو تعلن عن خسومة قد اقتنصت مولانا وسيدنا سيدريك غدراً وافتداراً ، وكذا اللیدی روینا أوف هارجوتستاندستید النبيلة كريمة المحتد ، وأیلتین أوف كوننجزبره الرجل الذیل حر الولد ، وعددآ من أتباعهم الأحرار ، وكذا بعض عبیدهم الذین ولدوا أرقاء ، ويهودیا يدعى إسحق أوف یورك ومعه ابنته اليهودية ، وبعض الجیاد والبغال . إن هؤلاء الأشخاص النبلاء مع موالیهم وعبیدهم والجیاد والبغال والیهودی والیهودية المذكورین كانوا جميعاً فی سلام مع التاج ، ويسافرون كرعایا مخلصین علی طرقات الملك ، وعلى هذا فإننا نريد ، بل ونطلب أن یطلق سراح هؤلاء النبلاء المذكورین وهم سيدريك أوف رودروود وروینا أوف هارجوتستاندستید وأیلتین أوف كوننجزبره مع خدمهم وعبیدهم وأتباعهم وكذا الجیاد والبغال والیهودی والیهودية المشار إليهما ، بالإضافة إلى جميع ما اغتصبتموه مما یملكون علی أن یتم ذلك فی غضون ساعة من إبلاغكم رسالتنا هذه ، وعلى أن تسلوهم إلینا أو إلى من نعینهم لذلك دون أن یمسهم أذى فی أجسادهم أو متاعهم ، فإذا ما أیتم فإننا نهی إليكم بأننا سنعتبركم لصوصاً غادرین ، وسنخاطر بأجسادنا ضدكم فی معركة أو حصار أو ما إلى ذلك ، ونعمل قدر طاقتنا للتكیل بكم ودماركم ، وعلى ذلك فلیحفظكم الله .

موقع علیه منا فی ليلة عيد القديس ويثولد تحت شجرة البلوط الباسقة فی عمر هارت هیل . هذا وقد قام بنسطير ما فيه رجل تقى راهب فی الله ، وسیدتنا العذراء والقديس دونستان فی كنيسة كورمانهيرست .

كانت هناك رموز معوجة قد نقشت فی ذیل هذه الوثيقة تمثل أولاً رسماً بدائياً لرأس ديك وعرفه مع كلمات أسطورية توضح أن هذا الرسم الهيروغليفي هو توقيع وامبا بن ويتلس ، وهناك اتحت هذا الرمز الموقر صليب يشير إلى أنه توقيع جيرث بن ييولف ، ثم بعد ذلك كتبت كلمتا

« الكسول الأسود ، بحروف غليظة واضحة ، وفي ختام كل هذا رسم سهم بإتقان قصد به أن يكون رمزاً لرامي القوس لوكسلي .

استمع الفرسان إلى هذه الوثيقة الغريبة من بدايتها إلى نهايتها ، ثم نظر كل منهم إلى صاحبه في دهشة صامتة وكأنهم غير واعين لما ترمى إليه . كان دى براسي أول من قطع منهم الصمت بنوبة من الضحك لم يستطع السيطرة عليها ، شاطره فيها فارس المعبد ولكنه كان أكثر اعتدالاً ، أما فروندييف فكان على النقيض منهما يبدو في ضيق من هزلهما الذي كان في وقت غير ملائم وقال :  
- « إنني أنذركم في وضوح أيها السيدان الملبهان بأن الشورى فيما سنقرانه على ضوء هذه الأحداث ، لأجدي علينا من الإذعان لمرح كهذا في غير موضعه ، .

فقال دى براسي لفارس المعبد :

- « إن فروندييف لم يعد إلى طبيعته ولم يتردد رباطة جأشه منذ سقطته الأخيرة ، وأصبح الرعب يملكه بمجرد التفكير في التحدي رغم صدوره عن أحق وعن راع للخنازير ، .

فقال فروندييف :

- « وددت بحق القديس ميخائيل لو كنت تستطيع يادى براسي أن تحتل بنفسك عنف الصدمة في هذه المغامرة . ما كان هؤلاء الأشخاص ليبتزنوا على القيام بمثل هذه المخاطرة الحمقاء التي لا يمكن تصديقها ، ما لم يكن من ورائهم بعض عصابات قوية أشد أزرهم . هناك عدد كبير من الخارجين على القانون بهذه الغابة واجدون على لآني أقوم على حماية الضياء . لقد ضبطت واحداً منهم يسرق غزالاً فأوثقته إلى قرون وعل وحشى ظل يطعن اللص مدى خمس دقائق حتى مات ، فأطلق على من السهام قدر ما أطلق على ذلك الهدف في ساحه آسبي ، . ثم أضاف مخاطباً أحد أتباعه :  
« هنا يارجل ! هل أرسلت من يرى أية قوى وراء هذا التحدي السافر ؟ »  
فأجاب أحد الوصفاء الحاضرين :

- « هناك على الأقل مائتا رجل قد تجمعوا في الغابات » .  
فقال فروندييف :

- « شيء جميل ! تلك هي العقبي لأنى أعرتكما قصرى فى حين أنكما  
لا تستطيعان إنجاز أموركما فى هدوء ، ولكنكما تجلبان إلى هذا العش من  
الزناير ليطن حول أذنى ا ،  
فقال دى براسى :

- « من الزناير ؟ ! بل قل من ذكور النحل التى لا تلدغ ، إنهم جماعة  
من الأوغاد الكسالى الذين يهيمون فى الغابات ويبيدون لحم الأطباء بدلا من  
أن يعملوا ليعيشوا ، .  
فقال فروندييف :

- « لا تلدغ ! ؟ إن سهاما حادة الأسنة يبلغ طول الواحد منها ياردة،  
وتصيب هدفا تبلغ مساحته عرض قطعة ذهبية فرنسية ، لا بد وأن تلدغ  
لدغا شديداً ، .  
فقال فارس المعبد :

- « وباللعار ياسيدى الفارس ! فلنستدع رجالنا وتنقض عليهم . إن فارسا  
واحداً ، بلى ، إن جنديا واحداً كفيل بأن يدحر عشرين من هؤلاء الفلاحين .  
وقال دى براسى :

- « إنه يكفى بل ويزيد ، وإنى أحس بالحنجل إذا ما سددت رعى نحوهم ، .  
فقال فروندييف :

- « إن ما تقوله حق ياسيدى فارس المعبد لو كانوا أتراكا سودا أو  
مغاربة ، أو كانوا قافلة من الفلاحين الفرنسيين الجبناء يادى براسى ، ولكنهم  
إنجليز من رجال الغابات الذين لن تنتضر عليهم إلا بما قد نحصل عليه من  
عتاد وجياد ، وحتى هذه فهى لن تكون بذات نفع كثير فى طرقات الغابة .  
أقول تنقض عليهم ؟ ليس لدينا من الرجال ما ينفى بالدفاع عن القصر . إن  
أفضل رجالى فى يورك الآن ، وكذلك فرقتك كلها يادى براسى ، وليس

لدينا إلا عشرون رجلا ، بالإضافة إلى الحفنة التي ساهمت في هذا العمل الجنوني ، فقال فارس المعبد :

- « لعلك لا تخشى من استطاعتهم التجمع في قوة كبيرة لغزو القصر ، فأجاب فرونديبيف :

- « ليس الأمر كما تقول ياسيربريان . إن على رأس هؤلاء الخارجين زعيما مقداما حقا ، ولكنهم لا يمتلكون معدات للحرب ، أو أدوات للتسلق ، أو قواداً محنكين ، وهنا يستطيع قصرى أن يصمد أمامهم ، . فقال فارس المعبد :

- « أرسل إلى جيرانك ، ودعهم يجمعون رجالهم ويأتون لإنقاذ ثلاثة من الفوارس يحاصرم مخرج وراع للخنازير في القصر الإقطاعي الذي يمتلكه ريجنولد فرونديبيف ، فقال المالك :

- « لعلك مازح ياسيدى الفارس ، إلى من أبعث ؟ إن مالقوازان مع حاشيته الآن في يورك وكذلك حلفائى الآخرون ، ولولا هذه المغامرة الطائشة لكنت الآن هناك أيضاً ، . فقال دى برامى :

- « إذن فأرسل إلى يورك واستدع قورمنا . إذا استطاعوا أن يتحملوا مرأى على وهو يخفق ، أو رفاقى الأحرار ، فإنى أشهد بأنهم أشجع من جذب القوس من الخارجين على القانون فى الغابات الخضراء ، . فقال فرونديبيف :

- « ومن ذا الذى سيحمل هذه الرسالة ؟ إنهم سيحكمون الرقابة على كل الطرقات ويخرجونها من طيات صدر حاملها ، . ثم توقف لحظة واسترسل قائلاً : « لقد اهتمت إليها إنك ياسيدى فارس المعبد تعرف القراءة والكتابة ، ولو وقفنا إلى العثور على أدوات الكتابة التي كان

يستخدمها قس كنيسة الذى مات منذ اثني عشر شهراً في أثناء احتفاله الماغن بعيد الميلاد . . . . . وهنا قال الوصيف الذى كان في حضرتهم :

- « إني أستبيحكم عن ذراً ، أظن أن « إيرفريد ، العجوز تحتفظ بها في مكان ما حيا في ذلك القس الذى كان يتلقى الاعتراف . لقد كان آخر رجل - كما سمعتها تقول - وجه إليها من عبارات الغزل ما يجدر برجل أن يرجه في عذوبة ورقة إلى فتاة أو سيدة . »

فقال فروندييف :

- « اذهب إذن وأت بها ، وعند هذا فإنك أيها السيد فارس المعبد سترد على هذا التحدى الجرى . » وقال بواجيلبرت :

- « لكم هفت نفسى إلى أن أفعل ذلك بحمد السيف لا بسن القلم، ولكن لتكن مشيتك ، »

وعلى ذلك جلس وكتب باللغة الفرنسية رسالة هذا مفادها .

- « إن سير ريجنولد فروندييف ومعه أصدقائه وحلفاؤه النبلاء الفرسان لا يتلقون رسائل التحدى من الموالى والأرقاء والهائمين على وجوههم ، ولو كان لدى ذلك الشخص الذى يُسمى نفسه بالفارس الأسود ما يؤيد ادعاه بشرف الفروسية حقاً ، فما أحراه أن يدرك أنه يضع نفسه الآن موضع المهانة بصحبة كمذه ، وليس له الحق في أن يطلب الاعتراف بفروسيته من رجال شرفاء تجرى في عروقهم دماء النبلاء . أما فيما يمس الأسرى الذين هم في قبضة أيدينا ، فإننا نطالبكم باسم الرحمة المسيحية أن تبعثوا بأحد رجال الدين ليتلقى اعترافهم ويصل ما بينهم وبين الله ، حيث إن نيتنا قد انعقدت على إعدامهم قبل ظهيرة هذا الصباح ، حتى إذا ما صفت



رموسهم فوق الأسوار ، أظهرت لجميع الرجال كيف أننا نستخف بهؤلاء  
لذين هبوا انجدتهم ، ولذلك فإننا كما سبق لنا أن ذكرنا ، نطلب إليكم  
إرسال قس لبيئهم للقاء ربهم ، فإذا ما فعلتم ذلك ، فإنكم إنما تؤدون لهم  
آخر خدمة على وجه الأرض .

ثم طوى الرسالة وأعطاهما للوصيف ، لحملها بدوره إلى الرسول الذي  
كان في الخارج ينتظر الجواب على الخطاب ، الذي جاء به .

وبعد أن انتهى رجل الغابة من تأدية ما أوكل إليه ، عاد إلى مقر قيادة  
الحلفاء الذي كان آتذ تحت شجرة بلوط ضخمة ، تبعد عن القصر بما يقرب  
من رميات سهم ثلاث .

هنا كان واما وجسيرث مع حلفائهما الفارس الأسود ولوكسلي  
والراهب المرح ينتظرون الرد على رسالتهم بصبر نافذ ، وكنت ترى على  
مبعدة منهم كثيراً من رجال الغابات البواسل الذين تفصح ملابسهم  
الخضراء ، ووجوههم التي لفحها التعرض لتقلبات الأجواء عن طبيعة عملهم .  
اجتمع أكثر من مائتين منهم وكان غيرهم آتين على عجل ، أما قادتهم الذين  
كانوا موضع طاعتهم ، فلم يتميزوا عنهم إلا بريشة في قبعاتهم ، بينما كانت  
ملابسهم وأسلحتهم ومهماتهم على غرار الآخرين من جميع النواحي .

كانت هناك إلى جانب تلك الجماعات قوة من الساكسونيين الذين يقطنون  
المدينة المجاورة ، ولكنهم كانوا أقل نظاماً وأسوأ سلاحاً ، هذا بالإضافة  
إلى عدد كبير من العبيد والخدم الذين يعملون في ضياع سيدريك الشاسعة ،  
والذين جاءوا جميعاً لساعتهم بغية إنقاذه . كان القليلون من هؤلاء يحملون  
أسلحة ريفية غير مصقولة تحيلها الضرورة إلى الأغراض الحربية ، ولم تكن  
أسلحتهم الرئيسية إلا حراباً لصيد الخنازير ، أو مناجل الحصاد ، أو مدمقات

الخطوة وما إليها ، لأن النورماندين — طبقا للسياسة التي درج عليها الفزاة — ما كانوا يسمحوا للساكسونيين المغلوبين على أمرهم بامتلاك السيوف والحراب أو استخدامهما ، وكانت تلك الظروف تجعل مساعدة الساكسونيين لمن حوصروا أقل خطورة عليهم من قوة الرجال أنفسهم ، وتفوقهم العددي والحاس النابع من قضية عادلة .

عندما تسلم قواد هذا الجيش الخليط رسالة فارس المعبد ، هرع الرجال أول الأمر إلى الراهب ليفسر لهم ما احتوتها ، فقال ذلك الفارس المبجل :

— أقسم بعصا القديس دونستان الذي أدخل إلى الحضيرة عدداً من الأغنام يفوق ما أدخلته عصا أي قديس آخر في الجنة ، على أنني غير قادر على تفسير هذه الرطانة التي لا أستطيع أن أتكهن بما إذا كانت فرنسية أم عربية . .

أعطى الرسالة بعد ذلك لجيرث الذي هز رأسه بغلظة ثم ناولها بدوره إلى وامبا . نظر المهرج إلى كل من زوايا الورقة الأربع بابتسامة فاترة فيها ذكاء متكلف كذلك التي يستطيع الفرد أن يصطنعها في مثل هذه الظروف ، ثم قفز قفزة في الهواء وأعطى الخطاب للوكسلي ، فقال رامي القوس الوفي :

— لو كانت الحروف الطويلة أقواسا والقصيرة سهاماً عريضة ، لكان من المحتمل أن أعرف عن الأمر شيئاً ، أما والحال كما هو ، فإن الأمر يبعد عن إدراكى وبعد الفزال عنى باثني عشر ميلاً . فقال الفارس الأسود :

— سأقوم بدور الكاتب إذن . ثم أخذ الخطاب من لوكسلي وقرأه فيما بينه وبين نفسه أولاً ، ثم شرح معناه بعد ذلك إلى رفاقته باللغة الساكسونية . فقال وامبا متعجباً :

— « يعدمون سيدريك النبيل ا أقدم بالمسيح على أنك لا محالة مخطيء .  
ياسيدي الفارس » . فقال الفارس :

— « لست مخطئنا ياسيدي المبجل فقد شرحت الكلمات كما وردت » .  
فقال جيرث :

— « إذن أقسم بالقديس توماس أوف كاتربوري على أننا سنستولى  
على القصر حتى لو أدى الأمر إلى تقويضه بأيدينا ا ، فقال وامبا :

— « ليس لدينا ما نقوضه به سوى أيدينا ، ولكن يدي لا تصلحان  
حتى لإحالة الأحجار الرخوة والطلاء إلى أنقاض » . وقال لوكسلي :

— « إنها خدعة لكسب الوقت لأنهم ان يجترئوا على إثيان عمل  
يعلمون أني سأتقاضى ثمنه عقابا رهيبا » . وقال الفارس الأسود .

— « وددت لو كان من بيننا من يستطيع الحصول على إذن بدخول  
القصر ليتبين حالة المحاصرين ، وبما أنهم في حاجة إلى قس ليتلقى الاعتراف ،  
فأظن أن هذا الراهب التي يستطيع في الحال أن يمارس مهمته الدينية  
ويأتينا بالنبا اليقين » . فقال الراهب التي :

— « ليقض عليك الطاعون وعلى نصحك ا أقول لك أيها الفارس  
الكسول إنني عندما أخلع ثوبي الرهباني ، فإنما أخلع معه كهنوتي وقداستي  
وحتى لغتي اللاتينية ، وعندما أتدثر بسترقي الخضراء ، فإنني أستطيع أن أقتل  
عشرين من الظباء بأسرع مما أتلقى اعتراف مسيحي واحد » . وقال  
الفارس الأسود :

— « إن أكثر ما أخشاه ألا يكون من بيننا من يصلح للقيام بدور  
قس يتلقى الاعتراف » .

نظر الجميع إلى بعضهم البعض صامتين ، ثم قال وامبا بعد وقفة قصيرة :

— « أرى أن الاحق يجب ألا يسترسل في حماقه ويخاطر بوضع عنقه في مغامرة يحجم عنها عتلاء الرجال . يجب أن تعلدوا يا أبناء عمومتي ومواطني الأعزاء أنه قد سبق لي وارتديت الثوب الخشن قبل أن ارتدى الحرير ، وأنتى نشنت كى أكون راهبا حتى أصابتنى حمى مخية لم تترك لي من رجاحة العقل إلا ماينى بأن تجعلنى أحمق ، وإنى لوائق — بمساعدة رداء الراهب الطيب بالإضافة إلى الكنوت والعلم والقدااسة المثبتة داخل غطاء الرأس — من أنكم ستجدون فى الصلاحية الكافية لأن أقدم الراحة الجسدية والروحية لسيدنا الموقر سيدريك ورفاقه فى المحنة . فقال الفارس الأسود يخاطب وامبا :

— « هل تعتقد أن به من الكياسة ماينى بالقيام بهذا العمل ؟ » .  
فأجاب جيرث :

— « لست أدرى ! ولكن إذا لم يكن لديه من رجاحة العقل ما يؤهله لذلك ، فستكون هذه هى المرة الأولى التى تعوزه فيها الفطنة ليجعل من حماقه عملا له وزنه وقدره . »

فقال الفارس :

— « ضع الرداء إذن أيها الرفيق الطيب ، ودع سيدك يبعث إلينا ببيان عن حالتهم فى داخل القصر . إن عددهم ولا بد قليل ، وإنى أراهن بخمسة مقابل واحد على أننا نستطيع أن ننال منهم بهجوم مفاجئ جسر . الوقت يمضى — هيا ، اذهب . »  
قال لوكسلى :

— « وفى الوقت نفسه سنحاصر المكان حصاراً دقيقاً حتى لا نستطيع

ذباية أن تنقل أبناء من لدنا ، . ثم استرسل يخاطب وامبا ، وعلى ذلك فإنك  
تستطيع يا صديقي الطيب أن تؤكد هؤلاء الطغاة أنهم إذا ارتكبوا أى عمل  
عنيف حياى أسرام ، فإن عنفا أسمى سيحل بهم ، .

وبعد أن تدر واما بردائه الكهنوتى التنكرى قال باللاتينية « السلام  
معكم ، .

ثم حاكى الراهب فى مشيته الوقورة المتندة ومضى للقيام بما أوكل إليه .

## الفصل السادس والعشرون

كثيراً ما يصاب بالخنول أشد الجياد حرارة  
بينما يشتعل حرارة أكثرها خولاً ،  
وكثيراً ما يقوم الراهب بدور الأحمق  
بينما يقوم الأحمق بدور الراهب .

( أغنية لديعة )

عندما وقف المهرج أمام الباب الخارجى لقصر فرونديبيف مرتدياً  
ثوب الناسك وغطاء رأسه وقد لف حول خصره حبله ذا العقد ، سأله  
الحارس عن اسمه والمهمة التى جاء من أجلها فأجاب المهرج :

— « السلام معكم » ، إنى فقير من طائفة رهبان القديس فرانسيس ،  
وقد جئت إلى هنا لأباشر مهام وظيفتى نحو جماعة من الأسرى التعساء هنا  
فى داخل هذا القصر . فقال الحارس :

— « إنك راهب جسور حتى تجترى على الحضور إلى حيث لم يصح  
ديك من جنسك منذ عشرين عاماً خلعت اللهم إلا قسنا السكير » . فقال  
الراهب المدعى :

— « ومع ذلك فإنى أرجو أن ترفع إلى سيد القصر أمرى ، وأصدقك  
القول إنه سيلتقى قبولا حسناً من لدنه ، وسيصبح الديك حتى يسمعه من  
بالقصر كله » . فقال الحارس :

— « أعمق شكرى ! ولكن لو لحق بى زجر إذا ما تركت مركز  
حراستى لحل رسالتك ، فسأجرب ما إذا كان رداء الراهب الرمادى سيكون  
واقياً من سهم به ريش أوزة رمادية اللون » .

وبعد أن ألقى بهذا الوعيد ، حمل إلى ردهة القصر نبأه الغريب ، وهو أن راهباً ورعاً يقف بالباب الخارجى ويطلب الإذن له بالدخول على الفور ، فتلقى أوامر سيده بشيء من الدهشة ، وذلك بأن يدع الرجل التقي يدخل دون إبطاء . ولما كان قد سبق له وأغلق للباب من قبيل الحيلة ضد المفاجآت ، فقد أطاع ما أمر به دون أن تراوده شكوك أخرى . لم يصبح الغرور الطائش الذى نفت الشجاعة فى واما فدفع به إلى القيام بهذه المخاطرة كافياً بأن يشد أزره عندما ألقى نفسه فى حضرة رجل رهيب مرهوب مثل ريجنولد فرونديبيف ، فقال باللاتينية جملته « السلام معكم ، - وهى التى كان يعتمد عليها إلى حد كبير فى تدعيم شخصيته - بحيرة وتردد لم يشعر بمثلها فى أى وقت مضى ، ولكن فرونديبيف كان قد درج على أن يرى الرجال على اختلاف مراتبهم يرتجفون فى حضرته ، حتى أن الاضطراب الذى بدا على الأب المزعوم لم يثر فيه ريبة ما فقال :

- « من أنت ومن أين أيها القس ؟ ، فأعاد المهرج كلمته باللاتينية « السلام معكم » . ثم أردف « لى خادم فقير للقديس فرانسيس ، وكنت أجوب هذه البقاع الموحشة فوقعت فى أيدي اللصوص - كما جاء فى الكتاب المقدس - الذين بعثوا بى إلى هذا القصر لأداء شعائر وظيفتى الجنائزية نحو شخصين حوكم بمقتضى عدالتكم الموقرة » . فقال فرونديبيف :

- « نعم - هذا صحيح ا وهل فى استطاعتك أيها الأب المقدس أن تنبئنى عن عدد قطاع الطريق هؤلاء ؟ » . فأجاب المهرج باللاتينية :

- « إنهم جمع غفير أيها السيد الباسل » .

- « خبرنى عن عددهم تفصيلاً ، وإلا فلن يقوى رداؤك وحبلك على حمايتك مني أيها القس » . فقال الراهب المزعوم باللاتينية :

- « وأسفاه ا ، ثم أردف ، أقول لك إنى كدت أموت هولاً ورعباً ، ولكنى أعتقد أنهم خمسمائة على الأقل ما بين رجل غابة وفلاح ، دخل فارس المعد إلى الردهة آتئذ وقال :

- « ماذا ا ؟ أتجمع الزناير بمثل هذه الكثافة هنا ؟ لقد حان الوقت للقضاء على هذه العصابة الشريرة ، . ثم انتحى بفروندبييف جانباً وسأله :

- « أتعرف هذا القس ؟ ، فأجاب فروندبييف :

- « إنى لا أعرفه فهو غريب من دير بعيد ، . فقال فارس المعبد :

- « إذن فلا تجعله موضع ثقتك فى رسالة شفوية ، بل دعه يحمل أمراً كتابياً إلى فرقة دى براسى من « الرفاق الأحرار ، كى يعودوا على عجل لنجدة سيدهم ، وفى الوقت نفسه وحتى لا يرتاب الراهب فى شىء ، امنحه إذناً بالتجوال دون قيود للقيام بمهمته فى إعداد هذين الخنزيرين الساكسونيين للجزر ، . فقال فروندبييف :

- « سيكون الأمر كما ترى ، .

ثم أمرع فأمر أحد الخدم بأن يقود واما إلى الغرفة التى كان سيدريك وأثيلستين يجمين بها . كان السجن قد ألهب نار الغضب فى سيدريك بدلا من أن يخفف من وطأته ، فكان يذرع الغرفة غدواً ورواحاً على صورة رجل يتأهب للانقضاض على عدو ، أو لاكتساح ثغرة فى مكان محاصر ، وكان حيناً يتحدث إلى نفسه ، وحيناً آخر يوجه القول إلى أثيلستين الذى كان ينتظر نهاية المغامرة بجلد وصبر ، وهو فى أثناء ذلك يهضم تلك الوجبة الدسمة التى تناولها عند الظهيرة بشىء كثير من رباطة الجأش ، ولم يكن



ليشغل البال كثيراً بئدة أسره التي كان يقول عنها لنفسه إنها ككل شرور الأرض ستصل حتماً إلى نهاية عندما تأذن السماء بذلك .

وقال المهرج وهو يدخل الغرفة :

— « السلام معكم ، لنحل بكمأ وحولكمأ بركة القديس دونستان ،  
والقديس دينيس ، والقديس دثوك ، وجميع القديسين الآخرين كيفما  
كانوا ، . فقال سيدريك للراهب المزعوم :

— « ادخل لاجناح عليك ، لآية غآية جئت هنا ؟ ، فأجاب المهرج :

— « كى أنهى إلبكمأ بأن تهينا نفسبكمأ للموت ، ، فقال سيدريك :

— « هذا محال ! مهما بلغت بهم الشهوة لارتكاب الشرور ، فإنهم  
لن يجترئوا على إتيان مثل هذه القسوة الظاهرة التي لا طائل من ورائها ، .  
فقال المهرج :

— « واأسفاه ! إن محاولة ردعهم بدافع من مشاعرهم الإنسانية ،  
كمن يحاول إيقاف جواد جاح بعنان من خيط حريرى ، وعلى هذا فإنى  
أطلب إلبك ياسيدريك النبيل، وأنت أيضاً يا أثيلستين البامل أن تفكرا  
فى الخطايا التي ارتكبتها جسداً كما ، لأنكما ستدعيان فى هذا اليوم نفسه  
للإجابة عنها أمام محكمة أعلى ، . فقال سيدريك :

— « هل استمعت إلى هذا يا أثيلستين ؟ يجب أن تنفث الشجاعة فى  
قلبنا كى نقوى على لقاء هذه النهاية ، طالما أننا نؤثر الموت رجالاتنا على  
الحياة عبيداً ، . فقال أثيلستين :

— « إنى أرحب بمجابة أسمى شرم . سأتقدم لملاقة حتى بنفس  
الرصانة التي خطوط بها نحو غذائى ، . فقال سيدريك :

« إذن فلتعطنا زادنا المقدس أيها الأب ، . فقال المهرج بصوته الطبيعي :

« انتظر لحظة أخرى أيها العم الطيب . إنه لمن الأفضل أن تدقق النظر قبل أن تقفز في الظلام ، . فقال سيدريك :

« أقسم يا يمانى على أنى أعرف هذا الصوت ، . فقال وامبا وهو يلتقي بقلنسوته :

« إنه صوت عبدك الأمين ومهرجك . لو كنت قد أصغيت من قبل إلى نصيحة أحق لما كنت هنا أبداً ، وإذا استمعت الآن إلى نصيحة أحق ، فلن تبقى هنا طويلاً . . فقال الساكسونى :

« ماذا تعنى يا غلام ؟ ، فقال وامبا :

« أعنى أنك تأخذ هذا الرداء والحبل ، وهما كل ما أملك من مستلزمات الكهنوتية ، ثم تخرج فى هدوء من القصر ، وترك لى عباءتك وحزامك لأقوم بالقفزة الطويلة بدلا منك ، . فقال سيدريك وقد دهش لهذا العرض :

« أترك مكانى لك ، ماذا ! إن حبال المشنقة معدة لك يا غلامى المسكين ، .

« ليفعلوا بى ما شاء لهم أن يفعلوا ، وإنى لوائق - دون استخفاف بمولدك - من أن ابن ويتلس سيندلى من سلسلة تعادل فى ثقلها تلك السلسلة التى تدلى منها سلفه العمدة ، . فقال سيدريك :

« وحسنا يا وامبا سأجيبك إلى مطلبك ولكن على شريطة أن تتبادل الثياب مع اللورد أثيلستين بدلا منى ، . فقال وامبا :

— « كلا بحق القديس دونستان . ليس هذا من رجاحة العقل في كثير . إن العدل يقضى بأن ابن ويتلس ينقذ ابن هيرورد، ولكن ما أقل الحكمة في أن يموت فداء لرجل كان أباه غريباً على آباءه . فقال سيدريك :

— « لقد كان آباء أثليستين ملوكاً لانجلترا أيها الشرير . » فقال وامبا :

— « فليكونوا ما يحلو لهم ، ولكن عنق سيبقي ثابتاً على كنيّ ولن أتركه ينثني من أجلهم ، ومن ثم يا سيدي الفارس ، إما أن تأخذ لنفسك ما عرضته عليك ، وإما أن تدعني أغادر هذا السجن طليقاً كما دخلته . فاسترسل سيدريك قائلاً :

— « دع العجزة العجوز تدوى في سبيل المحافظة على أمل الغابة المرتجى . انقذ أثليستين النبيل يا وامباي صادق العهد ! هذا حق على كل من تجرى في عروقه اندماء الساكسونية . سنحمل أنا وأنت معا أقصى ما نستطيع مضطهدونا الأشرار أن يصبوه من غضب ، بينما يذهب هو حراً آمناً ويلهب مشاعر مواطنينا كي يثاروا لنا . » فقال أثليستين وهو يقبض على يده — لأنه عندما كان يصحو ليفكر أو ليعمل فإن أعماله وأحاديثه كانت تتلام كل الملاممة مع عنصره الكريم — : « هذا لن يكون يا أبي سيدريك . إنني أوثر البقاء في هذه القاعة أسبوعاً بغير طعام اللهم إلا رغيف السجن المحدود ، أو شراب جرعة الماء المقررة له ، على أن أحتضن فرصة هرب أناحتا لسيدة طيبة عبدٍ جاهلة . » فقال المهرج :

— « إنكا يا سيداي رجلان حصيفان أما أنا فأحق مسلوب العقل ، ولكن هذا الأحق — أيها العم سيدريك وأنت يا ابن عمي أثليستين — سيفصل بينكما في هذا الجدل ، ويوفر عليكما مشقة تبادل عبارات اللياقة إلى أكثر من ذلك . إني مثل فرس « جون آداك » التي لن تدع رجلاً آخر يمتطيها غير جون آداك . لقد جئت كي أنقذ سيدي ، فإذا ما أبي ،

فلا حيلة لي إلا أن أعود أدراجي من جديد . إن الخدمة الكريمة لا يمكن تقاذفها من يد إلى أخرى وكأنها الدمية أو كرة اللعب . لن أشق إلا فداء لسيدى . . فقال أثيلستين :

- « فلتذهب إذن ياسيدريك النبيل ، ولاتدع هذه الفرصة تفلت منك . إن وجودك بالخارج قد ينفك الشجاعة في قلوب الأصدقاء فيهبوا لنجدتنا ، وإن بقاءك هنا قضاء علينا جميعاً . فقال سيدريك وهو ينظر إلى المهرج :

- « وهل هناك احتمال في مدد يأتينا من الخارج ؟ ، فأجاب وامبا :

- « احتمال ١١ بل إنها حقيقة لامراء فيها . دعنى أقل لك إنك عندما تملأ عباتى فتصبح ملتفاً بمعطف قائد كبير . إن هناك في الخارج خمسمائة رجل ، وكنت في الصباح أحد كبار قوادهم . كانت الخوذة غطاء لرأسى الأحمق ، وكانت المراوة العوبتى . حسنا سوف نرى أى نفع سيجتنونه من وراء استبدال رجل أحمق ، بأخر ذى كياسة وفطنة . حقيقة إنى أخشى أن يفقدوا من البسالة ما قد يجنونه من الحصافة ، وهكذا وداعا ياسيدى وكن رقيقا مع جيرث المسكين وكلبه فانجز . لا تنس أن تعلق عرف الديك الذى كنت أرتديه في القاعة بروذر وود ذكرى لتضحيتى بحياتى من أجل سيدى كأحمق . . . مخلص ، .

خرجت الكلمات الأخيرة من بين شفثيه وفيها معنى مزدوج ، فيها دعاية وفيها جد ، فتحجرت الدموع في عيني سيدريك وحارت ، ثم قال :

- « مستدوم ذكراك مابق للوفاء والشرف قيمة على وجه الأرض ، ولو لم أكن على ثقة من أنى سأجسد الوسيلة لخلاص رويانا وخلصك

يا أثيلستين وأنت كذلك يا واما المسكين ، لما رضخت لمشيتنك ، .  
كانا آتذ قد اتها من تبادل الملابس حين ساور سيدريك شك  
لجائى فقال :

— « أنا لا أعرف لغة غير لغتى ، وبضع كلمات مهلهلة من نور مانديتهم ،  
فكيف لى أن أسلك سلوك أخ مبجل ؟ » .

فأجاب واما :

— « إن السحر يكمن فى كلمتين باللاتينية وهما « السلام معكم » . إنها  
ستجيب على كل ما يسألون . إذا ذهبت أم جئت ، أكلت أم شربت ،  
باركت أم لعنت ، فإن كلمة « السلام معكم » ستجد لك مخرجا من كل هذا .  
إنها مفيدة للراهب فائدة عصا المكنسة للساحرة أو القصة للشعوذ . قلها  
هكذا بلهجة عميقة وقورة : « السلام معكم » ، إنها لا تقاوم . إن لها فعل السحر  
فى الحارس والجندي ، فى الفارس والوصيف ، فى الراجل والراكب . أظن  
أنهم لو أخذوني لأشوق غداً كما أشك فى أنهم سيفعلون ، فإنى سأجرب  
أثرها على منفذ الإعدام ، . فقال سيده :

— « لو كانت هذه الجملة هى طمس الدليل على كهوتيتى ، فسرعان  
ما سأحصل على هذه المرتبة الدينية : « السلام معكم » . لى واثق بأنى  
لن أنسى جواز المرور .

وداعا يا أثيلستين النبيل . وداعا يا وادى المسكين الذى يصلح قلبه من  
رأسه الخاوية . سأنقذ كما أو أعود وأموت معكما . لن يراق الدم الملكى  
للكونا الساكسونيين ما ظل دم يجرى فى عروقى ، كما لن تمس شعرة واحدة  
من رأس الخادم الطيب الذى خاطر بنفسه من أجل سيده ، إذا استطاع

تعرض سيدريك للخطر أن يحول دون ذلك. وداعاً . فقال أبلستين :

— «وداعا ياسيدريك النبيل ، وتذكر أن الدور الحقيقي للراهب هو أن يتناول ما يقدم له من طعام وشراب ، فلا تتردد في تناولها إذا قدم لك منها شيء . . وأضاف وامبا :

— «وداعا يا عماء ، وتذكر «السلام معكم» .

وبهذا النصح سار سيدريك كي يقوم بمهمته ، ولم يمض وقت طويل حتى أتاحت له فرصة اختيار أثر هذا السحر الذي أوصاه به المهرج على أنه ذو قوة خارقة ، فبينما يحاول أن يشق طريقه في مرمظم ذي أقبية منخفضة إلى هو القصر ، اعترضه شبح امرأة فقال الراهب المزيف وهو يحاول الإفلات منه «السلام معكم ، فأجاب في صوت رقيق «ومعك أيضا ، فليمنحك الرب للعظيم رحمة» . فقال سيدريك بلغة ساكسونية سليمة :

— «إن بي بعض اللصم ، اللعنة على الأحمق وعلى جملته «السلام معكم» . لقد فقدت رحي من أول رمية» .

ومع ذلك فإنه لم يكن غريباً على أحد قساوسة تلك الأيام ألا يكون ملأً باللاتينية، وكان ذلك الشخص الذي يتحدث إلى سيدريك آنذاك يعلم ذلك حق العلم ، فقالت السيدة بلغتها الخاصة :

— «أستحلفك أيها الأب المبجل بأغلى ماتحب ، أن تتفضل وتكرم بعرائك الروحي بيميننا جريحا في هذا القصر ، وتظهر له ولنا من الرحمة ماتنطوى عليه مهنتك المقدسة . ليس هناك من ثواب يعود على ديرك أكثر مما يثيبك القيام بهذا العمل الطيب ، فقال سيدريك في اضطراب :

— «يا ابنتي ، إن وقتي في هذا القصر لا يتسع لأداء واجباب مهنتي .

يجب أن أنصرف الآن ، فعلى قدر إسرائعى تتوقف حياة أو موت ، .  
فقال له ضارعة :

- ، ولكن دعنى أناشدك يا أبنا باسم القسم الذى أخذته على نفسك  
الآ تترك المضطهد المعرض للخطر دون أن يحظى بنصح أو عون ، .  
فأجاب سيدريك وقد أخذه الضيق :

- ، ليطر بى الشيطان ويتركنى فى ، إفرين ، مع روحى ، أودين ،  
و « ثورا ، . ومن المحتمل أنه كان معتزماً أن يسترسل بنفس اللهجة البعيدة  
عن الطابع الدينى عندما قطعت الحديث عليها إرفريد العجوز ساكنة البرج ،  
وقالت للتحدة النسائية بصوتها الأجهش :

- ، ما هذا أيتها الصغيرة ؟ أهكذا تجزين الطيبة التى سمحت لك بمغادرة  
قبو سجنك هذا ؟ أتجعلين الرجل المبجل مسوقاً إلى استعمال لغة لانت إلى  
آداب السلوك بصلة ليخلص بنفسه من لجاج يهودية مثلك ؟ ، . فقال سيدريك  
وقد اتهر فرصة هذه المعلومات ليفلت من تعرضهما له :

- ، يهودية ا دعينى أمض يا امرأة ؟ لا تقنى فى وجهى وإلا فأنت  
هالكة . إنى طاهر أتجنب الدنس بحكم مهنتى ، . وقالت المرأة العجوز :

- ، اسلك هذا الطريق يا أبتي ، إنك غريب فى هذا العصر ولا تستطيع  
أن تبرحه بغير دليل .

تعال هنا لأنى أريد أن أتحدث إليك ، وأما أنت يا ابنة الجنس اللعين ،  
فاذهبي إلى غرفة الرجل المريض وامهرى على راحته حتى أعود ، والويل  
لك إن غادرتيها مرة أخرى دون أن أأذن لك ، .

انصرفت ريكا وكان لضراعاتها أثر فى نفس إرفريد فأذنت لها بمغادرة

البرج ، وقد استفادت إيرفريد من خدماتها حيث إنها وجدت سعادة قصوى في القيام بهذه الخدمات ، أى ببقائها إلى جوار فراش أيفان هو الجريح . وبإدراك يقظ لموقفهم الخطير، وسرعة في انتهاز أية فرصة تسنح للخلاص ، كانت رييكا قد ساورها بعض الأمل في وجود رجل الدين الذى عرفت من إيرفريد بأمر دخوله إلى هذا القصر الذى يقطن إلخاداً .

لقد ظلت ترقب عودة رجل الدين المزعوم كى تتحدث إليه وتثير خواجه لصالح الأسرى، ولكنها لم توفق فى ذلك كما عرف القارى لتوه .

**\*\* معرفتي \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**

**منتديات مجلة الإبتسامة**



## الفصل السابع والعشرون

يا للعاشقة التعبة ا ترى ماذا تستطيعين أن تروى ،  
سوى أعمال الحزن والعار والخطيئة ؟  
لقد قام على أعمالك الدليل — إنك تعرفين مصيرك  
ولكن — هات قصتك ، هيا ابدئي . . . . ابدئي .

\*\*\*

يبد أنى بتملكنى أسى من نوع آخر  
هموم وأحزان أشد قسوة  
امنحني سمعك لتخفني عن ذهني المكدود  
أعيرى وبلاتى أذنا واعبة  
وأتبجى لى إن لم أجد الصديق الذى يعين فى الشدة  
أن أحظى بأذن سماعة تصغى لأناتى .

( ناعمة الشفاء فى كراب )

عندما عادت ريكا ثانية إلى الغرفة بعد أن أنذرتها إيرفريد بصرخاتها  
ووعيدها ، تقدمت الشمطاء لتقود سيدريك على كره منه إلى حجرة صغيرة ،  
وأوصدت الباب عليها بحرص ، ثم أخرجت زجاجة من النيذ وقدحين من  
أحد الدواليب ووضعتها على المائدة ، وقالت بلمجة من يؤكد حقيقة لا من  
يوجه سؤالاً :

— « إنك ساكسونى يا أبت ، . ثم أضافت عندما تبينت أن سيدريك

لم يتعجل بالإجابة ، لا تعتمد إلى الإنكار ، إن لأصوات لغتي الأصلية  
رنيئا جميلا في أذني مع أني لا أسمعا إلا لما من السنة العبيد النعساء من غير  
ذوى المسكنة الذين يفرض عليهم النورمانديون أحط ألوان الرق والعبودية  
في هذه الدار . إنك ساكسوني يا أبي - ساكسوني - وبالإضافة إلى أنك  
خادم لربك ، فأنت أيضاً رجل حر . إن نبرات صوتك ترن في مسمعي  
أعذب الرنين ، . فقال سيدريك :

- « ألا يتردد على هذا القصر إذن قساوسة ساكسونيون ؟ أظن أن  
مواصاة المعذبين في الأرض من أخص خصائصهم ، . فأجابت إرفريد :

- « إنهم يأتون ، فإذا ما أتوا ، فإنهم يكلفون بالمجون على موائد الفاتحين ،  
ويؤثرونها على أنات المواطنين . هكذا تتحدث عنهم السير على الأقل .  
أما عن نفسي فلا أستطيع أن أروى إلا القليل . منذ عشر سنوات خلت ،  
لم تفتح أبواب هذا القصر لقس إلا لذلك القس النورماندي الفاجر الذي  
كان يشارك فرونديبيف في عبثه الليلي ، ولقد انقضى وقت طويل دون أن  
يقدم عن خدماته حسابا ، ولكنك ساكسوني - قس ساكسوني ، ولدي  
سؤال واحد أريد أن أوجهه إليك ، . فقال سيدريك :

- « إنني ساكسوني ولكنني لست جديراً بلقب القس حقاً . دعيني  
أمضى في طريق ، وأقسم على أني سأعود أو أبعث بأحد آباءنا ممن هم أحق  
منى بسماع اعترافك ، . فقالت :

- « تمهل قليلا ، إن نبرات الصوت التي تسمعها الآن متخبو عما قريب  
في بطن الأرض الباردة ، ولا أريد أن أنزل إليها وحشا ضاريا كما عشت  
حياتي ، ولكن يجب أن تمنحني الخبز من القوة ما يجعلني أروى مآسي قصتي  
مسيبة ، . ثم سكبت الخبز في قدح وجرعته بنهم مخيف ، وكأنها كانت رغبة  
في أن تأتي عليه حتى الثالثة ، وبعد أن انتهت من احتسانه قالت وهي تنظر إلى أعلى :

— « إنها تفقد المرء وعيه ، ولكنها لا تستطيع إدخال البهجة على نفسه .  
نادمني إياها يا أبتاه إذا ما أردت الاستماع إلى قصتي دون أن تسقط  
على الأرض ، » .

كان سيدريك يتمنى لو استطاع أن يعزف عن شرب نخبها في هذه  
المنادمة المشنومة ، ولكن الإشارة التي أبدتها نحوه كانت تعرب عما يساورها  
من ضيق وبأس . أجاها إلى -ؤها ورد على نخبها بقدر كبير من النيبذ ،  
فاسترسلت في تلاوة قصتها وكان رفته قد أخذت من نائرتها فقالت :

— « إنى لم أولد يا أبى تلك المرأة الشقية التي تراها أمامك . لقد كنت  
حرة سعيدة محبة ، موضع تكريم وحب ، أما الآن فأنا أمة -تعة منبوذة .  
كنت العوبة لعواطف السادة طالما كنت على قسط من الجمال ، وموضع  
ازدراهم وهزهم وكراهيتهم منذ ولى جمالى وأدبر ، أفتعجب إذن يا أبى  
إن أنا لحقدت على الإنسانية جمعا ، واشتد خقدى على ذلك الجنس الذى  
اعتصرنى وأحدث هذا التبديل فى ؟ هل تستطيع المرأة الشمطاء المحطمة  
المائلة أمامك التي لا تجد تنفسا لغضبها إلا فى اللعنات العاجزة أن تنسى  
أنها كانت يوما ما ابنة للسيد «توركوييلستون» النبيل ، الذى كانت  
فرائص ألف من العبيد ترتجف أمامه إذا ما قطبُ جبينه ؟ ، فقال  
سيدريك متراجعا :

— « أنت ، أنت ابنة توركوييل وولف جانجر ا ؟ أنت ، أنت ابنة  
ذلك الساكونى النبيل صديق أبى ورفيقه فى السلاح ا ، فرددت ليرفريد  
كلماته قائلة :

— « صديق أيبك ا ؟ إذن فأماى الآن سيدريك الملقب بالساكسونى  
لأن هيروارد أوف روفر وود النبيل لم ينبج إلا ولدا واحدا ذائع الصيت ،  
عَلَمًا فى قومه ، ولكن إذا كنت سيدريك أوف روفر وود حقا ، فلم هذا

الرداء الديني؟ هل تولاك القنوط أيضاً من خلاص وطنك ، لجعلت من  
ظلال الدير ملاذاً لك من الغاصبين ؟ ، . فقال سيدريك :

— « إنه ليس من الأهمية في شيء أن تعرفي من أكون — هيا استبجي  
أيتها المرأة التعسة تلاوة قصتك التي تفيض رعباً وخطيئة ! نعم لا بد وأن  
فيها خطيئة . إن بقاءك على قيد الحياة لترويهما هو الخطيئة بعينها . » فقالت  
المرأة البائسة :

— « نعم ، هناك خطيئة — هناك خطيئة عميقة سوداء — خطيئة قاتلة —  
خطيئة جاثمة على صدري كالعبد الثقيل — خطيئة لا تقوى جميع نيران  
السعير على تطهيرها ! نعم في هذه القاعات المملوطة بدماء أبي وإخوتي الزكية ،  
في هذه القاعات بعينها عشت خلية لقاتلهم ، عبدة له ، وفي الوقت ذاته  
شريكة لمذاته ، كل ذلك جعل من كل نسمة أتفهمها من الهواء للضروري  
للحياة جريمة ولعنة ! ، . فقال سيدريك متعجباً :

— « أيتها المرأة التعسة ، بينما كان أصدقاء أهلك وكل قلب ساكسوني  
صديق ، يتلون الصلاة الجنائزية على أرواحهم وأرواح أبنائهم البواسل ،  
لم ينسوا أن يذكروا ، أولريكا ، القبيلة في صلواتهم ، وبينما الكل في حزن  
ويكرمون الموتى ، عشت أنت لاصب عليك جام مقتنا وازدرائنا ، عشت  
أنت لتربطي نفسك بالطاغية الوغد الذي سفك دم أعز الناس عليك وأقربهم  
إلى قلبك ، الطاغية الذي قتل الولدان حتى لا يعيش رجل من بيت توركوبيل  
وولف جانجر النبيل ، الطاغية الذي ربطت نفسك به برباط حب حرام ! ، .  
فأجابت المرأة المعجوز :

— « حقاً إنه رباط غير مشروع ولكنه لم يكن وثاق حب ، إن الحب  
يؤثر الذهاب إلى مجاهل العذاب الأبدي ، على المجيء إلى هذه السرايب  
الدنسة — كلا لا أستطيع أن أنسب هذا انفسى على الأقل . لقد كانت

كراهيتي لفرونديبيف وجنسه تملك على كل جوارحي ، متصلة في أعماق  
روحي حتى في ساعات أنه الوضيعة ، . فقال سيدريك :

— . لقد كرهته ومع ذلك فأنت ما تزالين على قيد الحياة ، ألم يكن  
هناك أيتها الشقية خنجر أوسكين أو مثقب . حسنا ، لقد كان من صالحك —  
بما أنك تحرصين على مثل هذا البقاء — أن تكون أسرار قصر نورماندى  
مثل أسرار القبور . آه لو دار بخلدى يوما أن ابنة توركويل تعيش في صحبة  
ملوثة مع قاتل أبيها ، لكان جزاؤها سيفا ساكسونيا بتاراً حتى ولو كانت  
بين ذراعى خليلها . فقالت أولريكا لانا نستطيع أن ننسى الآن اسم «إبرفريد» :

— . هل كنت حقا تضع اسم توركويل موضع التقدير ؟ إذن فأنت  
ساكسونى أصيل كما يذاع عنك ، لأنه حتى في داخل تلك الجدران اللعينة  
حيث تلاف الخطيئة نفسها بسر غامض ، كان اسم سيدريك يدوى بين  
جنباتها ، وأما ، البائسة الساقطة ، كنت أغتبط أشد الغبطة عندما يطوف  
بفكرى أن منتقما لشعبنا النمى مازال حيا . لقد كانت لى أيضاً ساعات  
انتقامى . لقد أركيت نار الشحنة بين أعدائنا واستطعت أن أحيل مجون  
الخر إلى قتال بميت . لقد رأيت دماءهم تسيل ، وسمعت أنات احتضارهم ا  
دقق النظر فى ياسيدريك ، ألا ترى على هذا الوجه القبيح الذى ذوى  
جماله بعض السمات من سمات توركويل ؟ . فأجاب سيدريك بلهجة فيها  
حزن ممزوج بيفض :

— . لا تسلينى عنها يا أولريكا . إن هذه الآثار التى على وجهك تشبه  
سمات من ينهض من القبر بعد أن تقمص الشيطان جسده الهامد . .  
فقالت أولريكا :

— . فليكن ما تقول ، ومع ذلك فقد كانت تلك الملامح الشيطانية ترتدى  
قناع روح من نوركلما واتها الفرصة لإلحاق الأذى بفرونديبيف الكبير

وابنه ريجنولد . كان ينبغي أن تخفي ظلمة الجحيم ما أعقب ذلك ، ولكن يجب أن يزيح الانتقام النقاب ، ويوهز يبعث الموتى لينحدثوا بصوت عال . كانت نيران النزاع متأججة منذ أمد بعيد بين الأب الطاغية وابنه القاسي ، وفي غير جهد أروضت لباني لذلك الحقد الذي لم يكن طبيعياً ، والذي اندلعت نيرانه في ساعة شراب ، وسقط غاصبي على مائدته بيد ابنه نفسه . هذه هي الأسرار التي تطويها تلك الأقيية ، . ثم نظرت إلى سقف الحجرة واستبعت قائلة : انشقي أيتها الاسقف اللعينة ، وليدفن تحت أنقاضك كل من يعرفون هذا السر الرهيب ، . فقال سيدريك :

-- « وأنت أيتها الخاطئة المعذبة ، ماذا آل إليه مصيرك بعد موت غاصبك ؟ » .

- « تكمن به ولا تسلي عنه . هنا ، هنا عشت حتى دمغت الشيخوخة المبكرة وجهي بطابعها الشاحب - هنا عشت مزدراة مهانة حيث كنت يوماً ما مطاعة . رأيت نفسي مسوقة إلى أن أقصر انتقامي الذي كان له من قبل أوسع المدى على جهود خادمة ناقمة في الخبث الوضع ، أو اللعنات التافهة المهملة الصادرة عن امرأة عاجزة عجوز ، وحكم على بأن أسمع من برجي المنعزل أصوات المجنون التي كنت أسهم فيها من قبل ، أو صرخات ضحايا جدد وأنينهم ، . فقال سيدريك :

- « يا أولريكا ! كيف اجترأت على أن تتحدثي بمثل هذا القول أمام شخص يرتدى مثل هذا الزي ، وقلبك - كما أخشى - مازال يأسف على الجزاء الضائع لآثامك بقدر ما يأسف على الأعمال التي نلت من وراثتها هذا الجزاء . قدرى أيتها المرأة التعمسة ماذا كان يستطيع إدوارد المقدس نفسه أن يفعل من أجلك لو كان حاضراً هنا بلحمه ودمه . لقد منحت السماء الكاهن الملكي قدرة على تطهير قروح الجسد ، ولكن مامن قوة تستطيع أن تبري الروح من بلائها إلا قدرة الله وحده ، . فقالت متعجبة :

- ومع ذلك لا تبرم بي يا نبي الغضب القاسى ، بل خبرنى - إن استطعت - ما هى نهاية هذه المشاعر الجديدة المروعة التى تملأ على خلوتى ؟ لماذا تترافص أمام عيني فى رعب جديد لا أستطيع الصمود أمامها أعمال انقضت منذ عهد مضى ؟ أى مصير قد أعد يوم نبعث لتلك التى اختصها الله من بين خلقه بمثل هذا القدر من البلاء الذى يجلب عنه الوصف ؟ ليتنى قد استحلكت إلى وودن ، و دهرثا ، و دزنيوك ، - إلى د ميستا ، و د إسكو جيولا ، آلهة أسلافنا الوثنيين ، عن أن أحتمل هذه الأقدار المروعة التى صاحبت فى الآونة الأخيرة ساعات يقظتى ومناهى ا . .

قال سيدريك وهو يعرض فى نفور عن تلك الصورة الكئيبة للخطيئة والشقاء واليأس : « إنى لست قسا ، لست قسا مع أنى أرتدى زى القساوسة .  
فقال أولريكا :

- « سواء أ كنت قسا أم علمانيا ، فنذ عشرين سنة خلعت ، لم تقع عيناي على شخص سواك يخشى الله ويحترم الأدمى ، ومع هذا فإنك تطلب منى أن أستسلم لليأس ا ا .

فقال سيدريك : « أطلب منك التوبة - عليك بالصلاة والضرعة للغفران عماك تجدى قبولاً ولكنى لا أستطيع ولا أرغب فى البقاء معك إلى أكثر من ذلك ، . ففالت أولريكا :

- « تمهل قليلاً لا تتركنى الآن يا بن صديق أبى حتى لا يوسوس لى الشيطان الذى سيطر على حياتى بأن أنتقم لنفسى من ازدرائك النابع من قسوة قلبك . أظن أن حياتك ستطول لو أن فروندييف قد وجد سيدريك الساكسونى فى قصره متخفياً فى مثل هذا الزى ؟ لقد كانت عيناه ترقبك كما يرقب الصقر فريسته ، . فقال سيدريك :

- « فليكن ماتقولين ، وليرقنى بمنقاره ومخالبه قبل أن ينطق لسانى

بكلمة واحدة يعافها قلبي. سأموت ساكسونيا صادق القول صريحا في العمل .  
إني أمرك بأن تنصرفي عني ا لا تلسيني ، لا تعترضى مسيرى ، إن رؤياى  
لفروندبييف نفسه أقل إثارة لكراهميتى من رؤيتك وأنت على مثل هذه  
الحسة والضعة ، .

فقال أولريكا وقد توقفت عن مقاطعته :

— لتكن مشيتك . امض فى طريقك ، وانس فى صلف استعلانك  
أن التعسة التى أمامك هى ابنة صديق أبيك — امض عني فإني فى عزلة عن  
الجنس البشرى بآلامى — امض عني فإني مبعدة عن أولئك الذين يحق لى  
أن أنتظر مساعدتهم أكثر من سواهم. إن أكون أقل عزلة عنهم فى انتقامى ،  
لن أتلقى العون من رجل ما ، ولكن آذان جميع الرجال مستطن عند سماعهم  
بالعمل الذى سأجترى على القيام به ا — وداعا — إن ازدراءك لى قد  
مزق آخر رباط كان يبدو وكأنه مازال يوثق الصلة بينى وبين جنسى ،  
وكنت أظن أن وبلاقي ستطالب بعطف قومى ، . فقال سيدريك وقد لانت  
عريكته لهذا النداء :

— يا أولريكا ، هل ولدت لتحتمل العيش فى حنايا هذه الخطيئة وذلك  
الشقاء ؟ وهل تنسلين الآن لليأس عندما أصبحت عيناك متفتحتين على  
جرائمك ، وعندما أمست التوبة أهم ما يجب أن يشغلك ، . فقالت أولريكا :

— إنك لا تعرف عن قلوب البشر إلا قليلا ياسيدريك . إن العمل  
الذى قت به ، والفكر الذى سبحت فيه ، يستلزمان حبا جنونيا للمتعة  
مختلطا بالشهوة الجارفة إلى الانتقام ، وكبرياء الوجدان القوى ، وكلها  
جرعات لا يستطيع القلب البشرى احتمالها دون أن يشمل منها ، ومع ذلك  
فإنه يحتفظ بالقدرة على درئها . إن قوة هذه الأشياء قد فترت منذ أمد طويل  
— ليس للشيوخه ملذات — ليس للتجاعيد تأثير — إن الانتقام نفسه



يفنى في اللعنات الواهنة ، ثم بعد ذلك يأتي الندم بكل سموه مزوجاً بحسرات غير مجدية على الماضى ويأس من المستقبل ، وبعد أن تتوقف جميع البواعث القوية الأخرى ، تصبح كشياطين الجحيم التي قد تشعر بالندم ، ولكنها تعزف عن التوبة دائماً . إن كلماتك قد أيقظت في روحاً جديدة . حسناً قلت ، إن أولئك الذين يتحدون الموت يستطيعون أن يفعلوا كل شيء . لقد أبنت لى الوسيلة إلى الانتقام ، كن على ثقة بأننى سأسلكها ، لقد أشركت الانتقام مع مشاعر أخرى مناهضة له في داخل هذا الصدر الفانى ، أما منذ الآن فإنه سيتولى على جميع أحاسيسى ، وأنت نفسك ستقول إنه مهما كانت حياة أولريكا ، فإن ميتها جديرة بابنة توركويل النبيل . هناك قوة في الخارج تحاصر هذا القصر اللعين فأسرع إلى قيادتهم في الهجوم ، وعندما ترى علماً أحمر يرفرف من البرج الواقع بزاوية الحصن الشرقية ، فانقض على النورماندين في غير رفق ولا هوادة ، سيكون عندهم في داخل القصر ما يشغلهم ، وتستطيع أن تحتل هذا الجدار على الرغم من الأقواس وآلات قذف الأحجار ، أرجوك أن تذهب واتبع مصيرك ، أما أنا فأتركنى لقدرى .

كان سيدريك ينتفى أن يترسل إلى أبعد من ذلك في التقصى عن هدفها الذى أعلنت عنه في غموض مقتضب ، إلا أن صوت فروندييف الجاف وقد سمع وهو يقول في عجب :

— « أين يتباطأ هذا القس المنلكنى ؟ أقسم بغطاء كومبوستيلا ، الجلدى على أنى سأجعل منه شهيداً إذا تواتى هنا ليفرخ الخيانة بين خدمنى . »  
وقالت أولريكا :

— « كم يكون الضمير الشرير صادقاً في نبوءته . ولكن لا تُعز من بالخارج الفغاة و امض إلى قومك . اصرخوا صرخة هجومكم الساكسونية ودعهم ينشدون أغنيتهم الحربية التي وضعها « رولو » ، إذا شاءوا . إن

انتقامي سيتقاسم العبد معكم ، . وبعد أن انتهت من قولها هذا ، اختفت من خلال باب خاص ، ودخل ريجنولد فروندييف إلى الحجره ، وبشيء من المشقة سيطر سيدريك على نفسه ليسوقها إلى المنحاة لسيد القصر المتعالى الذى رد التحية بإيماءة من رأسه وقال :

— « إن تأييدك يا أبى قد طال بهما الاعتراف ، وهذا أوفق لهما ما دام أنه سيكون اعترافهما الأخير . هل أعددتكما للموت ؟ ، فأجاب سيدريك بقدر ما يعرفه من الفرنسية :

— « لقد وجدتهما ينتظران ما هو أشد من الموت سواء أمد عرفا اسم الشخص الذى وقعا فى قبضته ، . فقال فروندييف :

— « كيف ذلك يا سيدى الراهب ! إنى الآن أتذوق فى حديثك لساناً ساكسونياً ، . فأجاب سيدريك :

— « ذلك لأنى نشأت فى دير للقديس وبثولد أوث بيرتون ، . قال المالك :

— « نعم ، لقد كان من الأفضل لك ، ولما أهدف إليه أيضاً ، لو كنت نورماندياً ، ولكن عند الضرورة لا تختار الرسل . إن دير القديس وبثولد أوث بيرتون ليس إلا عشاً للزناير يحق لى أن أخربه ، وعماً قريب سيأتى ذلك اليوم الذى لا يحصى فيه رداء الكنيسة أى ساكسونى كما لن تحميه الدروع ، .

فقال سيدريك بصوت يرتجف من الفيظ المكظوم وإن كان فروندييف قد عزا ذلك إلى الخوف :

— « لتكن إرادة الله ، . فقال فروندييف :

« أرى أنك حالم حقاً بأن جنودنا قد غزوا قاعة طعامك واقبية  
جمعتك ، ولكن قم لي يا حدى مهام مهنتك ، ومهما حدث الآخرين ،  
فإنك ستنام فى صومعتك آمناً كالتوقعة فى وقتها الصدى ، فقال سيدريك  
بشورة مكبوتة :

« هيا ، أمل أوامرك ، .

« إذن فاتبنى فى هذا المرحتى أستطيع أن أخرجك من هذا  
الباب الخلفى ، .

وبينما كان فروندييف يسير فى طريقه أمام الراهب المزعوم ، أخذ  
يلقنه الدور الذى كان يريد منه أن يقوم به فقال :

« إنك ترى ياسيدى الراهب ذلك القطيع من الخنازير الساكسونيين  
الذين اجترأوا على حصار قصر توركويلستون هذا . قل لهم ما يخطر  
ببالك عن ضعف هذه القلعة أو أى شىء آخر تستطيع به أن تحتجزم أمامه  
لمدة أربعة وعشرين ساعة ، وفى أثناء ذلك تحمل هذه الورقة — ولكن  
مهلاً — أستطيع القراءة ياسيدى الراهب ؟ ، فأجاب سيدريك :

« إنى لا أعرف حرفاً واحداً إلا فى كتب صلاتى . وحتى هذا  
فإنى لا أعرف حروفه لأنى أحفظ القداس الطاهر عن ظهر قلب ، المجد  
لسيدتنا العذراء وللقديس ويشولد ، . فقال فروندييف :

« إنك أصلح الرسل لأداء غرضى . احمل هذه الرسالة إلى قصر  
فيليب دى مالفوازان . قل له إنها مرسلتة منى ومدونة بخط فارس المعبد  
بربان دى بواجيلبرت ، وإننى أرجوه أن يبعث إلى مدينة يورك بكل ما فى  
استطاعة رجل جواد من إسراع ، وخبره فى الوقت نفسه بالأخذة  
الريبة فى شىء ، فسوف يجدنا سالمين أقوياء خلف أسوارنا . إنه لمن العار

علينا أن نجد أنفسنا مسوقين إلى الالتجاء هكذا خشية قطيع من الضالين الذين سيولون الأدبار حالما يرون بريق رماحنا ، ويسمعون وقع سنابك جياذنا . أقول لك أيها القس بأن تروى لهم قصة من نسج خيالك كي يتلكأ الأوغاد حيث هم حتى يجيء أصدقاؤنا برماحهم . إن انتقامي قد استيقظ وهو صقر لا يهجم حتى يرتوى بالدماء ، . فقال سيدريك بنشاط أكثر عمقاً من أن يتفق مع شخصيته :

- « أقسم بقديسي الحامي ، وبكل قديس عاش ومات في إنجلترا ، بأن أوامرك ستطاع أن يتحرك ساكسوني من أمام هذه الأسوار ، إذا كان لدى من الفن وقوة التأثير ما يجعلهم يبقون هناك . فقال فرونديبيف :

- « ها ! إنك تبدل من لهجة حديثك ياسيدي القديس ، وتتكلم باقتضاب وشجاعة ، كما لو كنت تتعجل من صميم القلب مذمجة القطيع الساكسوني ، مع أنك نفسك تمت بصلة القربى لهؤلاء الخنازير ؟ » .

لم يكن سيدريك من ذوى المهارة فى أفانين الخداع ، وكان يسعده لو أن لفته من ذهن وإمبا الخصب قد أسعفته فى تلك اللحظة . ولكنه كما يقول المثل القديم « الحاجة أم الاختراع » . ولذلك فقد همهم بوضع كلمات تحت غطاء رأسه يستشف منها أن هؤلاء الرجال ليسوا إلا قطاع طارق محرومين من رحمة الكنيسة والوطن ، فقال فرونديبيف :

- « بين الله ! لقد قلت صدقاً . لقد نسيت أن الأوغاد يستطيعون أن يجردوا قساً بدينياً وكأنهم ولدوا جنوبي هذه القناة الملحة . ألم يكن قس كنيسة القديس « إيفز » هو الذى أوثقوه فى شجرة بلوط ؛ وأكرهوه على ترتيل قداس بينما كانوا يسلبونه أوراقه وحافضة نقوده ؟ أقسم بسيدتنا العذراء على أن « جوالثير أوف ميدلتون » أحد رفاقنا فى السلاح هو الذى قام بهذه المزحة ، ولكن الساكسونيين هم الذين سرقوا من كنيسة

القديس « بيز ، الأقداح وحوامل الشموع وكأس القربان . ألم يكونوا هم ؟ ، . فأجاب سيدريك :

— « لأنهم قوم لا يخشون الله . .

— « نعم وشربوا النبيذ الطيب كله ، والجمعة التي كانت مستبقة لا أكثر من وليمة خاصة ، عندما كنتم تدعون بأنكم مشغولون بالأوليات وأشعار فيرجيل اللاتيني لأنه منوط بعنقك أيها القس أن تتأثر من هذا الدنس ، . فهمم سيدريك :

— « لقد وطدت عزمي هلى الانتقام . إن القديس ويثولد يعرف ما بدخيلة قلبي . .

وفي أثناء ذلك كان فروندييف قد قاده إلى باب خلقي ، حيث عبروا الخندق فوق لوح خشبي مفرد ، وبلغنا حصنا صغيراً أو قطعة للدفاع تتصل بالحقول الخارجية عن طريق باب كبير قوى التحصين يستعمل للهجوم ، ثم قال له :

— « اذهب إذن على رسلك ، وإذا اتهمت من تأدية رسائتي وعدت إلى هنا بعد الانتهاء منها ، فسترى لحم الساكسونيين رخيصاً كلحم الخنزير في مجازر شيفيلد . استمع إلى : إنك تبدو قسيساً يهوى المرح . تعال هنا بعد المذبحة وستحصل على قدر من النبيذ المالفوازي يني ياطفاء ظمأ ديك بأكمله ، . فأجاب سيدريك :

— « لا ريب في أننا سنلتقي ثانية ، . وعندما أوشكا على الاقتراق عند الباب الخلفي ، استمع النورماندى قائلاً :

— « وإلى أن نلتقي فهاك شيئاً في يدك ، . قال ذلك وهو يدس في يد سيدريك الرافضة قطعة ذهبية بيزنطية ، ثم أضاف « لا تنس أنى سأزرع عنك

قلنسوتك وجلدك إن أخفقت في مهمتك ، . فقال سيدريك وهو يغادر الباب الخلفى ويخطو مسرعاً بخطوات فرحة فوق الحقل الخالى :

— « سامحك الحرية كاملة بأن تفعل الاثني كليهما ، وإذا التقينا ثانية فإنى لن أستحق مصيراً أفضل على يدك ، . وعند هذا استدار ناحية القصر وألقى بقطعة النقود الذهبية إلى ما منحها وهو يقول « لتهلك تقودك معك أيها النورماندى الأفاق ، .

سمع فروندييف الكلمات مبهما غير واضحة ، ولكن الحركة التي أتاها سيدريك كانت تبعث على الارتياح ، فنادى على الحراس المرابطين على الأسوار الخارجية وقال لهم :

— « اطلقوا أيها الرماة سهما ينفذ من رداء هذا الراهب ، . وعندما شد الاتباع أقواسهم قال لهم : « ومع ذلك تمهلوا فلا جدوى من وراء هذا يجب علينا أن نثق به حيث إنه ليس لدينا من وسيلة غير تلك . أظن أنه لن يجترى على خيائى ، وإذا ساءت الأمور ، فإنى أستطيع استبقاء هؤلاء الكلاب الساكسونيين الموجودين عندى فى الحظيرة كرهائن . هو! أيها السجان « جايلز ، . دعتهم يحضرون سيدريك أوثر وود أماى ، وكذا رفيقه الوغد أعنى ذلك المسمى بكونجزبره — أثيلسين هذا أو كيفها يسمونه . إن مجرد ذكر أسمائهم يبعث الضيق فى فم أى فارس نورماندى ، وفيها كما يبدو مذاق لحم الخنزير . هات زجاجة من النبيذ حتى أستطيع — كما يقول يوحنا المرح — أن أغسل مذاقهم من فمى . ضعها فى غرفة الأسلحة وأت بالسجينين إلى هناك ، .

أطيعت أوامره ، وعندما دخل إلى تلك الغرفة التي كانت على الطراز القوطى ، وقد تدلت على جدرانها أسلاب كان قد غنمها بينائه وبسالة أيه من قبله ، وجد زجاجة نبيذ فوق المائدة السميكة المصنوعة من خشب

البلوط ، والسجينين في حراسة أربعة من أتباعه . احتسى فرونديبيف جرعة طويلة من النبيذ ثم قال لآسيريه - لأن الطريقة التي جذب بها وامبا قبعته فوق وجهه ، وتغير الزي ، والنور الخافت المحطم ، بالإضافة إلى أنه لم يكن متيقنا من معرفة قسمات سيدريك ( الذي كان يجتنب جيرانه النورمانديين وقليلًا ما كان يبرح ضياعه ) - كل ذلك حال دون فرونديبيف ودون أن يكتشف أن أكثر الأسيرين أهمية قد هرب :

- يا باسلي إنجلترا ، كيف تذوقان ضيافتكما في توركويلستون ؟ هل تعرفان الآن ما هو جزاء بذاءتكما وغروركما وسخرتكما من ضيافة أحد أمراء أسرة آنجوى؟ هل نسيتما كيف أثبتنا الأمير الملكي يوحنا على ضيافته؟ أقسم بربي وبالقديس دونيس على أنكما إن لم تدفعا أكبر فدية ، فإن أدليكما من أقدامكما من القضبان الحديدية لهذه النوافذ حتى تجعل منكما الطيور والغربان ذات الغناء هيكلين عظيمين . انطقا أيها الكلبان الساكسونيان ؟ ماذا تدفعان ثمنًا لحياتكما النافلتين - ماذا تقول يا روبرت وود ؟ . فأجاب وامبا المسكين :

- د لن أضع دانقا واحدا ، وأما أن تدليني من قدمي ، فأحب أن أقول لك إن عقلي قد اعتراه الخبل - كما يقولون - منذ أن أوثقت غطاء رأسي حوله ، وإذا ما قلبتموني رأساً على عقب ، فمن المحتمل أن يكون في ذلك عودة له إلى حالته الأولى . فقال فرونديبيف :

- د يا للقديسة جنيفاف ! ما هذا الذي معنا الآن ؟ ، ثم أطاح بمؤخر يده قبعة سيدريك من فوق رأس المهرج ، وفتح زر سترته الأعلى فرأى رمز العبودية المشثوم ، ألا وهو الطوق الفضي الذي يلتف بعنقه ، فصاح النورماندى الشاهر :

- د جايلز ، كايمنت ، أيها الكلاب والخدم ، ماذا أحضرتم لي هنا ؟ . فقال دى بزاسي الذي كان قد دخل الغرفة آتئذ :

— « يجبل إلى أنى أستطيع أن أخبرك . هذا هو مهرج سيدريك الذى خاض مناوشة فيها رجولة مع إسحق أوف يورك عندما اختلفا على الصدارة .  
فقال فروندييف :

— « سأضع الأمور فى نصابها فيما يتعلق بهما معاً . سيشتقان على نفس المشنقة معاً ، إلا إذا دفع سيده وهذا الخنزير كونه تجريره مبالغاً بجزيا فداء لحياتيهما . إن ثروتهما هى أقل ما يتنازلان عنه ، ويجب عليهما أن يأخذا معهما أيضاً سرب الهوام الذى يحاصر القصر ، ويوقعان تنازلاً عن حصاتيهما المزعومة ، ويعيشان تحت سلطاني كالبيد والموالى . يجب أن يسعدا إذا ما تركنا لهما نسمة الهوام التى تدخل خياشيمهما فى العالم الجديد الذى سيدأ وشيكاً . ثم أتبع يخاطب اثنين من خدمه ، اذهبا وابحثا عن سيدريك الحقيق وأحضراه إلى ، وعندئذ فإني أغفر لكما ذلكما هذه المرة ، لأنكما أخطأتما لحسبنا أن هذا الأحمق هو أحد الملاك الساكونيين . » فقال وامبا :

— « نعم ، ولكنك ستجد يا صاحب السيادة الباسل أن الحق بيننا أكثر من الملاك . فقال فروندييف وهو ينظر إلى أتباعه الذين كانوا يبطون نافرين ، وقد تلعثموا فى إبداء ما يدور بخلدكم من أنه إذا لم يكن سيدريك هو المائل أمامهم الآن ، فإنهم لا يعرفون من أمره شيئاً : « ماذا يعنى الوغد بذلك ؟ » . فقال دى براسى فى دهشة :

— « يا القديسى السماء لا بد وأن يكون قد هرب فى ثياب الراهب ! »  
وردد فروندييف :

— « بالشياطين الجحيم ! إذن فقد كنت لخنزير روذروود مرشداً ، وقدته حتى الباب الخلقى ، وأطلقتة بنفسى ! ثم خاطب وامبا قائلاً : « أما أنت يا من استطاعت حماقتك أن تنصر على حكمة هؤلاء الأغبياء الذين يفوقونك قباه فسامنحك مرتبة كهنوتية مقدسة . هيا خذوه وانزعوا فروة رأسه ثم



اقذفوا به من فوق الأسوار . إن مهتك هي التهريج فهل تستطيع أن تمارسها الآن ؟ ،

فبعث وامبا المسكين نسيجا ، إلا أن صورة الموت العاجل لم تستطع أن تتغلب على ما هو متأصل في طبيعته من هزل فقال :

— « إنك تمنحني أكثر مما وعدت به أيها الفارس النبيل . إذا أعطيتني غطاء الرأس الأحمر الذي تقترحه ، فإنك ستترقي بي من راهب بسيط إلى كاردينال ، . فقال دى براسي :

— « إن المسكين التمس مصر على أن يموت دون أن يتخلى عن مهنته . إنك لن تقتله يا فروندبيف ، بل أعطيه كي يبعث السلوى في رفاقي الأحرار . ما قولك في هذا أيها الوغد ؟ هل تتخذ لك قلبا باسلا وتذهب معي لخوض الحروب ؟ ، فأجاب وامبا :

— « نعم إذا أذن مولاي بذلك لأنه لا يجدر بي — كما ترون — أن أخلع الطوق ( ولمس الطوق الذي يلتف بعنقه ) دون إذن منه ، . فقال دى براسي :

— « أوه ! إن منشاراً نورماندياً سرعان ما يقطع طوقاً ساكسونياً ، . فقال وامبا :

— « نعم أيها السيد النبيل ، ومن هنا يقول المثل :

« منشار نورماندى على شجرة بلوط إنجليزية ،

وعلى العنق الإنجليزي عبودية نورماندية ،

وملعقة نورماندية في إحدى الصحف الإنجليزية ،

وإنجلترا تحكم وفق ما يشتهي النورمانديون ،

ولن يكون لإنجلترا بعد الآن عالم بهيج

إلا إذا تحررت إنجلترا من الأربعة كلها . فقال فروندييف ساخراً :

— « إنك تحسن صنعاً يا دى براسى ببقائك لتصفى إلى لغو المجنون ،  
بينما نحن قاب قوسين أو أدنى من التهلكة ! ألا ترى أننا قد خدعنا ، وأن  
وسائل اتصالنا بأصدقائنا في الخارج قد أفسدها علينا ذلك السيد المزركش  
الذى أراك تميل كثيراً إلى مؤاخاته ؟ ماذا نستطيع أن نتوقع إلا عاصفة  
عاجلة ؟ ، فقال دى براسى :

— « إلى الأسوار إذن . هل رأيتنى يوماً في اكتتاب من الخوض في  
إحدى المعارك ؟ ادع فارس المعبد ودعه يقاتل من أجل حياته بنصف الحية  
التي قاتل بها من أجل طائفته . اذهب إلى الأسوار مع أتباعك العديدين  
ودعنى أقم بجهودي المتواضعة على طريقي الخاصة ، هذا وإنى أقول لك إنه  
لمن الأسهل على اللصوص الساكسونيين أن يحاولوا الارتقاء إلى السماء ،  
من أن يتسلقوا أسوار قصر توركويستون ، وإذا كنت ستفاوض قطاع  
الطرق هؤلاء ، فلماذا لا تجنى نفعاً من وساطة هذا المالك المبجل الذى يبدو  
غارفاً في تأمل عميق لما رأى زجاجة النبيذ هذه ؟ ، ثم استرسل قائلاً لأثيلستين  
وهو يناوله قدح النبيذ : « خذ أيها الساكسونى واغسل حلقك بهذا الشراب  
الفاخر ، ثم استجمع شتات نفسك وخبرنا عما في مكنتك أن تفعله من أجل  
خلاصك . فأجاب أثيلستين :

— « ما في مكنة كل رجل ، على شريطة أن يكون على ما ينبغي أن  
يكون عليه كل رجل صادق الرجولة . اطلقا سراحي ورفاتي وسأدفع لكما  
غدية مقدارها ألف مارك . » فقال فروندييف : « وعليك أن تؤكد لنا  
بالإضافة إلى ذلك تراجع هذا الزبد الإنسانى الذى يحترق حول القصر مخالفاً  
في ذلك سلام الله والملك . » فقال أثيلستين :

— « سأحاول قدر جهدي أن أسترجمهم ، ولا شك عندي في أن أبي سيدريك لن يتردد في عوني قدر استطاعته ، . فقال فرونديبف :

— « إذن فقد اتفقنا . سنطلق سراحك وسراحهم ويحل السلام بكلنا الجانبين مقابل دفع ألف مارك . إنها فدية ضئيلة أيها الساكسوني ، ويجب أن تدب بالعرفان لاعتدالنا في قبولها نظير إطلاق سراحكم ، ولكن عليك أن تلاحظ أن هذا الاتفاق لا يسرى على اليهودي إسحق ، . وقال فارس المعبد الذي كان قد التحق بهم آنذاك :

— « ولا على ابنة إسحق اليهودي ، . فقال فرونديبف :

— « كلاهما ليس من صحاب هذا الساكسوني ، . فقال أنيلستين :

— « لو كنا يمتان إلينا بصله ما ، لما حق لي أن أدعى مسيحياً . افعلوا بالكافرين ما تشاءون ، . وقال دي براسي :

— « وعلى ألا تشمل الفدية الليدي رويانا أيضا . لن يقال أبداً إنني قد أكرهت بيوعات الخوف على التخلي عن غم حسناء ، دون أن أضرب ضربة واحدة للاحتفاظ بها ، . وقال فرونديبف :

— « كما أن اتفاقنا لا يشمل أيضا ذلك المهرج الشقي الذي أستبقيه كي أجعل منه مثلاً لكل وغد يحيل الأضحوة إلى جد ، . فقال أنيلستين وقسمات وجهه تفيض ثباتاً :

— « إنني على وعد الزواج من الليدي رويانا ، ولتسحطني الخيول الوحشية حتى تمزقني قبل أن أرضى بالافتراق عنها ، واليوم أنقذ العبد وامبا حياة أبي سيدريك ، وأما أنا بدوري فـأضحى بحياتي قبل أن تمس شعرة من رأسه ، . فقال دي براسي :

— « على وعد الزواج من رويانا ا الليدي رويانا تتزوج من إقطاعي

ملك ١١ لملك تحلم أيها الساكسونى بأن أيام مالكمكم السبع قد عادت من جديد . لاني أقول لك إن أمراء بيت آنجو لا يرضون بزواج من هن تحت وصايتهم برجال من مثل نسبك .

### فأجاب أثيلستين :

— « إن نسبي أيها النورماندى المتكبر ينحدر من أصل أكثر نقاء وقدما من نسب فرنسى ذليل ، يقيم أود عيشه على بيع دم اللصوص الذين يجمعهم تحت لوائه الحقير . كان أسلافنا ملوكا أقوياء في الحرب ، حكام في الرأى . كانوا يطعمون كل يوم على موائد قاعاتهم من المئات أكثر مما تملك من خاصة الاتباع . لقد تغنى بأسمائهم المنشدون ، ودونت قوانينهم في سجلات التاريخ ، ووريت عظامهم التراب وسط صلوات القديسين ، وأقيمت دور العبادة فوق رموسهم . فقال فرونديبيف وقد سر كثيرا للخيبة التي حلت بصاحبه :

— « لقد أصابك الساكسونى يادى براسى يا حكام . فقال دى براسى :

— « كما يستطيع أى سجين أن يصيب دون أن يقيم لكلامه وزنا ، لأن من كانت يده مغللتين ، فإن لسانه يكون طليقا . ثم أضاف يخاطب أثيلستين « ولكن زلاقة لسانك في الإجابة أيها الرفيق لن تنجى اليدى روبنا من أسرها .

لم يجبه أثيلستين بشيء لأنه قد خاض حديثا أطول مما اعتاد نخوضه في أى أمر مهما كان هاما ، وقطع الجدل دخول تابع يعلن أن راهبا بالباب الخلفى يطلب الإذن بالدخول ، فقال فرونديبيف :

— « باسم القديس بينيت أمير المتسولين ، هل لدينا في هذه المرة راهب حقيقى أم أنه محتال جديد ؟ فتشوه أيها العبيد لأنه لو استطاع دعى آخر

أن يتسلل من بين أيديكم ، فسأمر باتزاع عيونكم ، ووضع الجرات المتقدة في محارها ، . فقال جايلز :

- « لتصب على جام غضبك يا مولاي إن لم يكن راهبا حقيقياً . إن وصيفك جوساين يعرفه حق المعرفة ويقرر أنه الأخ « أمبروز » ، وهو راهب من أتباع دير جورفولكس » .

فقال فرونديبيف :

- « هاتره فلا مرية في أنه يحمل إلينا أبناء من سيده المرح . حقا إن الشيطان في أجازة ، والقساوسة معفون من واجباتهم ، ولذا فهم يهبون على وجوههم في طول البلاد وعرضها . اذهبوا بهذين السجينين ، وأنت أيها الساكوني فكر فيما سمعت » .

فقال أثيلستين :

- « إنني أطلب إليكم أن تعاملوني في سجنى معاملة كريمة ، وأن تعنوا بطعامي وفراشي بما يليق ومقامي ، وبما ينبغي أن يكون حيال شخص قد احتجزتموه سداداً لفدية ، وفوق ذلك ، فإنني أعتبر من يحسب نفسه أفضلكم مسئولاً عن هذا العدوان على حريتي . لقد سبق لي أن بعثت لك بهذا التحدي مع رئيس خدمك . إنه ملق على كتفيك ، والإجابة عليه منوطة بعنقك ، وها هو ذا قفازي » . فقال فرونديبيف :

- « أنا لا أرد على تحدي أسيري ، وأنت أيضاً يا موريس دي براسي »

ثم استرسل قائلاً :

« علّق يا جايلز قفاز الفرانكلين على أحد شعاب قرون الغزال المعلقة هناك ، وسوف يبقى في سجنه حتى يغدو رجلاً طليقاً ، ولو اجترأ عندئذ على الاسترسال في مطلبه ، أو أثبت أنه وقع أسيراً في يدي خلافاً للقانون ،

فأقدم بحزام القديس « كريستوفر » على أنه سيحدث إلى رجل لم يرفض قط لقاء عدو على الأقدام أو على ظهور الجياد ، مفرداً كان أم في جماعة وأتباعه من خلفه .

وعلى هذا نقل الأسـيران الساكسونيان في الوقت الذي جرى فيه بالراهب « أمبروز » الذي كان يبدو في حالة اضطراب شديد . وعندما مر وأمبا بالأخ المبجل قال :

« ها هو ذا السلام معكم ، الحقيقي ، وأما ماعداه فكانوا زائفين . »  
قال الراهب يخاطب الفرسان المجتمعين .

« باللام المقدسة ! وأخيراً هأنا الآن آمن وفي حمى مسيحي ! »  
فقال دى براسى :

« إنك آمن ، وأما عن المسيحية ، فها هو ذا البارون القوي ريجنولد فرونديف الذي لا يزدري شيئاً أكثر من ازدرائه لليهود . وهذا هو فارس المعبد الطيب بريان دى بواجيلبرت الذى يحترف القتال في فلسطين ، وإن لم تكن هذه أمارات طيبة تدل على المسيحية ، فإنى لا أعرف أنها يحملان دلالات سواها . » فقال الراهب دون أن يلحظ لهجة دى براسى :

« إنكم أصدقاء وحلفاء لأبينا فى الرب آيمـر المبجل رئيس دير جورفلكس . إنكم مدينون له بالمساعدة بدافع من الإيمان بالفروسية والبر المقدس . إن القديس « أوغستين » يقول فى رسالته المقدسة . . . »  
فقاطعه فرونديف قائلاً :

« ماذا يقول الشيطان ! أو بالأحرى ماذا تقول ياسيدى القس ؟  
ليس لدينا من الوقت ما يتسع إلى نصوص الآباء المقدسين . » فهتف الأب « أمبروز » :

- يا مريم المقدسة ! ما أسرع الغضب عند هؤلاء العلانين الأشرار ، ولكن لتعلموا أيها الفرسان البواسل ، أن بعض القتلة الأذنياء الذي طرخوا خشية الله واحترام الكنيسة وراء ظهورهم ، ولم يكثرثوا بنور الكرسي المقدس . . . ، فقاطعه فارس المعبد قائلاً :

- إنا نعلم ذلك كله حق العلم أيها الأخ القس أو تكمن به ، ولكن أفصح لنا القول ، هل أسر سيدك ، ومن الذي أسره ؟ ، فأجاب أمبروز :

- حقا إنه بين أيدي رجال « بليعال » الشرير الذين ابتليت بهم هذه الغابات ، والذين يزدرون الآية المقدسة : « لاتمسوا من باركنهم ، ولا تلحقوا بأنبيائى الأذى » ، فالتفت فروندييف إلى رفقاته وقال :

- هذا حافز جديد لشحن سيفنا أيها السادة ، وهكذا بدلا من أن يبعثوا إلينا بأية مساعدة ، فإن رئيس دير جورفولكس يطلب العون منا ، كم تكون للسعادة قيمة إذا ما حصل عليها الإنسان من رجال الكنيسة الكسالى هؤلاء عندما تلميه كثرة الأعمال ! ولكن تكلم أيها القس وقل لنا على الفور عما ينتظره سيدك منا . فقال أمبروز :

- لقد عومل رئيسى الجليل معاملة قاسية خلافاً للآية المقدسة التى سبق لى أن ذكرتها ، وقد سلبه رجال الشيطان أوراقه ونقوده ، واغتصبوا منه مائتى قطعة من الذهب النقى الخالص ، وفوق ذلك فقد طالبوه بدفع مبلغ كبير قبل أن يهبوه الخلاص من أيديهم الدنسة ، لذا فإن الأب فى الله المبجل بضرع إليكم بصفتم أصدقاء أعزاء له أن تنقذوه إما بدفع الفدية التى يحتجزونه سداداً لها ، وإما بحد السيف حسبما يروق لكم . فقال فروندييف :

- ليت الشيطان اللعين يخذم أنفاس رئيس الدير . لقد كانت جرعة الصباح عميقة ذات أثر . متى سمع سيدك عن مالك نورماندى يفتح

حافضة نقوده لخلاص أحد رجال الكنيسة الذي تزن أكياسه عشرة أمثال وزن أكياسنا ؟ وكيف تقوى على خلاصه بالقيام بعمل مغامر ونحن هنا محاصرون بعشرة أمثال عددنا ، وترقب هجوما بين لحظة وأخرى ؟ . فقال الراهب :

- وهذا ما كنت على وشك أن أقوله لكم لو كان إسرائعكم قد أفسح لي الوقت لذلك ، ولكن ليكن الله في عونى فأنا رجل عجوز ، وهذه المذابح الشائنة المذهلة تعصف بعقل رجل قس ، ومع ذلك فالحقيقة أنهم قد احتشدوا وضربوا الخيام وأقاموا تحميينا تجاه أسوار هذا القصر . فصاح دى براسى :

- إلى الأسوار ! ولنر ما سيفعله هؤلاء الأوغاد المرابطين في الخارج ، وبعد أن قال ذلك فتح نافذة زجاجية تطل على نوع من الشرفات البارزة ، ثم نادى على من كانوا بداخل الغرفة قائلاً لهم :

- يا للقديس « دينيس » ، إن الراهب العجوز قد حمل إلينا أبناء صادة ! لقد أحضروا معهم حواجز واقية ودروعاً كبيرة ، وهام رماة القوس يتجمعون على حدود الغابة كالغمامة الداكنة التي تنذر بهبوب العاصفة .

سرح ريجنولد فروندييف الطرف في الحقل ، ثم أسرع فاخطف بوقه ، وبعد أن أطلق منه نوبة طويلة مدوية ، أمر رجاله باتخاذ أماكنهم على الأسوار ، ثم قال :

- « راقب الجانب الشرقى يادى براسى لأن الأسوار هناك أكثر انخفاضا ، وأنت أيها النبيل بواجيلبرت ، لقد علمتكم مهنتكم جيداً كيف تنقض وكيف تدافع فراقب الجانب الغربى ، وأما أنا نفسى فسأخذ الحصن الأمامى مركزاً لى ، ولكن لا تقصرا جهودكما على مكان واحد بعينه أيها الصديقتان النبيلان ، ينبغى علينا أن نكون اليوم في كل مكان ، ونضاعف



من عددنا إن استطعنا إلى ذلك سبيلا ، كي نبذل بوجودنا العون والنجدة  
حيثما يفتد الهجوم . إننا قليل عديدنا ، ولكن الهمة والبسالة قد تدان  
هذه الشفرة لأننا لن نلتقى إلا بمهرجين أوغاد ، . فتعجب الأب « أمبروز ،  
وقال بين الضجيج والوضوء اللذين نتجا عن استعدادات الدفاع :

« ولكن أليس من بينكم أيها الفرسان النبلاء من يستمع إلى رسالة  
الأب في الله أمير المبعجل رئيس دير جورفولكس ؟ أناشدك ياسير ريجنولد  
النبيل أن تصفى إلى .»

فقال النورماندى الشرس :

« اذهب وتمتم بالتماسك إلى السماء فنحن على الأرض ، وليس لدينا  
من الوقت ما نضيقه في الإصغاء إليها - هو أنت يا «آنسلم» ، هيا أعبد  
قاراً وزيتاً ساخناً لسكبهما على رهوس هؤلاء الخونة الأندال ، وضع نصب  
عينيك ألا يكون هناك نقص في السهام لدى رماة النبال ، وارفع علمي عالياً  
وعليه رمز رأس الثور التليد فمما قليل سيرف الأوغاد مع من يتعاملون  
اليوم ، فاسترسل الراهب قائلاً وهو يحاول أن يجتذب الانتباه إليه :

« ولكن من أجل يمين الطاعة الذي أقسمته ، دعني أيها السيد النبيل  
أؤد الرسالة التي ناطها رئيسي بعنقي .» فقال فروندييف :

« اذهبوا بهذا المهاتر الثرثار وأودعوه الكنيسة ، واغلقوا أبوابها  
من دونه كي يعد حبات مسبجته حتى ينتهى العراك . سيكون شيئاً جديداً  
على القديسين في توركويلستون أن يستمعوا إلى صلوات «السلام لك  
يامريم» ، و«أبانا الذى فى السموات» . أحسب أنهم لم يحظوا بمثل هذا  
التكريم منذ أن قدوا من الحجر .» فقال دى براسى .

« لا تكفر بالقديسين الأتقياء ياسير ريجنولد . سنكون اليوم فى

حاجة إلى عونهم قبل أن تفرق عصاة الأشقياء هذه . فقال فروندييف:

— و أنا لا أتوقع منهم العون إلا قليلا اللهم إلا إذا كنا سنلقى بهم من فوق الأسوار على رموس هؤلاء الأوغاد . هناك تمثال للقديس كريستوفر مصنوع من خشب الغابات يفي بإلقاء كتيبة كاملة منهم على الأرض .

كان فارس المعبد خلال ذلك يراقب الأعمال التي يقوم بها المحاصرون بانتباه أعمق من انتباه فروندييف البهيمي ، أو رفيقه الطائش وقال :

— أقسم بإيمان طائفتي على أن هؤلاء الرجال يقتربون بطريقة منظمة أكثر مما كنا نظن منها كانت الوسيلة التي أوصلتهم إلى ذلك . أترون كيف أنهم يستفيدون بحذق من كل سترتهيه لهم شجرة أو دغل ، ويتجنبون تعريض أنفسهم لرماة نبالنا ؟ إنى لا ألمح بينهم علما أو بيرقا ، ومع ذلك فإنى أراهن بسلسلتى الذهبية على أن على رأسهم فارساً نبيلاً أو سيداً مارس أفانين الحروب . فقال دى براسى :

— هانذا أراه . أرى اهتزاز خوذة فارس وبريق دروعه . أترون ذلك الرجل الفارع ذى السترة الزردية السوداء الذى لا يفتر عن توجيه تلك الكتيبة البعيدة من رجال الغابات الدهماء ؟ أقسم بالقديس دينيس على أنه نفس الشخص الذى أطلقنا عليه اسم الكمول الأسود ، والذى رمى بك أرضا يافروندييف فى ساحة آشبى . فقال فروندييف :

— إن وجوده يبعث على الراحة فى نفسى لأنه يتيح لى فرصة الأخذ بثأرى . لا بد وأنه يحاول الاختفاء ، إذ أنه لم يجترئ على البقاء لتوثيق حقه فى نيل جائزة المباراة التى واتاه الحظ فى الفوز بها . لقد كان فى تقريرى ان أجد فى البحث عنه على غير طائل فى الأماكن التى اعتاد الفرسان

والنبلاء أن يبحثوا فيها عن أعدائهم ، وإني لجد سعيد لأنه أظهر نفسه هنا بين هؤلاء الأوغاد من رجال الغابات .

قطعت مظاهر الاقتراب السريع للعدو عليهم كل جدل آخر ، واتخذ كل فارس مكانه ، ووقفوا على رأس الأتباع القلائل الذين استطاعوا جمعهم وكانوا من القلة بحيث لا يستطيعون الدفاع عن كل امتداد الأسوار ، وهم ينتظرون في عزم ثابت ذلك الهجوم الذي يتوعدهم .

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

## الفصل الثامن والعشرون

إن الجنس الهائم المنعزل عن باقي الخلق ،  
يفخر مع ذلك بما بينه وبين الفنون الإنسانية من صلات ،  
فالبهار والغابات والصحارى التي ياوون إليها ،  
تجدهم على علم بأسرار كنوزها ،  
والأعشاب المهمة والأزاهير والبراعم ،  
تبدو قوية بصورة لا تخطر ببال عندما يقطفونها .

(اليهودى)

يجب أن نعود بتاريخ قصتنا هذه إلى بضع صفحات سبقت كي يلم  
القارى بمشاهد خاصة ينبغي عليه أن يعرفها كي يستوعب ما تبقى من هذه  
القصة الهامة ، وربما يكون إدراكه قد استوحاها في غير عسر ، وذلك أنه  
عندما سقط أيقانهم وبدأ وكان الخلق كلهم قد أدبروا عنه ، كانت ريبيكا  
بالحاحا قد أقنعت أباهما بأن يأمر بنقل الفارس الباسل من الساحة إلى المنزل  
الذى كان اليهوديان يقيمان به في ذلك الحين بضواحي آشي .

لم يكن من العسير إقناع إسحق بالإقدام على هذه الخطوة في أية ظروف  
أخرى لأنه كان بطبعه رحيمًا ذا كرا للجميل ، ولكنه كان يتصف بالتحيز  
والإغراق في الريية والجبين ، وهى من خصائص بنى جنه المضطهدين ،  
وكان على ريبيكا آتذ أن تعمل ما وسعها الجهد للتغلب على هذه الخصال ،  
فقال اليهودى :

— يا إبراهيم المقدس ! إنه شاب طيب ، وقلبي ينفطر لمرأى  
الدماء تقطر على سترته المطرزة ، ودروعه الغالية ، ولكن هل نحمه إلى

دارنا ا هل تبصرت في هذا أيتها الفتاة ؟ إنه مسيحي ، وناموسنا يحظر علينا أن نتعامل مع الغريب والمسيحي ، إلا فيما يتصل بصالح تجارتنا . . فقالت ريكا :

- « لا تنطق بمثل هذا القول يا أبي العزيز . قد لا يكون من الحق أن نختلط بهم في الولائم والحفلات الصاخبة ، أما في الجراح وفي الشفاء ، فإن المسيحي واليهودي أخوان » . فقال إسحق :

- « وددت لو كنت أعرف ما يقى به الحاخام يعقوب بن توديلا في هذا الشأن ، ومع ذلك فلا ينبغي أن يترك الشاب الطيب حتى الموت . دعى سيث وروبين يحملانه إلى آشي » .

- « كلا ، فليضعاه في محفتي وسأمتطى أحد الخيول » . فهمس إسحق في أذنها وهو ينظر ناحية جموح الفرسان والوصفاء نظرة شاكة :

- « إنك بذلك تعرضين نفسك لنظرات كلاب إسماعيل » . ولكن ريكا كانت في شغل عنه بوضع هدفها الرحيم موضع التنفيذ ، ولم تصغ إلى ما قاله إسحق حتى أمسك بكمرداتها وأعاد القول بصوت سريع :

- « بحق لحية هارون ا ماذا لو قضى الشاب ؟ ألا يعبرنا هذا الحشد مسئولين عن دمه ، ويمزقنا إرباً إرباً إذا مات وهو في حضانتنا ؟ » . فقالت ريكا وهي تخلص نفسها برفق من يد إسحق :

- « إنه لن يموت يا أبي . لن يموت إلا إذا تخلينا عنه ، ولو فعلنا ذلك فإن دمه سيكون في رقابنا أمام الله والناس » . فقال إسحق وهو يخفف من قبضة يده :

- « كلا ، إنه ليحزني أشد الحزن أن أرى قطرات دمه وكأنها قطع ذهبية بيزنطية تنساق من كيس نقودي . إنني أعلم حق العلم أن الدروس

التي لفتك إياها ، مريام ، ابنة مناسيس حاخام بيزنطة التي تقيم روحها في الفردوس . قد جعلت منك ماهرة في فن التمريض والشفاء ، وأصبحت على دراية بعلم الأعشاب وقوة إكسير الحياة ، وعلى ذلك فلتفعل ما يملكه عليك وجدانك . إنك فتاة طيبة مباركة ، وتاج وأنشودة تبعث البهجة في نفسى وفي دارى وفي شعب آبائى .

ومع هذا فإن ظنون إسحق لم تكن على غير قاعدة ، ففي أثناء عودة ابنته إلى آشي ، تعرضت بسبب إحسانها الكريم النابع من عرفانها بالجميل إلى نظرة بريان دى بواجيلبرت الدنسة ، فقد مر بهما فارس المعبد مرتين في الطريق ذهابا وجيئة ، وهو يرشق اليهودية الحسنة بنظراته الجريئة الوقحة ، وقد رأينا عواقب الإعجاب الذى أثارته مفاتها عندما رمت بها الأحداث في قبضة هذا الفاسق الذى تجرد من المبادئ والقيم الخلقية .

لم تضع ريبكا الوقت سدى فعملت على نقل الجريح إلى مسكنهم المؤقت ، وجعلت تفحص جراحه وتضمدها بيديها ، وليذكر أصغر قراء القصص وملاحم الفروسية كيف كانت النساء خلال تلك العصور المظلمة - كما تسمى - أكثر الناس دراية وعلمًا بأسرار الجراحة ، وكيف أن الفارس المقدم كان بكل جراح جسده لتضمدها تلك التي أصابت لحاظها من قلبه جرحا أشد عمقا ، وكان اليهود - الذكور منهم والآثى - يعرفون علم الطب ويمارسونه بكل فروعه ، وكثيراً ما كان الملوك والملوك الأقوياء في ذلك العصر يسنون أنفسهم لرعاية طبيب محنك من بين أفراد ذلك الشعب المزدرى إذا ما جرحوا أو أصابهم مرض .

لم يكن الإقبال على طلب المعونة من الأطباء اليهود قليلا رغم الاعتقاد الشائع بين المسيحيين بأن حاخامات اليهود كانوا يعلمون للماما تاما بعلوم السحر ، وخاصة فن تعاليم اليهود القرائين ( فن التصوف عند اليهود ) الذى

كان اسمه وأصله مأخوذ من عن دراسات حكماء بني إسرائيل ، وما كان الخاطامات لينكروا علم الفنون الروحانية هذا حيث أن ذلك لم يكن ليضيف شيئاً ( وأى شيء آخر يمكن إضافته ؟ ) إلى الكراهية التي ينظر بها إلى جنسهم ، بينما كان ذلك جاعاً على الإقلال من الازدراء المزوج بالحد والكراهية . قد يكون الساحر اليهودي بغيضاً إلى الناس كالمرابي اليهودي سواء بسواء ، ولكنه لم يكن على نفس القدر من الازدراء ، هذا بالإضافة إلى بعض حالات العلاج العجيبة التي يقال بأنهم قد قاموا بها ، إذ أن اليهود كانوا ملين ببعض أسرار خاصة بهم في فن العلاج ، وكانوا بدافع من الشعور بالحرمان التابع من أحاسيسهم ، جاهدين في إخفائها بحرص شديد عن المسيحيين الذين كانوا يعيشون بينهم .

كانت ريكا قد نشئت بعناية على الدراية بكل المعارف التي تتفق ومقامها ، والتي وعثها جدارتها وبقدرتها ادراكها فرتبها وأتمتها ودفعت بها في طريق الازدهار عبر حياتها ، وحتى في تلك الآونة التي تعيش فيها رغم أنوثتها ، وكانت قد اكتسبت لإمامها بالطب والترييض عن يهودية عجوز ، ابنة لأحد مشاهير أطبائهم كانت قد أحبت ريكا كآبنتها ، والمعتقد أنها أفضت إليها بأسرار خلفها لها والدها الحكيم ، وفي نفس الوقت ونفس الظروف انتهى مصير مريم بوقوعها ضحية للتعصب الديني الذي كان سائداً في تلك الحقبة من الزمان .

كانت ريكا التي وهبها الله علماً وجمالاً موضع تقدير إجماعي ، وإعجاب من بني جنسها الذين كانوا ينظرون إليها وكأنها إحدى هؤلاء النسوة الموهوبات التي ورد ذكرهن في التاريخ المقدس ، وكان أبوها — بدافع من احترامه لنبوغها الذي كان يمتزج على غير إرادته بعاطفة الأبوة اللانهائية — يهب الفتاة حرية أوسع نطاقاً مما كانت تمنح لبنات جنسها وفقاً لعادات قومه ، وكان — كما رأينا الآن — كثيراً ما يرضخ لرأيها مفضلاً لإياه على رأيه نفسه .

عندما بلغ أيفانهو دار إسحق ، كان لا يزال فاقداً لوعيه من اثر الدماء الغزار التي سالت منه في أثناء الجهد الذي بذله في ساحة النزال . لحضت ريبكا الجرح ، وبعد أن وضعت عليه من العقاقير الشافية ما أملاه عليها فتها ، أنهت إلى أبيها بأنه لو كان من المستطاع تحاشي إصابته بالحصى التي كانت تخشاها بعض الخشبية من كثرة ما نرف من دماء ، ولو أن بلم مريام لا يزال محتفظاً بخواصه الفضلي ، فلا خوف على حياة ضيفه ، وأنه يستطيع السفر معها آماناً إلى يورك في اليوم التالي . استولى على إسحق شىء من الذهول عند سماعه لهذه البشرى ، فقد كان يود لو أن حنانه قد توقف عند حدود آشيء ، أو على أكثر تقدير لو أنه قد ترك المسيحي الجريح ليعنى به في المنزل الذي كان يقطنه في ذلك الوقت ، مع تأكيده للملكة العبرى بأنه سيقوم بسداد جميع نفقاته ، ولكن ريبكا قد ناهضت ذلك الرأى وأبدت عدة أسباب سنسوق منها اثنين فقط كان لهما وزنها الخاص لدى إسحق . كان أولها أنها لن تضع بحال وعاء البلم الثمين بين يدي أى طيب آخر حتى ولو كان من بنى قومها لكيلا يكتشف ذلك السر الثمين ، وثانيهما أن هذا الفارس الجريح وبلقريد أوف أيفانهو كان صديقاً حميماً لريتشارد قلب الأسد ، وأن إسحق الذي أمد أخاه يوحنا بالأموال لإنجاز أهدافه الثورية ، لن يكون في حاجة ماسة إلى حام قوى يحظى برضى ريتشارد إذا ما عاد هذا الملك ، فقال إسحق وقد أذعن لهذه البراهين الساطعة :

— « لقد قلت صدقاً ياريكا . إنها مهانة للسماء أن نفشى أسرار مريام المقدسة ، إذ لا يجدر بنا أن نغدق على الآخرين في إسراف ما وهبتنا السماء من خيرات ، سواء أكان ذلك زناً من الذهب ، أم قطعاً من الفضة ، أم الأسرار الخفية لطيب حكيم — لا مربية في أنه ينبغي على أولئك الذين منحتم العناية الإلهية من هبات أن يحتفظوا بها ، وأما ذلك الذي يسميه نصارى إنجلترا بقلب الأسد ، فإني أؤثر أن أقع بين برائن أسد قوى من « إيدوميا ،



على أن أقع بين يديه إذ ما وثق أنى قد تعاملت مع أخيه ، وعلى هذا فإنى سأعير نصحك أذنا صاغية ، وسيرحل هذا الشاب معنا إلى يورك وستكون دارنا موثلا له حتى تلتئم جراحه ، وإذا عاد قلب الأسد إلى البلاد كما يسرى اللفظ بذلك فى الخارج ، فسيكون ويلفريد أوف أيفانهو هذا درعالى إذا ما استعرت نيران الغضب عند الملك ضد أيبك ، وإذا لم يعد ، فن المحتمل أن يكافئنا ويلفريد على ما قدمنا له إذا ما اكتسب مالا بقوة ربحه كما فعل بالأمس واليوم أيضا ، فهو شاب طيب موثق بالوعد الذى يضره ، ويسد ما اقترضه ، وسيكون للإسرائيلى ( ابن أبى ) غوثا وعونا إذا ما اعترضه لصوص أشداء أو أبناء الشيطان .

لم يثب أيفانهو إلى رشده إلا عندما جن الليل . واستيقظ من نعاس متقطع وهو تحت تأثير الانطباعات المتضاربة التى عادة ما تعقب تلك الصحوه بعد فقدان الشعور ، ولبث حينما من الوقت غير قادر على أن يستعيد إلى ذاكرته تلك الظروف التى سبقت سقطته فى ساحة النزال ، أو تكوين سلسلة متصلة الحلقات من الأحداث التى مرت به بالأمس .

كان الشعور بالألم وبالجراح الذى ينتابه ضعف ووهن شديدان ، مختلطا بتلك الضربات التى سددها والتى تلقاها ، وانقضاض الجياد على بعضها البعض ، ومن يسقط ومن يسقط ، والصيحات وصليل الأسلحة ، وكل الجلبة الهوجاء التى تعم القتال ، وقد بذل جهدا موقفا بعض الشئ فى إزاحة ستار فراشه ، وإن كان ألم جرحه قد جعل ذلك أمرا شاقا .

ولشد ما كانت دهشته عندما ألنى نفسه مستلقيا فى غرفة فاخرة للرياش إلا أن الوسائد كانت قد صفت فيها بدلا من المقاعد ، وكانت تشبه فى كثير ذلك الطراز الشرقى ، حتى بدأت الريبة تساوره فى أنه قد أعيد ثانية إلى أرض فلسطين فى أثناء نومه ، ولقد غما عنده هذا الشعور عندما أزيح الستار ، وظهر طيف امرأة ترتدى ثوبا ثمينا أقرب ما يكون إلى الطراز الشرقى منه إلى الأوروبى ، ومرت من الباب الذى كان الستار يحجبه وفى أعقابها خادم أسمر اللون .

ولما هم الفارس الجريح بمناداة هذا الطيف الجميل، أمرته بالصمت بأن وضعت أصبعها الرشيق على شفها التي كانت في لون العقيق، بينما اقترب الخادم من أيفانهو وأخذ يكشف عن جانبه، وتيقنت اليهودية الجميلة بأن الضماد كان في موضعه، وأن الجرح في طريقه إلى الشفاء. لقد قامت بعملها ببساطة رشيقة فيها جلال وفيها خفر كفيلان - حتى في تلك الأيام التي كانت المدينة في إبانها أكثر ازدهارا - بإنجاز هذا العمل الذي قد يبدو منفرًا كريها تعافه طبيعة الأثني الرقيقة، ولكن هذه الفكرة عند تلك الفتاة الشابة الجميلة وهي منوطة برعاية مريض، أو تضميد جراح شخص من الجنس الآخر، كانت تذوب في خضم أفكار مخلوقة خيرة تساهم بعونها الفعال في تخفيف الآلام واتقاء ضربة الموت. أملت ريكا تعليماتها العابرة القصار إلى الخادم العجوز باللغة العبرية فأطاع، وقام على تنفيذها دون أن يجيب لأنه كان في أكثر الأحيان مساعدا لها في الحالات المماثلة.

ومما كان وقع نبرات لغة مجهولة على السمع من خشونة عندما ينطق بها شخص آخر، إلا أن صدورها عن ريكا الجميلة كان له الأثر العاطفي البهيج الذي يعزوه الخيال إلى سحر الحديث الصادر عن إحدى الحوريات الخيرات، وقد يكون غامضا على السمع ولكنه يمر القلب، ويؤثر فيه عذب الإلقاء وجميل المحيا ورقيق النغم. ودون أن يبذل أيفانهو أية محاولة لإلقاء سؤال آخر، فقد تركهما في صمت يتخذان الخطوات التي يريانها كفيلة ببرئه، وعندما أوشكت هذه الخطوات على الانتهاء، وقارب هذا الطبيب الرحيم على الانصراف، لم يقو أيفانهو على كبت فضوله إلى أكثر من ذلك، فقال يخاطبها باللغة العربية التي كان قد تلقنها خلال أسفاره إلى الشرق، والتي ظن أنها أقرب إلى فهم تلك الفتاة التي ترتدى العمامة والقفطان الواقفة أمامه:

« أيتها الفتاة الحانية، أرجو من كرم خلقك أيتها الفتاة الحانية...، ولكن طبيئته الحسناء قطعت عليه حديثه وقد استضاء وجهها لحظة بابتسامة لم تستطع إخفاءها، مع أن الطابع العام لقبساتها كان ينم عن الحزن الدفين:

« إننى من إنجلترا ياسيدى الفارس ، وأتكمم اللغة الإنجليزية رغم أن  
ردائى ونسبى يمتان إلى بلد آخر ، . فشرع أيفانهو يعيد القول :

« أيتها الأئمة النبيلة . . . ، فأسرعت ريبكا تقطع عليه الكلام مرة  
أخرى وقالت :

« لا تغدق على لقب النبيلة ياسيدى الفارس - إنه لمن الأوفق أن تعرف  
على الفور أن خادمك ليست إلا يهودية مسكينة، وابنة لذلك الإسحق أوف  
يورك الذى كنت له منذ حين سيدا طيبا وعطوفا، وإنه لما يبعث على المسرة  
فى نفسه ونفوس ذويه ، أن يقدموا لك الرعاية التدقيقة التى تدعو إليها  
الضرورة فى حالتك الراهنة ، .

لست أدرى إذا كانت رويانا الفاتنة ستكون راضية عن ذلك للنوع  
من المشاعر التى كان فارسها الوفى ينظر بها حتى تلك اللحظة إلى قسمات  
ريبكا الجميلة وقوامها الممشوق وعينيها المتألمتين - عينين تظلل بريقهما ،  
وتزيدهما عذوبة ونشوة أهداب طويلة ناعمة كالحرير ، وربما حلا لأحد  
المنشدين أن يقيم موازنة بينهما وبين كوكب الليل الذى ينفذنوره من خلال  
باقة من الياسمين ، ولكن أيفانهو الذى كان شديد التدين بالكاثوليكية ،  
ما كان ليحتفظ بنفس هذه المشاعر نحو فتاة يهودية ، وكانت ريبكا قد رأت  
ذلك بثاقب رأيها فأرعت إلى ذكر اسم أبيها ونسبه، ولما لم تكن ابنة إسحق الجميلة  
الحصيفة تخلو من لمة ضعف أنثوى ، فلم تملك إلا أن تبعث بزفرة مكبوتة  
عندما انقلبت نظرة الإعجاب المشوبة بالاحترام الممزوج بشيء من الرقة  
والتي كان أيفانهو ينظر بها نحو المجهولة التى أحسنت إليه ، إلى سلوك فيه  
برود واتزان وضبط للنفس ، وليس فيه من العاطفة العميقة أكثر مما يعبر  
عن الشعور بالعرفان بجميل صادر من ناحية لم يكن ليتوقع صدوره عنها ،  
ومن شخص من جنس أدنى منه مكانة .

وليس معنى هذا أن سلوك أيفانهو السابق كان يعبر عن أكثر من هذا التكريم المخلص الذي يدفعه الشباب دائماً للجمال ، ومع ذلك فقد كان من المؤلم أن تفعل كلمة واخذة فعل السحر في وضع ريبيكا المسكينة التي لم تكن على جهل تام بعدم أحقيتها لهذا التشریف من بين صفوف طبقة وضيعة لا تستحق معها تكريماً .

ولكن ريبيكا التي كانت بطبيعتها دمهة الخلق صادقة لم تحاول أن تعزو أى خطأ إلى أيفانهو لانغماسه في الآراء العامة لعصره ودينه ، بل على النقيض من ذلك ، فإن اليهودية الحسنة لم تتوقف عن بذل الرعاية في وفاء وفي غير ملل لسلامة جريحها وبرئته ، رغم أنها كانت تحس بأنه ينظر إليها كإحدى بنات جنس منبوذ ، من العار أن يقيم معها علاقة ما إلا ما كانت تدعو إليه الضرورة .

أنبأته اليهودية بوجوب انتقالهم إلى يورك ، وباعتزام أبيها على حمله إليها والعناية به في منزله الخاص حتى تعود إليه عافيته ، فأبدى أيفانهو إعراضاً شديداً عن هذا النهج مبعثه عدم رغبته في إيجاد مزيد من المتاعب لمن أسديا إليه إحساناً وقال :

« ألم يكن هناك في آشي أو بالقرب منها أحد الملاك الساكسونيين ، أو حتى أحد الفلاحين الأثرياء يحتمل عبء إقامة مواطن جريح حتى يستطيع ارتداه دروعه من جديد ؟ ألا يوجد أحد أديرة الصدقة الساكسونية حيث يمكنه أن يشوى ؟ أو لم يكن من المستطاع نقله إلى « بورتون » حيث يلقى الضيافة الكريمة من « ولفيوف » رئيس دير القديس « ووثولد » الذي يمت له بصلة قرابة ؟ » .

فالت ريبيكا وابتناسمة حزينة تمر بشفتيها :

« لا ريب في أن أشد هذه الأماكن سوءاً ، لا أكثر صلاحية لإقامتك .

من دار يهودى مزدري ، ومع ذلك فإنك لا تستطيع ياسيدى الفارس أن تبدل من مكان إقامتك إلا إذا أبعدت طبيبك عنك . إن شعبنا - كما تعلم جيداً - قادر على إبراء الجراح مع أننا لا نزوج بأنفسنا في خضم إحداثها ، هذا وهناك لأسرتنا بوجه خاص أسرار توارثناها منذ عهد سليمان وقد بلوت بنفسك مجازيها . ما من نصراني - مغيرة ياسيدى الفارس - ما من طيب مسيحي فيما بين بحار إنجلترا الأربعة يستطيع أن يجعلك تقوى على ارتداء صدرتك المدرعة في غضون شهر من الزمان .

فقال أيفانهو في غير صبر :

« ومتى أستطيع ارتدائها على يدك ؟ ، فأجابت ريبكا :  
« في مدى ثمانية أيام إن كنت صبوراً واستجبت لإرشاداتي .  
فقال ويلفريد :

« أقسم بعذرائنا المقدسة - إذا لم يكن من الخطيئة ذكر اسمها في هذا المقام - على أن هذا الوقت ليس ملائماً ولا لآي فارس آخر كي يلتزم فراشه ، ولكن إذا أوفيت أيتها الفتاة بما وعدت ، فسأجزيك بملء خوذي قطعاً فضية كيفما كان السبيل في الحصول عليها . فقالت ريبكا :

« سأفي بوعدى وسترتدى دروعك في اليوم الثامن منذ الآن إذا منحتني مطلباً واحداً بدلا من الفضة التي تمنيني بها . فقال أيفانهو :

« سأجيبك إلى مطلبك راضياً شاكراً إن كان ذلك في نطاق مكنتي ، وإذا كان من المستطاع لفارس مسيحي حقاً أن يرضى بأدائه لواحد من قومك . فقالت ريبكا :

« كلا . ولكني أرجوك فقط أن تصدق منذ الآن أن اليهودى يستطيع أداء خدمة لمسيحي دون أن يرنو إلى جزاء سوى بركة الأب الأكبر الذي

خلق اليهودى والمسيحى كليهما . فقال أيفانهو :

« إن الشك في هذا خطيئة يافتاة . إني مطمئن إلى مهارتك دون ريب أو سؤال آخر ، هذا وإني لعلى ثقة من أنك ستجعلينى قادراً على إرتداء درعى في اليوم الثامن . والآن يا طيبي العطوف ، دعيني أعرف شيئاً من أبناء الخارج . ماذا عن الساكسونى النبيل سيدريك وآل داره ؟ . ماذا عن الليدى الجميلة ... ، ثم توقف وكأنه غير راغب في ذكر اسم رويننا في منزل يهودى ، ثم استرسل قائلاً : « عنها ، تلك التى لقبت بملكة المهرجان ؟ » . فأجابت ريبكا :

« والى اخترتها لهذا المقام ياسيدى الفارس بثاقب فكرك ، ونالت من الإعجاب قدر مانالت شجاعتك » .

لم يحل الدم الذى سال من أيفانهو دون أن تمر بوجهه حمرة لإحساسه بأنه قد كشف في غير حذر عن كفه العميق بروينا ، الذى حاول بجهد مضطرب أن يخفيه عنها وقال :

« إن رغبتى في التحدث عنها أقل من رغبتى في الحديث عن الأمير يوحنا ، هذا وإنه لمن بواعث البهجة في نفسى أن أعرف شيئاً عن وصينى الأمين ، ولماذا لا يرافقنى الآن ؟ » . فأجابت ريبكا :

« دعنى أستعمل سلطتى كطييب وأوصيك بالتزام الصمت ، والبعد عن التفكير المثير ، هذا وإني أحيطك علماً بما تبغى معرفته . لقد فض الأمير يوحنا المباراة قبل موعدها ، وانطلق بأقصى سرعته إلى مدينة يورك يرافقه النبلاء والفرسان ورجال الكنيسة من أعضاء حزبه بعد أن جمعوا من المال قدر ما استطاعوا أن يعتصروه من أولئك الذين ينظر إليهم وكأنهم من أثرياء البلاد ، وبكافة الوسائل مشروعة كانت أم غير مشروعة ، ويقولون بأنه يعتزم اغتصاب تاج أخيه » . فقال أيفانهو وهو ينهض في فراشه :

- « لن يكون هذا قبل أن توجه ضربة للدفاع عن هذا التاج ، حتى ولو لم يكن في انجلترا بأسرها سوى شخص واحد على الولاء باق . سأقاتل أفضلكم دفاعاً عن لقب ريتشارد في معركته العادلة ، . فقالت ريبكا وهي تمس كتفه بيدها :

- « ولكن حتى تستطيع القيام بذلك ، يجدر بك أن تطيع ما أمرك به الآن ، وتسكن إلى الهدوء ، . فقال أيفانهو :

- « حقاً أيتها الفتاة ، نعم سأستكين بقدر ما تسمح به هذه الأوقات القلقة ، وماذا عن سيدريك وآل داره ؟ ، فأجابت اليهودية :

- « لقد أتى رئيس خدمه لاهناً منذ برهة وجيزة يطلب من أبي مالا ، ويسأل عن ثمن الصوف الذي يبلغ في طوله صوف قطعان سيدريك ، وعرفت منه أن سيدريك وأثيلستين أوف كوتنجزبره قد غادرا قصر الأمير يوحنا وهما في أشد حالات الغضب ، وأنها كانا على وشك الرحيل عائدين إلى داريهما ، . فقال ويلفريد :

- « هل ذهبت معها سيدة ما إلى الوليمة ؟ ، فأجابت ريبكا على سؤاله بأسلوب أكثر دقة مما ألقى به :

- « إن اللبدي رويونا لم تذهب إلى حفل الأمير ، وهي الآن في طريقها عائدة إلى روزر وود مع سيدريك الوصى عليها كما أنبأنا بذلك رئيس الخدم ، وأما عن جيرث وصيفك الوفي . . . . فقاطعها الفارس متعجباً :

- « ها ! أتعرفين اسمه ؟ ، ثم اتبع على الفور . ولكن لاشك في أنك تعرفينه ، وأنا الآن مقتنع بأنه أخذ مائة قطعة ذهبية من يدك . . . من جود نفسك ، . فقالت ريبكا وقد احمر وجهها أشد الاحمرار من فرط الحياء :

- « لا تتحدث عن هذا ! إني أرى كيف يسهل على اللسان أن يفصح

عما يحرص القلب على إخفائه ، . فقال أيفانهو جاداً :

- . ولكن شرفي مطالب برد هذا القدر من الذهب إلى أبيك ، .

- . ليكن ما يظيب لك ولكن بعد انقضاء ثمانية أيام . والآن لا تفكر ولا تتحدث في أي أمر قد يؤجل شفاهك . فقال أيفانهو :

- . لك ماتا مرين أيتها الفتاة الرحيمة ، ولكن إذا قلت لي كلمة واحدة عما فعلت الأقدار بجيرث ، أكون قد فرغت من أسئلتى ، . فقالت رييكا :

- . يوسفنى أن أنهى إليك ياسيدى الفارس أنه سجين بأمر سيدريك ، :

وعندما رأت الحزن بادياً على وجه ويلفريد من جراء أنباتها تلك ، أضافت على الفور قائلة : . ولكن أوسولد رئيس الخدم ذكر أنه إذا لم يحدث ما يثير غضب سيده عليه من جديد ، فهو على ثقة من أن سيدريك سيعفو عن جيرث لأنه عبده الأمين ، وموضع رضاه التام ، وأنه لم يرتكب هذا الخطأ إلا بدافع من حبه لابن سيدريك ، ثم قال فوق ذلك بأنه ومعه رفاقه وخاصة وامبا المهرج ، قد عقدوا العزم على تحذير جيرث من أن يلجأ إلى الحرب ، إذا لم يتمكنوا من أن يهدثوا من نائرة سيدريك عليه . . فقال أيفانهو :

- . أدعو الله أن يحافظوا على ما اعتزموه ، ولكن يبدو لي أنه قد كتب على أن أجز الخراب على كل من يشفق بي . مليكى الذى شرفنى وكرمنى . . . هانت ترين أخاه الذى يدين له بكل شيء ، يرفع يديه الآن لينتزع التاج من فوق رأسه ، وقد جلبت على أجمل بنات جنسها ضيقاً وهمماً لأنها أولتني حنانها ، والآن قد يحاول أبى وهو في غمرة من غضبه هذا أن يقتل ذلك العبد المسكين لا لشيء إلا لأنه أحبنى وأخلص لي الملك ترين أيتها الفتاة أى تعس منكود الحظ تعملين على مساعدته . تبصرى ودعبنى



أمض قبل أن تلفك في جائلها النكبات التي تتعقب خطواتي ككلاب الصيد . فقالت ريكا :

- كلا، إن ضعفك وحزنك ياسيدي الفارس يجعلناك تخطيء تقدير أهداف السماء . لقد أعادوك إلى وطنك في الوقت الذي اشتدت فيه حاجته إلى عون يد قوية وقلب صادق ، وقد مرغت في التراب كبرياء أعدائك وأعداء مليسكك عندما كان برقمم أشد ما يكون دويًا ، وأما عن البلية التي تكابدها ، فألا ترى أن الله قد قبض لك مساعدًا وطيبًا ، مع أنه من بين أشد أهل الأرض قاطبة مهانة وضعة . تجمل بالشجاعة وثق بأن الله قد حفظك لتزدي عملاً خارقاً يقوم به ساعدك أمام هذا الشعب . وداعاً ! وعندما تناول الدواء الذي سأبعث به إليك مع روبين ، فاعمل قدر وسعك على أن تستريح حتى تكون أكثر قدرة على احتمال السفر في اليوم التالي .

اقتنع أيفان هو بهذا المنطق وأطاع أوامر ريكا ، وكانت الجرعة التي أعطاهما له روبين ذات أثر مهدى مخدر كفلت للجريح نوما ساكناً هادئاً ، وعندما أشرق الصبح ، وجدته طبيبته الشفوقة معافى لا تبدو عليه أعراض الحمى ، قادراً على احتمال مشاق السفر .

وضع في محفة الجياد التي أتت به من الساحة ، واتخذت كل حيلة كي يسافر في دعة وراحة . في حالة واحدة فقط عجزت ضراعات ريكا عن أن تكفل الرعاية الكافية براحة الفارس الجريح : كان اسحق كالرحالة الثرى في هجائية ، جوفينال ، العاشرة ، يضع نصب عينيه دائماً الخوف من السرقة لشعوره بأنه سيعتبر صيداً سميناً للنبل النورماندى المغير ، والخارج على القانون الساكسونى كليهما ، ولذلك فقد سافر مسرعاً في مسيره ، وكان يتوقف لآماد قصيرة ، ويتناول وجبات أشد قصرأ حتى إنه مر بسيدريك وأيلستين اللذين كانا قد بدأا الرحيل قبله بساعات عدة ، ولكنها توانيا لحضور حفلها الذي طال مداه في دير القديس ويشولد ، ومع هذا فقد كان

لبس مريام الساحر أو لنية أيفانهو القوية ، أطيب الأثر في أن يجعله  
يحتمل ما كانت طبيته الخنون تخشاه عليه من سريع السفر ، وعلى أية حال  
فقد ثبت من ناحية أخرى أن إسراع اليهودى كان أشد وبالا عليه ، لأن  
السرعة التي ألح بها على السفر قد أثارت جدلا طويلا بينه وبين أولئك الذين  
استأجرهم كي يقوموا على حراسته . كان هؤلاء الرجال من الساكسونيين ،  
ولم يتجردوا من طابعهم الوطني في الكف بالحياة الهينة والطعام الشهي ،  
وهذا ما كان النورمانديون يصفونه بالكسل والنهم ، وعلى تقيض موقف  
« شيلوك » ، فقد قبلوا العمل على أمل أن يتناولوا الطعام على حساب  
اليهودى الثرى ، ولكنهم ضاقوا به أشد الضيق عندما خاب أملهم من جراء  
السرعة التي أصر على المسير بها ، وثاروا عليه أيضاً بسبب تعرض خيولهم  
للضرر من هذا المسير الاضطرابى ، وأخيراً قام بين إسحق وبين أتباعه  
شجار عنيف بشأن قدر النيذ والجمعة المقرران مع كل وجبة ، وكانت النتيجة  
لهذا كله أنه عندما اقترب منهم نذير الخطر ، وأصبح ما يخشاه إسحق وشيك  
الوقوع ، انفض عنه أولئك المرتزقة الغاضبون الذين كان يعتمد على  
حمايتهم له ، دون أن يسلك السبل التي تكفل ولائهم له .

وجد سيدريك اليهودى في هذه الحالة التي يرثى لها ومعه ابنته ومريضها  
الجرىح كما سبق لنا أن أوضحنا ، ثم لم يلبث أن وقع في قبضة دى براسى  
وحلفائه . لم يكلف أحد بالمحفة أول الأمر إلا قليلا ، وكان من المحتمل أن  
يخلفوها وراءهم دون أن يأبهوا لها ، ولكن دى براسى قد دهش عندما نظر  
بداخلها لعله يجد بها ما كان يصبوا إليه من وراء مغامرته ، لأن رويانا لم تكن  
قد رفعت عن وجهها نقابها ، إلا أن دهشته قد تزايدت عندما تبين له أن بالمحفة  
رجلا جريحا ، وخيل إلى هذا الأخير أنه وقع في قبضة لصوص ساكسونيين  
قد يكون لاسمه حمى له ولاصدقائه ، فخر لهم بأنه ويلفريد أوف أيفانهو ،  
وكانت قواعد شرف الفروسية التي لم تفارق دى براسى في لجة من خشونته  
وطيشه ، قد منعت من أن يلحق الأذى بالفارس الأعزل ، وهو عاجز عن

الدفاع عن نفسه ، كما حالت دون إفشاء سره لفروندبييف الذى لم يكن ليتردد في قتله مهما كان حاله ، لأنه كان المنافس له في المطالبة بأراضى أيفانهو ، ومن ناحية أخرى فإن تحرير عاشق ذى فضلى لدى الليدى رويانا كما أثبتت أحداث المباراة ، وسوء السيرة التى لحقت بويلفريد من سابق إقصاء أبيه له عن داره ، كانا رمية تقصر عنها شهامته . حاربين الخير والشر فلم يجد نفسه قادراً إلا على أن يسلك سبيلا بين بين ، فأمر اثنين من وصفائه بأن يلتزما جانبي المحفة ، وألا يأذنا لإنسان ما بالاقتراب منها ، وأوحى إليهما بأنهما إذا ما سئلا ، أن يقولا بأن محفة الليدى رويانا الخالية قد استخدمت في نقل أحد رفاقهم الذين جرحوا في أثناء النضال . وعندما وصلوا قصر توركويلستون ، وبينما كان فارس المعبد وسيد القصر جادين كل في تدبير خطته الخاصة ، أحدهما يريد الاستيلاء على كنز اليهودى ، والآخر يرنو إلى حوزة ابنته ، حمل وصيفا دى براسى أيفانهو باسم « رفيق جريج » إلى إحدى الغرف البعيدة ، وكان هذا هو الإيضاح الذى أدليا به إلى فروندبييف حينما سألهما عن عدم ذهابهما إلى الأسوار عند إنذار الخطر ، فقال لهما غاضبا دهشا :

— « رفيق جريج ! لا عجب إذن إذا تجمع الأوغاد ورجال الغابات في اجترأ وحاصروا القصر ، وبعث المخرجون ورعاقم الخنازير يانذارات التحدى إلى النبلاء ، طالما أن الجنود قد استحالوا إلى مرضين يقومون على رعاية المرضى ، وأصبحت جماعة « الرفاق الاحرار » حراساً لاستار المحتضرين ، بينما الانقضاض على القصر وشبك الوقوع . إلى الأسوار أيها الوغدان المتلكشان . . ثم صرخ بصوت جهير رددت الأقبية من حوله صدها قاتلا .

— « إلى الأسوار وإلا هشمت عظامكما بهذه الهراوة . » فأجاب الرجلان وقد عبس وجههما بأنهما لا يرغبان في شيء أكثر من رغبتها في الذهاب إلى الأسوار ، على أن يقوم فروندبييف بالشفاعة لهما عند سيدهما الذى

أمرهما برعاية ذلك الرجل الراحل ، فقال المالك :

— الرجل الراحل أيها الوغدان ! إني أعدكما بأننا سنكون جميعاً في دور الرحيل عن الحياة إذالم نصمد أمام الموقف بعزم وصلابة ، ولكني سأرفع عنكما عبء الحراسة على مريضكما الدنيء . إيرفريد أيتها الشهطام أيتها الساحرة الساكونية الشيطانة ! ألا تسمعينني ؟ عليك بالسهر على هذا الشخص طريح الفراش ، مادامت رعايته منوطة بأعناقنا كي يحمل هذان الوغدان أسلحتهما . ها كما قوسان للنبال يارفيقاي وأوتار وسهام . اذهبا إلى المخفر الأمامي واستوثقا من أن كل سهم تطلقانه سينفذ في رأس ساكونية . .  
ذهب الرجلان إلى مكان الخطر كما أمرا ، لأنهما كالأغالية العظمى بمن هم على شاكتهما مولعان بالمغامرة ويغضان الجود ، وبهذا انتقلت رعاية أيفانهو إلى إيرفريد أو أولريكا ، ولكن تلك التي كان عقلها يحترق من ذكرى ما قاسته من إيذاء وآمالها في الانتقام ، قد اقتنعت في غير عمر بأن تكمل إلى ريكا أمر العناية بمريضها .

## الفصل التاسع والعشرون

هيا أصدد أيها الجندي الباسل إلى برج المراقبة ذلك ،  
وارقب ميدان القتال وخبر عن سير المعركة .

فتاة نورليتز لشيلر

إن ساعة خطر تكون في كثير من الأحيان ساعة مودة وشفقة نابعة  
من صميم القلب، وقد يغمرنا اضطراب يملأ علينا جميع مشاعرنا فننسى حدة  
تلك المشاعر — التي يخفيها حرصنا على الأقل في الأوقات الهادئة — إذا  
لم نستطع السيطرة عليها تماما. عندما وجدت ربيكا نفسها إلى جوار أيفانهو  
مرة أخرى ، اعترتها دهشة من ذلك الإحساس بالبهجة المفردة الذي اعترأها  
في وقت كان كل ما حولها ينذر بالخطر إن لم يكن باليأس ، وعندما كانت  
تتحسس نبضات قلبه ، وتستفسر عن صحته ، كان في لمستها ونبرات صوتها  
رقة تتم عن اهتمام حنون ، أكثر مما كان يهيجها الإفصاح عنه بمحض  
إرادتها . اضطرب صوتها وارتعدت يداها ، ولم تعد إلى هدوتها إلا عندما  
سألها أيفانهو سؤاله الوحيد بلمحة فيها فتور :

— « أهذه أنت أيتها الفتاة الرقيقة ؟ ثم أنني إليها أن المشاعر التي  
راودتها لم تكن ولن تكون مشاركة بينهما ، فانبعثت منها زفرة لا إرادية  
خافتة . كانت الأسئلة التي وجهتها إلى الفارس استفساراً عن حالته الصحية  
قد صدرت بنبرات رصينة تتم عن صداقة هادئة ، فأجابها أيفانهو دون  
إبطاء بأنه قد أصبح من الناحية الصحية في حالة طيبة كما كان يرجو ، بل  
وأفضل مما كان يرجو ، ثم قال :

— « شكراً لك ياربيكا العزيزة على مهارتك التي كانت لي نعم المعين .»  
فقالت الفتاة لنفسها : « إنه يلقبني بربيكا العزيزة ، ولكنه نداء ليس فيه من

الحرارة أو الاكتراث شيء ، ولايتلام مع رنين الكلمة . إن جواد حربه  
وكاب صيده لأعز عليه من اليهودية المهينة . واسترسل أيفانهو قائلاً :

— إن القلق ينتاب عقلي أيتها الفتاة الرقيقة أكثر مما يستبد الألم  
بجسدي ، وإني أعلم من الأحاديث التي دارت بين هذين الرجلين اللذين كانا  
قائمين على حراستي الآن أنني سجين ، وإذا كانت خواطري قد صدقت عند  
سماع ذلك الصوت المرتفع الأجش الذي أمرهما بالذهاب الآن إلى مهمة  
حربية ما ، فإنني في قصر فرونديبيف ، وإذا كان الأمر كما ذكرت فإلى أين  
المصير ، أو كيف أقوى على حماية روبينا وأبي ؟ .

فقالت ريبيكا لنفسها : إنه لا يذكر اليهودي أو اليهودية ، ومع ذلك  
فأى نصيب لنا فيه ، وكم عاقبتني السماء عقاباً عادلاً لأنني تركت أفكارى  
تعيش معه . ثم أسرع بعد أن دفعت نفسها بهذا الاتهام العابر تنهى إلى  
أيفانهو بما استطاعت أن تعرفه من أبناء لم تكن سوى أن فارس المعبد  
بواجيلبرت والمالك فرونديبيف كانا القائدين بالقصر ، وأن القصر محاصر  
من الخارج ولكنها لا تعرف عن أولئك الذين يحاصرونه شيئاً ، ثم أضافت  
أن بداخل القصر قسا مسيحياً قد يكون لديه من الأبناء ما هو أوفى .  
فقال الفارس مبهتجاً :

— قدس مسيحي ! انت به إلى هنا ياربيكا إن استطعت — قولى له  
إن مريضاً يطلب نصحه الروحي — قولى له ماتشائين ولكن أحضريه إلى  
— يجب أن أفعل شيئاً أو أسعى إلى أن أفعله ، ولكن كيف أستطيع  
تحديده قبل أن أعرف كيف تجرى الأمور في الخارج ؟ .

وتحقيقاً لرغبة أيفانهو ، حاولت ريبيكا المجيء بسيدريك إلى غرفة الفارس  
الجرميج ، ولكنها لم توفق كما رأينا ، وذلك لتدخل إفريدالتى كانت بدورها  
ترقب الراهب المزعوم لتستوقفه ، فعادت ريبيكا تحمل لأيفانهو نتيجة

مساءها الفاضل . لم يطل بها الوقت في الأسف على عدم توفيقها في الحصول على هذا المصدر للأنباء ، أو تدبير الوسائل الكفيلة بإيجاد عوض عنه ، لأن الجلبة التي نتجت عن قيام الاستحكامات الدفاعية في داخل القصر ، والتي كانت شديدة لوقت ما ؛ قد ازدادت الآن فأصبحت عشر أمثالها . وغدت صخباً وضجيجاً ، ومع ذلك فقد كانت خطرات الجنود السراع الثقال تذرع الأسوار أو تدوى في الممرات ، والدَّرَج الضيق المتعرج الذي يؤدي إلى مختلف الشرفات ومعاقل الدفاع ، وكانت أصوات الفرسان تسمع وهم ينفثون روح الشجاعة في قلوب الرجال ، أو يوجهون وسائل الدفاع أو الأصوات الصاخبة لأولئك الذين كانوا ينادونهم في غالب الأحيان . ورغم ما كان لتلك الأصوات من هول ، إلا أن الحدث الرهيب الذي تنبأ به كان أشد هولاً ، ومع هذا فقد كان يخالط ذهن ريبكا المرهف ، جلال استطاع أن يحس به حتى في لحظة الرعب هذه . استضاءت عيناها على الرغم من أن الدماء قد غاضت من وجنتيها ، وكان بخالجها مزيج عارم من الخوف والشعور القامر برهبة الموقف ، وهي لا تكف عن المهمة إلى نفسها ومخاطبة رفيقها معا ، بالنص المقدس ، الكنانة تثور - الرمح اللامع والدرع - صوت القواد والصراخ ، ولكن أيقانهم كان كجواد الحرب الذي ورد ذكره في هذا السفر الجليل ، يتحرق من الضيق لعجزه ، ومن رغبته الجارفة في الاشتراك في القتال الذي كانت تلك الأصوات نذيراً به فقال :

- ليتني أستطيع أن أتحمّل على نفسي إلى تلك النافذة ، فأستطيع أن أرى كيف سيجري هذا العمل الباسل . آه لو كان معي قوس أرمى به سهماً ، أو بطلّة حربية لأضرب ولو ضربة واحدة من أجل خلاصنا ! بالأسف ! لقد أصبحت لا حول لي ولا قوة ولا سلاح على السواء . فقالت ريبكا :

- لا يستبدن بك القلق أيها الفارس النبيل . لقد توقفت الأصوات فجأة ، ومن المحتمل أنهم ليسوا في لقاء . فقال ويلفريد في ضيق :

— « أنت لا تعرفين عن أفانين القتال شيئاً — إن هذا الكون المطلق يدل على أن الرجال قد اتخذوا أماكنهم على الأسوار ، وأنهم في انتظار هجوم عاجل . إن ماسمعناه ليس إلا المهمة القصية للعاصفة ، وسوف تنطلق عما قليل بكل حيثائها . ليتنى أستطيع الوصول إلى تلك النافذة ! » فقالت المريضة :

— « ستلحق بنفسك الأذى لو حاولت ذلك أيها الفارسي النبيل ، . وعندما قرأت على وجه اللففة الشديدة أضافت بثبات : « سأقف أنا بنفسى عند النافذة الزجاجية ، وأصف لك قدر استطاعتي ما يدور في الخارج ، . فقا أيفانهو في دهشة :

— « لا ، لا تفعل ، يجب ألا تفعل ! إن كل نافذة وكل كوة ستكون عما قليل هدفا للرماة . إن سمها طائشا . . . ، فهممت ربيكا وهي تصعد درجتين أو ثلاثا تؤدي إلى النافذة التي تحدثنا عنها : « سألتفاه على الرحب . فقال أيفانهو :

— « ربيكا ، عزيزتى ربيكا ، إن هذا ليس بسلوى فتاة ، لا تعرضى نفسك للجراح والموت فتجعلنى شقياً إلى الأبد ، لأنى كنت السبب فى ذلك . اتخذى على الأقل من هذا الدرع العتيق حى لك ، واعمل على ألا يدو من جسدك بالنافذة إلا ما تدعو الضرورة إليه . فانصاعت لأمره بسرعة عجيبة ، وبعد أن كفلت لنفسها الوقاية بوضع هذا الدرع القديم قبالة الجزء الأسفل من النافذة ، استطاعت ربيكا وهي آمنة إلى حد ما أن تشهد طرفاً مما كان يجرى خارج القصر ، وتنبى إلى أيفانهو بالاستعدادات التي كان المهاجمون يعدونها انتظاراً للعاصفة . حقا لقد كان الموضع الذي اتخذته ملائماً كل الملاممة لغرضها ، لأنها وهي فى وضعها هذا فى زاوية من البناء الرئيسى ، لم تكن لتستطيع رؤية ما يدور خارج حدود القصر لحسب ، بل كانت تشرف أيضا على مكان التحصين الخارجى الذي يحتمل أن يكون



الهدف الأول للهجوم المدبر . لم يكن هذا التحصين الخارجى شديد الارتفاع أو قوى البنيان ، وإنما قصده أن يكون وقاء للباب الخلقى الذى أخرج فرونديبيف منه سيدريك منذ حين ، وكان خندق القصر يفصل هذا النوع من الحصون الامامية عن باقى الحصن كى يكون من اليسير قطع ماينه وبين المبنى الرئيسى من اتصال إذا ماسقط فى يد العدو ، وذلك برفع الكوبرى، المؤقت . كان هناك أمام هذا الخفر الامامى مركز دفاعى فى مواجهة باب القصر ، وكان كل ذلك محاطا بسور قوى ، واستطاعت ريبكا أن تلاحظ من عدد الرجال الذين نيط بهم الدفاع عن هذا الموقع ، أن المحاصرين كانوا يخشون على سلامته ، وأدركت بوضوح من تجمع المهاجمين فى اتجاه يكاد يكون مقابلا للمركز الخارجى : أن الاختيار قد وقع عليه كى يكون هدفا للهجوم يمكن التغلب عليه . أدلت لايفانهاو بهذه الظواهر على عجل ثم أضافت :

— د بيدولى أن الرماة قد اصطفوا على حدود الغابة ، مع أنه لم يتقدم من ثايا ظلها الداكنة إلا القليل . . فسألها أيفانهاو :  
— د تحت أى علم يتقدمون ؟ . فأجابت ريبكا :  
— د لاني لا أستطيع أن أتبين أى رمز من رموز الحرب ، . فنتمتم الفارس قائلا :

— د إنها لبدعة غريبة أن يتقدموا للانقضاض على مثل هذا القصر دون أن يرفعوا راية أو علماً ظاهراً . أترين من منهم يبدوون قواداً لهم ؟ . . .  
فأجابت اليهودية :

— إن أكثرهم وضوحاً فارس يرتدى درعاً أسود ، وهو وحده يتمنطق بالدروع من قبة الرأس إلى أخمص القدم ، وتبدو عليه دلائل السيطرة على كل من حوله . . .

فقالو أيفانهاو :

— د أى شعار يحمل فوق دروعه ؟ ، فأجابت :

« أرى شيئاً كقضيب من حديد وقفلاً مرسومين باللون الأزرق على الدرع الأسود . فقال أيفانهو :

« قفل وقيد باللون الأزرق ؟ إني لا أعرف حامل هذا الشعار ، ولكنني أعتقد أنه قد يكون شـمارى الحالى . ألا تستطيعين رؤية نص الشعار ؟ » . فأجابت ريبكا :

« إني لا أكاد أتبين الشعار نفسه على هذا البعد ، ولكن عندما تعكس الشمس وميضها على درعه ، فإنه يبدو كما أخبرتك » . فقال السائل اللهم متعجباً :

« أليس هناك قواد آخرون ؟ » فأجابت :

« لست ألتح من هذا الموضع من يبدو أنه ذو مقام أو مكانة ، ولكن بما لا ريب فيه أنهم يهاجمون الجانب الآخر من القصر أيضاً . يبدو لي الآن أنهم قد تاهبوا للتقدم - أضرع إليك يا إله صهيون أن تسبغ علينا حمايتك يا له من منظر مروع ! إن أولئك الذين يتقدمون الصفوف يحملون دروعاً ضخمة وواقبات مصنوعة من ألواح خشبية ، يتبعهم الآخرون وهم يشدون أقواسهم في أثناء تقدمهم - ها هم أولاء يرفعونها - ترفق بعبادك يا إله موسى ، وجأة قطعت عليها مرائبها وابتهاالاتها إشارة انقضاض صدرت من النفير المدوى، أجابتها على الفور أصوات الأبواق النورماندية من فوق الاسوار، التي اختلطت برنين دقات الطبول العميقة المدوية لترد بأنغام التحدى على استهانة العدو، وكانت صرخات الجانبين تزيد من الطنين الخفيف، والمهاجمون يصرخون قائلين « القديس جورج مع انجلترا البهيجة ، والنورمانديون يجيبونهم بصيحات عالية » إلى الامام يا دى براسى ! المعبد ! المعبد ! فرونديبيف آت للنجدة ! ، إلى غير هذا من صرخات الحرب الخاصة بقوادهم المختلفين . ومع ذلك فما كان مصير المعركة ليتقرر بالضجيج فقط،

ولذلك فقد واجهت جهود المهاجمين المستيثة دفاعاً بنفس العنف من جانب المحاصرين ، وكان رماة القوس المدربون في أوقات فراغهم بالغابة على أعلى مراتب الدراية في استعمال القوس الطويل ، فكانوا يطلقون سهامهم طبقاً لأسلوب ذلك العصر ، الجميع معاً ، حتى ما كان ليفلت من سهامهم أى جزء من جسد أحد المدافعين .

هذا الوابل الثقيل المنهمر ، على الرغم من أن كل سهم كان يسدد نحو هدفه الخاص ، وأن السهام كانت تتطاير معاً في جماعات صوب كل ثغرة أو فتحة في الأسوار ، وكل نافذة يقف عندها أحد المدافعين أو من المحتمل أن يكون واقفاً عندها، على الرغم من هذا السيل المتدفق ، لم يقتل إلا اثنين أو ثلاثة من الحامية وأصيب عدد آخر بجراح ، ولكن أتباع فروندييف وحلفاءه الوثائقين من قوة دروعهم ، ومن الوقاية التي تكفلها لهم مراكمهم ، قد أظهروا صلابة في الدفاع تتلاءم مع عنف الهجوم ، وردوا بوابل من سهام أقواس نباهم الكبيرة ومن أحجار المقاليع ، وغيرها من القذائف على السهام المتلاحقة المنهمرة ، ولما كان المهاجمون بطبيعة موقفهم أقل احتماً ، فقد ألحق بهم المدافعون من الدمار أكثر مما حل بهم ، ولم يكن ليقطع أزيز السهام والمقذوفات من كلا الجانبين إلا الصيحات التي كانت تملأ عندما يُلحق أحد الفريقين بالآخر خسارة ملبوسة ، أو يحل به مضرتين . قال أيفانوف :

— هأنذا مُكره على الاستلقاء هنا كراهب طريح الفراش ، بينما القتال الذي يهينى الخلاص أو الموت تدور رحاه في الخارج بأيدي آخرين ! انظري من النافذة مرة أخرى أيتها الفتاة ، ولكن حذار من أن يتخذ منك الرماة المرابطون في أسفل هدفاً لهم — انظري مرة أخرى وخبريني عما إذا كانوا لا يزالون يتقدمون .

عادت ربيكا وانخذت لها عند النافذة مكانا بشجاعة طويلة الأناة ،  
زادتها قوة وإيمانا تلك الفترة التي قضتها في ابتهاج خفى ، ولكنها مع ذلك  
قد وقت نفسها من أن تُثرى من أسفل ، فسألها الفارس الجريح مرة أخرى :  
- ماذا تريد يا ربيكا ؟ .

- إني لا أرى شيئا إلا سحابة كثيفة من السهام تخطف بصرى ،  
وتخفى عن عيني أولئك الرماة الذين يطلقونها . فقال أيفانهو :

- إن هذا لن يبقى طويلا . إذا لم يبذلوا جهداً سريعاً لاكتساح  
القصر بقوة السلاح الخالصة ، فإن الرماية بالقوس لن تجدى إلا قليلا  
ضد الجدران الحجرية والأسوار . تبيّثنى فارس القفل ، يا ربيكا الجميلة  
وانظري كيف تجري الأمور معه ، فكما يكون القائد ، يكون رجاله .  
فقالت ربيكا :

- إني لا أراه . فصرخ أيفانهو قائلاً :

- يا له من نذل دنس ! أيجزم عن الإمساك بدفة السفينة عندما  
تكون الرياح على أشدها هبوباً ؟ . فقالت ربيكا :

- إنه لا يتقاسم ! إنه لا يتقاسم ! ها أنذا أراه الآن ! إنه يتولى قيادة  
جمع من الرجال يقتربون من الحواجز الخارجى للحصن الأمامى - ها هم هؤلاء  
يحطمون الأحجار ويهدمون الأسوار - إنهم يدمرون الحواجز بالفتوس -  
إنريشته السوداء العالية تسبح فوق الزحام كغراب يحوم فوق ميدان تجرى  
فيه الدماء أنهاراً - لقد أحدثوا ثغرة في الحواجز - ها هم هؤلاء يندفعون  
في ثناياها - لقد سبق بهم إلى الخلف - فرونديبيف يقود المدافعين -  
أرى جسده المارءد فوق الجمع - ها أنذا أبصر بهم يتزاحمون مرة أخرى نحو  
الثغرة ، ويتنازعون الممر بدأ ليدور رجلا لرجل - يا إله يعقوب ! إنه

لقاء موجتين عارمتين - صراع بين محيطين هادرين تحركهما رياح عكسية ا ، ثم أدارت رأسها من الزايفة وكأنها غير قادرة على احتمال مثل هذه المرائى المروعة إلى أكثر من ذلك ، فقال أيفانهو وقد أخطأ تأويل الباعث على تراجعها :

- « انظري إلى الامام مرة أخرى يا ريكا ، لا بد وأن الرماية بالقوس قد توقفت الآن إلى حد ما ، ماداموا يتقاتلون بدأ بيد . انظري ثانية . إن الخطر قد تضاعف الآن . نظرت ريكا إلى الامام مرة أخرى وقالت :

- « بالانبياء الناموس المقدسين ا إن فرونديبيف والفارس الأسود يقتلان بدأ بيد عند الثغرة بين زئير أتباعهما الذين يرقبون سير القتال - إن السماء تضرب إلى جانب المضطهدين والأسرى ا ثم انطلقت منها صرخة حادة وقالت : « لقد سقط أرضا ا لقد سقط أرضا ا ، فصرخ أيفانهو بشدة قائلاً :

- « من منهما الذى سقط ؟ ، فأجابت ريكا بصوت واهن :

- « الفارس الأسود . ولكننا لم تلبث أن عادت فصرخت بلهفة فرحة . ولكن لا ! ولكن لا ا طوبى لرب القرايين ا لقد نهض على قدميه مرة أخرى اها هو ذا يتأتل وكأن قوة ذراعه المفرد تضارع قوى عشرين رجلاً - لقد تحطم سيفه - هاهو ذا يختطف بلطة من أحد الجنود ، وينقض على فرونديبيف ويكيل له الضربة تلو الضربة - إن العملاق ينحن ويتهاوى كشجرة البلوط تحت سلاح الخطاب ! إنه يقع ا لأنه يقع ا ، فبالها أيفانهو متعجباً :

- « فرونديبيف ؟ ، فأجابت اليهودية :

- « نعم فرونديبيف ا إن رجاله يتدافعون لإنقاذه يقودهم فارس المعبد المتعالى ا زن قوتهم الجماعية تسوق البطل إلى التوقف . إنهم يجذبون فرونديبيف إلى داخل الأسوار . فقال أيفانهو :

- ولقد سيطر المهاجمون على الجواجز ، أليس كذلك ؟ ، فأجابت ريبكا :

- ولقد فعلوا - لقد فعلوا - لقد فعلوا . هاهم أولاء يسوقون المحاصرين بقوة فوق السور الخارجى ، بعضهم يثبتون السلم ، وبعضهم الآخر يتكاثفون كالنحل ، ويحاولون الارتقاء على أكتاف بعضهم البعض - هاهى تى الأحجار والعارضات الخشبية وجذوع الأشجار تنساقط فوق رؤسهم ، وعندما يحملون من أصيوا إلى المؤخرة ، يحل محلهم فى الهجوم رجال جدد . يا إلهى العظيم ! هل منحت الرجال صورتك كى تشوه على هذا النحو بأيدى إخوانهم ! ، فقال أيفانهو :

- لا تشغلى البال بهذه الأشياء فليس هذا أوانها . خبرينى أى الفريقين يرتد وأيها يشق طريقه ؟ ، فأجابت ريبكا وهى ترتجف :

- ولقد ألقوا بالسلم أرضا فاعتصر الجنود من تحته كالزواحف المحطمة - إن المحاصرين يتفوقون على المهاجمين . ، فقال الفارس :

- ليضرب القديس جورج من أجلنا ! هل تراجع رجال الغابات الأفاتين ؟ ، فقالت ريبكا :

- كلا ! إنهم يقومون بأعمال بأسلة . الفارس الأسود يقرب من الباب الخلقى حاملا بطلته - إنك تستطيع أن تسمع الضربات التى تدوى كقصف الرعد وهو يكيلها ، والتى تعلق على ضجيج المعركة وصخبها - الأحجار والعارضات الخشبية تنساقط كالمطر المتون على البطل الجسور ، وهو لا يابه بها وكأنها زغب أورياش . .

فقال أيفانهو وهو يتحامل على نفسه فوق مضجعه فى نشوة فرحة :

- وأقسم بالقديس يوحنا قديس مدينة عكا على أنى أعتقد بأنه ليس

هناك في إنجلترا بأمرها إلا رجل واحدا يقوى على القيام بهذا العمل اء .  
فاسترسلت ريكا قائلة :

— « إن الباب الخلفى يهتز — لأنه يتحطم — لقد دمرته ضرباته —  
أراهم يتدافعون إلى الداخل — لقد استولوا على الحصن الخارجى . يا إلهى  
لأنهم يلقون بالمدافعين من فوق الأسوار — إنهم يقذفون بهم فى الخندق  
أيها الجنود ، إن كنتم رجالا حقاً فأبقوا على حياة من باتوا عاجزين عن  
الصمود أمامكم . » فقال إيفانهو :

— « الكوبرى ا الكوبرى الموصل إلى القصر ا هل استولوا على  
ذلك المعبر ؟ » فأجابت ريكا :

— « كلا ، لقد حطم فارس المعبد العارضة الخشبية التى عبروا عليها —  
لقد أدبر معه قليل من المدافعين إلى داخل القصر — إن الصرخات  
والصيحات التى تسمعها تنبئ عن مصير الآخرين — والأسفاه ا أرى أن  
النظر إلى النصر ، أشد هولاً من النظر إلى المعركة . » فقال إيفانهو :

— « ماذا يفعلون الآن يا فتاة ؟ انظرى إلى الأمام مرة أخرى —  
ليس هذا وقت الإغماء لم رأى الدماء . » فأجابت ريكا :

— « لقد انتهى الآن كل شيء . إن أصدقاءنا يعملون على تقوية أنفسهم  
من داخل المركز الخارجى الحصين الذى استولوا عليه ، وهو يكفل لهم  
حماية فعالة من سهام العدو ، ولذا فإن حامية القصر لا تصوب إليه إلا  
القليل من القذائف بين الفينة والفينة ، وكأنهم بذلك يريدون أن يبعثوا  
القلق فيهم أكثر من أن يلحقوا بهم ضرراً . » فقال ويلفريد :

— « حقاً إن أصدقاءنا لن يتخلوا عن مهمة بدأت بنيل هذا العمل  
الجيد ، وانتهت بنيل هذا الحظ السعيد . أوه ، كلا ، سأضع ثقى كاملة

في الفارس البطل الذي حطمت ببطته خشب البلوط والقضبان الحديدية، ثم مهمم مرة أخرى إلى نفسه : « إنه لعجيب أن يقوى اثنان على القيام بمثل هذا العمل الخارق ! قفل وقيد حديدي على لوحة سوداء ماذا يعني ذلك ؟ - ألا ترين شيئاً آخر ياربىكا تستطيعين معه تمييز الفارس الأسود ؟ » فأجابت ربيكا :

« - إني لا أرى شيئاً ، كل ما فيه أسود كجناح غراب الليل . إني لا أرى شيئاً أكثر من ذلك أستطيع أن أميزه به ، ولكن بما أني رأيته مرة وهو يدفع بقوته في المعركة ، فأظن أني أستطيع أن أعرفه من بين ألف محارب . إنه يندفع إلى القتال وكأنه مدعو إلى وليمة . هناك ما هو أكثر من قوة الجسد . يبدو لي وكأن حياة البطل وروحه قد تركزتا في كل ضربة يكيلها لأعدائه . ليغفر الله له خطيئة إراقة الدماء ! إنه لشيء مروع ، ومع ذلك فهو شيء رائع أن ترى كيف أن ذراع رجل واحد وقلبه يستطيعان قهر المئات . » فقال أيفانهو .

« - لقد وصفت بطلاً ياربىكا . حقا إنهم يأخذون قسطاً من الراحة ليستجمعوا قواهم ، أو ليعدوا وسيلة يعبرون بها الخندق تحت إمرة قائد بمثل ما تحدثت عن هذا الفارس من سجايا . ليس هناك من يخاف مبعثها الجبن ، ولا تواني عن عمد ، ولا تهاون في غنيمته اكتسبت ببسالة طالما أن الصعاب التي جعلتها عسيرة المنال ، قد جعلتها مجيدة أيضاً . أقسم بشرف أسرتي ، أقسم باسم السيدة الجميلة التي أحبها على أنني أرحب بسجن عشر سنوات في سبيل القتال يوماً واحداً إلى جوار ذلك الفارس المغوار في معركة كهذه . » فقالت ربيكا وهي تغادر مكانها عند النافذة وتقرب من مضجع الفارس الجريح :

« - وأسفاه ! إن لهذه اللفظة القلقة على العمل ، وذلك الصراع والضجر من ضعفك الراهن ، سيديشان إلى صحتك المتماثلة للشفاء . كيف تهفو إلى



إصابة الآخرين بالجراح قبل برئك من تلك التي ابتليت بها ؟ ، فأجاب :

— « إنك لا تعرفين ياريككم هو شاق على رجل مدرب على أعمال الفروسية أن يبقى سلبياً كأحد القساوسة ، أو مستكيناً كأثني ، بينما يقوم غيره بأعمال البطولة من حوله . إن حب القتال هو الغذاء الذي نحيا به ، وغبرة المعركة هي الهواء الذي نستنشقه . إننا لانحيا به ، ولا نرغب في أن نحيا إلى أطول من الوقت الذي تال فيه الظفر وينبع صيتنا . هذه أيتها الفتاة هي قوانين الفروسية التي أقسمنا عليها ، والتي نقدم أعز ما نملك قرباناً لها ، فقالت اليهودية الحسنة :

« واأسفاه ! وماذا تكون أيها الفارس الباسل إلا أنها التضحية من أجل غرور العظمة ، واختراق النار إلى الجحيم ؟ ما الذي يتبقى جزاء وفاقاً لك عن كل الدم الذي أرقته ، والعناء الذي قاسيته ، والألم الذي بلوته ، وكل الدموع التي أسالتها فعالك ، عندما يحطم الموت رح الرجل القوي ، ويسبق جواد حربه في سرعته ؟ ، فقال أيفانهو :

— « ماذا يتبقى ؟ ! المجد يا فتاة ! المجد الذي يطعم بالذهب قبورنا ويخلد أسماءنا . فاسترسلت ربيكا :

— « المجد ؟ واأسفاه ! إنه سترة الزرد الصدئة التي تندلى كندير على باب القبر المظلم العفر الذي يثوى فيه البطل — إنها الكتابة المشوهة المدونة على الرمس التي لا يستطيع الراهب الجاهل أن يقرأها للزائر المستفسر إلا بمشقة — أتلك مكافآت لها ووزنها مقابل التضحية بكل محبة كريمة ، وحياة تمضيها في التعاسة كي تجعل من الآخرين تعساء ؟ أم هل هناك سحر في القوافي الجافة لمنشد جائل ، حتى إنك تضحي بالحنان الأسرى ، والعاطفة النبيلة ، والسلام والهناء ، كي تصبح بطلا لتلك

الملحمة التي يغنيها المنشدون المشردون للأوغاد الثملين في أثناء تناولهم جمعة المساء ؟ ، فأجاب الفارس في ضيق :

— « أقسم بروح هيرورد على أنك يا فتاة تنطقين بما لا تعرفين . أتريدين أن تطفئي شعلة الفروسية الطاهرة وهي وحدها القادرة على التمييز بين النبيل والوضيع ، وبين الفارس الرقيق والوغد المتوحش ؟ إنها هي التي تسو بحياتنا عالياً فوق ذروة شرفنا ، وتعلو بنا منتصرين على الألم والعناء والعذاب ، وتعلمنا كيف لانخشي المكاره ماعدا العار . إنك لست مسيحية ياريكا ، ولا تعرفين المشاعر الرفيعة التي تتلاطم في صدر فتاة نبيلة عندما يقوم حبيبها بعمل فيه إقدام يزكى به لهيب غرامه . الفروسية ! لماذا أيتها الفتاة ؟ إنها منبع المحبة النقية السامية . إنها دعامة المغلوبين على أمرهم ، ومقومة الظلم ، والعنان الذي يكبح جماح قوة الطاغية . إن النبيل بدونها يصبح مجرد اسم أجوف . إن الحرية تجد أحسن حماية لها في رحمها وسيفها ، فقالت ريكا :

— « لقد نشأت حقاً من شعب تميزت شجاعته بالدفاع عن وطنه ، ولكنهم مع ذلك لم يخوضوا غمار حرب حتى وعندما كانوا دولة إلا بأمر من الرب ، أو دفاعاً عن وطنهم ضد الغزو . إن دقائق الطبول ما عادت توقظ قبائل يهوذا بعد اليوم ، وأصبح الآن أبناؤها المزدرون فرائس مستكينة للاضطهاد العدائي والعسكري . لقد أصبت فيما قلت ياسيدى الفارس — وإلى أن يقيض إله يعقوب لشعبه « جدعوننا ، آخر أو « مكايوساً ، جديداً ، فإنه لا يليق بعذراء يهودية أن تتحدث عن معركة أو حرب » . وأنهت الفتاة الحصيفة هذا الجدل بلمحة فيها أسى تنم بعمق عن شعورها بضعة قومها ، وربما تكون قد أحست بالوجيعة ، لأن أيفانهو قد اعتبرها غير جديرة بأن تزج بنفسها في أمور الشرف ، وبأنها غير قادرة على الإحساس أو التعبير عن مشاعر النخوة والشهامة ، فقالت لنفسها :

وما أقل معرفته بهذا الصدر فيطوف بفكره أن الجبن وضعة النفس ،  
لا بد وان يكونا راسخين في حناياه ، ذلك لأنى انتقدت فروسية النصارى  
الخيالية ا كم أضرع إلى السماء لو كان فى سفك دمي قطرة قطرة خلاص  
ليهوذا من قيده وعبوديته ا كلا ، وددت من الله لو أن فيه خلاصاً لأنى  
ولمن أحسن إليه من أغلال الطاغية ا سيلس المسيحى المتكبر عندئذ ما إذا  
كانت ابنة صهيون ستجترى ، على لقاء الموت بصدر رحب كأكثر فتيات  
النصارى كبرياء ، أولئك اللواتى يفخرن بنسبن إلى أحد صفار زعماء  
القبائل من الشمال الخشن المنجمد ا ، ثم التفتت ناحية فراش الفارس  
الجريح وقالت :

- دانه بنام . إن الطبيعة التى أضفتها الآلام ، وفقدان الروح المعنوية  
كانا سببا فى أن ينتهز جسده المجد أول لحظات الهدوء المؤقت فيروح فى  
سبات . والأسفاه ا أهى جريمة أن أنظر إليه عندما يكون ذلك للمرة الأخيرة ،  
وعندما لا يمضى سوى وقت قصير حتى تصبح هذه القسمات الجميلة وقد تجردت  
من الروح الباسلة المتقدمة التى لم تتخل عنها حتى فى أثناء الهجوم ؟ ا عندما  
تمدد الخياشيم ، ويفغر الفم ، وتشخص العيون وتحتقن بالدماء ، وعندما  
يوطأ الفارس النبيل المتكبر بنمال أحط أوغاد ذلك القصر اللعين ، فإنه مع  
ذلك لا يتحرك عندما تدوسه الأقدام ا وأبى ا أو ايا أبى ا إن ابنتك ترتكب  
إثما عندما تنسى شعرك الأشيب من أجل خصلات الشباب الذهبية .  
وما يدربنى أن هذه الآثام ليست إلا رسلا تحمل غضب الإله على الابنة  
الجاحدة ، التى تفكر فى أسر الغريب قبل أسر أبيها ا إنها تنسى أتراح يهوذا  
وتمعن النظر فى وسامة مسيحي غريب ، ولكنى سأنتزع هذه الحماقة من  
فؤادى ، ولو أن كل وتر فيه سيدى وأنا أنتزعا ، . ثم التفت بوشاحها  
وجلست على مبعدة من فراش الفارس الجريح وقد أولته ظهرها وهى  
تنفث القوة فى عقلمها ، أو تحاول أن تنفثها ، لاضد الأخطار الداهمة الخارجية  
فحسب ، بل وضد تلك المشاعر الخادعة التى كانت تصارعها فى دخيلة  
نفسها أيضاً .

## الفصل الثلاثون

هيا اقرب من الغرفة وانظر إلى مخدعه ،  
إنها روح غير وادعة تمضى ،  
تحملها إلى السماء زفوات خيار الناس وعبراتهم  
بين أرق نسائم الصباح . ورطب الندى ،  
كما تطير القنبرة في الفضاء ،  
أما د آنسلم ، فيمضى على تقيض هذا .

( مسرحية قديمة )

خلال فترة الهدوء التي أعقبت الجولة الأولى والتي أحرز المهاجمون فيها نصراً ، وبينما كان أحد الفريقين يتأهب لمتابعة ظفره ، والآخر يعمل على تقوية وسائل دفاعه ، عقد فارس المعبد ودى براسى اجتماعاً قصيراً بردهة القصر للشورى فيما بينهما ، فقال ثانيهما الذى كان منوطاً به الإشراف على الدفاع عن الحصن من ناحية الأخرى :

— « أين فرونديبيف؟ يقول الرجال إنه قد قتل . » فقال فارس المعبد فى هدوء :

— « إنه حى — إنه لا يزال حياً ، ولكنه لو كان يرتدى رأس الثور الذى يحمل اسمه ، وعشر رقائق من الحديد لوقايتها ، لما كان ذلك حاصماً له من التردى تحت وطأة ضربات تلك البلطة القاتلة ، ولن تمضى ساعات قلائل حتى نوارى فرونديبيف ظلمة الرمس مع آباته . إنه عضو قوى يبتز من مشروع الأمير يوحنا . » وقال دى براسى :

- وهناك إضافة باسلة إلى مملكة الشيطان . إن هذا ناجم عن ازدرائه للقديسين والملائكة ، وإصدار أمره بإلقاء تماثيل المقدسات فوق رموس هؤلاء الأوغاد من رجال الغابات ، . فقال فارس المعبد :

- « كفى - إنك أحمق ، ثم إن معتقداتك الخرافية تفوق اغتياز فرونديبيف في دينه . كلا كما لا يستطيع تبرير إيمانه أو إلحاده . » فقال دى براسى :

- « أرجوك يا سيدى فارس المعبد أن تكون حذراً في حديثك عند ما أكون موضع هذا الحديث . أقسم بأمر السماء على أنني أكثر إغراقاً في المسيحية منك ، ومن هم على شاكتك . إن الشائعات تسرى حيثة بأن طائفة نظام معبد أورشليم المفرقة في القداسة تضم بين جنباتها عدداً غير قليل من المهزطقين ، وأن سير بريان دى بواجيلبرت ليس إلا واحداً منهم . » فقال فارس المعبد :

- « لا تأبه بمثله هذه الشائعات ولنفكر في تحصين القصر . كيف استطاع هؤلاء الأوغاد من رجال الغابة أن يقاتلوا في الجانب الذى نيط بك الإشراف عليه ؟ » فأجاب دى براسى :

- لقد تقمصوا أرواح الشياطين وتزاحموا بالقرب من الأسوار ، وأغلب الظن عندى أن ذلك الوغد الذى فاز بجائزة الرماية بالقوس كان على رأسهم . وقد عرفت بوقه والحامل المدلى من كتفه ، وهذه هى سياسة فيتزيرس العجوز التى يباهى بها ، ألا وهى بث روح الشجاعة فى قلوب هؤلاء الأوغاد الأذنباء كي يثوروا ضدنا ، ولو لم تكن دروعى قوية لأصابنى الوغد سبع مرات دون وازع من ضميره وكأنى أحد ذكور الظباء فى موسم الصيد . لقد أصاب كل مسمار فى درعى بأحد سهامه الطوال التى كانت تدق ضلوعى بلا هوادة وكان عظامى قد قدت من حديد ، ولو لم أكن مرتدياً

قيصاً من الزرد الأسباني تحت سترة دروعي ، لكنت الآن في عداد الموتى .  
فقال فارس المعبد :

- ولكنك ظلت صامداً في مكانك . لقد فقدنا الحصن  
الخارجي . فقال دى براسي :

- إنها الخسارة فادحة ، سيجد الأوغاد الحماية فيه والانتفاض على  
القصر من مسافة أكثر قرباً ، ويستطيعون الاستيلاء على مخفر بغير  
حراسة في أحد الأبراج ، أو على نافذة مهمة إذا لم نشدد الرقابة عليهم ،  
وهكذا ينفذون إلينا وفينا . إن عددنا قليل لا يفي بالدفاع عن كل نقطة ،  
والرجال يجارون بالشكوى من أنهم غير قادرين على إظهار أنفسهم ،  
وإلا أصبحوا هدفاً لعدد وفير من السهام كشموع الأبروشية في ليلة عيد .  
أضف إلى ذلك أن فرونديب يفلف أنفاسه الأخيرة ، وبذلك لن نتلقى  
المزيد من العون من رأسه الذي يحمل شعار رأس الثور وقوته الخارقة .  
ماذا ترى يا سير بريان ؟ ألا يجمل بنا أن نجعل من الضرورة فضيلة ،  
فنتفق مع الأوغاد على تسليم أسرانا ، ؟ فقال فارس المعبد دهشاً :

- كيف ذلك ؟ نسلم أسرانا ونصبح موضع سخرية وازدراء لأننا  
ونحن المحاربين الشدادة قد اجترأنا على الاستيلاء في هجوم يلي على جماعة  
من المسافرين العزل ، ومع هذا فليس في مقدورنا الدفاع عن قصر منبع  
ضد عصابة من المشردين الخارجين على القانون ، يقودهم رعاة الخنازير  
والمرجون وحشالة الجنس البشري ؟ يا للعار لمشورتك يا موريس  
دى براسي ! سيدفن جسدي وعاري معاً تحت أطلال هذا القصر قبل أن  
أرضى بمثل هذا الاتفاق المهين الذي يمس الشرف ويجرح الكرامة .  
فقال دى براسي بغير مبالاة :

- فلنذهب إلى الأسوار إذن ، فليس هناك من رجل سواء أكان

تركيا أم من فرسان المعبد من هو أكثر استخفافا بالحياة مني ، وإني لوائق من أنه ، ليس على جناح لو وددت في أن يكون معي أربعون رجلا من فرقتي الباسلة ، الرفاق الأحرار ، . آه لو تعلمون يا رجالى البواسل ما فيه قائدكم اليوم من مازق دقيق ، لرأيتم كيف يخفق علمى فوق رماحكم عما قليل ، وما أقصر الوقت الذى يصمد فيه هؤلاء الأوغاد خثالة القوم لقتالكم ، . فقال فارس المعبد :

- . اسبح في أمانيك بمجى من تشاء ، ولكن ليس لدينا الآن إلا أن نعمل قدر استطاعتنا لإقامة دفاع بما تبقى لدينا من جنود . إن الغالية المطلقة منهم من أتباع فروندييف الذين يبغضهم الإنجليز من جراء ألف عمل من أعمال العنف والظلم ، . فقال دى برامى :

- . إن هذا أفضل لأن هؤلاء العبيد الغلاظ سيدافعون عن أنفسهم حتى آخر قطرة من دماهم ، قبل أن يلاحقهم انتقام الفلاحين في الخارج . فلنهنض ولنعمل إذن يا بريان دى بواجبلبرت ، وسواء كتب علينا الموت أم قدر لنا أن نعيش ، فسترى أن موريس دى برامى سيعمل اليوم كرجل نبيل عراقه ودماً ، . فقال فارس المعبد :

- . إلى الأسوار ، .

تسلقا الأسوار معاً ليعمل كل بما تمليه عليه المهارة ، وما تستطيع الرجولة الحققة أن تقوم به دفاعاً عن المكان ، واتفق رأيهما سريعاً على أن أشد النقاط خطراً هي تلك التي تواجه الحصن الخارجى الذى استولى عليه المهاجمون .

كان الخندق حقيقة يفصل بين الحصن والقصر ، وكان من المحال على المهاجمين أن ينقضوا على الباب الخلقى الذى يصل إلى الحصن دون أن يتغلبوا على هذه العقبة ، ولكن فارس المعبد ودى برامى كليهما كانا يريان أنه

لوسيق بالمهاجمين إلى أن ينتهجوا نفس الخطة التي سبق لقائدهم أن انتهجها ، فإنهم سيسعون إلى شن هجوم عاصف عارم كي يجتذبوا الجزء الأكبر من انتباه المدافعين إلى هذا الموضع ، ثم يتخذون الخطوات التي تعينهم على الاستفادة من أى تراخ قد يقع فى أى مكان آخر من مواطن الدفاع . واتقاء لهذا الضرر ، ونظراً إلى أنهم قليلو العدد ، فإن الفارسين لم يجدا سيلا إلا أن يضا حراسا بين مرحلة قصيرة وأخرى على طول الأسوار ، على أن يكون كل واحد منهم على اتصال بالآخر ليحذره فى حالة أى إنذار بالخطر ، واتفقا فى أثناء ذلك على أن يتولى دى براسى الدفاع عن الباب الخلقى ، وأن يحتفظ فارس المعبد معه بعشرين رجلا أويزيد كقوة احتياطية ، تقوم بالنجدة لأية نقطة أخرى قد تتعرض لتهديد مفاجئ . كان من الآثار السيئة لسقوط الحصن ، أن المحاصرين لم يستطيعوا أن يتبينوا تماما عمليات العدو من أسوار القصر رغم ارتفاعها الشاهق ، لأن بعض الأشجار كانت ملقاة على الطرق القريبة من باب الحصن الخارجى حتى أصبح من اليسير على المهاجمين أن يحشدوا فيه أية قوة تروق لهم ، لا من وراء ستار تلك الأخشاب فحسب ، بل وحتى دون أن يفتن المدافعون إلى ذلك ، وبذا فإن دى براسى ورفيقه - بما أنهما كانا غير واثقين تمام الثقة من المكان الذى ستعصف منه العاصفة - كانا مسوقين إلى أن يعدا العدة لتلافي جميع الاحتمالات ، ولكن أتباعهما - رغم بسالتهم - كانوا يحسون باكتئاب ذهنى قلق ، لأنهم محاصرون بأعداء يملكون القدرة على اختبار وقت الهجوم وطريقته .

فى تلك الأثناء ، كان سيد القصر المحاصر الذى تحدى به الأخطار ، مستلقيا على فراش من ألم الجسد وعذاب الفكر ، ولم يكن يمتلك المنبع العادى للتمسكين بأهداب الدين فى ذلك العصر الزاخر بالخرافات ، الذين عتادوا أكثرهم على التكفير عن السوات التى يرتكبونها ببذل العطاء السخى



للكنيسة ، باعثن السكينة في أنفسهم بطلب التوبة والمغفرة عن هذا السبيل ، وعلى الرغم من أن تلك السكينة المشتراة هكذا بالمال ليست شبيهة براحة البال التي تعقب التوبة الصادقة، إلا أنها كالتخدير الحسى الناتج عن تناول الأفيون الذي يشبه النوم الصحى العادى — ومع ذلك فقد كانت تلك الحالة الفكرية أفضل من عذاب الضمير اليقظ ، ولكن كان من بين نقائص فروندييف العديدة — وهو الرجل القاسى النهم — أن رذيلة البخل كانت تسيطر عليه ، وكان يؤثر تحدى الكنيسة ورجالها على أن يشتري منهم الصفح والغفران بالمال والقصور . أما فارس المعبد وهو ملحد من طراز آخر ، فإنه لم يصف رفيقه وصفاً دقيقاً حين قال إن فروندييف لا يستطيع أن يقدم مبرراً لإلحاده وازدرائه للعقيدة المقررة ، لأن المالك كان يزعم أن الكنيسة تبيع سلعها غالية ، وأن الحرية الروحية التي تعرضها للبيع لا يمكن شراؤها إلا « بمبلغ باهظ ، وكأنها حرية رئيس قواديت المقدس ، وكان فروندييف يرى أن إنكار فائدة الدواء أفضل من دفع أجر الطبيب .

الآن حان الوقت الذى بدت فيه الأرض وما فيها من كنوز تتلاشى من عينيه ، وبدأ قلب المالك الفظ على الرغم من صلابته وكأنه حجر الرعى ، يشعر بالهول والرعب كلما سبح بصره في ظلمات المستقبل اللانهائية ، وأشعلت حمى جسده عذاب ذهنه وقلقه ، وأبان فراش احتضاره عن مزيج من الصراع بين مشاعر الرهب الأخيرة البقطة ، وبين العناد المتأصل في طبيعته ، وإحساس مروع بعذاب الحاضر ، وشعور داخلى بأن هذا العذاب لا يمكن أن يتوقف أو يتناقص . زجر المالك قائلاً :

— « أين هم الآن أولئك القساوسة الكلاب الذين يتقاضون ثمن مهازلهم الروحية غالباً؟ أين كل أولئك الكرملين الحفاة الذين أسس فروندييف الكبير دير القديسة « أنتا » من أجلهم بعد أن سرق من مورثه أكثر من مرعى في أرض طيبة ، وأكثر من حقل خصيب وحديقة غناء؟ أين الآن تلك الكلاب النهمة؟ أراهن على أنهم الآن يحتمسون الجمعة ،

أو يقومون بالأعيب شعوذتهم إلى جوار فراش وغد حقير . وأنا وريث  
مؤسسهم - أنا من تسوقهم نظمهم إلى أن يصلوا من أجلى - أنا - يالهم  
من أوغاد جاحدين - يتركوننى هكذا أموت كالكلب الضال فى تلك  
المتاهة لا رفيق لى ولا ماوى ! قل لفارس المعبد أن يأتى إلى هنا . إنه قس  
وربما استطاع أن يفعل شيئاً ، ولكن لا ، إنه لمن الأفضل لى أن أعترف  
للشيطان من أن أعترف لبريان دى بواجيلبرت الذى لا يؤمن بالسما ولا  
بالحجيم . لقد سمعت أولئك الرجال الذين تقدمت بهم السنون يتحدثون  
عن الصلاة ، الصلاة العطوفة ، إنهم ليسوا بحاجة إلى أن يتملقوا القس  
الزائف أو إلى رشوته ، ولكن أنا - أنا لا أجرؤ .

انبعث صوت متقطع حاد النبرات كان إلى جوار مضطجعه يقول :

- « أيعبش ريجنولد فرونديبيف ليقول إن هناك مالا يجترى عليه؟ »

فى أثناء هذه المقاطعة ، سمع وجدان فرونديبيف النزاع إلى الشر وهو  
يناجى نفسه ، صوت أحد تلك الشياطين التى كانت - طبقاً للبعثات  
الخرافية الشائعة فى ذلك العصر - تحاصر مضاجع المحتضرين ، وتخير  
أفكارهم ، وتقصبهم عن تأملاتهم فى سعادة الخلود ، فارتجف وهو ينهض  
فى فراشه ، ولكنه لم يلبث أن استعاد شنات عزيمته الخائرة وقال :

- « من هناك ؟ من أنت يا من تجسر على ترديد كلماتى بنغم كنعيق  
غراب الليل ؟ اقرب هنا من فراشى حتى أستطيع أن أراك . فقال الصوت :

- « أنا ملاكك الشرير ياريجنولد فرونديبيف ، فقال الفارس المحتضر :

- « دعنى إذن أرك فى صورتك الملبوسة إن كنت شيطاناً حقاً .  
لا تظن أنى أخشاك . أقسم بالسجن الأبدى على أنى لو كنت أقوى على  
مقاومة تلك الأهوال التى تحوم حولى كما كنت أفعل مع الأخطار القاتلة .

لما استطاعت السماء أو الجحيم إن تقول إنى تقاعست عن القتال . فقال  
الصوت الذى لم يكن بشريا :

— « فكر فى خطابك پارمجنولد فرونديبيف . فكر فى التمرد وفى  
الاغتصاب وفى الدماء التى أسلتها . من ذا الذى دفع ييوحنا الفاسق إلى أن  
يحارب أباه الذى وخط المشيب رأسه ، وأخاه ذا المروءة والنخوة ؟ .  
فأجاب فرونديبيف :

— « سواء أكنت شيطانا أم قسا أم أنت إبليس نفسه ، فإنك لاتنطق  
إلا كذبا . لست أنا الذى دفع ييوحنا إلى التمرد . لم أكن وحدى ، بل كان  
معى تحسون من الفرسان وملاك الأراضى وهم زهرة المقاطعات الوسطى  
لم يحمل الرمح رجل أفضل منهم ، فهل أتحمّل وحدى وزر خمسين رجلا ؟  
إنى أتحدّك أيها الشيطان الزائف . أغرب عنى ولا تبق إلى جوار فراشى  
بعد الآن . دعنى أموت فى سلام . إن كنت إنسيا أو شيطانا فإن ساعتك  
لم تن بعد . فقال الصوت :

— « إنك لن تموت فى سلام ، وحتى فى الممات فإنك ستفكر فيما  
اقترفت من جرائم إزهاق الروح ، فى الأنات التى ردد هذا القصر صداها ،  
فى الدم الذى صبغ أرضه ! ، فقال فرونديبيف بضحكة شاحبة مفتنّبة :

— « إنك لا تستطيع أن تهز خالجة فى بدناك الوضيعة ، إنى أستحق  
المثوبة من السماء على ذلك الأسلوب الذى سلكته مع اليهودى الكافر ،  
وإلا فلماذا يعلن رجال الدين عن قداسة أولئك الذين يغمسون أيديهم فى  
دماء المسلمين ؟ ورعاة الخنازير الذين أجهزت عليهم — لقد كانوا أعداء  
وطنى ، أعداء قومى ، أعداء سيدى ومولاى . هو هو ! إنك ترى أن  
سترتى المدرعة خالية من الثقوب — هل هربت ؟ هل أصابك الخرس ؟ ،  
فأجاب الصوت :

— دكلا أيها الغادر الذي سفح دم أبيه . فكر في أيبك ا فكر في ميته ا فكر في قاعة طعامه المنخضة بدمائه التي سفكتها يد ولده ، ا وبعد وقفة طويلة قال المالك :

— دها ا بما أنك تعرف هذا فأنت حقاً مبدع الشر ومنبعه ، وعلم بكل شيء كما يسميك الرهبان ا لقد كنت أظن أن هذا السرخي في صدري و صدر شخص آخر غيرى أغرائي على ارتكاب الشر ، وكان شريكاً لي في الإثم . اذهب ودعني أيها الشيطان ا اذهب وابحث عن الساحرة الساكسونية أولريكا فإما من أحد سواها يستطيع أن يقول لك ما شهدناه أنا وهي وحدنا ا أقول لك اذهب إليها فهي التي غسلت الجراح وأصلحت من وضع الجثة ، وأضفت على القتل المظهر الخارجي لرجل مات ميتة طبيعية . اذهب إلى تلك الشمطاء الدنيئة التي أغرتني وأثارتني ثم كافأتني على هذا العمل . دعها تجرع مثلي كثوس العذاب الذي يسبق عذاب السعير ، . فقالت أولريكا وهي تخطو أمام فراش فروندييف :

— دإنها تذوق هذا العذاب حقاً . لقد شربت من هذه الكأس حتى الثمالة ، وإنه لمن بواعث التخفيف من مرارتها أني أراك الآن تشاركني في احتسائها . لا تصر على نواجذك يا فروندييف ، ولا تدر عينيك في محجرهما ، ولا تقبض يدك أو تلوح بها منذراً بوعيد ا إن تلك اليد التي كانت تستطيع أن تحطم جمجمة ثور جبلي بضربة واحدة كيد سلفك الذي ورث عنه لقبك - قد أصابها اليوم شلل ووهن كبدى ، ا فقال فروندييف :

— دأيها الشمطاء الوضيعة القاتلة ا أيتها البومة البغيضة ا ها أنت ذا قد أتيت لتبتجى فوق حظاي الذي أسهمت في تقويضها . ، فقالت :

— د نعم ياريجنولد فروندييف ، إنها أولريكا - إنها ابنة توركويل وولفانجر القليل إنها أخت أبنائه الصرعى ا إنها هي التي تطالبك وتطالب

أسرة أيبك ! أبا وقريبا ، اسما ودياع صبت ، بكل ما فقدته بسبب اسم  
فروندبيدبف ! فكر يا فروندبيدبف فيما حل بي من مآسى وما أصابني من  
أخطاء ، وأجبنى إذا لم يكن ما قلته صدقا .

لقد كنت ملاكى الشرير وسأكون لك مثل ما كنت ، وسألاحقك  
حتى تلفظ أنفاسك الأخيرة ! فقال فروندبيدبف :

- « إنك لن تشهدى أيتها المجنونة الكريمة تلك اللحظة أبداً . هو  
ياجايلز ، كليمنت أوستاس ، سانت مور ، ستيفن ، أقبضوا على تلك  
الساحرة اللعينة ، وألقوا بها من فوق الأسوار لأنها غدرت بنا وأفشت  
سرنا عند الساكسونيين . هو سانت مور ! كليمنت أيبا الأوغاد ذوو  
القلوب الزائفة ، أين تتلكأون ؟ ، فقالت العجوز بانتسامة ساخرة بثمة :

- « ناد عليهم مرة أخرى أيبا المالك الشجاع . اجمع أتباعك من  
من حولك ، وأهلب ظهور المتلكئين بالسياط ، وأودعهم السجون ، ولكن  
لتعلم أيبا الزعيم القوى . . . ، هكذا استرسلت ثم بدلت من لهجتها فجأة :  
« إنك لن تحظى منهم بأية إجابة أو عون أو طاعة . أصغ إلى هذه الأصوات  
الخفيفة ( لأن جلبة استئناف الهجوم والدفاع كانت آتتدتلو فى دوى مخيف  
من ناحية أسوار القصر ) ، سيهدم دارك بين ثنايا صيحات الحرب هذه .  
إن بناء أقامه جبروت فرندبيدبف بالدماء لا بد وأن يتهاوى من أساسه ، وأمام  
الاعداء الذين كان يزدرهم أشد الأزدراء . ها هو ذا الساكسونى باريجنولد  
الساكسونى الحقير يهاجم أسوارك ! لماذا تستلقى هنا كظبي مضى بينما يقتحم  
معقل قوتك ؟ ، فأجاب الفارس الجريح :

- « أيتها الآلهة والشياطين ! ليتنى أسترده قوتى لحظة واحدة أتحمّل فيها  
على نفسى إلى المعركة ، وألقى حتى هناك كما يلحق باسمى ! ، فقالت :

- « لا تفكر فى هذا أيبا المحارب الشجاع فإنك لن تموت ميتة جندى ،

ولكنك ستنفق كما ينفق الشعب في وكره عندما يشعل الفلاحون النيران في الأعشاب من حوله ، فقال :

— « إنك تكذابين أيتها العجوز الكريهة ، إن رجالى البواسل صامدون أمامهم ، وأسوارى صلبة عالية ، ورفاقى فى السلاح لا يرهبون جمهرة كاملة من الساكسونيين ولو كان على رأسهم «هنيجست» ، و «هورسا» ، إن صرخة الحرب التى تنبعث من فارس المعبود ، و «الرفاق الأحرار» ، تعلو على ضجيج القتال . هذا وأقسم بشرى على أننا عندما تضىء المشاعل ابتهاجا بنجاح دفاعنا ، فإن نيرانها لن تبقى عليك ولن تفر . ستفنيك لحما وعظما ، وسأعيش لأسمع أنك ذهبت من نيران الأرض إلى هب الجحيم الذى لم يرسل قط شيطاننا مجسما فى مثل شيطانيتك » : فقالت أولريكا :

— « فلتبق على اعتقادك حتى يأتبك الدليل . » ثم قالت مقاطعة نفسها « ولكن كلا ، إنك ستعرف المصير عما قليل ، ولن يستطيع كل مالك من سلطان وقوة وإقدام أن يجعلك تفلت منه ، مع أن هذه اليد الضعيفة هى التى أعدته لك . ألا ترى ذلك البخار الحار الخانق الذى يتصاعد الآن فى لفائف سوداء فى أرجاء الغرفة ؟ أو كنت تحسبها ظلمة فى عينيك الجاحظتين ، أو العسر فى أنفاسك الثقيلة ؟ كلا هناك سبب آخر يافرونديبيف ، أتذكر كمية الوقود المختزنة تحت هذه الحجرات ؟ » فقال غاضبا :

— « هل أشعلت النار فيها أيتها المرأة لقد فعلت ذلك بحق السماء وأصبح القصر طعمة للنيران » فقالت أولريكا بهدوء مخيف :

— « إنها على الأقل سترفع بسرعة ، عما قليل ستطلق الشارة لتنبيه المحاصرين كى ينقضوا فى غير رفق ولا هوادة على أولئك الذين سيكونون فى شغل بإخادها عن الهجوم . وداعا يافرونديبيف وليلتف حول فراش موتك فى المكان الذى تمنحى عنه أولريكا الآن كل من «مبستا» و «سكوجيولا» ،

و زرنيبوك ، آلهة الساكسونيين القدماء ، أو الشياطين كما يسميهم القساوسة الآن ، ولكن فلتعلم - إن كان في معرفة ذلك راحة لك - أن أولريكا مدفوعة معك إلى نفس المصير المظلم ، ستكون شريكة لك فيما ستلقى من عقاب ، كما كانت شريكة لك فيما ارتكبت من آثام . والآن وداعا إلى الأبد يا قاتل أبيه . ليجد كل حجر في أقبية هذا السقف لسانا يردد به هذا النداء في سمعك .

وبعد أن انتهت من هذا النداء ، غادرت الحجرة واستطاع فرونديبيف أن يسمع صرير المفتاح الضخم مرة ومرقة وهي تغلق الباب من خلفها ، وبهذا قطعت عليه كل أمل في النجاة ، وفي ذروة آلامه نادى على أتباعه وحافائه قائلا :

- ستيفن وسانت مور اكليمنت وجايلز إلى أحترق هنا ولا معين !  
النجدة ، النجدة يا بواجيلبرت الباسل ، يادى برابى المقدام ! إنه فرونديبيف الذى ينادى . إنه سيدكم أيها الوصفاء الخونة . حليفكم وأخوكم فى السلاح أيها الفارسان الحائشان الغادران . فلتنصب على رءوسكم الدينونة كل اللعنات التى يستحقها الخونة . أتخلون عني لأهلك هكذا فى شقاء ؟ إنهم لا يسمعوننى إنهم لا يستطيعون أن يسمعوننى - إن صوتى ضائع وسط ضجيج المعركة - إن الدخان يتكاثف شيئا فشيئا لقد أمسكت النيران بالطابق الأسفل . أواه ، من لى بنسمة واحدة من هواء السماء ولو أشتريها بالفناء العاجل ! .

وفى سورة من يأسه المجنون ، أخذ التعس بصرخ حيناً مع صرخات المحاربين ، وحيناً آخر يصب اللعنات على نفسه وعلى الجنس البشرى بأكمله وعلى الإله نفسه ثم قال :

- إن النيران الحمراء تومض من ثنايا الدخان الكثيف . إن الشيطان

يعمل ضدى تحت راية من نفس عنصره . أغربى عن وجهى أيتها الروح  
الدنسة . لن أذهب معك دون أن أصطحب رفاقى كلهم . إن كل من تضمهم  
هذه الجدران ملك لك . أيدور بخلدك أن الاختيار سيقع على فرونديبيف  
ليمضى وحده ؟ كلا ! إن فارس المعبد الكافر ودى براسى الفاسق وأولريكا  
القائلة العاهرة ، والرجال الذين وقفوا إلى جانبي فى مشروعاتى ، وأسراى  
من الكلاب الساكسونين واليهود الملاعين كلهم ، كلهم سيرافقونى . لأنهم  
صحبة طيبة فى هذا الطريق الذى يصل إلى الهاوية . ها ، ها ، ها . وأخذ  
يضحك ضحكات متغيرة ، ولم يقو صخب المعركة على أن يحول بين أصداء  
ضحكه المجنون ، وبين أن ترتد هذه الاصوات إلى أذنه فقال :

« من ذا الذى يضحك هناك ؟ من ذا الذى يضحك هناك ؟ أهى  
أنت يا أولريكا ؟ تكلمى أيتها الساحرة وأنا أعفو عنك ، فلا يستطيع أن  
يضحك فى مثل هذه اللحظة إنسان سواك ، أو شيطان الجحيم ، أغربى  
عن وجهى أغربى عن وجهى . »

إنه لمن الإلحاد أن نترسل إلى أكثر من ذلك فى تصوير اللحظات  
الآخيرة لحياة هذا الكافر قاتل أبيه .



## الفصل الحادى والثلاثون

مرة أخرى إلى الثلة بأصدقائى الأعزاء - مرة أخرى

أو سدوا ثغرات السور بموتانا من الإنجليز

وأتم أيها الجنود البواسل

يا من صنعت أعضاء أجسادكم فى إنجلترا - أرونا هنا

حمية مرعاكم - دعونا نقسم

على أنكم جديرون بنشأتكم .

( الملك هنرى الخامس )

ومع أن سيدريك لم يول رسالة أولريكا ثقة مطلقة ، إلا أنه مع ذلك لم يغفل الإفضاء إلى الفارس الأسود ولوكسلى بما وعدت ، فابتهاجا أشد البهجة لأنها ألقيا لها صديقا فى داخل المكان قد يستطيع إذا مادحت الضرورة أن ييسر لهم أمر دخوله . لم يترددوا فى الموافقة على رأى سيدريك الذى يقضى بالقيام بهجوم مها كانت المضار ، لأنه سيكون السبيل الوحيد لخلاص الأسرى الواقعين الآن فى قبضة فروندييف القاسى ، وقال سيدريك :

- إن دم الفريد الملكى فى خطر ، وقال الفارس الأسود :

- إن الخطر يحدق بشرف سيدة نبيلة ، وقال رجل الغابات الطيب :

- أقسم بالقديس كريستوفر الذى تتدلى صورته من غطاء رأسى

على أنه لو لم يكن هناك من دافع لإخلاص ذلك المهرج المسكين الوفى وامبا، لما ترددت فى أن أضحي بإحدى جوارحى قبل أن تمس شعرة واحدة من رأسه بأذى ، .

وقال الراهب :

— « وأنا أيضاً . ماذا يأسدها إلى لعل ثقة من أن أحق — أعنى اأثرون ما أعنى يأسدها ، أن أحق متحرراً من طائفة مهنته ، وسيداً في حرفته ، ويستطيع أن يضني من طيب المذاق والنكهة على كأس من النبيذ قدر ما تستطيعه أبة نخذة من لحم الخنزير — أقول أيها الإخوة إن مثل هذا المهرج لن يكون في حاجة أبداً إلى راهب كي يتسبب له ، أو يقاتل من أجله في محنة ، طالما كان في استطاعته تلاوة الصلاة أو استخدام العصا . »

وعند هذا أخذ يطوح برمحه الثقيل فوق رأسه كما يدير أحد الرعاة عصاه الصغيرة ، فقال الفارس الأسود :

— « إنك لم تقل إلا حقاً أيها الراهب المقدس — حقاً وكان القديس دونستان نفسه قد فاه به . والآن يالوكسلي الطيب ، أليس من الأفضل أن يتولى سيدريك النبيل قيادة هذا الهجوم ؟ ، فأجاب سيدريك :

— « لا أستطيع القيام بهذه المهمة أبداً لأنني لم أكن في يوم من الأيام على استعداد للدراسة وسائل الاستيلاء ، أو الدفاع عن مثل هذه المعاقل ذات القوة الجبارة التي أقامها النورمانديون في تلك الأرض التي تن من تحتهم . سأقاتل في الصفوف الأولى ، ولكن جيران الشرفاء يعلمون جيداً أني لست جندياً مدرباً على نظام الحروب ، أو مهاجمة الحصون ، . فقال لوكسلي :

— « أما الأمر كذلك فيما يتعلق بسيدريك النبيل ، فإنني راغب أشد الرغبة في أن آخذ على عاتقي مهمة قيادة الرماة بالقوس ، وتستطيعون أن تشنقوني فوق شجرة ميعادي لو تمكن المدافعون من أن يظهروا أنفسهم فوق الأسوار دون أن يغوص فيهم من السهام قدر ما يغرس في نخذة خنزير من

حبات القرنفل في عيد الميلاد ، . وقال الفارس الأسود :

- «حسنا قلت أيها الرامي القوي ، وإن كنتم ترونني جديراً بتولى إحدى هذه المهام ، واستطعت أن أجد من بين صفوف هؤلاء الرجال البواسل من يرغبون في السير وراء فارس إنجليزى حق ، فإنى زعيم بأن أسمى نفسى بهذا الاسم ، وأرحب - نظراً للبهارة التى اكتسبتها من طول تجاربي - بأن أقودهم للهجوم على هذه الأسوار ، .

وبعد أن تم توزيع المهام على القواد على هذا النحو ، بدأوا فى الهجوم الأول الذى عرف القارى<sup>٥</sup> نتيجة من قبل ، وعندما تم الاستيلاء على الحصن الخارجى ، أرسل الفارس الأسود بحالة بحالة بالحدث السعيد إلى لوكسلى ، طالبا إليه فى نفس الوقت أن يراقب القصر مراقبة دقيقة حتى لا يتسنى للدفاعيين أن يلجأوا شتات قواهم للقيام بهجوم مضاد فاجيء واستعادة الحصن الذى فقدوه . كان الفارس حريصاً كل الحرص على تفادى ذلك لعلمه بأن الرجال الذين كاه يقودهم وهم من المتطوعين الطائشين الذين لم يسبق لهم أن تدربوا على أفانين القتال ، ولم يكونوا كاملى التسليح ، ولم يعتادوا على النظام ، لا بد وأنهم - فى حالة هجوم فجأى - سيكونون مسوقين إلى القتال فى ظروف غير مواتية أمام جنود الفرسان النورمانديين المدربين ، المزودين بأقصى الأسلحة ما كان منها للدفاع أو الهجوم ، والذين سيقابلون حماس الروح المعنوية العالية للمحاصرين ، وكانوا يمتلكون الثقة النابعة من النظام التام ، والتدريب المستمر على السلاح .

انتزح الفارس تلك الفترة فأقام نوعاً من القناطر العائمة أو العائمات الخشبية الطويلة ، يحدوه الأمل فى أن يتمكن بوساطتها من عبور الخندق على الرغم من مقاومة العدو . أستنفذ هذا العمل بعض الوقت ، ولكن القواد لم يأخذهم الندم على ضياعه ، لأنه يتيح لأولربىكا الفرصة لتنفيذ خطتها فى تحويل الانتباه لصالحهم بأية وسيلة كانت .

وعندما اتهموا من صنع العائمة الخشبية نأدى الفارس الأسود على  
المحاصرين قائلاً :

— « يا أصدقائي ، لا جدوى من وراء الانتظار هنا إلى أكثر من ذلك .  
إن الشمس تميل نحو مغربها ، وعندى من المهام ما لا يتيح لي أن أتواني هنا  
معكم يوماً آخر ، وإلى جانب ذلك فلن يكون عجباً أن يفاجئنا الفرسان  
العائدون من بورك قبل أن ننتهي من بلوغ ماربنا ، ولذا فليذهب أحدكم إلى  
لو كسلي ويأمره بالبدء في إطلاق سهامه على الجانب المواجه للقصر وكأنهم  
ينتوون الانقضاء عليه ، وأتم أيها الإنجليز ذور القلوب الوفية ، عليكم  
أن تقفوا إلى جوارى ، وكونوا على استعداد لأن تدفعوا بالعائمة من طرفها  
في الخندق ، عندما يفتح الباب الخلقى من ناحيتنا . اتبعوني عبره ببسالة ،  
وأعينوني على تحطيم ذلك المنفذ البارز في الجدار الرئيسي للقصر ، وكل من  
لا يرغبون في القيام بهذا العمل ، أو لم يكونوا مسلحين تسليحاً كافياً لمواجهته ،  
فعلينهم أن يتسلقوا قمة الحصن ، ويشدوا أوتار أقواسهم حتى آذانهم ،  
ويمطروا بسهامهم كل رجل يظهر فوق الأسوار . هل ستولى ياسيدريك  
النبل قيادة باقى الرجال ؟ » .

فقال الساكسونى :

— « كلا بحق روح هيرورد ! إنى لا أستطيع قيادة الرجال ، لكن  
لتحل على لعنة الأجيال فى قبرى إن لم أسر وراء الصفوف الأمامية نحو  
الطريق الذى تشير به . إن هذه المعركة معركة ، وجديربى أن أكون  
فى خضمها بل وفى الطليعة » . قال الفارس :

— « ومع ذلك فلا تنسى أيها الساكسونى النبل أنك لا ترتدى سترة

زردية ، ولا صدرية مدرعة ، ولا أى شيء آخر سوى تلك الخوذة الرقيقة ،  
ودرع يدوى وسيف ، .

فقال سيدريك :

« إن هذا من الأفضل لى لأنى سأكون أ كثر رشاقة وقدرة على  
تسلق هذه الأسوار ، وأرجو أن تغفر لى ياسيدى الفارس ادعائى بأنك  
سترى اليوم صدراً ما كسونيا يجابه اللقاء بأسلا ، كما كنت تشاهد دائماً  
الصدريات النورماندية المصنوعة من الصلب ، . فقال الفارس :

« باسم الله ، افتحوا الباب إذن ، وادفعوا بالقنطرة العائمة إلى الماء ، .  
وجأة فتح الباب الذى كان يصل بين الجدار الداخلى للحصن ، وبين  
الخنديق الذى كان مراحياً للفتحة الناتجة فى السور الرئيسى للقصر ، ثم دفع  
بالقنطرة المؤقتة ، وفى الحال مرقت فى المياه على مدى طولها بين القصر  
والحصن الخارجى ، مكرنة ممرأ زليقاً متأرجحاً يتسع لرجلين يسيران  
جنباً إلى جنب لعبور الخندق . ولما كان عنصر المفاجأة يأتى فى المقام  
الأول ، فقد اندفع الفارس الأسود فوق القنطرة ومن خلفه سيدريك  
حتى بلغ الجهة المضادة ، وهنا بدأ يهوى بيلطته على باب القصر وهو يزأر  
كالرعد ، ويحتمى من السهام والأحجار التى كان المدافعون يلقون بها من  
أناقض الكوبرى المتحرك السابق الذى كان فارس المعبد قد حطمه فى تراجعهم  
من الحصن الخارجى ، تاركاً ثقل توازنه معلقاً فى الجزء الأعلى من باب  
القصر ، وسرعان ما أصابت سهام أقواس النبال من اثنين منهم مقتلاً ،  
وسقط آخران فى الخندق ، أما الباقون فقد ارتدوا على أعقابهم إلى داخل  
الحصن الخارجى . كان سيدريك والفارس الأسود فى مأزق خطير حقاً ،  
وكان من المستطاع أن يتفاقم هذا الخطر ، لولا ماثرة الرماة المرابطين  
بالتحصين الذين لم يكفوا عن إطلاق سهامهم على الأسوار كوابل المطر ،  
كى يحولوا انتباه أولئك الذين احتشدوا فوقها ، وبذلك أتاحوا لقائدهم

فرصة يستريحون فيها من عاصفة القذائف التي لولاها لغلبا على أمرهما ،  
ولكن موقفهما كان شديدا الحرج ، وكان الخطر يزداد بين لحظة وأخرى .

صرخ دى براسى فيمن حوله من الجنود قائلا :

- يا لعاركم جميعا ! أأسمون أنفسكم رماة نبال وتتركون هذين  
الكلبين يحتفظان بموقفهما أسفل أسوار القصر ؟ اقتلعوا الأحجار المتداعية  
من الأسولر ، وألقوا بها عليهما فليس لدينا ما هو أفضل من هذا ، امسكوا  
بالمعاول والقضبان الحديدية ، واقتلعوا هذا الحجر الضخم ، وأسقطوه  
فوق رأسيهما .

قال هذا وهو يشير إلى كتلة ثقيلة من الحجر المنقوش الناقى من السور .

في تلك اللحظة أبصر المحاصرون بالعلم الأحمر يرفرف فوق زاوية البرج  
التي كانت أولريكا قد أنبأت سيدريك بها ، وكان رجل الغابات القوى  
لوكلسى أول من انتبه إليه وهو يسرع نحو الحصن الخارجى لهفا على رؤية  
مدى تقدم الهجوم ، فصرخ :

يا للقديس جورج ! القديس جورج المرح مع انجلترا ! إلى الهجوم  
يا رجال الغابات البواسل - لماذا تتركون الفارس الطيب وسيدريك  
النبيل يقتحمان الممر وحدهما ؟ - هيا تقدم أيها القس المجنون ، وأقم  
الدليل على أنك تستطيع القتال من أجل مسبحتك - انقضوا أيها الرجال  
البواسل - إن القصر ملكنا ، وفي داخله أصدقاء لنا - أترون ذلك  
العلم ؟ إنه الشارة المتفق عليها - ثوركوييلستون لنا - فكروا في المجد  
- فكروا في الأسلاب - جهدهم آخر يصبح المكان لنا دون سوانا .  
وعند هذا جذب قوسه القوى وأطلق سهمها اخترق صدر جندى كان يحاول  
إرشاد من دى براسى أن يقتلع حجراً من أحد الأسوار ليلقى به على رأسى

حيدر بك والفارس الأسود ، وأخذ جندي ثان باقضييب الحديدى من  
يدى الرجل الصريع ، وجعل يدفع به وأوشك على اقتلاع الحجر الكبير ،  
عندما اخترق أحد السهام خوذته فسقط فى الخندق من فوق الأسوار قتيلا .  
خارت عزيمه الرجال واستبد بهم الفزع ، فقد استبان لهم أنه ما من درع  
يستطيع الصمود أمام قذائف هذا الرامى العظيم . قال دى برامى :

— « أترتدون أيها الأوغاد الأندال ؟ باللقديس دونيس ! أعطونى  
أقضييب الحديدى ! ثم اختطفه وانقض ثانية على الحجر المخلخل الذى  
كان من الثقل بحيث إذا سقط ، فإنه لا يحطم بقايا القنطرة المتحركة التى  
كانت حمى للمهاجرين فى المقدمة فحسب ، ولكنه يفرق أيضا تلك القنطرة  
العائمة البسيطة المصنوعة من عارضات خشبية ، التى عبرا الخندق عليها .

أدرك الجميع هذا الخطر ، وتجنب أكثرهم إقداما بل وحتى الراهب  
القوى نفسه أن تطأ قدمه العائمة الخشبية ، وصوب لوكسلى سهامه نحو  
دى برامى ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان السهم ينحسر عن درع الفارس  
القوى فقال لوكسلى :

— « اللعنة على سترتك الزردية المصنوعة فى إسبانيا ، لو كانت من  
صنع حديد إنجليزى ، لصهرتها هذه السهام وكأنها قد قدت من حرير ،  
أو خشب الصندل ، .

وعندئذ بدأ ينادى قائلا :

— « يارفيقاي ! يا صديقاي ! أيها النبيل سيدريك ! عودا ،  
إن الظلل ينهار ، .

لم يصل صوته المنذر إلى سمعهم لأن الجلبة التى كان الفارس نفسه  
يثيرها بضرباتة فوق البرابة ، كانت كفيلة بأن تغرق فى ثنائياها أصوات

عشرين من أبواق الحرب . حقا لقد قفز جيرث الوفي إلى الأمام ، فوق القنطرة العائمة لينذر سيدريك بالخطر المحدق به أو ليسهم معه في لقياه ، ولكن هذا التحذير قد يأتي بعد أوانه ، لأن الحجر الثقيل كان في تلك اللحظة يتأرجح ، وكان دى براسي الذي لم يفتر عن مواصلة عمله قد أوشك على الانتهاء منه ، لولم يبدو صوت فارس المعبد إلى جوار أذنه قائلا :

- كل شيء إلى ضياع . إن القصر يحترق ، . فقال الفارس :

- أجنون أنت لتقول هذا ؟ .

- لقد اشتعل كل الجانب الغربي نارا ولهايا ، وقد حاولت إطفائها عبثا . .

أنهى إليه بريان دى بواجيلبرت هذا النبأ الرهيب بصوت فيه هدوء وصرامة كانا من مقومات طبيعته ، ولكن رفيقه المشدوه لم يتلقه بنفس الهدوء وقال :

- يا للقديسين في الفردوس ! ماذا تفعل ؟ إنني أهب للقديس نيقولاس حاملي شموع من الذهب الخالص نذرا . . . . . فقاطعه فارس المعبد قائلا :

- احتفظ بنذرك واستمع إلى . تول قيادة رجالك ، واهبط الدرج كأنك ذاهب للقيام بهجوم وافتح الباب ، ليس هناك في العائمة إلا رجلين . اقدفوا بهما في الخندق ثم اندفعوا إلى الحصن الخارجي ، أما أنا فسأنتقل من البوابة ، وإذا استطعنا استعادة هذا الموقع ، فكن على ثقة من أننا سندافع عن أنفسنا حتى تأتينا النجدة ، أو على الأقل إلى أن يمنحونا شروطا مرضية . فقال دى براسي :



— « إنه لرأى صائب . سأقوم بدورى ، ولكن أن تخذلى أيها الفارس الراهب ؟ » .

— « بيدى وقفازى لن أفعل ، ولكنى أستحلفك بالله ألا تتوانى » .

أسرع دى براسى إلى جمع زجاله كلهم ونزل يعدو نحو باب القصر وأمر بفتحه على الفور ، وما إن تم ذلك حتى استطاع الفارس الأسود بقوته الخارقة أن يشق طريقه إلى الداخل على الرغم من وجود دى براسى وأتباعه ، ولم يلبث أن سقط اثنان من رجال المقدمة ، وارتد الباقون رغم جميع الجهود التى بذلها قائدهم للحيلولة دون ذلك ، فقال دى براسى :

— « أيها الكلاب ، أتركون رجلين اثنين فقط يستوليان على طريقنا الوحيد إلى الخلاص؟ » فقال جندى من أولئك الذين مارسوا القتال وهو يرد ضربات خصمهم الأسود :

— « لعمرى إنه الشيطان » .

فقال دى براسى :

— « فليكن الشيطان كما تقول ؟ فهل تفرون منه إلى أفواه الجحيم؟ إن القصر يحترق من ورائنا أيها الأوغاد ! فلتستخلصوا من اليأس شجاعة أو دعونى أتقدم . سأنازل هذا البطل بنفسى » .

كانت قوة دى براسى وشجاعته اللتان أظهرهما فى ذلك اليوم ، خير دليل على تلك الشهرة التى توجته فى الحروب الأهلية التى اشتعلت فى تلك الحقبة الرهيبة من الزمان . دوت الممرات المقبية التى كان باب القصر يؤدى إليها ، والتى كان هذان البطلان المغواران يقتتلان آنئذ بداخلها يداً بيد بالهزبات العنيفة التى كان كل منهما يكيلها الآخر ، دى براسى بسيفه والفارس الأسود ببلطته الثقيلة ، وأخيراً تلقى النورماندى ضربة قوية

انتقاها بدرعه ، ولولا ذلك لما كتبت له الحياة بعد اليوم ، ولكنها مع ذلك هوت على خوذته بعنف فسقط على مدى طوله فوق الأرض المرصوفة ، وقال البطل الأسود وهو ينحن فوقه ويشهر أمام قضبان خوذته ذلك الخنجر الرهيب ، الذي كان الفرسان يجهزون به على أعدائهم (والذي كان يسمى بخنجر الرحمة) :

— « أذعن يادى براسى ، واستسلم سواء أكان الأمل براودك فى النجاة أم لا ، وإلا أصبحت فى عداد الموتى ». فقال دى براسى بصوت فيه وهن :

— « لن أسلم نفسى لظافر مجهول . خبرنى عن اسمك أو افعل بى ما يطيب لك . لن يقال عنى أبداً إن موريس دى براسى قد وقع أسيراً لوغد اسمه مجهول . فهمس الفارس الأسود بشيء ما فى أذن المزموم ، فقال النورماندى وقد بدل من لهجته العنيدة الصارمة إلى لهجة فيها خنوع عميق ولكنها مشربة بالعبوس :

— « إنى أسلم نفسى حقاً سواء أواتنى نجدة أم لا . . فقال المنتصر بلهجة فيها سلطان :

— « اذهب إلى الحصن الخارجى ، وانتظر المزيد من أوامرى هناك . » قال دى براسى :

— « ومع هذا فدعنى أولاً أقل لك شيئاً هاماً لا بد وأن تعرفه . إن ويلفريد أوف أيفانهو جريح سجين ، وسيهلك فى القصر المحترق إن لم تهبوا لإنقاذه على عجل ، ، فقال الفارس الأسود متعجباً :

— « ويلفريد أوف أيفانهو سجين على وشك الهلاك ، لن يبقى أحد فى القصر حياً إذا احترقت شعرة واحدة من رأسه . هيا أرنى غرفته . » فقال دى براسى :

- « اصعد ذلك الدرج المتعرج ، إنه يصل إلى غرفته ، ثم بلهجة ذليلة . « ألا ترضى بأن أقودك إليها ؟ » :

- « كلا ، إلى الحصن وانتظر أوامري هناك . إنى لا أثق بك يا دى براسى ، » .

وفى أثناء هذا القتال والجدل القصير الذى تلاه ، كان سيدريك على رأس جمع من الرجال وكان الراهب واضحاً بينهم ، يتدافعون على الكوبرى عندما رأوا باب القصر قد فتح ، ويدفعون أمامهم رجال دى براسى المتخاذلين القانطين ، وقد طلب بعضهم الرحمة بهم ، وظل البعض الآخر يقاوم بلا أمل ، بينما فر العدد الأكبر نحو الفناء . نهض دى براسى من فوق الأرض وأرسل خلف قاهره نظرة حزينة وأعاد القول لنفسه : « إنه لا يثق بي ولكن هل كنت جديراً بثقته ؟ » ، وعند هذا رفع سيفه من فوق الأرض وخام خوذته دلالة الخضوع والاستكانة . وذهب إلى الحصن الخارجى حيث سلم سيفه إلى لوكسلى الذى كان قد اتقى به فى الطريق .

وعندما ازدادت النار اشتعالاً ، بدأت أعراضها تظهر جلية واضحة فى الغرفة التى كان أيفانو مستلقياً فيها حيث كانت تسهر عليه اليهودية ريبكا وترعاه .

استيقظ من نومه القصير على ضجيج المعركة . وكانت عمرضته - تحقيقاً لرجائه الحار - قد عادت إلى مكانها عند النافذة لترقب سير الهجوم وتفضى إليه بنتائجه ، ولكنها كانت عاجزة عن رؤية ما يدور نظراً لتكاثف الدخان الخائق ، وأخيراً نهتها إلى تفاقم هذا الخمار الداهم الجديد سحب الدخان المتكاثف فى الغرفة ، والصرخات فى طلب الماء التى كانت تطغى على ضجيج المعركة ، فقالت ريبكا :

— « إن القصر يحترق . . . يحترق . . . ماذا علينا أن نفعل لننجو بأنفسنا؟ » وقال أيفانهو :

— « اهربي ياربيكا وانجي بحياتك فلن يقوى عون بشرى على إنقاذي . . فقالت :

— « لن أهرب . إما أن نعيش معا وإما أن نموت معا ، ومع ذلك يا إلهي العظيم ! أبن ، ماذا سيكون مصير أبي ؟ » .

في تلك اللحظة فتح باب الغرفة ودخل فارس المعبود بمظهر بشع ، فقد كان درعه المحلى بالذهب محطماً مملطخاً بالدماء ، وقد تطاير جزء من ريشته واحترق جزؤها الآخر . عند خوذته ، وقال يخاطب ربيكا :

— « لقد وجدتك . متثقين من أنني سأحفظ وعدى بأن أشركك معي في سعودى ونحسى . . . في سرائى وضرائى . لیس هناك سوى سبيل واحد للخلاص ، لقد شققت طريقى عبر خمسين حظراً كي أدلك عليه ، هيا انهضى واتبعينى دون إبطاء . . فقالت ربيكا :

— « لن أتبعك وحدى . إن كانت امرأة قد أنجبتك — إن كان فى فؤادك لمسة من الرحمة البشرية — إن لم يكن قلبك قد "قده" من صلب كدرعك ، فأنقذ أبى الكهل — أنقذ هذا الفارس الجريح . . فقال الفارس الراهب بهدوئه الذى يتميز به :

— « الفارس ! إن أى فارس ياربيكا يجب أن يواجه قدره سواء لقيه فى صورة سيف أو لهيب ، ومن يدري كيف وأين يلاقى يهودى مصيره . . فقالت ربيكا :

— « أيها المحارب الشرس ، إنى أوثر أن أفتى فى جعر اللهب ، على أن أرضى بالسلامة على يدك . .

« ليس لك الخيار يا ربيكا لقد خدعتني مرة ، ولم يخدعني أبداً  
كأثن حتى مرتين » .

وعندما قال ذلك ، أمسك بالفتاة المذعورة التي ملأت الجو صراخاً  
ونواحا . وحملها بين ذراعيه إلى خارج الغرفة رغم صياحها ، دون أن يأبه  
بالتهديد والوعيد اللذين كان أيفانو ينفضهما بصوت كالرعد قائلاً ، :  
يا كلب المعبد ، يا وصمة في جبين طائفتك ، أطلق صراح الفتاة ! أيها  
الغادر بواجيلبرت ، إن أيفانو هو الذي يأمرك ! سوف أنهل من دم  
قلبك أيها الوغد ، .

دخل الفارس الأسود الغرفة في تلك اللحظة وقال :

« ما كنت لأعثر عليك يا ويلفريد . لولا صرخاتك » .

فقال ويلفريد :

« إن كنت فارساً حقاً فلا تفكر في أمرى - اتبع ذلك المختطف -

انقذ الليدى رويئا - ضع سيدريك النبيل موضع رعايتك » فقال الفارس  
ذو شعار الفقل

« في دورهما ولكن دورك يأتي أولاً ، . ثم أمسك بأيفانو وحمله

في غير مشقة ، كما حمل فارس المعبد اليهودية ربيكا ، واندفع ناحية باب  
القصر حيث أودع حمله لرعاية اثنين من الرجال ، ثم دخل القصر مرة  
أخرى ليسهم في إنقاذ باقى الأسرى .

كان أحد الأبراج غارقاً في لهيب براق يسطع بشدة من النوافذ  
وفتحات الرماية ، ولكن الجدران السمبكية وأقبية أسقف الحجرات  
كانت في مواطن أخرى تقاوم اندلاع النيران ، وفي تلك الأمكنة كانت  
غضبة الإنسان ما زالت مسيطرة ، مثلها كانت النيران التي لا تقل رهبة ،

منيطرة في الأماكن الأخرى ، لأن المحاصرين قد تمقبوا المدافعين عن القصر من غرفة إلى أخرى ، ورووا بدمائهم الانتقام الذي طالما ملا صدورهم ضد جنود فروندييف الطاغية . لقد صمد أكثر الجنود حتى النهاية ، وطلب القليلون منهم الترفق بهم ولكن لم يظفر به أحد منهم . كان الجومليشا بالآفات وصليل الأسلحة ، والأرض زلقة بدماء أولئك البائسين التمساء الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، وفي خضم هذا الضجيج ، اندفع سيدريك يبحث عن رويانا ، بينما كان جيرث الوفي يتبعه عن كثب في أثناء المعركة ، غير آبه بسلامته عندما كان يحاول جاهداً أن يدرأ عن سيده الضربات المسددة نحوه ، وكان من حسن طالع الساكسوني النبيل ، أن وصل إلى مخرفة ربييته في الوقت الذي كانت فيه قد فقدت كل آمالها في النجاة ، وجلست تنتظر الموت العاجل في أسي وقد ضمت إلى صدرها صليباً ، فعمد إلى جيرث العناية بها ، وأن يقودها في أمان إلى الحصن الخارجي الذي كان الطريق إليه قد تطهر ساعتئذ من الأعداء ، ولم تكن النيران قد قطعت مسالكه بعد .

وبعد أن تم ذلك ، أسرع سيدريك الوفي يبحث عن صديقه أثيلستين . وقد اعزم - غير مكترث بما يعرض له من أخطار - أن ينقذ آخر وريث للملكية الساكسونية .

ولكن قبل أن يدلف سيدريك إلى القاعة القديمة التي كان يجيئنا فيها ، كان واما بمحنة وفطنته قد دبر أمر الخلاص لنفسه ولرفيقه في الشدائد ، فعندما كانت جلبة المعركة تعلن بأنها على أشدها ، بدأ المهرج يصرخ بأعلى ما في رئيته من قوة قائلاً :

- القديس جورج والتين ا القديس جورج الطيب يظهر إنجلترا  
البيهجة ا لقد سقط القصر ا ، وأخذ يشحذ قطعتين أو ثلاثاً من الدروع  
الصدئة المتناثرة في جميع أرجاء القاعة فترداد الأصوات رهبة .

كان الجزع قد استبد بأحاسيس الرجل الذي أوكل إليه أمر حراسة الغرفة الخارجية ، وأصابه الفرع من الضجة التي أثارها ، لجرى دون أن يفلق الباب لينهى إلى فارس المعبدان الأعداء قد دخلوا القاعة القديمة ، وعند هذا لم يجد السجينان مشقة ما في الهرب إلى القاعة الخارجية ، ومنها إلى فناء القصر الذي كان وقتئذ آخر معقل للقتال ، وهناك امتطى فارس المعبد الشمس صهوة جواده ، يلذف به عدد من الرماكين والراجلين ممن كانوا قد ربطوا أنفسهم بقوة ذلك القائد الشهير لكيلا تفلت منهم آخر فرصة تبقت لهم في النجاة والارتداد . كان الكوبرى المعلق قد أنزل بأمره ولكن الممر كان محاصراً ، لأن رماة القوس الذين كانوا حتى ذلك الحين يبعثون الضجر بتصويب قذائفهم نحو القصر من ذلك الجانب ، لم يكادوا يصرون باللهب يفتق والكوبرى يدلتي ، حتى تجمعوا أمام المدخل ليحولوا بين أفراد الحامية وبين الهرب ، ويطمئنوا إلى سلامة أنصبتهم في الأسلاب قبل أن تأتي النيران على القصر كله ، ومن جهة أخرى فقد كانت جماعة من المحاصرين الذين دخلوا من باب القصر يخرجون آتذ إلى الفناء ، ويهاجمون في غير هوادة فلول المدافعين الذين كانوا في هذا الوضع معرضين للهجوم من الناحيتين في وقت واحد ، ومع ذلك فقد كان ما تبقى من جنود القصر ينازلون ببسالة فائقة يدفعهم اليأس ، ويجذون حذو قائدهم الذي لا يقهر . ولما كانوا مسلحين على طراز رفيع ، فقد أصابهم التوفيق مرة ومرة ومرة في رد المهاجمين على أعقابهم مع أنهم كانوا دونهم عدداً . كانت ريبكا تعتلى ظهر جواد أمام أحد عبيد فارس المعبد العربيين وسط ذلك الجمع الصغير ، وكان بواجيلبرت على الرغم من الاضطراب الناتج عن ذلك القتال الدامي حريصا كل الحرص على سلامتها ، فكان لا يفتر عن الانتقال إلى جانبها ، ويرفع أمامها سياج درعه المثلث المصنوع من رقائق الصلب غير آبه بالدفاع عن نفسه ، ثم بعد ذلك يترك مكانه بجوارها ويصرخ صرخة حو به ، ويندفع إلى الأمام ويضرب أول من يلقاه من

المهاجمين فيصرعه ، ثم يسرع عائداً إلى جوار عنان جوادها مرة أخرى.

أبصر أثيلستين — الذى كان كما يعرف القارىء كسولا ولكنه لم يكن جباناً — بتلك الصورة الأثوية التى كان فارس المعبد دائماً على اقتدائها بمثل هذا الجهد ، فلم يساوره شك فى أنها رويانا ، وأن الفارس يحاول اختطافها رغم كل المقاومة التى يمكن القيام بها فقال :

— وأقسم بروح القديس إدوارد على أنى سأنقذها من برائن ذلك الفارس الذى جاوز صلفه المدى ، وسيلقى المنية على يدي . ، فصرخ وامبا قائلاً :

— فكر فيم أنت فاعل ! إن اليد المتعجلة تصيد الضفادع ظناً منها بأنها أسماك ، بحق العوبتي إن هذه ليست الليدى رويانا . انظر إلى خصلات شعرها الطويلة الفاحمة . كلا ! قد تكون قائداً ، ولكن إذا كنت لا تستطيع أن تميز بين الأسود والأبيض فلن أكون تابعا لك . لن أدع عظمة من عظامي تنحطم إلا إذا عرفت من أجل من ستتحطم ، ثم إنك أيضاً بلا درع . تذكر أن القبعة الحربية لا تصمد أمام سلاح من الصلب — كلا ! لئن كان ذو العناد مصرّاً على النزول إلى الماء ، فلا بد وأن يفرق ذو العناد . أستودعك الله يا أثيلستين الجسور . . .

بهذه الكلمات أنهى حديثه ، وترك سترة الساكسونى بعد أن ظل متشبهاً بها حتى تلك اللحظة . لم تستغرق قوة أثيلستين الحارقة التى كان يُركبها غضب غير عادى سوى لحظة واحدة حتى اختطف هراوة ملاقة على الأرض بجوار قتيل أرخى الموت قبضته عنها ، وانقض على فريق فارس المعبد بضرب يمنة ويسرة فى تتابع خاطف ، وفى كل ضربة يسقط أحد المحاربين ، وسرعان ما أصبح على مبعدة خطوتين من بواجيلبرت ، وجعل يتحداه قائلاً بأعلى صوته :



« استدر أيها الراهب الفارس الغادر . أطلق سراح من لست جديرا  
بلبسها - استدر يا عضوا في عصابة من اللصوص القتلة المرائين ، . فقال  
فارس المعبد وهو يصر على أسنانه :

— « أيها الكلب سأعلمك كيف لا تتناول على حق نظام الكنيسة  
المقدس ، .

وبعد أن نطق بهذه الكلمات ، استدار بجواده نصف دائرة ، وانحنى على  
الساكونى وهو منتصب فى ركابه كى يستفيد كل الإفادة من نزول الجواد  
على حوافره ، وسدد ضربة مروعة على رأس أثيلستين .

لقد أصاب واما حين قال إن قبعة حريرية لا تقوى على اتقاء سلاح  
من صلب ، وهكذا بلغ من حدة سيف فارس المعبد أن بتر يداهراوة الصلبة  
المضفورة وكأنها غصن من الصفصاف ، عندما كان الساكسونى تمس الحظ  
يرفعها لتقيه الضربة فهوت الهراوة على رأسه ، وسقط أرضا فصاح  
بواجيلبرت :

— « ها ! النصر لفارس المعبد ، وانتز فرصة الهلع الذى ساد الرجال  
لوقوع أثيلستين وصاح بصوت عال :

« ليتبعنى كل راغب فى النجاة ، . ثم اندفع عبر الكوبرى المعلق مبددا  
أمامه رماة القوس الذين حاولوا التصدى له ، يتبعه عبداه العريان وما يقرب  
من خمسة أو ستة من الجنود الراكبين .

كان ميل السهام التى سدوت نحو فارس المعبد وفريقه قد جعلت أمر  
ارتداده محفوفا بالمخاطر ، ولكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يعدو بجواده  
مستديرا حتى وصل إلى الحصن الخارجى ، وكان يظن طبقا لخطة السابقة  
أن دى براسى قد تمكن من الاستيلاء عليه فصاح ناديا :

— « دى براسى ادى براسى اهل أنت هناك ؟ »

« نعم ، أنا هنا ولكنى أسير ، »

— « هل أستطيع أن أنجيك ؟ ، »

— « كلا لقد أسلمت نفسى سواء أ كان هناك سبيل إلى النجاة أم .  
لا ، وسأكون أسيراً صادق الوعد . انج بنفسك — إن بالخارج صقوراً  
ترقب — ضع البحار بينك وبين إنجلترا — لن أجترى على أن أقول  
المزيد ، ، فقال فارس المعبد :

— « بما أنك راغب فى البقاء فتذكر أننى قد أوفيت بكلمتى وقفازى —  
فلتكن الصقور أينما كانت فإنى أظن أن جدران مقر فرسان المعبد ستكون  
خير معقل . وسأذهب إلى هناك كما يذهب طائر البلاشون إلى وكره ، .  
وبعد أن قال ذلك انطلق بعدو مع أتباعه .

ظل جنود القصر الذين لم يمتطوا جيادهم يقاتلون المحاصرين فى قنوط  
بعد رحيل فارس المعبد ، ولكن ذلك القتال كان بدافع من يأبهم من  
الرحمة ، أكثر مما كانت الآمال تراودهم فى النجاة .

كانت النيران تسرى فى جميع أرجاء القصر وكأنها ترعى الهشيم ، عندما  
ظهرت أولريكا التى كانت قد أضرمتها فى أول الأمر فوق أحد الأبراج  
وكانها إحدى نساء الجن فى الأباطير ، وهى تصرخ منشدة إحدى أغنيات  
الحرب كنتك التى كان الجنود يترنمون بها قديماً فى ساحة القتال حول نيران  
الساكسريين الذين كانوا لا يزالون كفاراً ، وكان شعرها الطويل الأشيب  
يتطاير إلى الخلف من رأسها العارى ، وكانت بهجتها النشوى بنخر الانتقام  
المحقق تنافس بريق الجنون فى عينيها ، وكانت تلوح بالمغزل الذى فى يدها  
وكانها إحدى « الأخوات القاتلات » اللاتى يغزلن ويختزلن الخيط من

حياة البشر ، وما زالت بعض الفقرات العنيفة لذلك النشيد الهمجي تتواتر  
على ألسنة الرواة ، وكانت تغنيها بانفعال وسط مشهد النيران والمذبحة : —

— ١ —

اشحذوا السلاح البراق  
يا أبناء التنين الأبيض ا  
أضئ المشعل يا ابنة هينجست ا  
إن السلاح لا يبرق في تقطيع طعام الولايم ،  
إنه صلب عريض ذو طرف منذب .  
وليس المشعل وقفا على إنارة غرفة الزفاف ،  
إنه يبعث الدخان والضوء أزرق بسبب الثقاب .  
اشحذوا السلاح فالغراب ينق  
وأضئوا المشعل فإن زيرنيوك يصرخ ا  
اشحذوا السلاح يا أبناء التنين ا  
أضئ المشعل يا ابنة هينجست ا

— ٢ —

إن السحابة السوداء تلف قصر السيد ،  
والنسر يصرخ وهو يحلق فوق صدر السحابة .  
لا تصرخ أيها الراكب الأشيب للقيامه السوداء ،  
إن وليمتك قد أعدت ،  
وعذارى ، فالها لا ، تطلمن ،  
لأن شعب هينجست سيرسل لمن ضيوفا .  
فلتهتز خصلاتك السوداء يا عذارى ، فالها لا ، ا

- ٤٣٤ -

ولتقرعن دفوفكن العالية جبورا .  
كم من خطوة صلفة تنحى أمام قاعاتكن ،  
وكم من رأس تغطيه خوذة .

- ٣ -

إن الليل قد جن مظلمًا فوق قصر السيد ،  
والسحب الوداء تنكأف من حوله ،  
وعما قليل ستصبح حمراء كدم المقدام ،  
ومدمر الغابات سيزر رأسه الأحمر ضدكم ،  
لأنه ملتهم القصور المتأججة ،  
ويلوح برايته المشتعلة عالية ،  
حمراء عريضة بلون الشفق ،  
فوق نضال الشجعان ،  
وبهجنه في صليل السيوف والدروع المحطمة .  
لأنه يشتهي أن يلعق الدماء التي تبعث فيحًا ،  
وهي تندفق ساخنة من الجراح .

- ٤ -

كل شيء يجب أن يهلك ،  
إن السيف يشق الخوذة ،  
والرحم ينفذ في الدرع القوي ،  
والنار تلتهم موئل الأمراء ،  
والآلات تهدم أسوار القتال ،  
كل شيء يجب أن يهلك .  
إن شعب هينجست قد قضى

ولم يعد لاسم دهورسا ، بقاء .  
لا تفزعوا إذن من مصيركم يا أبناء السيف ا  
دعوا سيوفكم تشرب الدماء كالخمر ،  
وانهلوا منه فى وليمة المذبحة .  
على ضوء القاعات المشتعلة .  
لتكن أسيافكم بتارة عندما تكون دماؤكم ساخنة ،  
ولا تبقوا على أحد بدافع من الشفقة أو الخوف ،  
فليس للانتقام إلا ساعة واحدة  
ثم يذوى الحقد الدفين ،  
وأنا أيضا يجب أن أموت .

كانت السنة النيران العالية قد أحاطت آتتذ بكل التحصينات ، وطاولت  
سموات المساء وكأنها المنارة ، ضخمة مشتعلة ترى عن بعد ومن كل صوب  
من البقاع المجاورة ، وتهاوى برج بعد آخر بأسقفها المحترقة وعارضاتها التى  
تبعث اللهب ، ووجد المحاربون أنفسهم مسوقين إلى الحرب من الغناء ،  
وتناثر المهزومون الذين لم يبق منهم إلا النزر اليسير وتفرقوا هاربين إلى  
الغابة المجاورة ، وأتمر المنتصرون فى جماعات كبيرة ، يحملقون فى دهشة  
لا تخلو من رهبة إلى لهب النيران التى كانت رتبهم وأسلحتهم تبدو فى ثابا  
وهجها حمراء كالشفق .

ظل شبح أولريكا المجنونة باديا للبيان لمدة طويلة فوق الموقع المرتفع  
الذى وقع اختيارها عليه ، وهى تلوح بذراعيها فى بهجة شديدة وكأنها  
إمبراطورة تخضع لها النيران التى أضرمتها ، ولم يلبث البرج كله أن انهار  
بدوى مروع وسقطت أولريكا معه تشويها النيران التى التهمت الطاغية الذى  
أذاقها العذاب ، وهنا طغنت لحظات صمت رهيبة على أصوات جميع المشاهدين .

١- مسلحين الذي ظلوا الدقائق عدة لا يحركون أصبعاً إلا في رسم علامة الصليب على صدورهم ، وبعد ذلك ترمى إلى الأسماع صوت لوكسلى يصيح .  
- « اهتفوا أيها الرجال ! إن وكر الطغاة قد أريد . ليأت كل بغنيته إلى مكان الميعاد المختار عند شجرة التجمع في عمر « هارثيل » ، فهناك عند الفجر سنوزعها بالقسطاط فيما بين جموعنا وبين حلفائنا الأخيار الذين أسهموا معنا في هذا العمل الانتقامى العظيم » .

**\*\* معرفتي \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**

**منتديات مجلة الإبتسامه**

## الفصل الثاني والثلاثون

صدقتوني : ينبغي أن يكون لكل أمة أساليبها السياسية ،  
وللممالك مراسيم وللمدن مواعيقها ،  
وحتى الخارج على القانون المنمرد في ممر غابته ،  
فإنه يحتفظ بلبسة ما من النظام المنحضر ،  
فما عاش رجل مع رجل في وحدة اجتماعية ،  
منذ أن ارتدى آدم ميدعته الخضراء ،  
دون أن تصاغ القوانين لتزداد هذه الوحدة ارتباطاً .

( مسرحية قديمة )

كان الفجر قد نسج خيوطه فوق ممرات غابة البلوط ، والغصون  
الخضراء براقية بكل ما تحمل من لآلىء الندى ، وأنثى الظباء تقود وليدها  
من مخبأ الأعشاب المرتفعة إلى المسالك العارية في الغابة الخضراء ، ولم  
يكن هناك صياد ما ليرقب ذكر الظباء ليصيده وهو يختال على رأس القطيع  
ذي القرون ، وكان جميع الخارجين على القانون قد احتشدوا حول شجرة  
التجمع في ممر هارثهيل حيث قضوا الليل في مناع بعد عناء الحصار ،  
أفناء بعضهم في احصاء الخمر ، وبعضهم الآخر في الاستمتاع بالنوم ، وكان  
غير أوئك وهؤلاء يقطعون الوقت في الاستماع إلى أحداث ذلك اليوم  
وترديدها ، واحصاء أكوام الأسلاب التي وضعها انتصارهم تحت إمرة  
زعيمهم .

كانت الغنائم وفيرة حقاً ، فعلى الرغم من أن النيران قد أتت على الكثير  
منها ، إلا أن جهود الخارجين على القانون البواسل قد أنقذت عدداً كبيراً

من صحاف الفضة ، والدروع الغالية والملابس الفاخرة ، وما استطاع خطر ما أن يثنيهم عن عزمهم أو يبعث الفرع فيهم طالما كانت أمثال هذه المكافآت تحت أبصارهم ، ومع ذلك فإن قوانين عشيرتهم كانت من الصرامة بحيث لم يخاطر واحد منهم باغتصاب أى شيء من هذه الغنائم التي جمعت كلها في كومة واحدة ، مختلطة ببعضها البعض لتكون تحت إمرة زعيمهم .

كان مكان الاجتماع عند شجرة بلوط عتيقة ، ومع ذلك فإنها لم تكن تلك الشجرة التي كان لو كسلي قد قاد جيرث ووامبا إليها في الفصل الأول من القصة ، ولكنها كانت تتوسط خلاء متدرجا على مبعدة نصف ميل من قصر توركويلستون الذي تهاوى وخرب ، وهنا اتخذ لو كسلي مجلسه على عرش من الحشائش تحت الغصون المنثنية لشجرة البلوط الضخمة هذه ، وكان أتباعه من رجال الغابات قد التفوا من حوله ، فأشار إلى الفارس الأسود بأن يجلس عن يمينه ، وإلى سيدريك بأن يتخذ مكانه عن يساره ، وقال

— واغفرا لي صراحتي أيها السيدان النبيلان ، فإنني ملك على عمرات هذه الغابة . إنها ملكتي ، وما كان لأتباعي شديدي المراس هؤلاء أن يعترفوا لي بأى سلطان لو أني في داخل نطاق سلطتي قد أخليت مكاني لأى كائن حي ، والآن من منكم أيها السادة رأى قيسنا ؟ أين راهبنا الغليظ ؟ ليس هناك ما هو أفضل عند الرجال من أن يبدأ الإنسان عمله في الصباح بتلاوة الصلوات ، .

لم يكن أحد منهم قد رأى راهب كويماهيرست ، فقال زعيم الخارجين على القانون :

— ادعوا الله ألا يكون قد أصابه ضرر — إنى واثق من أن القس المرح قد طال ركونه إلى دن النييد أكثر مما ينبغي . من منكم رآه منذ أن تم الاستيلاء على القصر ؟ ، فقال الطعان :



« أنا ، لقد رأيتك يتلكأ بالقرب من باب أحد الأقبية ، وهو يقسم بكل قديس ورد ذكره في التقويم على أن يتذوق ما عند فروندييف من أنبذة غسقونية . »

فقال الزعيم :

« عسى أن يكون القديسون مهما بلغ عددهم قد كفلوه بحمايتهم إلا إذا كان قد أفرط في الشراب من أوعية الخمر ، وقضى تحت أنقاض القصر! اذهب يا د هيلر ، وخذ معك وفيراً من الرجال وفتشوا المكان الذي رأيتك فيه لآخر مرة - خذوا من مياه الخندق وانثروها فوق الأطلال الموقدة - سأمر برفعها حجراً حجراً قبل أن أفقد راهي الغليظ . »

أبدت الأعداد التي سارعت إلى أداء هذا الواجب اهتماماً بالغاً بسلامة أبيهم الروحي على الرغم من أن توزيعاً مشوقاً للأسلاب على وشك أن يتم ، وقال لوكسلي :

« فلنبداً عملنا خلال ذلك ، لأنه إذا ما ذاعت أنباء هذا العمل الباسل وشاعت ، فإن عصابات دي براسي ومالفوازان وخلفاء فروندييف الآخرين سينهضون لناوشتنا . وإنه لمن الأفضل لسلامتنا أن نتحصر عن هذا الجوار ، ثم استدار ناحية الساكسوني وقال له :

« إن هذه الأسلاب منقسمة إلى قسمين أيها النبيل سيدريك ، فاختر منها ما يطيب لك جزاء وفاقاً على ما أسهم به رجالك معنا في هذه المخاطرة . » فقال سيدريك :

« إن قلبي ينفطر أسي أيها الرجل الطيب ، فأيلستين أوف كوتنجزبره النبيل آخر سلاله للملك المقدس متلقى الاعتراف قد قضى ، وانهضت معه آمال لا يمكن أن تعود ، وذوت بدمه ومضة لا يقوى بشر على إشعالها

من جديد إن رجالي — إذا استثنينا القليل منهم — الموجودين معي الآن قد تغلفوا عن الحضور إلى هنا لكي ينقلوا رفاته الكريمة إلى مشواها الأخير، ثم إن الليدي رويانا راغبة في العودة إلى روذروود ، ويجب أن يكون برفقتها عدد كاف من الرجال ، ولذلك فقد كان جديراً بي أن أبرح هذا المكان من قبل ، ولكني لم أتخلف هنا لأقتسم الغنائم لحاشا لله وللقديس ويشولد أن آخذ أنا أو رجالي ما يساوي دانقا واحداً ، ولكني تريت لأقدم شكرى لك ولرجالك البواسل على ما بذلتموه في سبيل إنقاذ الحياة والشرف . فقال زعيم الخارجين على القانون :

— « كلا ، إننا لم نقم إلا بنصف العمل فقط . خذ من الأسلاب ما قد يجزى جيرانك وأتباعك » . فقال سيدريك :

— « إنى من الثراء بمقدار أستطيع معه أن أجزيهم من مالى الخاص » . فقال وامبا :

« لقد كان بعضهم من الحكمة بحيث كافأ نفسه . إنهم لا ينصرفون وأيديهم خاوية ، ونحن جميعاً لا نتردى الملابس المزركشة » . فقال لوكسلى :

— « على سعة ورحب بهم . ما من أحد سوانا يلتزم بقوانيننا » . فقال سيدريك وهو يستدير ويعاتق مهرجه :

— « أما أنت ياوغندى المسكين ، فكيف أتبيك وأنت الذى خاطرت بجسدك إلى الأغلال والموت فداء لى لقد تخلى الجميع عنى فى الوقت الذى ظل الأحمق المسكين على ولائه ا » .

وفى ما كان المالك ذوالخلق العنيف يتحدث ، إذ بدمعة تترقرق فى مقلتيه دليل التأثر لم تستطع حتى وفاة أثيلستين أن تدرها منهما ، ولكن كان هناك رباط من الود الفريزى بينه وبين مهرجه أيقظ طبيعته أكثر مما أيقظها الحزن نفسه ، فقال المهرج وهو يخلص نفسه من عناق سيده :

- « كلا ! إذا كنت تذرف ماء عينيك جزاء وفائي ، فإن المهرج سيجد نفسه مسوقاً أيضاً إلى أن يشاطرك النجيب ، وعند هذا فإني أتساءل : ماهي وظيفتي إذن ؟ ولكن إذا كنت راغباً بإعماه في إرضائي حقاً فإني أضرع إليك أن تعفو عن خدين طفولتي جيـرث ، الذي استرق من خدمتك سبعة أيام لبكرسها لخدمة ولدك . » فقال سيدريك :

- « أعفوه عنه !! بل له مني العفو والثوبة معاً . اركع أرضاً يا جيـرث . » وفي لحظة كان جيـرث جاثياً عند قدمي سيده ، فقال سيدريك وهو يمسه بعصاه :

- « لم تعد بعد الآن عبداً ولا تابعاً ! أنت مواطن حر طليق تستمتع بحقوقك في المدينة ومن المدينة ، في الغابة وفي الحقل ، وإني أهيك قطعة أرض من ضياعي في « والبرجهام » ، مني ومن سلالتي من بعدى ، لك ولذريتك إلى يوم نبعث ، ولعنة الله على من ينقض العهد في هذا . »

أما جيـرث الذي لم يصبح بعد اليوم عبداً ، بل مواطناً حراً طليقاً مالكا لأرض ، فقد انتصب واقفاً على قدميه ، وقفز مرتين في الهواء إلى ما يقرب من ارتفاع قامته وصاح :

- « إلى مجدّاد ومبرد لأحطم الطوق الذي يلتف بهنق رجل حر ! - ياسيدي النبيل ! لقد تضاعفت قوتي بهطائك ، وستضاعف في القتال من أجلك - إني أضم بين جوانحي روحاً طليقة - لقد تبديل كل ما فيّ الآن فيما يتعلق بنفسى وبمن حولي . » ثم استرسل قائلاً : « ها ! يا فنانجز ! . »

وعندما رأى الجرو الوفي ما اعتور سيده من انفعال ، بدأ يقفز عليه إظهاراً لمشاركته في مشاعره فقال له : « ألا زلت تعرف سيديك ؟ . » فأجاب وأما :

- « نعم ، إن فنانجز وأنا لانزال نعرفك يا جيـرث مع أننا لانزال نحمل

الطوق . من المحتمل أن تكون أنت وحدك الذى ينسانا وينسى نفسه ، .  
فقال جيرث :

- « حقاً سوف أنسى نفعى قبل أن أنسا كما أبها الرفيق الوفى ، ولو  
كانت الحرية ملائمة لك يا وامبا ، لما كان مولانا عليك بها ضيقاً ، . فقال وامبا :

- « كلا . لا ينبغي أن يدور بخلدك أبداً أنى واجد عليك يا أخى  
جيرث . إن العبد يجلس إلى جوار المدفأة فى القاعة عندما يساق بالأحرار  
إلى ميادين القتال . يقول « أولدهيلم أوف المسبورى ، : « إنه لمن الأفضل  
لك أن تكون أحمق فى وليمة ، من أن تكون رجلاً حصيفاً فى معركة ، .

فى تلك اللحظة رن صوت سنابك الخيل فى الأذان ، وظهرت الليدى  
روينا يلتنف بها بعض الراكبين ، وجماعة من الراجلين يفوقونهم عدداً ،  
وأخذوا يطوحون برماحهم جاذلين ، ويبعثون الصليل بحراهم ذات اللون  
الأحمر الداكن بهجة بخلاصها ، وأما هى فقد كانت ترتدى ثياباً غالبة ،  
وتمتلى صهوة جواد أشقر ، وقد استردت العزة المتأصلة فى طبيعتها ،  
يكسو وجهها شحوب غير مألوف ينم عما قاسته من مواجع . ورغم ما كان  
يدو على جبينها الجليل من أسى ، إلا أن لحظة من أمل باسم فى مستقبل مزهر  
كانت تطوف به ، كما كان يعبر عن الشكر العارف بالجميل لخلاصها . لقد  
عرفت أن أيقانها قد نجا ، وأن أثيلستين قد قضى ، فغمرها النبا الأول  
بأصدق مشاعر البهجة ، وإذا لم تكن قد سرت كل السرور للنبا الثانى ،  
فإننا نستطيع أن نغفر لها إحساسها بالميزة العظمى ، ألا وهى خلاصها من  
مزيد من الضيق الناجم عن الأمر الوحيد الذى لم يكن الوصى عليها يعارضها  
فى أمر سواه .

ولما أحنت روينا جوادها تجاه مقعد لوكسى ، نهض ذلك الرجل الباسل  
ونهض معه أتباعه جميعهم لاستقبالها كما لو كان ذلك بدافع من غريزة عامة

بالاحترام ، فصعد الدم إلى وجنتها وهي تلوح بيدها برق ، ثم أسرفت في انحناءتها حتى امتزجت خصلات شعرها الجميل المسترسل ، بعرقه جوادها الغزيرة ، وأعربت بكلمات قصيرة ولكنها بليغة عن شكرها وعرفانها بالجميل للوكسلي وسائر من أنقذوها ، واختتمت حديثها قائلة :

— و ليبارككم الله أيها الرجال البواسل ، ليبارككم الله والعذراء ويثيبكم على شجاعتكم التي أبدتموها في تعرضكم للمهالك في سبيل نصرة المظلومين . إذا أحس أحدكم بالمسغبة فليذكر أن رويننا عندها طعام ، وإذا أحس بالظما فليذكر أن لديها الوفير من قوارير النبيذ والجمعة السوداء ، وإذا طردكم النورمانديون من هذه المراعى ، فإن لروينا غاباتها الخاصة حيث يستطيع منقذوها الصناديد أن يصيدوا ماشاء لهم أن يصيدوا دون جناح ، وإن يسألهم حارس الغابة أبداً عن أطلق السهم الذى قتل الظبي ، . فقال لوكسلي :

— و أشكرك أيتها السيدة الرقيقة ، أشكرك بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن باقى رجالى ، ولكن لتعلمى أن خلاصك من الأسر ليس إلا مكافأة لنا فى ذاته ، لأننا نحن الذين نذرع الغابات ، نقوم بكثير من الأعمال الطائفة الغليظة ، وليس خلاص اللبدي رويننا إلا تكفيراً عن هذه الأعمال ، .

انحنى رويننا مرة أخرى من فوق جوادها واستدارت لترحل ، ولكنها توقفت لحظة بينما كان سيدريك الذى كان عليه أن يرافقها يطلب الإذن بالانصراف أيضاً ، وإذا بها تجد نفسها فجأة بالقرب من الأسير دى براسى ، وكان يقف تحت شجرة غارقاً فى تفكير عميق ، وقد طوى ذراعيه فوق صدره ، وكانت رويننا تأمل فى أن تمر به دون أن يفتن إليها ، ولكنه مع ذلك رفع بصره ، ولما انتبه إلى وجودها علت وجهه الوسيم حمرة عميقة من فرط الخجل ، ووقف لحظة فى حيرة شديدة ، ثم خطا نحوها وأمسك بعنان جوادها ، وثنى ركبته أمامها وقال :

— « هل تفضل الليدى رويانا وتلقى نظرة على فارس أسير — على جندى مسلوب الشرف ؟ ، فأجابت رويانا :

— « ياسيدى الفارس ، إن العار الحقيقى فى مثل تلك الأعمال التى أقدمت عليها ، لا يكون فى الفشل بل فى التوفيق . فقال دى براسى .

— « إن النصر ياسيدتى يجعل القلب حانياً . دعينى أعرف أن الليدى قد غفرت لعاطفة سيئة الحظ هو جاء ، وأنها عما قريب سوف تعلم أن دى براسى يعرف كيف يقوم على خدمتها بأساليب أكثر نبلا . فقالت رويانا :

— « إنى كسيحية أصفح عنك ياسيدى الفارس . » وقال وامبا :

— « هذا يعنى أنها إن تغفر له أبداً . واسترسلت رويانا قائلة .

— « ولكنى لا أستطيع بجال أن أصفح عن الشقاء والخراب اللذين كانا نتيجة لجنونك . » وقال سيدريك وهو يقترب :

— « اترك عنان جواد السيدة . أقسم بالشمس الساطعة فوقنا على أنه لو لم يكن ذلك عاراً لالصقتك فى الأرض برمى ، ولكن كن على ثقة ياموريس دى براسى من أنك ستألم من جراء ما ساهمت به فى هذا العمل الدنسر . فقال دى براسى :

— « إن من يتوعد أسيراً ، إنما يتوعدده وهو آمن ، ولكن متى أحس ساكسونى بأية لمسة من اللياقة ؟؟ ، ثم ارتد خطوتين إلى الوراء وأخلى للسيدة السبيل للمسير ، وقبل الرحيل ، أعرب سيدريك « للبطل الأسود » عن شكره الخالص ، وألح فى الرجاء بأن يصطحبه إلى رودروود وقال :

— « أعرف أنكم يامعشر الفرسان ترغبون فى حمل ثرواتكم على أسنة رماحكم ، ولا تحسبون للأرض أو المتاع أى حساب ، ولكن الحرب خلية

متقلبة ، وقد يكون البيت أحيانا مرغوبا فيه حتى من بطل يمتن التجوال .  
إني أمنحك إحدى ردهات روذوود أيها الفارس النبيل . إن سيدريك  
يمتلك من الثراء ما يني بإصلاح ما أفسد الحظ ، وكل ما يمتلكه إنما هو ملك  
لمنقذه . تعال إذن إلى روذوود لا كضيف ، ولكن كابن أو أخ ، .  
فقال الفارس :

— « لقد جعل مني سيدريك ثريا ، ولقني قيمة الفضيلة الساكسونية .  
سأتي إلى روذوود أيها الساكسوني المقدام وسيكون ذلك على وجه السرعة ،  
ولكن لدى الآن من الأمور الملحة ما يحول دون الذهاب إلى ديارك ،  
وعندما أذهب إلى هناك ، ربما سألتك مطلبا قد يكون محكا لجودك ، .  
فقال سيدريك وهو يدق بيده اليمنى على راحة يد الفارس الأسود من  
فوق قفازها :

— « إن حاجتك مقضية قبل أن تنطق بها . إنها مستجابة منذ الآن  
ولو كان في ذلك تضحية بنصف ثروتي ، . فقال الفارس صاحب شعار القفل :  
— « لا تسرف في وعدك بمثل هذه السهولة ، ومع ذلك فإني آمل أن  
أحصل على السؤال الذي سأطلبه ، وإلى أن نلتقي . . . وداعا . . . ، فاستبجع  
الساكسوني قائلا :

— « لم يبق لدى ما أقوله إلا أنني سأقيم في قاعات قصر أثيلستين النبيل  
بكوننجزيره في أثناء إقامة الطقوس الجنائزية الخاصة به ، وستكون هذه  
القاعات مفتوحة على مصاريعها لكل راغب في الاشتراك في الحفل الجنائزي ،  
وإني إذ أتكلم باسم السيدة « إديت » النبيلة والدة الأمير الفقيده ، أقول إنها  
لن تغلق الأبواب أبدا في وجه كل من جاهد ببسالة في سبيل إنقاذ أثيلستين  
من الأسلحة والأصفاة النورماندية ، حتى ولو كان هذا الجهاد قد أخفق . .  
وقال وامبا الذي كان قد استأنف خدمته لسيدته :

- نعم ، نعم ، سيكون هناك غذاء قل أن يوجد مثيل له . وإنه لمن بواعث الأسف أن أثيلستين النبيل لن يستطيع تناول طعامه في جنازته ، . ثم أضاف المهرج وهو يرفع عقيرته إلى السماء في رصانة ، ولكنه سيتناول عشاءه في الفردوس ، وهو بلا شك سيولى العشاء حقه من العناية وسيجعله بهيجا ، رفقاً سيدريك وقد كبح من جماح غضبه لهذه الدعابة التي جاءت في غير أوانها عندما تذكر ما أسداه إليه وأميا من الخدمات الأخيرة التي لم يطل العهد بها :

- ه ه ه ه ه ، وإلى الأمام ، .

لوحث رويبا بيدها تحية وداع رشيقة إلى صاحب شعاره القفل ، وأما الساكسوني فقد استودعه الله ، ثم ساروا قدما في الغابة سالكين إحدى طرقاتها الواسعة . وما إن مضوا ، حتى ظهر فجأة موكب طويل يتحرك تحت الغصون الخضراء ، ويزحف ويبدأ حول الفضاء المتدرج ، ثم سار في نفس الاتجاه الذي تسلكه رويبا وأتباعها . كان قساوسة أحد الأديرة المجاورة - انتظارا منهم لعطاء إناوة الروح ، الذي كان سيدريك قد وعد به - يسرون إلى جوار المحفة التي وضع فيها جثمان أثيلستين ، ويرتلون الأناشيد الدينية ، بينما كان أتباعه يحملونها على أكتافهم ، ويسرون مبطين في أسى إلى قصره بكونه جزيره كي يودعوه قبر هينجست الذي كان الفقيد ينحدر من سلالة ، واجتمع كثير من أتباعه عند سماعهم نبأ وفاته ، وساروا وراء النعش بكل ما للاكتاب والحزن من مظاهر خارجية على الأقل . نهض الخارجون على القانون مرة أخرى وأدوا للموت نفس التحية التلقائية الجافة التي كانوا منذ قليل قد أدوها للجمال ، وأعاد عليهم ترتيب القساوسة البطيء ذكرى من سقط من رفاقهم في معركة الأمس ، إلا أن مثل هذه الذكريات لا تبق طويلًا في أذهان أولئك الذين كرسوا حياتهم للمخاطر والمغامرة ، وقبل أن يتلاشى



صوت نشيد الموت مع الريح ، كان الخارجون على القانون قد كلفوا من جديد بتوزيع أسلحتهم . قال لوكسلي للبطل الأسود :

- « أيها الفارس الباسل ، يامن بدون قلبك الطيب وذراعك العاتق لاخفقنا في مهمتنا كل الإخفاق ، هل تفضل وتنتق من كومة الأسلاب هذه ما يروق لك ، وليذكرك بشجرة الميعاد هذه ؟ » فقال الفارس :

- « إني أقبل العرض بنفس الصراحة التي قدم بها ، وأطلب السماح لي بأن تترك لي حرية التصرف في أن أعامل السيرموريس دي براسي وفق ما يحلولي . » فقال لوكسلي :

- « إنه منذ الآن ملك لك وهذا من حسن طالعه ، وإلا لكان هذا الطاغية مدلى الآن من أعلى غصون دوحة البلوط هذه ومعه من « رفاقه الأحرار » كل ما نستطيع جمعه منهم ليدلوا من حوله وكأنهم حبات ثمار البلوط ولكنه أصبح الآن أسيراً لك وفي أمان ، مع أنه قاتل أبي . » فقال الفارس الأسود :

- « أنت منذ الساعة حر طليق يادي براسي فارحل عناً . إن ذلك الذي أصبحت أسيراه يسمو بنفسه عن انتقام وضع لأحداث مضت ، ولكن حذار من المستقبل ، وإلا حل بك ما هو أمر وأقى . أقول لك حذار ياموريس دي براسي . »

وفي صمت انحنى دي براسي انحناء عميقة ، وكان على وشك الرحيل عندما انطلقت من الرجال صرخة مفاجئة تفيض بغضا وسخرية . ولكن الفارس الصلب العنيد سرعان ما توقف واستدار نحوهم ، ثم طوى ذراعيه فوق صدره ورفع هامته إلى أقصى علوها وقال :

« الصمت أيها الكلاب النابحة التي تعوى عندما لا يكون الظبي في مأزق .  
إن دى براسى يوجه إليكم العنب على سخريتكم ويزدرى هتافكم . إلى آجامكم  
وكهوفكم أيها اللصوص الخارجون على القانون ، والتزموا الصمت عندما  
يصدر عن الفرسان أو النبلاء أى حديث حتى ولو كان على مبعدة فرسخ  
من أوكاركم ، .

كان من المستطاع أن يجر هذا التحدى الذى جاء فى غير موضعه على  
دى براسى وابلا من السهام لو لم يتدخل زعيم الخارجين على القانون الأمر على  
عجل ، وفى تلك الأثناء أمسك بعنان أحد الجياد - لأن بعض الخيول التى  
غنمت من حظائر فروندييف كانت تقف من حولهم مجهزة بالسلاح  
وكانت تعتبر غنا ثمينا - وامتنى صهوته ثم انطلق كالسهم المسارق فى  
بطن الغابة .

وعندما هدأت الجلبة التى أثارها هذا الحدث بعض الشيء ، انتزع  
الزعيم من عنقه البوق الثمين والأيقونة اللذين كان قد فاز بهما من مدة  
وجيزة فى مباراة رماية القوس بالقرب من آشى ، وقال يخاطب صاحب  
شعار القفل :

« إذا كان الشعم لا يأخذنك أيها الفارس النبيل وتشرقتى بقبول نفير  
سبق لرام إنجليزى أن حمله يوما ، فإنى أرجوك أن تحتفظ به كذكرى  
لسلوكتك الباسل . وإن اعترضك ما يحدث فى كثير من الأحايين لفارس  
شجاع ، ووجدت نفسك هدفا لهجوم عنيف فى أية غابة بين « ترينت ،  
و « تيز ، فانفخ هكذا فى البوق ثلاث مرات « وا - سا - هوا ، فمن المحتمل  
أذك تجد من يمد لك يد العون والنجاة ، .

ثم نفخ في البوق وردد النداء بالأسلوب الذي أوضحه مرة ومرة ومرة حتى استوعب الفارس الأنغام وقال :

— « أعمق الشكر على هديتك أيها الرامي الشجاع ، ولن أتلس عونا أفضل من عونك وعون رجالك لو وجدت نفسي في مسيس الحاجة إليه . »

ثم نفخ بدوره مرددا النداء حتى رجعت جميع أنحاء الغابة الخضراء صداه فقال الرامي :

— « لقد أجدت النفخ وكان واضحا . كذبتى إذا قلت لك إنك لا تلم بفنون الصيد للمامك بأساليب القتال . أراهن على أنك كنت صائد ظباء في يومك . انتهوا أيها الرفاق إلى هذه الأنغام - النوبات الثلاث - فهي نداء فارس القفل ، وكل من يسمعه ولا يهب إلى نجدته في محنته ، فسأطرده من صفوفنا بعد أن ألهب ظهره بوتر قوسه . » فصاح الرجال :

— « عاش قائدنا ! عاش الفارس الأسود صاحب شعار القفل ! ليته يصبح في حاجة إلى خدماتنا عاجلا كي نثبت له أننا سنلبي نداءه دون ما إبطاء . »

تقدم لو كسلي آتذ لتوزيع الأسلاب ، وقد قام بهذا العمل بقسطاس يستحق معه أعظم الثناء ، إذ أنه وضع جانبا مقدار عشر مجموعها واختص به الكنيسة والأغراض الدينية ، وخصص قسطا منها لبيت المال ، واحتجز جزءا آخر لأرامل أولئك الذين سقطوا صرعى وأبنائهم ، أولينفق في تلاوة الصلوات على أرواح أولئك الذين قضوا ولم يخلفوا من ورائهم ذرية ، وقسم الباقي بين الخارجين على القانون طبقا لرتبهم وجدارتهم ، وإذا حدث من الأمور ما يبعث على الشك فإن الزعيم يصدر حكمه بفطنة بالغة ، والرجال يتقبلونه بالخضوع المطلق ، فدهش الفارس الأسود أشد الدهشة عندما وجد

أن رجالا مثل هؤلاء المتمردين يحكمون فيما بينهم بنظام وعدل ، وكان كل ما يراه باعنا على تقديره لعدالة زعيمهم وثاقب فكره .

وعندما أخذ كل واحد منهم قسطه من الغنيمة ، وبينما كان أمين بيت المال يرافقه أربعة رجال فارعى الطول يحملون نصيب الدولة إلى مكان مخف أمين ، بقى ما يخص الكنيسة دون أن يمس ، وقال الزعيم :

— « وددت لو نسمع أنباء عن قسنا المرح . ليس من دأبه أبدا أن يغيب إذا ما بورك طعام أو وزعت أسلاب ، هذا ومن واجبه أن يقوم على رعاية العشور من مهمتنا الموفقة . قد يساعد المنصب على إخفاء بعض الشواذ المخالفة لقوانين الكنيسة ، فعندى أيضاً أحد إخوانه المقدسين وهو سجين في مكان غير بعيد ، وأرغب في أن يكون الراهب هنا معنا ليغيننى على معاملته بالأسلوب اللائق به . إنى أرتاب أشد الريبة في أن القس المخادع قد نجما ، فقال فارس القفل :

— « إنى لجد حزين على ذلك لأنى مدين له بالضيافة المرححة في ليلة ماجنة قضيتها في صومعته . فلنذهب إلى أطلال القصر ، فر بما ترامت إلى أسماعنا بعض الأنباء عنه .

وبينما كان الحديث يدور بينهما على هذا النحو ، إذ بصيحة عالية تنطلق بين الرجال معلنة عن مقدم ذلك الذى كانت قلوبهم تخفق جزعا على سلامته ، وقد عرفوا ذلك من صوت الراهب الجهير قبل أن يروا جسده البدين بوقت طويل ، ونادى قائلا :

— « أفسحوا لى الطريق أيها الرجال المرحين — أفسحوا مكاناً لآيكم الروحى وأسيره — اهتفوا بالترحاب مرة أخرى — لقد جئت يا زعيمى النبيل كالنسر ووريسى بين مخالبى . » ثم شق طريقه وسط الجمع ، وبين

ضحكات كل من كانوا حوله ، وقد بدا في نصر مبین ، وعصاه الغليظة في إحدى يديه ، ومقود جواد في الأخرى وقد ثبت طرفه الثاني إلى عنق إسحق أوف بورك التمس الذي أحنى الأسي منته ، وكان القس الظافر يقوده ويصرح عالياً :

- « من لي » بالن آدال ، كي يكتب لي الخلود في ملحمة أوحى في مقطع واحد ؟ . أقسم بالقديس « هيرمانجيلد » ، على أن هذا المزاحم الرثارة يحنى من الطريق على الدوام ، عندما يكون هناك من الأمور ماهو جدير بتمجيد البسالة ، فقال الزعيم :

- « لقد بلك قداسك بالخمر في مثل هذا الوقت الباكر من الصباح أيها القس الفظ . خبرني بحق القديس نيقولاس عن أمر هذا الرجل الذي أتيت به إلى هنا . فأجاب راهب كورمانهيرست :

- « لقد أتيت بأسير سيفى ورحى أيها الزعيم النبيل ، بل بأسير قوسى وبلطتى ، ومع ذلك فقد أنجيتته بفضل قدسي من أسر أشد سوءاً . تكلم أيها اليهودى - ألم أدفع الفدية عنك لاشيطان ؟ ألم ألقك صلوات والإيمان . و « أبانا الذى فى السموات ، و « السلام لك يا مريم ، ؟ ألم أقض الليل بطوله أشرب من أجلك وأفسر لك الخفايا المقدسة ؟ فصاح اليهودى المسكين :

- « من أجل محبة الرحمن ! ألا يأخذتنى أحد منكم من رفة هذا المجنون - أقصد هذا الرجل المقدس ؟ ، فقال الراهب بامحة منذرة :

- « كيف هذا أيها اليهودى ؟ أتتنكر لما آمنت به أيها اليهودى ؟ فكر فى أنك إذا ارتددت إلى كفرك ، فسأتناول إفتارى على لحك ، ومع أنه ليس غضاً كاحم خنزير رضيع ، إلا أنه ليس من الصلابة بحيث يستعصى شواؤه . استرح يا إسحق وردد ورائى الكلمات الآتية : « السلام لك يا مريم . . . . . فقا بلعه لو كلى قانلا :

— كلاً لن نرضى بانتهاك حرمة العقائد الدينية أيها القس المجنون.  
دعنا بدلاً من ذلك نسمع كيف وجدت أسيرك هذا ، . فقال الراهب :

— أقسم بالقديس دونستان على أنى وجدته حيث كنت أبحث عن  
بضاعة أفضل . لقد خطوت داخل قبو الخمر لأرى ما يمكن إنقاذه هناك ،  
وطاف بفكرى أن كأساً من النبيذ المحترق مضافاً إليه التوابل هو شراب  
الاباطرة فى المساء ، فرأيت أنه من الضياع أن يترك المرء مثل هذا القدر  
من الشراب الشهى العطر يحترق دفعة واحدة . كنت ممسكاً بوعاء من النبيذ  
وذهبت لأطلب المزيد من العون من هؤلاء الأوغاد الكسالى الذين يجرى  
البحث عنهم عادة إذا ما وقع حدث جلل ، فإذا بى الملح باباً قوياً وطاف  
بفكرى ، أها ! هنا أفضل ما فى هذا القبو السرى من شراب ، ورأيت  
الساقى الوغد — وقد أصابه الفزع فى أثناء قيامه بعمله — قد ترك المفتاح  
فى الباب ، وبذا دخلت فلم أجد شيئاً ما سوى مجموعة من السلاسل الصدئة ،  
وذلك الكلب اليهودى الذى أسلم نفسه على الفور أسيراً لى سواء أواتته  
النجاة أم لا . أنعشت نفسى بعد جهد هذا العمل مع هذا الكافر بكأس  
رناثة من النبيذ ، وعندما تقدمت لاقتياد أسيرى ، إذ بى أسمع جدران  
برج خارجى تتداعى واحداً إثر آخر مدوية كالرعد القاصف ، والنار  
المتأججة ( تباً لأيدى أولئك الذين لم يقيموها أشد بنياناً ) قد سدت المسالك  
أمامى ، وكان زئير انهيار برج يتبعه زئير آخر جعلنى أقطع الرجاء من  
الحياة ، ولما رأيت أنه من العار لشخص فى مثل مهنتى أن يرحل عن هذا  
العالم فى صحبة يهودى ، رفعت رمحى كى أحطم رأسه ، ولكنى أشفقت  
على شعره الأشيب ، فرأيت أنه من الأفضل أن أخفضه وأعمل بسلاحى  
الروحى لهديته ، واستطعت ببركة القديس دونستان أن أغرس الحبة فى  
فى أرض طيبة ، ولكنى شعرت بدوار فى رأسى من جراء حديثى طوال  
الليل عن الأسرار المقدسة ، ولأنى كنت شبه صائم ( لأن قطرات النبيذ

القليلة التي شذت بها قريحتي لم تكن جديرة بالذكر) ، ولكني كنت  
حنهوك القوى حقا . إن « جيلبرت ، و « ويالده ، يعرفان في أية حالة  
ألفياني - كنت متعبا أشد التعب ، ، فقال جيلبرت :

« إننا نقر قوله لأننا عندما رفعنا الأناقض بعون القديس دونستان،  
نزلنا الدرج إلى القبو فوجدنا وعاء النبيذ نصف خاو ، واليهودي نصف  
ميت ، والراهب أكثر من نصف متعب كما يسمى ذلك ، فغضب الراهب  
ورد الإهانة قائلا :

« إنكما وغدان ! إنكما تكاذبان ! إنكما أتما ورفاقكما الزهيمين الذين  
احتسبتم النبيذ وأسببتموه شرابكم الصباحي - إنى أكون وثنيا لو لم أكن  
قد ادخرته كشراب للزعيم نفسه ، ولكن ماذا علينا ؟ إن اليهودي قد  
أصابه الهدى واستوعب كل ما قلته له على وجه التقريب . . فقال الزعيم :

« ، أصحح ما يقول أيها اليهودي ؟ هل أقلمت عن كفرك ؟ ، .  
فأجاب اليهودي :

« أرجو أن تنظر إلى بعين الرحمة لأنى لأعنى كلمة واحدة مما تحدث  
به إلى ذلك الحبر الجليل طوال هذه الليلة الرهيبة . واأسفاه ، لقد استبد  
بى الذهول وكنت نهبا للألم والفزع والأسى ، حتى ولو جاءنى أبونا المقدس  
إبراهيم ليعظنى ، لما وجد منى إلا أذنا صماء . . فقال الراهب :

« إنك تكذب أيها اليهودي وأنت تعرف أنك كاذب . لن أذكرك  
إلا بكلمة واحدة من الحديث الذى دار بيننا - لقد وعدت بأن تهب جميع  
ثروتك لنظامنا المقدس . . فقال إسحق وقد فاض به الجزع :

« أقسم بأرض الميعاد أيها السادة الأخيار على أن شفقتى لم تنبسا

بمثل هذا القول . وا اسفاه ا لاني رجل مسن معدم ، وأخشي ألا يكون لي ولد أيضا . ترفقوا بي ودعوني أرحل ا ، . فقال الراهب :

— . كلا ، إذا كنت تحنث في القسم الذي صدر عنك لصالح الكنيسة المقدسة ، فيجب أن ينزل بك ما يكفر عن وزرك هذا .

ثم رفع رمحه ، وهم يانزال عصاه بقوة على كتفي اليهودي لو لم يحل الفارس الأسود دون ذلك ، فارتد غضب الراهب المقدس إلى نحره ، واسترسل قائلا :

— أقسم بالقدّيس توماس أوف كنت على أني سأتمنطق بسلاحى وأعلمك ياسيدى المحب الكسول كيف تعنى بشئونك وحدك رغم حفاظك الحديدى هذا . فقال الفارس :

— . كلا ، لا ياخذتك الغضب منى فانت تعلم أنى صديقك ورفيقك الوفى ، . فقال الراهب :

— . أنا لا أعرف شيئا من هذا ، وأتمدك لأنك فضولى مختال ، . فقال الفارس وقد ابتهج لأنه استطاع أن يثير الرجل الذى سبق له أن استضافه يوما :

— . كلا ، ولكن هل غاب عن ذهنك ( وأنا لا أشير إلى إغراء الزجاجة والفتيرة ) إنك قد حنثت فى قسمك بالصوم والسهرة على الصلاة ؟ . فقال الراهب وهو يقبض يده الضخمة :

— . سأهديك أيها الصديق لطمة ، .

— . لاني لا أقبل مثل هذه الهدايا ، بل أنا قانع بأن أتلقى صفعتك



على سبيل القرض ، ولكنى سأرده إليك ومعه فوائده كأهبط ما كان أسيرك هذا يتقاضى في أثناء مزاولته لمهنته .

— « سأسوق الدليل علي ذلك الآن ، . فصرخ الزعيم .

— « هولا ! ماذا أنت فاعل أيها الراهب المجنون ؟ أتثير تجاراً تحت شجرة الميعاد هذه ؟ ، فقال الفارس :

— « إنه ليس شجاراً بل تبادل ودي للجمالة . اضرب أيها الراهب إن اجترأت ، وسأقوى على احتمال ضربتك إذا استطعت أن تحمل ضربتي ، . فقال رجل الكنيسة :

— « إنك تميز عنى بهذا الوعاء الحديدى الذى تضعه فوق رأسك ، ولكن سيان عندى فسأطرحك أرضاً حتى ولو كنت ، جولياث أوف جاث ، فى خودته النحاسية ، . ثم شمر الراهب عن ساعده المفتول وكال للفارس لطمه أودع فيها كل قوته وكانت كفيلة بأن تسقط ثوراً ، إلا أن خصمه ظل صامداً كالصخر ، فأطلق جميع الرجال الملتفين بهما صرخة عالية لأن قبضة يد الراهب كانت مضرب الأمثال ، ولم تنح الفرصة للقلائل منهم أن يتبينوا مبلغ قوتها سواء أ كان ذلك فى هزل أم فى جد . قال الفارس وهو يخلع قفازه :

— « وإلآن أيها القس ، إن كان هناك فوق رأسى إحدى المميزات فلن أحفظ فى يدي بأية ميزة . قف ثابتاً كرجل ، . فقال الراهب :

— « لقد أدت صفحة وجهى للضارب ، ولو استطعت أيها الرجل أن تقصينى عن مكانى قيد أملة ، فإنى أمنحك فدية اليهودى عن رضى ، هكذا قال القس الضخم الصاخب ، وهو من ناحيته يتظاهر بالتحدى الصارخ ، ولكن

من ذا الذى يستطيع أن يصمد أمام قدره ! لقد هوت اطمة الفارس بعنف وعزم أكيد حتى إن الراهب سقط يتمرغ فوق الأرض رأساً على عقب وسط الدهشة الشديدة التى عمت جميع الناظرين ، ولكنه نهض غير غاضب أو ذليل ، وقال للفارس :

— « كان الأجدد بك يا أخى أن تستعمل قوتك بمزيد من الحصافة - لو كنت قد حطمت فكى لما استطعت أن أؤدى إلا صلوات عرجاء ، فعازف المزمارة لا يستطيع الإجابة إذا بتر الجزء الأسفل من أصابعه ، ومع ذلك فهناك يدى كاعتراف ودى بأتى لن أبادلك اللطامات حيث أتى خسرت المباراة فلننته الآن من كل خصومة وجفوة ، ولنتقاض من اليهودى فديته ، وطالما أن الفهد لن يبدل من أماكنه ، فإن اليهودى سيظل كما هو ما بقى حياً . فقال كليمنت :

— « إن القس لم يعد واثقاً كل الثقة فى توبة اليهودى منذ أن تلقى هذه اللطمة على أذنه . »

— « إليك عنى أيها الوغد - ماذا يحدو بك إلى أن ترج بنفسك فى هذا الجدل . ماذا ؟ . أليس هناك من صون للكرامة ؟ أليس الكل سادة لارجالا ؟ هأنذا أقول لك يارجل إننى كنت أترنح بعض الشيء بعد أن تلقيت لطمة الفارس القوية ، وإلا لسكنت قد احتفظت بالأرض من تحنى بعدها ، ولكنك إذا سخرت منى إلى أكثر من هذا ، فستعلم أنى أستطيع أن أعطى كما أتلقى . » فقال الزعيم :

— « التزموا الصمت جميعكم ! وأنت أيها اليهودى فكر فى فديتك - لست بحاجة إلى أن تقول لك إن جنسك يعتبر موضع لعنة من الشعوب المسيحية قاطبة - وصدقنى إننا لانستطيع أن نطبق وجودك بين ظهرائنا -

فكر إذن فيما تعرض حتى أفرغ من استجواب أسير من نوع آخر ، . فسأل  
الفارس الأسود :

د هل وقع كثير من رجال فروندييف في الأسر ؟ .  
فأجاب الزعيم :

د لم يكن من بينهم مرموق يستطيع أن يدفع الفدية ، بل كانوا جماعة  
من الطبقة الدنيا فأطلقنا سراحهم ليجثوا عن سيد جديد . لقد قنا بالكثير  
من الانتقام والنفع . إن هذا الجمع كله لم يكن لباوى قلامة ظفر . السجين  
الذى أتحدث عنه غنيمة أفضل - إنه راهب طروب يسافر راكبا لزيارة  
غانيته كما أستطيع أن أقرر ذلك من أدوات جواده ومن رذائه . ها هو ذا  
الحبر الجليل قد أقبل وهو رجل سليط اللسان ، .

وجاء رجلان بصديقنا رئيس الدير آيمر أوث جورفولكس ، واقتربا  
به حتى أصبح قبالة عرش زعيم الخارجين على القانون .

## الفصل الثالث والثلاثون

يا زهرة المحاربين :

كيف تجرى الأمور مع لاريتوس ؟

– مارسياس : كما تجرى مع رجل تشغله القوازين .

يقضى على البعض بالموت وعلى البعض الآخر بالنفي ،

يتقاضى الفدية من شخص . أو يترفق بآخر فينذره .

( كورليانوس )

كان يبدو على قسبات رئيس الدير الأسير ومظهره خايط غريب من كبرياء مجروح ، وأناقة مضطربة ، ورعب ملك عليه كل جوارحه ، فقال وقد امتزجت بصوته هذه الأحاسيس الثلاثة ببعضها البعض :

– كيف هذا أيها السادة ؟ أى نظام ذلك الذى تنهجونه ؟ أترك أتم أم مسيحيون حتى تقبضوا على رجل من رجال الكنيسة ؟ أتعلون ما هى العقبي من وراء الاعتداء على من هم فى خدمة الله ؟ لقد سلبتمونى أوراقي ومزقتم ردايى الدينى المصنوع من الدمقس النادر المزركش والذى يليق بأحد الكرادلة . لو أن شخصاً آخر فى موقفي لأعمل سلطته فى اعتباركم مطرودين من رحمة الكنيسة . ولكنى عطوف كثير التسامح ، وإذا ما أمرتم بإعداد جيادى ، وأطلقتتم سراح إخوتى ، وأعدتتم لى رسائلى ، وعدتتم بأسرع ما تستطيعون مائة قطعة ذهبية لتنفق على إقامة قداس على مذبح دير جير فولكس السامى ، وتعلنون النذر بالآلاتأكلوا لحم الظباء حتى عيد العنصرة المقبل ، فن المحتمل أن أتجاوز عن هذا العبث الجنونى . . فقال زعيم الخارجين على القانون :

— « إنه ليحزننى أيها الأب المقدس أن أفكر فى أنه قد لحق بك على يد واحد من أتباعى من السلوك ما أستحق عليه تقريبك الأبوى .  
فصاح القس وقد بعث لهجة قائم رجال الغابات الرقيقة الشجاعة فى نفسه :

— « سلوك ! إنه سلوك لا يليق بأن يعامل به كلب أصيل ، فما بالك  
بمسيحى - بل بقس - بل وأكثر من هذا كله برئيس دير جماعة جيرفولكس  
المقدسة . ها هنا منشد دنس مخمور يدعى « ألان آدال » ، - عليه اللعنة -  
قد أندرنى بعدوان بدنى - كلا بل وبالموت نفسه إن لم أضع له فدية قدرها  
أربعمائة قطعة ذهبية بالإضافة إلى ما سلبه منى من غالى المتاع : سلاسل  
من ذهب ، وخواتم مرصعة لا تقدر بمال ، هذا عدا ما حطته وأتلفته  
أيدي الرجال الغلاظ كعلبة أدوات كتابتى وملقطى الفضى . فأجاب الزعيم :

— « من المحال أن يكون « ألان آدال » قد سلك مثل هذا السلوك  
مع رجل فى مثل مظهرك الوقور . » فقال رئيس الدير :

— « إنه الصدق كأنجيل القديس « نيقوديماس » . لقد أقسم عدة أيمان  
غليظة من تلك التى تسود بلاد الشمال على أنه سيشتقى فى أعلى شجرة  
فى الغابة . »

— « هل فعل ذلك حقاً كلا أيها الأب الجليل . أظن أنه من الأفضل  
لك أن تجيبه إلى ما طلب الآن . « أن آدال » موثق الوعد بكلمة تصدر  
عنه . » فقال رئيس الدير بضحكة معتصبة ، وقد استبد به الدهول والحيرة :

— « لا مرأى فى أنك مازح ، وإنى من أعماق قلبى أهوى المزحة  
المستملحة ، ولكن هاهاهاها إذا كان المرح قد استنفد الليل بطوله  
فقد آن للجد أن يأتى مع الصباح . » فقال الخارج على القانون :

— « وأنا جاد كأحد الآباء الذين يتلقون الاعتراف . يجب أن تدفع

فدية كاملة ياسيدى الراهب ، وإلا فيدعون إلى إجراء انتخاب جديد في ديرك ، ولن يعرفك منصبك بعد اليوم ، فقال رئيس الدير :

- « مسيحيون أتم وبصدر عنكم مثل هذا القول لرجل من رجال الكنيسة ؟ ، فأجاب الخارج على القانون :

- « مسيحيون ! نعم ، وهل في ذلك من ريب ؟ وفضلا عن ذلك فإن من بيننا رجلا من رجال اللاهوت . فليتقدم كاهننا الباش البدين ويتلو على هذا الأب المبجل النصوص التي تتعلق بهذا الشأن ، .

كان الراهب في حالة بين بين - نصف ثمل ونصف واع - وقد ارتدى زى راهب فوق ثوبه الأخضر ، واستجمع مقتطفات العلم التي تعلمها في الأيام الخالية عن طريق الحفظ عن ظهر قلب وقال :

- « أيها الأب المقدس ، ليحقق لك الله السلام ، على سعة ورحب بك في الغابة . » فقال رئيس الدير :

- « ما هذا الهزل الدنس ؟ لو كنت أيها الصديق من رجال الكنيسة حقا ، لكان من الأجدر بك أن تدلني على طريق الخلاص ، بدلا من وقوفك هكذا تتمايل وتبتسم كإحدى الراقصات ، . فقال الراهب :

- « إنى حقا لا أعرف أيها الأخ المبجل إلا وسيلة واحدة تستطيع بواسطتها الإفلات . إن اليوم هو عيد القديس « أندروس » عندنا ، ونحن نقوم على تحصيل المشور في يومنا هذا . » فقال رئيس الدير :

- « ولكنى آمل أيها الأخ الطيب ألا تحصلوها من الكنيسة . » فقال الراهب :

« من الكنية ومن العلبانيين، ولذلك فأوصيك بأن تتخذ ياسيدي  
رئيس الدير من ذلك الذى يقوم بالإففاق على الأشرار صديقاً لك ، فما من  
صداقة أخرى تستطيع أن تقدم لك عوناً ، ، فقال رئيس الدير متتداً :

« إني أحب رجل الغابات المرح من صميم قلبي . هيا ، يحمل بكم  
ألا تكونوا قساة معي — إني أعرف الكثير عن العيش في الغابات ،  
وأستطيع أن أتفخ في البوق نفخاً واضحاً قوياً ، وأبعث منه دويماً تردد  
أشجار البلوط صدها . هيا ، يحمل بكم ألا تكونوا قساة معي . ، فقال  
الخارج على القانون .

« أعطوه بوقاً ولنختبر المهارة التي يزعمها ، .

وعلى هذا نفخ أمير رئيس الدير في البوق فهز الزعيم رأسه وقال :

« إنك تعرف نفماً بهيجاً ياسيدي الراهب ولكنه لن ينجيك  
من دفع الفدية ، إننا لا نستطيع أن نطلق سراحك من أجل نفخة في بوق  
كما تقول لإحدى الأساطير على درع فارس شجاع ، لقد استبنت حقيقتك .  
إنك أحد أولئك الذين يشوهون أنغام النفير الإنجليزية القديمة بتلك الحثالات  
الفرنسية الحديثة « ترا — لى — را ، . إن عزفك الأخير على البوق أيها  
الراهب قد أضاف خمسين قطعة ذهبية إلى فديتك ، لأنك أفسدت أنغام  
الصيد القديمة الصادقة التي تنم عن الرجولة . ، فقال الراهب برما .

« حسناً أيها الصديق ، إنه لمن العسير إرضائك فيما يتعلق بشئون  
الغابة . أرجو أن تكون أكثر ترفقاً بي في أمر فديتي هذه ، وقصارى  
القول : بما أنى مكره هذه المرة ، فأرأى مسوقاً إلى أن أمسك بالشمعة  
لأنير للشيطان الطريق . أية فدية ينبغي على أن أدفعها كي أستطيع أن  
أسير في مسلك « واتلينج ، دون أن يتعقبني خمسون رجلاً ؟ ، .

— « لو أذتم لي فإني أستطيع أن أبعث إلى يورك في طلب ستمانة قطعة ذهبية من بعض الأموال المودعة عندي ، على أن يعطيني رئيس الدير المبجل صكا بها . » فقال الزعيم :

— « إنه سيعطيك كل ما تشاء يا إسحق ، وستدفع الفدية عن الراهب آيبر كما ستدفعها عن نفسك . » فقال اليهودي :

— « عن نفسي ! أواه يا سادتي البواسل ! إني رجل معوز لا أملك مالا ، ولو دفعت لكم خمسين قطعة ذهبية لكان نصيبي عصا التسول مدى الحياة . » فقال الزعيم :

— « سيصدر رئيس الدير حكمه في هذا ، فما قولك أيها الأب آيبر ؟ هل يستطيع اليهودي أن يدفع فدية مجزية ؟ . » فأجاب رئيس الدير :

— « هل يستطيع أن يدفع فدية ! أليس هو إسحق أوف يورك الذي يبلغ من الثراء حداً يستطيع معه أن يفندي قبائل إسرائيل العشرة التي خضعت لعبودية الأشوريين ؟ إني نفسي لم أر منه إلا القليل ، ولكن خازن أقيتنا وأمين أموالنا كانا كثيراً ما يتعاملان معه ، وتقول التقارير إن منزله بمدينة يورك مليء بالذهب والفضة بما يعتبر عاراً على بلد مسيحي . إنه لعجيب أن ترضى كل هذه القلوب المسيحية النابضة بالحياة بأن تعلق مثل هذه الأفاعى الناهشة في أحشاء الدولة — بل وفي أحشاء الكنيسة المقدسة نفسها بالربا الدنس وابتزاز الأموال ! » فقال اليهودي :

— « حنانيك يا أبي وهدى من سورة غضبك . أرجو من قداستك أن تذكر أنني لا أفرض نقودي على أحد ، ولكن عندما يأتي إلى رجل الكنيسة والعلاني ، والأمير ورئيس الدير ، والفارس والقس ويقرعون باب إسحق فإنهم لا يقترضون المال منه بتلك العبارات التي لا تمت إلى التهذيب بصلة ، بل إنهم آنذاك يقولون . أيها الصديق إسحق ، هل لك أن تبعث المسرة



في نفوسنا بأن تقضى لنا حاجة ؟ سنحترم يوم الوفاء احتراماً صادقاً والله على ما نقول شهيد . ويقولون أيضاً : لو كنت قد قتت يا إسحق الرحيم على خدمة أحد من قبل ، فأقم الدليل على أنك صديق في هذه الشدة . فإذا ما آن موعد الوفاء ، وطايت بحقي ، فماذا أسمع سوى كلمات اليهود اللعين ، و لعنة مصر على قومك ، وكل ما يثير الشعب الغليظ اللفظ ضد الغرباء المساكين . فقال الزعيم :

- مع أن اليهودى لم يقل إلا صدقاً أيها الراهب ، فإننا نطلب إليك أن تحدد فديته كما فعل مع فديتك دون إسراف في نأى الكلم ، فقال رئيس الدير :

- إنه لو غد ذلك الذى يضع أسقفاً مسيحياً ويهودياً غير مُعتمد في مرتبة واحدة ، ولكن مادمتم تطلبون منى أن أضع ثمناً لهذا الحقير ، فإنى أقولها لكم صريحة لا لبس فيها ولا غموض إنكم تحيدون عن جادة الصواب إن أخذتم منه أقل من ألف قطعة ذهبية بمقدار بنس واحد، فقال الزعيم :

- إنه قضاء ، إنه قضاء ، وردد رجاله القول :  
- إنه قضاء ، إنه قضاء ، إن المسيحى قد دلى على كريم عنصره وسامى طبيعته أكثر مما فعل اليهودى . فقال إسحق :  
- فليعمل إله آبائى على عرقى ، أتريدون القضاء على مخلوق معدم ؟  
إنى اليوم بلا ولد ، وتريدون أن تضنوا على بسبل الحياة ؟ ، فقال آيبر :  
- ستكون مطالب حياتك والتزاماتها أقل أيها اليهودى مادمت بلا ولد .  
فقال إسحق :

× د وا أسفاه ياسيدى ، إن قوانيسكم لا تجيز لكم أن تعرفوا كيف ترتبط أولادنا بحبات قلوبنا - أو اه ياريكا ، يا ابنة راشيل الحبية ، لو كانت كل ورقة على هذه الشجرة قطعة من فضة ، وكانت جميعها ملكاً لى ، لما ضننت بكل هذا القدر من الثراء لأعرف ما إذا كنت لاتزالين

على قيد الحياة وأفلت من يدي النصراني ، فقال أحد الخارجين على القانون :

— « أو لم تكن ابنتك ذات شعر أسود ؟ وألم تكن ترتدي خماراً رقيقاً  
موشى بالفضة ؟ ، فقال الرجل الهرم وهو يرتجف لهفة على مصير ابنته كما  
كان يرتعد من قبل هلعاً :

— « نعم ، نعم ، فليباركك بعقوب ، أأستطيع أن تبني بشيء عن  
سلامتها ؟ ، فقال الرجل :

— « إذن فهي التي كان فارس المعبد الصلف قد اقتنصها عندما شق  
طريقه وسط جموعنا مساء أمس ، وقد شددت قوسى لأرميه بسهم ،  
ولكنى أبقيت عليه من أجل الفتاة خشية أن يصيبها السهم بسوء .  
فقال اليهودى :

— « آواه ، وددت إلى الله لو كنت قد رميتها به حتى ولو نفذ في حشاها ،  
فوالله إنه لمن الأفضل لها أن يشويها رمس آبائها ، من أن ترقد في المدع  
الذئس لفارس المعبد الفاسق الشرير . أيا ، إيكابود ، أيا ، إيكابود ،  
لقد هجر المجد بيتك ، فقال الزعيم وهو يتلفت حوله :

— « إن الرجل المسن أيها الأصدقاء ليس إلا يهودياً ، ومع ذلك فإن  
أساه قد مس عواظي . أصدقنا القول يا إسحق : هل تصبح معدماً كل العدم  
إذا مادفعت فدية قدرها ألف قطعة ذهبية ؟ ، .

رأى إسحق نفسه مسوقاً إلى أن يعاود التفكير في ممتلكاته التي كان  
حبها متأصلاً في نفسه بطبيعته ، وينافس حتى خانة الأبوي ، فشجب لونه  
وتلعثم لسانه ، ولم يستطع أن ينكر أنه قد يتبقى لديه فائض قليل . فقال  
الخارج على القانون :

— « حسناً — هيا إذن — لن نسرف في القسوة عليك مهما يكن في

الامر من شيء . إن الأمل الذي يراودك في خلاص ابنتك من براثن سير بريان دي بواجيلبرت دون أن تدفع مالا ، كامل من يريد أن يصد ظيماً ملكياً بسهم بلا رأس - سنطلب إليك أن تدفع فدية كفدية الرئيس أمير ، بل وأقل منها بمائة قطعة ذهبية ، وستكون هذه خسارة خاصة بي وهي ليست بالهينة على هذه الجماعة المبعجلة ، لأننا بهذا سنجنب ارتكاب وزر إذا وضعنا تاجراً يهودياً وأسقفاً مسيحياً في كفتى ميزان ، وسيتقى لديك ستمائة قطعة ذهبية لتساوم بها على فدية ابنتك . إن فرسان المعبد يكفون بيريقي الفضة كلفهم بيريقي العيون السوداء . هيا ، أسرع وأجعل قطع نفودك ترن في أذن دي بواجيلبرت قبل أن تسوء الأمور . ستجده - كما جاء في تقرير كشافينا - في مركز طائفته المجاور لنا . هل أصبت القول أيها الرفاق المرحون؟ .

أعرب الرجال عن موافقتهم المطلقة على ما ارتآه زعيمهم ، أما إسحق الذي زالت عنه نصف آلامه عندما علم بأن ابنته لازالت على قيد الحياة ، وأنه أصبح من المتطاع افتداؤها ، فقد ألقى بنفسه عند قدمي الخارج على القانون ذي المروءة والنخوة ، ومرغ لحيته في حذائه وهو يحاول أن يقبل طرف عباة الخضر ، فارتد الزعيم إلى الوراء نائياً بنفسه عن يد اليهودي دون أن يخفى بعض أمارات الازدراء وقال :

- ه كلا ، عار عليك - انهض يارجل ! إنني إنجليزي المولد ولا أرضى عن مثل هذا الركوع . اسجد لله وحده لا لآثم مسكين مثلي . قال رئيس الدير أمير :

- ه نعم أيها اليهودي ، اسجد لله ممثلاً في خادم مذبحه المقدس ، ومن يدري . . . ماذا سيهود عليك وعلى ابنتك ريبكا من نعم ومثوبة جزاء توبتك الصادقة ، وعطاياك المستحقة لكعبة القديس روبرت ! إنني لجد حزين من أجل الفتاة لأنها مليحة الوجه وسيمة - لقد رأيتها في ساحات آشي ، هذا وبريان دي بواجيلبرت أحد أولئك الذين أستطيع أن أنجز

معهم الكثير من الامور . فكر في أنه يمكنك الحصول منى على كلمة طيبة له . . فقال اليهودى :

— « وا أسفاه ! إن الطامعين يحيطون بى من كل جانب — لقد وقعت كفريسة » . فقال رئيس الدير :

— « واى مصير تظنه أن يكون لقومك الملاحين غير هذا المصير ؟ ماذا ، ألم يقل الكتاب المقدس عنكم : « لقد نبذوا كلمة الله المنزلة ؟ ، ألم يقل « إن عقولهم خاوية » ؟ ألم يرد به « سأهب نساءهم لقمة سائفة للغرباء » ، ( كما لفارس المعبد فى حالتنا هذه ) ؟ « وإن كنوزهم لغيرهم » ، ( كما فى حالتنا هذه لهؤلاء السادة الشرفاء ) ؟ ، فصدرت عن إسحق زفرة عميقة وبدأ يعتصر يديه ويعود إلى ما كان عليه من كآبة ويأس ، ولكن زعيم الرجال اتحنى به جانبا . وقال لوكسلى :

— « كن حصيفا يا إسحق فيما أنت مقدم عليه — نصيحتى إليك أن تتخذ من هذا القس صديقا لك — إنه مغرور بهم يا إسحق وهو فى حاجة إلى الماان ليرضى إسرائفه . إنك تستطيع إشباع نهمه فى غير مشقة ولا عناء . لا تظن أنى خدعت بمزاعمك عن فقرك ، فأنا أعلم علم اليقين يا إسحق بالخزائنة الحديدية التى تحتفظ فيها بأ كياس نقودك . ماذا ! أأستأعرف الحجر الكبير المطمور أسفل شجرة التفاح ، والذى يؤدى إلى الغرفة المقبية تحت حديقتك فى يورك ؟ ، وعند هذا أصبح وجه اليهودى شاجبا كوجوه الموتى واسترسل الزعيم قائلا :

— « ولكن لا تخش منى شيئا يا إسحق فكلانا يعرف صاحبه منذ أمد بعيد . ألا تذكر رجل الغابة المريض الذى أنقذته ابنتك الجميلة ريبكا من الأصفاد والقيود فى مدينة يورك ، ، واستبقته فى دارك حتى استرد قوته ، وعندما انصرف معافى ، منحته قطعة من النقود ؟ ومع أنك مراب إلا أنه

حامن مال قد استثمرته وعاد عليك بفائدة أكثر مما عادت عليك به تلك القطعة الفضية الزهيدة ، فقد أنقذت لك خمسمائة قطعة ذهبية . فقال إسحق :

— « إذن فأنت الذي كنا ندعوه « ديكون جاذب القوس » ، لقد خيل إلى أنى أعرف نبرات صوتك » . فقال الزعيم :

— « أنا ديكون جاذب القوس » ، و « لوكلي » ، ولى اسم طبيب آخر غير هذين الاسمين » .

— « ولكنك يا جاذب القوس قد أخطأت فيما يختص بتلك الغرفة المقبية . إن السماء شاهدة على بأنه ليس بها إلا بعض بضائع سأقتسمها معك عن رضى . مائة ياردة من قماش لنسكولن الأخضر لكساء رجالك ، ومائة عصا من الخشب الأسباني المحصص لعمل الأقواس ، ومائة وتر قوس من الحرير قوية مستديرة ليس بها عطب . سأبعث إليك بكل هذا مقابل أن تقوم بيتنا سلام ياديكون الشريف ، وما عليك إلا أن تلتزم الصمت فيما يتعلق بالقبور ياديكون الطبيب » . فقال الخارج على القانون :

« سأكون صامتاً صمت السنجاب النائم ، ولا أتكلم أنتى حزين من أجل ابنتك ، ولكنى لا أستطيع لها عوناً — إن رماح فلاس المعبود أقوى من رماة قوس فى ميدان غير مستور . إنهم سيبحثروننا كالغبار ، ولو كنت أعرف أنها ريبكا عندما اختطفت ، فمن المحتمل أنى كنت أستطيع أن أفعل من أجلها شيئاً ، ولكن يجب عليك الآن أن تنتهج نهجاً حكماً فيه دهاء ، وفيه مرونة . هلم ، هل أعالج الأمر مع رئيس الدير نيابة عنك ؟ » .

— « أستحلفك بالله يا ديكون أن تعيننى على عودة ابنتى الحبيبة لى إن استطعت إلى ذلك سبيلاً ، فقال الخارج على القانون :

— « لا تقاطعنى بتفتيرك الذى لا موضع له الآن ودعنى أتحدث باسمك » .

وعند هذا استدار ونأى عن اليهودى الذى صار يتبعه كظله وقال :

— « أيها الرئيس أمير ، تعال معى ننتح جانباً تحت هذه الشجرة .  
يقول الناس إنك تحب الصهايا وبسمة الحسناء أكثر مما يتلامم مع مقامك  
يا سيدى القس ، ولكن هذا لا يعينى فى كثير ولا قليل . لقد تنهى إلى.  
أيضا أنك تحب قطيعا من الكلاب الأصيلة وجواداً سريعاً ، ومن المحتمل  
وأنت تكاف هذه الأشياء التى يستدعى اقتناؤها إنفاق الوفير من المال ،  
أنك لا تعزف عن الحصول على كيس من الذهب ، ولكنى لم أسمع قط  
بأنك تحب الظلم أو القسوة ، والآن ها هو ذا إسحق يرغب فى أن يتيح لك  
السبيل إلى اللهو والسلوى ، وذلك بأن يعطيك كيسا يحتوى على مائة  
قطعة فضية إذا ما أجدت وساطتك لدى صديقتك فارس المعبود فى خلاص  
ابنته ، وقال اليهودى :

— « على شريطة أن تكون مصونة شريفة مثلما أخذت منى ، وإلا  
فإنى فى حل من هذه المساومة ، . فقال الخارج على القانون :

— « مهلا يا إسحق وإلا نفضت يدي من هذا الأمر . ما قولك فى  
هذا العرض يا رئيس الدير أمير ؟ . فأجاب رئيس الدير :

— « إن فى الأمر تضاربا لأنى إذا قمت بعمل طيب من ناحية ،  
فإنه سيعود بالنفع على اليهودى من ناحية أخرى ، وهذا فإنه سيكون ضد  
وجدانى ، ومع ذلك فإذا كان الإسرائيلى سيقدم نفعا للكنيسة بإعطائى  
مبلغا آخر للمساهمة فى بناء قاعة للنوم بالدير ، فسوف أسوق ضميرى إلى  
أن يرضى عن مساعدته فى خلاص ابنته ، فقال الخارج على القانون :

— « لن نرضن عليك بحفنة من القطع الفضية لبناء قاعة النوم — أقول

لك التزم الهدوء يا إسحق - أو من أجل حاملي شموع قربانا للمذبح ، .  
فقال إسحق وهو يحاول الاعتراض :

- « كلا ولكن يا ، سيكون جاذب القوس الطيب . . . ، فقاطعه  
رجل الغابات وقد نفذ صبره :

- « أيها اليهودي الطيب - أيها الحيوان الطيب - أيها الدودة الطيبة !  
إذا ظلمت على سلوئك في وضع حبك القدر للمال الحرام ، وحياة ابنتك  
وشرفها في كفتي الميزان ، فأقسم بالسماء على أني سأسلبك كل بنس تمتلكه  
في هذه الدنيا قبل انقضاء ثلاثة أيام ، . فانطوى إسحق على نفسه ولزم  
الصمت ، وقال رئيس الدير :

- « وأي ضمان لي على هذا كله ؟ ، فأجاب الخارج على القانون :

- « إذا ما عاد إسحق وقد أصابه التوفيق من وراء مسعاك ، فأقسم  
بالقديس هيوبرت على أني سأجعله يدفع لك النقود فضة خالصة ، وإلا فأخذ  
على عاتقي أن أنتهج نهجاً يؤثر معه لو أنه قد دفع ذلك القدر عشرين ضعفاً .  
فقال أمير :

- « حسناً إذن أيها اليهودي . بما أني سأزج بنفسي في هذا الأمر .  
فدعني أستخدم أدوات كتابتك ، مع أني كنت على استعداد لأن أوثر  
الصوم أربعة وعشرين ساعة على أن أكتب بقلمك ، ولكن أين لي من  
من قلم آخر . ؟ ، . فقال رجل الغابات :

- « إذا كانت شكوكك المقدسة تأتي عليك الكتابة بقلم يهودي ،  
فإنني أستطيع أن أبتدع لك وسيلة أخرى ، ثم شد قوسه وسدد سهمه  
نحو إوزة برية كانت تحلق على علو شاهق فوق رؤوسهم كحارس المقدمة  
لسرب من أخواتها يشق طريقه ساجماً في الفضاء إلى مستنقعات هولدرينس ،

النائية الموحشة ، فهوى الطير يرفرف وقد مزقه السهم ، وكان :

- هـاك أيها الراهب . أمامك من الرياش ما ينق جميع رهبان دير جورفولكس لمائة سنة قادمة إذا لم يستخدموها في تسطير التاريخ ، .

جلس رئيس الدير ، وفي كثير من التؤدة كتب رسالة إلى بريان دي بواجيلبرت ، وبعد أن مهرها بخاتمه أعطاهما إلى اليهودى قائلاً له :

- وإن هذا سيكون صك الأمان إلى مقر فرسان المعبد ، وأغلب الظن عندي أنه قد يكون السبيل إلى خلاص ابنتك إذا ساندته يدك بسخاء لصالح بواجيلبرت وراحته ، وأحب ألا يخامرك شك في أن الفارس الطيب بواجيلبرت هو الوحيد من بين أفراد طائفته الذي لا يفعل شيئاً بلامقابل ، .  
وقال الخارج على القانون :

- هـ حنا أيها الراهب ، لن أستبقيك هنا إلى أكثر مما تدعو الضرورة إليه ، وإلا ريثما تعطى اليهودى صكاً بخمسمائة قطعة ذهبية قيمة فديتك ، وإذا تنهى إلى أنك تراوغ في أن ترد له المال الذى سيدفعه نيابة عنك ، فلتنكرنى القديسة مريم إذا لم أحرق الدير على رأسك حتى ولو شنت قبل هوعدى بعشر سنوات ، .

بدأ الراهب يكتب الصك وعلى وجهه كآبة أكثر مما كانت عليه وهو يكتب الرسالة إلى بواجيلبرت يقر فيه بأنه مدين لإسحق أوغ بورك بخمسمائة قطعة ذهبية أعطيت له سداداً لفديته ، وبعد فيه بأن يرد له الدين كاملاً غير منقوص ، . فقال الراهب آيبر :

- هـ والآن، بعد أن ارتضيتم بفديتى كأسير، فهل لكم أن تعيدوا إلى بنفالى وجيادى ، وكذا الخواتم واللآلىء والملابس الثمينة التى سلبت منى ،



وأن تهبوا الإخوة المجملين المرافقين لي حريتهم ؟ ، فأجاب لوكسلي :

- « أما إخوتك ياسيدى رئيس الدير فسيطلق سراحهم على الفور ، فليس من الإنصاف أن نستبقهم كأسرى ، وأما جياذك وبغالك فسترد إليك أيضاً ومعها من النقود والسائل ما تستطيعون بها أن تبلغوا مدينة يورك ، فإنه لمن القسوة بمكان أن نضن عليك بوسائل السفر ، وأما خواتمك ولآلئك وسلاسلك وما إلى ذلك ، فيجدر بك أن تعرف أننا قوم ذوو ضمائر يقظة ، ولن نرد إلى رجل وقور مثلك - من أقدم واجباته التخلي عن زخرف هذه الحياة الدنيا - سبل الإغراء البراق ليحطم قواعد نظامه بارتداء خواتم أو سلاسل أو أية حلى أخرى تدل على الزهو والخيلاء . فقال رئيس الدير :

- « تبصروا فيما أنتم فاعلون بإسادة قبل أن تضعوا أيديكم على ممتلكات الكنيسة - إنها أشياء مقدسة - ولست أدري أى قضاء سيحتم إذا استخدمتها أيدي علمانية . فقال راهب كوما نيهيرست :

-- « لاعليك من هذا فساتولى هذا الأمر وأرتديها بنفسى . فقال رئيس الدير وهو يحاول جاهداً أن يذيب من شكوكه :

- « إذا كنت أيها الصديق أو الأخ قد ارتقيت إلى هذه المراتب الدينية حقاً ، فإني آمل أن تدبر الجواب على رئيسك عما قت به من أعمال في هذا النهار . فقال الراهب :

- « أحب أن تعرف أيها الصديق رئيس الدير أنى أنتسب إلى أبروشية صغيرة ليس بها من يترأسنى ، هذا وإنى لا أعاباً بأسقف يورك أو برئيس دير جورفواكس أو بكبير الرهبان أو حتى بالدير كله . فقال رئيس الدير :

- « إنك شاذ غاية الشذوذ ، وأحد أولئك المستهترين الخارجين على

النظام الذين يتخذون الكهنوتية مظهراً لهم دون أن تكون متصلة في نفوسهم ، فيدنسون الطقوس المقدسة ، ويعرضون للخطر أرواح الذين يتلقون النصح عنهم ، فهم كما جاء في النص اللاتيني للتوراة والإنجيل الذي يقول : يعطونهم الحجارة بدلاً من الخبز ، فقال الراهب :

— « كلا ! لو استطاعت اللاتينية أن تحطم رأسي لما طال به تماسكه حتى الآن ، وأقول لك إنك ومن على شاكلتك من القساوسة الذين استبد بهم الزهو والغرور فكافوا بزخرف الحياة بارتدائهم الجواهر والحلي ، إنما يرتكبون أعمال سلب مشروعة ، ولن أرتضى أمام رعايا أبروشيتي بمهانة كذلك التي ألصقتها بها دون خجل رغم أني أخ مبجل لك . سأحطم عظامك كما يقول النص ، . فصاح الزعيم :

— « أ يصل بكما الحال أيها الأخوان المبجلان إلى أن تراشقا مثل هذه الناييات ؟ احتفظ بهدوتك أيها الراهب ، وأنت يارئيس الدير ، إذا لم تكن في حالة سلام تام مع الله ، فلا أقل من أن تتوقف عن إثارة الراهب إلى أكثر من هذا . أيها الراهب ، دع الأب المبجل يرحل عنا آمناً لأنه أصبح رجلاً مفتدي ، .

قام الرجال بإبعاد القسدين الثائرين عن بعضهم البعض ولكنهما ظللا يصيحان بصوت عال ، ويقذف كل منهما الآخر سباباً في لاتينية عرجاء ، كان رئيس الدير ينطقهم بسرعة شديدة والراهب بحدة أشد ، وأخيراً سيطر رئيس الدير على ثائرتة إلى حد ما حين طاف بعقله أنه من المهين لكرامته أن يشعل شجاراً مع مثل هذا القس الشريد ، أحد جماعة الخارجين على القانون ، ولما كان أتباعه قد لحقوا به ، فقد رحل بعد أن تناقصت أمهته وزينته ، ولكن مظهره الكنائسي كان أكثر ملاءمة للأوضاع الدينية والديوية معاً من مظهره قبل ذلك اللقاء .

لم يبق إلا أن يقدم اليهودى كفالة ما للفضيلة التي عليه أن يدفعها عن  
هؤليس الدير وعن نفسه أيضاً ، وعلى هذا أعطى أمراً مهوراً بجأته إلى أحد  
بنى جنسه فى بورك ، يطلب إليه أن يدفع لحامله مبلغ ألف قطعة ذهبية ،  
وأن يعطيه البضائع الواردة بالخطاب ، وقال وهو يبعث الأبن عميقاً :  
« إن لدى أخى ، شيفا ، مفتاح مستودعائى ، . فمسر لو كسلى فى أذنه قائلاً :

— « ومفتاح الغرفة المقيمة أيضاً ، . فقال إسحق :

— « كلا . كلا ، حاشا للسما أن تأذن بذلك ! لعينة تلك الساعة التي  
أطلع فيها كائنا من كان على دفين سرى ! ، فقال الخارج على القانون :

— « إنه مصون عندى طالما أن رسالتك هذه ستأتى بالمبلغ المبين بها ،  
ولكن ماذا بك الآن يا إسحق ؟ أميت أنت ؟ ألت واعيأ ؟ هل أنساك  
دفع ألف قطعة ذهبية ذلك الخطر المحقق بابتك ؟ ، فمض اليهودى على  
قدميه وقال :

— « كلا يادىكون ، كلا سأرحل على الفور . وداعا يامن لا أستطيع  
أن أدعوه طيبا ، ولا أجتري على أن أصفه بالسوء ، .

ومع ذلك فقد أسدى زعيم الخارجين على القانون إلى إسحق نصيحة  
الوداع قبل أن يرحل قائلاً له :

— « ابسط يدك فيما تعرض يا إسحق ، ولا تغلما إلى عنقك حرصاً  
على سلامة ابنتك . صدقنى إن الذهب الذى تضن به على خلاصها ، سيصبح  
فيها بعد باعنا على المزيد من شقوتك وكأنه سيصب منصرفاً فى حلقك ، .

رضى إسحق ، وبعث بزفرة عميقة ثم انطلق يرافقه عملاقان مزرجال  
الغابات لإرشاده وحراسته فى أثناء مسيره فى الغابة . أما الفارس الأسود

الذى كان يرقب ما يدور بشيء من الاهتمام غير قليل ، فقد طلب بدوره الإذن من الخارج على القانون بالرحيل ، ولم يستطع كتمان عجبه عندما لمس مثل هذه المعاملة الكريمة تسرى بين رجال حرموا من حماية القوانين وسلطانها وأثرها ، فقال رجل الغابات :

— يا سيدي الفارس ، قد ينمو الثمر الطيب أحيانا من شجرة خيثة ، والأوقات الآثمة لا تورد الشر الخالص وحده دائما . لا ريب في أن هناك من بين أولئك الذين يدفع بهم إلى هذه الحياة الخارجة على القانون الكثيرين ممن يرغبون في مزاولتها بشيء من الترفق والأناة ، وهناك آخرون يحزنهم أشد الحزن أنهم قد سبق بهم إلى احترامها غصبا . فقال الفارس :

• وبقي أنى أتحدث الآن إلى واحد من هذه الطائفة ، . فقال الخارج على القانون :

• لكل منا سره الخاص يا سيدي الفارس ، وأنت في حل من أن تحكم على بما تشاء كما أنى قد أتكهن برأى فيك ، هذا مع أن سهمينا كليهما قد يخطئان الهدف المصوبين نحوه ، وبما أنى لا أطلب معرفة دفين سرك ، فلا يسوءك احتفاظى بما أخفى .

فقال الفارس :

• أرجو عفوكم أيها الخارج على القانون الباسل فأنت محق في نقدك الصريح . ربما التقينا بعد اليوم وفي نفسنا أقل مما نبطن الآن . فلنفترق إذن صديقين ، أليس كذلك ؟ ، وقال لوكسلى :

• هذى يدى عمدا على ذلك ، وإنى أصفها بأنها يد إنجليزى وفى ، رغم أنه فى حاضره خارج على القانون . فقال الفارس :

— وهذه يدى بدورى ، وفى تقديرى أنها فخورة بمصاحفتك ، لأن من يفعل الخير وهو قادر قدرة مطلقة على فعل الشر ، فإنه جدير بالثناء لا على الخير الذى يأتيه ، ولكن على الشر الذى يآباه . وداعا أيها الخارج على القانون الباسل . . .

وهكذا افتقرت تلك الألفة الطيبة ، وامتطى فارس الفقل جوادم الحربى القوى وانطلق يعدو وسط مسالك الغابة .

## الفصل الرابع والثلاثون

الملك يوحنا - ماذا أقول لك يا صديقي ؟

إنها حية رقطاء في طريق

تعرض سبيلي حينما خطت قدمي

ألا تفقه قولي ؟ .

( الملك يوحنا )

أقام الأمير يوحنا مأدبة فاخرة في قصر يورك دعا إليها أولئك النبلاء ورجال الكنيسة والقادة الذين كان يعقد عليهم الآمال في شق طريقه إلى تحقيق مطامعه بالجلوس على عرش أخيه ، وكان الديمار فيتزيرس عميله السياسي الداهية . يعمل بينهم في الخفاء ، ويدفع بهم جميعاً إلى ذروة من الإقدام كانت تقتضيها الضرورة كي يجهروا بآرائهم ، ولكن سعيهم قد توقف من جراء مغيب أكثر من عضوهام في الحلف ، فإن بسالة فروندييف الصاعدة العنيدة رغم عنفها ، وروح دي براسي الوثابة وسلوكه المغامر ، وحصافة بريان دي بوجيلبرت وخبرته العسكرية وشجاعته التي طبقت الآفاق ، كل هذا كان عاملاً هاماً لنجاح المؤامرة . ومع أن يوحنا ومستشاره كانا يصبان اللعنة في غير علانية لمغيبهم الذي لم يكن له ما يبرره ، إلا أنهما لم يجترئا على الخوض في هذه المغامرة بدونهم ، وكان يبدو أيضاً أن إسحق اليهودي قد اختفى وتلاشى معه الأمل في بعض أموال الخراج التي كان يوحنا قد تعاهد مع هذا الإسرائيلي وإخوانه على دفعها ، وكان من المحتمل أن يكون هذا القصور المالي ذا خطر في مثل هذا الوقت العصيب .

وفي صبيحة اليوم التالي لسقوط توركويلستون ، بدأت شائعات

يكتنفها الغموض تتطاير في أرجاء مدينة يورك بأن دى براسى وبواجيلبرت مع حليفهما فروندييف قد وقعوا في الأسر أو قتلوا ، وأنهى والديمار هذه الشائعات إلى الأمير يوحنا معلنا إليه بأنه يخشى أن تكون صادقة ، وأنهم كانوا قد خرجوا في صحبة قليلة لمهاجمة الساكسونى سيدريك وأتباعه .

كان من المحتمل أن يتقبل الأمير يوحنا القيام بهذا العمل الجاف الغليظ في وقت آخر على أنه ضرب من ضروب الالاعابه المستملحة ، أما وقد أصبح الآن ذا أثر فيما هو مقدم عليه ، وحجر ذرة في سبيل إنجازه ، فقد أخذ يلقى باللائمة على من اقترفوه ، ويتحدث عن انتهاك حرمة القوانين ، ومخالفة النظام العام ، والملكية الخاصة بلهجة تليق بالملك ألفريد وقال :

« آه من أولئك اللصوص الذين تجردوا من المبادئ والقيم اللو قدرلى أن أكون يوما ما ملكا لإنجلترا ، فسأدلى برقاب أمثال هؤلاء الآثمين من فوق الكبارى المعلقة في قصورهم . » وقال مستشاره في تودة :

« ولكن كى تكون ملكا لإنجلترا ، فأرى أنه لزام عليك أن تحتمل يا صاحب السمو اعتداءات هؤلاء اللصوص الذين تجردوا من المثل العليا ، بل وتضنى عليهم حمايتك على الرغم من غيرتك الحميدة على القوانين التى دأبوا على العبث بها . سنحصل على معونة طيبة لو أقر الفلاحون الساكسونيون وجهة نظرك في تحويل كبارى الإقطاعيين المعلقة إلى مشاقق ، ولو راق لسيدريك ذى الروح الوثابة مثل هذا الرأى . إنك تعلم يا صاحب السمو حق العلم أنه سيكون من الخطورة بمكان أن تقدم على عمل بغير فروندييف ودى براسى وفارس المعبد، ومع ذلك فقد بلغنا حدا لانستطيع معه التقاعس ونحن آمنون . »

فغضب الأمير يوحنا جهته بيده في ضيق وقلق ، وجعل يندرع الغرفة

غدوا ورواحا ثم قال ، الأوغاد ، الأوغاد الأندال الحونة يتخلون عني في هذه المحنة ، . فقال والديمار : ، كلا ، بل ذوو جنون طائشون خاوو الروس أولئك الذين يلهمون بالخماقات في الوقت الذي ينبغي أن تنجز فيه هذا العمل ، . فقال الأمير يوحنا وهو يتوقف فجأة بالقرب من والديمار ، :

« ماذا علينا أن نفعل الآن ، ؟ فأجاب ناصحه :

« ليس هناك ما نستطيع عمله إلا ما أمرت به . إنى لم آت لأنذب الحظ العائر معك يا صاحب السمو قبل أن أبذل قصارى جهدى لعلاج الموقف ، . فقال الأمير :

« إنك على الدوام ملاكى الحارس يا والديمار ، وعندما يكون لى حامل أختام ملك ليهدينى سواء السبيل ، فإن عهد الملك يوحنا سيخلد فى تاريخنا . قل لى ، بماذا أمرت ، ؟ .

« لقد أمرت « لويس وينكلبراند ، نائب دى برامسى بأن ينفخ فى بوقه داعياً الرجال إلى امتطاء جيادهم ، وأن يرفع رايته ويقصدوا توالى قصر فروندييف كى يعملوا قدر طاقتهم على خلاص أصدقائنا ، . فاحمر وجه الأمير يوحنا كطفل غر فاسد سمع ما حسه مهانة له وقال :

« لقد تجاوزت المدى يا والديمار فيتزيرس ، وسلكت سلوكا لا ينم عن اللياقة عندما أمرت بنفخ فى بوق أو رفع راية فى مدينة نحن بها دون أن تحصل منا على إذن صريح بذلك ، . فقال فيتزيرس وهو فى دخيلة نفسه صاحب على غرور سيده الخامل :

« أرجو المغفرة يا صاحب السمو ، ولكن عندما أذفت الأزرقة وكادت مضيفة دقائق عدة أن تكون القاضية ، رأيت أنه من الأفضل أن أحمل على عاتقى القيام بعمل اعتقدت أنه لصالح سموكم ، . فقال الأمير برصانة :



« لقد عفوت عنك يا فيتزيرس ، وشفعت نوابك لاندفاعك العجول ، ولكن من معنا هنا ؟ أقسم بالمسيح على أنه دى براسى بعينه وها هو ذا هنا فى حضرتنا يبدو بمظهر عجيب . »

لقد كان دى براسى حقاً — إنه ملطخ بالدم من طول ما أعمل مهمازيه ، وقد ألهب الإسراع وجهه ، وكان درعه يحمل كل أنار المعركة العنيدة الأخيرة ، فهو محطم مشوه تكسو الدماء كثيراً من مواضعه ، ويغمره الرغام والغبار من قمة الرأس إلى أخمص القدم . خلع خودته ووضعها على المائدة ووقف لحظة وكأنه يستجمع شتات نفسه قبل أن يدل بما يحمل من أنباء ، فقال الأمير يوحنا :

— « ما معنى هذا يادى براسى ؟ إني أمرك بأن تتكلم . هل الساكسونيون فى حالة تمرد ؟ » وقال فيتزيرس مع سيده فى اللحظة نفسها :

— « تكلم يادى براسى لقد عهدناك على الدوام رجلاً . أين فارس المعبد ؟ أين فرونديبيف ؟ » فأجاب دى براسى :

— « إن فارس المعبد قد ولى وأدبر ، وأما فرونديبيف فلن تراه بعد اليوم . لقد وجد لنفسي قبراً أحمر بين أخشاب قصره المحترقة ، وأنا وحدى الذى لذت بالفرار لأحمل إليكما الأنباء . » فقال والديمار :

— « إنها أنباء باردة لنا رغم حديثك عن النيران واللب . » فقال دى براسى :

— « إني لم أقل بعد أسوأ ما عندى من أنباء . » ثم اقترب من الأمير يوحنا وأسر فى أذنه بلمحة قاطعة :

— « إن ريتشارد فى إنجلترا . لقد رأيتته وتحدثت إليه . » فشحب وجه الأمير يوحنا وترنخ كمن أصابه سهم فى حشاه ، ثم أمسك بمظهر مقعد مصنوع من خشب البلوط ليتحاشى السقوط ، وقال فيتزيرس :

- « إنك تهذى يا دى براسى . هذا محال ، . فقال دى براسى :  
- « إن ما أقوله هو الحق كالحقيقة نفسها . لقد كنت أسيراً له  
وتحدثت إليه ، .

فاسترسل فيتزيرس قائلاً :

- « أتقول لى ريتشارد بلاتاجينيه ؟ ، فأجاب دى براسى :

- « لى ريتشارد بلاتاجينيه ... لى ريتشارد قلب الأسد ... لى  
ريتشارد إنجلترا ، .

فقال والديمار :

- « هل كنت أسيراً له ؟ أهو إذن على رأس قوة ما ؟ ، .

- « كلا - لقد كان يلتف به نفر من رجال الغابات الخارجين على  
القانون فقط ، ولم يكونوا يعرفونه ، وقد سمعته يقول إنه على وشك أن  
يفترق عنهم ، وإنه لم ينضم إليهم إلا لتدمير توركويلستون فقط ، .  
فقال فيتزيرس :

- « هذا حقاً هو أسلوب ريتشارد . إنه فارس ضليّل بكل ما تحمله  
الكلمة من معنى ، وهو يزوج بنفسه فى كل مغامرة طائشة واثقاً بقوة  
ساعده وحدها مثل سير « جاى » أو سير « بريفس » ، بينما تغط أعباء  
ملكته الثقال فى سبات ، وبينما تتعرض سلامته للخطر . ماذا انتويت  
أن تفعل يا دى براسى ، ؟ .

- « أنا ؟ - لقد عرضت على ريتشارد خدمات « رماحى الأحرار »  
واكتنه أبى - سأقودهم إلى « هل » ، وأحصل على سفينة وأركب البحر  
إلى أئفلاندر - شكراً لهذه الأوقات المضطربة التى يستطيع رجل المعارك  
أن يجد فيها عملاً على الدوام ، وأنت يا والديمار هل لك أن تتمنطق برمح

ودرع وتطرح السياسة جانباً ، وتمضى معى وتقاسمى المصير الذى يكتبه  
الله علينا ، . فأجاب والديمار :

— « لقد تقدمت بي السنون يا موريس ولى ابنة ، . فقال دى براسى :

— « أعطنيها يا فيتزيرس وسأجعلها تحيا حياة تليق بمقامها بفضل  
ركابى ورعى ، . »

فقال والديمار :

— « كلا ، سأأخذ من كنيسة القديس بيتر هذه ملجأ لى . إن رئيس  
الأساقفة صديق لى حميم ، . »

كان الأمير يوحنا فى أثناء هذا الحديث قد أخذ يفتق شيئاً فشيئاً من  
الذهول الذى ألم به عند ما لجأته هذه الأنباء ، وجعل يصغى إلى الحديث  
الذى يدور بين تابعيه ثم قال لنفسه :

— « إنهم ينفضون من حولى — إنهم لا يعلقون بي أكثر مما تعلق  
ورقة شجر ذابلة بفصنها إذا ما هب الريح بها . يا للجحيم والشياطين ! ألا  
أستطيع أن أشق لى نفسى طريقاً عندما يزور عنى هؤلاء الأندال؟ ، ثم توقف  
وأفصح عن غضبه العارم بضحكة مفتعلة قطعت عليهما حديثهما : « هاهاها !  
بحق نور جبين سيدتنا العذراء إنك يا سيدى الطيبين فى تقديرى رجلان  
حصيفان — رجلان باسلان — رجلان لماحان ، ومع ذلك فأتما تنبذان  
الأروة والمجد والمتاع وكل ما وعدتكما به ألعوبتنا النبيلة فى اللحظة التى يمكن  
النصر فيها برمىة واحدة جريئة ، . »

فقال دى براسى :

— « أنا لا أفقه قولك . سيصبح ريتشارد على رأس جيش عندما

بذاع نبأ عودته وهنا تكون القاضية علينا ، ونصيحتي إليك يا مولاي أنك إما أن تفر إلى فرنسا، وإما أن تتلس الخي من الملائكة الوالدة. فقال الأمير يوحنا بكبرياء وغرور :

— « إنني لا أتلس الحماية لنفسي — أستطيع تحقيق ذلك بكلمة أقولها لآخي، ولكن على الرغم من أنك يا دى براسي وأنت يا والديمار فيتزيرس على استعداد لأن تنخلبا عني هكذا وشيكا، فإنه لا يبعث الحسرة في نفسي كثيراً أن أرى السواد يجلل رأسيكما على بوابة كليفورد. أتظن يا والديمار أن رئيس الأساقفة المخادع يآبي عليك أن يؤخذ بك من فوق المذبح لو كان في ذلك قيام السلام بينه وبين الملك ريتشارد ؟ وهل تنسى يادي براسي أن «روبرت إيستوتيفيل» يترصد بك في طريقك إلى «هل» مع كل قواته، وأن «إيرل أوف إسيكس» يجمع أتباعه ؟ إن كان لدينا من الأسباب ما يجعلنا نخشى هذه الحشود حتى قبل عودة ريتشارد، فهل يراودك أي شك الآن في انحياز قوادهم إلى أي جانب ؟ لا أكتفك أن لدى إيستوتيفيل وحده من القوى ما يستطيع معها إلقاء جميع حاملي «رماحك الأحرار» في نهر «الهمبر» . . . فنظر كل من والديمار فيتزيرس ودى براسي إلى بعضهما البعض في فزع واضح، واسترسل الأمير في قوله وقد أصبح جبينه أسود كمنتصف الليل، ليس هناك إلا طريق واحد للخلاص . إن مبعث رعبنا هذا يسافر بمفرده ويجب ملاقاته وهو وحيد . فأسرع دى براسي قائلاً :

« أما عني فلن أسهم في هذا العمل . لقد كنت أسيراً له وكان رحيماً بي، فلن ألحق الأذى بريشة في خوذته . » فقال الأمير يوحنا بضحكة جافة : « ومن قال إننا نريد أن نلحق الضرر به ؟ سيقول الوغد بعد ذلك إنني كنت أهدف إلى قتله ! كلا — السجن أفضل، وماذا عليه وعلينا إن كان في بريطانيا أو فرنسا؟ إن تكون الأمور إلا كما كانت عند بدء مشروعنا الذي كان هادفاً إلى بقاء ريتشارد أسيراً في إنجلترا — لقد عاش عمنا «روبرت» ،

حجينا في قصر كارديف ومات فيه ، ، فقال والديمار :

— « نعم ، ولكن أباكم هنري كان يجلس على عرشه أكثر ثباتا مما تستطيعون  
يا صاحب السمو ، وإني أرى أن أفضل السجون هو ما أقامه بنساء القبور ،  
وما من مُجب أفضل من قبر الكنيسة لقد أدليت برأيي ، ، فقال دي براسي :  
— « سواء أكان سجنا أم رمسا فإنني أنفض يدي من غبار الأمر كله ، ،  
فقال الأمير يوحنا :

— « إنك تفضح سرنا أيها الوغد ؟ ، فقال دي براسي بكبرياء .  
— « لم يُفش سر عن طريق قط ، كما أن نعت « وغد » لا ينبغي أن  
يقرن باسمي ا ، فقال والديمار :

— « رفقا ياميدي الفارس ، وأنت يامولاي الطيب ، اغفر لدي براسي  
الباسل ما ينتابه من شكوك . إني لعل ثقة من أني سأزيلها وشيكا ، .  
فأجاب الفارس :

— « إن حسن بيانك لي قصر عن ذلك يا فيتزيرس ، ، وأتبع السياسي  
الداهية قائلا :

— « ماذا يا سير موريس الطيب ؟ لا تجفل هكذا كالجواد الفزع دون  
أن تنقص أسباب رعبك . لقد كانت أغلى أمانيك من يوم مضى أن تلتقي  
بريتشارد هذا وجها لوجه ، في صفوف المعركة . لقد سمعتك تهفو إلى ذلك  
مائة مرة ، ، فقال دي براسي :

— « نعم ، وإنما كان ذلك كما قلت وجها لوجه في صفوف المعركة .  
إنك لم تسمعي قط أبدى رغبتى في مهاجمته وهو وحيد وفي غابة ، .  
فقال والديمار :

— « لست بفارس حق إذا ساورتك الشكوك على مثل هذه الصورة .

هل استحق « لانسوت دى لاك » وسير « تريسترام » صيتهما الذائع في  
في المعارك العامة ، أم كان ذلك بمنزلة العمالقة من الفرسان في ظلال  
غابات مجهولة ؟ ، فقال دى براسي :

— « نعم ، ولكنى أؤكد لكما أن تريسترام ولانسوت لا يمكن  
مقارنتهما بريتشارد بلاتما جيبه في قتال مفرد ، وأظن أنه لم يكن من دأبهما  
مهاجمة رجل وحيد . »

— « إن بك مسأ من الجنون يا دى براسي . ماذا نعرض عليك كقائد  
أجير مرتزق « للرفاق الأحرار ، الذين تشتري سيوفهم لخدمة الأمير يوحنا ؟  
إنك تعلم بوجود عدونا ومع ذلك فإن الريب تتأبلك ، مع أن مصير مولاك  
ومصائر رفاقك ، ومصيرك أنت ، وحياة كل واحد منا وشرفه في كف  
القدر ، فقال دى براسي عابسا :

— « أقول لك إنه وهني حياتي . حقا لقد طردني من حضرته ورفض  
ولائي ، وعلى هذا فإني لست مدينا له بالحب أو الولاء ، ولكني إن أرفع  
يدي في وجهه ، فقال والديمار :

— « إتنا لا نطلب منك ذلك — ابعت إليـه بلويس وينكليراوند  
وعشرين من حاملي رماحك ، فقال دى براسي :

— « إن لديك من أوغادك ما يعني . لن يتحرك واحد من رجالي لمثل  
هذه الجريمة . » وقال الأمير يوحنا :

— « أركب العناد وأسك إلى هذا الحد يا دى براسي ؟ أنتخلى عنى  
بعد تلك الادعاءات الكهيرة عن تفانيك في خدمتي ؟ ، فقال دى براسي :

— « ليس في تقديري أن أنتخلى عنك ، وسأقف إلى جانبك في أي عمل  
يليق بفارس أن ينجزه سواء أكان ذلك في الميدان أم في المعسكر ، ولكنه  
ليس من عهدى أن أقطع الطريق . » فقال الأمير يوحنا :

— « تعال إلى يا والديمار — إن أمير تص — لقد كان لأبي الملك

هنري خدم أوفياء — إذا قال إن الضيق قد أخذه من أحد القساوسة  
النزاعين إلى الشغب ، فما أسرع من أن تلتطخ دماء توماس آبيكيت درجات  
مذبحه رغم قدسينه — ترأسي ، مورفيل بريتو ، أيها الرعايا الأوفياء  
البواسل ، لم يعد لآسمانكم ولا لأرواحكم وجود ولا بقاء ، ومع أن ريجنولد  
فيتزيرس قد أنجب ولداً ، إلا أنه لم يقو على مجارات أبيه في الوفاء  
والإقدام . . فقال والديمار فيتزيرس :

— « بما أنه ليس هناك ما هو أفضل من هذا ، فسأتولى بنفسى تدير  
تلك المهمة المحفوفة بالمخاطر وسأكون في المقدمة . لقد دفع أبي الثمن غالبا  
من أجل أن يحظى بالثناء من صديق غيور وفيء ، ومع ذلك فإن الدليل على  
إخلاصه لهنري يتضاءل أمام ما قدّم له ، وكنت أؤثر أن أهاجم مجموعة  
بأكملها من القديسين ، على أن أشهر رحى ضد قلب الأسد — إنى أكل  
إليك يادى براسى — وأنا واثق بك — أن تبث روح الشجاعة في  
المستضعفين ، وأن تقوم على حراسة الأمير يوحنا . إذا ما تلقيت من  
الأنباء ما أستطيع إرساله إليك ، فلن يكون في مهمتنا ما يبعث على الريبة . .  
ثم قال : اذهب إلى دارى أيها الوصيف ، وقل لصانع دروعى أن يكون  
على أهبة الاستعداد ، ومره ستيين ويثرال ، وه برود ثورسبي ، حاملى رماح  
« سابينجهاو ، الثلاثة بأن يأتيا إلى على الفور ، ودع « هيوج باردون ،  
رئيس الكشافين يحضرن إلى كذلك . وداعا يا أميرى حتى نلتقى في أوقات  
أفضل . . ثم انصرف بعد ذلك ، فقال الأمير يوحنا لدى براسى :

— « إنه ذاهب ليجمع من أخى سجيننا دون أن يحس بوخز من ضمير ،  
وكان الأمر لا يمس إلا حرية أحد الفرانكلين الساكسونيين ، ولكنى على  
ثقة من أنه سيقوم على تنفيذ ما أمرنا به ، ويعامل عزيزنا ريتشارد بما هو  
جدير به من التبجيل . .

فلم يجب دى براسى إلا باباسامة ، وقال الأمير يوحنا :

— أقسم بنور جبين سيدتنا العذراء على أن أوامرنا إليه كانت شديدة الدقة والوضوح ، مع أنك لم تسمعها لأننا كنا واقفين معاً بالقرب من تلك الشرفة . لقد كان أمرنا بالمحافظة على سلامة ريتشارد قاطعاً جازماً لا لبس فيه ولا إبهام ولا غموض ، والويل لرأس والديمار لو عمل على نقيض ذلك . فقال دى براسى :

— إنه لمن الأوفق أن أمرت بداره وأنهى إليه رغبة سموكم ، لأنها ما دامت قد غابت عن أذني ، فمن المحتمل أنها لم تكن قد وصلت إلى سمع والديمار أيضاً . فقال الأمير يوحنا وقد أخذه الضيق :

— كلا ، كلا . كن على ثقة من أنه قد سمعني ، وإلى جانب ذلك فإن لي عندك مطلباً آخر . تعال إلى ياموريس ودعني أتوكأ على كتفك .

دارا في أرجاء الغرفة دورة وهما على هذا الوضع الذي يتم عن رفع الكلفة ، واسترسل الأمير يوحنا يقول بلهجة فيها ألفة فائقة :

— ما رأيك يا عزيزي دى براسى في والديمار فيتزيريس هذا ؟ إنه يرنو إلى أن يكون حامل أختامنا . لا ريب في أني سأفكر طويلاً قبل أن أسند مثل هذا المنصب الرفيع إلى شخص يبدى في وضوح وعلانية أنه لا يحترم دينا إلا بمقدار ، لكلفه بالاضطلاع بهذه المهمة ضد ريتشارد . إنني لعلّي ثقة من أنه يطوف بعقلك أنك قد فقدت شيئاً من رعايتنا لأنك آبيت في جرأة أن تقوم بهذا العمل الكريه ، ولكن كلا يا موريس ، إن الأمر على نقيض ما تظن ، فأنا أحمل لك كل إكبار لثباتك العفيف الطاهر على مثلك . هناك أمور تدعو الضرورة إلى إنجازها ولكننا لانحب فاعلمها ولا نكن له احتراماً ، وهناك من يرفضون أن يقوموا بتأدية الخدمات



لنا ، ولكنتنا نضع أولئك الذين يتكرون علينا مطلبنا موضع تقدير وإجلال ،  
وإننا لا نرى في القبض على أخى التمس أمراً يعبد له السبيل إلى ارتقاء  
منصب رفيع كمنصب مستشار ، مثل ما يعبده رفضك النبيل الشجاع  
للحصول على عها المارشالية . فكر في ذلك يا دى براسى ، واذهب  
لأداء مهمتك . .

مهم دى براسى وهو ينصرف من حضرة الأمير : « ما أسوأ حظ من  
يثقون بك أيها الطاغية ! مستشارك حقاً ! أعتقد أن مهمة من يقوم على  
حراسة وجدائك ستكون مهلة يسيرة ، ولكن مارشال إنجلترا الأول ،  
ثم قال ماذا ذراعه وكأنه عمك بعضا المارشالية وبذرع الغرفة بخطوات  
أكثر اتساعاً :

— « ذلك حقاً منصب جدير بأن يلعب المرء الدور من أجله . . ولم  
يكده دى براسى يبرح الغرفة حتى نادى الأمير على أحد الأتباع وقال له :

— « مر » هيو ج باردون ، رئيس كشافينا بأن يأتى إلى هنا حالما يفرغ  
من حديثه مع والديمار فيتزيرس . .

جاء رئيس الكشافين بعد برهة وجيزة كان يوحنا خلالها يذرع  
الغرفة بخطوات مضطربة غير متساوية ثم قال :

— « ماذا كان والديمار يريد منك يا باردون ؟ . .

— « لقد طلب إلى أن أجيء له برجلين ثابتى العزيمة ، ملين إلماما  
كاملاً بملك الفياق الشمالية ، ومن ذوى المهارة فى اقتفاء أثر الإنسان  
والجواد . .

— « وهل أجبته إلى مطلبه ؟ ، فأجاب :

— « لن أكون أهلاً لثقتك أبداً يا صاحب السمو إن لم أفعل — أحدهما

« هيكسا مشاير، وهو قادر على اقتفاء أثر لصوص « تينيدال، وه تيشيو تدبيل .  
كما يقتني كلب الصيد أثر ظبي جريج ، وأما الآخر فقد نشأ في «يوركشاير»  
وكثيراً ما بعث قوسه الرنين في غابة شيروود البهيجة ، وهو يعرف كل  
مسالكها ووادها وأجامها وأشجارها من هنا حتى زينتشموند، فقال الأمير :

. — « حسناً ، وهل سيذهب والديمار معهما ، فأجاب باردون :

— « دون توان ، . فسأله يوحنا بغير مبالاة :

— « مع مَنْ من رفاقه ؟ . .

— « مع «ثورسي» ، العريض ، و « ويشيرال » ، الذي يلقبونه  
ب«ستيفن ذى القلب الفولاذي وذلك بسبب قسوته ، وثلاثة من جنود أهل  
الشمال الذين ينتمون لعصابة « رالف ميدلتون » ، ويسمونهم رماح  
« سباينجهاو » . فقال الأمير يوحنا :

— « هذا حسن ، ثم تابع بعد أن توقفت لحظة . « أصع إلى يا باردون ،  
إنه لمن الأهمية بمكان أن تفرض رقابة دقيقة على موريس دى براسي دون  
أن يفعلن إليها ، وأحظني علماً بتنقلاته بين حين وحين — مع من يتحدث  
وماذا ينتوي . لا تخفق في ذلك وإلا وضعتك موضع الحساب » . فأنحني  
هيوج باردون ثم انصرف وقال الأمير يوحنا :

— « لو غدر بي موريس — لو غدر بي كما ألمس الخشبية في سلوكه ،  
فأنا ل رأسه حتى ولو كان ريتشارد يدق أبواب يورك دقات قاصفة » .

## الفصل الخامس والثلاثون

إذا أبقظت نمر صحارى هيرقانيا .

وحاولت أن تنتزع من الأسد<sup>١</sup> نائع فريسته .

فالمخطر أقل مما لو أبقظت النار الحامدة .

للتعصب الدينى الأعمى .

( مجول )

نعود بقصتنا إلى إسحق أوف يورك ، فقد اعتلى ظهر بغلة أعطاه إياها للخارج على القانون ، وانطلق إلى مقر فرسان المعبد لل مداولة في أمر خلاص ابنته ، يرافقه رجلان فارعا الطول ليقوما على حراسته وإرشاده ، وكان هذا المقر على مسيرة يوم واحد من قصر توركويلستون الذى تحطم ، واليهودى يأمل فى أن يبلغه قبل أن يرخى الليل أستاره ، وعندما وصل إلى حافة الغابة ؛ طلب إلى حارسه أن يعودا أدراجهما بعد أن زودهما بقطعة من الفضة ، ثم شرع يجد فى المسير قدر ماتسمع به قواه الواهنة ، ولكنها انهارت وخارت قبل أن يبلغ مقر فرسان المعبد بأربعة أميال .

كانت الآلام المبرحة تمزق ظهره وأوصاله ، وكان القلق الشديد الذى استبد بفؤاده قد أضناه فأصبح غير قادر على المسير إلى أبعد من مدينة تجارية صغيرة كان يقيم بها حاخام يهودى من بنى جلدته راسخ القدم فى مهنة الطب ، وكان إسحق معروفا لديه .

استقبله نانان ، الإسرائيلى مواطنه المضنى بذلك العطف الذى يحض عليه الناموس ، والذى دأب اليهود على إظهاره نحو بعضهم البعض ؛ وأصر

على أن يذهب لإسحق ليأخذ قسطاً من الراحة ، واستخدم من العقاقير ما كان كفيلاً بإيقاف اضطراب الحمى التي أصابت اليهودى من جراء الخوف والتعب والحزن ، ومالقيه من سوء .

وفي اليوم التالي ، عندما رأى إسحق أن ينهض ويواصل مسيره ، لم يرض بذلك ، ناثان ، ، وحاول أن يثنيه عن عزمه كضيف من ناحية ، وكطبيب من ناحية أخرى قائلاً له إن هذا قد يودي بحياته ، ولكن إسحق أجاب بأن هناك ما هو أكثر من الحياة والموت يتوقف على رحيله . في ذلك الصباح إلى مقر المعبد ، فقال مضيفه دهشاً :

• إلى تمبلستو !! ، ثم أخذ يتحسس نبضه من جديد وهمهم لنفسه .  
• إن الحمى قد خمدت ، ولكنه مع ذلك يبدو شارد الذهن قلقاً ، فقال مريضه .

• ولماذا لا أذهب إلى تمبلستو ، ؟ إنى أقرك على رأيك بأنه موثلاً لأناس ينظرون إلى أبناء الميعاد المحترمين على أنهم خجر عثرة وموضع بغضاء ، ومع ذلك فأنت تعلم أن شئوننا تجارية ملحة قد تسوق بنا أحياناً وسط هؤلاء الجنود النصارى المتعطشين إلى شرب الدماء ، وأنتا تزور مراكز فرسان المعبد مثلما تزور مقار قيادة فرسان الضيافة كما يسمونهم .  
فقال ناثان :

• أعرف ذلك جيداً ، ولكن هل تعلم أن لوكاس دى بومانوار ، رئيس طائفتهم والذي يدعوته ، السيد الأعظم ، موجود الآن بنفسه في تمبلستو ؟ ، فأجاب إسحق :

إنى لأعرف ذلك . لقد حملت الرسائل التي وردت إلينا أخيراً من إخوتنا في باريس ما يفيد بأنه الآن في تلك المدينة ، ليلتمس العون من الملك ، فيليب ، ضد السلطان صلاح الدين . فقال الإسرائيلي .

لقد حضر منذ ذلك الحين إلى إنجلترا وما كان إخوانه على علم بمجيئه ،  
وهو يأتي إليهم بساعد قوى ، دود ليصلح وبماقب - إن قسما ، وجهه  
تشتعل غضباً ضد أولئك الذين نقضوا اليمين التي أقسموها - إن رعب  
هذا الشرير لشديد - لا بد وأنتك قد سمعت باسمه ، فأجاب إسحق :

« إنى أعرفه جيداً ، وأعرف أن المسيحيين ينظرون إلى لو كاس دي بومانوار  
هذا على أنه رجل نزاع إلى سفك الدم من أجل كل فقرة من قانون النصرى ،  
وقد وصفه إخواننا بأنه شرير مدمر وطاغية قاس على أبناء الميعاده . فقال  
ناتان الطيب :

« لقد صدقوا فيما وصفوه به . من المستطاع أن يتحول فرسان المعبد  
الآخرون عن أمانى قلوبهم باللهم والعبث ، والرشوة بعود الذهب والفضة ،  
ولكن بومانوار من طراز آخر ، فهو يكره الانغماس في اللذات ويزدرى  
المال ، ويسيطر عليه الطموح إلى ما يسمونه . يأكليل الاستشهاد . ادعوا  
الله أن يبتليه به عما قريب ويبتليهم جميعاً . إن هذا الرجل المتعالى قد ألقى  
بقفازه في وجه أبناء يهوذا على وجه خاص ، كما ألقى داود المقدس بقفازه  
في وجه . إيدوم ، وهو يرى أن في قتل اليهودى مذاقاً حلوا وثواباً  
عمياً . لقد نطق كفرأ وزوراً حتى عن مجانى عقايرنا وكأنها من استنباط  
الشیطان ، فليحق به خزي الله . » . فقال إسحق :

« ينبغي أن أذهب إلى تمبلستو مها يكن من شيء ، حتى ولو أصبح  
وجهه كالأتون الملهب المحمى سبع مرات . » .

وعندئذ أوضح لنا نان السبب الملح لسفرته تلك ، والحاخام مصغ  
إليه في لطفة واهتمام ، وأظهر حنانه نحو ابنته بمادرج عليه قومه إذ شق  
ثيابه وقال :

— « أواه يا بنتي ! أواه يا بنتي ! وا أسفاه على جمال صهيون وواحسرقاه على عبودية إسرائيل ، اثم استرسل قائلاً : « لملك ترى كيف تجرى الأمور معي ، وليس في استطاعتي أن أتواني فربما أثنى بجي . لو كاس دى بومانوار هذا — كزعيم لهم — بريان دى بواجيلبرت عما ينتويه من سوء ، ويعيد إلى ابنتي الحبيبة ريكا ، . فقال ناثان الإسرائيلي :

— « اذهب وتمسك بالحكمة . ألم تر أن الحصافة كانت ذات نفع لدانيال عندما ألقى به في عرين الأسود ؟ اذهب ولتجر معك الأمور وفق ماتشنتهى وما يهواه قلبك ، ولكن كن حذراً من لقاء السيد الأعظم ، إن استطعت ، فالأزدراء الوضع لشعبنا موضع بهجته صباحا ومساء ، ولو سححت لك الفرصة لأن تتحدث إلى بواجيلبرت في خلوة فربما استطعت إقناعه بطريقة أفضل ، لأن الناس يقولون إن هؤلاء النصارى الملاءمين لا يتفقون على رأى واحد في داخل المقر . ليحل بمجالسهم الخزى والفرقة والعار ، ولكن هل لك أن تعود إلى يأخى واضعاً في تقديرك أن هذه دار أهلك ، وتنبئنى عن مجريات الأمور معك ؟ إنى لشديد الأمل فى أن تعود وبرفتك ريكا التى تنلذت على الحكيمه مريام ، التى افترى المسيحيون على ما حقهته من براه السقامى ، ووصفوا الدواء بأنه من عصارة السحر ، .

عند هذا ودع إسحق صديقه ومضى ، وبعد مسيرة ساعة من الزمان بلغ مقر فرسان المعبد بتبلستو ، الذى كان قائماً وسط مراخ ومروج أغدتها عليهم رئيسهم السابق من فرط غيرته على طائفهم وتفانيه فى حبا . كان المقر قويا فى بناءه وتحصينه ، وهى ناحية لم يكن لهؤلاء الفرسان أن يغفلوها أبداً لأن حالة إنجلترا المضطربة ، كانت تزيد من ضرورتها على وجه خاص .

كان اثنان من حاملي الرايح في أردية سوداء يقومان على حراسة الكوبرى المعلق ، وكان غيرهما في نفس الكساء الكتيب يذرعون الأسوار ذهاباً وجيئة بخطوات جنازية ، وكانوا أقرب إلى الأشباح منهم إلى الجنود ، وقد ارتدى صغار ضباط الطائفة هذا الزي منذ كان ارتداؤهم للملابس البيضاء الشبيهة بملابس الفرسان والوصفاء سبباً في ظهور جماعة من الإخوة الزائفين في جبال فلسطين ، ادعوا بأنهم من الطائفة وطلبوا عليها الكثير من الفضيحة والعار .

كان أحد الفرسان يرى بين الفينة والفينة وهو يعبر الغناء بعباءته الطويلة البيضاء ، معقود الذراعين ، وقد أحنى رأسه إلى صدره من فرط ما به من ضيق ، وكان الرجال يحبون بعضهم البعض — لو اتفق أن التقي واحد منهم بآخر — بتحية بطيئة رزينة صامته كما كانت تفرضه عليهم لائحة نظامهم المستقاة من النصوص المقدسة التي تقول : الإسراف في القول يقودك إلى الخطيئة . . وتقول أيضاً : الحياة والموت رهينان بمنطوق اللسان . . ولكن صرامة أنظمة المعبد المتقشفة الزاهدة ، كانت قد استحالت إلى إسراف في العبث ، يبدو وكأنه قد بعث فجأة في تمبلستو تحت عين لو كاس دى بومانوار الصارمة .

وقف إسحق عند الباب الخارجى ليفكر في وسيلة الدخول بطريقة يستدر معها الرضى ، إذ أنه كان يعلم حق العلم أن التعصب الدينى الشديد للطائفة ليس أقل خطورة على بنى جنسه التمس من فجور أبنائها الدنء ، وأن دياناته ستكون موضع كراهية واضطهاد في الحالة الأولى ، كما أن ثراه سيعرضه في الثانية إلى اغتصاب لا هوادة فيه .

كان لو كاس دى بومانوار آتذ يسير في حديقة صغيرة يمتلكها المقر تقع في نطاق تحصيناته الخارجية ، يتجاذب اطراف حديث خنى حزين مع

أحد إخوان طائفته كان قد أتى برفقته من فلسطين . كان السيد الأعظم رجلا قد تقدمت به السنون ، تشهد بذلك لحينه الرمادية الطويلة ، وحاجبان رماديان كشيخان فوق عينين لم يقو تعاقب السنين على أن يخمد من نارهما ، ولما كان محارباً شديداً المراس ، فقد أبقت قسماً وجهه النحيلة القاسية على مظهر الجندي الشرس ، وبما أنه كان زاهداً مفرقاً في الدين ، فإنها لم تكن أقل انطباعاً بهزال التقشف ، والكبرياء الروحي للزاهد القانع العفيف ، ومع ذلك فقد كان يمتزج بمسحة ذلك الوجه الصارم شيء أخاذ نبيل لاشك في أنه نابع من الدور العظيم الذي كان مقامه السامى يحتم عليه القيام به بين الملوك والأمراء ، ومن ممارسة فرض سلطته العليا على جميع الفرسان البواسل ذوى المنبت الكريم الذين كانوا خاضعين لقوانين الطائفة .

كان فارغ القامة مرفوع الهامة ، منتصباً في مشيته المهيبة التي لم يعبت بها كراة الأعوام أو طول الجهد ، وكانت عباةته البيضاء مصنوعة على نسق دقيق طبقاً لقاعدة القديس برنارد ، ومن قماش كان يسمى في ذلك الحين باسم باريل ، ومتسقة كل الاتساق مع حجم مرتديها ، وتحمل فوق الكتف الأيسر صليباً مئمن الزوايا خاصة بالطائفة ، ومصنوعاً من القماش الأحمر . لم يكن هذا الرداء محلي أو مزداناً بفراء ثمين ، ولكن السيد الأعظم كان — بما يتلاءم وعمره وما تبيحه اللوائح — يرتدى صدرية أنيقة محلاة بفراء الحملان الناعم وقد وضع صوفه إلى الخارج ، وكانت هذه أقرب زينة مباحة إلى استعمال الفراء الذي كان يعتبر في ذلك الوقت الترف الأعظم في الأزياء ، وكان يحمل في يده تلك العصا الفريدة في تكوينها التي ترمز إلى منصبه ، والتي دأب فرسان المعبد على أن يمسكوا بها ، وفي طرفها الأعلى قرص مستدير ، وقد نقش عليه الصليب رمز الطائفة داخل دائرة .



كان الرفيق الذى يصاحب هذا السيد المبجل يرتدى نفس رداءه من جميع النواحي ، ولكن الاحترام المفرط الذى كان يديه نحو رئيسه ، قد جعله بمنأى عن أى لون آخر من ألوان المساواة ، وكان حاكم المقر - فقد كانت تلك مرتبه - لا يسير بمحاذاة السيد الأعظم ، بل كان إلى خلفه بالقدر الذى يسمح لبومانوار بأن يتحدث إليه دون أن يدير رأسه ، وقال السيد الأعظم :

- « كونراد ، يارفيقى العزيز فى معاركى وجهادى ، لصدرك الوفى وحده أستطيع أن أفضى بسرى الحزين ، لا لأحد سواك أتحدث عن أمانى منذ مجئى إلى هذه البلاد فى أنتى أوثر المات حتى أكون فى الدار الحق مع الصالحين . لم تقع عينى على شىء واحد فى إنجلترا يمكن أن تبتهج لمرآه سوى قبور إخوتنا تحت السقف السميك لكنيسة معبدنا فى تلك العاصمة العظيمة . لكم ناديت بنى وبين نفسى وأنا أرنو إلى جنود الصليب الطيبين الراقدين فى موسم قاتلا : أين أنت ياروبرت دى روس ! أين أنت يا وليام دى مارشال الفاضل ! افتحا قبريكما المصنوعين من الرخام ، واقبلا أخا مضى يسكن إلى جواركما ، وكان يؤثر الجهاد فى قنال مائة ألف من الوثنيين ، على أن يشهد الانحلال ينخر فى عظام نظامنا المقدس ، فأجاب كونراد مونت فيشت :

- « هذا صحيح . لقد أصبت كبد الحقيقة ، فإن خروج إخوتنا على النظم فى إنجلترا قد فاق فى شدوده خروج إخوتنا فى فرنسا . فقال السيد الأعظم ، :

- « ذلك لأنهم أكثر ثراء . كن شاهداً على أيها الأخ ولو أنتى لأحب الزهو ، إنك تعرف كيف عشت حياتى . لقد قضيتها مترسماً كل نظام من أنظمة طائفتى ، مجاهداً ضد الشياطين المجدد إيمانها وغير المجدد ، وكفارس

شجاع وقس وريح، صرعت الأسد المزجر الذي يتجول بحثاً عن يلمنهم، وذلك حينما التقيت به، وتطبيقاً لما يعظنا به القديس برنارد في البند الخامس والأربعين من لا تحتنا حيث يقول: حذار من الأسد الناثر الباحت عن فريسته. ولكن بحق المعبد المقدس، وبالحماس الذي حطم كيانى وحياتى، بل وأعصابى وزبد عظامى، أقدم بهذا المعبد المقدس على أنه فيما عداك وفئة قليله من لا يزالون على الصرامة القديمة لنظامنا حافزين، لا أرى إخوة أستطيع أن أسوق روحى إلى الالتلاف معهم فى ظل هذا الاسم المقدس. ماذا تقول نظمنا وكيف يجب أن ينظر إليها إخوتنا؟ ليس لهم أن يرتدوا من الحلوى الدنيوية براقها، ولا رياشا فوق خوداتهم، ولا ذهباً فى مهاميزم أو أعنة جياهم. ولكن من ذا الذى يسير على الأرض مرحاً وسط مظاهر الخيلاء والبهجة إلا جنود المعبد الفقراء؟ إنه محظور عليهم طبقاً لقوانيننا أن يصيدوا طيراً بوساطة طير آخر، أو يقتلوا الحيوان بالأقواس أو النبال، أو النفخ فى أبواق الصيد، أو وكز الجياد بالمهاميز ركضاً وراء صيد - أما الآن، فمن أسرع من فرسان المعبد فى ارتكاب الخيلاء الأبله فى الصيد بالسلاح أم بالصقور، وجميع ألوان الرياضة الخاملة فى الغابة أو النهر؟ إن القراءة محظورة عليهم إلا ما يسمح به رئيسهم، أو الإنصات إلى ما يقرأ إلا إلى الأشياء المقدسة التى تتلى عليهم بصوت عال فى أثناء ساعات تناول الطعام. ولكن ماذا نرى؟ إن آذانهم لا تستمع إلا لأغنيات المنشدين الخاملين، وعيونهم لا تقرأ إلا الأقاصيص الخاوية. لقد أمروا باستئصال السحر والهرطقة، ولكن انظر ما هم فاعلون! إنهم مهتمون بدراسة أسرار اليهود الشيطانية للعبنة وسحر الأعراب. لقد أسدى إليهم النصيح بالحمية فى الطعام - جذور النباتات والحساء والثريد وأكل اللحوم ثلاث مرات فقط كل سبعة أيام لأن الإسراف فى تناولها مفسدة شائنة للجسد - وانظروا! إن مواندتهم تهوى تحت أنقال الطعام الشمسى. كان عليهم أن يشربوا الماء القراح، والآن يفخر كل سكير مغرق فى

الإدمان على الشراب بأنه يحتمى الخمر كأحد فرسان المعبد ، وكان من الأجدر بهذه الحديقة المليئة - كما ترى - بأعشاب غريبة وأشجار جىء بها من الأقطار الشرقية ، أن تكون جريماً لا مير من الكفار من أن تكون قطعة أرض يجعل منها رهبان مسيحيون مزرعة لخضرواتهم المنزلية .

وأسفاه يا كوزراد ، لو كان التراخى في نظامنا قد وقف عند هذا الحد لمان الأمر ، إنك تعرف أنه قد حبل بيننا وبين قبول التقيات من النساء اللاتي التحقن في البدء بنظامنا كأخوات في طائفتنا ، وذلك طبقاً لما ورد في الفصل السادس والأربعين الذي يقول : « إن العدو الأبدى قد استطاع بصحبته للنساء أن يجبد بالكثيرات منهن عن الطريق السوى إلى الجنة » . وينص الفصل الأخير ، وهو محك الاختبار الذي وضعه مؤسسنا المبارك للتعالم النقية الطاهرة ، على أنه من المحذور علينا أن نمنح قبلة المحبة البريئة حتى لأمهاتنا وأخواتنا . إن الخجل ليأخذني عندما أتحدث ، بل وعندما أفكر في ضروب الفساد التي اجتاحتنا كالطوفان . إن أرواح مؤسسنا الأظهار ، وأرواح « هيو دى باين » ، و « جود فرى دى سانت أومر » ، والسبعة المباركين الذين كانوا أول من كرسوا حياتهم وضحوها في سبيل خدمة المعبد ، كانت قلقة حتى في أثناء هئائها في الفردوس . لقد رأيتهم في منامى يا كوزراد ، وكانت عيونهم المقدسة تذرِف الدمع الهتون من جراء خطايا إخوتهم وطيشهم ، ومن أجل الانقباس النفاضح في الملمات الذي فيه يعمهون . إنهم يقولون لي إنك نائم يا بومانوار - استيقظ ! هناك لطخة عميقة مقبنة على بناء المعبد كتلك التي كانت تخلفها إصابات الجذام على جدران المنازل الموبوءة في الأيام الخوالي . إن جنود الصليب الذين كان يجدر بهم أن يتحاشوا نظرة المرأة وكأنها نظرة ملك الأفاعى ، يعيشون الآن في خطيئة سافرة لا مع نساء جنسهم لحسب ، بل ومع بنات

الكفار واليهود الملاعين أيضا . إنك تغط في سبات يا بومانوار - انهض  
واثار لقضيتنا ا ا قتل من تردوا في الخطيئة رجالا كانوا أو نساء ا هيا  
احمل في يدك مشعل « فينياس » ، ثم انصرفت الأطياف يا كونراد ،  
ولكنى عندما استيقظت ، كان صايل دروعهم لا يزال يرن في سمعى ،  
وأرى عباةاتهم البيضاء تخفق . سأفعل ما يتفق وتعاليمهم - سأطهر بناء  
المعبد - سأحج الأحجار القذرة التى استقر الطاعون بها ، وألقى بها إلى  
خارج البناء . . فقال مونت فينشست :

- « ومع هذا فذع نصب عينيك أيها الأب المجلل أن اللطخة قد  
أصبحت متأصلة بمرور الأيام وحكم العادة . كن واعياً عند إصلاح مافسد  
من أركان الدين . لأنه عادل حكيم . . فقال الرجل الهرم الصارم :

- « كلا يا مونت فينشست . يجب أن يكون قاطعاً ومفاجئاً . إن الطائفة  
في محنة تقرير مصيرها . إن رشد أسلافنا وورعهم وتقواهم كانت السبيل  
إلى أن يكون لنا أصدقاء أقوياء ، أما كبرياؤنا وثراؤنا وترفنا فقد أصبحت  
سبباً فى أن يكون لنا أعداء أقوياء - يجب أن نلقى بهذه الثروات عنا فى  
إغراء للأمرأ - ينبغى أن نطرح هذا الكبرياء جانباً فهو فى نظرم مهانة  
لهم - يجب أن نقوم من هذه الأخلاق المعوجة الداعرة التى أصبحت سبة  
فى جبين العالم المسيحى بأسره ، وإلا فكن واعياً لما أقول . سينهار نظام  
فرسان المعبد رأساً على عقب ، ولن يكون له وجود بين شعوب الأرض  
قاطبة . . فقال حاكم المقر :

- « أدعو الله أن ينجبنا هذه البلية . . وقال السيد الأعظم بوقار :

- « آمين ا ولكن يجب أن نكون فى حال نستحق معه عون الله .  
أقول لك يا كونراد إن قوى السماء أو الأرض لا تستطيع أن تحتل سوات  
هذا الجيل إلى أبعد من ذلك . إنى على يقين من أن الأرض التى تقوم عليها

بناؤنا ستميد وشيكا ، وأن كل مانضيفه إلى قوام عظمتنا سوف ينهار قريباً ويلقى به في الهاوية. يجب أن نرتد على أعقابنا ، ونظهر للبلا أننا أبطال الصليب المخلصون ، مضحين في سبيل رسالتنا لا بدمائنا وأرواحنا فقط ، ولا بشهواتنا وسوآتنا فحسب، بل براحتنا ورفاهيتنا ومحبتنا الطبيعية، ونعمل كرجال مؤمنين بأن كثيراً من المتع التي قد تكون مشروعة لدى الآخرين ، فهي محظورة على جندي المعبد الذي نذر نفسه .

دخل الحديقة في هذه اللحظة وصيف في ثياب كهنوتية رثة (لأن طالبي الانضمام إلى هذا النظام المقدس كانوا يرتدون خلال اختبارهم ملابس الفرسان البالية) وانحنى أمام السيد الأعظم انحناء عميقة ، وظل صامتاً ينتظر الإذن له قبل أن يجترأ على الإفصاح عن مهمته ، فقال السيد الأعظم:

— « أليس من الأليق أن نرى داميان هذا مرتدياً ملابس التواضع المسيحي ، ويبدو هكذا باحترام صامت أمام رئيسه ، من رؤيته منذ يومين فقط عندما كان ذلك الغر الأحمق مرتدياً سترة مزدانة بالنقوش ، وهو يتمايل في صلف وكبرياء كأي مختال ؟ تكلم يا داميان ، إننا نأذن لك ، ماوراك ؟ ، فأجاب الوصيف :

— « إن بالباب يهودياً أيها الأب الجليل يطلب الحديث إلى الأخ بريان دي بواجيلبرت ، .

فقال السيد الأعظم :

— « لقد أصبت إذ جئت إلى تحمل هذا النبا . إن حاكم المقر يصبح في حضرتنا وكأنه رفيق عادي من رفاق طائفتنا لا يملك الحق في أن يعمل ما يملكه عليه هواه ، بل وفقاً لرغبة سيده كما ورد في النص الذي يقول « لقد أطاعني عندما سمعت أذناه ، ثم أستدار إلى رفيقه وقال « إنه لمن الأهمية

بمكان أن نعرف ماذا سيفعله بواجيلبرت إزاء هذا ، . فقال كونراد :

- « تقول الشائعات إنه شجاع مقدم ، . فقال السيد الأعظم :

- « إن ما يقال عنه صحيح . هناك شيء واحد فقط حافظنا فيه على تراث أسلافنا أبطال الصليب ألا وهو البسالة ، ولكن الأخر برهان قد أتى إلى طائفتنا مكتئبا مقطوع الرجاء ، مدفوعا إلى أن يعتنق مبادئنا وينبذ العالم - لا عن نقاء في السريرة ، بل كشخص دفعته إلى التوبة لاسمة عابرة من الضجر ، ولقد أصبح منذ ذلك الحين دائما على إثارة الفتن ، مزجرا ، دساسة ، مزعما لأولئك المتمردين الذين يكذبون بنا ، وينكرون علينا سلطتنا ، غير واثق أن السلطة قد منحت للسيد الأعظم بمقتضى العصا والصولجان - العصا لتقويم حال المستضعفين ، والصولجان لتأديب الآثمين وتصحيح أخطائهم . ثم التفت ناحية الوصيف وقال : « ائمت باليهودى إلى حضرتنا يا داميان . »

مضى الرجل بعد أن انحنى انحناء عميقة ثم عاد بعد دقائق يقود إسحق أوف يورك ، الذى أظهر من التجليل والهلع وهو يقترب من السيد الأعظم ، أكثر مما يديه عبد عار جىء به في حضرة أميرعظيم في أثناء اقترابه من منصة قاضيه ، وعندما أصبح على مبعده ثلاث خطوات ، أشار إليه بومانوار بعصاه ألا يقترب أكثر من ذلك . ركع اليهودى وقبل الأرض دلالة الاحترام ، ثم نهض ووقف أمام فارس المعبد ويدها مضمومتان إلى صدره ، ورأسه مدلى بكل مظاهر المذلة اليهودية ، وقال السيد الأعظم :

- « اخرج يا داميان ، ودع أحد الحراس ينتظر متأهبا لأى نداء مفاجيء يصدر عنا ، ولا تأذن لأحد بأن يدخل الحديقة حتى نبرحها ، . انحنى الوصيف ثم ارتد إلى الورا ، واسترسل الهرم المتعالى قائلا : « استمع إلى جيداً أيها اليهودى ليس مما يليق بمرتبنا أن أسرف في الحديث

نعك ، ولامن دأبنا أن نهدر القول أو الوقت مع كائن من كان ، لذا أوجز في إجاباتك على ما سأوجه إليك من أسئلة ، واصدقني القول ، ولو كذب لسانك فسأترعه من بين فكيك الكافرين ، . كان اليهودى على وشك أن يجيب ولكن السيد الأعظم أتبع قائلاً :

— « تمهل أيها الكافر ! لا تفه بكلمة في حضرتنا إلا ما كان جواباً لما سألك . ما أمرك مع أخينا بريان دى بواجيلبرت ، ؟ »

بعث إسحق بزفرة عميقة مبعثها رعب وحسيرة ، فلوروى قصته فن المحتمل أن تؤخذ على أنها فرية بل وتشهير بالطائفة ، وإذا لم يقصها فأى أمل براوده في تحقيق خلاص ابنته ! رأى بومانوار جزعه المميت فارتضى أن يعطيه شيئاً من الطمانينة وقال :

— « لا تخش شيئاً أيها اليهودى التمس طالما كنت صادقاً في عرض أمرك . أطلب إليك مرة أخرى أن تخبرنى عن شأنك مع بريان دى بواجيلبرت ، ؟ » .

تلعلم اليهودى وقال :

— « لو سمحت بساتكم المبعجة ، فإنى أحمل رسالة إلى ذلك الفارس الطيب من الرئيس أمير رئيس دير جورفولكس ، . فقال السيد :

— « أولم أقل إن هذه أوقات منكودة يا كونراد ؟ رئيس دير مسيحي يبعث برسالة إلى أحد جنود المعبد ، ولا يجد رسولا أفضل من يهودى كافر ! أعطنى إياها ، . »

أخرجها اليهودى يدين مرتعتين من طيات قبعتها الارمنية التى كان قد أودعها رسالة رئيس الدير إمعانا في الحفاظ عليها ، وكان على وشك

الاقتراب ، ماذا يده جاثم الجسد ليضعها في يده مستجوبه المتجهم ، فقال السيد الأعظم :

- « ارجع القهقري أيها الكلب ! إني لا ألمس الكافرين إلا بحد السيف . خذ الخطاب يا كوزراد من اليهودى وأعطنى إياه . » .

ولما تسلم بومانوار الرسالة على هذا النحو ، فخصها من الخارج بإمعان ، ثم شرع يفضها فأفحم كوزراد بنفسه في شيء من الحذر غير قليل قائلاً :

- « هل ستفض خاتمها بنفسك أيها الأب المبجل ، ؟ فقطب بومانوار جينده وقال :

- « ولم لا ؟ ألم يرد في الفصل الثاني والأربعين من لامتنا أن فارس المعبد لن يتلقى رسالة حتى ولو كانت من أيه دون أن يحيط السيد الأعظم بها علماً ويقرؤها في حضرته ، ؟ ثم تلى الرسالة على عجل وأمارات الدهشة والجزع ترتسم على محياه ، وقرأها مرة أخرى على مهل ، ثم أعطاها لكونراد بإحدى يديه ، وهو يديق بالآخرى عليها دقاً ناعماً وقال :

- « ها هي ذى مادة طبية يكتبها رجل مسيحي لمسيحي آخر وكلاهما عضو - عضو مرموق - في منظمة دينية ، ا ثم قال مشدداً وهو يرفع ناظريه ، متى تحضر مع حاملي المراوح لتطهير أرض الدراس ؟ ، . » .

أخذ مونت فنيشت الرسالة من رئيسه ، وكان على وشك أن يقرأها عندما قال السيد الأعظم :

- « اقرأها بصوت عال يا كوزراد ، أما أنت ( لإسحق ) فانتبه إلى القصد منها لأننا سنسألك عنه . » .

قرأ كوزراد الرسالة وكان نصها كما يلي :



• من آيبر الذى هو بنعمة الله رئيس لدير القديسة مارى أوف جورفولكس إلى سير بريان دى بواجيلبرت أحد فرسان طائفة المعبد المقدسة مع أطيب أمانى بموفور الصحة ، مع هبات الملك باشوس وميبتنا فينوس ، أما فيما يمس حالتنا الزاهنة أيها الأخ العزيز ، فنحن أسرى لبعض الرجال الخارجين على القانون الذين لا يخشون الله ، ولا يقبمون وزناً للقبض على شخصنا وإطلاق سراحنا مقابل فدية ، كما أننا علمنا أيضاً بمصير فروندييف النمى ، وأنتك قد فررت بتلك الساحرة اليهودية الجميلة التي ملكت عينهاها السوداء وان عليك لبك ، ولقد اغتبطنا من أعماق قلوبنا لخلاصك ، وعلى أى حال فإننا نرجوك أن تحذر ساحرة • إندور الثانية • هذه لأننا نعلم من مصدر خاص علم اليقين أن سيدكم الأعظم الذى لا يكثر مثقال حبة بالوجنات الوردية والعيون السوداء آت من نورمانديا ليضع حدا لمرحكم ، ويقوم من اعوجاجكم ، ولذا فإنى أرجوك من صميم قلبى أن تنتبه ، وأن تكون على حذر كما يقول النص المقدس • اسهروا وراقبوا • ، ولنا كان أبوها اليهودى الثرى إسحق أوف يورك قد ضرع إلى أن أسطر له رسالة تعود عليه بالنفع ، فقد أعطيته هذه ، ونصحتى إليك ، بل ألح فى الرجاء بأن تقنع بالحصول على فدية عن الفتاة ، لأنى أرى أنه سيدفع لك من ماله ما ينى بالحصول على خمسين فتاة بشروط أكثر أمناً ، ولذا فإنى موقن بأنى سأنال نصيبى عندما نقضى معا وقتنا بهيجا كأخوين على وفاء ، ولن ننى مجلس الشراب ، فالنص المقدس يقول • إن الخمر تطهر قلب الإنسان • ، وحتى هذا اللقاء المرح أتمنى لك أطيب الأوقات .

حرر بوكرك اللصوص فى حوالى ساعة السحر ، . التوقيع  
( آيبر رئيس دير جورفولكس )

• ملاحظة : حقيقة لم تبق سلتك الذهبية معى طويلا ، وهى الآن تلفت بعثق أحد اللصوص سارقى الأطباء ، وتندلى منها صفارة ينادى بها على كلابه ، • فقال السيد الأعظم :

— « ما قولك في هذا يا كوزراد ؟ وكر لصوص ! إن وكر اللصوص هذا هو أوفق مقرئ ل ذلك الراهب ، ولا عجب في أن يصب الله نعمته على رءوسنا ، وأن نفقد موقعا بعد آخر في الأراضي المقدسة ، وقدما بعد قدم أمام الكفار عندما يكون رجالنا على غرار آيبر هذا . ثم قال لأمين سره على حدة ، ليت شعري ماذا يعنى بساحرة إندور الثانية هذه ، ؟ .

كان كوزراد أكثر دراية من رئيسه برطانة المغامرات ، ( ربما عن مران ) فشرح المقطع الذى عجز السيد الأعظم عن إدراكه بأنه نوع من المصطلحات التى يستعملها العلمانيون مع الغايات ، ولكن هذا التفسير لم يرض بومانوار المتعصب فقال :

— « إن به خيئاً لا تستطيع التكهن به يا كوزراد — إن بساطتك لا تقوى على مناهضة تلك الهوة الخبيثة — إن رييكا أوف يورك هذه كانت قد تلذت على مريام التى سمعت بها ، وسيقر اليهودى ذلك الآن بنفسه . »

ثم استدار نحو إسحق وقال بصوت عالٍ « إذن فابنتك أسيرة لبريان دى بواجيلبرت ؟ ، فهمم إسحق المسكين قائلاً :

— « نعم أيها السيد المبجل الباسل ، وأية فدية يقوى رجل فقير مثل على دفعها ثمنا لخلاصها . . . ، فقطاعه السيد الأعظم قائلاً :

— « صه ! ألم تكن ابنتك هذه تمارس الطب ؟ ، فأجاب اليهودى بشيء من الثقة غير قليل :

— « نعم ياسيدى العظيم ، وكم من فارس وجندى ووصيف وتابع قد بارك الموهبة الطبية التى أغدقتها عليها السماء . يستطيع أكثر من واحد أن يقر بأنها أبرأته بعلمها وقتها فى الوقت الذى عجز عن ذلك أى عون بشرى آخر ، ولكن بركات إله يعقوب ماتخلت عنها يوماً . فاستدار بومانوار نحو مونت فنيشت بابتسامة متجهمه وقال :

٢- انظر يا أخى إلى أساليب خداع تعدو الملتهم ! انظر إلى العليم الذى يصد به الأرواح ، مانحا إياها مدى قصيراً من الحياة الدنيا ، مقابل السعادة الأبدية فى الآخرة . ما أحسن قول لانتختنا ، هبوا وقاتلوا الأسد واهزموا المخرب ! ، قال ذلك وهو يهز عصاه الدينية عالياً وكأنه يتحدى قوى الظلام ، ثم استرسل مخاطباً اليهودى ، لاشك عندى فى أن ابنتك تقوم على علاج المرضى بالكلمات والطلاسم والتعاوين إلى غير هذا من الأسرار الشيطانية . .

فأجاب إسحق :

— وكلا أيها الفارس الجليل الباسل . وانكنا تبرى السقامى بيلم  
شاف قوى الأثر . .

فسأله بومانوار :

— ومن أين لها بهذا السر ؟ ، فتردد إسحق ثم قال :

— ولقد أعطتها إياه مريم إحدى حكيئات قومنا ، . فقال السيد الأعظم :

— وآه أيها اليهودى الزنديق ! ألم يكن ذلك من الساحرة مريم نفسها التى شاع أمر سحرها الدنى وذاع فى جميع أنحاء العالم المسيحى ؟ ، قال ذلك وهو يرسم علامة الصليب على صدره ، ثم عاد وقال ، لقد أحرق جسدها على منصة الحريق وأصبح هشياً تذروه الرياح الأربعة . ايكن ذلك مصرى ومصير طائفتى إن لم أفعل معها الشيء نفسه بل وأكثر منه ! سأعلمها كيف تطرح شباك سحرها وشعورذتها على جنود المعبد المقدس ، هيا ياداميان ، اقدف بذلك اليهودى إلى خارج الباب ، وارمه بسهم إذا اعترض وعاد ثانية ، أما ابنته فسنقضى فى أمرها طبقاً لما يأمر به القانون المسيحى ومقامنا الرفيع . .

وعلى هذا دفع بإسحق المسكين إلى الخارج ، وطرده من مقر فرسان المعبد دون التفات إلى ضراعاته ، ولا إلى عروضه التي ضرب بها عرض الحائط ، ولم يكن أمامه من سبيل إلا أن يعود إلى منزل الحاخام ، ويحاول أن يعرف عن طريقه ذلك المصير الذي ستلقاه ابنته . لقد كان حتى تلك الساعة في خشية من أن يخدش عفافها، أما الآن فقد أمسى يرتعد فرقا على حياتها .

وفي الوقت نفسه طلب السيد الأعظم أن يكون رئيس فرسان معبد تمبلستو في حضرته .

**\*\* معرفتي \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**

**منتديات مجلة الإبتسامه**

## الفصل السادس والتسعون

لا تقل إن قتي خداع ، فالكل يحميون بالظواهر ،  
بها يتسول الشحاذ ، وبها يحظى رجل البلاط المرح .  
بأرض ولقب ومركز وسلطان .  
ورجل الكنيسة لا يزدريها ، والجندي الجسور  
يحقق بها مأربه . الكل يقرونها ،  
الكل يمارسونها . ومن يقنع بإظهار حقيقته ،

فلن يكون له من الشأن إلا قليلا  
سواء في الكنيسة أو في المعسكر أو الدولة ، هكذا دأب الحياة .  
( مسرحية قديمة )

كان ألبرت مالفوازان رئيساً أو مديراً لمؤسسة تمبلستو طبقاً لمسميات  
طائفة فرسان المعبد ، وأخالفيليب مالفوازان الذي سبق أن ذكرناه  
في بعض الأحايين في أحداث هذه القصة ، وكان كأخيه البارون وثيق  
الصلة بيريان دي بواجيلبرت ، وفي طليعة أولئك الفاسقين اللثام الذين  
كانت طائفة فرسان المعبد تضم الكثيرين من هم على شاكلته ، ولكنه كان  
يختلف عن بواجيلبرت الجسور بأنه كان يعرف كيف يسدل قناعاً من النفاق  
على مساوئه وجشعه ، ويبدو في مظهره مغرقاً في التعصب الديني الذي كان  
يزدريه في دخيلة نفسه ، ولو لم يكن السيد الأعظم قد أتى على غرة ، لما رأى  
من أمور تمبلستو ما يوحى بأى تراخ بالنظام ، وعلى الرغم من أن ألبرت  
مالفوازان قد فجأته زيارة رئيسه ، وأن أمره قد افتضح إلى حد ما ، إلا أنه  
استمع إلى تعنيفه باحترام عميق وندم ظاهر ، كما أسرع بإصلاح ما كان من

الأمور موضع نقد ، إلى حد أن التوفيق قد أصابه في إضفاء مظهر الزهد على جماعة كانت إلى وقت قريب جانحة إلى الفسق والفجور ، حتى إن رأى لوكاس دي بومانوار في خلق رئيس المؤسسة قد بدأ يتحول عن ذلك الذي دفعه المظهر الأولي للمقر إلى التفكير فيه ، ولكن مشاعر السيد الأعظم الودودة قد اصطدمت بهزة عنيفة عندما علم بأن ألبيرت قد آوى في بيت من بيوت الدين تلك السجينة اليهودية ، التي كان يخشى أن تكون خلية لآخ من رجال الطائفة ، ولما مثل ألبيرت بين يديه ، نظر إليه بصرامة لم يألها من قبل وقال بلهجة شديدة :

— « في هذا القصر المخصص لأغراض طائفة المعبد المقدسة امرأة يهودية جاء بها إلى هنا أحد إخوتنا في الدين ، وتتغاضى عن هذه الفضيحة يا سيدي الرئيس وأنت تدرى ! ! »

فاضت الحيرة بألبيرت مائهوازن لأن ريبكا التعسة كانت قد أودعت مكانا من البناء قصيا خفيا ، واتخذت الحيلة كاملة كي تظل إقامتها به مجهولة غير معلومة ، وقرأ في نظرات بومانوار القضاء على بواجيلبرت وعليه أيضا إلا إذا استطاع أن يتفادى العاصفة التي كانت وشيكة الوقوع ، واسترسل السيد الأعظم قائلا :

— « ما بالك لا تجيب ؟ » فقال رئيس المقر مسرفا في خضوعه ، وكان يهدف من وراء سؤاله إلى اكتساب لحظة لتدبير أفكاره .  
— « أنا ذنون لي أن أجيب ؟ » فقال السيد الأعظم :

— « تكلم فقد أذنا لك ، وقل لي : ألا تعرف أن أم الأسس في نظامنا المقدس يقضى على فارس المعبد بأن يحيا حياة طاهرة كل الطهر ، وألا تكون له بالنساء علاقة ما ؟ » فأجاب رئيس المقر :

— « لا ريب في هذا أيها الأب المبجل ، وإن لم أبلغ مثل هذه المرتبة في الطائفة وأنا جاهل بواحدة من أم محظوراتها . »

- ، إذن فلأسألك مرة أخرى ، كيف رضيت أن تأذن لأحد الإخوة بأن يأتي بخيلته - وهي ساحرة يهودية - إلى هذا المكان المقدس لتلطخه وتدنسه ؟ ، فرد ألبيرت مالفوازان قائلاً :

- « ساحرة يهودية ! فلتحرقنا الملائكة الأبرار ! ، فقال السيد الأعظم عابسا :

- « نعم يا أخي ساحرة يهودية ! لقد قلت ذلك . أتجتري على أن تنكر أن ريكا ابنة المرابي النمس إسحق أوف يورك ، وتليذة الساحرة اللعينة مريام تقيم الآن - ويا للعار عند التفكير في ذلك أو النطق به - داخل مقرك هذا ؟ ، فأجاب الرئيس :

- « لقد أنارت حكمتك أيها الأب المقدس بصيرتي . لكم عجبت كيف أن فارساً مقداماً مثل بريان دي بواجيلبرت يبدو مأخوذاً بمفاتيح هذه الآثي التي رضيت ببقائها في هذه الدار بغية وضع حائل بين مودتهما النامية ، ولولا تلك الحبيطة لجرفت أحنينا الباسل المذدين ، . فسأله السيد الأعظم :

- « ألم يحدث بينهما الآن ما يجعله حائثاً في قسمه ؟ ، فقال رئيس المقر وهو يرسم علامة الصليب على صدره استنكاراً :

- « ماذا ! تحت هذا السقف ؟ إنى أستعبد بالقديسة مجدلين ، والعداري العشرة آلاف اكلا ! إن كنت قد ارتكبت خطأً بياواتها ، فقد كان ذلك بوازع من الفكرة الخائنة التي راودتني بأنى قد أستطيع بذلك تحطيم هيام أحنينا الذي ركب متن الشطاط بهذه اليهودية ، ذلك الهيام الذي كان يبدو لي عنيفاً شاداً إلى حد أنى لم أستطع إلا أن أعزوه إلى لمسة من الخبل ، تعالج باللين لا بالتقريع والتعنيف ، ولكن بما أن حكمتكم الرشيدة قد كشفت عن دفين هذه اليهودية الفاجرة ، وهي أنها ساحرة ، فرجما كان ذلك مبرراً كافياً لجه الجنونى الدايق ، . فقال بومانولر :

— هذا صحيح ، هذا صحيح ، انظر يا أخى كونراد إلى خطورة الاستسلام إلى الأعبى الشيطان وغواياته الأولى ، إتنا ننظر إلى المرأة فقط لنشبع شهوة العين، ونستمتع بما يسميه الرجال جماها . أما العدو القديم الأسد الملتهم ، فإنه يكتسب سلطانا علينا ليم بالطلاسم والسحر ذلك العمل الذى بدأه بالتداعى والحماقة . من المحتمل أن يكون بواجيلبرت فى هذا الشأن مستحقاً للرثاء بدلا من صارم العقاب ، أو للنصح بدلا من ضربات العصا ، وقد ترده نصائحنا وصلواتنا عن مضته ، وتعيده إلى حظيرة إخوته . . فقال كونراد مونت فتيشت :

— إنه لباعث على شديد الأسى أن تفقد الطائفة واحداً من أفضل حاملى رماحها فى وقت تمس فيه حاجة جماعتنا المقدسة إلى سواعد أبنائها . لقد قتل بريان دى بواجيلبرت هذا ثلاثمائة من الأعداء بيده . . فقال السيد الأعظم :

— إن دماهم ستكون قربانا زكياً مقبولا لدى القديسين والملائكة الذين كانوا يزدرونهم ويخوضون فى مقدساتهم . سنقاوم بعونهم تلك الشعوذة والطلاسم التى أحاطت بأخينا كالشباك . إنه سيحطم قيود هذه الدابلة كحطم شمشون السلسلتين الحديدتين اللتين قيده بهما الفلسطينيون وسيقتل الكافرين أكواما أكواما . أما هذه الساحرة اللعينة التى فتنت بسحرها أحد إخوان المعبد المقدس ، فالموت مصيرها المحتوم . . أمارئيس المقر الذى كان قد اغتبط لأن نقمة السيد الأعظم قد تحولت لحسن حظه عنه وعن بواجيلبرت إلى ناحية أخرى ، فقد أصبح الآن يخشى من أن يكون قد ذهب إلى أبعد مما ينبغى فقال :

— ولكن قوانين إنجلترا .... ، فقاطعه بومانوار قائلا :

— إن قوانين إنجلترا تبيح لكل قاض بل وتمحه على اتخاذ العدالة



في محيط سلطته . إن أصغر مالك يستطيع أن يقبض ويحاكم ويقيم الاتهام ضد ساحرة توجد في نطاق ممتلكاته ، فهل يحظر على السيد الأعظم للمعبود استعمال هذه السلطة في داخل أحد معاقل طائفته ؟ كلا ! سنحاكم وتتهم وسنبيد الساحرة ونمحوها من فوق وجه الأرض، وعندئذ يُبصغ عن الشر. أعدوا قاعة القصر لمحاكمة الساحرة . .

انحنى ألبيرت مالفوازان ثم انصرف لا يبصر الأوامر بإعداد القاعة ولكن ليبحث عن بريان دي بواجيلبرت ، ولينهي إليه ما يحتمل أن تسفر عنه مجريات الأمور، لم يمض وقت طويل حتى وجده يرغى ويزيد لإغراض اليهودية الحناء عنه ويقول :

- تلك الطائشة الجاحدة تزدرى من أنقذ حياتها من بين الدماء واللهب مخاطراً بنفسه ! بحق السماء يا مالفوازان ! لقد ظللت صامداً حتى تشققت الأسقف والدعامات ثم انهارت من حولي . لقد كنت هدفاً لمائة سهم كانت تصلصل وتتساقط على درعي وكأنها حبات البرد على زجاج إحدى النوافذ ولم أعمل بدرعي إلا لحماها ! لقد احتملت كل هذا في سبيلها والآن تلتق الفتاة العنيدة على باللائمة لأنني لم أتركها تموت ، ولا تأتي على أي بادرة من بوادر العرفان بالجليل لحسب ، بل وأي أمل بعيد في أنها ستعترف به في أي وقت قابل . إن الشيطان الذي سيطر على قومها بالعناد قد ركز قوته فيها وحدها ! ، فقال رئيس المقر :

- ه أرى أن الشيطان قد ركبنا معاً . كم أسديت لك الموعدة بالحرص إن لم يكن بضبط النفس عن الشهوات ! أو لم أقل لك إن هناك كثيراً من الصبايا المسيحيات يرين أنه من الإثم أن يحفظن عواطفهن على فارس شجاع مثلك ، وهأنت ذا الآن يرسو بك مطاف الحب إلى يهودية عنيدة ! أقسم بالقداس على أن لو كاس دي يومانوار المسن قد تكهن صدقاً عندما زعم

أنتها، أنت عنيك بغاشية السحر ، . فقال بواجيلبرت معاتباً :

- « لو كاس دي بومانوار ! أذلك هو ما اتخذته من حيلة بامالقفوازان ؟  
أجمعت ذلك الرجل الذي أخذه الشطط يعرف أن ربيكا هنا داخل المقر ؟ ،  
فقال الرئيس :

- « وكيف كنت أقوى على أن أحول دون ذلك ؟ لم أغفل القيام  
بأى عمل فيه محافظة على ما خفي من سر ك ولكنه افتضح ، وسواء أكان  
ذلك من عمل الشيطان أم لا ، فالشيطان وحده هو الذي يستطيع أن يفصح  
عن ذلك ، ولكني عملت جاهداً على إبعاد اللائمة عنك قدر ما استطعت -  
ستصبح آمنة إذا تنكرت لريكا - إنك موضع عطف وشفقة وفريفة  
لضلال السحر ، أما هي فساحرة وينبغي أن تعذب ، . فقال بواجيلبرت :

- « إنها بحق السماء لن تعذب ، فقال مالقفوازان :

- « بحق السماء يجب أن تعذب ، وسوف تعذب ، لا أنت ولا أنا  
ولا أى كائن حتى سوانا يقوى على إنقاذها . لقد قرر لو كاس دي بومانوار  
أن يكون موت اليهودية تكفيراً كافياً عن كل خطايا الغرام التي انغمس فيها  
فرحان المعبد ، وأنت تعرف أنه يمتلك القدرة والإرادة للوصول إلى هذه  
الغاية التقية التي يجيزها العقل ، . فقال بواجيلبرت وهو يندرع الغرفة  
غادياً رائحاً :

- « هل تستطيع الأجيال المقبلة أن تصدق أن مثل هذا التعصب  
اللاحق قد وجد يوماً ما ؟ ، فقال مالقفوازان بهدوء :

- « لا أعرف ما يمكن لهم أن يصدقوه ، ولكني أعلم علم اليقين أن  
تسعة وتسعين في المائة من رجال الكنيسة والعلمانيين على السواء ، سوف  
يقرون السيد الأعظم على الحكم الذي يصدره . ، فقال بواجيلبرت :

- ، لقد اهتمت إلى رأى . إنك صديقى يا ألبرت ، ويجب أن تكتم أمر هربها ، وسانقلها إلى مكان أكثر أمناً وانزوا . ، فقال الرئيس :

- ، لا أستطيع أن أفعل ذلك حتى ولو أردت أن أفعله . إن القصر يعج بأتباع السيد الأعظم وبغيرهم من الموالين له ، وكى أكون صريحاً معك يا أخى ، فإنى أقول لك إنى لن أسهم معك فى القيام بهذا العمل حتى ولو راودنى الأمل فى أن أرسو بسفينتى إلى بر الأمان . لقد ركبت كثيراً من المخاطر من أجلك ، والآن أرانى لست راغباً فى مواجهة حكم بتجريدى من رتبتي ، أو حتى بنقلى من مقرى من أجل قطعة مطلاة من اللحم والدم اليهودى ، وأما أنت إذا أردت أن تتبع نصيحتى ، فدع عنك مطلبك هذا لأنه غير عسير المنال ، وأطلق صقرك على صيد آخر . فكر يا بواجيلبرت ، إن مرتبتك الحاضرة وأجسادك المستقبلية تتوقف ، على مكانتك فى الطائفة . لو ركب العناد عواطفك الهوجاء نحو ريبكا هذه ، فإنك ستمنح القوة لبومانوار كى يقصيك عن الطائفة ، ولن يترك هذه الفرصة تفلت منه . إنه غيور على الصولجان الذى يقبض عليه يده المهزوزة ، وهو يعلم أنك تمد يدك الجسورة نحو هذا الصولجان ، وأحب ألا يساورك شك فى أنه سيقضى عليك إذا أتمحت له حجة قوية كحمايتك لساحرة يهودية . لا تهد له السبيل كى يصل إلى ماره ، لأنك لن تقوى على مناهضة سلطانه . عندما تكون العصا فى يدك القوية ، فإنك عند هذا تستطيع عناق بنات يهوذا ، أو تقوم بإحراقهن كما بطيب لك ، . فقال بواجيلبرت :

- ، إنك متراخ يا ما لثوازن . . . . ، فأسرع رئيس المقر إلى مقاطعته خشية أن يتم القول بوصف أشد سوءا :

- ، إنى صديق هادى ، ولذا فإنى أكثر صلاحية لإسداء النصيح لك ، هأنا أقولها مرة أخرى إنك لا تستطيع إنقاذ ريبكا ، هأناذا أقولها

مرة أخرى إنك لا تستطيع إلا أن تهلك معها . اذهب إلى السيد الأعظم وألق بنفسك عند قدميه وقل له . . . . .

- « بحق السماء ان أجتو عند قدميه ، ولكنى سأقف في مواجهته وأقول له . . . . . فاسترسل ما لتوازن يهدوء :

- « قل له في مواجهته إذن إنك تحب هذه الأسيرة اليهودية إلى حد الجنون ، وكلما أسرفت في بسط عواطفك ، أسرع هو بالقضاء عليها ، يموت فاتفك الحساء ، بينما يساق بك مفضوحا بجرمة تناقض اليمين الذى أقسمته ، لا أمل لك فى أى عون من إخوانك ، وسيكروهونك على التخلي عن جميع آمالك المشرفة فى الطموح والقوة ، لتمسك برمح جندى مرتزق فى بعض المعارك التافهة بين الفلاندر وبرجانديا ، وبعد لحظات قضاها بريان دى بواجيلبرت فى تأمل قال :

- « لقد قلت صدقا يا ماثوازان ، ولن أتيح للتعصب الأشيب فرصة للنيل منى ، وأما ريبكافى غير جديرة بأن أخاطر بالمجد والشرف من أجلها . سأتحلى عنها ، نعم سأتركها لمصيرها إلا إذا . . . . . فقاطعه ماثوازان :

- « لا تراجع عن هذا القرار الحكيم . ليست النسوة إلا دمي نقطع بها أوقات سلوانا ، أما الطموح فهو العمل الجاد فى الحياة . لتهلك ألف العوبة هشة بمن هن على شاكله هذه اليهودية ، قبل أن تتوقف خطى رجولتك فى طريق المستقبل البسام المعبد أمامك ، أما الآن فلنفرق ، لا ينبغي أن يرانا أحد معا فى حديث خاص . يجب أن أمر بإعداد القاعة كي تعقد فيها جلسة المحاكمة . فقال بواجيلبرت :

- « ماذا . أهكذا على عجل ؟ ، فأجاب الرئيس :

- « نعم . إن المحاكمة تمضى سريعة إذا ما أعد القاضى حكمه سلفا .

وعندما أصبح بواجيلبرت وحيداً ، قال:

- « إنك ستكفيني غالباً يا ربيكا . لماذا لا أستطيع التخلي عنك وأتركك للقدر كما أوصاني ذلك المرائي الهادىء؟ سأبذل جهداً أخيراً لإنقاذك ، ولكن حذار من الجحود ، فلو لقيت الصد منك مرة أخرى ، فسيكون انتقامى على قدر حجبى . لا ينبغي أن تكون حياة بواجيلبرت وشرفه عرضة للمخاطرة ، عندما يكون الازدراء والعار جزاء له . »

لم يكدر رئيس المقر بصدور الأوامر بإعداد القاعة ، حتى لحق به كوزناد مونت فتيست وأبلغه قرار السيد الأعظم بتقديم اليهودية إلى المحاكمة على الفور بتهمة السحر ، فقال رئيس المقر :

- « حقاً إنها لأضعاث أحلام . إن لدينا الكثير من الأطباء اليهود ونحن لا ندعوم بالسحرة مع أنهم يحققون من حالات الشفاء أعجبها ، فقال مونت فتيست :

- « إن السيد الأعظم يرى غير ما ترى ، وإني أصدقك القول يا ألبرت أنه سواء أكانت ساحرة أم لا ، فمن الأفضل أن تموت هذه الفتاة التمسمة من أن تفقد الطائفة بريان دى بواجيلبرت ، أو أن تسود بيننا الفرقة بسبب فتنة داخلية . إنك تعلم مقامه الرفيع وشهرته في السلاح ، وأنت تعلم النشوة التي ينظر بها إليه الكثيرون من إخوتنا ، ولكن كل هذا لن يجديه فتيلا عند سيدنا الأعظم لو اعتبر بريان شريكاً لليهودية . لو كانت أرواح القبائل الاثنتى عشرة في جسدها وحده ، فمن الأفضل أن تعذب بمفردها عن أن يشاركها بواجيلبرت الهلاك . » فقال مالتوازان :

- « لقد كنت الآن أعمل قدر وسعى كي يتخلى عنها ، ومع ذلك فهل هناك من الأدلة ما تقوم على اتهام ربيكا بالسحر ؟ ألا يبدل السيد

الاعظم من رأيه عندما يلمس أن الأدلة ليست من القوة على شيء ؟ ، ،  
فأجاب مونت فنيشت :

« يجب أن تكون الأدلة قوية يا ألبيرت ، يجب أن تكون قوية ،  
ألا تفقه قولي ؟ ، فقال رئيس المقر :

— « نعم وأنا لا أرتاب في أي عمل يعود على الطائفة بالنفع ، ولكن  
الوقت قصير لإيجاد الشهود الطبيعيين الذين يقيمون الدليل ، فقال كونراد :

— « يجب العمل على إيجادهم يا مالفوازان ؛ وسيكون ذلك لصالح  
الطائفة وصالحك معا . إن تمبلستو هذا مقر فقير ، ولكن مقر «ميزون ديه» ،  
( بيت الله ) يساوي ضعف قيمته ، وأنت تعلم دالتى على رئيسنا المن .  
اعمل على أن تجد من يؤدون الشهادة ، تصبح رئيسا لمقر «ميزون ديه» ،  
في مقاطعة « كنت ، الخصية . ما قولك في هذا ؟ ، فأجاب مالفوازان :

— « يوجد من بين الذين أتوا إلى هنا مع بواجيلبرت رجلان لي بهما  
صلة وثيقة ، فقد كانا خادمين لأخي فيليب دي مالفوازان ، وانتقلا  
من خدمته إلى خدمة فرونديبيف ، ومن المحتمل أن يكونا على علم بشعوذة  
هذه المرأة . »

— « اذهب وابحث عنهما في الحال ، وأصغ إلى ما أقول : إذا كانت  
قطعة من النقود أو قطعتان كفيلتين بأن تشهدا فلا تكن عليهما  
بهما ، . فقال رئيس المقر :

— « سيقسمان على أن أمهما التي أنجبتهما ساحرة ، مقابل قطعة فضية  
واحدة ، فقال مونت فنيشت :

— « اذهب إذن . ستبدأ المحاكمة عند منتصف النهار . إنى لم أر رئيسنا  
في مثل هذه العجلة قط منذ أن حكم بإحراق « حامد الفجى ، لاعتناقه الدين  
الإسلامي . »

وعندما دوى ناقوس القصر بدقائه الرتبية الوئيدة إيدانا بانتصاف النهار ، سمعت رييكا وقع أقدام على الدرج الخاص المؤدى إلى سجنها . كان الصوت ينبىء عن مجيء عدة أشخاص ، وقد بعث هذا فى نفسها بعض المسرة ، لأنها كانت تخشى الزيارات الفردية لبواجيلبرت الشرس المتهور ، أكثر من خشيتها لآى سوء آخر قد يحيق بها . كان باب غرفتها غير مغلق ، فدخل كوزاد ومالفوازان رئيس المقر يتبعها أربعة من الحراس فى ثياب سوداء يحملون الرماح ، وقال رئيس المقر :

- انهمضى يا ابنة الشعب اللعين واتبعينا ، فقالت رييكا :

- إلى أين ولماذا ؟ ، فأجاب كوزاد :

- ليس لك أن تسألى أيتها الفتاة بل عليك أن تطيعى ، ومع ذلك فلتعلمى أنك ستمثلين أمام محكمة السيد الأعظم لظانفتنا المقدسة كى تجيبى على مساوئك ، فقالت رييكا وهى تضم يديها إلى صدرها خاشعة :

- ليتبارك إله إبراهيم . إن اسم أى قاض حتى ولو كان عدواً لقومى هو اسم حام لى . لانى أتبعكم عن طيب خاطر ، ولكن اسمحوالى فقط أن ألف وشاحى حول رأسى ، .

نزلا الدرج بخطوات وئيدة مهيبة واخترقوا عمراً طويلاً ، ودخلوا من بابين قابلين للطى فى نهايته ، وإلى القاعة الكبيرة التى كان السيد الأعظم قد عقد فى ذلك الوقت محكمة عدالته فيها .

كان الجزء الأسفل من تلك القاعة الفسيحة مكتظاً بالوصفاء والرجال الذين أفسحوا الطريق بشىء من المشقة أمام رييكا ، يرافقها رئيس المقر ومونت فنبشت ، وفى أثرهم الحراس من حاملى الرماح كى تصل إلى المقعد

المخصص لها ، وفي أثناء مرورها وسط هذا الجمع ، وقد أخذت رأسها وضمت ذراعها إلى صدرها ، دس شخص ماقصاصة من الورق في يدها ، فأخذتها بطريقة لاشعورية ؛ وظلت قابضة عليها دون أن تقرأ ما بها ، وكان إحساسها بالثقة في وجود صديق لها بين هذا الجمع الرهيب ، قد نفث فيها روح الشجاعة لتدور بعينها فيما حوالها ، وترى الرجل الذي اقتيدت إلى حضرته ، وتشرف على المشهد الذي سنعمل على أن نصفه في الفصل التالي .

•



## الفصل السابع والثمانون

صارم كان القانون الذي يأمر الموتين به  
ياغفال ويلات الخلق ، ولهم قلوب بشرية تألم .  
صارم كان القانون الذي يحظر البسمة  
عند قيام خدعة أكيدة في مجال بهيج برىء لا ضرفيه .  
ومع هذا فقد كان أشد صرامة عندما يهز عاليا  
القضيب الحديدى للقوة الظالمة  
ويسمى ذلك قوة الله .

(العصور الوسطى)

كانت هيئة المحكمة المشككة لمحاكمة ريبكا البريئة النعسة تشغل المنصة ،  
أو الجزء المرتفع من القاعة الكبيرة ، وهي مرتفع سبق لنا أن وصفناه بأنه  
مكان الصدارة المخصص لعلية القوم من بين ساكنى قصر عريق ، أو من  
كانوا ضيوفا عليه .

كان السيد الأعظم يتربع على مقعد مرتفع قبالة المتهم ، يرتدى ملابس  
فضفاضة بيضاء ، ويمسك في يده بالعصا المقدسة التي تحمل شارة الطائفة ،  
وعند قدميه وضعت مائدة جلس عليها كاتبان وهما من قساوسة الطائفة ،  
مهما اختزال السجل الرسمى لإجراءات ذلك النهار ، وكانت أردية هذين  
القسيسين السوداء ، ورأساهما الصلعاوان ، ومظهرهما الرصين ، متباينة أشد  
التباين مع المظهر الحربى للفرسان الذين شهدوا المحاكمة : وهم إما من نزلاء

المقر ، وإما ممن وفدوا للقيام على خدمة سيدهم الأعظم ، كذلك حضر من الرؤساء أربعة جلسوا على مقاعد أقل لارتفاعا وعلى مبعدة ما خلف مقعد رئيسهم ، أما فرسان الطائفة الذين كانوا دونهم مرتبة ، فقد جلسوا على مقاعد خشبية أكثر انخفاضا ، وعلى مبعدة من الرؤساء كذلك التي كانت بينهم وبين السيد الأعظم ، ومن خلفهم فوق المنصة أو الجزء المرتفع من القاعة وقف وصفاء الطائفة في أردية بيضاء أقل أبهة .

كان الوقار العميق يكسو الجمع كله ، وتستطيع أن تتبين دلائل الشجاعة العسكرية مرتسمة على وجوه الفرسان ، ممتزجة بالوقار الذي يتسم به رجال الدين والذي لم يخفق في أن يكسو كل الجباه في حضرة سيدهم الأعظم ، أما الجزء الأسفل من القاعة الذي تبقى منها ، فقد غص بالحراس القابضين على العصي ، وبغيرهم من الأتباع الذين دفع بهم الفضول إلى المجيء إلى ذلك المكان ليروا سيداً أعظم وساحرة يهودية في وقت واحد ، وكانت غالبيتهم العظمى على اختلاف مراتبهم من أتباع الطائفة ، وكانوا تبعاً لذلك يتميزون بملابسهم السوداء ، ولم يكن دخول القاعة محظوراً على الفلاحين الذين أتوا من البقاع المجاورة ليشهدوا المحاكمة ، لأنه كان من دواعي فخار بومانوار ؛ أن يرى الناس على أوسع نطاق وفي علانية دروس تلك العدالة التي يراها . كانت عيناه الكبيرتان الزرقاوان تتسعان وهو يحدق بهما في هذا الجمع ، وكان التيه بأديا على وجهه لإحساسه بمقامه الرفيع ، وجذارته العظمى للدور الذي يوشك على القيام به .

افتتحت الجلسة في ذلك اليوم بإنشاد تساييح شاركهم بنفسه في تلاوتها بصوت عميق رخيم لم يقو مر السنين على النيل منه ، وكانت مقطوعة « ابعت القوة فينا يا إلهنا العظيم ، التي ينشدها رجال المعبد كثيراً قبل نزال خصومهم من البشر ، هي الأنشودة التي رأى السيد الأعظم أن يهدبها لنصره المرتقب ، لأنه كان يرى أن فيما هو مقدم عليه انتصارا على قوى

الظلام . دوت الأنغام الطويلة العميقة التي ارتفعت من حناجر مائة رجل اعتادوا على أن يبعثوا الأناشيد في غناء جماعى صاعدة إلى سقف القاعة المقبي ، تردد في جنباتها بصوت طروب شجي ، ولكنه قوى كمدير المياه الدافقة ، وعندما توقفت الأصوات ، جال السيد الأعظم يبصره بتؤدة بين دائرة الحاضرين ولمح مقعد أحد الرؤساء خلوا من صاحبه ، إذ أن بريان دى بواجيلبرت الذى كان يشغله قد برح مكانه ، ووقف آنذاك بالقرب من الزاوية القصية لإحدى الأرائك الخشبية التي كان يجلس عليها الفرسان الرفاق من طائفة المعبد ، رافعا عباة ته الطويلة كي يجعل منها لوجه بعض الحجاب ، قابضا بالأخرى على حسامه ذى المقبض الصليبي ، ويرسم بطرف غمده في بطة خطوطا على الأرض المصنوعة من خشب البلوط . قال السيد الأعظم بعد أن ألقى عليه نظرة إشفاق :

— يا له من رجل تعس ! اعلمك ترى يا كونراد كيف أن هذا العمل المقدس باعث على إبلامه ! إلى مثل هذا الدرك تستطيع النظرة العابرة لامرأة يشد أزرها أمير قوى للشر في هذا العالم أن تنحدر بفارس موقر ؟ أتري أنه غير قادر على النظر إليها ولا إلينا ؟ ومن يدري ، بأى إيجاء من معذبتة تقوم يده برسم خطوط تعاليم اليهود القرائين على الأرض ! ربما كان الهدف منها الإبقاء على حياتنا وسلامتنا . . . . . ولكننا نبصق على العدو اللعين ونتحداه . كونوا دائماً على حذر من الأسد المزجر ! هكذا يقول النص .

وبعد أن أدلى السيد الأعظم بهذه الملاحظات إلى تابعه وأمين سره كونراد مونت فيتشت ، النفث إلى الجمع ثم رفع صوته قائلاً :

أيها الرجال المبجلون البواسل ، أيها الفرسان ، أيها الرؤساء ، رفاقنا في هذه الطائفة المقدسة ، إخوتى وأبنائى ، وأتم أيضاً أيها الوصفاء الأتقياء ذوو المنبت الكريم ، التواقون إلى ارتداء هذا الصليب المقدس ، وأتم أيضاً أيها

الإخوة المسيحيون من كل الطبقات ، أحب أن أنهي إليكم أننا لم نعقد هذا الجمع الطائفي بسبب قصور في سلطتنا ، لأنه مهما كان شخصنا غير أهل لذلك ، إلا أننا هذه العصا قد منحنا السلطة كاملة كي نتولى شئون القضاء في كل ما يعود على طائفتنا المقدسة بالخير ، وقد قال القديس سانت برنارد في الفصل التاسع والخمسين « إن الإخوة لا يدعون إلى اجتماع عام إلا طبقاً لرغبة السيد وأمره ، : تاركاً لنا الحرية - كما كانت لأولئك الآباء المجلين الذين كانوا يشغلون منصبنا من سلفنا - في تقرير الظرف والزمان والمكان لدعوة جميع أعضاء الطائفة أو أى عدد منهم ، وجاء في هذا النظام أنه حتم علينا أن نستمع إلى مشورة إخواننا المؤتمرين إلى مثل هذه الاجتماعات ثم نصدر حكماً كما يروق لنا ، ولكن عندما ينقض الذئب الضارى على القطيع ويختطف من الغنم شاة ، فواجب الراعى الطيب أن يدعو جميع رفاقه كي يحمّدوا أنفاس المعتدى بالأقواس والمقاليع طبقاً لقانوننا المألوف ، وهو أن الأسد يجب أن يقهر دائماً ، وعلى ذلك فقد دعونا للشول بين أيدينا امرأة يهودية تدعى ريكا ابنة إسحق أوف يورك - امرأة آئمة معروفة بالشعوذة والسحر ، وبذلك استطاعت لا أن تسوق أحد الفلاحين إلى الجنون وتسلبه نياه ، بل فعلت ذلك بأحد الفرسان ، وما هو بفارس علماني إنما هو أحد الذين وهبوا أنفسهم لخدمة المعبد المقدس نذراً ، وما هو بفارس رفيق ، ولكنه أحد رؤساء طائفتنا ومن ذوى الصدارة شرفاً ومقاماً . إن أخانا بريان دى بواجيلبرت معروف لي جيداً ولكل الطبقات التي تسمع إلى الآن بأنه بطل غيور حق من أبطال الصليب ، أتى بكثير من أعمال البسالة التي دارت في فلسطين ، كما طهر الأماكن المقدسة من الرجز بسفك دماء أولئك الكافرين الذين دنسوها ، ولم تكن حصافة أخينا وبصيرته بأقل شهرة بين إخوته من إقدامه ووجه للنظام حتى إن كثيراً من الفرسان سواء في البلاد الشرقية أو الغربية قد ذكروا اسم بواجيلبرت كواحد ممن يمكن المناداة بهم كحليفة لنا في منصبنا هذا عندما يحلو للسماء أن تريحنا

من عناء تبعاته . لو قيل لنا إن مثل هذا الرجل المبجل الشريف : قد تخلى فجأة عن تقديره لنفسه وقسمه وإخوته وآماله وربط نفسه بفتاة يهودية ، وتجول مع هذه الرفيقة الفاجرة في أماكن منعزلة ، وقام على حمايتها مؤثراً إياها على نفسه، وأخيراً أعمته جماعته وعصف الخبل بعقله حتى إنه جاء بها إلى أحد مقارنا، فإذا نستطيع أن نقول إلا أن روح شيطان شرير قد تقمصت ذلك الفارس النبيل ، أو أنه قد وقع تحت تأثير سحر خبيث ؟ ولو تراءى لنا غير ذلك ، فلا تظنوا أن مرتبته أو بسالته أو شهرته الذائعة أو أى اعتبار دينوى آخر سيحول دون القصاص منه حتى تنصرف تلك الروح الشريرة عنه . إن الأعمال المتباينة الشائنة الخطائة ضد نظامنا المقدس التى وقعت فى هذا الأمر المفضح هى كما يلي :

أولاً : اتبع هواه مخالفاً فى ذلك المادة الثالثة والثلاثين ونصها ، رغبتك الخاصة لا وجود لها . .

ثانياً : أقام رباطاً مع شخص خارج نطاق الكنيسة مخالفاً فى ذلك المادة السابعة والخسين .

ثالثاً : تحدث إلى نسوة غريبات مخالفاً نص المادة التى تقول : ليس للإخوة أن يتحدثوا إلى نسوة خارجات عن النظام . .

رابعاً : إنه لم يحاول اجتناب - كلا ، بل يخشى أن يكون قد التمس قبلة من امرأة ، وهى كما تقول آخر فقرة من لائحتنا المعروفة ، إنها الأجبولة التى يقع فيها جنود الصليب . . فن أجل هذه الخطايا العديدة الشائنة كان يجب أن يفصل بريان دى بواجيلبرت وبطرد من جماعتنا حتى ولو كان اليد اليمنى والعين اليمنى لها .

توقف قليلاً ، وسرت مهمة خفيفة فى صفوف الحاضرين ، أما شباب المنظمة الذين كانوا راغبين فى الابتسام عند ذكر نصوص اللائحة ، فقد

ارتسم الجسد على وجوههم بعض الشيء ، وأصبحوا يرقبون في قلق ما يقترحه السيد الأعظم بعد ذلك ، فقال :

— « كان يجدر بنا أن نزل بفارس المعبود عقاباً صارماً لأنه خالف قوانين النظام عن عمد في مثل هذه الأمور الخطيرة ، ولكن إذا كان الشيطان قد استطاع السيطرة على الفارس عن طريق الفتنة لأنه من المحتمل أن يكون قد أتى على جمال الفتاة بنظرة عابرة ، فيجب علينا أن نرثي لحاله أكثر مما نعاقب على تربيته ، وبينما نفرض عليه من وسائل التوبة ما يطهره من رجسه ، فإننا نصب جام غضبنا على رأس الأداة اللعينة التي هيأت الفرصة لسقطته تلك — تقدموا إذن وأدلوأ بشهادتكم يا من لمستم هذه الأعمال التعسة حتى نستطيع أن نحكم بالقسطاس ، ونزن الأمور بموازينها الصحيحة ، ونقرر ما إذا كانت عدالتنا تكفي بعقاب هذه المرأة الكافرة ، أم أننا منسوقون إلى الذهاب إلى أبعد من هذا فتتخذ إجراء ضد أخينا على الرغم من قلوبنا الدامية . »

نودي على بعض الشهود لإثبات المخاطر التي زج بواجيلبرت بنفسه فيها عندما حاول إنقاذ ريبكا من القصر المحترق ، وأغفل الدفاع عن نفسه لسكفه بسلامتها . أدلى الرجال بأقوال مسببة تشوبها المغالاة التي دأبت عليها عقول السوقة ، والتي كان يثيرها — أشد الإثارة -- أي حدث غير مألوف ، وكان نزوعهم الطبيعي للتعق في الخيال يتزايد عندما يرون الرضى بادياً على محيا الشخص الرفيع التي تليت الشهادة على مسمعه . وعلى هذا فإن المخاطر التي قهرها بواجيلبرت — وهي في ذاتها جلية — قد أصبحت طبقاً لما رووه رائعة ، ولم يكن وصفهم لتفاني الفارس في الدفاع عن ريبكا قد جاوز المدى فحسب ، بل وفاق أقصى مراتب بطولة الفوارس أيضاً ، وقد صوروا احترامه لكلماتها — رغم أنها كانت في كثير من الأحيان تنسم بالصرامة والزجر — بمغالاة غير مألوفة نظراً لما عرف عن رجل في مثل عريكته المزهوة .

نودى بعدئذ على رئيس مقر تمبلستو ليصف كيف وصل بواجيلبرت واليهودية إلى المقر . كان مالفوازان فطيناً شديد الحذر في كلبه ، فبينما كان يبدو أنه يريد المحافظة على أحاسيس بواجيلبرت ومشاعره ، إلا أنه كان يفوه بين حين وآخر بكلمات توحى بأنه كان تحت سيطرة اختلال عقلي مؤقت لما كان يبدو عليه من حبه العميق للفتاة التي جاء بها معه .

جهر رئيس المقر بين زفرات الندم على أنه أذن لريكا وحببها بأن تضمهما جدران المقر وقال :

- ولكن دفاعي قد تضمن اعترافي لأبينا المجلد السيد الأعظم بأنه يعلم أن سلوكي كان خاطئاً ولكن الدوافع إليه لم تكن هادفة إلى السوء ، وسوف أمثل مبهجاً لآي عقاب يرى إنزاله بي .

فقال بومانوار :

- لقد أحسنت القول أيها الأخ ألبيرت . حقاً لم تكن دوافعك صادرة عن سريرة خبيثة لأنك رأيت أنه من الصواب كبح جماح أخيك الخاطيء عن الاندفاع في طريق الطيش والغواية ، ولكنك لم تكن موقفاً في مسلكك ، وكنت كمن يحاول إيقاف جواد هارب فيمسك به من الركاب بدلاً من العنان ، فيلحق الأذى بنفسه بدلاً من تحقيق هدفه . لقد حدد مؤسس منظمنا التقى عدد صلوات «أبانا الذي في السموات» بثلاث عشرة مرة في الصباح ، وتسع مرات في المساء ، فعليك أن تصلى ضعف هذا العدد ، وأنه يؤذن لفرسان المعبد بأن يتناولوا اللحم ثلاث مرات في الأسبوع ، ولكن عليك أن تصوم عنه طيلة الأيام السبعة . افعل ذلك لمدة ستة أسابيع مقبلة ، وبذلك تكون قد كفرت عن ذنبك .

انحنى رئيس مقر تمبلستو أمام رئيسه حتى كاد جبينه أن يلامس

الأرض بنظرة فيها خضوع عميق تدل على النفاق ثم عاد إلى مجلته ، وقال  
السيد الأعظم :

— « أما كان من الأفضل أيها الإخوة أن نفقش عن شيء في الحياة  
الماضية لتلك المرأة وأحاديثها حتى نكشف بصفة خاصة عما إذا كانت ممن  
يؤمنون بطلاسم السحر والتعاويد ، إذ أن الحقائق التي سمعناها تسوقنا إلى  
الاعتقاد بأن أختنا الخاطيء قد وقع ضحية الغواية والضلال عندما سلك  
هذا السبيل التمس ، ؟

كان هيرمان أوف جودالرايك رابع الرؤساء الحاضرين ، أما الثلاثة  
الآخرون فكانوا كونراد ومالفوازن وبواجيلبرت نفسه ، وكان هيرمان  
محارباً قديماً تكسو وجهه ندبات من أثر سيوف المسلمين ، وكان ذا مرتبة  
ومكانة مرموقتين بين إخوته ، فهض وانحنى أمام السيد الأعظم الذي  
سارع ومنحه الإذن بالكلام فقال : —

— « إني أود أيها الأب المبجل أن أعرف من أختنا الباسل بريان  
دى بواجيلبرت رأيه في هذه الاتهامات العجيبة ، وبأى عين ينظر الآن إلى  
تلك الصلة الخبيثة بينه وبين هذه الفتاة اليهودية ؟ ، فقال السيد الأعظم :

— « لقد استمعت يا بريان دى بواجيلبرت إلى السؤال الذي يطلب  
أخونا أوف جودالرايك الجواب عليه . إني أمرك بأن تجيبه . .

وعند هذا أدار بواجيلبرت وجهه نحو السيد الأعظم ، ولكنه ظل  
صامتاً لا يجيب فقال السيد الأعظم :

— « لقد ركبه شيطان آخرس ، انصرف أيها الشيطان . إني أستحلفك  
برمز طائفتنا يا بريان أن تنطق . . بذل بواجيلبرت جهداً ليكنتم ازدرأه  
وسخطه الفياضين ، لأنه كان يعلم حق العلم أن إظهارهما لن يجديه قتيلاً وقال :



- وإن بريان دى بواجيلبرت لا يجيب على مثل هذه الاتهامات الغامضة الهوجاء أيها الأب المقدس . إذا كان هناك اتهام يمس شرفه ، فإنه سيدافع عنه بجده وهذا السيف الذى طالما قاتل فى سبيل العالم المسيحى .  
فقال السيد الأعظم :

- ، إننا نصفح عنك أيها الأخ بريان رغم أن نخارك بفعالك العسكرية أمامنا ليس إلا تمجيداً لأعمالك الخاصة وهو نخار تابع من الشيطان ، عدونا الذى يغربنا بالاندفاع فى عبادة أنفسنا ، وإننا نعفو عنك لأنك لا تتكلم بوحى من نفسك ، ولكن بوازع من ذلك الذى سنهزمه بإذن الله ، ونقصيه عنا جميعاً .

ومض فى عيني بواجيلبرت الداكتين الشرستين بريق ازدراء ، ولكنه لم ينبس بىنت شفة واسترسل السيد الأعظم قائلاً :

- ، والآن وقد أجيب عن سؤال أخينا أوف جودا لرايك إجابة غير كاملة ولا شافية ، فإننا نواصل بحثنا أيها الإخوة ، وبعون راعينا سنسبر غور هذا الغموض الأثم . ليتقدم أمامنا كل من لديه شهادة يدلى بها عن حياة هذه المرأة وأحاديثها . سرى لغط فى الجزء المنخفض من القاعة ، ولما سأل السيد الأعظم عن سببه ، قيل له إن بين الحشد رجلاً كان طرح الفراش وأن السجينة قد أعادت إليه القدرة الكاملة على المسير باستعمال بلمع عجيب ، وجذبوا الفلاح المسكين وهو ساكسونى المولد ، وأوقفوه أمام سياج المنصة وهو فى حالة من الفزع الشديد خشية أن يتعرض للعقاب بتهمة شفائه من الفالج على يد فتاة يهودية . لم يكن فى الحقيقة قد شفى تماماً لأنه كان يتكئ على عصوين كى يستطيع الإفضاء بشهادته التى أدلى بها على كره منه وهو يذرف الدموع الغزار ، ولكنه

أقر بأنه منذ سنتين خلثا عندما كان يقيم في مدينة يورك ، أصيب فجأة بمرض موجه عندما كان يعمل نجاراً لدى إسحق اليهودى الثرى ، وأصبح عاجزاً عن النهوض من مرقدته حتى أعادت له الأدوية المستعملة بإرشاد من ريبكا - وخاصة بلسم يبعث الدفء له رائحة التوابل - القدرة على المسير إلى حد ما ، وقال إنها بالإضافة إلى ذلك قد أعطته وعاء صغيراً يحوى ذلك البلسم الثمين ، ومنحته قطعة من النقود تعينه على العودة إلى دار أبيه القريبة من تمبلستو وقال :

- و أرجو أن تفضل يا صاحب القداسة العظيم وتأذن لى بأن أقول إنه من المحال أن يطوف بذهنى أن الفتاة قد عمدت إلى الإضرار بى على الرغم من حظها العاثر لأنها يهودية . كنت أتلو صلاة « أبانا الذى فى السموات ، وصلاة الإيمان ، عندما كنت أستعمل دواءها ، ومع ذلك فإنها لم تنتقص من الرعاية بى مثقال ذرة . ، فقال السيد الأعظم :

- و صه أيها العبد وإليك عنا ! إنه لمن الأليق بمن هم على شاكلتك من الأنعام أن يعبثوا ويلموا بالعلاج الشيطانى ، وأن تعزو شفائك إلى أبناء الشر . إنى أقول لك إن الشيطان يستطيع أن يبتدع أمراضاً ثم بعد ذلك يبرئها ، فيضفى بذلك فضلاً على أحد الأساليب الشيطانية للعلاج . أتحمّل ذلك البلسم الذى تتحدث عنه ، ؟ .

فتش الفلاح فى صدره بيد مرتعدة ، وأخرج وعاء صغيراً نقش على غطائه بعض الأحرف العبرية مما اعتبر دليلاً يقيناً لدى أكثر الحاضرين على أنها من صنع الشيطان ، وبعد أن رسم بومانوار شارة الصليب على صدره أخذ الوعاء الصغير من يده ، ولما كان على علم بأكثر اللغات الشرقية فقد قرأ الشعار المكتوب على الغطاء فى غير مشقة وهو « لقد انتصر أسد يهوذا ، وقال :

- لقد استطاع الشيطان بقوته العجيبة أن يحيل آيات الكتاب  
لمقدس إلى كفر ، مازجا السم بطعامنا الضروري ، البس من بينكم طيب  
يستطيع أن يبين لنا عناصر هذا البلمس الغامض ، ؟

ظهر اثنان ادعيا بأنهما على معرفة بالطب ، أحدهما راهب والآخر  
حلاق ، وأقرا بأنهما لا يعرفان شيئاً عن عناصر هذا الدواء إلا أن به  
مذاق المر والكافور وهما كما يعتقدان من الأعشاب الشرقية ، ولكنهما  
بدافع من حقدتهما المهني الدفين نحو ممارس موفق للطب ، ألحا بأنه ما دام  
الدواء خارجاً عن نطاق معرفتهما ، فلا بد وأن يكون مركباً من أقرباذين  
سحري غير مشروع ، إذ أنهما وهما من غير المشعوذين يلمان كل الإمام  
بجميع فروع فنهما طالما أنه يزاول بإيمان مسيحي صادق . وعندما اتها من  
هذا البحث الطبي ، طلب الفلاح السكسوني في خضوع أن يعاد إليه الدواء  
الذي وجد فيه شفاء له ، وإمكن السيد الأعظم قطب جبينه بصرامة عندما  
سرع بهذا المطلب وقال للبعيد :

- « ما اسمك يا رجل ، ؟ فأجاب الفلاح :

- « هيج بن سنيل ، فقال السيد الأعظم :

- « إذن فلأقل لك يا هيج إنه من الأفضل لك أن تظل طرح  
الفراش ، من أن ترضى بالشفاء بدواء الكافرين لنقوى على النهوض  
والمسير . من الأفضل لك أن تسلب الكافرين ثرواتهم بالسواعد القوية  
من أن تقبل العطايا عن طريق الإحسان ، أو تقوم لهم بخدمات مقابل  
أجر . اذهب وافعل ما قلته لك ، . فقال الفلاح :

- « واأسفاه ، لن يكون في قولي ما يبعث على المسرة في قداستكم -  
إن الدرس الذي لقتني إياه قد أتى بعد فوات الأوان ، فأنا لم أعد إلا

رجلا مقعدا ، ولكنى سأخبر أخوى اللذين يقومان على خدمة الخاخام  
الثرى ناثان بن صمويل بأن سيادتكم تقولون إن سرقة أكثر مطابقة  
للقانون من أداء الخدمات الأمانة له . فقال بومانوار الذى لم يكن مستعدا  
لمناقضة هذا التطبيق العملى لمبادئه العامة :

— « أخرجوا هذا الوغد الثرثار ، .

انسحب هيج بن سنيل من بين النظارة ، ولكنه لما كان كلفا بالمصير  
الذى ينتظر تلك التى أحسنت إليه ، فقد تباطأ حتى يعرفه على الرغم من  
تعرضه لغضبة أخرى تصدر عن ذلك القاضى الصارم ، الذى كان قلب  
الرجل يتقلص فى حنايا صدره فرقا منه .

فى أثناء تلك الفترة من المحاكاة ، طلب السيد الأعظم إلى ريكا أن  
ترفع النقاب عن وجهها ، فتكلمت لأول مرة وقالت بلمجة فيها أناة وفيها  
وقار ، إنه ليس من دأب بنات قومها أن يكن سافرات الوجوه عندما يكن  
وحيدات وسط جمع من الغرباء . أثار نبرات صوتها العذب وإجابتها  
الرقيقة فى الحاضرين شعورا بالرثاء والعطف ، أما بومانوار الذى كان  
عقله يوحى إليه بأن كبت أى شعور إنسانى يمكن أن يكون عقبة فى سبيل  
ما يعتقد أنه واجب عليه ليس إلا فضيلة فى حد ذاتها ، فقد طلب إلى  
ضحيته مرة أخرى أن ترفع عن وجهها نقابها ، وعند هذا كان الحراس  
على وشك أن ينتزعوه عنها عندما نهضت واقفة أمام السيد الأعظم وقالت :

— « كلا ، ولكن من أجل حبكم لبناتكم ، ثم استعادت ذاكرتها  
وقالت « وا أسفاه ، ليس لكم بنات ! من أجل ذكرى أمهاتكم — من  
أجل حبكم لأخواتكم — بحق الخفر الأثوى — لا تتركونى أعامل على  
هذا النحو فى حضرتكم — ليس مما يتفق وكرامة فتاة أن ينتزع عنها ثيابها.  
أمثال هؤلاء الخدم الغلاظ ، . ثم استرسلت قائلة بلمجة فيها صبر حزين

كادت تذيب حبات قلب بومانوار نفسه ، سأقوم على طاعتك ، إنك أكبر بنى قومك ، وخضوعا لأمركم ، سأكشف عن قسبات وجه فتاة نعمة المصير ، . ثم رفعت خمارها ونظرت إليهم بوجه يمتزج فيه الخفر بالوقار ، فأثار جمالها الفاتن هممة دهشة ، وقال شباب الفرسان لبعضهم البعض في حديث صامت بلغة العيون ، يوحى بأن الدافع لبريان كان في مفاتها أكثر منه في شعورتها الوهمية ، وكان شعور هيج بن سنبل عميقا عندما أحس بالأثر الذي حدث عند رؤيته لطلعة من أحسنت إليه فقال للحراس الواقفين عند باب القاعة :

- دعوني أمض - دعوني أمض - لو رأيتها مرة أخرى فإني لا محالة ميت لأنى أسهمت في القضاء عليها ، . فقالت رييكا عندما سمعت صرخته :

- اطمئن بالا أيها الرجل المسكين . إنك لم تلاحق بي أذى عندما قلت الصدق ، وأنت لا تستطيع لى عوننا بشكايتك ونواحك ، أرجوك أن تهدأ . عد إلى دارك وانج بنفسك ، .

كان الحراس على وشك أن يلقوا بهيج إلى الخارج مدفوعين بالشفقة عليه ، وكانوا يخشون أن يعود حزنه الصاخب عليهم بالزجر وعذبه بالعقاب ، ولكنه وعد بأن يلتزم الصمت فسمح له بالبقاء .

نودى بعدئذ على الجنديين اللذين لم يخفق ألبيرت مالفوازان في الاتصال بهما والإفشاء إليهما بما تتضمن شهادتهما ، ومع أنهما كانا وغدين قاسيين شديدي المراس ، إلا أنه بدا وكأن مظهر السجينة وجمالها الفتان قد جعلهما يترنحان عندما أبصراها لأول وهلة ، ولكن رئيس مقر تملستو رمقهما بنظرة لها مغزاها سرعان ما ردتها إلى رباطة جأشهما الصارمة ، وبدقة ربما تبعث على الشك في نفوس قضاة عدول ، سردا اتهامات كلها

إما ملفقة كاذبة ، وإما واهية تافهة لا وزن لها ، ولكنها في حد ذاتها طبيعية ، إلا أن أسلوب المبالغة الذي قيلت به والتأويل الفاضح الذي كان الشاهدان يضيفانه إلى الأحداث ، قد جعل شهادتهما مليئة بالشكوك ، وكان من المستطاع أن تكون في عصرنا الحديث مقسمة إلى قسمين : ما كان منها غير هام ، وما كان منها مستحيل الوقوع استحالة طبيعية ، أما في تلك العصور التي يسيطر فيها الجهل والخرافات ، فإن ما قالاه قد أخذ في يسر مأخذ الدليل على الإدانة .

كان القسم الأول يدعى بأن ريبيكا قد سمعت وهي تتمم لنفسها بلغة غير معروفة ، وأن الأغنيات التي كانت تترنم بها أحياناً شجية تبعث في أذن السامع رنيناً وفي قلبه خفقاناً ، وأنها كانت تتحدث إلى نفسها في بعض الأحيان وتنظر إلى السماء انتظاراً لإجابة ما ، وأن ملابسها كانت ذات طراز غامض غريب ، ومختلفة عن ثياب النساء الحرائر الموقرات ، وأن لديها خواتم نقشت عليها شعائر تعاليم اليهود القرائين ، وأن خمارها كان موشى بأحرف غريبة .

استمع النظارة في رصانة إلى كل تلك الأمور العادية التافهة على أنها أدلة اتهام ، أو أنها على الأقل باعثة على الشكوك القوية في أن تكون ريبيكا على اتصال غير مشروع بقوى الظلام الغامضة ، ولكن كانت هناك شهادة باتهامات أكثر غموضاً دعت الحاضرين أو الغالبة العظمى منهم على الأقل — بحسن سريرتهم — إلى تصديقها مهما كانت خارجة عن حدود النهى . كان أحد الجنود قد رآها تقوم بعلاج رجل جريح جىء به معهم إلى قصر توركويلستون ، وقال إنها قامت بإشارات خاصة فوق الجرح ، وتلت عدة كلمات مبهمه يشكر الله على أنه لم يفهم واحدة منها ، وعند هذا انفصلت عن الجرح رأس حديدية مربعة الشكل لأحد سهام النبال ، وتوقف الدم

الجارى ، وأغلق الجرح وأصبح الرجل المحتضر فى مدى ربع ساعة يسير فوق الأسوار ، ويساعد الشاهد فى إدارة منجنيق أو آلة لفض الأجرار . من المحتمل أن تكون هذه الأسطورة قائمة على حقيقة واقعة ، ألا وهى رعاية ريكا لأبناهم الجريح عند ما كان فى توركويلستون ، ولكنه كان من العسير مناقشة الشاهد مناقشة دقيقة ، حيث إنه قدم الدليل المادى الذى يدعم شهادته الشفوية بأن أخرج من جيبه رأس الرمح نفسها التى اقتلعت من الجرح بمعجزة طبقا لما رواه ، ولما كانت قطعة الحديد تزن أوقية كاملة ، فقد كانت مصداقا لقوله مهما كان من نسج الخيال . وقال رفيقه إنه قد رأى من أحد الأسوار المجاورة المشهد بين ريكا وبواجيلبرت عند ما كانت على وشك أن تلقى بنفسها من قمة البرج ، وحتى لا يتخلف عن صاحبه ، فقد قرر أنه رأى ريكا واقفة على سور البرج ، وهناك اتخذت شكل بجمعة ناصعة البياض ، ثم دارت وهى على هذه الصورة ثلاث دورات حول قصر توركويلستون ، ثم عادت مرة أخرى فوق البرج واتخذت صورتها الأثوية من جديد . كان نصف هذه الشهادة الدامغة كفيلا بإدانة أية امرأة عجوز معدمة قبيحة الحلقة حتى ولو لم تكن يهودية ، وكان جسم الجريمة بالإضافة إلى هذا الظرف المشتم ، أثقل مما يقوى شباب ريكا على احتماله ، على الرغم من امتزاج هذا الشباب بالجمال الفواحش .

كان السيد الأعظم قد أخذ الأصوات ، ثم سأل ريكا بلهجة رصينة عما تستطيع أن تقوله رداً على حكم إاداتها الذى كان على وشك أن ينطق به ، فقالت اليهودية الحسنة بصوت متهدج من أثر الانفعال :

— إن استجداء الرحمة منكم مطالب لا طائل من ورائه ، وأرى أنه سؤال دنى ، ولو قررت أن غوث جريح من دين آخر لا يمكن أن يفضب المؤسس المعترف به لعقيدتنا كليهما لكان ذلك أيضاً غير مجد ، ولو قلت إن كثيراً من الترهات التى ذكرها لإدانتى هؤلاء الرجال — ساءحهم الله —

تعتبر مستحيلة الوقوع ، فلن يحديني ذلك فتبلا طالما أنك تؤمن بإمكان حدوثها ، وأقل جدوى من ذلك كله أن أبين لكم أن زبي ولغتي وسلوكي هي خصائص قومي ، وكنت أستطيع أن أقول إنها خصائص وطني ، ولكن بالأسف فليس لنا وطن ، وإن أحاول كذلك أن أبرر موقفى على حساب ذلك الرجل الذى أساء إلى ، الواقف هناك مصغياً إلى هذه القصص الخيالية والتكهنات التى تبدو وكأنها تجعل من الطاغية ضحية . ليكن الله حكماً بيني وبينه ، ولكنى أرى أنه من الأفضل لى أن أمثل لعشر ميات من ذلك النوع الذى تصدرونه ضدى وفقاً لهواكم ، عن الإصغاء إلى عبارات الغرام التى كان هذا الرجل الشيطاني يطارحنى إياها وأنا سجينه عزلاء لا نصير لها ولا صديق ، ولكنه يعتقد دينكم ، وأقل تأكيد يصدر عنه إنما يزيد ترجيح الحجج الخطيرة ضد يهودية تعسة ، ولذلك فإنى لن أرد له الاتهام الموجه ضدى ، ولكنى أستشهد به هو — نعم يا بريان دى بواجيلبرت أستشهد بك نفسك عما إذا لم تكن هذه الإدعاءات باطلة ، وأنها شاذة مفتراة قدر ما هى قاتلة . ثم توقفت لحظة واستدارت جميع العيون نحو بريان دى بواجيلبرت ولكنه ظل صامتاً لا يجيب ، فاسترسلت قائلة : تكلم إن كنت رجلاً — إن كنت مسيحياً تكلم — أستحلفك بالزى الذى ترتديه — بالاسم الذى ورثته — بالفروسية التى تزهبها — بشرف من حلتك — بقبر أبىك وعظامه ، أناشدك أن تقول إن كانت هذه الاتهامات صادقة أم مكذوبة . . فقال السيد الأعظم :

— دهات الجواب أيها الأخ ما دام العدو الذى تغالبه قد هباً لك القوة على ذلك . .

حقاً كان يبدو أن بواجيلبرت حائر تتنازعه عواطف متضاربة جعلت قسماً وجهه تنتفض ، وأخيراً أجاب بصوت متهدج وهو ينظر إلى ريكا



— « الورقة المطوية ١ الورقة المطوية ١ ، فقال بومانوار .

— « نعم يقينا تلك هي الشهادة الحقة ١ إن ضحية سحرها لا يستطيع إلا أن يذكر الورقة المشثومة التي يرى أن السحر المدون بها هو الباعث على صمته . . ولكن ريبكا وصفت تأويلا آخر للكلمات المنزعة وكأنها صادرة عن بواجيلبرت ، ونظرت إلى الوريقة التي كانت لاتزال ممسكة بها في يدها وقرأت ما فيها وكان باللغة العربية « اطلبني نصيراً ، وكانت المهمة التي سرت بين الجمع بعد أن أدلى بواجيلبرت بإجابته الغريبة ، قد أتاحت الفرصة لريبكا بأن تفحص الوريقة ثم تمزقها دون أن ينتبه إليها أحد، وعندما توقف الهمس قال السيد الأعظم :

— « لا نفع يعود عليك ياريبكا من وراء شهادة هذا الفارس التمس الذي مازال الشيطان صاحب اليد العليا عليه كما رأينا . هل لديك شيء آخر تريدني قوله ؟ . » فقالت ريبكا :

— « مازالت أمامي فرصة أخيرة للحياة حتى بمقتضى قوانينكم القاسية لقد كانت حياتي كلها شقاء — وعلى الأقل في الأوقات الأخيرة — ولكني لن أنبذ منحة الإله طالما أنه يهب لي وسيلة الدفاع عنها . إني أنكر هذا الاتهام -- إني مصرة على براءتي وأعلن كذب هذا الافتراء ، وأطالب بميزة المحاكمة عن طريق النزال ، وسأظهر ومعنى فارس نصير . »

فقال السيد الأعظم :

— « ومن ذا الذي سيظهر ربحه ياريبكا دفاعاً عن ساحرة ؟ من ذا الذي سيكون نصيراً ليهودية ؟ . »

فأجابت ريبكا :

— سيدت الله لي نصيراً . من المحال أن أفقد فارساً واحداً يتقدم  
ليقاتل في سبيل العدالة ، ففي إنجلترا الهبيجة المضيفة الكريمة الحرة كثيرون  
على استعداد لتعرض حياتهم للخطر دفاعاً عن الشرف ، ويكفيني أن أتحدى  
بالاحتكام إلى النزال ، وها هو رهن التحدي ، . ثم اتزعت من يدها قفازها  
الموشى ، وألقت به أمام السيد الأعظم على صورة امتزجت فيها البساطة  
بالوقار ، أثارت دهشة الجميع وإعجابهم .

١

## الفصل الثامن والثمانون

إني أطرح أمامك هذا التحدي ،

لأثبت به بسالتك العكسية

إلى أبعد مدى .

( ريتشارد الثاني )

لقد كان لطلعة ريبكا ومظهرها أثر على لو كاس دي بومانوار نفسه لأنه لم يكن بطبعه رجلاً قاسياً صارماً ؛ ولكن نظراً لما كانت عليه أحاسيسه من فتور ، وكشعور خاطئٍ بعظمة واجبه ، فقد تحجر قلبه شيئاً فشيئاً بتأثير حياة الزهد التي درج عليها ، والسلطة المطلقة التي كان يقبض عليها ، والضرورة المزعومة لاقتضاء على الكفر ، واستئصال جذور الهرطقة التي كان يعتبرها من التبعات الملقاة على عاتقه خاصة .

هدأت الصرامة التي اعتادت على أن ترسم على قسمايت وجهه عندما حلق في الخلوقة الجميلة المائلة أمامه ، وهي وحيدة وليس لها من صديق ، ومع ذلك فهي تدافع عن نفسها بمثل هذه الروح العالية والبسالة ، ورسم شارة الصايب على صدره مرتين وكأنه يسائل نفسه حائراً عن الدوافع التي حدث بقلبه إلى الشعور بمثل هذه الرقة التي لم يألفها ، وقد عوده أن يكون في مثل هذه الحالات صلباً كنصل حسامه ، وأخيراً قال :

– لو كانت هذه الشفقة التي أحس بها نحوك أيتها الفتاة نابعة من أي تأثير لآلاعيبيك الشريرة على فما أعظم إثمك ، ولكنني موقن بأنها أرق العواطف البشرية التي ترى عندما ترى أن مثل هذا الجسد البض الجميل

قد أصبح مركبا للفناء . اطلبى التوبة يا ابنتى واعترفى بسحرك ، واطرحى  
عنك عقيدتك الشريرة الخاطئة - قبل هذا الرمز المقدس ، وعند هذا  
تصبحين فى منجاة حاضراً ومستقبلاً ، فى أحد أديرة الراهبات - حيث  
النظم تجرى صارمة - سيكون لديك فسحة من الوقت لتقومى على الصلاة  
والكفيرة والتوبة التى لا يأخذنك الندم عليها - افعلى هذا لتعيشى - ماذا  
أفدت من ناموس موسى حتى تموتى من أجله ؟ ، فقالت ريبكا :

- « لقد كان ناموس آبائى ، وقد نزل بين الرعد القاصف والعواصف  
على جبل سيناء وسط السحب والنيران ، وأتم ، إن كنتم مسيحيين ،  
فإنكم تؤمنون بهذا . إنكم تقولون إن هذا الناموس قد أبطل ، ولكن  
الذين قاموا على تنقيتى لم يلقنوني ذلك ، . فقال بومانوار :

- « فليتقدم راعى كنيستنا ويخبر هذه الفتاة الكافرة العنيدة ... » .  
فقالت ريبكا بصوت رقيق :

- « أسمعك عذراً إن قطعت عليك القول لأنى فتاة لا دراية لها  
بالجدل فى أمر معتقداتها الدينية ، ولكنى أستطيع أن أموت فى سبيلها  
لو كانت هذه هى مشيئة الله . أرجو أن تجيبنى إلى مطلبى وتمنحنى الحق فى  
نصيرى » . فقال بومانوار :

- « أعطونى قفازها » . ثم أتبع وهو يمعن النظر فى نسيجه الرقيق  
وأصابه الرقيقة :

إن هذا فى الحقيقة معيار هزيل هش لمثل هذا التحدى المميت انظرى  
ياريبكا ، إنك بالنسبة إلى طائفة المعبد كقفازك هذا إذا ما قيس بالقفاز  
الفولاذى الثقيل الذى يرتديه فرساننا لأنك تحديت طائفتنا ، فأجابت ريبكا :

- « ضع براءتى فى الميزان ، وسيرجع القفاز الحريرى على القفاز الحديدى ،

« إذن فأنت مصرة على رفضك الاعتراف بالجرم ، وعلى عرضك لهذا التحدى الجسور ؟ » .

فقال ريكا :

« إنى مصرة أيها السيد النبيل ، » .

« إذن ليكن ماترين وعلى بركة الله ، وليظهر الله الحق ، فقال الرؤساء من حوله :

« آمين ، وقام جميع الحاضرين بتريد الكامة بصوت عميق ، وقال بومانوار :

« إنكم أيها الإخوة تعلمون أننا كنا نستطيع أن نأبى على هذه المرأة مينة المحاكمة عن طريق النزال ، ولكن ، ومع أنها يهودية كافرة فإنها أيضاً غريبة عزلاء ، وحاشا لله أن تطلب الإفادة من قوائننا العادلة ثم نرضن عليها بما طلبت ، وفوق هذا فنحن فرسان وجنود كما أننا رجال دين ، وعار علينا أن نرفض - تحت أى المزاعم - الدعوة إلى القتال ، وعلى ذلك فهامى ملابسات القضية :

« إن ريكا ابنة إسحق أوف يورك - كما وضع لنا من أمور عديدة مريبة - متهمه بأنها أعملت السحر فى التأثير على فارس نبيل من طائفتنا المقدسة ، وقد عرضت التحدى للقتال لإثبات برامتها . أريد أن أعرف منكم أيها الإخوة الموقرون اسم الفارس الذى ترونه جديراً بأن نكل إليه هذا التحدى إلى النزال . وتنادى به نصيراً لنا فى ساحة القتال ، فقال الرئيس جودا لرايك :

« إلى بريان دى بواجيلبرت الذى يمسه الأمر مساً قوياً ، وفوق

ذلك فهو الذى خبر حقيقته . فقال السيد الأعظم :

— ولكن ماذا لو أن أخانا بريان لا يزال واقفا تحت تأثير تعويذة أو سحر ؟ إنى لا أقول هذا إلا بدافع من الحرص فليس هناك من ساعد فى طائفتنا كلها كساعده نستطيع أن نعهد إليه القيام بهذه المهمة عن طيب خاطر وبما هو أشد منها خطراً .

فأجاب الرئيس جودا لرايك :

— ما من سحر أيها الأب المبجل يمكن أن يكون ذا أثر على البطل الذى يتقدم إلى القتال إحقاقاً لحكم الله ، فقال السيد الأعظم :

— لقد قلت صدقاً أيها الأخ . أعطى تحدى القتال هذا يا ألبيرت ما لفوازان إلى بريان دى بواجيلبرت . ثم قال لبواجيلبرت ، إننا نعهد إليك أيها الأخ أن تخوض معركتك رجلاً ، فليس هناك من شك فى أن القضية العادلة لا بد وأن تنتصر ، وأما أنت يا ريبكا فانتبهى إلى : إننا نمهلك إلى اليوم الثالث من يومنا هذا لتبجئى لك هن نصير . فقالت ريبكا :

— إنه مدى قصير لغريبة تعتنق ديننا آخر لتعثر على شخص يرضى بالقتال مخاطراً بالحياة والشرف من أجلها ضد فارس يعتبر جدياً منتقياً .  
فقال السيد الأعظم :

— لا نستطيع أن نمهلك إلى أكثر من ذلك . يجب أن يتم النزال فى حضرتنا لأن هناك من شتى الأمور وأكثرها أهمية ما يدعوننا إلى القيام بها فى اليوم الرابع . فقالت ريبكا :

— لتكن مشيئة الله ! إنى أضع ثقى فيه فهو وحده القادر على أن ينجز فى لحظة واحدة ما قد يستنفد دهرأ كاملاً . فقال السيد الأعظم :

« حسناً قلت أيتها الفتاة ، ولكننا نعرف جيداً ذلك الشيطان الذى يستطيع أن يتخذ لنفسه صورة ملاك من نور . لم يبق إلا أن ندين المكان الملائم للقتال ولتنفيذ الإعدام إذا دعا الأمر . أين رئيس هذا المقر ؟ » .

كان ألبيرت ما لفوازان لا يزال ممسكاً بقفاز ريبكا فى يده وهو جادٌ فى الحديث مع بواجيلبرت ولكن بصوت خفيض ، فقال السيد الأعظم :

« ماذا ! ألا يريد أن يقبل التحدى ؟ » . فقال ما لفوازان وهو يدس القفاز تحت عباءته هو :

« بلى ، لقد قبله أيها الأب المبجل ، وأما عن مكان النزال فأنى أرى أن أوفق مكان له هو ساحة القديس جورج التى يمتلكها هذا المقر ، والى تقوم فيها بالتدريبات العسكرية » . فقال السيد الأعظم :

« حسناً ، عليك أن تجبئى بنصيرك إلى هذه الساحة ، وإن أخفقت فى ذلك . أو خرج البطل وقد قهره قضاء الله ، فإنك ستموتين عندئذ ميتة ساحرة تنفيذاً لما قضينا به . ليسجل حكننا هذا ويقرأ بصوت عال حتى لا يدعى أحد الجمل به » . قام أحد القسيسين اللذين كانا يقومان بمهمة كاتبى الجلسة بكتابة صيغة الحكم فى سجل ضخم ، كان يضم محاضر جلسات فرسان المعبد عند اجتماعهم بصفة رسمية فى مثل هذه الأوضاع ، وعندما انتهى من كتابته ، وتلا القس الثانى بصوت مرتفع ذلك الحكم الذى أصدره السيد الأعظم ، وعند ترجمته من اللغة النورماندية الفرنسية التى كان محرراً بها ، كان نصه كما يلى : -

« إن ريبكا - وهى فتاة يهودية - ابنة إسحق أوف يورك - متهمة بالسحر وانغواية وممارسة أعمال أخرى كريمة كان ضحيتها أحد فرسان طائفة معبد أورشليم المقدسة وهى بدورها تنكر هذه الاتهامات ، وتقول إن الشهادة التى قيلت فى مواجهتها اليوم غادرة آئمة زائفة ، ولما كان هناك

مانع قانوني يتعلق بضعفها الجثمانى حيث إنها أثنى لا تقوى على القتال دفاعاً عن نفسها ، فهى تعرض أن تتقدم بنصير يقاتل عنها ، وفى سبيل قضيتها ، ويؤدى واجبه بصدق ، وبكل ما تحمله كلمة الفروضية من معنى ، وبكل ما تدعو إليه المعركة من أسلحة ، وعلى أن تتحمل التبعات التى تنجم عن تلك المخاطرة ، وعلى ذلك فقد تقدمت بتحديها الذى عرض على السيد النبيل الفارس بريان دى بواجيلبرت من طائفة معبد أورشليم المقدس ، وسيخوض هذا القتال بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن الطائفة ، لأن الضرر قد أصابه من تلك الفتاة التى طلبت استئناف الحكم ، وعلى هذا فقد أقر الأب المجل والسيد القدير لوكاس دى بومانوار هذا التحدى ، واضعاً فى تقديره الضعف الأثنوى للمدعية ، وحدد اليوم الثالث منذ الآن للنزال الذى سبق الإشارة إليه بالفناء المسمى « بساحة القديس جورج » القريب من مقر « باستو » ، وبما قرره السيد الأعظم أن تظهر المدعية فى هذه الساحة برفقة نصيرها ، وإلا فالموت مصيرها متهمه بالسحر والغواية ، وأنه حتم على النصير أن يحضر ، فإذا ما تخلف ، اعتبر ندلاً ناكصاً للمهد ، وقد تراءى للسيد النبيل والأب المجل أن يكون القتال فى حضرته ، وطبقاً لكل ما هو حميد ، ومجد فى مثل هذه الحالة ، ولينصر الله الحق ، . فقال السيد الأعظم :

— « آمين » . وردد الدلثة كل من كانوا حوله . لاذت ريكا بالصمت ونظرت إلى السماء وقد ضمت يديها وليت على هذه الصورة لحظات ، ثم قالت للسيد الأعظم بلمجة فيها تواضع إن من حقها أن تتاح لها الفرصة للاتصال بأصدقائها دون ما حرج لعرض أمرها عليهم ، وإيجاد بطل يقاتل عنها إن كان ذلك مستطاعاً ، فقال السيد الأعظم :

— « إن هذا مطلب قانونى عادل . انتق رسولاً تثقين به وسنكفل له حرية الاتصال بك فى غرفة سجنك » . فقالت ريكا :



— « أليس من بينكم من يقوم بحمّل مخلوقة تفسد سواء أ كان ذلك بدافع من حبه للعدالة أم مقابل أجر سخى ؟ » .

خيم الصمت على الجميع ولم يبد واحد منهم أى كلف بأمر السجينة التي بلغ بها سوء منتهاه في حضرة السيد الأعظم خشية أن يكون موضع اتهام بالعطف على الدين اليهودي، ولم تكن مشاعر الشفقة أو التطلع إلى المكافأة بكافية لتنتصر على الخوف .

وقفت ريبكا لعدة لحظات وهي نهب لفاق يحل عنه الوصف ثم قالت :  
— « هل هذا صحيح ؟ أأكون في أرض إنجليزية وأحرم من خيط النجاة الواهي الذي تبقى لي لأحظى برحمة توهب لأشد المجرمين إغرافاً في الشر ؟ » ، وأخيراً أجاب هيج بن سنيل .

— « لست إلا رجلاً كسيفاً ، ولكنني إذا كنت أقوى على أن أخطو أو أتقل فإن ذلك راجع إلى مروءتها الرحيمة » . ثم استرسل قائلاً لريبكا : « سأقوم على تنفيذ مشيتك قدر ما يقوى عليه حظي ، وإنه لما يبعث على السعادة في ساقى ، أن يقوما بإصلاح ما أفسده لسانى . يا لاسنى ! عندما كنت أزهر برحمتك لم يـ اود ظنى وفكرى أنى ألقى بك إلى التهلكة؟ » ، فقالت ريبكا :

— « إن الله هو مدبر كل الأمور — إنه يستطيع أن يطلق يهودا من أسرهم ولو بأضعف الآلات ، وحتى تنفذ إرادة الله ، يتساوى القوقع البطيء بالصقر الخاطف في حمل رسالته . اذهب وابحث عن إسحق أوف يورك ، وبهذه النقطة الذهبية تستطيع أن تدفع أجر الرجل والجواد اللذين ستبعث بهما إليه — أعطه هذه الوريقة — لست أدري ما إذا كانت الروح التي تلمنى هابطة من السماء ، ولكنني موقنة بأنى لن أموت هذه الميتة ، وأن بطلا سيهب للقنال من أجلى . وداعاً ! على مرعتك تتوقف لى الحياة أو الموت . » .

أخذ الفلاح الوريقة التي لم تكن تحتوى إلا على بضعة سطور بالعبرية، ومن المحتمل أن كثرة الحاضرين كانوا على وشك أن يسدوا إليه النصح بالألا يمس هذه الرسالة المريية ، ولكن هيج كان مصراً على أن يرد الجيل إلى من أحسنت إليه قائلاً: إنها قد أنقذت جسده ، وهو على ثقة من أنها لم تكن هادفة إلى تعريض روحه للهلاك ، ثم أتبع :

- سوف أستعير من جارى بوثنان جواده القوى ، وسأصل إلى يورك كأسرع ما يمكن لرجل ودابة أن يبلغاها .

ولكن الفرصة لم تتح له للذهاب إلى ذلك المدى البعيد ، إذ أنه لم يقطع إلا ربع ميل على مبعدة من الباب الخارجى لمقر فرسان المعبد ، حتى التقى بفارسين عرف في أرديتهما وغطاء رأسيهما الأصفر أنهما يهوديان ولما ازداد اقترابه منهما ، استبان له أن أحدهما مخدومه السابق إسحق ، وأن الآخر هو الحاخام ابن صمويل ، وقد اقتربا من المقر قدر ما سمحت لهما شجاعتهما ، وذلك عند ما تنهى إلى سمعهما أن السيد الأعظم قد عقد مؤتمراً لمحاكمة إحدى الساحرات ، وقال إسحق :

- إني قلق النفس يا أخى ناثان ولست أدري لذلك سبباً . إن هذا الاتهام بالسحر كثيراً ما يكون ستاراً يخفى وراءه أعمال القسوة ضد قومنا ، فقال الطيب :

- واهدأ بالا يا أخى ، فإنك تستطيع أن تتعامل مع النصارى على أنك تمتلك من المال الوفير ما يجعلك تبقى على حصانتك وسلامتك . إن للبال سلطاناً على نفوس أولئك الأشرار ، كما قيل إن خاتم سليمان ، العظيم كان يسيطر على الجان ، ولكن من يكون ذلك التعس الذى يقصد إلينا متوكلنا على عصويه ؟ أرى أنه راغب فى أن يتحدث إلى . ثم استرسل الطيب قائلاً لهيج بن سنيل ، إني لن أضن عليك أيها الصديق بمعونة طيبة ،

ولكنى لن أمنح دانقاً واحداً لأولئك الذين يستجدون الصدقات على قارعة الطريق . إليك عنى . هل شل ساقاك ؟ إذن فلتعمل يداك لتقيم أودك . إنك وإن كنت لا تصلح لأن تكون رسولا سريعا أو راعيا يقظا أو محاربا أو خادما لسيده مجول ، إلا أن هناك أعمالا أخرى . . . ثم توقف عن الحديث ونظر إلى إسحق قائلا : ماذا دهاك يا أخى ، إذ أن إسحق لم يكذب بلقى بنظرة على الوريقة التى أعطاهها له هبيج ، حتى بعث بأنة عميقة وسقط من فوق ظهر دابته كالميت ولبت لحظات فاقدا لوعيه ، وعند هذا ترجل الحاخام من فوق جواده وقد أخذ منه الذعر مأخذا شديداً ، وأعمل فى رقيقه العقاقير التى رأى أنها كفيلة بشفائه إلى حد أنه أخرج من جيبه جهازا لفصد الدم ، وكان على وشك أن يفعل ذلك حتى دبت الحياة فجأة فيمن كان موضع همه ، ولكنه لم يكذب فبقى حتى القى بقبعته أرضاً وأخذ يهبل التراب على شعره الأشيب وعزا الطبيب هذا الانفعال المفاجئ العنيف فى بادى الأمر إلى نوبة جنون وشرع مرة أخرى يمسك بآلاته موقنا بصحة رأيه الأول ، ولكن إسحق سرعان ما أقنعه بخطأ هذا الرأى ، وجعل يقول مناجيا ابنته : يا ابنة أحزاني ، ليتنى أسميتك هينونى ، بدلا من ريكا ، لماذا يسوق موتك بشعرى الأشيب إلى القبر ؟ إني أكاد أكفر بالله وأكاد أقضى من فرط مرارة قلبى ، ا فقال الحاخام وقد أخذته دهشة شديدة :

— د أنتكون أبأ فى إسرائيل أيها الأخ وتنطق بمثل هذه الكلمات ؟  
أمل أن تكون ابنتك لا تزال على قيد الحياة . فقال إسحق :

— إنها لا تزال حية ولكنها كحياة د دانيال ، الذى كان يدعى د بليتشار ، فى عرين الأسود . إنها سجيننة عند أولئك الشياطين ، وسوف يسمونها سوء العذاب غير مشفقين على شبابها أو حسنها الفتان . أو اه ا لقد كانت لخصلات شعرى الأشيب إكليلا من الزعفر الأخضر ، والآن يجب أن تذوى فى ليلة واحدة مثل قرعة يونان العسلىة ا يا ابنة حبي ا

يا ابنة عمري ! أواه ياربيكا يا ابنة راشيل ، لقد لفك ظلام الموت ، .  
فقال الحاخام :

— « اقرأ الوريقة لعلنا نستطيع أن نجد لخلاصها مخرجاً . فقال إسحق :

— « اقرأها أنت يا أخى فإن عيني تدران الدموع كنج من الماء جار ،  
فقرأ الطبيب بلغتهم العبرية ما يلي : « إلى إسحق بن أدونيكام الذى يسميه  
المسيحيون بإسحق أوف يورك . وانتغمرك بركة أرض الميعاد — لقد حكم  
على بالموت يا أبى لشيء لا تعرفه روحى ألا وهو جريمة السحر — إن  
استطعت يا أبت أن تعثر على رجل قوى ليقاتل فى سبيلى بالسيف والرحم  
طبقاً لأوضاع النصارى ، وذلك على ساحة تمبلستو فى اليوم الثالث من الآن ،  
لكان من المحتمل أن ينفك فيه أبونا الرب انقوة للدفاع عن البريثة التى  
ليس لها من نصير ، وإذا أم يصبك التوفيق فى ذلك ، فدع عذارى قومنا  
يندبننى على أنى مفقودة وكأنتى ظبية رشقها الصياد بسهم ، أو زهرة  
اجتزاها الحصاد بمنجله ، وعلى هذا فانظر الآن ما أنت فاعل ، وإذا  
ما كان هناك من سبيل للخلاص ، فأمامك محارب نصرانى واحد قد يحمل  
السلح دفاعاً عنى ، وهو ويلفريد بن سيدريك الذى يسميه المسيحيون  
أيشانو ، ولكنه قد لا يقوى على حمل ثقل دروعه ، وعلى أى حال  
ابعث إليه بهذه الأنباء يا أبى فهو قريب إلى قلوب أقوياء بنى قومه ، ولما  
كان رفيقاً لنا فى الأسر ، فقد يجد رجلاً يحارب من أجلى ، وقل له ، له  
هو ، لويلفريد بن سيدريك ، إن ربيكا سواء أعاشت أم ماتت ، فهى  
تعيش أو تموت بريثة كل البراة من الاتهام الذى لحق بها ، وإذا كانت  
مشيئة الله قد قضت عليك بالحرمان من ابنتك ، فلا تتركها أيها الرجل  
العجوز فى هذه البلاد التى تفيض قسوة وتقطر دماً ، بل ارحل إلى قرطبة  
حيث يعيش أخوك آمناً فى رحاب العرش ، عرش أبى عبد الله العربى  
نفسه ، فالغاربة أقل قسوة على شعب يعقوب من نصارى إنجلترا . »

اصفى إسحق وهو رابط الجأش بعض الشيء إلى ابن صمويل وهو يقرأ الخطاب ، ثم عاد إلى حرركاته وصياحه معبراً عن أحزانه بأسلوب أهل الشرق ، يشق ثيابه ويهبل التراب على رأسه وهو يصرخ : وا ابتاه ! وا ابتاه ! يا جسد جسدى وعظام عظامى ! ، فقال الخاخام :

- « تجمل بالصبر فهذا الحزن لن يحديك قليلا - خذ للأمر عدته وابحث عن ويلفريد بن سيدريك هذا ، فرما أعانك بالمشورة أو القوة ، فلشباب حظوة لدى ريتشارد الذى يسميه النصارى « قلب الأسد » ، إذ أن أبناء عودته تترى فى طول البلاد وعرضها . من المحتمل أن يحصل على رسالة منه مهورية بخاتمه ينهى فيها هؤلاء الرجال شاربي الدماء الذين يشقون لقبهم من المعبد - وهم يدنسونه - ، عن أن يترسلوا فى إنجاز هدفهم الآثم . فقال إسحق :

- « سأبحث عنه فهو شاب طيب ويحس بالشفقة نحو اليهود المشردين إلا أنه لا يستطيع أن يحمل سلاحه ، ولكن هل هناك مسيحي آخر يقاتل من أجل صهيون المغلوب على أمرها ؟ ، فقال الخاخام :

- « كلا ! إنك تتكلم كمن لا يعرف طبائع المسيحيين ؛ بالذهب تستطيع شراء بسالتهم ، وبه تشتري أمنك . كن شجاعا وامض حتى تعثر على ويلفريد أوف أيفانو هذا . سأهض أنا أيضاً وأعمل ، فن الخطيئة أن أتذكر لك فى بلواك . سأذهب على عجل إلى مدينة يورك حيث يلتقى كثير من المقاتلين والرجال الأقوياء ، ولا شك عندى فى أنى سوف أعرث فيما بينهم على شخص يخوض القتال من أجل ابنتك فالذهب إله لهم ، وفى مقابل المال يرهنون حياتهم كما يرهنون أراضيمهم . هل تنى يا أخى بما أعدم باسمك ، . فأجاب إسحق :

- « لا ريب فى هذا يا أخى ، والمجد للسماء التى قبضت لى من يعث

الطمأنينة في نفسى ويبدد أحزاني ، ومع ذلك فلا تجبهم إلى مطلبهم لأول وهلة ، لأنك ستجد أن من طبيعة هذا الشعب اللعين أنه يطلب الأبطال وربما رضى بالأوقيات ، وعلى أى حال ، افعل ما تشاء فإن هذا الأمر يشتت الذهن منى ويبعث الحيرة في نفسى — ماذا يجدى الذهب إذا ما قضت ابنة حبي ا ، فقال الطيب :

— « وداعا ، ولينزل الله السكينة على قلبك ، وليحقق لك كل ما يشتهي

فؤادك . »

وبهذا تعانقا ثم مضى كل منهما إلى طريقه ، وظل الفلاح المقعد يشبههما بنظراته بعض الوقت ثم قال :

— « آه من هذين الكلبين اليهوديين ! إنهما لا يأبهان بمواطن حر مثل وكاني عبد أسير أو تركى أو يهودى دنىء مثلهما . كان فى استطاعتهم أن يلقيا إلى بقطعة أو اثنتين من النقود . إنى لم أكن مكرها على حمل رسائلهما الدنسة ، وخاطرت بالوقوع تحت تأثير السحر كما حذرني الكثيرون من ذلك ، ولكن ماذا تجدىنى القطعة الذهبية التى أعطنى إياها تلك الفتاة العاهرة ، إذا كنت سأعرض لأذى القس فى أثناء اعترافى فى عيد الفصح المقبل ، وعندما أراى مسوقا إلى أن أعطيه ضعف هذا القدر لأحظى برضاه ، وفوق هذا فسيظل الناس يطلقون على اسم « حامل بريد اليهود » . أظن أن غاشية السحر قد ألتمت بى عندما كنت إلى جوار تلك الفتاة ، ولكن كان هذا دائما أمر اليهودى أو المسيحى على السواء إذا ما اقترب منها . ما من شخص كان يستطيع أن يتوانى إذا ما سألت مطلبها ، ومع ذلك فكلمها فكرت فيها ، أشعر بأنى لن أتردد فى أن أضحي بحياتى وآلاتى لإنقاذ حياتها . »

## الفصل التاسع والثلاثون

كأ أنك أيتها الفتاة متجربة الفؤاد معرضة ،  
فإن قلبى بفيض كبرياء كقلبك .

( سيوارد )

في غسق اليوم الذى حوكت في أثنائه ربيكا - إذا كنا نستطيع أن  
نصفها بأنها محاكمة - سمعت دقات خفيضة على باب غرفة سجنها ، ولكن  
السجينة لم تفرح لأنها كانت مستغرقة في صلاة المساء التى كانت دياتها  
توصى بها ، والتى كانت تختتم بتسايح قنا بنقلها إلى الإنجليزية كما يلي :

• عندما خرجت إسرائيل

من أرض العبودية

كان أبوها الرب يسير أمامها ،

إنه مرشد رهيب يلتف به الدخان والنار ،

وكان عامود السحب في أثناء النهار

يسرى متهادياً فوق الأراضى التى

تقيه عجباً بمرآه ،

• وفى الليل كانت رمال جزيرة العرب القرمزية

تعكس بريق العامود المشتعل ،

---

هناك ارتفع نشيد الشكر الجماعى

وأجابته الأبواق والدفوف بصوت حاد ،  
وألقت بنات صهيون بمدخراتهن  
بين أصوات الكهنة والمحاربين .  
لم تعد نذر الوعيد تحير أعداءنا الآن  
ولإسرائيل المنبوذة تهيم وحيدة .  
لم يستطع آباؤنا أن يعرفوا طرقك  
وقد تركتهم وشأنهم .

---

ولكنك ما زلت حاضرأ مع أنك خاف مستر ،  
وعندما يشرق زاهياً يوم الانتصار ،  
فإن الأفكار عنك ستكون كستار من السحاب  
ليخفف من الشعاع الخادع .  
وعندما يتوالى الليل على طريق يهوذا  
في الظلام والعاصفة ،  
لتكن أنت يا طويل الأناة يا بطيء الغضب  
نوراً يشتعل ويسطع ،

---

لقد تركنا قيثاراتنا بالقرب من أنهار بابل ،  
كما تركنا سخرية الطاغية وازدراء السيسى .  
ما من مباخر يتصاعد بخورها حول مذبحنا



ويصيب الحرس دفنا ونفيرنا وبوقنا ،  
ولكنك قلت إنك لا تقيم لدم الماعز  
أو لحم الضأن وزناً ، .  
إنما القلب النائب والرأى المتواضع  
هما قربانى المقبول .

---

وعندما خفت صوت ترتيل رييكا الديني وأصبح صمتاً ، عاد الطرق  
الخفيض يذق الباب مرة أخرى فقالت :

— « ادخل ، فسواء أ كنت صديقاً أم عدواً ، فإنى لا أملك  
الوسيلة التى أحول بها دون دخولك » . فقال بريان دى بواجيلبرت وهو  
يدخل الغرفة :

— « إن النتيجة التى سيسفر عنها هذا اللقاء ستقرر ما إذا كنت صديقاً  
أم عدواً يا رييكا » .

أصابها الفزع لمراى هذا الرجل الذى كانت ترى أن عاطفته الداعرة  
الهوجاء هى أس بلائها ، وارتدت إلى الوراى فى ركن الحجره القصى لآعن  
جين ، بل عن حرص وحذر ، وكأنها كانت معتزلة على التقمقر قدر  
ما تستطيع ، وعلى المقاومة إذا ما أصبح التقمقر ضرباً من ضروب المحال ،  
ولم تتخذ لنفسها مظهر التحدى بل الإصرار ، وكأنها بذلك تريد أن تتجنب  
إثارة الهجوم ، ولكنها كانت عازمة على أن تدرأه بأقصى ما تستطيع من  
قوة إذا ما وقع . قال فارس المعبد :

— « ليس لديك من الأسباب ما يجعلك تخشينى يا رييكا ، أو على

وجه التحديد ، ليس لديك الآن على الأقل ما يدعو إلى الخوف مني ، .  
فقلت ربيكا وأنفاسها اللاهثة تكذب بطولة نبرات صوتها :

— ، أنا لا أخشاك يا سيدي الفارس ، فإن إيماني بالله شديد ، وأن  
أرهبك ، فقال بواجيلبرت برصانة :

— ، ليس هناك ما يدعوك إلى أن تجزعي . لا تخشى شيئاً الآن فإني  
لن أعود إلى محاولاتي السابقة الحقاء . هناك على مسمع منك حراس  
لا سلطان لي عليهم . إنهم منوطون بأقتيادك إلى الموت يا ربيكا ، ومع  
ذلك فهم لن يتهاونوا مع من يحاول أن يلحق المهانة بك حتى ولو كنت  
أنا هذا الشخص ، بل ولو دفعني جنوني — حقاً إنه لجنون — إلى ارتكاب  
هذا العمل ، . فقلت اليهودية :

— ، حمداً لله ! إن الموت أهون ما أخشاه في وكر الشر هذا ، . فقال  
فارس المعبد :

— ، نعم ، إن العقل الشجاع يتقبل الموت سهلاً حيناً إذا كان السبيل  
إليه مفاجئاً ومهداً . إن طعنة رمح أو ضربة حسام بالنسبة لي شيء هين ،  
وأما أنت فإن قفزة من سور شاهق الارتفاع ، أو طعنة من خنجر حاد ،  
لا تبعث على الهلع في نفسك إذا ما قورنت بما يعتقدونه كلانا من أنه أمر  
معيب . انتبهى إلى ما أقول ، من المحتمل أن تكون أحاسيس نحو الشرف  
خيالية يا ربيكا ، إلا أنها لا تقل قوة عن مشاعرك نحوهم وكلانا يعرف  
كيف يموت في سبيله ، . فقلت اليهودية :

.. ، أمقضى عليك أيها الرجل التمس بأن تخاطر بحياتك من أجل مبادئ  
لا يعترف عقلك الراجح بجديتها ؟ حقاً إن في ذلك لفرقة بينك وبين كثر  
الذين من أجل شيء لا يساوي كسرة خبز أو قلامة ظفر ، ولكن لا تحسبني

على شاكلتك . من المحتمل أن تتأرجح عزيمتك فوق أمواج العقل البشرى المتقلبة المتلاطمة ، ولكن عزيمتى رأسخة راسية على ، صخرة الدهور ، .  
فقال فارس المعبد :

— . التزمى الصمت يا فتاة ، فإن مثل هذا النقاش لا يجديك الآن إلا فتيلاً . لقد حكم عليك بالموت ، ولكنها لن تكون مية سريعة هينة من ذلك النوع الذى ينتقيه المحزون البائس ، ويرحب به المنكود اليائس ، ولكنها سلسلة طويلة من العذاب البطيء التعمس الذى يتلاءم مع ما يسميه التعصب الشيطاني لأولئك الرجال - . جرئتك . . ، فقالت ربيكا :

— . إذن فلن - إذا كان هذا هو ما كتب على - فلن أعزوه ؟ لا شك عندى فى أنى أعزوه إلى ذلك الذى جاء بى إلى هنا من أجل مأرب مسرف فى الأناية والبهيمية ، والذى يعمل الآن جاهداً على أن يبالغ فى هذا القدر التعمس الذى ساقنى إليه لأمر خفى فى نفسه ؟ ، فقال فارس المعبد :

— . أحب ألا يدور بخلدك بأنى دفعت بك إلى هذا المصير . لقد كنت أود أن أريك بصدري من هذا الخطر بنفس راضية ، كما عرضته للسهم من قبل ولولاه لقضى عليك . ، فقالت ربيكا :

— . لو كنت هادفاً إلى بسط حمايتك الشريفة على فتاة بريئة ، لأسديت لك شكرى على حسن صنيعك ، واسكنك كنت كثيراً ما تزهو بها حتى أصبح يطوف بفكرى أن الحياة لا وزن لها عندى لو أبقيت عليها بالثمن الذى تريد أن تأخذه منى غضبا . ، فقال فارس المعبد :

— . كنى تعنيفاً يا ربيكا . إنى أطوى بين جوانحى ما يوجعنى ، ولا أستطيع أن أطيق صبراً على أن تزيد به إبلا ما يالقاء اللائمة على . ، فقالت اليهودية :

- « إلام تهدف إذن يا سيدي الفارس ؟ أفصح عنه بإيجاز ، وإن كان عندك ما تفعله سوى رؤيا ما سببته لي من شقاء فخبّرني به . هذا وأتمس منك أن تتركني لنفسي وحالي - إن الخطوة بين الزمن والخلود قصيرة ولكنها رهيبية ، وليس أمامي إلا لحظات قصار لأعد نفسي لها . »

- « أرى ياريكا أنك ما زلت تحمليني تبعه الخطر الذي كنت شديد الرغبة في الخيلولة دون وقوعه . »

- « سأتجنب التفرغ يا سيدي الفارس ، ولكن هل هناك ما هو أكثر يقينا من أن حتى مردود إلى هواطك الهوجاء ؟ »

- « إنك على خطأ - إنك على خطأ في أن تعزى إلى ما لم أستطع التكهن به ، أو درءه عنك للوصول إلى غايتي . هل كنت أستطيع التنبؤ بالمجيء المفاجيء لذلك الأبله الذي رفعت في الوقت الحاضر بعض ومضات من الشجاعة المجنونة ، وثناء الحق على تعذيب زاهد لنفسه بغياء فوق ما يستحقه ، وفوق المنطق السليم ، وفوق ، وفوق المئات من طائفتنا الذين يفكرون ، ويشعرون كرجال متحررين من أمثال هذه المعتقدات الشاذة التي تقوم عليها آراؤه وفعاله . »

- « ومع ذلك فقد دفعت بي إلى أن أقف أمام منصة القضاء وأنت تعرف بأني بريئة - بريئة كل البراءة - لقد كنت شريكا في إاداتي ، وإن كنت لم أخطيء الفهم ، فأنت بنفسك ستقدم متمنطقا بسلاحك لتؤكد جرمي وعقابي . »

- « صبرا أيتها الفتاة ، ما من قوم مثل قومك يعرفون كيف يرضخون للزمن ، ويخنون هاماتهم أمام الريح المضادة . »

— « إني أندب تلك الساعة التي تلقن فيها بنو إسرائيل مثل هذه التعاليم ! ولكن القلب ينثني من البلوى كما ينثني الفولاذ الصلد من النار ، وأولئك الذين لم يعودوا حكما على أنفسهم أو مواطنين في بلدهم الحر المستقل ، قد أصبحوا مسوقين إلى الانحناء أمام الغرباء . إنها اللعنة التي حقت علينا يا سيدي الفارس لا ريب في أنها كانت نتيجة لسوأتنا وسوأ آباتنا من قبلنا ، ولكن أنت - أنت الذي تفاخر بحريتك كحق من حقوق مولدك ، كم يكون عارك اشد عندما تسجد ملقاً لإرضاء معتقدات الآخرين وأنت غير مقتنع بها فيما بينك وبين نفسك ؟ ، فقال بواجيلبرت وهو يذرع الغرفة قلقاً ضائقاً :

إن كلماتك تفيض مرارة يارييكا ، ولكني لم آت إلى هنا للتبادل اللوم . فلتعلمي أن بواجيلبرت لا يخضع لمخلوق مع أن الأحداث قد تدفعه إلى تغيير سلوكه بعض الوقت . إن عزمته كسيل الماء الجاري فوق الروابي الذي قد تحوله إحدى الصخور عن مضجعه لمدى قصير ، ولكنه لا يخفق في أن يعود إلى انحداره نحو المحيط ، وتلك الوريقة التي أوحى إليك أن تطلبي نصيراً ، عن تظنيها قد أتت إن لم تكن من بواجيلبرت ؟ هل كنت تستطيعين أن تشري هذا الكلف في مخلوق سواه ؟ »

— « إن مهلة قصيرة يأتي في أعقابها الموت العاجل لن تجدني قتيلاً - لهذا كل ما استطعت أن تفعله من أجل من أهلت على رأسها الأسي ، ومن دفعت بها إلى حافة القبر ؟ »

— « كلا يا فتاه - لم يكن هذا كل ما اتويته - لولا تدخل من هذا الأحمق المتعصب ، ومعه جود الرايك الأحمق الذي يعمل جاهداً كفارس معبد كي يبدو بأنه يفكر ويحكم طبقاً للقوانين العامة للإنسانية ، لما أصبحت مهمة الفارس المدافع عن المعبد من نصيبي ، بل لأوكلت إلى أحد الرفاق من فرسان المنظمة ، ثم بعدئذ - وذلك كان هدفي - عندما يدوى النفير ، أبدو في الساحة كمنصير لك متكرراً في زى فارس جائل يبحث عن المغامرات

ليثبت مهارته في استخدام الدرع والرمح ، وإذا ما وقع اختيار بومانوار على اثنين أو ثلاثة من الإخوة المجتمعين هنا لا واحدا فقط ، لما خامرتني رية في الإطاحة بهم من سروجهم برمحي المفرد، وبذلك تعلن براءتك ياربيكا وكنت أترك تقدير جزائي عن انتصاري إلى عرفانك بالجميل !

- « تلك ياسيدي مباهاة جوفاء - زهو بما كنت ستفعله لو لم تجد أنه من الأوفى أن تأتي بعمل آخر . لقد تلقيت قفازي، وينبغي علي نصيري - إن استطاعت أي مخلوقة وحيدة مثل أن نجد لها نصيراً - أن يقابل رحك في ساحة النزال ، ومع ذلك فإنك توهمني بأنك صديقي وحامي . فقال فارس المعبد جادا :

- « وسأظل على عهدي باق - سأظل صديقاً وحامياً لك ، ولكن تبصرى فيما أنا مقدم عليه من مخاطر . أو بمعنى أدق على عار لا يحصى ، وهنا لا يجدر بك أن تلقي عليّ باللائمة إذا ما ساومتك قبل أن أضحي بكل ما هو عزيز على نفسي حتى الآن كي أنقذ حياة فتاة يهودية ، . فقالت ربيكا .

- « أفصح ، إني لا أفقه قولك ، .

- « حسنا ، إذن لا جناح عليّ حين أتحدث كما يتحدث أي آثم أحق إلى أبيه الروحي وهو علي كرسى الاعتراف الزنيم . إذا لم أظهر في هذه الساحة ياربيكا ، فقدت شهرتي ومقامي - فقدت الهواه الذي أستنشقه ، أعني المكانة التي يكنها لي إخوتي والآمال التي أبنيتها على تولى مقاليد السطة العظيمة التي يقبض عليها الآن ذلك الاحق المتعصب لو كاس دي بومانوار ، والتي سأستخدمها على نسق مختلف - تلك هي نهايتي المحتمومة إلا إذا حملت السلاح ضد قضيتك . اللعنة على جود الرايك الذي نصب لي هذا الشرك او لعنة مزدوجة على ألبيرت مالفوازان لأنه أثناني عن عزمي الذي اتوتيه بأن

أقذف بالقفاز في وجه ذلك الهرم الأحمق المؤمن بالخرافات ، الذي أصغى إلى مثل هذا الاتهام الباطل ضد مخلوقة على قدر عال من الحصافة والجمال مثلك ا ، فقالت ريبكا :

— وماذا يجدى اللغو أو الملق الآن ؟ لقد اخترت بين سفك دم امرأة بريئة وبين تعريض مقامك وآمالك الدنيوية للزوال. هل وراء هذا الحساب من طائل ؟ لقد وقع اختيارك وانتهى الأمر . ، فاقرب منها الفارس وقال بلمجة أكثر عدوثة :

— كلا ياريبكا ، إنى لم أخترب بعد . كلا اعلمى أنك أنت التى ستقومين بالاختيار . إذا ما نزلت إلى الساحة ، فإنه حتم على أن أحافظ على شهرتى فى السلاح ، وإذا ما فعلت ذلك فإنك ستموتين على منصة الحريق سواء أكان لك نصير أم لم يكن ، لأنه ليس هناك من فارس يستطيع أن يكون ندا لى فى نزالى ، أو يفوقنى فى هذا المضمار إلا ريتشارد قلب الأسد و صفيه أيفانهو ، وأيفانهو عاجز عن ارتداه دروعه كما تعلنين وريتشارد ملقى به فى أحد السجون الأجنبية . لو أنزلت إلى الساحة إذن فسوف تموتين ، حتى ولو أغرت مفاتنك أحد الشباب الطائشين إلى دخول الساحة للدفاع عنك . فقالت ريبكا :

— وما الجدوى من وراء تكرار هذا القول ؟ . فأجاب فارس المعبد :

— إنه كثير الجدوى ، إذ ينبغى عليك أن تبصرى مصيرك من جميع نواحيه . فقالت اليهودية :

— أدر الستار إذن ودعى أر وجهه الآخر . فقال براجيلبرت :

- « لو ظهرت في الساحة المشنومة ، فستمتين ميتة بطيئة بشعة ، وفي عذاب كذلك الذي أعد في العالم الآخر للخاطئين ، وإذا لم أظهر فساكون حينئذ فارسا مسلوب الشرف فاقد الكرامة متهما بالسحر ، وبأنى مع الكافرين على صلات ، وأما اللقب المجيد الذي ازداد مجدا بحملى إياه ، فيصبح سبة وغارا . أفقد الشهرة - أفقد الشرف - أفقد آمالي إلى مكانة لم يدركها من الأباطرة إلا القليل - أضحى بطموحى العظيم ، وأهدم خططابنيها كالأوتاد الشائخة التي يقول الكفار إنهم ارتقوا إلى سماتهم عن طريقها . ثم أضاف وهو يلقي بنفسه عند قدميها : « ومع ذلك فإنى سأضحى ياربيكا بهذه العظمة ، وأبذ تلك الشهرة وأتخلى عن السلطان الذي أصبح الآن قاب قوسين أو أدنى من قبضة يدي ، ذلك إذا قلت ، إنى رضيت بأن أتخذ منك حبيبا يابواجيلبرت . » فقالت :

- « لا تفكر في مثل هذه الحماقة ياسيدي الفارس ، بل أسرع إلى نائب الملك والملكة الوالدة والأمير يوحنا فمن المحال أن يرضوا عن فعال سيدك الأعظم حرصا منهم على سمعة التاج الإنجليزي وشرفه ، إنك بذلك تبسط على الحماية دون أن تضحى بشيء ، أو تتذرع بأية حجة تتخذ منها تكأة لمطالبني بالعرض . فاسترسل وهو يمسك بذيل ثوبها :

- « إنى لا أتعامل مع هؤلاء ، بل أخاطبك أنت وحدك . ما الذى يحدو بك إلى الموازنة في اختيارك ؟ فكرى . إن كنت عدوا فالموت عدو أشد قسوة . إن الموت هو خصمى . فقالت ربيكا وهي تخشى أن تثير الفارس المندفع ، ولكنها كانت في الوقت نفسه مصرة على ألا تحتل عاطفته ، أو تدعى احتمالها :

- « إنى لا أوازن بين هذه السوءات . كن رجلا . كن مسيحيا . إن كانت عقيدتكم تحض حقا على تلك الرحمة التي تلوكها ألسنتكم أكثر من



فعالكم ، فأنقذوني من هذه الميتة البشعة دون أن تفتش عن عوض يجبل نخوتك إلى مقابضة وضیعة .

نهض الفارس المتعالى واقفاً على قدميه وقال :

— وكلا بافتاة ! إنك بهذا لن تخدعيني ، إن تخليت عن الشهرة الحاضرة والآمال المستقبلية ، فإنى إنما أتخلى عنها من أجلك وسنهرب سوياً . ثم قال وهو يلين لها القول مرة أخرى ، أصغ إلى ياريكا ، إن إنجلترا وأوربا ليستا العالم كله . هناك آفاق نستطيع العمل فيها وتوسع لمطامعي . سنذهب إلى فلسطين فهناك كوزراد مركز أوف مونت سيرات وهو صديق لى — صديق مثلى متحرر من الشكوك والريب التى تكبل عقلنا الحر . سنتحالف حتى مع صلاح الدين الذى دوخ الصليبيين بدلا من أن نكابذ ازدرأه المتعصبين الذين لا نكن لهم فى نفوسنا احتراماً . سأشق آفاقاً جديدة إلى المجد . ثم استرسل وهو يذرع الغرفة بخطوات واسعة سريعة ، ستسمع أوربا عالياً وقع خطوات ذلك الذى طردته من ضفافها ! لن تستطيع الملايين الذين يقودهم صليبيوها إلى المذابح أن يفعلوا الكثير دفاعاً عن فلسطين ، ولن تقوى سيوف الآلاف وعشرات الآلاف من الأعداء على أن تشق طريقها عميقاً داخل تلك الأرض التى يقوم الصراع من أجلها بين الأمم كما ستفعل قوتى وسياستى ، يعاوننى أولئك الإخوة الذين لن يتخلوا عنى فى السراء والضراء على الرغم من ذلك المتعصب الهرم . سوف تصبحين ملكة ياريكا — سنقيم لك فوق جبل الكرمل ذلك العرش الذى سأحصل عليه ببساتى — سأستبدل العصا التى طالما هفت نفسى إليها بصولجان .

فقالت ريكا :

— إنه حلم ! إنها أضغاث أحلام الليل ، وحتى لو كانت فى اليقظة حقيقة واقعة فلن يكون لها فى نفسى أثر . إنى لن أشاركك فى السلطان الذى

قد تحظى به أبدأ ، ولن أستعين بالوطن والدين إلى حد أني أسمح لنفسى باحترام ذلك الذى يود أن يقاىض بكل هذه الروابط ، ويتخلى عن التزامات الطائفة التى أقسم على أن يكون أحد أفرادها كي يشبع عاطفة متمردة مع ابنة شعب آخر . لا ترصد ثمنا لإنقاذى ياسيدى الفارس - لا تجعل عملا من أعمال النخوة سلعة تباع وتشترى - قم على حماية المضطهدة من أجل البر لا من أجل منفعة ذاتية - اذهب إلى بلاط إنجلترا فإن ريتشارد سيصغى إلى استغاثتى من أولئك الرجال القساء . فقال الفارس بجفوة :

- « لن أفعل ذلك ياريكا ! إن أنا تنكرت لطائفتى ، فإنى إنما أفعل ذلك من أجلك أنت فقط . سيتبقى لى طموحى إذا عرضت عنى . لن أكون موضع سخريه من جميع الوجوه . أأخنى هامتى لريتشارد ؟ هل أطلب سؤالا من ذلك القلب الصلف ؟ كلا ، لن ألقى بطائفة المعبد ممثلة فى تحت قدميه ياريكا . قد أهدم هذه الطائفة ، ولكنى لن أمرغها فى الرغام ، أو أعمد إلى خيانتها أبدأ . فقالت ريبكا :

- « والآن ، فإنى أتطلع إلى رحمة الله مادمت انى قد نفضت يدي من عون الإنسان ! ، فقال فارس المعبد :

- « إن الصدق ما قلت ياريكا ، فكما أنك متكبرة ، فإننا فى هذه الخلة صنوان ، إذا نزلت إلى الساحة شاهرا ربحى فلا تحسبى أن أى اعتبار إنسانى سيحول دون إظهار قوتى ، وعند هذا يجب عليك أن تفكرى فى مصيرك ، وهو الميتة البشعة التى تعد لأكثر المجرمين إغراقا فى السوء ، ونحترق فى فوق كومة من الأحطاب المشتعلة ، وتصبح العناصر التى تتكون منها أجسادنا هشيا تذرره الرياح ، ولن يتبقى من هذا الجسد البديع حطام ولا أثر وكنا نقول عنه إنه يحيا ويتحرك ! ليس من طبيعة المرأة أن تحتمل مثل هذا المشهد ياريكا . إنك ستدعنين لمطلبى . فقالت اليهودية :

- « إنك يا بواجيلبرت لا تعرف قلوب العذارى ، أو ربما لم يسبق لك أن تحدثت إلا إلى نسوة فقدن أسمى مشاعرهن ، هأنا أقول لك أيها الفارس المختال إنك لم تظهر من الشجاعة التي تزهو بها في أثناء أشد المعارك قسوة ، أكثر مما تظهره المرأة عندما تتعرض للعذاب بسبب الحب أو الواجب . أنا نفسى امرأة لينة العريكة ، أخشى الخطر بطبيعتى ولا أحتمل الألم ، ومع ذلك فعندما تدخل تلك الساحة المشثومة ، أنت لنقاتل وأنا لأنألم ، فإنى أشعر فى دخيلة نفسى بيقين قوى بأن شجاعتي ستفوق شجاعتك . وداعا لن أهدر المزيد من الكلمات منك . الوقت المتبقى لابنة يعقوب على وجه الأرض يجب قضاؤه فى شيء آخر - ينبغى عليها أن تبحث عن السالى الذى يقدم لها العزاء ، والذى قد يخفى وجهه عن قومه ، ولكنه يصيح سمعه دائماً ليستمع إلى أنات أولئك الذين يبحثون عنه فى إخلاص وصدق . فقال فارس المعبد بعد لحظة صمت قصيرة :

- « أعلى هذا الحال نفترق إذن ؟ ليت السماء لم تمهد للقائنا أبدا ، أولئك كنت نذيلة المولد ومسيحية العقيدة الكلابجق السماء ، عندما أنظر إليك أسائل نفسى أين وكيف سنلتقى مرة أخرى ، ووددت لو كنت واحدا من بنى قومك الأذلاء ، وتداول يدي السبائك والنقود بدلا من الرمح والدرع ، فنكس الرأس أمام كل نبيل تافه ، ولا تبعث نظراتى الخوف إلا فى المدين المرتجف . المفلس . إنى أكاد أهفو إلى كل هذا ياربيكا كي أكون إلى جوارك فى الحياة ، وكى أفلت من المشاركة المخيفة التى أتهم بها فى موتك . » فقالت ربيكا :

- « لقد وصفت اليهودى كما صاغه اضطهاد من هم على شاكلتك . إن السماء فى غضبتها قد شردهته من وطنه ولكن الجد قد فتح أمامه الطريق إلى المال والثراء وهو الطريق الوحيد الذى لم يضع الاضطهاد العوائق فيه . اقرأ التاريخ القديم لبني إسرائيل وقل لى عما إذا كان أولئك الذين حقق الإله

بهم مثل هذه المعجزات بين الأمم شعبا من المقترين المرابين اعلم أيها الفارس المتكبر أن من بيننا أسماء إذا قورنت ببلائكم في الشمال الذين تزهون بهم كانت كالموازنة بين شجرة الأرز اللبنانية الفارعة وبين نبات القرع، أسماء توغلت في القدم حتى تلك العصور السحيقة عندما كان الوجود الإلهي يهز عرش الرحمة بين الملائكة - أسماء لا تستمد عظمتها من أمير أرضي، ولكن من ذلك الصوت المهيب الذي أتاح لآبائهم أن يكونوا أقرب طائفة إلى مشاهدة العظمة الإلهية - أولئك كانوا أمراء بيت يعقوب ، .

كست الحرة وجه ربيكا وهي تفخر بأجداد شعبها القديمة ، إلا أن الدماء غاضت منه وهي تضيف بزفرة فيها أسى :

- ذلك كان حال أمراء يهوذا، أما الآن فلا وجود لهم ولا بقاء إن اليهود أصبحوا يوطنون بالآفدام كالحشائش المجزوزة ، يلطخهم رغام الطرقات وأقدارها ، ومع ذلك فما زال من بينهم من لم يجلبوا العار على هذا الأصل العريق ، ومن هؤلاء ابنة إسحق بن أدونيكام ، وداعا ! إنى لست حاسدة لك على أجدادك التي نلتها بالدماء - إنى لست حاسدة لك على نسبك الهمجي الذي ينتمى إلى كفار الشمال - إنى لست حاسدة لك على عقيدتك الدينية التي يلوكها فك على الدوام ولكن لا عين لها ولا أثر في وجدانك أو فعالك ، . فقال بواجيلبرت :

- أقسم بالسما على أنك قد كبلتني بسحرك ايكاد عقلي براودنى بأن هذا الهيكل العظمى المسلوب النهى قد نطق صدقا ، وأن إحجامي عن فراقك شيء فوق طاقتي ، . ثم قال وهو يقترب منها بلهجة فيها احترام عميق ، أتكونين أيتها الحسناء بمثل هذا الشباب وهذا الجمال ، وبمثل هذا الاستخفاف بالمخاطر ، ثم تساقين إلى حتفك بين مظاهر العار والألم المبرح ؟ من ذا الذي لا ينفرف العبرات من أجلك ؟ إن الدمعة التي لم تعرف هذه الأجفان طيلة عشرين عاما ، أصبحت تترقق في مقلتي كلما نظرت إليك ، ولكن يجب أن

يجل قضاء الله فليس إلى خلاصك من سبيل ، كلانا لم يكن إلا أداة عمياء  
في يد قدر لا يقهر ، يدفع بنا سريعا إلى الأمام اندفاع السفن أمام العاصفة  
حتى ترتطم ببعضها البعض وهكذا تنحطم . اغفرى لى إذن ولنفترق على  
الأقل كما يفترق صديقان . لقد حاولت عبثا أن أثنيك عن عزمك ، ولكن  
عزمي ، صلب أيضاً كسطور القدر الأزلية ، . فقالت ربيكا :

- وهكذا يلقى الرجال على القدر مغبة شهواتهم الجائعة ، ولكنى قد  
عفوت عنك يا بواجيلبرت مع أنك السبب في موتى قبل الأوان . هناك  
بارقات نبل تومض في ذهنك القوى ، ولكنها أشبه بمحديقة الكسول  
حيث تنمو نباتات التبغ وتتضافر على خنق البراعم الجميلة اليانعة ، . فقال  
فارس المعبد :

- نعم ياربيكا ، إنى كما قلت عنى غر غير أليف ، متكبر وسط جماعة  
من الحمقى ذوى العقول الخاوية المتعصبين المخادعين ، وقد احتفظت بالعزيمة  
الصادقة التى وضعتنى فوق مصافهم . لقد كنت ريبب المعارك منذ صبأى  
حتى الآن ، طموحا فى آمالى ثابتا لا ألين فى سبيل تحقيقها هكذا ينبغى أن  
أبقى - صلفا أيا راسخا لا أثنى ، وسيرى العالم البينة على ذلك - ولكن ،  
هل ستغفرين لى ياربيكا ؟ . .

- بقدر ماتغفر الضحية لجلادها ، . فقال فارس المعبد :

- ، الوداع إذن ، ثم غادر الحجره .

كان الرئيس ألبيرت ينتظر عودة بواجيلبرت بصبر نافذ فى غرفة مجاورة  
وما إن رآه حتى قال له :

- ولقد طال بك التوانى . وكنت كمن يتقلب على حديد محمى من  
فرط القلق . ماذا لو حضر إلى هنا السيد الأعظم أو أمين سره كوزاد ؟

لا شك في أنى كنت أدفع ثمن مجاملتى لك غالباً ، ولكن ماذا بك أيها الاخ؟  
إن خطواتك تترنح وجيبك في سواد الليل. هل أنت بخير يا بواجيلبرت؟ .  
فأجاب فارس المعبد :

- « نعم ، كحال شقى حكم عليه بالموت قبل انقضاء ساعة من الزمان ،  
كلا بحق المسيح ، حتى ولا نصف ذلك ، فهناك من هم في مثل حالى ، ومع  
ذلك فإنهم يستطيعون أن يخلعوا الحياة وكأنها ثوب مهمل مهمل . أقسم  
بالسما يا مالفوازان على أن تلك الفتاة كانت على وشك أن تعبت برجولتى .  
إن الهمز يراودنى على أن أذهب إلى السيد الاعظم وأعلن في وجهه  
بمحدودى بالطائفة ، وأرفض القيام بذلك العمل البهيمى الذى فرضه بغيه  
على فرضا . فقال مالفوازان :

- « هل أصابك العته ؟ إنك بذلك ستحطم نفسك تحطيا ، ومع ذلك  
فإنك لن تستطيع أن تجد الفرصة مواتية لإنقاذ هذه اليهودية التى تبدو فى  
ناظريك على هذا القدر من النفاسة . سيستبدلك بومانوار بآخر من الطائفة  
ليدافع عن قضائه ، ولا مرية فى أن المتهمه هالكه كما لو كنت قد قتت  
بالمهمة التى وكل إليك القيام بها . فقال فارس المعبد متعاليا :

- « هذا محض اقتراء سوف أحمل السلاح بنفسى دفاعا عنها ، وإذا  
ما فعلت ذلك ، فأظن أنك لا تعرف يا مالفوازان من بين فرسان الطائفة  
من يقوى على الاحتفاظ بسرجه أمام رحى . فقال ناصحه الدايمية :

- « نعم ، ولكنك نسيت أنه لن يكون لديك من الوقت أو الفرصة  
ما يتيح لك تنفيذ هذه الخطة المجنونة . اذهب إلى لوكاس دى بومانوار وقل له  
إنك سوف تحنث بقسمك على الطاعة ، وانظر كم من الوقت سيتركك الطاغية  
الهرم تنعم بحريتك . لن تخرج الكلمات من بين شفئك حتى تكون إما على  
عمق مائة قدم تحت الأرض فى جب المقر انتظارا لمحاكتك كفارس مرتد ،

وإما - إذا كان لا يزال على رأيه - من أنك واقع تحت تأثير السحر - أن تنعم بالقش والظلام الدامس والأغلال في صومعة دير ناه فاقداً لوعيك من كثرة ما يتلى من تعاويذ ، ومبلا بالماء المقدس لطرد الشيطان اللعين الذي سيطر عليك . لزام عليك أن تنزل إلى الساحة يا بواجيلبرت ، وإلا أمست رجلاً ضائعاً ملوب الشرف ، . فقال، بواجيلبرت :

- « سوف أهرب - أهرب إلى أرض بعيدة المزار لم تستطع الحماقة والتعصب أن يجدا طريقهما إليها بمد - لن تسفك نقطة واحدة من دم هذه المخلوقة النبيلة برضاى ، . فقال رئيس المقر :

- لن تستطيع الهرب لأن هذيانك قد أثار الشكوك من حولك ولن يؤذن لك بأن تبرح المقر ، اذهب وابذل محاولة في ذلك - تقدم نحو الباب الخارجى ومر الرجال بإنزال الكوبرى وانظر أية إجابة ستلقى . إن الدهشة والضيق يتبدان بك ، ولكن ألا ترى أن في هذا خيراً لك ؟ لو هربت فإذا سنكون العقبى سوى إبطال أسلحتك ، وجلب العار على سلفك ، وإلى الحضيض مستقر ومقامك ؟ فكر في الأمر . أين سيخفى رفاقك القدامى رهوسهم خزيًا وعاراً عندما يعلن بين همسات الجمع أن بريان دى بواجيلبرت أفضل من حمل الرماح من بين فرسان المعبد قد أمسى مرتداً ؟ أية غصة ستعم بلاط فرنسا ، أية فرحة سيصغى رينشارد المتكبر إلى النبأ الذى يقول إن الفارس الذى ضيق عليه الخناق في فلسطين وكاد أن يعصف بشهرته ، قد فقد السمعة من أجل فتاة يهودية ، ولم يتمكن من إنقاذها حتى بمثل تلك التضحية الغالية ، فقال الفارس :

- شكرى لك يا مالقوازان . لقد مسست الوتر الحساس الذى سرعان ما يهتز له قلبي ا لن يوصم اسم بواجيلبرت بعار الارتداد مهما

يكن في الأمر من شيء . كم أود من الله لو أن ريتشارد أو واحداً من  
خلانه الإنجليز المزهوين قد ظهر على أرض هذه الساحة ولكنها ستكون  
خاوية ، إن يخاطر أحد بتحطيم رح من أجل تلك البريشة المغلوب على  
أمرها ، فقال رئيس المقر :

- د لو حدث هذا فيكون من الخير لك . إذا لم يظهر لها نصير ،  
فمضى هذا أن تلك الفتاة المنكودة لن تموت بسببك ، ولكن طبقاً لحكم  
السيد الأعظم الذي تقع اللائمة كلها عليه ، وسيرى في هذا اللوم مديحاً  
وثناءً . فقال بواجيلبرت :

- د حقاً ما قلت . إذا لم يتقدم لها نصير فلن أكون إلا جزءاً من  
المشهد ممتطياً صهوة جوادى داخل الساحة ، ولن أسهم فيما يستتبع ذلك .  
فقال مالفوازان :

- د لن تسهم على وجه الإطلاق ، وسيكون مثلك في ذلك مثل  
القديس جورج شاكي السلاح في مشهد من مشاهد موكب ديني . فقال  
فارس المعبد الصلف .

- د حسناً ، سأرتد عما اعترمت أن أفعله - لقد ازدرتني وأعرضت  
عني ونهرتني ، فلماذا أضحي من أجلها ، لماذا أضحي من أجلها بما أحظى  
به من تقدير في أعين الآخرين ؟ سأنزل إلى الميدان يا مالفوازان .

ثم غادر الغرفة على عجل وهو يتمتم بهذه الكلمات ، يتبعه رئيس المقر  
ليرقبه ، ولكيلا يدهه ينثنى عن عزمه ، لأنه كان شديد الكلف بسمعة  
بواجيلبرت ، وكان يبني الآمال على أن يصبح يوماً ما على رأس الطائفة ،  
غير أنه بالأفضلية التي وعد مونت فيثت بأن يختصه بها إذا ما أعانه على  
إدانة ريبكا المنكودة . ومع أن مالفوازان كان في أثناء مناهضته لمشاعر  
صديقه ، يمتاز على الفارس الذي كانت تتنازعه عواطف قوية متضاربة



مع طبيعته الماكرة الرزينة التي تتسم بالأنانية ، إلا أنه رأى نفسه مسوقاً إلى أن يبذل قصارى حذقه كي يجعل بواجب لبرت ثابتاً على القرار الذي استطاع أن يسوقه إلى اتخاذه ، وكان كلفاً بأن يرقبه عن كثب ليحول دون عودته إلى فكرة الهرب ، وأن يحول يده وبين الاتصال بالسيد الأعظم خشية أن تقوم بينه وبين رئيسه قطيعة صريحة ، وكي يعيد على مسمعه بين حين وآخر ذكر الأدلة المختلفة التي كان يعمل على أن يدلل بها لبواجب لبرت على أنه بظهوره كنصير للطائفة ، وبدون أن يجعل بمصير رييكا أو يؤكده ، إنما يسلك الطريق الوحيد الذي يستطيع معه إنقاذ نفسه من الضعة والعار .

**\*\* معرفتي \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**

**منتديات مجلة الإبتسامة**

## الفصل الأربعمائة

أغربى أيتها الأطياف عني - لقد عاد ريتشارد إلى طبيعته مرة أخرى .  
( ريتشارد الثالث )

إنه لمن الأهمية بمكان أن نعود إلى سلسلة المغامرات التي خاضها الفارس الأسود ، فعندما ترك ذلك الخارج على القانون ذو النخوة شجرة الميعاد التي كان يصدر أحكامه في ظلها ، سلك طريقه رأساً إلى أحد المعابد المجاورة وهو مكان قليل الموارد يشغل حيزاً صغيراً من فراغ الأرض يدعى دعو معة القديس بوتولف ، الذي كان أيفانهو الجريح قد نقل إليه بعد الاستيلاء على القصر تحت رعاية جيرث الأمين ووامباذى النفس الكريمة ، وليس من الضرورة في شيء أن نذكر الآن ما حدث في غضون ذلك بين ويلفريد وبين من أنقذه ، بل يكفي أن نقول إنه بعد حديث طويل جاد بينهما ، بعث رئيس الدير برسالة إلى جهات متعددة ، وأن الفارس الأسود كان في صبيحة اليوم التالي يتأهب للرحيل برفقة وامبا المهرج الذي كان يصطحبه كدليل وقال لأيفانهو :

- سنلتقي في كورنجزبره ، قصر أثيلستين الراحل إذ أن أباك سيقم الحفل الجنائزي لقريبه النبيل هناك . سأرى قومك الساكسونيين مجتمعين ياسير ويلفريد وتتوثق الصلات بيني وبينهم عن ذى قبل ، سألتقي بك هناك أيضاً، وسيكون من واجبي أن أصلح ما بينك وبين أهلك .

وبعد أن انتهى من قوله هذا ودع أيفانهو وداعاً حاراً ، وقد أبدى هذا الأخير رغبة لهفة في أن يصطحب منقذه ، ولكن الفارس الأسود لم يعر مبيته التفاتاً وقال له :

- مجرد بك أن تغلذ اليوم إلى الراحة لأنك بالكاد تقوى على السفر

في الغد . لن أصطحب معي دليلا إلا واما الأمين الذي يستطيع القيام بدور  
القس أو الأبله حسبما يروق لي . فقال واما :

— وأنا بدوري سأقوم على خدمتك من صميم قلبي ، هذا وإني مشوق إلى  
أن أرى الوليمة التي ستقام لجنائزة أثيلستين ، فإذا لم تكن حافلة بمو فور الطعام ،  
فسينفض من بين الموتى وينفض عن نفسه غبار رمسه ، ليلقى بزجره على  
الطاهي ورئيس الخدم والساق . إنه لعمرى منظر جدير بأن أشهده . وإني  
لعلى ثقة دائما يا سيدي الفارس من أن بسالتك ستقوم بالشفاعة لي عند  
سيدي سيدريك إذا ما تنكر لي ذكائي .

— وكيف تستطيع بسالتي المسكينة أن تنجح فيما يقصر عنه ذكاؤك  
اللماح ؟ أفصح لي عن هذا . فأجاب المهرج :

— إن الفطين يا سيدي الفارس قد يفعل الكثير فهو ماكر سريع  
يتوقع الشر ويحذره ، ويرى نقطة الضعف في جاره ويعرف كيف يلتزم  
جانب الأمان إذا ما ثارت عواطفه ، أما الباسل فهو إنسان قوى يقهر كل  
ما يعترض سبيله . إنه يجدف ضد الريح والتيار ورغم هذا فإنه يشق لنفسه  
طريقه ، لذلك فبينما أستمع يا سيدي الفارس الطيب بالنأحية العطوفة  
في طبع سيدنا النبيل ، فأني أنتظر منك أن تهب لعوني عندما يصبح هذا  
الطبع خشنا جافا . فقال أيفانمو :

— إني أخشى يا سيدي فارس القفل - حيث إنه يروق لك أن ينادوك  
بهذا الاسم - أن تكون قد اخترت لإرشادك أحق ثرثارة باعنا على الضيق ،  
ولكنه مع هذا يعرف كل طرق الغابة ومسالكها كأحسن صياد من يرتادونها ،  
والوغد المكين كما رأيت في بعض السواحي وفي كالفولاذ .  
فقال الفارس :

— « كلا ، بما أنه يستمتع بموهبة الدليل فلن أضيع بثرثرته طالما أنه يرغب في أن يجعل منها سلوى لنا على الطريق . وداعا يا ويلفريد الرحيم ! أوصيك بالألا تحاول السفر حتى الغد على الأقل ، » .

وعندما قال ذلك ، مد يده لأيفانهو الذى شدها إلى شفتيه ، ثم حصل على إذن من رئيس الدير ليرحل ، وامتطى جواده ثم انصرف وواهباً في رفقته . تبعهما أيفانهو بعينيه حتى غابا في ظلال الغابة التى كانت تلتف بهم ثم عاد بعد ذلك إلى الصومعة ، ولكنه بعد صلاة الصباح بقليل ، طلب أن يرى رئيس الدير ، فأقبل الرجل المسن على عجل ، وسأله بلهفة عن حالته الصحية فقال :

— « إننى بخير يا أبت تقدمت صحى أكثر مما كنت آمل - إما أن جرحى أهون مما كان يوحى به تدفق الدماء ، وإما أن هذا البلسم قد حقق له شفاء عجبياً . إنى أشعر الآن وكأنى قادر على ارتداء دروعى وهذا أفضل بالنسبة لى ، فهناك أفكار تدور بخلدى تجعلنى غير راغب فى البقاء هنا إلى أكثر من ذلك مستسلماً للدعة » . فقال رئيس الدير :

— « إن القديسين ينهون عن أن يبرح ابن سيدريك الساكسونى الدير قبل أن تتممل جراحه - عار على وظيفتنا أن نجهز ذلك . » ، فقال أيفانهو :

— « ما كان لى أيها الأب المبجل أن أرغب فى الرحيل عن ضيافتك الكريمة لولم أشعر بأنى قادر على احتمال السفر وبأنى مسوق إلى القيام به . » ، فقال رئيس الدير :

— « وما الذى يحدو بك إلى هذا الرحيل المفاجيء ؟ » .  
فأجاب الفارس :

— « ألم يحدث لك قط يا أبى المقدس أن ساورك شعور بأن شراً ما على وشك الوقوع وحاولت عبثاً أن تستبين له سبباً ؟ ألم يحدث لك قط أن أظلم ذهنك كما يظلم المنظر المشرق من سحابة مفاجئة تنذر بأن العاصفة آتية ؟ أفلا تظن أنه ينبغي علينا أن نعتلمم الحذر من مثل هذه الأحاسيس لأنها إشارات من الأرواح التى تقوم على حراستنا ووحى إلينا بأن الخطر على وشك الوقوع ؟ ، فقال رئيس الدير وهو يرسم علامة الصليب على صدره :

— « إني لا أنكر حدوث هذه الأشياء وأن الله باعثها ، ولكنى أرى أن مثل هذه الأحاسيس تدفع إلى مآرب واضح ذى نفع ، إذن فما الجدوى من وراء تتبعك لخطوات من لا تستطيع له عوناً إذا ما تعرض للهجوم ، ؟ فأجاب أيفانهو :

— « إنك مخطئ . يا رئيس الدير . إني من القوة بحيث أستطيع تبادل الضربات مع كل من يريد نزالي ، وحتى لو كان الأمر على غير ذلك ، أفلا أستطيع مساعدته لو عرض له خطر بوسيلة أخرى غير قوة ساعدى ؟ إنه لمن المعروف جيداً أن الساكسونيين لا يحبون الجنس النورماندى ، ومن يدري ما هى العقبي من وراء ذهابه إليهم وقلوبهم ناثرة لمقتل أثيلستين ورءوسهم ساخنة من أثر الخمر التى يعبونها . أرى أن فى وجوده بينهم فى مثل تلك اللحظة ما يعرض حياته لخطر جلائ ، وإني معتزم على أن أسهم معه فى تحمله أو فى درءه عنه . وكى أقوم بذلك على الوجه الكامل ، فإني أرجوك أن تعيرنى جواداً أكثر هونا فى المسير من جوادى الحربى ، فقال رجل الكنيسة الموقر :

— « حقاً ، سأعطيك فرسى ذات المسار الناعم السريع ، وأود لو سارت بك هونا ، بجواد رئيس دير القديس « اليانس » ، ولكنى أستطيع أن أقول عن « مالكين » .

— لأنى هكذا أسميها — إنك إن لم تكن راكبا لجواد أحد السحرة الذين ينطلقون كالريح بين بيض الدجاج ، فلن تجد للسفر دابة أكثر راحة ووداعة منها . كم من عظام صنفتها فوق منها لتثقيف إخوتى فى الدير والكثير من الأرواح المسيحية المكينة ، . فقال أيفانهو :

— « أرجوك يا أبى المبجل أن تدعهم يعدون ، مالكين ، على الفور ، ومر جيرث بأن يأتينى بأسلحتى » . فقال رئيس الدير :

— « كلا ياسيدى الطيب ، أرجوك أن تذكر أن مالكين كسيدها لأدراية لها بالأسلحة ، هذا وإنى غير كفيل بأنها ستحتمل مرأى دروعك أو كامل ثقلها . أعدك بأن مالكين دابة عاقلة ولكنها ستبرم بأية أحمال فوق طاقتها . لقد استعرت ذات يوم كتابا ضخما للصلاة من قس كنيسة القديس « بيز » ، وأصدقك القول إنها رفضت أن تخطو خطوة واحدة خارج الباب حتى أعدته واستبدلته بكتاب صلاتى الصغير ، فقال أيفانهو :

— « ثق أيها الأب المقدس بأنى لن أبعث فيها الضيق بأحمال ثقيل ، وإذا جنحت إلى المقاومة ، فأنا زعيم بأنه لن يكون شبنأ غريباً على إذا ما سيطرت عليها » .

قال هذا حينما كان جيرث يوثق فى عقبه زوجا من الممايز الضخمة المطعمه بالذهب ، الكفيلة بكبح جماح أى جواد تتوقف سلامته على انصياعه لشئته من يعتليه . كانت شوكتا الممازين الطويلين الحادتين اللتين سلح بهما أيفانهو عقبه قد جعلتا رئيس الدير الفاضل يأخذ الزدم على مجاملته ويقول :

— « كلا ياسيدى المفضل . لقد تذكرت الآن أن مالكين لا قبل لها على الممايز . من الأفضل لك أن تنتظر حتى نستبدلها بفرس عربتنا فى المزرعة ، والتي تستطيع الحصول عليها فى غضون ساعة من الزمان ، وهى

لن تكون إلا سلسلة القيادة لأنها تجر أكثر خشب الحريق الذي ندخره للشتاء ، ولأنها لا تأكل الحنطة ، .

— « شكري لك أيها الأب المبجل ، ولكن هل لي أن أتمسك بعصك الأول فها نذا أرى مالكين وهم يقودونها صوب الباب . سيحمل جيرث عنى دروعى ، وأما ما عدا ذلك ، فمكن على ثقة من أنى لن أثقل على ظهر مالكين ، وبالتالي فإنها لن تقهر صبرى . والآن وداعا ، . »

وعندئذ نزل أيفانهو الدرج فى سرعة ويسر أكثر مما تديحه له جراحه ، وألقى بنفسه على الفرس وهو يتعجل الإفلات من إلحاح رئيس الدير الذى ظل يخطو بجانبه بقدر ما سمحت به شيخوخته وبداتته ، وهو يتغنى بمزايا فرسه مالكين حيناً ، ويوصى الفارس بالحذر فى معاملته لها حيناً آخر ، ثم قال الرجل المسن وهو يضحك للذحاة التى قالها :

— « إنها تمر بالفترة الحرجة فى عمر الفتيات والأفراس على السواء لأنها لم تتجاوز الخمسة عشرة من عمرها بعد ، . »

أ. أيفانهو الذى كان فى شغل عنه بما هو أهم من التشديق بمزايا الفرس ، فإنه لم يعر نصيح رئيس الدير الجاد ومزاحه الهازل إلا أذناً صماء ، وقفز على ظهر فرسه وأمر وصيفه بأن يتبعه ( لأن جيرث قد أصبح الآن يسمى نفسه وصيفاً ) ، ثم راح يقتفى أثر الفارس الأسود وسط الغابة بينما رئيس الدير يتعقبه بنظرانه وهو يقول :

— « باللقديسة مريم ! إن هؤلاء المحاربين سريعو الغضب حادو الطباع . ابنتى لم أعهد بمالكين إليه ، فلو أصابها ضرر لكانت القاضية على وأنا هكذا عاجز يطحننى مرض الروماتزم ، . ثم قال متذكراً : « ومع ذلك فإنى لن أضن بأعضاء جسدى انواهنة التى عبثت بها السنون فى سبيل إنجلترا الهرمة ،

وكذلك فإن مالكين يجب أن تأخذ قسطها من المخاطرة نفسها . من المحتمل أن يفكروا في أن ديرنا المتواضع في حاجة إلى شيء من العطاء السخي ، أو ربما أرسلوا الرئيس الدير العجوز بجواد صغير كريم ، وإن لم يفعلوا شيئاً من هذا — لأن العظماء كثيراً ما ينسون خدمات من هم دونهم مرتبة — فسأعتبر نفسي مجحولاً بما رأيته صواباً . ها قد اقترب موعد مناداة الإخوة لتناول الإفطار في قاعة الطعام . أوه ! لا يراودني شك في أنهم سيستجيبون لهذا النداء ، وهم أشد بهجة من استجاباتهم لأجراس صلاة الفجر أو الصباح .

وهكذا عاد رئيس دير القديس « بوتولف » وهو يتحامل على نفسه إلى قاعة الطعام للإشراف على وجبة السمك والجمعة التي كانت معدة لإفطار الرهبان ، واتخذ مكانه عظيمًا سنبعجا ، ثم تمت بكثير من الكلمات المبهمة عن العطايا التي كان ينتظرها لصالح الدير ، والخدمات الجليلة التي قام بها نحوه ، والتي كان ينبغي أن تسترعى الانتباه في موسم آخر ، ولكن لما كان السمك كثير الملح والجمعة قوية الأثر ، فقد عملت أفواه الإخوة بلهفة لا تسمع لهم بأن يقرروا بأنهم قد أعملوا آذانهم في الإصغاء إليه ، كما لم نقرأ أن أحداً من الإخوة قد حاول الإمعان في التفكير في ذلك القول الغامض الذي صدر عن رئيسه سوى الأب ديجورى الذي كان يشكو من ألم شديد في أسنانه لم يستطع معه إلا أن يستخدم أحد فكبيه فقط في تناول الطعام .

في تلك الأثناء كان الفارس الأسود ودليله يسيران ويبدأ بين ضروب الغابة ، والفارس الطيب يترنم لنفسه بإحدى أغنيات الغرام حيناً ، ويبث الشجاعة في طبيعة تابعه الثرثرة بتوجيه الأسئلة إليه حيناً آخر ، حتى إن حديثهما كان خليطاً بين الفكاهة والغناء ، ونود هنا أن نعرض على قارئنا طرفاً منه . عليك إذن أن تتخيل هذا الفارس كما وصفناه من قبل ، قوى البنية ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، ضخيم العظام يمتطي جواداً قوياً وكأنه قد مخلق خصيصاً لحمل ثقله نظراً للسهولة التي كان يسير بها تحت هذا الثقل ،



وقد رفع غطاء خوذته لكيلا يكون هناك ما يعوقه عن سرعة التنفس ، ولكنه مع ذلك قد احتفظ بالجزء الأسفل منه مثبتا على وجهه حتى لا يكون من المستطاع رؤية قسماته بجلاء ، ولكن عظام وجنتيه المرارين الضاربتين إلى البعرة كانت تبدو واضحة ، وكانت العينان الزرقاوان الواسعتان البراقتان تومضان في الظلال السوداء للخوذة المرفوعة ، وكان مظهر الفارس في مجموعه وإيماءاته تفصح عن المرح المتسم بعدم الاكتراث ، والاعتداد بالنفس الذي لا يرهب شيئا ، والذهن الذي لم يكن على استعداد لأن يخشى الخطر ، ويسرع إلى تحديه إذا ما اقترب ، ومع ذلك فإن فكرة الخطر كانت أمراً مألوفاً لديه لأنه كان رجلاً يمتن الحرب والمغامرات ، وكان المهرج يرتدى ثوبه الذي اعتاد أن يرتديه ، ولكن الأحداث الأخيرة قد دفعته إلى أن يتمنطق بحسام بتار بدلا من سيفه الخشبي ، ودرع يتلام معه ، وعلى الرغم من مهنته كمهرج ، فقد بدا أستاذاً بارعا في العمل بهذين السلاحين في أثناء الانقضاض على قصر توركويلستون .

حقيقة لم يكن القصور في عقل وامبا إلا نوعاً من النزق الذي يعتبره الملل ، ولذا فإنه لم يكن مستقراً في وضع واحد لوقت طويل ، أو مستتباً لأية سلسلة بعينها من الأفكار ، مع أنه كان يظل لدقائق قليلة موفور النشاط في إنجاز أي عمل عاجل ، أو في تفهم أي حديث وقفي ، لذا فقد كان يترنح بلا انقطاع على ظهر جواده خلفاً وأماماً ، فهو الآن بالقرب من أذنيه ، ثم شديد الاقتراب من عجزه ، وكان حيناً يدلى ساقيه كليهما في جانب واحد ، وحيناً آخر يجلس ووجهه ناحية الذيل ، مكتئباً مرة ، ويحصد الهواء بسيفه مرة أخرى ، وكان يقوم بألف حركة من حركات القردة حتى إن جواده قد أخذته النزوة معه فشاركه في القيام بتلك الحركات ، ثم طرحه فوق العشب الأخضر فأغرق الفارس في الضحك ، ولكنه طلب إلى رفيقه أن يركب أكثر ثباتاً من ذي قبل .

وفي المكان الذي ندرکہما فيه على الطريق ، كان هذان الرفيقان  
المرحان مشترکين في غناء مقطوعة عاطفية كان المہرج في أثناء إنشادها  
متمشيا مع فارس القفل الذي كان يفوقه ثقافة ، نوردها فيما يلي :

أنا ماري يا حبيتي لقد أشرفت الشمس ،  
أنا ماري يا حبيتي لقد انبلج الصبح ،  
الضباب ينقشع يا حبيتي والطيور طليقة تشدو  
وقد نهضت في الصباح يا حبيتي أنا ماري .  
أنا ماري يا حبيتي لقد أشرق الصباح ،  
والصياد يعزف على بوقه الحانا بهيجة ،  
ويتردد الصدى نشوان بين الصخرة والخيلة .  
لقد آن لك أن تنهضي يا حبيتي أنا ماري .  
وامبا ، منشداً دور أنا ماري (

أواه يا تايبولت ، يا حبيتي تايبولت لم يحن الوقت لتوقظني ،  
والأحلام الحلوة الناعمة ترفرف حول وسادتي الوثيرة ،  
فما هي الممرات التي نحققها في البقطة  
إذا ما قورنت بتلك التي نراها في أحلامنا يا تايبولت يا حبيتي ؟  
دع الطيور تصدح جزلة لانقشاع حجب الضباب ،  
دع الصياد ينفخ في بوقه المدوي فوق الراية .  
لاني أجد في منامي أصواتا أعذب وممرات أطيب ،  
ولكن لا تظن أني رأيتك في منامي يا تايبولت يا حبيتي .

—

وعندما اتيا من أغنيتهما قال وامبا :

— إنها أغنية رقيقة ، وأقسم بالعوبى على أنها ذات مغزى عظيم !  
لقد اعتدت أن أنشدها فى بعض الأحيان مع جيرث الذى كان فيما  
مضى رفيق صياى ، والذى أصبح اليوم بنعمة الله وفضل سيده مواطنا حراً  
طليقا . لقد ضربنا بالعصا يوماً لأننا انتشيننا من هذا اللحن العذب حتى إننا  
بقينا فى الفراش ساعتين بعد مشرق الشمس نشده ونحن بين النوم واليقظة .  
إن عظامى توجعنى كلما طاف هذا اللحن بذهنى منذ ذلك الحين ، ومع ذلك  
فقد قت بدور أننا ماري إكراما لخاطرك يا سيدي الطيب .

ثم بدأ المهرج بعد ذلك يغنى أنشودة أخرى وهى نوع من المقطوعات  
المزلية ردها معه الفارس بعد أن تفهم اللحن .

### الفارس ووامبا :

أقبل من الجنوب والغروب والشمال ثلاثة رجال مرحين .

يغنون هذه الأنشودة فى كل حين .

أتوا ليظفروا بأرملة ، ويكرومب ، .

وأيّن كانت تلك الأرملة التى تقول لهم : لا ؟

كان أولهم قادما من ، تينيديل ،

وكان ينشد هذه الأغنية فى كل آن .

وكان آباؤه — حفظنا الله — رجالا ذوى شهرة عريضة .

وأيّن كانت تلك الأرملة التى تستطيع أن تقول له : لا ؟

كان يزهو دائماً بأبيه السيد وعمه صاحب الضيعة .

ويتغنى بهما فى الأناشيد والقوافى .

فأمرته بأن يذهب إلى جوار الفحج الحجرى ليستدفى .

لأنها كانت الأرملة التي تستطيع أن تقول له : لا .

وامبا :

أقبل الثاني بعد ذلك وأقسم بالدماء والمسامير .

على أن يغنوا ويمرحوا .

فقد كان سيداً — علم الله — وينتسب إلى « ويلز » ،

وأيّن كانت الأرملة التي تقول له : لا ؟

رددت أغنيته أسماء سلفه

سير ديفيد ، فورجان ، جريفيث ، هيوه ، تيودور ، رايس ،

وقالت إن أرملة واحدة غير كافية لكل هؤلاء ،

وطلبت من رجل ويلز أن يمضى لحاله .

وتقدم بعد ذلك أحد الجنود من مقاطعة « كنت » ،

يعنى جزلاً أنشودته ،

وتحدث إلى الأرملة عن العيش والدخل ،

وأيّن كانت الأرملة التي تستطيع أن تقول له : لا ؟

كلاهما معاً :

وهكذا ترك الفارس والسيد في الوحل ،

ليغنيا أنشودتهما ،

وأمام جندي من « كنت » يمتلك دخلاً سنوياً .

لم توجد أبداً أرملة تستطيع أن تقول له : لا .

وقال الفارس :

— « وددت يا وامبا لو أن مضيفنا صاحب شجرة الميعاد أورفيقه الراهب

المرح قد استمعنا إلى أغنيتك هذه التي تمتدح جندينا الماكر » . فقال وامبا :

- « وهذا ما لم أكن راغباً فيه لولا البوق المدلى في شمالك ، .

فقال الفارس :

- « نعم ، وهذه كفالة لو كسلي على حسن طويته نحوي ، مع أنني لست راغباً فيها . إني لعل ثقة من أن ثلاث نوبات تطلق من هذا النفير ستجمع حولنا صحبة طيبة من أولئك الرجال الشرفاء . إذا ما مست الحاجة إليهم ، .

فقال المهرج :

- « لقد كنت أقول حاشا للسماء أن ترضى بذلك لولا أن تلك الهبة الطيبة ليست إلا كفالة بأنهم سوف يدعوننا نمضي آمنين ، . فقال الفارس :

- « لماذا ؟ ماذا تعني ؟ أتظن أنهم كانوا يهاجموننا لولا ذلك الدليل

على الوفاق ، ؟ . فقال وامبا :

- « أما عني فلن أقول شيئاً لأن الأشجار الخضراء لها آذان كالجدران

الحجرية سواء بسواء ، ولكن هل في استطاعتك أن تفصح لي عن هذا يا سيدي الفارس - متى تكون جرة نبيذك وكيس نقودك وهما خاويان ، أفضل منهما وهما ممتلئان ، ؟ فأجاب الفارس :

- « أظن أن هذا محال ، .

- « إنك غير جدير بأن يكون في يدك واحد منهما وهو ممتلئ . بسبب

إجابتك الساذجة هذه . يجب أن تفرغ قدحك قبل أن تناوله لساكسوني ، وأن تترك نقودك في البيت قبل أن تسير في غابة ، . فقال فارس القفل :

- « أعتقد إذن أن أصدقاءنا لصوص ، ؟ فقال وامبا :

- « إنك لم تسمعي أقول ذلك يا سيدي الطبيب . إنه لمن بواعث

الراحة للجواد أن يخلع راكبه عنه سلاحه إذا ما كان عليه أن يقطع سفرة

طويلة ، ولا مرأه في أنه منجاة لروح الراكب أن تريحه من حمل المال أس كل البلايا ، ولذلك فإنني لن أطلق ألقابا جارحة على أولئك الذين يقومون بمثل هذه الخدمات ، ولكنني فقط أود أن تكون دروعى بالمنزل وكبس نقودى في غرقتى عندما ألتقى بهؤلاء الأشخاص الطيبين ، فقد يوفر ذلك عليهم بعض العناء .

— « إننا يا عبدتي ملزمون بأن نصلى من أجلهم على الرغم من الخصال الحميدة التي تصفهم بها . » وقال وامبا :

— « إنى أصلى من أجلهم من كل قلبى ، ولكن فى المدينة لا فى الغابة ، كراهب كنيسة القديس « بيز » الذى أكرهه على أن يقيم صلاة القديس فى شجرة بلوط مفرغة أتخذ له منها مذبحا . » فقال الفارس :

— « قل ما طاب لك يا وامبا ، ولكن هؤلاء الرجال قد أدوا أجل الخدمات لسيدك سيدريك فى توركوياستون . » فأجاب وامبا :

— « نعم ، هذا حق ، ولكن ذلك هو الطراز الذى يتعامل به أهل مهنتهم مع السماء . » فقال رفيقه :

— « مهنتهم يا وامبا ! ماذا تعنى بذلك ؟ » فقال المهرج :

— الأمر هكذا : إنهم يقيمون حسابا متوازنا مع السماء كما كان خازن خمورنا العجوز يسميه « الحساب السرى » ، وكحسابات إسحق اليهودى مع مدينيه وهم مثله يعطون القليل لياخذوا الكثير ، طالبين لنفهم فائدة قدرها سبعة أضعاف ما وعد به النص المقدس مقابل القروض الحسنه . » فقال الفارس :

— « اضرب لى مثلا على ما تهدف إليه يا وامبا فإنى لا أعرف شيئا عن الأرقام أو سعر الفائدة . » فقال وامبا :

— لماذا؟ بما أن بسالتك على هذا القدر من الغباء ، فإنه لما يبعث على المسرة في نفسك أن تعرف أن هؤلاء الرفاق الشرفاء يضعون العمل انصالح في إحدى كفتي الميزان والطاقح في الأخرى ، كمن يعطى قطعة نقود فضية لراهب منسول مقابل أخذ مائة قطعة ذهبية من رئيس دير سمين ، أو كمن يأخذ قبلة من إحدى الفتيات في الغابة نظير منحها ما أخذته من أرملة مسكينة . .  
فقاله الفارس قائلاً :

— أي هذين العاملين كان صالحاً وأيهما كان طالحاً؟ . .  
فقال وامبا :

-- « سخرية لاذعة | سخرية لاذعة | إن حجة الأذكياء تزيد من حدة الذكاء . أقسم على أنك لم تقل شيئاً يدل عليه عندما كنت تؤدي صلوات المساء المخمورة مع الناسك المنبجج ولكن لنسترسل في حديثنا ، لقد بدأ رجال الغابة المرحون يبنون كوخاً مقابل إحراقهم لأحد القصور - ويقيمون سقفا لمعبد بأعواد القش مقابل سرقةهم لإحدى الكنائس - أو إطلاق سراح سجين مسكين نظير قتل رجل من ذوى المسكاته ، أو كى نكون أكثر دقة ووضوحاً ، إنقاذ أحد الفرانكلين الساكسونيين مقابل إحراق بارون نورهاندى حياً ، وقصارى القول فهم لصوص رفاق القلوب وقطاع طرق على خلق ، ولكن من حسن الطالع أن تلقاهم وهم في أسوأ حالاتهم . .  
فقال الفارس :

— وكيف ذلك يا وامبا؟ ، فأجاب :

— « إنهم في تلك الحالة يحسون بشيء من وخز الضمير ، ويحاولون أن يصلحوا ما بينهم وبين الله ، ولكن إذا أقاموا حساباً متعادلاً في يوم ما ، فلتساعد السماء أولئك الذين يفتحون معهم الحساب الذى يليه لا بد وأنهم قد ساءخوا أول مسافر التقوا به بعد خدماتهم الجليلة التى قاموا بها في

تور كويلىستون سلخاً محزناً . ثم قال وهو يقترب من الفارس : « ومع ذلك فهناك قوم يعتبر لقاؤهم أشد خطراً على المسافرين من أولئك اللصوص » .  
فقال الفارس :

— « ومن يكون هؤلاء ؟ يقينى أنه ليس لديكم دية ولا ذئاب . »  
فقال وامبا :

— « حقاً ياسيدى ، ولكن لدينا جنود ما لفوازان ، ودعنى أنبتك أن عشرة منهم فى إبان حرب أهلية ، يساوون قطعاً من الذئاب فى أى وقت من الأوقات . إنهم الآن فى انتظار موسمهم ، وقد ازدادوا قوة بالجنود الهاربين من تور كويلىستون ، ولذلك فإننا إذا التقينا بعصابة منهم ، فمن المحتمل أن ندفع ثمن أعمالنا الحربية غالباً ، والآن أرجو أن تنبئنى ياسيدى الفارس عما أنت فاعل لو التقينا باثنين منهم » .

— « ألقى الوغدين فى الأرض برمى يا وامبا لو اعترضنا سيبلنا » .

— « ولكن ماذا لو كانوا أربعة ؟ »

— « سيثربون من الكأس نفسها » . فاسترسل وامبا :

— « لو كانوا ستة ونحن كما ترى اثنان فقط . ألا تتذكر بوق لوكسلى ؟ »

فقال الفارس :

— « ماذا ! أطلق النفير طلباً للنجدة من عشرين وغداً كهؤلاء

الذين يستطيع فارس باسل واحد أن يسوقهم أمامه كما تعصف الرياح بالأوراق الذابلة ؟ » . فقال وامبا :

— « أرجو إذن أن تدعنى أرى عن كذب ذلك البوق ذا الصوت

المدوى » .



انتزع الفارس مشبك البوق من شماره وأعطاه لرفيق طريقه ، فعلقه على الفور في عنقه ثم قال وهو يبعث الأنغام صغيراً :

- « ترا - ليرا - لا ، كلا . إنني أستطيع أن أعرف أبراج الأنغام الموسيقية كما يعرفها أى شخص آخر ، . فقال الفارس :

- « ماذا تعنى أيها الوغد ؟ أعد البوق إلى . »

- « فليطمئن بالك يا سيدي الفارس ، إنه في أمان . عندما تسافر الشجاعة والحماقة معاً ، فإن الحماقة يجب أن تحمل البوق لأنها تحسن إطلاقه ، . فقال الفارس الأسود :

- « كلا أيها المحتال . إنك تتجاوز نطاق حريرتك . حذار ، إنك تعبت بصبري ، . فقال المهرج وهو يحتفظ بالمسافة بينه وبين البطل الغاضب :

- « لا تنذرني بالعنف يا سيدي الفارس ، وإلا فإن الأحمق سيستدير على عقبه تاركاً الباسل يتلصق طريقه في متاهات الغابة قدر استطاعته ، . فقال الفارس :

- « كلا ، لقد أصبني بهذه الرمية ، وهأنا أقول لك برفق ليس لدى وقت للتناوب . احتفظ بالبوق كما تشاء ، ولكن دعنا نتقدم في مسيرنا ، . فقال وامبا :

- « إذن فلن تلحق بي أذى ؟ . »

- « أقول لك كلا أيها الوغد ، . فأضاف وامبا وهو يقترب منه بحرص شديد :

- « نعم ، ولكن أعطني وعد فارس بذلك ، . »

- « أعدك كفارس . هيا ولنمض أيها الأحمق ، . فقال المهرج وهو يقترب من الفارس في غير وجل :

— « حسنا ، إذن فقد أصبحت البسالة والحماقة نديمين مرة أخرى ، ولكنى حقيقة لا أحب مثل تلك الصفعات التي كانت للراهب البدين عندما سقطت قداسه على العشب كدمية الأوتاد التسعة ، والآن وقد أصبحت الحماقة تحمل البوق فلتنهض البسالة وتهز معرفتها ، لأنى إذا لم أكن نخطنا فهناك رجال في تلك الأجمة يترقبون مجيئنا . » فقال الفارس :

— « ما الذى أوحى إليك بأن تقرر ذلك ؟ »

— « لأنى أبصرت بخوذة تطل عدة مرات من خلال الأوراق الخضراء ، ولو كانوا رجالا شرفاء لالتزموا الطريق ، ولكن هذا الدغل ليس إلا معبداً مختاراً للكهنة اللصوص من أتباع القديس نيقولاس . » فقال الفارس وهو يغلغ غطاء خوذته :

— « أقسم يايماني على أنك محق . »

وما كاد يغلقها حتى انطلقت ثلاثة سهام من المسكان الذى ارتابا فيه مصوبة نحو رأسه وصدرة ، وأوشك أحدها أن ينفذ فى رأسه لو لم يحل دون ذلك غطاء الرؤية الفولاذى ، وأما السهمان الآخران فقد تلقاهما الدرع والزرذ اللذان كان يلف بهما عنقه وصدرة ، فقال الفارس :

— « شكرا لك يا صانع دروعى الأمين . هيا بنا نلتحم بهم يا واما . »

ثم انطلق نحو الدغل ، والتقى بستة أو سبعة من الرجال المسلحين يسرعون نحوه مسددين رماحهم بكامل قواهم ، فارتطمت به ثلاثة من هذه الأسلحة وتحطمت إلى شواظ دون أن تنال منه ، وكأنها قد سددت نحو حصن من الفولاذ .

كانت عينا الفارس الأسود تقدهان شرراً من خلال فتحة الرؤية فى خوذته ، فانتصب واقفاً فى ركابه على صورة فيها وقار شديد وصاح :

- « إلام تهدفون يا سادة ؟ » .

ولكن الرجال لم يجيبوه إلا باستلال سيوفهم من أعمادها ، وانقضوا عليه من كل جانب وهم بصيحاتهم :

- « فقامت أيها الطاغية ! ، فقال الفارس الأسود وهو يسقط أحد الرجال مع كل نداء إلى الله :

- « ها ! القديس إدوارد ! ها ! القديس جورج ! الديننا خونة هنا ؟ » .

ورغم استماتة خصومه في القتال ، إلا أنهم قد تراجعوا أمام ساعد كان يحمل الموت في كل ضربة ، وبدأ وكان الرعب من قوته المفردة كان على وشك أن يجعل النصر حليفه عندما برز فارس في دروع زرقاء . كان حتى تلك اللحظة مستترا خلف المهاجمين ، وركز جواده رافعاً رمحاً وسدده لا نحو الفارس بل نحو الجواد ، فأصاب من الحيوان النبيل مقتلاً ، وسقط الجواد على الأرض وسقط معه الفارس الأسود الذي قال :

- « إنها طعنة غادرة . » .

في تلك اللحظة نفخ وامبا في النفير ، لأن كل هذه الأحداث قد جرت سراعاً فلم تواته الفرصة ليفعل ذلك من قبل ، وعندما سمع السفاحون ذلك الصوت المفاجيء ، تراجعوا مرة أخرى ، ولم يتردد وامبا - على الرغم من أنه لم يكن كامل النسلح - في الانقضاض لمعاونة الفارس الأسود على النهوض .

صرخ ذو الرداء الأزرق الذي كان يبدو وكأنه قائد لاولئك المهاجمين قائلاً :

- « يا معاركم أيها الأفاقون الجبناء . أتولون الأدبار من نفخة بوق خاوية يبعثها أحد المهرجين ؟ » .

بعثت كلماته فيهم الحياة من جديد فانقضوا على الفارس الأسود ، وكان أحسن ملاذله أن يستند بظهره إلى شجرة بلوط ويدافع عن نفسه بسيفه ، وكان الفارس الغادر قد أمسك برمح آخر ، ووقف يرقب اللحظة التي يشتد فيها الهجوم على خصمه الميب ، ثم انقض عليه بجواده آملا في أن يلمصقه في الشجرة برمحه ، ولكن وامبا قد أفسد عليه تدبيره مرة أخرى ، إذ أن المهرج قد استبعض بسرعته عن ضعف قواه ، ودون أن يلاحظ الرجال المسلحون الذين كانوا في شغل عنه بتحقيق هدفهم الهام ، ظل يدور حول نطاق القتال ، واستطاع أن يحول بين تقدم الفارس الأزرق وبين عمله القتال بأن عرقل جواده بضربة من حسامه فسقط الجواد والرجل أرضا ، ومع ذلك فقد ظل موقف الفارس الأسود خطيراً أشد الخطر لأن عدداً من الرجال كامل التسلح قد شددوا عليه النكير ، وبدأ الإرهاق ينتابه من جراء الجهد العنيف الذي كان مسوقاً إلى القيام به ليحمي نفسه من كل هذه الأسته ، وإذا بسهم به ريشة أوزة رمادية اللون تصرع أشد مهاجمه قوة ، وظهرت من وراء الدغل جماعة من رجال الغابات يتقدمهم لوكسلي والراهب المرح ، واشتركوا في القتال بنصيب فعال ، ولم يلبثوا أن أجهزوا على الغادرين الذين استلقوا جميعاً على الأرض ما بين قتيل أو مشنخ بجراح مميتة ، شكر الفارس الأسود لمنقذيه بلمحة فيها اعتداد بالنفس لم يروها في مظهره السابق الذي كان يبدو حتى تلك اللحظة مظهرأ اجندى عنيف باسل ، أكثر منه شخصاً ذا مكانة مبعلة ، وقال :

— ه يعنني كثيراً حتى قبل أن أقدم شكرى العميق لأصدقائي الحاضرين أن أكشف — إن استطعت — عن أعدائي المجهولين هؤلاء . ارفع خوذته ذلك الفارس الأزرق يا وامبا الذي يبدو أنه زعيم لأولئك الغادرين ، .

ذهب المهرج على الفور إلى زعيم السفاحين الذي كان قد أصيب من

جراه سقطته ، مستلقياً تحت جواده الجريح ، غير قادر على الإفلات  
أو المقاومة ، وقال وامبا :

- « هلم ياسيدى الشجاع ، يجب أن أكون صانع دروعك كما أكون  
سائس جوادك . لقد ألقيت بك من فوق ظهر جوادك وسأززع عنك خوذةك . »

وبعد أن قال ذلك ، انتزع أربطة خوذة الفارس الأزرق بيدغير حانية ،  
وألقي بها فانزلقت غير بعيد فوق العشب ، وكشفت لفارس القفل هن  
خصلات شعر أشيب ، ووجه لم يختر بباله أن يراه في مثل هذه الظروف  
فقال في دهشة :

- « والديمار فيتزيرس !! ما الذى يدفع برجل فى مثل مقامك ومكانتك  
أن يزج بنفسه فى ذلك العمل المشين ؟ » فقال الفارس الأسير :

- « ريتشارد ، إذا كنت لا تعرف إلى أى مدى يدفع الجشع والانتقام  
بجميع أبناء آدم ، فإنك لا تعرف عن طبائع النفس البشرية إلا قليلاً .  
فقال الفارس الأسود :

- « الانتقام !! إنى لم أرتكب معك جرماً ولا شططاً - ليس هناك  
ما يحدو بك إلى الانتقام منى . »

- « ابنتى يا ريتشارد التى ازدرت الزواج منها - أليس فى ذلك إيذاء  
لنورماندى تجرى فى عروقه دماء نبيلة كدمائك ؟ . فأجاب الفارس :

- « ابنتك ! إنه لسبب يليق بالعداوة وما يستتبعها من إراقة الدماء !  
ابتعدوا بإسادة لأنى أريد أن أتحدث إليه على انفراد - والآن يا والديمار  
فيتزيرس ، أصدقنى القول - من دفع بك إلى إتيان هذا العمل الغادر ؟  
فأجاب والديمار :

— إنه ابن أريك الذي أراد بعمله هذا أن ينتقم منك لأنك عصيت أباك .

تطير الشرر من عيني ريتشارد غضباً ولكن طبيعته الخيرة قد انتصرت عليه ، فاعتصر جبينه بيده وظل لحظة يحملق في وجه البارون الذليل الذي كان يجرى على قسماته صراع بين الكبرياء والخجل وقال :

— إنك لم تطلب الحياة مني يا والديمار . . فقال فيتزيرس :

— إن من يقع بين برائن الأسود ، يعرف أن طلب الحياة عبث . .

فقال ريتشارد :

— خذها إذن دون استجداء . إن السباع لا تأكل الجيف العفنة .  
خذ مني حياتك ولكن على شريطة أن تبرح إنجلترا في غضون ثلاثة أيام وتذهب لتستر عارك في حنايا قصر ك النورماندى ؛ وألا يجرى على لسانك أبداً أن يوحنا أوف آنجو كان واعزالك على ارتكاب خيانتك العظمى ، وإذا بقيت فوق أرض إنجلترا بعد هذا الموعد الذى حددته لك ، أو نطقت بما يبلطخ شرف أسرتى ، فأقسم بالقديس جورج على أنك ميت لا محالة ، وإن يكون المذبح لك موثلاً ، سأدليك من أعلى برج فى قصر ك وأجعل منك طعاماً للغربان . أعط هذا الفارس جواداً بالوكسلى فإنى أرى أن رجالك قد أمسكوا بالخيول الشاردة ، ودعوه ينصرف بغير سوء . . فقال رجل الغابة :

— لولا يقينى بأنى أستمع إلى صوت من لا يقبل أمره جدلاً ،

لأرسلت خلف هذا الوغد المتخفى سهماً يوفى عليه عناء سفر طويل . .  
وقال الفارس الأسود :

— إنك تحمل قلباً إنجليزياً بالوكسلى ، وقد أصبت فى شعورك بطاعة

مسيئتى ، فأنا ريتشارد ملك إنجلترا ! . .

وعندما قبلت هذه الكلمات بنبرات، فيها جلال يتلام مع المقام الرفيع لريتشارد قلب الأسد، وسجيته التي لا تقل عن مقامه سموا ، ركع رجال الغابات أمامه على الفور ، وقدموا إليه في نفس الوقت ولاءهم ضارعين إليه أن يغفر لهم ذنوبهم ، فقال ريتشارد بلهجة عطوفة وهو ينظر إليهم بوجه طغت فيه طلاقة المحيا على ومضة الغضب السريعة ، وبقسمات لا يبدو عليها أى أثر للقتال المستميت الذى خاضه منذ حين :

— يا أصدقائى ! انهضوا يا أصدقائى . إن جنوحكم عن جادة الصواب سواء فى الغابة أو الميدان ، قد كفرت عنه خدماتكم المخلصة لرعاياى الذين أهدق الخطر بهم أمام أسوار قصر توركويلستون ، والغوث الذى قتم به اليوم نحو ملككم ، انهضوا يا رجالى ، وكونوا رعايا طيبين فى المستقبل ، وأنت يا لوكسلى الباسل .....

— لا تنادنى باسم لوكسلى بعد الآن يا مولاي ، بل أحب أن تعرفنى بالاسم الذى أخشى أن تكون شهرته التى طبقت الآفاق قد وصلت إلى مسامعكم الملكية — أنا ، روبين هود ، من غابة شيروود . فقال الملك :

« ملك الخارجين على القانون وأمير الرجال الطيبين ! ومن ذا الذى لم يسمع باسم وصلت شهرته إلى فلسطين ؟ ولكن كن على ثقة أيها الخارج على القانون الباسل من أننا لم نذكر بالسوء أى عمل قمت به فى أثناء غيبتنا خلال الأوقات المضطربة التى كان هذا المغيب باعنا عليها . وهنا أقحم وامبا بنفسه فى الحديث وقد أخذ من حدة نزقه المعتاد بعض الشيء . وقال :

عندما يغيب القط

تأعب الفئران .

فقال ريتشارد :

— ماذا يا وامبا ! هل أنت هنا ؟ لم أسمع صوتك منذ وقت طويل فجيل إلى أنك قد وليت الأدبار . فقال وامبا :

- « في أي وقت وجدت أن الحماقة قد تخلت عن البسالة ؟ ها هنا أمامك ترقد ضحية سبني مسجاة على الأرض - ذلك الجواد الرمادي الأصيل الذي أود من صميم قلبي لو استطاع أن يقف على أرجله مرة أخرى ، على شريطة أن يستلقي سيده في مكانه أشلاء . حقيقة لقد تراجعت قليلاً بادي ذى بدء لأنه لا طاقة لسترة مزركشة على احتمال رموس الرياح كما تقوى سترة من الزرد ، ولكنني إذا لم أقاتل بحد السيف ، فاشكرني لأنني نفخت النداء في البوق ، . فقال الملك :

- « حسناً فعلت يا واما الأمين ! إن خدمتك الجليلة هذه لن تُنسى ، :

وبينما هم في ذلك إذ بصوت يقطر مذلة وخضوعاً يقترب من الملك ويقول :  
- « إني أعترف بخطاياي ! أعترف بخطاياي ! وإن لغتي اللاتينية لن تستطيع أن تفصح إلى أكثر من هذا ، ولكنني أعترف بخيائتي القتالة ، وأطلب المغفرة قبل أن أساق إلى الإعدام ! ، .

نظر ريتشارد حوالبه فأبصر بالراهب المرح را كعا على ركبتيه ومسبحته في يده ، بينما كانت هراوته التي لم تكن كسولة في أثناء المعركة ملقاة بجانبه فوق الحشائش ، وكان مقطب الجبين ليظهر ندمه الدفين على زعمه ، وعيناه شاخصتان إلى أعلى ، وتدلّت زاويتاه فمه وكأنهما رباطا كيس للنقود كما وصفهما واما ، ومع ذلك فقد كان كلفاً أشد الكاف بادعائه الرصانة لإظهار ندمه العميق مما كان يتعارض مع ذلك المظهر الباعث على الضحك الكامن في قسّماته فقال ريتشارد :

- « ماذا يحزنك أيها القس المجنون ؟ أخائف أنت من أن تصل إلى علم أبروشيتك تلك الأمانة التي تقوم بها على خدمة السيدة العذراء والقديس دونستان ؟ هيا يا رجل ! لا تخش ذلك . إن ريتشارد ملك إنجلترا لا يذيع الأسرار التي تترى في مجلس الشراب ، . فأجاب الناسك ( وهو المعروف لدى قراء قصص روبين هود باسم «الراهب تاك» ) .



- د كلابا صاحب الجلالة الرحيم ، إني لا أخشى عصا الأسقف بل صولجانك ، وإني لأسف على أن قبضة يدي الدنسة قد امتدت إلى أذن من باركه الإله ، ، فقال ريتشارد ضاحكا :

- د هاهاها أهذا موطن الداء ؟ إني لا أنكرك أنى قد نسيت اللطمة مع أن أذنى ظلت تظن بعدها طيلة يوم بأكله ، ولكنك إذا كنت قد كلت لى صفة قوية ، فإنى أحتكم إلى الرجال الطيبين من حولنا إذالم أكن قد رددتها لك أكثر قوة ، أما إذا كنت تظن بأنى ما زلت مدينا لك بأى شئ ، وتريد أن تقف لتكيل صفة أخرى . . . . ، فقال الراهب تاك :

- د كلا ، لست أريد ذلك بحال . لقد أعيدت لى صفتى مضافا إليها الفوائد ، وأود يا صاحب الجلالة أن تدفع عنك ديونك دائما بمثل هذا السكال ، . فقال الملك :

- د لو كان من المستطاع أن أدفع عنى ديونى باللطعات ، لما شكنا دائنى من فراغ الخزانة العامة ، . فقال الراهب وقد عادت إلى وجهه مسحة النفاق المصطنع :

- د ومع ذلك فإنى لا أعرف ما يجب على أن أفعله تكفيرا عن تلك اللطمة الدنسة ، . فقال الملك :

- د لا أريد الخوض فى هذا الحديث إلى أكثر من ذلك يا أخى ، فبعد أن تلقيت الكثير من لطعات الكافرين ، فإنى أنحرف عن جادة الصواب لو شجر بينى وبين راهب فى مثل قداسة راهب كوربما نهيرست خلاف من أجل صفة ، ومع ذلك فإنى أعتقد ياراهبى الأمين أنه من الأفضل للكنيسة ولك على السواء أن أحصل على إذن بتجريدك من ثيابك الرهبانية والاحتفاظ بك بكندى فى حرسنا الخاص ، وستكون مهمتك العناية بشخصنا كما كنت تقوم من قبل على رعاية مذبح القديس دونستان ، فقال الراهب :

- « مولاي ، إني بكل خضوع أطلب منكم أن تعفني من هذا التشريف ، ولو علمتم أن رذيلة الكسل قد سيطرت علي ، لما ترددتم في التماس المعاذير لي . إن القديس دونستان - ليتولانا برحمته - يقف ساكنا في محرابه حتى ولو أهملت ابتهالاتي جريا وراء ظلي سمين أصيده - وأبقى خارج صومعتي في بعض الليالي أفعال ما يحلوا لي - وما شكا القديس دونستان من ذلك قط ، فهو سيد هادى مسالم لأنه مصنوع من خشب ، ولكن لأن أكون جنديا في خدمة الملك فهو شرف عظيم لاريب في هذا ولكني مع ذلك لو خطوت جانبا لمواساة أرملة في أحد الأركان ، أو لقتل ظلي في ركن آخر . فإن قائلا يقول : « أين ذلك القس الكاب ؟ » ، ويقول آخر : « من رأى تارك اللعين ؟ » . ويقول أحد حراس الغابة : « إن الوغد المجرد من ثوبه الكهنوتي يقتل من الأطباء أكثر مما يقتله نصف أهالي المنطقة كلها ، ويقول آخر : « إنه يقتفى أثر كل ظبية وديعة في الإقليم » . أخلص من كل هذا يا مولاي بأني أضرع إليك أن تتركني كما وجدتني ، وإذا أردت أن تغمرني بعطفك ، فإني أود أن أظل الراهب الفقير لصومعة القديس دونستان بكوني ما نهيرست الذي يهجه أن يتقبل شاكر أى عطاء طفيف ، . فقال الملك :

- « لقد فهمت ما تريد ، وسأمنح الراهب التقي إذنا بالصيد في غابات بورنكايف ، وعلى أى حال فعليك أن تضع نصب عينيك أني لا أسمع لك باصطباد أكثر من ثلاثة من ذكور الطباء في كل موسم ، ولكن إذا لم تذكر من الأسباب المعقولة ما يدعوك إلى قتل ثلاثين منها ، فلست إذن فارسا مسيحيا أو ملكا حقيقيا ، . فقال الراهب :

- « ثقوا يا أصحاب الجلالة بأني سأجد بنعمة القديس دونستان السبيل إلى المزيد من جودكم السخي ، . فقال الملك :

— « إني لا تأخذني الريبة في هذا أيها الأخ الطيب ، وبما أن لحم  
الظباء ليس إلا غذاء جافاً ، فتصدر الأوامر إلى أمين مخازن خورنا بأن  
يعطيك في كل عام دنا من النيذ ، وآخر من النيذ المالفوازي ، وثلاث  
جرار من الجمعة ، وإذا لم يعتطم هذا القدر أن يطفىء من ظمأك ، فعليك  
أن تحضر إلى البلاط وتقيم صلوات مع ساقينا . فقال الراهب :

— « ولكن القديس دونستان . . . . . ، فأتبع الملك وهو يرسم  
علامة الصليب :

— « وسنمنحك أيضاً حبرية وقيصاً كهنوتياً وغطاء للذبح — ولكن  
يجب ألا نجعل من هزلنا جدّاً . وإلا أنزل الله بنا العقاب على تفكيرنا  
في حماقاتنا أكثر من تفكيرنا في تمجيده وعبادته ، ؛ فقال القس مبتهجا :

— « سوف أجيب عن راعي الحامي . فقال الملك ريتشارد في  
شيء من الصرامة :

— « أجب عن نفسك فقط أيها الراهب ، . ولكنه أسرع فد يده  
إلى الناسك الذي تملكه الخجل فرقع على ركبتيه ولثم يده الملك الذي قال :

— « إنك لا تمجد راحتي المبسوطة ، بقدر ما وجدت قبضتي المضمومة  
فقد ركعت أمام الأولى ، ولكنك سجدت أمام الثانية . .

خشى الراهب أن يغضب منه الملك ، مرة أخرى ، بالأسـترسال  
في الحديث بطريقة مازحه ، وهو خطأ يجب الحذر من الوقوع فيه ،  
وخاصة عند التحدث إلى الملوك ، ولذا فقد انحنى بين يدي الملك بخضوع  
عميق وارتد إلى الورا ، وفي تلك اللحظة ظهر قادمان جديدان .

## الفصل الثامن والأربعون

الكل يحيون السادة ذوى المراتب الرفيعة  
الذين لا يعشون أسعد منا حالا مع أنهم أسمى مقاما ،  
على سعة ورحب بكم لتشهدوا سلوانا  
تحت كل شجرة خضراء فى جميع أرجاء الغابة البهجة .

( ماكدونالد )

كان القادمان الجديدان هما ويلفريد أوف أيفانو ومطبا فرس رئيس دير بوتولف ؛ وجيرث المرافق له راكبا جواد الفارس الحربى نفسه . جازوت دهشة أيفانو المدى عندما رأى سيده ملطخا بالدماء ، وقد تبعثرت من حوله أشلاء ستة أو سبعة من القتلى فى الممر الضيق الذى دارت فيه رحى المعركة ، ولم يكن أقل دهشة عندما رأى ريتشارد وقد أحاط به مثل هذا العدد الكبير من رجال الغابة الذين كان مظهرهم يدل على أنهم من قطاع الطريق ، فهم إذن حاشية شديدة الخطر على أى أمير ؛ وحر أول الأمر ؛ هل ينادى الملك بلقب الفارس الأسود الضليل ، أم بأى لقب آخر ؟ رأى ريتشارد فيه هذه الحيرة فقال :

— ولا تخش يا ويلفريد من أن تخاطب ريتشارد بلاننا جيديه باسمه الحقيق طالما أنك تراه فى صحبة قلوب إنجليزية صادقة مع أنهم قد انحرفوا بعض خطوات عن جادة الطريق بدافع الدم الإنجليزى الحار ، . وقال رئيس الخارجين على القانون المقدم وهو يخطو إلى الأمام :

— إن تاكيداتي يا سير ويلفريد أوف أيفانو لا تستطيع أن تضيف

جديداً إلى تأكيدات مليكننا ، ومع ذلك فدعني أقل بشيء من الفخار إن أولئك الذين قاسوا الكثير ، والذين يلتفون حول مولانا الآن ، هم أكثر الرعايا وفاء له . . وقال وبلفريد :

— « لاسبيل إلى الشك في هذا أيها الرجل الباسل طالما كنت في عدادهم ولكن خبرني عن تلك الآثار الدالة على الموت والخطر — هؤلاء الصرعى ودروع أميرى المملطخة بالدماء . فقال الملك :

— « لقد كانت الخيانة ناشبة بيننا يا أيفانوه ، ولكن شكراً لهؤلاء الرجال الشجعان فقد نالت الخيانة جزاءها على أيديهم ، ثم استرسل ريتشارد مبتسماً وقال : « ولكنى أتذكر الآن أنك خائن أيضاً ، شديد العصيان . ألم تكن أوامرنا قاطعة بأن تبقى لتستريح في صومعة القديس بوتولف حتى يلتئم جرحك ، ؟ فقال أيفانوه :

— « لقد التأم ، وهو ليس أشد خطراً من جرح سطحى لمثقب صغير ، ولكن لماذا تثير أيها الأمير النبيل الغضب في قلوب خدمك المخلصين على هذا النحو ، وتعرض حياتك للخطر بسفاراتك وحيدا ومغامراتك المندفعة ، وكأنها ليست أنفوس من حياة فارس جائل بسيط لا نفع له على الأرض إلا ما ينجزه له رمحه وسيفه ، ؟ . فقال الملك :

« وريتشارد بلانتا جينيه لا يطلب شهرة أكثر مما قد يتيحها له رمحه القتال وسيفه البتار ، وريتشارد بلانتا جينيه أكثر فخراً إذا ما خاض مغامرة بسيفه المشحوذ وحده بسانده ذراعه القوى ، مما لو قاد إلى المعركة جيشاً قوامه مائة ألف مقاتل مسلح . فقال أيفانوه :

— « ولكن مملكتك يا مولاي ! مملكتك مهددة بالانقسام والفرقة والحرب الأهلية ، ورعاياك مهددون بكل ألوان الشرور لو حرموا من ما يبيحكم بسبب بعض تلك الأخطار التي يحلو لك أن تعرض لها نفسك كل

يوم ، والتي أفلتتم منها هذه المرة بأعجوبة ، . فقال ريتشارد في ضيق :

— هو ا هو ا ملكتي ورعاياي ؟ أقول لك با سير ويلفريد إن أفضلهم يردون على حماقتي بثلثها ، ولأضرب لك مثلاً على ذلك : إن خادمي الوفي ويلفريد أوف أيفانهو لا يطيع أوامري الجازمة ، وفوق ذلك فهو يتلو على مليكة العظات لأنه لا يرسم النصيحة التي أسداها إليه . من منا أقوى دليلاً على تعنيف صاحبه ؟ ولكنني أستمبحك عذراً يا ويلفريد المخلص ، إن الوقت الذي قضيته وما يجب أن أمضيه مختفياً ، ضروري — كما أوضحت لك في دير القديس بوتولف — لإتاحة الوقت الكافي لأصدقائي ونبلائي الأوفياء لأن يلبوا شتاتهم ويجمعوا قواهم ، حتى إذا ما جهر بعودة ريتشارد ، أصبح على رأس قوة يرتجف الخصوم فرقاً من لقاءها ، وبذلك أفضى على الحيانة المزمعة حتى بدون استلال سيف واحد من غمده : ولن يكون إيستوفيل وبوهان من القوة بحيث يستطيعان التقدم صوب يورك قبل انقضاء أربع وعشرين ساعة ، ويجب أن أزود بالأنباء عن ساليسبوري من الجنوب ، وعن بوشامب في ويريويكشاير ، وعن مولتون وبراسي في الشمال ، ويجب أن يكون المستشار على ثقة من مناصرة لندن . إن الظهور الفجائي قد يعرضني لأخطار غير تلك التي استطاع رمحي وسيفي يساندهما قوس رويين الجسور ، وعصا الراهب تاك وبوق وامبا الكيس أن تنجيني منها . .

انحنى ويلفريد في خضوع وهو يعلم جيداً ألا جدوى من معارضة روح الفروسية الوثابة التي كانت كثيراً ما تدفع بسيده إلى أخطار كان يستطيع اجتنابها في غير مشقة ، أو بمعنى آخر ، ما كان له أن يفنش عنها . عند هذا بعث الفارس الشاب بزفرة والتزم الكينة ، أما ريتشارد الذي ابتهج لصمت ناصحه — ولو أنه كان في قرارة نفسه مؤمناً بصحة الاتهام الذي وجهه إليه — فقد استرسل في حديث مع رويين هود وقال :

— يا ملك الخارجين على القانون ، أليس لديك من الطعام ما تقدمه  
لملك مثلك ؟ لقد بذلت جهداً شاقاً مع هؤلاء الموتى الأوغاد ، وبالتالي فإني  
أحس بأن شهيتي إلى الطعام قد بلغت منتهاها . فقال الخارج على القانون :

— في الحقيقة - لأنني أمقت ألا أصدقك القول يا صاحب الجلالة  
إن أهم ما في خزانة مؤننا هو . . . ، ثم توقف عن الكلام وقد أخذته  
الحيرة بعض الشيء . فقال ريتشارد مازحاً :

— أظن أنه لحم ظباء . ليس من طعام أفضل منه عندما لا يكون  
هناك سواه . حقاً إذا لم يبق الملك في بلاده ليقتل صيده الخاص ، فأظن  
أنه لا يجدر به أن تأخذه ثورة عنيفة إذا ما وجدته مقتولاً بيد غير يده .  
فقال روبين :

— وإذا تفضلت يا صاحب الجلالة وجئتم مرة أخرى إلى أحد  
الاماكن التي يتجمع فيها رجال روبين هود ، فلن يعوزك لحم الظباء ،  
وستجدون كذلك جرة من الجعة ، ومن المحتمل أيضاً أن تجد كأساً من  
النيذ المعتق كي يصبح مذاق اللحم شبيهاً .

وعلى هذا سلكوا الطريق ، والخارج على القانون في المقدمة ، يتبعه  
الملك الباش الذي كان يحس بأنه أكثر سعادة في ذلك اللقاء الفجائي مع  
روبين هود ورجال غابته ، والو عادمة ثانية إلى أهته الملكية ، وترأس  
جمعاً فاخراً من الأمراء والنبلاء .

كانت حياة ريتشارد قلب الأسد لا تطيب إلا بكل صحبة أو مغامرة  
طريفة ، وكان أكثر ما يروق له أن يزيد من متعة هذه الحياة بالمخاطر التي  
يلقاها ويقهرها ، وكانت طباع هذا الملك الذي يحمل قلباً كقلب الأسد ،  
تشبه إلى حد كبير طباع فارس من فرسان الأساطير ذوى المظهر البراق

والنفع الهزيل ، فقد كانت الأجداد التي نالها بحد السيف في الحروب أعز عليه في مخيلته الفائرة من تلك التي كان نهج سبامى حكيم كفيلا بأن يتوج بها حكمه ، ولذلك فقد كان عهده في الحكم كسار شهاب سريع يمرق على صفحة السماء وهو يشع من حوله ضوءاً خاطفاً لا نفع فيه ، ثم لا يلبث أن تبتلعها الظلمات الشاملة ، وكانت أعماله في الفروسية مادة حلوى للنشدين والمغنين ، ولكنها لم تتح لوطنه مزية راسخة من تلك التي يحلو للتاريخ أن يتوقف عندها ويقدمها كمثل للأجيال القادمة ، ولكن ريتشارد كان يبدو بين رفاقه الحاضرين في أسعد حال يمكن أن يتصوره المرء ، فقد كان مرحاً باشاً محباً لمظاهر الرجولة في كل الطبقات .

وفي ظلال شجرة بلوط ضخمة وارقة، أعدت على عجل وجبة في الخلاء لملك إنجلترا ، يحيط به جمع من رجال ليسوا في نظر حكومته إلا خارجين على القانون ، ولكنهم كانوا آتذ يشكون بلاطه وحرسه . وما إن دارت الكأس بهم حتى فقد رجال اللغابة ذوو الطباع الخشنة الرهبة من حضرة الملك ، وتبادلوا الأغنيات والدعابات ، ورووا في نشوة قصص الأعمال السالفة ، وبينما كانوا يفخرون بمخالفتهم الموقفة للقوانين ، لم يمر بمخيلة أحد منهم أنهم إنما يتحدثون إلى الحارس الطبيعي لتلك القوانين ، وكان الملك المرح يضحك ويشرب ويمزح مع أفراد العصاة المرحية غير آبه بكرامته كما لم يكثر بصفة رفاقه ، أما روبين هود فقد دفعته حصافته الطبيعية الصارمة إلى الرغبة في إنهاء المشهد قبل أن يقع ما يعكر صفوه خاصة بعد أن تبين له أن مسحة من القلق تخيم على جبين أيقاظه فانتحى به جانباً وقال له :

— لقد كان مجيء مابسكنا من دواعي تشریفنا ، ومع ذلك فأراني لست راغباً في أن يهدر وقتنا تجمعاً له ظروف مملكتنا ثمينا ، فأجاب ويلفريد قائلاً :



— إنه لقول صادق حكيم ياروبين هود الباسل . ولتعلم فوق ذلك أن من يمزح مع الملوك حتى في أشد حالاتهم مرحا ، إنما يلعب مع شبل الأسد الذى يعمل بأنيابه ومخالبه كليهما إذا ما أثير . فقال الخارج على القانون :

« لقد مسست في الصميم دوافع خشيتي مما عساه يحدث ، فإن رجالى غلاظ بسليقتهم وطبيعة عملهم ، والملك عجول مندفع بقدر ما هو باش مرح ، ولست أدري متى يحدث ما يجعله يشعر بالإساءة ولا كيف يتلقاها لقد آن لنا أن نضع لهذا العبث نهاية ، فقال أيفانهور :

— « ستوكل إليك تلك المهمة إذن أيها الرجل الباسل ، فكل إشارة حاولت أن أزجها إليه لم تجرد إلا في دفعه إلى الإطالة . فقال روبين هود وهو يتمهل لحظة :

— « أوجب على أن أخاطر هكذا سريعاً بعفو مولاي ورضاه ؟ ولكن أقسم بالقديس كريستوفر على أنى سوف أنجز ذلك . ما كنت جديراً برضائه عنى لو لم أخاطر به في سبيل صالحه . هيا يا سكاتلوك ، اذهب إلى ما وراء هذا الدغل وانفخ لى في بوقك نوبة نورماندية ، دون ما توان ، وإلا عرضت حياتك للخطر . »

أطاع سكاتلوك أمر رئيسه ، وفي أقل من خمس دقائق كان صوت البوق قد أفرغ رفاق المرح ، وقال الطحان ميلر وهو ينهض واقفاً ويمسك بقوسه :

— « إنه بوق مالفوازان . »

قذف الراهب بقدرحه وأمسك بعصاه ، وتوقف وامبا في منتصف إحدى مزحه وتمنطق بسيفه ودرعه ، وحمل الباقون أسلحتهم .

كان في استطاعة الرجال الذين يحبون مثل حياتهم المضطربة تلك أن ينتقلوا سراعا من الوليمة إلى المعركة ، وأما ريتشارد فقد كان هذا التبديل حافزا على الإغراق في بهجته وطلب خوذته وأشد أجزاء دروعه ثقلا وكان قد طرحها جانباً ، وبينما كان جيرث يساعده على ارتدائها ، أنهى إلى ويلفريد بتحذيرات مشددة بالايخوض على أية صورة تلك المعركة التي كان يعتقد أنها وشيكة الوقوع ، وإلا تعرض لأشد غضبه ، وقال له :

— « لقد قاتلت من أجل مائة مرة يا ويلفريد وقد رأيت ذلك بعيني رأسي ، أما اليوم فستبقى لتشاهد فقط ، وترى كيف يقاتل ريتشارد من أجل صديقه ورجله الوفي ، .

كان روبين هود في أثناء ذلك قد بعث بنفر من أتباعه إلى جهات مختلفة وكانهم ذاهبون لاستطلاع أحوال العدو ، وعند ما رأى الجمع وقد تفرق اقترب من ريتشارد الذي كان في تلك اللحظة قد أصبح كامل التسليح وركع على إحدى ركبتيه ثم التمس الصفح من مولاه ، فقال ريتشارد في شيء من الضيق :

— « عم أصفح أيها الرجل الطيب ؟ ألم نسبح عليك عفوا شاملا عن جميع أخطائك ؟ هل دار بخلك أن وعدى ريشة تنقاذها أماماً وخلفاً فيما بيننا ! إن الوقت لم يتسع لارتكاب جرم جديد منذ ذلك الحين ، . فقال رجل الغابات :

— « نعم ، ولكن مع ذلك قد ارتكبت ذنبا إذا كانت خدعة أميري من أجل صالحه تعتبر جريرة. إن صوت البوق الذي سمعته ليس لماثوازان بل كان عن أمر مني كي أنهى تلك الوليمة حتى لا تفتت على ساعات أغلى ثمنا من أن تهدر في هذا العبث ، . ثم نهض من ركعته وضم ذراعيه إلى صدره على صورة تفيض تبجيلا أكثر عما تقطر خضوعا ، ووقف في انتظار

جواب الملك كمن يحس أنه قد أتى ذنباً ، ولكنه مع ذلك واثق في استقامة بواعثه . تصاعدت دماء الغضب إلى وجه ريتشارد ، ولكنها كانت نائرة سريعة عابرة لم تلبث روح العدالة أن قهرتها وقال :

— « أياض ملك غابة شيرود بلحم ظبائه وزجاجة نبيذه على ملك إنجلترا؟ حسنا يا روبين الجسور ، ولكنك عندما تأتي لزيارتي في لندن المرحية ، فإني آمل أن أكون مضافاً لك وأكثر منك جوداً ، ومع ذلك فانت على حق أيها الرجل الطيب ، وعلى هذا فلا متط ضهوة جوادى ونمض . إن الضجر يستبد بويلفريد في هذه الساعة . خبرني يا روبين الجسور : أليس من بين رجالك صديق لا يقنع بإسداء النصيح لك ، بل يحاول أن يعمل عليك حركاتك وتبدو عليه التعاسة عند ما تجترى على العمل بوحي من نفسك ؟ ، فأجاب روبين :

— « إن مثل هذا الشخص هو ناثي ، لينلجون ، الغائب عنا الآن في حملة على حدود اسكتلندة ، وإني أعترف لجلالتكم بأني أضيق أحياناً بنصائح المتحررة ، ولكن عندما أراود نفسي فيها ، فإني لا أستطيع البقاء على غضبي نحو من لا باعث على قلقه إلا تفانيه في خدمة سيده ، فقال ريتشارد :

— « لقد أصبت أيها الرجل الطيب ، ولو كان عندي أيثان هو في ناحية لبيدى إلى النصيح الرزين يؤكده بالثبات الحزين المرتم على جبينه ، وأنت من ناحية أخرى لإيقاعى بالحديعة فيما تخاله لصالحى ، لكنت أقل ملوك المسيحية والوثنية استمتاعاً بإرادته الحرة ، ولكن هيا أيها السادة لنذهب في مروح إلى كوننجزبره ، ولا نلقى بالالهذا الأمر إلى أكثر من ذلك . »

قال لها روبين هودمؤ كدأ بأنه قد أرسل نفرأ من رجاله في اتجاه الطريق الذى سيبسكونه حتى يستطيعوا أن يكتشفوه ، ويخطروهم عن أى كمين خفى قد يترصد بهم ، وأنه لا يرتاب في أنهم سيجدون الطرق آمنة ،

فاذا ماتلبسوا خطراً ، أندروا به قبل وقوعه بوقت كاف يستطيعون خلاله الارتداد للانضمام إلى قوة كبيرة من رماة القوس ، وقد اعتزم أن يتبعهم بنفسه على الطريق الذى سلكوه .

كانت تلك الحيلة الحكيمة اليقظة التى اتخذت لسلامة ريتشارد قد مست عواطفه ، وزال كل ماعلق بنفسه من سخط بسبب الخديعة التى أوقعه فيها رئيس الخارجين على القانون ، ومد يده مرة أخرى إلى روبين هود مؤكداً له عفوه الكامل فى الحاضر ، وحظوة فى المستقبل ، بالإضافة إلى رغبته الأكيدة فى الحد من التطبيق الغاشم لحقوق الغابة وغيرها من القوانين الجائرة التى كانت سبباً فى تمرد كثير من رجال الغابات الإنجليز . ولكن نوايا ريتشارد الطيبة تجاه الخارج على القانون الجسور قد ووريت التراب مع هذا الملك الذى مات قبل الأوان ، وانتزعت قوانين الغابة من يدى الملك يوحنا قسراً عندما خلف أخاه البطل على العرش . أما ما تبقى من سيرة روبين هود وقصة موته غيلة ، فتستطيع قراءتها فى القصص الشعبية التى طبعت طباعة خشنة وتباع بنصف بنس للقصة .

• ولو اشتريت بوزنها ذهباً لكنت رخيصة ، .

كان رأى الخارج على القانون ناقباً ، فقد وصل الملك دون أن يكدر صفوه شيئاً ، يرافقه أيفان هو وجيرث ووامبا على مرمى البصر من قصر كورنجزبره وكانت الشمس ماتزال عالقة بالآفاق .

لم يكن بإنجلترا من المراتى ماهواً كثر جمالا وفتنة من تلك البقاع المحيطة بهذه القلعة الساكسونية القديمة ، فتر الدوق الهادى الجليل ينساب خلال أرض متدرجة تختلط فيها المزارع الكثيرة بالآجام ، وعلى ربة ترتفع فوق النهر يقع هذا البناء القديم تحميه الأسوار والخنادق أقوى حماية ، وقد كان — كما يدل عليه اسمه الساكسونى — مقراً للوك إنجلترا فى تلك الحقبة

التي سبقت الغزو ، ومن المحتمل أن يكون النورمانديون قد أضافوا إليه الأسوار الخارجية ، لكن البرج الداخلى يدل على توغله في القدم ، وهو قائم على ربوة في أحد أركان الفناء الداخلى ، ويشكل دائرة كاملة قطرها حوالى خمسة وعشرين قدما ، وجداره كثيف أشد الكثافة ، تزيده قوة وتحصيناً ستدعامات خارجية تبرز من الدائرة ، وترتفع على جوانب البرج ، وكأنها قد أقيمت لتقويته أو تدعيمه . وهذه الدعامات الضخمة صماء بالقرب من القاعدة ، ولكنها مفرغة في قمتها ، وتنتهى بنوع من أبراج المراقبة تتصل بالبرج الرئيسى نفسه .

ويستوى المنظر البعيد لهذا البناء الضخم بإضافاته الفريدة عشاق التصوير ، كما يستوى داخل القصر هاوى الآثار الكاف بها الذى يعود محلقا بخياله إلى عصور سحيقة .

وهناك مرتفع بجوار القصر يعرف بأنه قبر هنجيست ، الشهير ، كما توجد في فناء الكنيسة القريبة أبنية بالغة القدم والغرابية .

وعندما اقترب قلب الأسد وحاشيته من هذا المبنى الخشن المهيب ، لم يكن - كما هو الحال في الوقت الحاضر - محاطاً بتحصينات خارجية . كان المهندس الساكسونى قد أفرغ فنه في جعل البرج الرئيسى حصيناً دون أن تكون هناك تحصينات خارجية سوى حاجز بسيط من الأسوار الخشبية .

رفعت على قمة البرج راية كبيرة سوداء خفاقة لتعلن أن مراسم دفن الملك الراحل كانت ما تزال في انتظار إتمامها على صورة رسمية وقورة ، ولم تكن تلك الراية تحمل أى رمز يدل على مولد الميت أو صفته ، فقد كانت الشعارات في ذلك الوقت بدعة مستحدثة حتى بين الفرسان النورمانديين أنفسهم ، ولم تكن معروفة على وجه الإطلاق عند الساكسونيين ، إلا أن راية أخرى قد رفعت فوق باب القصر وقد رسم عليها جواد أبيض بطريقة

بدائية يوضح جنسية المتوفى ومقامه بالرمز المعروف لهنجيست ومحاربه الساكسونيين .

كان كل ما حول القصر يفيض بالحركة والحياة لأن الأوقات التي كانت تقام في أثنائها أمثال هذه الولائم كانت أوقات ضيافة عامة وفيرة السخاء ، لا بالنسبة إلى كل من يمت للبيت بأبعد للصلات فحسب ، بل إن كل عابر طريق أيا كانت صفته كان يدعى للاشتراك فيها . وكان ثراء أثيلستين الراحل ومقامه داعيين إلى التمسك بتلك العادة إلى أقصى مدى ، ولذا فقد شوهدت جماعات عديدة تصعد الراية التي كان القصر مقاماً فوقها وتهبط منها ، وعندما دخل الملك ومرافقوه من أبواب مفتوحة على مصارعها لاحراس عندها ، كان الفناء الداخلي يعرض مشهداً غير لائق ولا كريم بسبب هذا الحشد الخفير .

في مكان ما كان الطهارة جادين في شواء ثيران ، ضخام وخراف سمان ، وفي آخر كانت أقذاح الجعة مترعة وفي تناول أيدى النادمين ليعبوا منها ما شاءوا ، وكانت جماعات من كل الطبقات ترى وهي تلتمهم الطعام وتجرع الشراب الذي ترك هكذا مباحا لهم ، فالعبدالساكسوني العارى يغرق شعوره بالجوع نصف أيام العام في يوم من النهم والإفراط في الشراب ، أما عمدة البلدة ونقيبها المدلل فكان يتناول طعامه بأناقة ، أو يتقد ببراعة مقدار الشعير المنقوع ومهارة صانع الجعة ، ويمكن مشاهدة عدد قليل من الفرسان انورماندين رفاق الحال تميزهم لحام الحليقة ، ونباهتهم القصيرة ، وأكثر من ذلك تجمعهم سويبا ، ونظرات الازدراء الشديد التي ينظرون بها إلى كل ما يحيط بهم حتى خلال ارتضائهم بتناول الطعام والشراب المقدمين في إسراف . كذلك تجمع المتسولون في عشرات مع الجنود الضياع العائدين من فلسطين ( على زعمهم على الأقل ) وكان الباعة الجائلون يعرضون بضائعهم ، وصانعو مهمات السفر يبحثون عن عمل ، والحجاج الهائمون ، والقساوسة ، والمنشدون الساكسونيون ، والمغنون من مقاطعة ويلز ، كانوا جميعاً يتمتمون

بالصلوات وهم يرسلون من قيثاراتهم وآلاتهم الموسيقية الأخرى الحانا لا إيقاع فيها ، وكان أحدهم يتغنى بأفضال أثيلستين في مرثية مديح حزينة ، وآخر في قصيدة نغار بالأنساب الساكسونية يتلو فيها أسماء أجداده النبلاء الغليظة ذات الوقع الجاف ، ولم يكن المهرجون والمشعورون أقل من أولئك عدداً ، ولا مناسبة الاجتماع سبباً في النظر إلى مهنتهم بأنها شاذة أو غير لائقة .

حقيقة كانت آراء الساكسونيين في مثل هذه الظروف تجري على سجيبتها طبيعية غير مصقولة ، فإذا كان الحزن يثير الظمأ فهناك الشراب ، وإذا كان باعثاً على الجوع فهناك الطعام ، وإذا كان جائعاً على القلب فما هي وسائل المرح - أو على الأقل وسائل التسلية - قد عرضت ، وما كان الحاضرون يزدرون أن ينعموا بوسائل الترفيه تلك . وكان الرجال بين حين وحين - وكأنما قد عادت بهم الذاكرة فجأة إلى السبب الذي اجتمعوا من أجله يرسلون أنات جماعية ، بينما كانت النسوة - اللواتي حضر عدد كبير منهن - يرفعن أصواتهن في عويل ونحيب من فرط الأسى .

كان هذا هو مشهد فناء قصر كوتنجزبره عندما دخل ريتشارد وأتباعه ، وكان رئيس الخدم لا يأبه كثيراً بجمهرة الضيوف من ذوى المراكز الدنيا - الذين كانوا دائمي الحضور والانصراف - إلا بالقدر الكافي للحفاظ على النظام ، على الرغم من ذلك فقد أثار انتباهه طاعة الملك الملهية ، ومرأى أيفانهو خاصة وأنه قد خيل إليه أن ملاح هذا الأخير مألوفة لديه ، وبالإضافة إلى ذلك فإن مجيء فارسين - لأن زيهما كان ينبيء عن ذلك - كان شيئاً نادر الوقوع في أي حفل ساكسوني ، ولم يكن من المستطاع اعتبار ذلك إلا نوعاً من التكريم للفقيد وأسرته . شق هذا الشخص الهام طريقه وسط الضيوف المحتشدة المتباينة بردائه الأسود ، ممسكاً في يده بعضاً بيضاء تدل على طبيعة عمله وهو يتقدم ريتشارد وأيفانهو إلى مدخل البرج . أما جيرث ووامبا فسرعان مالقيا في فناء القصر من يعرفانهم ، ولم يجترئا على المضي إلى أبعد من هذا حتى يطلب إليهما ذلك .

## الفصل الثاني والأربعون

وجدتهم ملتفين حول رفات مارشيللو ،  
وكانت هناك أصوات خاشعة مهيبه  
بين عويل حزين وعبرات وراثاء كئيب  
على نسق السيدات اللواتى تقدمت بهن السنون  
حين يقطعن الليالى ساهرات إلى جوار الفقيد.  
( مسرحية قديمة )

إن طريقة الدخول إلى البرج الكبير في قصر كونجزبره شديدة الغرابة  
تتم ببساطة العصور الخوالى التى أنشئ في إبانها ، فهناك درَج عميق ضيق  
يكاد أن يكون عمودياً يؤدي إلى باب منخفض في الجانب الجنوبي من  
البرج ، ويستطيع هاوى الأتار المغامر — حتى في أيامنا هذه أو على الأقل ،  
لسنوات قليلة مضت — أن يصل عن طريقه إلى درج آخر صغير محفور  
في كثافة الجدار الرئيسى للبرج ، يؤدي بدوره إلى الطابق الثالث من البناء ،  
في حين أن الطابقين الأول والثاني ليسا إلا أقبية وسجوراً مغلقة ، لا ينفذ إليها  
الهواء والضوء إلا من فتحة مربعة الشكل بالطابق الثالث ، ويبدو أنهما  
كانا متصلين به بسلم خشبي ، وكى يصل المرء إلى حجرات البرج العليا الذى  
كان في مجموعه مكوناً من أربعة طوابق ، فعليه أن يصعد درجا في داخل  
الدعامات الخارجية .

اقتيد ريتشارد الملك الطيب يتبعه أيفانهو الوفى إلى هذا المدخل العسير  
المعقد كى يصعد إلى الفرقة المستديرة التى كانت تشغل الطابق الثالث كله ،  
وأتاح مشاق الصمود الفرصة لويلفريد لأن يخفى وجهه بعباءته إذ أنهما  
كانا قد اتفقا على ألا يظهر نفسه لأبيه حتى يشير إليه الملك بذلك .



كان هناك ما يقرب من اثني عشر شخصا من ممثلي العائلات الساكسونية المرموقة في البقاع المجاورة مجتمعين في تلك الغرفة حول مائدة كبيرة من خشب البلوط ، لأن من كانوا في مقتبل العمر — على الرغم من الاستياء الشديد الذي كان يبديه من هم أكبر منهم سناً — قد حطموا — مثل ما فعل أيفانو — كثيراً من الحواجز التي باعدت طيلة نصف قرن من الزمان ما بين النورمانديين المنتصرين والساكسونيين المهزومين وكان مظهر هؤلاء الرجال الوقورين المتخاذل الحزين ، وصمتهم وأوضاعهم المكتئبة ، شديد التباين مع هو العابثين في خارج القصر ، وكانت خصلات شعرهم الأشيب ولحاهم المسترسلة الغزيرة بالإضافة إلى ستراتهم ذات الطراز القديم ، وعباءاتهم السوداء الفضفاضة ، تتلاءم كل الملاممة مع مظهر الغرفة البدائية العجيبة التي كانوا يجلسون فيها ، وكان مظهرهم في مجموعه يشبه مظهر جماعة من عبدة الإله ( وودن ) القدماء وقد بعثوا إلى الحياة كي يندبوا أجدادهم الوطنية الزائلة .

وكان سيدريك الجالس في نفس مرتبة مواطنيه يبدو — ياجماع عام — وكأنه رئيس لهم ، ونهض بوقار لدى دخول ريتشارد ( الذي لم يكن معروفاً لديه إلا باسم فارس القفل الباسل ) وحياء بطريقة الترحيب العادية قائلاً : « حياك الله ، ، وهو يرفع في نفس الوقت قدحه إلى رأسه ، أما الملك الذي لم يكن جاهلاً بعبادات رعاياه الإنجليز ، فقد رد التحية بمثلها ورشف من كأس قدمها له الساقى ، وحيأ أيفانو كذلك فشرب نخب أييه في صمت مستعيضا عن الكلمات التقليدية بإيماءة من رأسه خوفاً من أن يفضحه صوته .

وبعد إتمام هذا الإجراء التمهيدى ، نهض سيدريك ماداً يده إلى ريتشارد وقاده إلى كنيسة صغيرة شديدة البساطة ، مفرغة في داخل إحدى الدعائم الخارجية ، ولما كانت خلواً من النوافذ اللهم إلا من فتحة شديدة الضيق ، فقد كاد المكان أن يكون مظلماً إلا من مشعلين يظهر على ضوءهما

الأحر المختلط بالدخان ذلك السقف المقي ، والجدران العارية ، والمذبح  
الحجري ، والصليب المصنوع من المادة نفسها ، وأمام هذا المذبح وضع  
نعش ، وعلى كلا جانبيه ركع ثلاثة من القساوسة ينقلون حبات مسابحهم بين  
أصابعهم ، ويتمنون بصلواتهم بأقصى ما يمكن إبدأؤه من مظاهر التقوى ،  
وكي يقوم الرهبان بهذا العمل الديني ، فقد وهبت والدة الفقيد قدراً كبيراً  
من المال لدير القديس « إدموند » ، لكي يظهروا أحقيتهم لتلك الهبة فقد  
انتقلوا جميعاً إلى كونتجزبره ما عدا خادم الدير الأعرج ، وهناك ، وبينما  
سته منهم يتناوبون حراسة لا تنقطع وهم قائمون على أداء الطقوس الإلهية  
إلى جوار نعش أثيلستين ، لم يغفل الباقون الحصول على أنصبتهم من الأطعمة  
والمسرات التي كانت تملأ أرجاء القصر . وكان الرهبان الطيبون بقيامهم على  
تلك الحراسة التقية ، حريصين بصفة خاصة على ألا ينقطعوا عن ترتيباتهم  
لحظة حتى لا ينشب « زيرمبوك » الشيطان الساكسوني القديم أظافره في  
أثيلستين الراحل . ولم يكونوا أقل كفافاً بمنع أي علماني غير مقدس من لمس  
غطاء النعش الذي كان قد استعمل من قبل في جنازة القديس « إدموند »  
حتى لا يندسوه .

ولو كانت هذه الرعاية الكاملة بذات نفع للموتى ، لكان له أن يأمل  
في الحصول عليها من رهبان القديس « إدموند » ، إذ أنه بالإضافة إلى مائة  
قطعة ذهبية دفعت كفدية للروح ، فإن أم أثيلستين قد أعلنت عن عزمها  
على وقف الجزء الأكبر من أراضي الميت على تلك المؤسسة كي تقيم  
الصلوات الدائمة على روحه وروح زوجها الراحل .

سار ريتشارد وأيفانفو في أثر سيدريك الساكسوني داخل غرفة الموت  
حيث أشار دليهما بحركة مهيبه نحو نعش أثيلستين ، واحتديا حذوه في رسم  
علامة الصليب على صدرهما خاشعين ، وتمتمة صلاة قصيرة من أجل  
الراحة الأبدية للروح . وبعد أن قاما بهذا العمل الورع ، أشار إليهما

سيدريك مرة أخرى بأن يتبعاه وهو يخطو فوق الأرض الحجرية بخطى صامتة ، وبعد أن صعد بضع درجات ، فتح باب غرفة صغيرة ملاصقة للكنيسة بحرص شديد ، وكان اتساعها حوالى ثمانية أقدام طولاً فى مثلها عرضاً ، وكانت كالكنيسة نفسها مفرغة كثيفة الجدار ، ولما كانت الفتحة الضيقة التى تنيرها ناحية الغرب ، وتزداد اتساعاً كلما امتدت إلى الداخل ، فقد نفذ شعاع من الشمس الغاربة إلى داخل الغرفة المظلمة ، وظهرت على ضوءه سيدة جليلة المظهر ، وكان وجهها ما يزال محتفظاً بآثار جمال باهر ، وكانت أثواب الحداد التى ترتديها ، ووشاحها الحريري الأسود الطويل ، تبرز بياض بشرتها وجمال خصلاتها الشقراء الغزيرة التى لم يستطع تعاقب السنين أن يعيبك بغزارتها أو يخاطمها بلون الفضة ، وكان وجهها يفصح عن أعماق الحزن الممزوج بالاستسلام لقضاء الله ، وكان أمامها على المائدة صليب من العاج وبجانبه كتاب للصلاة وقد ازدانت صفحاته بالنقوش الثمينة ، ذو غلاف محلى بمشابك من ذهب وأوثق من المعدن الثمين نفسه . قال سيدريك بعد أن ظل صامتا للحظات قصار وكأنه يهدف إلى إتاحة الوقت لريتشارد وويلفريد لأن يلقى نظرة على سيدة القصر :

— يا إديك ، النبيلة : هذان غريبان فاضلان أتيا ليُشاوراك الأسي وأخص بالذكر هذا الفارس الباسل الذى قاتل بشجاعة لإنقاذ من نأسى عليه اليوم ، . فقالت السيدة :

— أشكر له بسالته مع أن جهدا قد بذل لتحويل إرادة السماء ولكن على غير طائل ، وإنى لأشكر له ولرفيقه رقيق عواطفهما التى حدثت بهما إلى الحجى . إلى هـ: الرؤية أرملة هـ أدلينج ، وأم هـ أثيلستين ، فى ساعة حزنهما الدفين ، ونحببها ، هذا وإنى أتركهما لرعايتك يا قريبي الطيب ، وإنى لعلى ثقة من انك لن تدخر وسعاً فى إكرام وقادتهما بقدر ما تقوى عليه هذه الجدران

الحزينة ، . انحنى الضيفان انحناة عميقة للآم الشكلى وانصرفا مع دليلهما  
المضيف .

قادم درج متعرج آخر إلى غرفة في نفس سعة تلك التي دخلوها من  
قبل ، وكانت في الواقع تشغل الطابق الذي يعلوهم مباشرة ، تناسب منها -  
وحتى قبل أن يولج بابها - أنغام حزينة صادرة عن أصوات رخيمة ، وعندما  
دخلوها وجدوا أنفسهم أمام حوالى عشرين سيدة وفتاة من أصل ساكسونى  
وكانت أربع منهن بقيادة رويانا يصدحن بنشيد من أجل روح من أدركته  
الوفاة لم نستطع أن نقرر منه إلا الفقرتين أو الثلاث التالية :

من التراب وإلى التراب  
تلك هى النهاية الحتمية للجميع  
لقد أسلم المستأجر الجسد الذاوى  
للفناء والهوام  
فالتعفن يطالب بنصيبه

---

لقد طارت روحك  
في متاهات مجهولة  
لتبحث عن مواطن الثبور  
حيث سيطر العذاب النارى  
الأوزار التي اقترفت على الأرض .

---

لتكن إقامتك عابرة  
في هذا المكان الكئيب

بنعمة العذراء مريم  
حتى يتحرر الأسير  
بالصلوات والصدقات  
وتسايح الحد .

وبينما كانت جماعة من النسوة يرتلن هذه المرثية بصوت خفيض حزين، كانت الإخريات ينقسمن إلى فريقين ، وكان الفريق الأول منهن دائماً بما وسعه من مهارة وذوق على وشى غطاء حريري كبير معد لكساء نعش أثليستين ، بينما كان الثاني يعمل في تنسيق عقود من الزهور من سلال موضوعة أمامهن ، وكانت تلك العقود تعد للغرض الحزين ذاته ، وكان سلوك الفتيات يتسم بالاحتشام والوقار إن لم يكن بالحزن الدفين ، ولكن همسة أو بسمة كانت تسرى بينهن في بعض الأحيان ، إلا أنها كانت تقابل بالزجر من السيدات اللواتي كن أكثر وقاراً وتمسكا بأداب السلوك ، وهناك كانت إحدى الفتيات كلفة بأن تستبين مقدار ملاءمة ثوب الحداد لها أكثر من كلفها بالحفل المحزن الذي كن يعددن له العدة .

لم يكن ظهور فارسين غريبيين - الذي دعا إلى ارتقاع بعض الرؤوس وإحداق الأبصار وتداول الهمسات - دافعا إلى التراخي في هذا الاستعداد بصورة ما ( إذا كان ولا بد لنا من أن نقرر الحقيقة ) .

أومات رويانا ذات العزة العاصمة لها من الغرور برأسها إمامة رشيقة تحية لمنقذها ، وكان وجهها جادا صارما ولكنه لم يكن مكتنبا ، ولنا أن نرتاب في أن تفكيرها في أيفان هو ومصيره الغامض كان أكثر بعثا على تجهمها من حوت قريبا .

أما سيدريك الذي لم يكن - كما رأينا - دقيق الملاحظة في مثل هذه الظروف

فقد خيل إليه أن حزن رييته قد فاق حزن باقي الفتيات ، فرأى لزاما عليه أن يفصح عن ذلك بأن همس قائلا : ولقد كانت على وعد الزواج من أثيلستين النبيل ، ولم يكن هذا التصريح كفيلا بأن يدقع بويلفريد إلى أن يشارك مشاركة جادة في الحزن على أثيلستين .

وبعد أن طاف سيدريك بالضيعة على الحجرات المختلفة التي كانت لإجراءات دفن أثيلستين بشئ صورها تعد منها ، قادهما إلى غرفة صغيرة مخصصة كما أخبرهما - لراحة الضيوف من ذوى المسكنة الذين قد تجعلهم عدم قرابتهم للراحل غير راغبين في الانضمام إلى زمرة أولئك الذين يسهم الحدث المشنوم مساقويا ، وبعد أن قام بتوفير جميع سبل الراحة لهما وأوشك على الانصراف ، أمسك الفارس الأسود بيده وقال :

— ه أرجو أن أذكرك أيها المالك النبيل بأننا عندما افرقنا آخر مرة وعدت بأن تجيب لي مطابا نظير الجميل الذي كان لي حظ إسدائه إليك . . . فقال سيدريك :

— ه إنه مجاب قبل أن تفوه به أيها الفارس النبيل ، ومع ذلك فني هذه المناسبة الحزينة . . . ، فقال الملك :

— ه لقد فكرت في هذا أيضاً ، ولكن وقتي قصير ، وأرى أنه يجدر بنا عندما نغلق القبر على أثيلستين النبيل ، أن نودعه بعض المعتقدات الضارة والآراء العجولة . . . ، فقال سيدريك بدوره مقاطعا الملك وقد استشاط غضبا :

ه آمل أيها السيد فارس القفل أن يكون سؤالك متعلقا بشخصك وحدك لا بأحد سواك ، إذ لا يليق بغريب أن يقحم نفسه في خصائص أسرتي وشرفها . . . فقال الملك في رقة :

— « وأنا من ناحيتي لست أبغى أن أزج بنفسى إلا بالقدر الذى تأذن لى به . إنك لم تعرفنى حتى الآن إلا باسم الفارس الأسود صاحب شعار القفل ، ولكن عليك أن تعى الآن أنى ريتشارد بلانتاجنيه ، . فدهش سيدريك أشد الدهشة ثم تراجع إلى الوراء وقال :

— « ريتشارد أوف أنجوا ،

— « كلا ياسيدريك النبيل - بل ريتشارد ملك إنجلترا الذى يؤمن بأن أعذب آماله وأقصى أمانه أن يرى أبناءها فى وئام - ثم ماذا بعد أيها المالك المبجل ؟ ألا تركع أمام أميرك ؟ ، فأجاب سيدريك :

— « إن ركبتى لم تنثن أبدا أمام نورماندى ، . فقال الملك :

— « إذن فلتحتفظ. بتحيتك حتى أدلل على حق فيها بحمايتى للنورمانديين والإنجليز على السواء ، . فقال سيدريك :

— « لقد كنت كثير الإشادة بشجاعتك ومكانتك أيها الأمير ، كما أنى لا أجمل مطالبتك بحقك فى العرش لأنك تنحدر عن ، ماتيلدا ، ابنة أخ « إدجار آيلنج ، وابنة « مالكولم أوف اسكتلندة ، ولكن ماتيلدا لم تكن وريثة للعرش رغم دماها الملكية الساكسونية ، . فقال ريتشارد بهدوء :

— « لن أجادل فى أمر لقبى معك أيها السيد النبيل ، ولكنى أطلب أن تجيل بطرفك فيما حو اليك ، وترى أين تستطيع أن تجد شخصا آخر لتضعه فى الكفة المناظرة للقبى هذا ، . فقال سيدريك :

— « وهل أتيت إلى هنا أيها الأمير كي تنق على مسمى هذا القول ؟ كي تعيرنى بانهار جنسى قبل أن يغلّق القبر على آخر فروع الدوحة الملكية الساكسونية؟ ، واكفر وجهه وهو يتكلم ثم أتبع قائلا : « ذلك عمل يدل على الجراءة والاندفاع ، . فقال الملك :

- « أقسم بالسماء على أنى لأهذف إلى ذلك ، ولكنى فعلت هذا بدافع من الثقة الصريحة التى قد يضعها امرؤ مقدام فى امرى آخر دون أن يرقى ظل من ضيق أو خطر ، .

- « لقد أصبت ياسيدى الملك ، فأنا أعترف بأنك ملك ، وستظل ملكا على الرغم من مناهضتى الضعيفة ، ولن أجتري على سلوك البيل الوحيد للحيلولة دون ذلك ، مع أنك قد وضعت فى متناول يدى أشد وسائل الإغراء .  
فقال الملك :

- « والآن فلنعد إلى مطلبى الذى لم ينقص عدم اعترافك بسيادتى المشروعة من ثقتى - مثقال ذرة - فى أنك مجيبى إليه . إنى أطلب إليك كرجل يرى أن كلمته وثاق - وإلا اعتبرت غادراً ندلاً دينثا - أن تغضو عن الفارس الطيب ويلفريد أو ف أيفانهو ، وتشمله بمحبتك الأبوية ، ويجب أن تعترف بأن لى من وراء هذه المصالحة نفعاً إلا وهى سعادة صديق ، وإنهاء النزاع بين رعاياى الأوفياء ، . فقال سيدريك مشيراً إلى ولده :

- « وهذا هو ويلفريد ؟ ، فقال أيفانهو وهو يسجد عند قدمى سيدريك :

- « أبى اعف عنى يا أبى ، . فقال سيدريك وهو يرفعه من على الأرض :

- « لقد ساحتك يا ولدى . إن ابن هيرورد ، يعرف كيف يوثق بوعده حتى ولو أعطاه لنورماندى . ولكن دعنى أراك مرتدياً زى أجدادك "إنجليز وأرديتهم - لا قبعات زاهية ولا عباءات قصيرة ولا ريشات" فى دارى الموقرة . إن من يرغب فى أن يكون ابن سيدريك ، يظهر بمظهر الإنجليزى العريق . ثم استرسل عابساً ، إنك على وشك



أن تتكلم ، وإن أتكهن بما تريد قوله . يجب على اللبدي رويتنا أن تتم فترة حداد قدرها سنتان على من كان على وعد الزواج بها . سيراً منا جميع أجدادنا الساكسونيين لو عرضنا لارتباط جديد قبل أن يغلّق قبر ذلك الذى كانت ستصبح حليّة له ، والذى كان أجدد الخلق بزواجها مولداً وعراقة . إن طيف أئيلستين زعيم بأن يمزق أكفانه الدامية ، ويقف أمامنا هنا ليحول دون هذا التدنيس لذكراه .

بدأت كلمات سيدريك وكأنها كانت نذيراً بظهور أحد الأطياف ، إذ أنه لم يكذب ينطق بها حتى انفرج الباب عن أئيلستين يجرأ كفانه ، تمتع الوجه حائر النظرات ، وهو أشبه ما يكون بمن بعث من الموتى . كان هذا المرأى ذا أثر بالغ على الحاضرين ، فقد تراجع سيدريك بقدر ما سمح له جدار الغرفة ، واستند إليه لأنه لم يقو على الوقوف ، ونظر إلى طيف صاحبه بعينين عالقتين وفم فاغر ، أما أيفانهو فقد رسم شارة الصليب على صدره وتلا الصلوات بالساكسونية واللاتينية والنورماندية الفرنسية حسب ورودها في خاطره ، بينما كان ريتشارد يقول على نسق واحد متتابع « باركنا يارب - الموت لى ، .

وفي أثناء ذلك سمعت في الطابق الأسفل جلبة مخيفة ، وكان البعض يصرخون قائلين « اقبضوا على الرهبان الغادرين ، والبعض الآخر ينادى ، ألقوا بهم في غياهب السجن ، ، وغير أولئك وهؤلاء يهتفون « اؤذفوا بهم من فوق اشد الأسوار ارتفاعاً ، . وقال سيدريك مخاطباً ما اعتقد أنه طيف صديقه الراحل :

— « أستحلفك بالله أن تتكلم إن كنت إنسيا ، وأن تنبئني عن السبب الذى حدا بك إلى أن تعود الآن لرؤيانا إن كنت روحاً راحلة ، وعمّا إذا كنت أستطيع أن أبعث الراحة في روحك . أفصح أيها النبيل أئيلستين عمّا إذا كنت حياً أم ميتاً . نتحدث إلى سيدريك ، فقال الطيف ويبدأ :

— « سأنبئكم عن كل شيء عندما أسترده أنا نفسي ذلك إذا ما كانت لديكم فسخة من الوقت . أتقول حيا ؟ نعم إنني حتى بقدر ما يقوى امرؤ على العيش على الخبز والماء طيلة ثلاثة أيام مرت وكأنها ثلاثة دهور — نعم الخبز والماء يا أبي سيدريك ! أقسم بالسما والجميع من فيها من القديسين على أنه لم يمر بحلقومي طعام أفضل من الخبز لمدة ثلاثة أيام طوال ، وإذا كنت هنا الآن بينكم أروى لكم قصتي فرد ذلك إلى العناية الإلهية ، . فقال الفارس الأسود :

— « ولكن رأيتك بعيني رأسي يا أبلستين النبيل وقد سقطت أرضاً من طعنة كالهالك فارس المعبد الشرس عندما أوشك الهجوم على توركويلستون على الانتهاء ، وشجت رأسك حتى أسنانك كما خيل إلى وكما روى وامبا ، . فقال أبلستين :

— « لقد أخطأت الظن بإسدي الفارس كما كذب وامبا . إن أساني بحالة جيدة ، وسيكشف عن ذلك طعام عشائ الذي سأتناوله عما قليل ، ولا فضل في ذلك لفارس المعبد الذي دار سيفه في يده فضررتني بصفحته بدلا من نصله ، وقد استطاع مقبض المطرقة الطيبة التي لاقيت الطعنة بها أن تغير من اتجاهه ، ولو كنت مرتديا خوذة الفولاذية لما عبات بذلك في كثير أو قليل ، ولرددت له ضربة كفيلة بأن تعوق تراجعته ، ولكن الذي حدث ، هو أنني سقطت فاقتدا لوعي حقا ولكن بغير جراح ، وسقطت فوق وقتل آخرون من كلا الفريقين ، وعندما ثبت إلى رشدي ، ألفت نفسي داخل نعش ( نعش مفتوح لحسن حظي ) موضوع أمام مذبح القديس « إدموند ، . سعلت سعالا متواليا ، وبعثت الأزيز متعاقبا ، ثم فتحت عيني وكنت على وشك أن أنهض لولا أن خادم الدير ورئيس الرهبان أقبلوا نحوي مسرعين لدى سماعهما لصوتي ، وقد استبد بهما الرعب وأدهشهما ، بل وساءهما أن يجدا ذلك الرجل الذي كانا سيصبحان من بين ورثته

ما يزال على قيد الحياة . طلبت منهما نبيذاً فأعطيني منه النذر اليسير ، ولكن لا بد وأن مخدرا قوى الأثر قد دس فيه لأنى عدت إلى النوم أكثر عمقا عن ذى قبل ، وظللت غارقا فيه لساعات طوال ، ووجدت ذراعى فى اللفائف وقدمى فى قيود وثيقة ، حتى إنى أحس بألم فى مفاصلى إذا ما طافت بخيالى تلك الذكرى .

كان للمكان حالكة الظلمة ، وأغلب الظن عندى أن تلك الغرفة كانت سجن ديرم المشوم ، وأنها كانت تستعمل أيضاً كمكان لدفن الموتى ، ينبىء عن ذلك تلك الرائحة الكريهة الخائفة الرطبة المنبعثة فى أرجائها . كنت نهياً لأفكار غريبة لما عساه يحدث لى عندما سمعت صرير باب سجنى ودخل الراهبان اللعينان ، وحلولا أن يدخلوا فى روعى أننى فى الحياة الأخرى ، وأننى فى المكان المخصص لتطهير النفس من أدرانها ، ولكنى عرفت صوت رئيس الدير الأجنس اللاهث ، يا للقديس جيزيمى اكم كانت لهجته مغايرة لتلك التى اعتاد أن يطلب بها منى شريحة من الشواء ! لقد كان ذلك الكلب يتناول الطعام معى منذ عيد الميلاد إلى ليلة عيد العماد ( الفطاس ) . . .  
فقال الملك :

- رفقاً بنفسك أيها النبيل أثيلستين . استرجع أنفاسك وحدث عن قصبتك على مهل . أصدقكم القول إنها لقصة جديدة بالإصغاء إليها وكأنها إحدى القصص الخيالية . فقال أثيلستين :

- نعم ، ولكنى أقسم براهب بروميولم ، على أنه ليس فى الأمر خيال ، رغيى من الشعير وأبريق ماء هما كل ما أعطيايه ذلكما الخائنان الوضيعان ، اللذان أغناهما أبى وأنا من بعده عندما لم تكن مواردنا أفضل من لحم الخنزير ، ومكاييل الحنطة التى كانوا يبتزونها من العبيد والفلاحين الفقراء نظير صلواتهم . إنهم عصبة من الأفاعى الخبيثة الناكرة

للجميل ، تقدم خبز الشعير والماء القراح لمن كان مثل حامياً لهم سوف  
أطردهم من جحرم حتى ولو كان في ذلك خروج منى على الكنيسة ، فقال  
سيدريك وهو يمسك بيد صديقه :

— ولكنى استخافك يا أثيلستين النبيل بسيدتنا العذراء أن تبتنا  
عن الوسيلة التي نجوت بها من هذا الخطر المداهم . هل استيقظت ضمائرهم  
ورقت قلوبهم ؟ ، فأجاب أثيلستين :

— هل رقت قلوبهم ؟ هل تصير أشعة الشمس الصخور الصلدة ؟  
لقد كان مقضياً على أن أبقى لو لم يحدث بعض المرح في الدير تبينت فيما  
بعد أنه موكبهم إلى هنا كي يتناولوا الطعام في وليمة جنازتي وهم يعلمون  
كيف وأين دفنت حياً ، ولذا فقد خرجت تلك الزنايير من عثها ، وسمعتهم  
يرددون أناشيدهم الجنائزية ، وما كنت أحسب أن أولئك الذين أجاعوا  
جسدى ينشدونها من أجل روحى ، ومع ذلك فقد ذهبوا ، وانتظرت الطعام  
طويلاً . ولم أعجب حين وجدت أن خادم الدير المصاب بداء النقرس كان  
كفياً بتناول طعامه ولم يفكر في طعامى ، وأخيراً أقبل بحوى بخطوة  
مترنحة ورائحة الخمر القوية والتواهل تفوح من فيه ، وكان الطعام الشهى الذى  
ازدرده قد خفف من قسوة قلبه فترك لى قطعة من الفطائر وزجاجة من  
من النبيذ بدلا من الخبز والماء فأكلت وشربت واستعدت قواى ، وكان  
لسعدى أن احتسى خادم الدير خمرأ حتى ثمل ، وأصبح غير قادر على  
أداء واجبه على الوجه الكامل كسجان ، إذ أنه أغلق الباب ولكنه لم  
يحكم إغلاقه ، وأثار الضوء والطعام والخمر غريزة الاختراع المتأصلة فى  
طبيعتى . كانت الحلقة التي ثبتت فيها أغلالى صدئة أكثر مما كنت  
أعتقد ، أو مما كان رئيس الدير الشرير يعتقد . حتى الحديد لم يقو على  
البقاء دون أن يتآكل من رطوبة هذا القبو الجهنمى . . فقال رينشارد :

« حنانيك يا أيلستين النبيل ، وتناول شيئاً من الطعام قبل أن ترسل في سرد هذه القصة الراهية ، . فصاح أيلستين :

« أتناول ! لقد تناولته اليوم خمس مرات ، ومع ذلك فإن قطعة من لحم الخنزير الشهية المذاق لن تلحق بي ضرراً ، هذا وأرجوك يا سيدي الطيب أن تشاركني في احتساء قدح من النبيذ .»

شرب الضيوف - الذين كانت أفواههم ما تزال فاعرة من فرط الدهشة - نخب مضيفهم الذي بعث حياً ، والذي استرسل في سرد قصته ، وكان عدد مستمعيه قد تزايد آتتذ على ما كان عليه عند بدئها ، إذ أن « إديث ، - بعث أن أصدرت بعض الأوامر الضرورية لتنفيذها في داخل القصر - قد تبعت الميت الحي إلى غرفة الضيوف ومعها من الرجال والنساء كل من استطاع أن يقحم بنفسه في الغرفة الصغيرة ، بينما كان غيرهم ممن تراحموا على الدرج يتلقون صورة محرقة عن القصة ، وينقلونها إلى من هم دونهم على الدرج أشد تحريفاً ، وكان أولئك ينهونها بدورهم إلى العامة في خارج القصر على نحو لا يتفق مع الواقع بحال ، ومع ذلك فقد استرسل أيلستين في قصة هربه قائلاً :

« ولما رأيت أني تخلصت من حلقة القيد ، تحاملت على نفسي صاعداً الدرج بقدر ما يقوى على ذلك رجل مثقل بالأصفاذ مضنى من الجوع ، وبعد تخطيط كثير ، اهتديت - على صوت أغنية مرحة - إلى الغرفة التي كان خادم الدير المبجل يعبد الشيطان فيها بصحبة راهب ضخم كثر الحاجبين عريض المنكبين ، من ذوى الرداء وغطاء الرأس الرماديين ، وكان يبدو اصفاً أكثر منه رجل دين ، فدخلت عليهما وكان مظهر أ كفاني وصليل أغلالى قد جعلان أقرب إلى سكان العالم الآخر منى إلى العالم الدنيوى . وقف الاثنان في ذهول ، ولكنى عندما لطمت خادم الدير

بقبضة يدي وألقيته أرضاً ، سدده الرجل الآخر — رفيقه في الشراب —  
نحوى ضربة من عصا ضخمة ، فقال ريتشارد وهو ينظر إلى أيفانهو :  
— « إنه ولا شك الراهب ، تارك ، ، وأراهن على ذلك بفدية نبيل ،  
فقال أيلستين :

— « ليكن الشيطان إذا شاء ، ولكنه لحسن طالعي أنه أخطأ التصويب ،  
وعندما اندفعت نحوه للالتحام به ، استدار على عقبيه وولى الأدبار ،  
وعندما لم أبطئه في إطلاق قدمي من عقاليها بمفتاح القفل الذي كان موثقاً  
مع غيره من المفاتيح بحزام يلتف حول خصر خادم الدير ، وراودتني فسي  
أن أحطم رأس الوغد ، ولكن شعوراً بالعرفان بالجميل — من أجل قطعة  
الفطائر وزجاجة النبيذ اللتين خفف بهما الوغد من مرارة أسرى — قد  
استولى على قلبي فأثناني عن عزمي ، ولذلك فبعد أن ركته بقوة بضع مرات ،  
تركته على الأرض ، ووضعت في كيس بعض اللحم المطبوخ ووعاء جلدي  
به خمر بما كان الأخوان المبجلان ينعمان به ، ثم قصدت إلى حظيرة الخيول  
فوجدت جوادى في مربوط خاص ، ولا شك عندي في أنه قد وضع جانباً  
ليكون تحت إمرة رئيس الدير نفسه ، ثم حضرت إلى هنا بكل ما في وسع  
الدابة من إمراع . وكان كل من يلقاني من رجل أو طفل يفر من وجهي  
حيثما كنت ، والجميع يظنون أني أحد الأشباح خاصة وأنى كنت قد  
جذبت غطاء الجذث على وجهي حتى لا يعرفني أحد ، وما كنت لأستطيع  
الدخول إلى قصرى لو لم يحسبني الحراس مساعداً لأحد المشعوذين الذين  
يدخلون البهجة على قلوب الحاضرين الذين احتشدوا في فناء القصر للاحتفال  
بمنازة سيدم ، وقد خيل إلى الساقى أننى مرتد ملابس تنكرية للاشتراك  
في إحدى الألعاب المأجزة المازلة ، ولذا فقد أذن لي بالدخول ، ولم أكشف  
عن حقيقة أمرى إلا لأمي ، ثم تناولت بعض الطعام على عجل قبل مجيئى  
للبحث عنك أيها الصديق النبيل ، . فقال سيدريك :

- ، وهانت قد وجدتني على أهبة الاستعداد للعودة إلى مشروعاتنا الباسلة من أجل الشرف والحرية . أقول لك إنه لن يشرق صباح أفضل من صباح الغد لخلاص الشعب الساكنوني النبيل ، . فقال أثيلستين :

- ، لا تحدثني عن خلاص كائن ما . ألم يكفى أنى استطعت أن أنجو بنفسى ا هذا وإنى مصر على أن أنزل العقاب بذلك الراهب الشرير . سأدليه من أعلى مكان في قصر كوندجزبره هذا وهو في ثوبه وغطاء رأسه ، وإذا كان الدرج أضيق من أن يتسع لهيكله البدين فسأجعلهم يرفعونه من الخارج ، . فقالت ، إديث ، :

- ، ولكنى أحب أن تفكر يا بنى في وظيفته المقدسة ، . فقال أثيلستين :

- ، وأحب أن تفكرى في صومى ثلاثة أيام كاملة . سأحصل على دماهم جميعا . لقد أحرق فرونديبيف حيا من أجل أمر أقل جلالا . لقد كان يقدم طعاما طيبا لأسراه ولكنه كان يضع كثيراً من الثوم في طبق حسائه الأخير ، أما أولئك العبيد المنافقون الجاحدون الذين كثيراً ما كانوا يجلسون بلا دعوة إلى مائدتى كي يلقوا على مسمى أفانين النفاق ، والذين لم يعطوني حساء ولا ثوما ، فإنهم سيموتون بحق روح هنجيست ا ، فقال سيدريك :

- ، ولكن البابا يا سيدى النبيل . . . ، فأجاب أثيلستين :

- ، ولكن الشيطان يا صديق النبيل . إنهم سيموتون وكفى ، وسيمضى الكون في فلكه بدونهم حتى ولو كانوا أفضل الرهبان على وجه الأرض ، . فقال سيدريك :

- ، يا للعار ! انس يا أثيلستين النبيل هذه الهنات الهينات ، انسها في خضم طريق المجد المتبسط أمامك ، وقل لهذا الأمير النورماندى ريتشارد

أوث أنجو إنه على الرغم من أن قلب الأسد يقبع في أعطافه ، فإنه لن يرتقى عرش الفريد دون قتال لأن هناك سبيلا ذكر لذلك الملك المقدس ما يزال باقياً ليصارعه على ارتقائه . . فقال أثيلستين :

- ماذا ! أهذا هو الملك النبيل ريتشارد ؟ ، فقال سيدريك :

- إنه ريتشارد بلانتا جينيه بلحمه ودمه ، ومع ذلك فإنك لست في حاجة إلى أن أذكرك بأنه مادام قد جاء إلى هنا كضيف باختياره وإرادته الحرة ، فلا يمكن إلحاق الأذى به أو الاحتفاظ به سجيناً . إنك تعرف جيداً واجبك حياله كضيف . . فقال أثيلستين :

- نعم ، سأفعل ذلك بحق إيماني مدفوعاً بواجبي كأحد رعاياه . إنني هنا أعبر له عن ولائى بقلبي ويدي . . فقالت إديث :

- ، فكر يا وادى فى حقوقك الملكية . . وقال سيدريك :

- ، فكر فى حرية إنجلترا أيها الأمير المتراخى . . فقال أثيلستين :

- ، أمى وصديقى - كفا عن لومكما . إن الخبز والماء والسجن وسائل فعالة لأحد من الطموح ، وهأنذا أنهض من الرمس أكثر حكمة وحصافة مما نزلت إليه . كان ذلك المخادع ، وانفرام ، رئيس الدير ينفث نصف تلك الحماقات الزائلة فى أذنى ، وفى مكنتكم الآن أن تقرروا ما إذا كان ناصحاً يوثق بنصحه . منذ أن أثبرت تلك الخطط وأنا نهب للأسفار العاجلة ، وعسر الهضم ، والضربات والسحجات ، والسجن والجوع ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه من المحال أن تنتهى إلا بإراقة دماء آلاف من القوم المسلمين . أقول لكما إنى سأكون ملكاً على ممتلكاتى الخاصة لا على أى شىء سواها ، وسيكون شئى رئيس الدير أول عمل من أعمالى . . فقال سيدريك :



— « وأمل ألا يكون في تقريرك التخلي عن روينا . فقال أثيلستين :

— « كن كيساً يا أبى سيدريك . إن قلب الليدى روينا لا يخفق بالحلب نحوى . إنها أكثر ولعا بالأصبع الصغير لقفاز قربي ويلفريد من هيكلى بكامله ، وهامى ذى واقفة لتقر ذلك . كلا ، لا داعى لأن تكسو الحمره وجنتيك خجلا يا قريبتى ، فليس لإيثارفارس مقدم على مالك شجاع ما يشين ، ولا تضحكى أيضاً يا روينا فيعلم الله أنه ليس فى الأكفان والوجه الناحل ما يبعث على الضحك . كلا ، وإذا كان لا بد لك وأن تضحكى فسوف أجد لك مزحة أفضل . أعطنى يدك — أو بمعنى أصح — أعيرنى زياها فأنا لا أطلبها إلا صداقة — هيا يا ابن العم ويلفريد أوف أيفانهو إننى أتنازل وأترجع ... ماذا بحق القديس دونستان ؟ لقد اختفى ابن عمنا ويلفريد مع أنى أبصرت به واقفا هنا منذ قليل إلا إذا كانت عينى قد أعشيتنا من أثر الصيام . »

وهنا دار الجميع بأعينهم فيما حولهم يبحثون عن أيفانهو ولكنه كان قد اختفى ، وواضح أخيراً أن يهودياً جاء يجد فى البحث عنه ، وأنه — بعد حديث قصير بينهما — نادى على جيرث وارتنى دروعه وغادر القصر . وقال أثيلستين لروينا :

— « يا ابنة العم الحسناء ، لو لم يطف بخيالى أن الباعث على اختفاء أيفانهو ليس إلا لأمر هام ملح لعدت أنا نفسى . . . »

ولكنه لم يكذب يترك يدها بعد أن استبان اختفاء أيفانهو لأول وهلة حتى كانت روينا التى وجدت أنها فى موقف شديد الحرج ، قد انتهزت أول فرصة للهرب من الغرفة . فقال أثيلستين :

— « لامرية فى أن النساء هن أقل الكائنات الحية جدارة بالثقة إذا استثنينا الرهبان ورؤساء الأديرة . كنت أتوقع منها أن تقدم لى الشكر على

الأقل ، ذلك إن لم تكافئني يقبلة . إن ثياب الدفن اللعينة هذه فيها سحر شيطاني لأن الكل يفرون مني . إليك أستدير أيها الملك النبيل ريتشارد مظهر آيات الولاء كأحد رعاياك المخلصين . . . .

ولكن الملك ريتشارد كان قد اختفى أيضاً ولم يدر أحد إلى أين ذهب وأخيراً استبان لهم أنه قد أسرع إلى فناء القصر ، ودعا إليه اليهودي الذي كان يتحدث إلى أيفانهور ، وبعد لحظة همس ، طلب جواده بلهجة عنيفة وألقى بنفسه فوق صهوته ، وطلب إلى اليهودي أن يمتطي جواداً آخر ، ورحل بسرعة كفيلة — كما قال وامبا — بأن تجعل عنق اليهودي لايساوى بنسا واحداً ثمناً له ، فقال أئيلستين :

— بحق إيماني إنه مما لا ريب فيه أن زيريندوك قد تغمص كل من بقصرى في أثناء مغيبى . أعود متمسكاً بلا بأ كفاً كشيء لفضله القبر ، ويختفى كل من أتحدث إليه حالماً يسمع صوتي ولكن لاجدوى من الحديث عن ذلك ، هيا يا أصدقائي ، ليتبعني كل من تبقى منكم إلى قاعة الرلاثم حتى لا يختفى منا آخرون . إنها كما أرجو ما تزال محتفظة بأثائها اللائق بحفل جنازى لنبيل ساكسونى عريق ، وإذا توأنا إلى أكثر من ذلك ، فمن يدري ، ربما طار الشيطان حاملاً معه عشاءنا .

## الفصل الثالث والاربعون

إن خطايا موبراي، جائمة على صدره  
بثقل يتحطم معه ظهر جواده المزبد المرغى  
وتلقى بالراكب طريحا على أرض الساحة  
وهو مستسلم ذليل .

(ريتشارد الثاني)

الآن يعود بنا المشهد إلى ما يدور خارج قصر أو مقر تمبلستو وقد أشرف  
الوقت على الساعة التي ينطلق فيها السهم الدامي ويقرر حياة ريبكا أو موتها  
وكان المرأى يزخر بالحركة والحياة وكأن المنطقة المتاخمة كلها قد دفعت  
بأهلها إلى حفل قروي ساهر أو عيد ريفي ، ولم تكن الشهوة الملحة إلى رؤية  
الدمع والموت قاصرة على تلك العصور المظلمة حين كان الناس قد اعتادوا  
على أن يروا من ثنابا ضروب الصراع المختلفة للقتال الفردي والجماعي مشهد  
الشجعان وهم يتساقطون بأيدي بعضهم البعض تقطر الدماء من جراحهم ،  
بل وفي أيامنا لهذه التي أصبح الناس فيها أعمق إدراكا لقواعد الأخلاق فإن  
منظر تنفيذ حكم بالإعدام أو مباراة عنيفة أو شجار أو اجتماع لبعض دعاة  
الإصلاح المتطرفين قد أصبح يستهوي حسودا هائلة من النظارة الذين  
يعرضون أنفسهم لشتى الاحتمالات ولا يحفلون بشئ إلا برؤية ما ينتهي إليه  
الصراع ، وما إذا كان أبطال ذلك النهار - كما يقال في لغة الفروسية - صلابا  
كالصخر أم واهنين كالهشيم .

لذا فقد كانت عيون جمع خفير من القوم عاقمة بباب مقر تمبلستو  
لمشاهدة الموكب ، بينما كانت جموع أوفر هدداً أحاطت بساحة النزال الملاحقة

هذا المقبر ، والتي كانت معدة فوق قطعة أرض مستوية مجاورة له وممهدة بعناية لإقامة التدريب على الرياضات العسكرية والفروسية ، وكانت تحتل مقدمة مرتفع سهل الانحدار ، ومحاطة بسور أحكم بناؤه . ولما كان فرسان المعبد شديدي الميل إلى دعوة النظارة لمشاهدة مهارتهم في أعمال الفروسية ، فقد اكتظت الساحة بعدد وفير من المنصات الظليلة والمقاعد الخشبية كي يجلسوا عليها .

وفي الحالة التي نحن بصددھا ، أعد للسيد الأعظم عرش في الطرف الشرق من الساحة تحيط به مقاعد الصدارة لرؤساء الطائفة وفرسانها . وفوق هذه المقاعد كان العلم المقدس يخفق وهو المسمى « بيوسانت » ، وكان هذا الاسم هو النداء الذي يهتف به فرسان المعبد في أثناء المعارك ، وكانت هناك في المقابل من الساحة كومة من الأحطاب المحزومة وقد صفت حول عامود مثبت في فجوة عميقة في الأرض . تتيج فراغا للضحية التي أعدت لإحراقها كي تدخل في نطاق الدائرة المشنومة ، ثم توثق إلى العامود بالأصفاد الحديدية التي كانت تتدلى منه معدة لهذا التكبيل ، وإلى جوار تلك الأدوات الرهيبة ، وقف أربعة من العبيد الزنوج ذوي بشرة سوداء ، وملاح صارمة لم تكن مألوفة في إنجلترا في تلك الحقبة من الزمان ، أفزعت الجماهير التي كانت تنظر إليهم على أنهم شياطين على وشك القيام ببعض أعمالهم الشريرة ، وما كان هؤلاء الرجال يأتون بحركة ما اللهم إلا رفع الوقود المعد للحريق ، وإعادة تنظيمه تحت إمرة واحد منهم يبدو وكأنه كان رئيسا لهم وما كانوا يوجهون أبصارهم إلى أحد ، بل ولم يكفوا بوجود أحد ولا بأى شيء آخر إلا بالعمل الرهيب الذي أوكل إليهم القيام به . وعندما كانوا يتحدثون إلى بعضهم البعض ، ويرزون شفاعتهم الغلاظ ، ويظهرون نواجزهم البيضاء وكأنهم بذلك يضحكون سخرية من التفكير في المساة المرتقبة ، لم تستطع الجماهير المذعورة إلا أن تعتقد

جانهم الارواح الشيطانية التي كانت الساحرة تتصل بها ، والتي وقفت على أهبة الاستعداد لمساندتها على احتمال عقابها الرهيب عندما أوشكت نهايتها على الاقتراب . أخذ الناس يتهامون ويتبادلون ذكراً جميع الأعمال التي قام بها الشيطان خلال تلك الفترة العسة ، ولا ريب في أنهم لم يخفوا في أن يحملوه أكثر مما يستحق ، وقال أحد الجهال لآخر من الطاعنين في السن :

— ألم تسمع أيها الأب ، دينيت ، بأن الشيطان قد اختطف جسد السيد الساكسوني العظيم أثيلستين أوف كوننجزبره ، ؟

— نعم ، ولكنه رغم ذلك قد أعاده بركة الإله والقديس دونستان .  
وهنا أقحم شاب بنفسه في الحديث وقال :

.. « وكيف ذلك ، ؟

كان ذلك الشاب رشيقاً يرتدى عباءة خضراء موشاة بالذهب ، وفي أعقابها صبي سمين يحمل على ظهره قيثارة تم عن مهنته ، وكان يبدو على ذلك الشاب المغنى أنه ذو مركز غير عادى ، إذ كان يلف حول عنقه سلسلة فضية يتدلى منها المفتاح الذى يضبط به أنغام قيثارته ، هذا بالإضافة إلى عباءته ذات النقوش الزاهية ، وعلى ذراعه الأيمن لوحة فضية لا تحمل — كما جرت الأوضاع — رمز الممالك الذى ينتمى إلى أسرته أو شعاره ، بل نقشت عليها كلمة « شيروود » فقط . أتبع المنشد المرح الذى أقحم بنفسه في الحديث الدائر بين الفلاحين قائلاً :

« ماذا تغنيان بذلك ؟ لقد جئت إلى هنا وراء مادة أنظم فيها القوافى ، وبحق سيدتنا العذراء لقد كنت من حسن الحظ بحيث إنى وقعت إلى حادثين ، . فقال الفلاح المسن :

— ولا يختلف أثنان في أن أثيلستين بعد أن لبث ميتاً أربعة أسابيع ...»

فقال المنشد :

- وهذا محال . لقد رأيته حيا في مهرجان السلاح في آشي دي لازوش ، . فقال الفلاح الشاب :

- ومع ذلك فقد كان ميتا أو على الأقل منسوخ الروح لاني سمعت رهبان دير القديس إدموند ، ينشدون نشيد الموت من أجله ، بل ولأذهب إلى أبرد من هذا فأقول إنه قد أقيم بقصر كوتنجزبره حفل جنازى وولبية فاخرة يليقان به ، وكان على أن أذهب إلى هناك لولا « مابل باركنز » التي . . . ، فقال الرجل المسن وهو يهز رأسه :

- نعم لقد كان أثيلستين ميتا ، وإنه لأمر باعث على شديد الآسى لأن الدماء الساكسونية العريقة . . . ، فقاطعه المنشد وقد تولاه شيء من الضيق :

- قصتك أيها السيدان - قصتك ، .

وقال راهب بدين كان يقف إلى جوارهم مستنداً إلى قضيب يجمع بين مظهر عصا الحاج وهرأوة المقاتل ، وربما كان يقوم بالمهمتين وفق ما يقضى به الحال :

- نعم ، نعم . أرويا لنا القصة - قصتك ولا تستفدا ضوء النهار في تلاوتها ، فليس لدينا من الوقت ما نهدره ، . فقال دينيت :

- سمعا وطاعة يا صاحب القداسة . لقد حضر قس ثمل لزيارة خادم دير القديس إدموند . . . ،

فقاطعه رجل الدين قائلا :

- ليس مما يبعث على المسرة في قداسي أن يكون هناك حيوان يوصف بأنه قس مخمور ، وحتى بفرض وجوده ، فإنه لا يليق بأحد العلمانيين

أن يذكره بهذا النعت. أحب أن يكون في لغة حديثك شئ، من اللياقة يا صديقي ،  
واتعلم بأن الرجل المقدس لم يكن إلا غارقاً في تأملاته التي تجعل الرأس  
تدور ، والقدم تتعثر وكأن المعدة مليئة بخمر جديدة . لقد مرت بي هذه  
التجربة . فقال الأب دينيت :

— « حسنا . إذن لقد حضر أحد الإخوة المقدسين لزيارة خادم دير  
القديس إدموند ، وكان هذا الزائر من طائفة القساوسة الجائنين ، يقتل  
نصف الأطباء التي تسرق من الغابة ، ويؤثر سماع قرع الكأس والطاس على  
سماع نواقيس الصلاة ، أما ما عدا ذلك فهو إنسان طيب مرح ياتب بالعصا  
ويجذب القوس ويرقص رقصات مقاطعات « شيشاير ، كأي رجل في  
« يوركشاير » . فقال المنشد :

— « إن كلماتك الأخيرة يا دينيت قد أنقذت من أضالك واحداً أو اثنين .  
فقال دينيت :

— « إنك تهذي يا رجل . أنا لا أخشاه فقد تقدمت به السنون ، وهو  
متصلب الأطراف بمض الشئ . ولكنني عندما قاتلت من أجل الجرس  
والكبش في دونكاستر . . . . . »

فقال المنشد مرة أخرى :

— « ولكن القصة — القصة يا صديقي . »

— « تلك هي القصة — لقد دفن أئيلستين أوف كوننجزبره في دير  
القديس إدموند . . . . . » فقال الراهب :

— « إنها أكذوبة ، وأكذوبة كبرى لأن رأيتته محمولا إلى قصره  
في كوننجزبره . » فقال دينيت وقد أغضبته هذه المقاطعات المتكررة :

— « فلأمك إذن عن تلاوتها ، ولتلاوها أتما أيها الصديقان :

وبشىء من الجهد رضح الراوية الجاف لشينة رفيقه والمنشد حتى قبل  
أن يعود إلى سرد القصة وقال :

- « كان هذان الراهبان اللذان لم يكونا مخمورين - بما أن هذا الرجل  
المقدس يصر على أنهما كانا كذلك - قد استمرلا في احتساء الجمعة الذهبية  
والتبذ وما إليهما أكثر الوقت في ذلك اليوم من أيام الصيف عندما سمعا  
على حين غرة أنبنا عميقا وصليل أغلال حديدية ، ودخل شبح أثيلستين  
ثمليت إلى الغرفة وهو يقول « أيها الراعيان الشريران . . . » ، فأسرع  
الراهب قائلا :

- « هذا محض افتراء . إنه لم ينبس بينت شفة . » وقال المنشد وهو  
يجذبه جانباً بعيداً عن الفلاحين :

- « ماذا أيها الراهب « تاك » ؟ أرى أنك قد أثرت قصة جديدة . »  
فقال الراهب :

- « أقول لك يا « آلان آديل » ، إنى رأيت أثيلستين أوف كوتنجزبره  
يقدر ما تستطيع عينا بشر أن تريا رجلا حياً . لقد كان متدثراً بأكفاته ،  
وكل ما حوله ينضح برائحة القبر . لن يغسل هذا الحدث من ذاكرتى دن  
كامل من التبذ . » فقال المنشد :

- « لعلك غير مصدق لى أبدأ إذا قلت لك إننى قد سددت إليه ضربة  
بمعصاي كفضيلة بأن تصرع ثوراً ، ولكنها مرقت فى جسده كما تنفذ فى عامود  
من الدخان ! » فقال المنشد :

- « أقسم بالقديس هيوبرت على أنها قصة عجيبة تصلح لأن تنظم  
شعراً ، وتنشد على ألحان النغم القديم . لقد دم الحزن الراهب العجوز . »  
فقال الراهب تاك :



- امزح كما يحلو لك ، ولكن ليأخذني معه أقرب شبح أو شيطان  
إذا وجدتني أنشد مثل هذا الغناء . كلا ، كلا لقد اعتزمت على أن أشاهد  
في هذه الساعة عملاً طيباً كإحراق ساحرة ، أو قتال للاحتكام ، أو ماشاكل  
ذلك لخدمة الله ، ولذا فقد جئت إلى هنا .

وبينما كان الحديث يدور بينهما على هذا النحو ، إذا بصوت الناقوس  
الضخم لكنيسة القديس مايكل أوف تيمبلستو ، يقطع عليهما هذا الحديث ،  
وهي بناء مهيب يقع في قرية صغيرة على مبعدة قريبة من مقر فرسان المعبد .  
تتابعت الدقات العاليات تفرع الأذان واحدة تلو أخرى ، غير تاركة  
إلا الوقت الكافي لكل منها لأن تتلاشى في صدى بعيد قبل أن يمتلي .  
الفضاء مرة أخرى برنين جديد من الناقوس الحديدي .

ملأت تلك الأصوات التي كانت إيذاناً ببدء الحفل المزمع ، قلوب الجماهير  
الحاضرة رهبة وخشوعاً ، واستدارت عيونهم نحو المقر تتوقع اقتراب  
السيد الأعظم والنصير والمذنب .

وأخيراً أنزل الكوبرى المعلق ، وفتحت الأبواب ، وخرج من القصر  
فارس يحمل علم الطائفة الكبير يتقدمه ستة من حملة الأبواق ، ويتبعه  
الفرسان الرؤساء زوجاً زوجاً ، وفي أعقابهم يأتي السيد الأعظم ممتطياً  
صهوة جواد فاخر وإن كانت معداته من أكثر الخامات بساطة ، ومن  
خلفه بريان دي بواجيلبرت غارقاً في دروعه البراقة من قمة الرأس إلى  
أخص القدم ، ولكنه لم يكن حاملاً لرمحه أو سيفه اللذين تولى أمرهما  
اثنان من وصفائه كانوا يسيران من ورائه . ومع أن ريشة ترفرف من غطاء  
خوذته كانت تهجج جزءاً من وجهه ، إلا أن قسماته كانت تفيض شعوراً  
بالغضب ، كما كان الكبرياء والإحجام يتنازعانه ، وكان يبدو شاحباً أشد  
الشحوب وكان الكرى لم يزر جفنه لليال عدة ، ومع ذلك فقد أوقف

جواد حربه المتوثب في غير مشقة ، وفي رشاقة تتلاءم مع أمر حملة الرماح في طائفة فرسان المعبد . كان مظهره العام وقوراً مهيباً ، ولكن عندما أتمعن الناس النظر فيه ، قرأوا في ملامحه الضاربة إلى البسرة ما يدفعهم إلى أن يشيحوا عنه بوجوههم في غير تردد ولا إبطاء .

كان كورنراد أوف مونت فيتشت وألبرت دي مالفوازان يحيطان به من كلا الجانبين ، وكانا يقومان بمهمة العرابين<sup>(١)</sup> للبطل ، ويرتديان ملابس السلم وهي زي الطائفة الأبيض ، ومن خلفهم أقبل رفاق آخرون من طائفة المعبد وحاشية طويلة من الوصفاء والأتباع في ملابس سوداء ، وأولئك هم الطامعون في أن يكونوا يوماً ما فرساناً للطائفة ، ووراء هؤلاء الأتباع سارت ثلة من الحراس الراجلين يرتدون الملابس السوداء نفسها .

كان وجه المتهمه الشاحب يبدو من ثنايا عصيهم ، وكانت تنجيه نحو ساحة تقرير مصيرها بخطى وثيدة واسكنها ثابتة ، وقد اتزعوا كل حلبيها خشية أن يكون من بينها بعض تلك التعاويذ التي يقال إن الشيطان يقدحها على ضحاياه ليسلبهم القدرة على الاعتراف حتى ولو كانوا تحت وطأة التعذيب . كانت ملابسها ذات الطراز الشرقي قد استبدلت بها رداء أبيض خشن بسيط ، ومع ذلك فقد كانت نظراتها مزيجاً رقيقاً من الشجاعة والرضى بقضاء الله ، حتى إنها في هذا الزي البسيط ، ومنزوعة الحلبي إلا من خمائل شعرها للطويلة السوداء ، قد أدرت الدموع من كل عين تطلعت إليها ، وأثارت الأسي في نفوس أشد المتعصبين صلابة ، لأن القدر قد جعل من هذه المخلوقة الفاتنة أداة للشر وعبرة أجيرة للشيطان .

كان يسير في إثر الضحية جمع من عامة الأتباع في المقر مطاطيء

---

(١) العراب هو الاثنيين او الشاهد .

الرموس ، وكلهم يخطون في نظام دقيق وسواعدم معقودة إلى صدورهم ، وسار هذا المركب البطيء صاعدا المرتفع السهل الذي أعدت الساحة في أعلاه ، ثم دخلوا إليها وداروا حولها من اليمين إلى اليسار ، وعندما أنموا دورتهم توقفوا ، وهنا حدث هرج عابر عندما نزل السيد الأعظم وجميع مرافقيه من فوق جيادهم ما عدا البطل وعراييه ، وفي الحال قام الوصفاء باقتياد الجياد إلى خارج الساحة وكانوا في انتظار القيام بهذا العمل الذي وكل إليهم .

اقتيدت ريكا التعمه إلى المقعد الأسود الموضوع بالقرب من منصة الحريق ، ولو حظ أنها ارتجفت عندما وقعت عينها لأول وهلة على المكان الرهيب حيث اكتملت العدة لإذاعتها ميتة ترهب العقل وتوالم الجسد على السواء ، فأغمضت عينها ثم تمتت بالصلاة فيما بينها وبين نفسها ، ولا ريب في ذلك فقد كانت شفتها تتحرك مع أنه لم يصدر عنهما صوت ولا همس . فتحت عينها بعد لحظات ، ونظرت إلى الكومة مليا وكأنها تريد لعقلها أن يالف مرآها ، ثم أدارت رأسها ببطء إلى الناحية الأخرى . وخلال ذلك كان السيد الأعظم قد اتخذ مجلسه ، وبعد أن اصطف فرسان الطائفة من حوله كل حسب مقامه ، نفخ في النفير نوبة قوية بطويلة إيذانا بانعقاد المحكمة ، وتقدم إلى الأمام مالفوازان الذي كان يقوم بمهمة العراب للبطل ، ووضع قفاز اليهودية الذي كان يعبر عن التحدي إلى القتال عند قدمي السيد الأعظم وقال :

— ه أيها السيد الباسل الأب المبجل ، ها هنا يقف الفارس الطيب بريان دي بواجيلبرت أحد رؤساء فرسان طائفة المعبد ، والذي أصبح بقبوله للدعوة إلى القتال التي أضعها الآن تحت قدمي قداستكم ، ملزما بأداء واجبه اليوم ليدل على أن هذه الفتاة اليهودية التي تدعى ريكا قد استحققت عن حق حكم الإعدام الصادر ضدها في اجتماع عام لطائفة المعبد المقدسة ، والذي يقضى بموتها كساحرة . أقول إنه يقف هنا على استعداد للقيام بمثل

هذا القتال ببسالة وشرف ، ذلك إذا كانت رغبتكم النبيلة المقدسة تقضى بهذا . فقال السيد الأعظم :

- هل أقسم اليمين على أن هذا النزاع عادل وشريف ؟ هاتوا الصليب والكتاب المقدس . فأنجاب مالقوازان بمصاقة :

- سيدي وأبي المنجل ، إن أخانا هذا قد أقسم من قبل بين يدي الفارس الطيب كوانراد دي مونت فيتشت على أن الاتهام صحيح ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه جدير بنا ألا نطلب إليه أن يقسم لأن عزمته كافرة ، لا يمكن الاعتداد بقسمها .

كان هذا الجواب شافيا ورسرا له ألبرت أيما سرور ، وكان الفارس الماكريشعربالمشقة الكبيرة بل وبالاستحالة في إقناع بريان دي بواجيلبرت كي يقسم مثل هذا القسم أمام الجمع الحاضر ، فابتدع هذا العذر للخلاص من ذلك المأزق .

وبعد أن اقتنع السيد الأعظم بذلك التعليل الذي صدر عن ألبرت دي مالقوازان ، أمر المنادي بأن يتقدم ويقوم بأداء واجبه . وعندئذ صدحت الأبواق مرة ثانية وتقدم أحد المنادين وأعلن بصوت رنانة

- وأنصتوا - أنصتوا - أنصتوا ، هنا يقف الفارس الطيب سير بريان دي بواجيلبرت على استعداد لأن يقاتل أي فارس من دم حر يتخذ جانب الدفاع في المعركة المسموح بها ، والتي تقرر فيها أن تحاكم اليهودية عن طريق النصير في دفاع شرعي عن جسدها ، هذا وقد أذن السيد الأعظم المنجل الباسل الحاضر هنا لهذا النصير بالانتفاع بساحة قتال طيبة ، وتوزيع عادل للشمس والهواء ، وكل ما يتعلق بقتال حر خال من الشوائب ، ثم صدحت الأبواق مرة أخرى وسادت رهيب لدقائق عبدة ، وقال السيد الأعظم :

— « ألا يظهر لها أى نصير . اذهب أيها المنادى وسلها عما إذا كانت تتوقع حضور أى شخص ليقاتل في سبيلها ، » .

قصد المنادى إلى حيث كانت ريكا ، وإذا بيواجيلبرت يدير جواده بجأة ناحية ذلك الطرف من الساحة ، وعلى الرغم من تليجات مالفوازان ومونت فيتشت له من كلا الجانبين ، إلا أنه أصبح بالقرب من مقعد ريكا في نفس اللحظة التي وصل إليه فيها المنادى ، فقال مالفوازان وهو ينظر إلى السيد الأعظم :

— « هل هذا العمل قانونى ومطابق لساتير القتال ، ؟ فأجاب بومانوار ، :

— « نعم يا ألبيرت دى مالفوازان ، فليس لنا عندما نحتكم إلى قضاء الله أن نحظر على الطرفين الاتصال ببعضهما البعض ، فقد يكون في ذلك سبيل إلى إظهار الحقيقة المرجوة من المعركة ، .  
في تلك الأثناء قال المنادى لريكا ، :

— « إن السيد الأعظم الموقر المبجل يسألك أيها الفتاة عما إذا كنت قد أعددت نصيراً ليقاتل اليوم من أجلك ، أم أنك مستكينة راضية عن هذا الحكم لأنك تستحقينه ولأنه عادل ، ؟ فأجابت ريكا : »

— « قل للسيد الأعظم إنى مصرة على برأتى ، ولا أقر بأنى حوكت محاكمة عادلة ، وإلا أجرمت في حق نفسى . قل له إنى أتمسك بأقصى ماتمح به قوانينه من تأخير لأرى إن كان الله الذى يفسح للمرء في ضائقته أبواب الفرج سيبعث إلى بمنقذ ، وإذا ما انقضى ذلك الإمهال ولم يأتنى نصير ، فلتكن إذن إرادته ، » .

عاد المنادى إلى السيد الأعظم يحمل إليه هذا الجواب ، فقال لوكاس بومانوار :

— « حاشا لله أن يتهمنا بالظلم يهودى أو وثنى ! سنتنظر حتى تسقط.

الظلال من الغرب إلى الشرق فربما ظهر لتلك المرأة التعة نصير ، فإذا ما انقضى من النهار ما فصلنا ولم يظهر . فعليها أن تعد نفسها للموت .

حمل المنادى كلمات السيد الأعظم إلى ريكا التي أحنت رأسها خاشعة ، وعقدت ذراعها على صدرها ، ورفعت عقيرتها إلى السماء ، وبدت وكأنها تنتظر تلك المساعدة العلوية التي كادت تياس من تلقيها عن طريق الإنسان . وفي تلك اللحظة الرهيبه الصامتة ، تنهى إلى سمعها صوت بواجيلبرت وكان همساً ، ولكنه مع ذلك قد لجأها أكثر مما فاجأها صيحات المنادى .  
قال فارس المعبد :

— أسمعيني يا ريكا ؟ ، فقالت الفتاة المنكودة الحظ :

— لا شأن لي معك أيها الرجل الشرير القاسى ، . فقال فارس المعبد :

— نعم ، ولكن هل أنت واعي لما أقول ؟ إن رنين صوتي يبعث الرعب فى سمى . لست أدري على أية أرض يقف كلانا ، ولا لآى مآرب أتوا بنا إلى هنا . إني أعرف ما يهدفون إليه من وراء هذه الساحة التي تلتف الأسوار بها ، وذلك المقعد ، وكومة الأحطاب هذه ، ومع ذلك فإنها تبدو فى ناظرى وكأنها خيال ، أو أضغاث أحلام مفزعة تملأ كيانى بالأحاسيس المخيفة ، ولكنها لا تقنع عقلى ، فقالت ريكا :

— إن عقلى وحواسى متصلة الشعور والتوقيت ، وتقول لى إن هذه الأحطاب معدة لإحراق جسدى الأرضى ، ومع ذلك فإنه سيتيح لى طريقاً مؤلماً إلى عالم أفضل ولكنه قصير ، فقال فارس المعبد :

— إنها أوهام يا ريكا . أوهام . أوهام خاملة تلفظها حكمة الجربين من شيوخ ديانتك ، . ثم استرسل فى حماس قائلاً : أنصت لى يا ريكا . إن أمامك فرصة مواتية للحياة والخربة أكثر مما يحلم بها أولئك الأوغاد وكذلك المهاتر . تعالى خلنى على جوادى — على زامور الجواد الباسل الذى لم يخذل راكمه قط . لقد كان سبياً فى انتصارى على سلطان طرايزونده ،

في قتال مفرد — أقول لك اركبني خلفي ، وفي أقل من ساعة نكون قد خلفنا ورامنا بأبعاد طويلة أية مطاردة أو تحقيق — سيفتح أمامك عالم جديد من السعود ، وأمامي صفحة جديدة من الفخار — لينطقوا بالحكم الذي أزدريه ، وليمحوا اسم بواجيلبرت من قائمة عبيد الرهبان — سأغسل بالدماء أية لطفة قد يجترئون على إلصاقها بشعاري ، فقالت ريبكا :  
— د إيلك عنى أيها المخادع المفضل ان تستطيع في هذه اللحظة الأخيرة أن تحركني قيد شعرة عما وطنت عليه نفسي . إني وأنا محروطة بالأعداء كما ترى ، أضعك في مصاف أعدائي وأشدهم قسوة . أستحلفك بالله أن تصرف عنى وتركني وشأني .

كان ألبيرت دى مالفوازان قد استبد به القلق والضيق من طول مدار بينهما من حديث ، فتقدم نحوهما ليقطعه عليهما ، وسأل بواجيلبرت :  
— د هل اعترفت الفتاة بجريرتها ، أم تراها مضرة على إنكارها ؟  
فقال بواجيلبرت :

— د إنها مضرة كل الإصرار . ، فقال مالفوازان :

— د عليك إذن أيها الأخ النبيل أن تعود إلى مكانك أنتظارك لما تسفر عنه الأمور . إن الظلال تنغير على قرص المازولة . هيا يا بواجيلبرت الباسل هلم يا أمل طائفنا المقدسة ، وبارئيسها المرتقب ، .

وبينما كان يتكلم بهذه اللمجة الرقيقة ، أمسك بعنان جواده وكأنه يريد أن يعود به إلى مكانه ، فاستشاط سير بريان غضباً وقال :

— د ماذا تعنى أيها الوغد بوضع يدك على عنان جوادى ؟ ، ثم انتزع يد رفيقه في عنف ، وركض عائداً إلى الجزء العلوى من الساحة ، فأسر مالفوازان في أذن مونت فيتشت قائلاً :

- إن روحه ما زالت قوية إذا ما وجهت التوجيه الصحيح ، ولكنها  
كثيران الإغريق تحرق كل ما يقرب منها ، .

انقضت ساعتان والقضاة في الساحة ينتظرون عبثاً ظهور نصير ، وقال  
الراهب تارك :

- ومع أنها يهودية حقاً ، إلا أني أقسم بطائفتي على أنه شيء باعث  
على الأسى والوجيعه أن تهلك مثل هذه المخلوقة الحسنة دون أن يضرب  
أحد ضربة واحدة دفاعاً عنها حتى ولو كانت ساحرة عشر مرات . لكم  
وددت لو دوت هراوتى عالياً على الخوذة الفولاذية لفارس المعبد الشمس  
قبل أن ينهى الأمر على هذا النحو . .

ومع ذلك فقد كان الاعتقاد السائد أنه ما من شخص يستطيع أن يبدى  
رغبته في الظهور دفاعاً عن يهودية متهمه بالسحر ، وأخذ الفرسان الذين  
أوعز إليهم بالفوزان يتهايمون فيما بينهم بأن الوقت قد حان كي يعلن  
أن تحدى ريكا قد أصبح غير ذي موضوع .

ظهر في تلك اللحظة فارس على أطراف السهل مقبلاً نحو الساحة يبحث  
جواده فينطلق كالشهاب فصاحت مائة حنجرة نصير ! نصير ! ، ،  
وعلى الرغم من معتقدات القوم وآرائهم ، فقد هتفوا بأصوات جماعية بينما  
كان الفارس يبدو داخل الساحة ، ولكن نظرة أخرى قد بددت الأمل  
الذي أيقظه مجيئه في اللحظة الحاسمة ، إذ أن جواده الذي كان قد أحشه إلى  
أقصى سرعته لأميال عدة ، بدا وكأنه يترنح من فرط التعب ، وعلى الرغم من  
أن الراكب قد دخل إلى الساحة بمظهر يدل على البسالة ، إلا أنه لم يكن  
متهاكاً لنفسه على سرجه ، عن ضعف أو جهد أو هما معاً . وعند ما سأل  
المنادى ذلك الفارس الغريب عن اسمه وصفته والغرض الذي جاء من أجله ،  
لم يتردد في الإجابة عليه إجابة باسلة فقال :



« إني بطل مقدم وفارس نبيل ، وقد جئت إلى هنا كي أعزز  
يرحمي وسيني ما رأيت قنالا عادلا مشروعا من أجل ربيكا ابنة إسحق أوف  
يورك ، وكى أبين للبلاد أن الحكم الصادر ضدها ليس إلا ادعاء باطلا  
عاريا عن الحقيقة ، وكى أتحمدي سير بريان دى بواجيلبرت كخائن وقاتل  
وكاذب ، كما سأدلل على ذلك بجسدى ضد جسده فى هذه الساحة ، مستعينا  
بالله وسيدتنا العذراء وسيدنا القديس جورج الفارس الطيب . » فقال  
خالقوازان :

« يجب على الغريب أن يثبت أنه فارس أصيل من دم نبيل . إن  
طائفة المعبد لا تبعت بفوارسها ضد رجال لا يعرفون عن أسمائهم شيئا .  
فقال الفارس وهو يرفع غطاء خوذته :

« إن اسمى ياما! هو اوزان أوسع شهرة من اسمك ، ونسبى أكثر نقاء  
من نسبك . أنا ويلفريد أوف أيفانهو ، فقال فارس المعبد بصوت  
متغير غائر :

« إني إن أقتل معك الساعة . داو جراحك واتخذ لك جوادا  
أفضل ، وعند هذا فن المحتمل أن أنزل بنفسى عن كبريائى ، وأنزع عنك  
روح الزهو الصبيانى التى تملأ عليك جسدى . » فقال أيفانهو :

« هل نسيت يا فارس المعبد المتعالى أنك سقطت مرتين أمام هذا  
الرحم ؟ اذكر ساحة عكا - اذكر مهرجان السلاح فى آشبى - اذكر  
تباهيك الملىء بالفروور فى قاعات روذروود ورهان ساسلتك الذهبية مقابل  
أيقوتى المقدسة - لاتنس أنك ستنازل ويلفريد أوف أيفانهو وربما  
استرددت الشرف الذى فقدته ، أقسم بتلك الأيقونة والأثر المقدس الذى  
تضمه على أنى سأعلن فى كل بلاط فى أوروبا وكل مقر لطائفك على أنك  
جبان يا فارس المعبد ، إلا إذا تقدمت للقتال بلا إبطاء . »

أدار بواجيلبرت وجهه ناحية ريكا في إجمام ، ثم صاح وهو يرمق  
أيفانفو بنظرة شرسة :

- « أمسك برمحك أيها الكلاب الساكوني ، واستقبل الميتة التي جلبتها  
فوق رأسك ا ، . فقال أيفانفو :

- « أياذن لي السيد الأعظم بالقتال ؟ ، . فقال السيد الأعظم :

- « إني لا أستطيع أن أنكر عليك تحديك على شريطة أن تقبلك  
الفتاة نصيراً لها ، ومع ذلك فقد كنت أود أن تقاتل وأنت في حالة أفضل .  
لقد كنت على الدوام عدواً لطائفتنا ، ومع ذلك فإني لا أضن عليك بأن  
تعامل بشرف . . فقال أيفانفو :

- « هكذا - هكذا أنا - ليس لي أن أكون غير هذا - إنه قضاء  
الله - إلى عنايته أودع نفسي ، . ثم أردف وهو يذهب بجواده قريباً من  
المقعد المشنوم « أتقبليني نصيراً لك ياريكا ؟ ، فقالت باضطراب لم يستطع  
الخوف من الموت أن يثبته فيها :

- « نعم ، نعم . إني أقبلك نصيراً بعثت به السماء إلي ، ولكن لا ، لا .  
إن جراحك لما تلتئم بعد . لا تنازل هذا الرجل المتكبر ، لماذا تودي  
بنفسك إلى التهلكة معي ؟ ، .

وإكن أيفانفو كان قد اتخذ مكانه وأغلق خوذته وأمسك برمحه ،  
وفعل بواجيلبرت مثل ما فعل ، وعندما كان وصيفه يغلغ غطاء خوذته ،  
تبين له أن وجهه الذي كان شاحباً أشد الشحوب طوال النهار على الرغم من  
شتى الانفعالات التي أثارته ، قد غدا فجأة شديد الاحمرار . ولما إرأى  
المنادى أن كلا البطلين قد اتخذ مكانه ، ردد النداء ثلاث مرات بصوت عال  
« هيا أيها الفارسان بالاسلان ا ، وبعد أن انتهى من ندائه ، ارتد إلى أحد  
جوانب الساحة ، وأعلن أنه محذور على كل فرد أن يقحم بنفسه في مجال  
القتال الشريف باللفظ أو النداء أو العمل ، وإلا عرض نفسه للذات العاجل .

كان السيد الأعظم في تلك اللحظة ممسكاً في يده بقفاز ربيكا رمز التحدى للقتال ، فألقى به إلى داخل الساحة ، ثم أطلق كلمة البدء الرهيبية ههنا .

دقت الطبول ، وانقض كل منهما على الآخر كالبرق الخاطف ، فسقط جواد أيفانهو المضنى وراكبه الذى لا يقل عنه ضنى أمام ربح فارس المعبد الذى لا يطيش وجواده القوى . كان الجميع قد تكمنوا بنتيجة هذا القتال ، لكن على الرغم من أن ربح أيفانهر لم يفعل شيئاً إلا أن مس درع بواجيلبرت ، فقد شوهد هذا البطل - لهشة جميع النظارة - يترنخ في سرجه ، ويخلى ركابه ، ثم يسقط طريحاً على أرض الساحة ، فأسرع أيفانهو وخلص بنفسه من تحت جواده الملقى ، ثم انتصب على قدميه وأمسك بسيفه هامداً إلى أن يصلح ما أفده سوء طالعاه ، ولكن خصمه لم ينهض ، فوضع ويلفر يد قدمه على صدره ، وذبابه سيفه على عنقه ، وطلب إليه أن يستسلم أو يموت على الفور ، ولكن بواجيلبرت قد التزم الصمت ولم ينبس ببنت شفة ، فصاح السيد الأعظم قائلاً :

- « لا تقتله يا سيدى الفارس وهو في حالة الخطيئة وقبل أن تغفر له ذنوبه . لا تقتل الروح والجسد معاً ! إننا نعترف بهزيمته ، . ثم نزل إلى الساحة وطلب إلى من حوله أن يخلعوا عن الفارس المهزوم خوذة . كانت عيناه مغلقتين ، وكانت الحمرة القائمة مازالت تكسو جبينه ، وبينما كانوا ينظرون إليه في دهشة ، إذ به يفتح عينيه ولكنها كانتا ثابتتين ذاويتين ، وغاضت الحمرة من جبينه وكساها شحوب الموت . أقدمات ضخمة لعنف عواطفه المتصارعة حين لم يصبه ربح عدوه حتى ولا بجرح سطحي ، فقال للسيد الأعظم وهو ينظر إلى أعلى :

- « هذا هو قضاء الله حقا . لتكن إرادتك يا إلهي ، .

## الفصل الرابع والأربعون

هكذا لقد انتهى الآن كل شيء كما انتهى أقصوصة زوجة شطاء .  
( وببستر )

وبعد أن انقضت لحظات الدهشة الأولى ، سأك ويلفريد أوف أيفانهو  
السيد الأعظم كحك للساحة عما إذا كان قد قام بواجبه في القتال برجولة وحق ،  
فأجاب السيد الأعظم قائلا :

– « نعم ، لقد قت بواجبك برجولة وحق ، ولا يسعني إلا أن أعلن  
أن الفتاة حرة لا جرم عليها ، هذا وقد أصبحت أسلحة الفارس الميت ورفاته  
تحت إمرة المنتصر ، . فقال الفارس أيفانهو :

– « لن أسلبه سلاحه ، أو أتهم جسده بالعار . لقد قاتل من أجل  
المسيحية ، هذا وإن اليد التي جندلته اليوم هي يد الله لا يد الإنسان ، ولكن  
ليكن مآتمه في حيز محدود كما يتفق ورجل مات في قتال غير عادل . أما عن  
الفتاة . . . . . »

وهنا قطع عليه حديثه وقع سنابك جياد مقبلة في أعداد وفيرة ، وسرعة  
خاطفة اهتزت الأرض من وقعها ، ودخل الفارس الأسود إلى الساحة عدوا  
تبعه كتيبة كبيرة من الجنود ، وعدد من الفرسان في كامل دروعهم وقال وهو  
يتلفت حوله :

– لقد أتيت بعد فوات الأوان . لقد كنت أرى أن مصرع بواجيلبرت  
من خصائصي وصميم عملي وما كان يجدر بك يا أيفانهو أن تأخذ علي عاتقك  
القيام بهذه المخاطرة حين أنك لا تكاد تقوى على البقاء في سرجك .  
فقال أيفانهو :

— « لقد اتخذت السماء يا مولاي من هذا الرجل الصلف ضحية لها ،  
وما كان له أن يحظى بشرف الموت على النحو الذي رسمته له إرادتكم ، .  
فقال ريتشارد وهو ينظر إلى الجسد مليا :

— « أما والأمر كذلك ، فليكن السلام معه . لقد عاش شجاعاً ومات  
في دروعه الفولاذية كفارس حق ، ولكن لا يجدر بنا أن نهدر الوقت -  
هيا يا «بوهان» وأنجز عملك ! ، فانفرجت حاشية الملك عن فارس تقدم إلى  
الأمام ، ووضع يده على كتف ألبيرت دي مالفوازان ثم قال :

— « إني أقبض عليك بتهمة الخيانة العظمى . »

كان السيد الأعظم قد وقف حتى تلك اللحظة دهشا لظهور مثل ذلك العدد  
من المقاتلين ، ولكنه بدأ الآن يتكلم فقال :

— « من ذا الذي يجترى على أن يلقى القبض على أحد فرسان معبد  
أورشليم داخل نطاق مقره وبحضور السيد الأعظم ؟ وأية سلطة أوحى  
إليك بأن تقدم على هذه المهانة التي لا تمت إلى آداب السلوك بصلة ؟ .  
فأجاب الفارس :

— « إن عملية القبض من خصائصي - أنا هنري بوهان إيرل أوف  
إسيكس ، كبير أمراء إنجلترا . » وقال الملك وهو يرفع غطاء خوذة ، وهو  
يقبض على مالفوازان بأمر من ريتشارد بلانتاجينيه الحاضر هنا :

— « لأنه لمن حسن طالعك يا كونيارد دي مونت فيتشت أنك لم تولد ضمن  
رعاياي ، وأما أنت يا مالفوازان ، فستموت مع أخيك فيليب قبل أن تنلخ من  
عمر العالم سبعة أيام . » فقال السيد الأعظم :

— « سأناهض حكمك . » فقال الملك :

— لن تستطيع ذلك يا فارس المعبد المتعالى . انظر إلى أعلى تر العظم  
الملكى الإنجليزى خفاقا فوق أبراجك بدلا من راية معبدك . كن حكيم  
يا بومانوار ودع عنك هذه المناوأة التى لن تجديك نفعاً . إن يدك فى فم  
الأسد ، . فقال السيد الأعظم :

— سأحتكم إلى روما فى انتهاكك لخصانات طائفتنا واغتصابك لحقوقها  
المكتسبة . . فقال الملك :

— لك ماتشاء ، ولكن لا تحملنى الآن وزر الاغتصاب صوتنا لحياتك  
فليفرق صحابك ، ولترحل مع أتباعك إلى مقرك التالى الذى لم يتحول بعد  
إلى وكر للخيانة والتآمر ضد ملك إنجلترا ، أما إذا رغبت فى البقاء ، فستعم  
بضياقتنا وتلس عدالتنا ، . فقال فارس المعبد :

— أأكون ضيفا على البيت الذى يجب أن أسود فيه ؟ لن يكون ذلك  
أبدا . رتلوا أيها القساوسة تسايح الرحيل — أعدوا أنفسكم يا فرسان المعبد  
ووصفاه وأتباعه للسير وراء راية المعبد المقدسة ، .

كان السيد الأعظم يتكلم بلمجة فيها اعتداد بالنفس لا تقل عن لهجة  
ملك إنجلترا اعتداد أيها ، وتنفت روح الشجاعة فى أتباعه الذين تولاهم الخوف  
والذهول ، فالتفوا حوله كما يلتفت قطيع الغنم حول كلب الراعى عندما يسمع  
عواء الذئب ، ولكن الرهبة لم تبد عليهم كما تبدوعلى القطيع المذعور . كانت  
هناك جباه مكفهرة بالتحدى ، ونظرات تنفر بالعداء الذى لم تجسر الشفاه  
على النطق به . اجتمعوا فى صف قائم من الزمانيخ برزت فيه عباوات الفرسان  
البيضاء بين أردية أتباعهم الداكنة وكأنها الحواف البيضاء لغمامة قاتمة ، أما  
جمهرة الناس الذين أطلقوا صيحة استنكار مدوية ، فقد أخذوا ينظرون فى

صمت إلى جماعة من الفرسان المهيبة المدربة التي تحداً وهافي إثارة، ثم تفرقوا  
عن أمامهم .

ولما رأى الإيرل أوف إسيكس أن فرسان المعبد قد وقفوا في جماعات  
متراسة، وكز جواده وركض به أماما وخلفا لتنظيم رجاله في صف مقابل  
لمثل هذه المجموعة الخيفة، أما الملك ريتشارد الذي كان يعشق المخاطر،  
فهو وحده الذي سار بجواده مبطناً على طول جبهة فرسان المعبد، وأخذ  
يصيح بصوت مرتفع قائلاً :

— « ماذا ياسادة ؟ ألا يوجد من بين مثل هذا العدد من الفرسان  
البواسل من يجترى على تحطيم ربح مع ريتشارد ؟ أيها السادة فرسان المعبد،  
إذا لم تكن نساؤكم جديرات بأن تضحوا من أجابن بربح مكسور، فإنهن  
سيحترقن في لهيب الشمس . . فقال السيد الأعظم وهو يتقدم  
الصفوف بجواده :

— « إن إخوة المعبد لا يقاتلون في مثل هذا الصراع الخامل الدنس ،  
ولن يقرع أحد فرسان المعبد ربحه معك يا ريتشارد أوف إنجلترا في  
حزقي . سيكون البابا وأمرأه أوربا الفيصل فيما يشجر بيننا من خلاف ،  
وسيقروون ما إذا كان أمير مسيحي قد أحسن صنعا بدفاعه عن القضية  
التي احتضنتها اليوم . إذا لم يعتد علينا أحد ، فلن نعتدى على أحد . إننا  
نستودع شرفك دروع الطائفة وأثامها التي نخلفها من ورائنا ونحمل وجدانك  
الفضيحة والمهانة اللتين جلبتهما اليوم على العالم المسيحي . .

وبعد أن انتهى السيد الأعظم من قوله هذا ، أعطى إشارة الرحيل  
دون أن ينتظر جواباً ، فدقت طبولهم دقات عنيفة ذات طابع شرقي ، وهي  
الشارة التي اعتاد الفرسان على أن يتقدموا عند سماعها . بدلوا من نظامهم  
فساروا منى بدلا من صف مفرد ، ثم رحلوا بظاه بكل ما تستطيعه جيادهم

من خطى وئيدة ، وكأنهم كانوا راغبين في أن يظهروا أن مشيئة سيدم  
الاعظم وحدها - لا الخوف من القوة المضادة الفائقة - هي التي دفعت بهم  
إلى الرحيل ، وقال الملك ريتشارد :

- « أقسم بجلال جبين سيدتنا العذراء على أنه بما يدعو إلى الأسى ألا  
يكون فرسان المعبد أولئك أهلا للثقة - قدر مأم بوسائل ومدربون  
على النظام ، .

أما جمهرة الناس - الذين كان حالهم كحال الجرو الهياب الذي ينتظر حتى  
يدير له متحديه ظهره ثم ينبج من خلفه - فقد أرسلت صيحة خافتة عندما  
كانت مؤخرة الركب تغادر الساحة .

وفي أثناء الجلبة التي صاحبت رحيل فرسان المعبد ، لم تكن ريكا واعية  
لما يجري ، بل كانت بين اذراعى أبيها الشيخ خاترة القوى فاقدة لرشدها بسبب  
التبدل السريع الذى طرأ على الظروف المحيطة بها ، إلا أن كلبة من إسحق  
جعلتها آخر الأمر تستجمع شتات أحاسيسها المبعثرة حيث قال :

- « لنذهب يا بنتى العزيزة ويا كنزى المسترد - لنذهب إلى الفتى  
الطيب ونسجد عند قدميه ، . فقالت ريكا :

- « كلا ، أوه كلا كلا لا ينبغي أن أجتريء فأتحدث إليه في  
هذه اللحظة . بالأسنى ا قد أقول أكثر من . . . . كلا يا أبتاه ، هيا بنا نرحل  
عن هذا المكان المشثوم دون ما إبطاء ، . فقال إسحق :

- « ولكن يا بنتى ، أترك ذلك الذى تقدم برححه ودرعه مقداما  
غير مكترث بحياته كي ينجيك من سجنك ، حين أنك ابنة شعب غريب عنه  
وعن قومه ؟ إنه جميل يجب أن يقابل بالشكر ، . فقالت ريكا :



- ، نعم ، نعم ، بالشكر العميق وأقوى آيات العرفان، ولكنى أضع  
إليك ألا نفعل ذلك الآن . أستحلفك يا أبى بهيبتك راشيل أن تستجيب  
لضراعتى ، . فقال إسحق ملحاً :

- ، كلا ، ولكنهم سينظرون إلينا على أننا أشد إغراقاً فى الجحود  
من الكلاب . .

- ، وكذلك ترى يا أبى العزيز أن الملك ريتشارد موجود هنا الآن،  
وأن هذا . . . . .

- ، حقاً إنك لشديدة الحصافة ياربيكا هيا بنا نمضى - هيا بنا نمضى ا  
إنه سيكون فى حاجة إلى مال لأنه عائد لتوه من فلسطين ، وهو كما يقولون  
عائد من الأسر، ولو طلب منى مالا فسيجد من المعاذير ما يبرر اغتصابه منى  
لسابق معاملاتى مع أخيه يوحنا هلى إذن وانرحل الآن ! . .

وراح بدوره يستحث ابنته وهو يقودها خارج الساحة ، ثم حملتها المطية  
التي كان قد أعدها لها إلى منزل الحاخام ناثان فى أمان . وبعد أن تسللت  
اليهودية خفية ، انتقل اهتمام الجماهير إلى الفارس الأسود ، وجعلوا يملأون  
الجو بهتافاتهم وعاش ريتشارد قلب الأسد، ليسقط فرسان المعبد الغاصبون . .  
فقال أيفانهو للإيرل أوف إسبىس :

- ، على الرغم من هذا الولاء الصادر عن الشفاه ، فإن الملك قد أحسن  
صنعا باتخاذ الحبيطة وإحضارك معها إليها الإيرل النبيل مع هذا العدد الموفور من  
أتباعك المخلصين ، . فابتسم الإيرل وهز رأسه قائلاً :

- ، يا أيفانهو الباسل ، أتكون على هذا القدر من المعرفة بطبيعة  
مولانا وترتاب فى أنه يتخذ مثل هذه الحبيطة الحكيمة ؟ لقد كنت فى طريق  
إلى بورك عندما ترمى إلى سمعى أن الأمير يوحنا قد اتخذ منها مقر القيادته،

ثم قابلت الملك ريتشارد كفارس جائل حق وهو يعدو قادمًا إلى هنا كي يُبني  
بنفسه مغامرة فارس المعبد واليهودية بقوة ساعده وحده فصحبته مع رجالي،  
وأما من ناحيته ، فإنه لم يكن شديد الرغبة في أن أرافقه . فقال أيفانو :

— « وأية أبناء لديك عن يورك أيها الإيرل العجاج ؟ هل سينتظرونا  
التمردون هناك ؟ » فقال الإيرل :

— « إنهم لا ينتظرونا أكثر من انتظار ثلوج ديسمبر لشمس يوليو —  
إنهم يتفرقون — ومن ذا الذي سيأتي مسرعًا يحمل إلينا الأنباء إلا يوحنا  
نفسه ! » فقال أيفانو :

— « الخائن ! الخائن الصلف الناكر للجميل ! ألم يأمر يا يداع ملكنا  
ريتشارد السجن ؟ » فأجاب الإيرل :

— « أوه ! لقد قابله وكأنهما التقيا بعد رحلة صيد ، ثم أشار إلى وإلى  
جنودنا وهو يقول « إنك ترى يا أخي أن معي بعض الرجال الغاضبين —  
إنه لمن الأفضل لك أن تذهب إلى أمنا وتحمل إليها محبتي البنوية ، وتبقى معها  
حتى تهدأ عقول الرجال ، » فسأله أيفانو قائلاً :

— « أهذا هو كل ما نطق به ؟ ألا يقول الناس إن هذا الأمير يدعو  
القوم إلى التآلب عليه لأنه رهوف رحيم ؟ » فأجاب الإيرل :

— « هذا صحيح ، مثله في ذلك مثل الرجل الذي يدفع بنفسه إلى  
الموت إذا ما أقحم بنفسه في قتال وهو مصاب بجرح خطير لم يلتئم ، .  
فقال أيفانو :

— « إني أغفر لك هذه المزحة ياسيدي الإيرل ، ولكن تذكر أني إنما  
كنت أخاطر بحياتي ، أما ريتشارد فإنه يخاطر بسلامة مملكته ، .  
فقال إسبيكس :

— « إن أولئك الذين لا يباليون بسلامتهم على وجه خاص ، قلبا يكلفون  
بسلامة الآخرين على وجه العموم المطلق ، وعلى أية حال هيا بنا نسرع إلى

القصر لأن ريتشارد ينتوى إزال العقاب ببعض الأسماء الثانويين في المؤامرة حين أنه عفا عن زعيمهم . .

يتضح من التحريات القضائية التي تلت هذه الأحداث والتي وردت حفصة في مخطوط « وارد » ، أن موريس دي براسي قد فر إلى ماوراء البحار والتحق بخدمة فيليب ملك فرنسا ، وأن حكم الإعدام قد نفذ في فيليب دي مالفوازان وأخيه ألبرت رئيس مقر بلستو ، وأن والديمار روح المؤامرة ورأسها المفكرة ، قد بعث به إلى خارج البلاد منفيًا ، أما الأمير يوحنا الذي دبرت لصالحه ، فإن أخاه ذا الخلق الكريم لم يلبث به أذى ، بل ولم يلق عليه حتى باللائمة . ومع ذلك فما من أحد رثى لمصير الأخوين مالفوازان اللذين جرحا كتوس موت كانا أهلا له جزاء ما اقترفاه من شتى السوءات التي تفيض غدراً وقسوة وطفيانا .

وبعد أن انتهى القتال الأخير بفترة وجيزة ، استدعى سيدريك الساكوني إلى بلاط ريتشارد الذي كان في ذلك الوقت منعقدًا للنظر في إزكاء روح الهدوء والطمأنينة في قلب أهالي المقاطعات التي كان جشم أخيه قد أثارها ، فأرغى سيدريك وأزبد أكثر من مرة لهذه الرسالة ، ولكنه لم يرفض الطاعة ، والواقع أن عودة ريتشارد كانت قد قصت على كل أمل له في إعادة إحدى الأمر الساكونية لتتربع على عرش إنجلترا ، فأى غم إذن سيحظى به الساكونيون إذا ما نشبت حرب أهلية ، لأنه كان جليًا أنه من غير المستطاع القيام بأي عمل تحت حكم ريتشارد الذي لا ينازع نظرا لما يتمتع به من محبة الشعب ، ولما هو عليه من خلق عظيم ومن شهرة عسكرية واسعة ، ورغم هذا فقد كانت إدارته لشئون البلاد تقسم بالإهمال عن عمد ، متراخ حينًا ، طاغية حينًا آخر ، وبالإضافة إلى ذلك ، فلم يفت سيدريك رغم أنه لم يكن قوى الملاحظة ، أن يدرك أن مشروعه الذي كان يهدف إلى ارتباط وثيق بين الساكونيين بزواج روبينا من أثيلستين ، قد قضى عليه الآن قضاء تاما لأن الطرفين المعنيين لم يوافقا عليه ، وكان

ذلك في الحقيقة حدثا لم يكن ليتوقعه لشدة كآفه بالقضية الساكونية ، وحتى بعد أن أفصح كلا الطرفين في علانية ووضوح أنه غير راغب في إمامه ، فإنه لم يستطع أن يقنع نفسه بأن ساكسونيين من دم ملكي يحجمان عن ارتباط ضروري أشد الضرورة لصالح الدولة العام ، ولكنه أصبح الآن أمراً واقعاً لا يرقى إليه شك ، وكانت رويينا لا تكف عن إظهار عزوفها عن أثيلستين ، ولم يكن أثيلستين أقل وضوحاً واستجابة في إعلان عزمه على عدم متابعتة لليدى رويينا بأفانين غزله ، وأمام هذه العقبات ، انهار عناد سيدريك الطبيعي حيث كان عليه وهو في نقطة الالتقاء أن يجذب إليها اثنين نافرين كلا منهما بإحدى يديه ، وانتهى به الأمر إلى أن شن هجوما عنيفا على أثيلستين سليل الملكية الساكونية الذي بعث إلى الحياة ، وأصبح في شغل عن كل شيء إلا في إشعال حرب لا هوادة فيها ضد رجال الدين شأنه في ذلك شأن سادة الريف في وقتنا هذا .

يبدو أن شهوة أثيلستين في الأخذ بالنار من دير القديس إدموند قد تقلصت وذلك بسبب طبيعته الطيبة الخاملة من ناحية ، ولضراعات أمه ، لا إيديث ، التي كانت كالفالبية العظمى من سيدات ذلك العصر ، شغوفة بالنظام الكنائسي من جهة أخرى ، فاكتفى بأن ألقى برئيس الدير ورهبانه في أقبية قصر كوتنجزبره ثلاثة أيام على أن يتناولوا من الطعام كفافه ، وكان من جراء تلك الفعلة الشنعاء أن أئذره رئيس الدير بحرمانه من رحمة الكنيسة ، ودون قائمة بالآلام المبرحة في الأحشاء والمعدة التي قاساها هو ورهبانه من جراء ذلك السجن العاشم الجائر الذي تعرضوا له .

وجد سيدريك أن عقل صديقه غارق في هذا الجدل ، وفي الوسائل التي يعدها للرد على هذا العدوان الذي اقترفه ضد الكنيسة حتى لم يعد به فسحة للتفكير في شيء آخر .

وعندما ذكر اسم رويينا ، طاب أثيلستين النبيل الإذن باحتساء قدح مليء بالبيذ نخب صحها ، وأطيب أمانيه في أن تصبح عما قليل زوجة لقريبه

ويلفريد ، وهذا أصبح أثيلستين في حالة باعثة على اليأس ، ولم يعد هناك نفع يرجى منه بعد ذلك ، أو كما قال وامبا في جملة تناقلتها الأجيال من عهد الساكسونيين إلى أيامنا هذه ، لقد كان ديكا لا رغبة له في القتال ، .

بقيت بين سيدريك ومين الهدف الذي كان المحبان يبغيان الوصول إليه عقبتان فقط : أولاهما ما كان في خلقه من عناد ، وأما ثانيتهما فهي كراهيته للأسرة المالكة النورماندية . تلاشى الشعور الأول شيئاً فشيئاً حيال حب ربيته له ، والفخار بشهرة ابنه ولم يكن في استطاعته أن يحمداً أمام الشعور به ، وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان من البواعث على إشباع غروره أن يحظى بشرف مصاهرة سلالة الملك ألفريد بعد أن اندثرت إلى الأبد أحقية سليل الملك إدوارد في هذه المصاهرة .

أما بغض سيدريك للأسرة المالكة النورماندية فقد تقوضت لأمرين . أولهما استحالة خلاص إنجلترا من الأسرة المالكة الجديدة ، وهو شعور ذو أثر عميق في خلق عاطفة الولاء بين الرعايا إزاء الملك الحاكم ، وثانيهما تلك الرعاية التي كان الملك ريتشارد يسبغها على سيدريك ، وجاء في مخطوط ، واردة ، أن سلوكه مع الساكسوني النبيل كان من الرقة بحيث إنه وافق على زواج ربيته رويانا من ابنه ويلفريد أوف أيفانوه قبل أن تنقضى سبعة أيام على بدء ضيافته في بلاط الملك .

تم زفاف بطلنا بعد موافقة والده على زواجه بصفة رسمية في حفل باهر بكاتدرائية يورك أعظم دور القداسة ، وحضر الملك بنفسه هذا الحفل ، وقد استطاع بما أسبغ من عطف على الساكسونيين المكرويين المحرومين من امتيازاتهم ، أن يمنحهم من أعذب الآمال في الحصول على حقوقهم ، أكثر مما كانوا يأملون فيها إذا ما قامت حرب أهلية .

أضفت الكنيسة على الحفل جميع المظاهر الرسمية التي تفيض بالأبهة والجلال ، والتي تعرف روما كيف تسبغها بطريقة تأسر اللب وتملك الفؤاد . حضر جيرث الحفل في حلة زاهية كوصيف لسيد الشاب الذي

قام على خدمته في وفاة ، وكذلك وامبا ذوالنخوة فقد حضر مزدان الرأس بغطاء جديد ، وبمجموعة زاهية من الأجراس الفضية ، فكما أنهما قاسيا معه أخطاره الجسام وبؤسه المضى ، فلهما الحق في مشاركته في مستقبله المزدهر البسام .

وبالإضافة إلى هذه الحاشية من أخصائه ، فقد تميز حفل الزفاف الرابع بحضور النبلاء من النورمانديين والساكسونيين على السواء ، وعم الابتهاج المطلق كل الطبقات الدنيا التي رأت في زواجهما بشيراً بنبي بمستقبل من السلام والوثام والتجانس بين شعبين امتزجا منذ ذلك العهد امتزاجاً كاملاً ، واندثرت الفوارق بينهما فلم يعد لها وجود ولا أثر . عاش سيدريك حتى رأى هذا التألف يشرف على أقصى مداه ، لأن الاضطراب المستمر في الاختلاط الاجتماعي بين الشعبين ، وكثرة الزيجات المتبادلة فيما بينهما ، قد جعل النورمانديين يخفون من غلواتهم والساكسونيين يقلعون عن جفوتهم ، ولكن اللغة المشتركة المعروفة الآن باللغة الإنجليزية ، فإنها لم تكن لغة البلاط في لندن ، ولم تظلم التفرقة العدائية بين النورمانديين والساكسونيين إلى غير رجعة إلا في عهد إدوارد الثالث .

في صبيحة اليوم التالي لحفل الزفاف السعيد ، أنهت . أليشا ، وصيفة رويانا إلى سيدتها أن آنسة ترغب في الثول بين يديها ، وترجو أن يكون حديثهما بغير شهود . عجبت رويانا أول الأمر وترددت ثم ثار فضولها فأمرت بإدخالها وانصراف الوصيفات . دخلت ، وفي مظهرها نبل وجلال وكان الخمار الطويل الأبيض الذي تتشع به ، يبرز من رشاقة قدها وجماله أكثر مما يخفى ، وكان سلوكها يتسم بالوقار الخالي من أى ظل للرهبة أو الرغبة في الاسترضاء ، ولما كان في طبع رويانا الإسراع إلى إجابة كل ذى حاجة إلى ما يطلب ، فقد نهضت وأرادت أن تقود زائرتها الحسنة إلى أحد المقاعد ، ولكن الغريبة نظرت إلى أليشا ، وأبدت مرة ثانية رغبتها في التحدث إلى الليدى رويانا وهما وحيدتان . لم تكذ أليشا تبرح القاعة

يخطوات متناقلة حتى فجئت لليدى أوف أيفانهو برؤية زائرتها الفاتنة تجثو على إحدى ركبتيها ، ورفعت يديها إلى جبينها ، ثم أحنّت هامتها حتى لامست الأرض ، وعلى الرغم من اعتراض رويانا ، إلا أنها ثمت طرف ثوبها الموشى ، فقالت العروس التي تولتها الدهشة :

— ماذا تعنين بذلك أيتها السيدة ؟ لماذا تحيينى تحية غير عادية

كبهه ؟ ،

فقالت رييكا وهي تنهض وتعود إلى سلوكها العادى المتسم بالوقار :

— ، لأنى بذلك قد أرد لليدى أوف أيفانهو — بطريقة مشروعة ودون الخشية من أى زجر — دين الوفاء والعرفان بالجليل فيما أنا مدينة به لويلفريد أوف أيفانهو . أنا — وأستميحك عنراً عن الجراءة التى دفعت بي إلى أن أحبيك تحية بلادى — اليهودية التعسة التى خاطر زوجك بحياته من أجلها ضد تلك المخاطر الجسام فى ساحة تمبلستو ، . فقالت رويانا :

— ، إن ويلفريد أوف أيفانهو أيتها الآنسة لم يرد فى ذلك اليوم إلا جزءاً طفيفاً مما هو مدين به لك جزاء رعايتك التى دأبت عليها عندما كان يقاسى جراحه وآلامه . خبرينى ، هل تبقى شىء يستطيع هو أو أنا أن نقدم لك فيه عوناً ؟ ، . فأجابت رييكا فى رصانة :

— ، إنى لا أرغب فى شىء إلا أن تحملى إليه تحية وداعى التى تفيض عرفاناً بالجليل ، .

فقالت رويانا وهي لا تكاد تتمالك دهشتها من هذه الزيارة العجيبة :

— ، سترحلين عن إنجلترا إذن ؟ ، .

— ، سأرحل عنها يا سيدتى قبل أن يعود هذا القمر إلى الظهور مرة أخرى . إن لأبى أخا ينعم بعطف محمد أبى عبد الله ملك غرناطة . سذهب إلى هناك ونحن على ثقة من أننا سنحصل على الأمن والحى من المسلمين ذوى القلوب المؤمنة ، . فقالت رويانا :

« ألا تجدون هذا الحمى في إنجلترا؟ إن لزوجي حظوة لدى الملك -  
والملك عادل وكريم ، . فقالت ريكا :

« إنى لا يخامرني في ذلك شك أيتها السيدة ، ولكن الشعب  
الإنجليزي شعب شرس ، دائب الشجار مع جيرانه أو فيما بينهم ، وهم على  
استعداد دائم لإغماد سيوفهم في أحشاء بعضهم البعض . ليست هذه البلاد  
كان آمن لإقامة بنى قومي .

إن « إفرام ، حمامة برية لا قلب لها ، و « إيساشار ، كادح مرهق  
ينحني بين حملين ، وإسرائيل لا تستطيع أن تأمل في الراحة بسبب تجوالها  
الدائم ، وحلولها في أرض المعارك والدماء ، وهي محاطة بالأعداء الذين  
يتربصون بها الدوائر ، . فقالت رويانا :

« ولكن ايس هناك ما تخشيه أيتها الفتاة ، ثم أتبعته وهي تنهض  
« إن من رعت أيفان هو ساعة مرضه ، لا يمكن أن تخشى شيئاً في إنجلترا  
حيث ستيبارى الساكسونيون والنورمانديون فيمن سيكون له السبق في  
تكريمها ، . فقالت ريكا :

« إن قوالك جميل يا سيدتى ، وأجل منه مقصدك ، ولكن هذا  
مجال فهناك هوة فيما بيننا محظور على كائنا اجتيازاها بسبب نشأتنا وعقيدتنا .  
وداعاً ! ولكن لى قبل أن أنصرف مطلباً أرجو أن تستجيبى إليه . إن  
خمار زفافك يخفى وجهك ، فهل لك أن ترفعيه حتى أرى القسمات الجميلة  
التي طبقت شهرتها الآفاق ؟ ، فقالت رويانا :

« إنها ليست من الجمال بحيث إنك تكلفين مثل هذا الكلف برؤيتها  
ولكن بما أنى أهفو إلى مثل هذا من زائرتى ، فهأنا تلك أرفع خمارى ، .

وعند هذا رفعت نقابها ، فعلت وجهها حمرة شديدة من جراء شعورها  
بجمالها من ناحية ، وإحساسها بالخفر من ناحية أخرى حتى سرت الحمرة  
في وجنتيها وجيدها ونحرها ، وتضرج وجه ريكا بالحمرة أيضاً ، ولكنه



كان شعوراً لوقته تسيطر عليه عواطف أشد قوة ، فتشع الاحمرار من وجهها ببطء كالسحابة الحمراء التي يتبدل لونها عندما تغيب الشمس وراء خط الأفق ، وقالت :

— « إن الطلعة التي تفضلت بإظهارها لي يا سيدتي ستبقى في ذاكرتي ما حييت . إن الوداعة والطيبة تكمنان فيها ، وإذا كانت لمسة من الكبرياء أو غرور الدنيا قد تخالط مثل هذه القسمات الجميلة ، فكيف لنا أن نقوى على زجر مخلوق من طين يحمل بعض سمات خالقه ؟ سأ تذكر هذه الطلعة البهية أبداً ، وأحمد الله على أنى أترك منقذى النبيل وهو على رباط ب... ، ثم توقفت عن الكلام واغرورقت عينها بالدموع فأسرعت إلى تجفيفها ، وأجابت على أسئلة رويانا اللهفة :

— « إنى بخير يا سيدتي ، بخير ، ولكن قلبي يسقط بين أضالعي كلما تذكرت توركويلستون وساحة تمبلستو . وداعاً ، بقى شيء واحد على أن أفعله وهو أقل واجباتي أهمية . أقبلي منى صندوق الجواهر هذا ، ولا تجفلي لمراى ما فيه ، .

فتحت رويانا الصندوق الصغير المطعم بالفضة ، فوجدت عقداً وقرطين من الماس ، يتبين بجلاء أنها حلي بالغة القيمة ، فقالت لها وهي تعيد الصندوق لايها :

— « هذا محال . لن أجتريه على قبول هدية بمثل هذه القيمة ، .  
فقالت ريكا :

— « ومع ذلك فاحتفظي بها يا سيدتي ، فالقوة والمقام الرفيع ، والسلطان ، والنفوذ كلها بين يديك ، أما نحن فلا نملك إلا الثراء ، وهو مصدر قوتنا وضعفنا معا . إن قيمة هذه الدى وعشرة أمثالها لن تكون بذات أثر في تحويلك عن أبسط رغبة ، من رغباتك ، وعلى هذا

فأهدية بالنسبة لك عديمة القيمة ، وهى لى أقل من ذلك بكثير . لاتدهينى .  
أعتقد أنك تنظرين إلى بنى قومي نظرة سوء كما يعتقد السوق فى بلادكم .  
أيطوف بخيالك أنى أقيم وزناً لتلك القطع الحجرية البراقة ، إذا ما قيست  
بحرقى وخلاصى ؟ أم أن أبى يراها أنها أثمن من شرف ابنته الوحيدة ؟  
أقبلها يا سيدتى فلا قيمة لها عندى ولا وزن ، لأننى لن أرتدى حلياً  
بعد اليوم ، . فقالت رويانا وقد أدهشتها اللهجة التى نطقت بها ريبكا  
كلماتها الأخيرة :

— أنت إذن تعسة . أوه ، ابقى معنا ، سيحولك إرشاد الرجال  
المقدسين عن ناموسكم الخاطىء ، وسأكون أختاً لك ، . فقالت ريبكا  
ونفس الحزن الهادىء يشع من صوتها العذب وملاحها الجميلة :

— كلا يا سيدتى ، هذا محال . لا أستطيع أن أبدل من ديانة آبائى  
وكانها رداء لا يتفق والمناخ الذى يروق لى الإقامة فيه . إن ذلك الذى  
سأكرس له حياتى القابلة سيكون نصيرى وعزائى إذا قت على تنفيذ  
مشيئته ، . فسألتهارويانا قائلة :

— ألدبكم إذن أديرة تذبون الانزواء فى أحدها ، ؟ فأجابت ريبكا :

— كلا يا سيدتى ، ولكن منذ عهد إبراهيم وحتى الآن ، نهضت  
نسوة خيرات من بنى قومي وكرسن أفكارهن للسماء ، وأعمالهن لنواحي  
البر بين الناس . إنهن يرعين المرضى ، ويطاعمن ذوى المسغبة ، ويفرجن هم  
المكروبين ، وستكون ريبكا من بين أولئك النسوة . قولى ذلك لبعلك  
إذا ما طاب له أن يسأل عن مصير تلك التى أنقذ حياتها ، .

إن فى صوت ريبكا هزة لم تستطع السيطرة عليها ، ورقة فى نبراتهما ربما  
أفصحت عن أكثر مما تريد الإفصاح به ، فسارعت إلى وداع رويانا قائلة :

— وداعاً فليسبح عليك الإله الذى خلق اليهودى والمسيحى كليهما

عميم بركاته . الرج الذى ستطلع بنا عن هذه الديار ستشتد قبل أن نصل إلى الميناء .

ثم خرجت من القاعة بجلى عجل تاركة رويننا فى دهشة وكان كل مامر أمامها ليس إلا رؤيا نائم . وروت الساكسونية الجميلة لزوجها الحديث العجيب الذى دار بينها ، والذى خلف فى ذهنه أعمق الأثر .

عاش أيفانهو مع رويننا فى سعادة مقيمة لأنها كانا مرتبطين ببعضهما البعض برباط الحب المبكر الذى أنمته ذكرى العقبات التى حالت دون زواجها حيننا من الدهر ، ومع ذلك فإنه لمن الفضول المفرط أن تتساءل عما إذا كانت ذكرى جمال رييكا وسمو خلقها لم يراودا ذهنه أكثر مما قد تقرره حفيدة الفريد الجميلة .

لقد كان أيفانهو مبرزاً فى خدمة ريتشارد فأنعم عليه بالكثير من أمارات الرضا الملكى ، وكان على وشك أن يرتقى إلى أسنى المراتب لولا الموت المبكر الذى دم قلب الأسد الباسل أمام قصره شالوز ، بالقرب من « ليموج » . وبانتهاء حياة ذلك الملك الكريم — ولكنه مندفع عجول — تلاشت جميع المشروعات التى كان طموحه وكرمه قد أقامها . ونحن نستطيع بقليل من التحريف أن نقول فيه هذه الأبيات التى نظمها الدكتور « جونون » فى شارلس ملك السويد .

اتهى مصيره إلى شاطئ غريب ؛

وقلعة صغيرة ويد متواضعة ،

وتخلى عن الاسم الذى شحب لذكره وجه الدنيا

لينمق عظة أو يزين إحدى القصص .



**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامه**



دار الهنا للطباعة ت : ٧١٢٢٧

حصريات مجلة الابتسامه

Exclusive

For

[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)